جمال عبد الناصر رجل العرب

من الميلاد إلى الرحيل

د. عبدالوهاب محمد الزنتاني

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

جمال عبد الناصر رجل العرب

(من الميلاد إلى الرحيل)

جمال عبد الناصر رجل العرب

من الميلاد إلى الرحيل

تأليـف

عبـد الوهاب محمد الزنتانى

الحائز على جائزة ابن سينا

فى الأدب من أجل السلام



بطاقة فهرسة

فهرسة اثناء النشر اعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشئون الفنية

الزنتاني، عبد الوهاب محمد.
جمال عبد الناصر رجل العرب (من الميلاد إلى الرحيل)/ تاليف عبد الوهاب محمد الزنتاني. - ط ١ - القاهرة. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨ .
٥١٢ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك: ١ - ٠١٠ - ٤٦٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - مصر - الملوك والحكام. ٢ - عبد الناصر، جمال، ١٩١٨ - ١٩٧٠
أ - العنوان ٩٢٣,١٦٢

الكتاب : جمال عبد الناصر رجل العرب.

المؤلف : عبد الوهاب محمد الزنتانى

رقم الإيداع : ٢٠٠٨٥ / ٢٠٠٨

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الترقيم الدولى : 978 - 977 - 463 - 010 - 1

التوزيع **دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع**
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع: ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت: ٢٥٩٠٢١٠٧ - ٢٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم: ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت: ٢٢٧٣٨١٤٢ - ٢٢٧٣٨١٤٣

www.darghareeb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اشهد أنى أكتب بصدق وإيمان من

أجل الحق ولا شئ غيره إنك سميع عليم ،،

إهداء

إلى تلك السيدة الفاضلة (تحية) زوج الرئيس جمال عبدالناصر (ست البيت) المصرية الطيبة رحمها ورحم رفيقها الله وأسكنهما فسيح جناته ، آمين .

وإلى كل ناصرى آمن بالمبادئ والمثل النبيلة التى ناضل ومات من أجلها جمال ، إلى من لم يتغير أو يتخلى أو يرتد عن تلك المبادئ من أجل وظيفة أو مال أو خشية حاكم ظلوم أو تغير ظروف حياتية في ظل مستجد دولى ومحلى رهيب نأمل ألا يستمر في حياة أمتنا العربية ، إلى كل من يؤمن بأن دولة الوحدة العربية لابد أن تقوم ، والنضال من أجلها لابد أن يستمر بحيث يصير رأس الإنسان العربي مرفوعا تحت راية العروبة من الخليج إلى المحيط كما قال جمال عبدالناصر (ارفع رأسك ياأخى فقد زال عهد الظلم والطغيان) ، وعهد الظلم والطغيان يتمثل الآن في بوش وإدارته وأزلامه في حملتهم على العروبة والإسلام، هؤلاء الذين بلغ بهم ظلمهم إلى الإساءة والتجنى على رسولنا الكريم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، وعلى كل من هو مسلم في بلادهم وخارجها مما يسقط ادعاءهم بما يسمونه حقوق إنسان وديموقراطية ويؤكد أنهم لا يؤمنون إلا بالمصالح والنهب والعدوان ...



تحية وترحما على روح هذه السيدة الفاضلة التى تركها زوجها بمشيئة الله مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وهو فى قمة مجدة وجهده من أجل كل المصريين وكل العرب ، وكانت أكاليل الغار التى أضفاها عليه شعبه تتمثل فى ذلك الوداع الذى (ربما) لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإنسانية بأنشودة تقول (الوداع الوداع يا جمال يا حبيب الملايين– ابكى ابكى يا عروبه عللى بناك طوبه طوبه) .

تحية لهذه السيدة التى حفظت وحافظت على العهد ولم يمر زمن طويل حتى لحقت برفيقها إلى جنة الخلد إن شاء العزيز القدير ...



مقدمة تاريخية

الوحدة العربية هاجس وأمل

جمال عبد الناصر

مقدمة تاريخية
الوحدة العربية هاجس وأمل جمال عبد الناصر

من المعروف أنه لم يحدث أن حظيت قضية فكرية أو سياسية أو اجتماعية في التاريخ العربي كلة بمثل الاهتمام الذي حظيت وتحظى به فكرة القومية العربية في العصر الحديث والمعاصر إذ صدرت في موضوعها مئات الكتب وآلاف المقالات والأبحاث والندوات على امتداد الوطن العربي شارك فيها كتاب وأدباء وفلاسفة وشعراء وساسة، ولا يستغرب ذلك الاهتمام ، فالحديث عن الأمة العربية والنضالات والأمجاد العربية محبّب إلينا نحن العرب لما لأمتنا من رصيد مشّرف في ذلك ، والبحث في واقع وتاريخ أمتنا يشغل بالنا جميعا ، والقومية العربية كدعوة لوحدة الأمة ليست سوى محاولة من تحقيق ذاتنا وتجديد أمجادنا كمجموعة كبرى في المحيط الدولى والإنسانى ، ولعله يمكن القول إننا في الحقيقة ندعو لتحقيق الوحدة العربية في الوطن العربي الكبير دون أن نقوم بعملية تحليل لوضع المجموعات التى يتشكل منها سكان هذا الوطن في كل اتّساعه ، ولهذا كنا نقع في خطأ بل في سلسلة أخطاء تجعل دعوتنا وكأنها مجرد أمل بعيد المنال في حين أن الواقع يفرض علينا ضرورة إقامة الدعوة على أساس سليم ركيزته الواقع الحّي المعاش وغايته محددة بقدر الإمكان وليس على أساس المواقف العاطفية والاندفاع في حماس غير مجد ودون تفكير عملى عميق فيما سبق وما هو آت ، ولقد استمر دعاة الوحدة العربية يرفعون شعار القومية العربية منذ عشرات السنين ويعملون على توكيده وترسيخة في نفوس الناس ، ويدعون تبعا لذلك إلى إقامة دولة عربية واحدة يرفرف علمها على أرض العروبة كلها من الخليج إلى المحيط ، حتى صار كل عربى يتمنى أن يتحقق هذا الحلم الكبير وحتى إن أشد الناس تمسكا بالإقليمية أصبح يتحّرج من مهاجمة فكرة القومية العربية ولا يتجرأ على

مناهضتها إلا سرا ومن خلف ستار وباختلاق العراقيل في شكل تساؤلات لبلبة الرأى العام والتخويف منها بين الناس ، ولهذا فإن الدعوة لم تعد في حاجة من الوحدويين إلى التمادى في التبشير بها وإلا كانوا كالواعظ الذي ينصح جمهور المصليين بالصيام دون أن يفطن إلى أنهم لولا إيمانهم به فرضا ما كانوا صائمين ، ولقد تخطّت الدعوة القومية فيما أرى مرحلة التبشير وأصبحت اليوم في حاجة أشد إلى بحث وسائل التطبيق وتنفيذ الفكرة على الصعيد العملى ومن غير أن تتعرض التجربة لنكسات قد تحدث ردّة تكون أخطر على الدعوة وعلى الجماهير العربية من مؤامرات القوى المضادة جميعا .



إن تنفيذ الفكرة يقتضى من الداعية أسلوبا في طرحها يختلف كليا عن ذلك الذي يحتاجه الباحث عن إمكانيات تطبيقها الفعلى ، فالأول غايته الإقناع بها من طريق إبراز المحاسن والتركيز على الفوائد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية مع نفى كل ما يمكن أن يسبب الشك فيها أو النفور منها تمسكا بالإحساس الوطنى الإقليمى والخوف من فقدان بعض الامتيازات أوالمميزات ، والداعية هنا محق في أن يفعل هذا وهو كذلك مطالب به في نفس الوقت ، أما الثانى فإنه إن سلك نفس الأسلوب وسار على نفس المنوال فقد يكون خدع نفسه وخدع الناس معه وكان بذلك معول هدم أكثر منه داعية بناء ، ولهذا فإن على داعية الوحدة في شكلها الجديد أى في مرحلة التخطيط والتطبيق أن يدرس واقع العالم العربي وكل تناقضاته وتعقيداته وأن يركّز على تلك المسائل التى تعوق قيام الوحدة وتلك التى ربما تسبب لها مشاكل خطيرة بعد قيامها (كما حدث في السابق) ومن المستحسن أو الواجب أن تثار وأن تبحث بعمق تلك المسائل في محاولة البحث لها عن حلول جذرية منذ البداية ، وباختصار شديد فإن على داعية الوحدة في المرحلة الجديدة هذه أن يسلك بها الطريق الملائم لها في تطوّرها الذي دخلته أو وصلت إليه ، على اعتبار أن العالم قد تغير كثيرا، وهذا التغيّر يفرض

ويفترض مواقف جديدة وأساليب أيضا جديدة ومقبولة ، وإذا نحن لم نأخذ في الحسبان تلك التغيرات وتبعا لها تلك المصالح الإقليمية والدولية التى قد تتأثر بوحدة الأمة (على الأقل من منظور غير عربى) فإننا سوف نصطدم بصخرة صلداء لا يمكننا تعديها بل ربما أعادتنا إلى وضع التشرذم والتقاتل (مثلما يحدث الآن في العراق وفلسطين والسودان ولبنان والصحراء الغربية والصومال مع الأسف من تقاتل ، والبلدان العربية الأخرى من تشرذم الخ) والمقصود من هذا تقدير مصالح الآخرين وفى حيّز ولو ضيق نسبيا وتقدير مصالحنا الوطنية والقومية ذلك أن الوطن العربي بالتحديد الجغرافى المعروف يشغل مساحات كبيرة جدًا من جنوب غرب أسيا وسائر الشمال الإفريقى بامتداد الجنوب وسطا وشرقا وإلى حد ما غربا حتى يتصل بمنطقة السافانا وشمال هضاب الحبشة ، وهكذا فإن مساحته الكلية تربو على اثنى عشر مليونا من الكيلومترات المربعة ويضم في داخله مجموعات من البشر ليست كلها من أصل واحد علما بأن حالة الوطن العربي هذه ليست الفريدة أو الشاذة إذ لا يوجد في العالم تقريبا بلد يضم أناس من جنس واحد صاف أو أصل واحد حتى بين تلك الأجناس الصفراء مثل الصين ، على أن الشعب الصينى يغلب عليه الجنس الهانى ولكنه ليس في مجمله من ذلك الجنس ويذكر أن حوالى ٩٤ %منه ينتمون إلى قبيلة الهان وهذه في الواقع ربما أكثر نسبة في العالم وبين كل الشعوب ، وهؤلاء البشر في الوطن العربي كانوا ومازالوا في سائر مجتمعاتهم يتحدثون اللغة العربية وإن وجدت لبعضها لهجات خاصة بها ، وشعوب هذا الوطن الكبير وإن كانت تدين في أغلبها بالدين الإسلامى فإن فيها جماعات تعتنق المسيحية دينا وجماعات أخرى ماتزال على وثنيتها الأولى ولابد لنا لهذا وذاك من مراعاة كل ذلك ونحن ندعو إلى قيام وحدة تشمل كل الوطن العربي ، ولقد سبق أن تعرضت هذه المناطق وهؤلاء الناس ومازالت تتعرض لتأثير فكرى حضارى من مصادر مختلفة الجذور والبيئات ، ونتج عن ذلك التأثر اعتناق قطاعات واسعة من الأمة العربية مذاهب ومعتقدات فلسفية واقتصادية وسياسية شتى نبتت وترعرعت واستكملت تكوينها في الغرب والشرق الأوربيين .



ولقد ربط بعض دعاة الوحدة العربية بين ما اعتنقوا وبين الدعوة للوحدة العربية فكان ذلك عاملا آخر من عوامل التعقيد الذي عاق ويعوق تحققها حتى الآن ، ويعيش العالم العربي في وحدات إقليمية يشعر كل من فيها بكيانه المستقل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا في حين تتقارب إمكانيات كل منها ثقافيا وهى ليست متقاربة في تعدادها السكاني ولابد أن يشعر سكان كل إقليم من هذه الأقاليم بالذاتية الصغرى له ، ومن الطبيعى أن يخشى الحكام في هذه الأقاليم، وهم بطبيعة الحال مسؤولون أمام شعوبهم عن سلامة تلك الذاتية أو على الأقل هكذا يعتقدون وبالتالى يخشون الانصهار في الوحدة الكبرى حتى إن تحدّثوا أو فاوضوا، وعلى الرغم من إيمانهم بالقومية وبضرورة قيام الوحدة فإنهم إنما ينطلقون من مضمون تلك الذاتية الصغرى بسبب ما تأصل في أعماقهم من المجتمع الإقليمى الذي عاشوا وترعرعوا فيه ، (ويذكر مؤلف هذا الكتاب أحداث وظروف ومحادثات الوحدة بين بلاده ومصر خلال السبعينيات وكيف أن كل هذه العراقيل قد ظهرت جليّة وكانت سببا في عرقلة مشروع الوحدة بين البلدين ومازالت حتى الآن وذلك هو الشئ الذي يجعله ينبه إلى تلك العقبات وهو يقدم لكتاب يتناول : حياة رائد القومية العربية الرئيس جمال عبدالناصر ويأمل تداركها مستقبلا) ومن المؤكد أنه لا يتعالى عن هذا الواقع إلا قلّة قليلة وهى لندرتها فى العالم العربي لا يفهمها الآخرون ، ففى الواقع المعيشى الاجتماعى والنفسى للأفراد والجماعات يظهر للوهلة الأولى أنه من غير الممكن أن تقبل مجموعة ما الانصهار في مجموعة أكبر منها وربما أفقر ومن الوهم كذلك أن تنطلق الدعوات من خلال الأمل وحده مهما كان كبيرا وأن يتم التغاضى عن الواقع الذي يشد المجتمعات إليه (صغيرة كانت أو كبيرة غنية أو فقيرة) وهذا عامل آخر يعيق تحقيق الوحدة العربية الكبرى يضاف إلى سواه ويحتاج إلى كثير من التدبّر ولا نقول التضحية لأن التضحية لابد أن تتهيأ لها ظروفها المقنعة ، إن العالم العربي يعيش اليوم في دوامة تتجاذبه تيارات فكرية ومذاهب ودعوات متباينة وعديدة في ظل التطور الإعلامى والعلمى والتكنولوجى السريع (الفضائيات والإنترنت والفاكسات والهواتف المنقولة مسموعة ومرئية

الخ) مما جعله في المجمل قلقا لا يستقر على حال ، أفراده يعيشون في ضياع وتشتت فكرى ، ومجتمعاته تتحرك في أكثر من اتجاه ينقصها التصميم والإدراك الحقيقى لما يجب أن يكون، وحكوماته تتصارع فيما بينها إقليميا على أمور لا تحقق للأمة العربية شيئا كأمة ذات تاريخ حافل بالأمجاد عندما كانت موحّدة الكيان تشع منجزاتها على عالم ذلك العصر ، هذه هى الصورة الحقيقية التى نرى العالم العربي عليها الآن من غير إطار ولا رتوش أو تزويق ، وهى صورة واقعية وليست نظرة متشائمة متحاملة أو ناقمة على العرب والواقع العربي ، ذلك أنها في حقيقتها صورة حية متحركة تعكس التفاعلات العنيفة التى تجتاح هذا الجزء من العالم وهى إن دلّت على شئ فإنما تدل على بداية يقظة حقيقية ورغبة أكيدة في العمل من أجل تحقيق الذات ، وهذه اليقظة جاءت من سبات عميق ران على شعوب الأمة العربية دهرا انعدمت فيه الحركة الفكرية وتلاشى فيه الإحساس بالذات السياسية نتيجة تسلط الغير على الحكم (وهذا الغير قد يكون أجنبيا أو محليا مغروسا مأجورا) واستمرت فيه الأمة بسبب الجهل والسيطرة مع السلبية والتواكل والكسل وهي حالة واقعة أوجدها وأذكاها حين يقظة العرب و تزاحم الحضارات وتصادم الثقافات وتضاد المذاهب وتباين العقائد وتعاكس الإتجاهات وهو الوضع الذي تعيشة الأمة العربية نتيجة توّزع الوطن الواحد إلى أقاليم عدة وظهور حكومات في تلك الأقاليم أوجدت لها كيانات مستقلة وذاتيات متميزة رسخّت الروح الإقليمية في نفوس سكانها بحيث أصبح مفهوم الوطن محددا بحدود الإقليم ، وفى هذا الخضم من المذاهب والعقائد والاتجاهات الفكرية والنزعات الإقليمية تنطلق الدعوة إلى الوحدة العربية فتتجاذبها شتى الاتجاهات وتضفى عليها المذاهب العقائدية من عندها مفاهيم خاصة وتقيّدها باشتراطات معينة وتقف منها الطوائف الدينية التى تمثل الأغلبية بمعتقدها في داخل الوطن العربي كما يقف منها ذوو الجنس المختلف في الأمة العربية مواقف معينة تتفق ومصالحهم فيها أو ضدها وتتخذ الحكومات العربية تجاهها سياسات مختلفة متباينة بسبب أوضاعها الداخلية وعلاقاتها الخارجية الموجهة لها والمتحكمة فيها فتبدو الدعوة إلى الوحدة

العربيــة بهذا ولكل هذا (وهى الحقيقة السهلة البسيطة السافرة) فكرة غامضة ينقصها الوضوح وتتراءى للبعض وكأنها خيال أو أمل بعيد صعب التحقيق ، ونصل بهذا إلى أنه إذا كانت اللغة هى الوعاء الحاوى لفكرة الأمة فإن ألفاظها هى مرآتها العاكسة ، ولذا فإن الحديث عن الفكر القومى إنما هو رهن بوضوح المعانى الدقيقة المتصلة به كمفهوم والمرتبطة به في أى من تلك اللغات وهذا الأمر يكشف لنا كما سنرى عن اختلاف جوهرى بين معنى القومية في المفهومين العربي والأوربى إذا نحن قمنا بهذه الدراسة اللفظية المقارنة لتحديد المفاهيم لغويا وفكريا لارتباطه الشديد بالفكرة التى نعتنقها وضرورة تنقيته من الشوائب التى تلتصق به نتيجة ما دخل عليه من طريق الترجمة وأصحاب الفكر الشديد التأثر بالمفاهيم الأوربية وحدها أو مفاهيم الذين يعيشون مشدودين إلى فكر التغريب أو ما غرسه المستشرقون الأوربيون في ثنايا كتب أحداث التاريخ، واصطلاح القومية في حد ذاته جديد على اللغة العربية وهو يبدو في الفكر العربي المعاصر واضحا لا غموض فيه والواقع أنه ليس كذلك ، والباحث في معنى اصطلاح القومية بتعمق وعلى أساس دراسة مقارنة بين ما يقابل هذا المصطلح في اللغات الأخرى لا يجده كذلك ، ولاسيما إذا ما ربط بينه وبين مفردات تلك اللغات ، إن الأمة غير القوم سواء في أصلها اللغوى أو في مدلولها ذلك أن الأمة في اللغة العربية متعددة المعانى حيث ورد في القرآن الكريم لهذه الكلمة عدة معانى مثلا ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (سورة النحل: ١٢٠) وكذلك نرى في كلمة القومية ذاتها إذ نجد أن القومية من قوم في اللغة العربية ، والقوم تعبير يطلق على الجماعة من الناس كثروا أو قلّوا ، وقوم الرجل هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه في أصل واحد، وبهذا المعنى أصبحت القومية في اللغة العربية هى المبدأ الذي يجمع العرب كقوم على أهداف مشتركة وغايات سياسية محددة ، ولفظ قومية يأتى في المعاجم اللغوية الحديثة مقابلا في اللغة الإنجليزية مثلا لكلمة (ناشيوناليزم) وهذه جاءت من كلمة (نيشن) والكلمة الثانية هذه تقابلها في اللغة العربية لفظة (الأمة)

وليست اللفظة المشتقة من (القوم أو القومية) وهذه الترجمة هي ما اتفق عليه اللغويون العرب لأن الأصل المنسوب إليه هو الأمم وليس الأمة ولا يوجد مثل هذا في قوم أو قومية ، وضرورة أخرى فإنه لا يمكن أن يقال (قومه) لأن المعنى سيصبح حينئذ غير المقصود من الكلمة التى استعيرت وهى (أمة) وكلمة قوم أو قومية لا تعطى المدلول المرادف لكلمة (نيشن) ولذا فلا مندوحة من استخدام الأصلين ، القومية في مقابل (ناشيوناليزم) والأمة في مقابل (نيشن) وللدلالة على جماعة قليلة من الناس جاء في القرآن الكريم ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ (سورة القصص : ٢٣) كذلك للدلالة على الشعب أو القوم جاء في القرآن الكريم ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ (سورة الرعد: ٣٠) وللدلالة على مجموعة الشعوب أو الأقوام التى اعتنقت دينا واحدا أو آمنت بعقيدة واحدة جاء في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٩٢) وجاء في القرآن الكريم من أجل الدلالة على الجنس الواحد ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (سورة الأنعام : ٣٨) ثم ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٠) أما الدلالة على العقيدة أو التقاليد أو العادات فقد نص القرآن الكريم ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف : ٢٣) وتأتى الدلالة على الزمن بنص القرآن الكريم ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ (سورة هود : ٨) كذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (سورة يوسف : ٤٥) هذه المعانى والدلالات جاءت في القرآن الكريم ولقد رأينا أن من معانيها ما يقابل كلمة قوم وترجمة كلمة (نيشن) قد لا يقصد بها معنى الأمة وإنما قد يعنى الدولة وهذا معنى تتضمنه كلمة (نيشن) في اللغة الإنجليزية بينما لا يعنى كلمة قوم ، وإضافة إلى

هذا فإن استخدام المترجم العربي لكلمة أمة في مقابل كلمة نيشن وكلمة قومية في مقابل كلمة ناشيوناليزم كان لأكثر من ضرورة فبالنسبة إلى القوم وقومى ممكنة مع انعدام اللبس بغيره من المعانى بينما لو نسب الأمة لقيل (أممى) وهذا يوقع في الالتباس بالنسبة إلى (الأمية) أى الجهل وعدم القدرة على القراءة والكتابة كما أنه يعد خروجا على القاعدة اللغوية ، وكذلك لو قيل أممية فسوف يحدث الالتباس في مفهوم أشمل لأن الأصل المنسوب إليه هو الأمم وليس الأمة ولا يوجد مثل هذا في قوم أو قومية، وضرورة أخرى فإنه لا يمكن لغة أن يقال قومية لأن المعنى سيصبح حينئذ غير المقصود من الكلمة التى أريدت وهى أمة ، وكلمة قوم أو قومية لا تعطى المدلول المرادف لكلمة نيشن ولذلك فلا مناص من استخدام الأصلين في مقابل ناشيوناليزم ونيشن وهذا الأمر يشكل أول تعقيد في مفهوم القومية لدى الباحث العربي فالقومية عند الأوربى تحمل معنى الدولة بينما القومية في اللغة العربية لا تحمل هكذا معنى ولا تدل عليه وتلك تمثل إشكاليات في الفهم وفى الترجمة ولابد من التأكيد على أن القومية تعنى الوحدة العربية أى الدولة العربية الواحدة ، هكذا هو مفهوم القومية عندنا نحن العرب أهل لغة الضاد وهو بمفهوم آخر لدى الأقوام واللغات الأخرى ، وهذه تعنى أن القومية في مفهومنا هى الوحدة، أى الوطن الواحد والدولة الواحدة وما عدا ذلك يصبح ضربا من ضروب تضييع الوقت ولغوا تردد صداه الوديان ، ولكن من خلال تجارب سابقة قلنا إنه علينا أن نحدد كيف يمكن أن تكون هذه الدولة الواحدة والأمة الواحدة ، ومن البديهى أن نقول : إننا أصحاب لغة واحدة وأهل أرض واحدة وتاريخ واحد وربما أمل مشترك فرق بيننا الاستعمار في الأرض وترسّخت لدينا كيانات أسميناها دولا وصار المواطنون يتسمون بأسماء تلك الكيانات ، ومن هنا فإن البحث لابد أن يتناول الكيان والمواطن ، وتتواتر علينا عدة أسئلة نأخذ منها ثلاثة :

أولا : هل تمحى الحدود وتنتهى الكيانات بقرار وجرّة قلم ؟

ثانيا : هل ينتهى انتماء وارتباط الإنسان بذلك الكيان أو البلد بمجرد فتح الحدود وإلغاء الإجراءات ؟

ثالثا : ما الذي سيحدث بفتح الحدود وإلغاء الإجراءات البوليسية وغيرها ؟

❁ ❁ ❁

نذكر أن الحدود قد وجدت بجرة قلم وإن لم يكن بأيدينا وإنما بيد الإنجليزى (بيرسى كوكس سنة ١٩٢٢م) أى عندما خط بقلم أحمر كان في يده الحدود بين العراق والكويت ، ومنذ إذ صار لكل مغامر غربى أن يخط أى حدود وأى مسافات وأن يقسّم ويمنح أو يمنع كيفما شاء أو شاءت له رغبة بلاده (ومن المعروف أن سياسة خلّط واقسم في أى مكان وفى ظل أى حكم إنما الغرض منها خلق المشاكل والعداوات) ومع الحدود التى اختطّوها نصّبوا حكاما (ملوك ورؤساء وأمراء ومشايخ وسلاطين الخ) وهؤلاء فرضوا إجراءات وقيودا أشد وأقسى في ترسيخ تلك الحدود باستعمال الشرطة والجيوش وكل وسائل المنع والإيقاف ثم عملوا أعلاما وأناشيد وإذاعات لإبلاغ القاصى والدانى بالأسماء والألقاب والنعوت ، ولأن هؤلاء الحكام جاء بهم الغرب الاستعمارى فقد صاروا موالين له فإذا لم يشركوه معهم في البلاد على شكل شركات ومشاريع وقواعد ظلوا معتمدين دائما على نجدته لهم كلما أحسّوا بأن تلك الحدود قد تمس أو تواجه أى تهديد ، وبطبيعة الحال فإن تلك الحدود قد ضمّت كيانات متمثلة في النظم والألقاب والعائلات والقبائل والمصالح ومن هنا فهى لابد أن تبقى ولو على جماجم كل الناس ولا يجب تحديها أو تعديها إلا باتفاق أو وفاق وهذا لا يمكن أن يحدث حتى لو تحدّثوا عنه ، وما يجرى فى العراق الآن هو نفس ما كان قد عملة الإنجليزى المدعو (بيرسى كوكس سنة ١٩٢٢م (وإن كان الذى يعمله الآن أمريكى اسمه (بوش الابن) ولقد سمعت هذا اليوم وأنا اكتب هذه المقدمة أن مجلس الشيوخ الأمريكى قد صوت على تقسيم العراق إلى ثلاث (قطع) سوف تصبح بعد زمن قد لا يطول ثلاث دول !! وقالوا إن قرار هذا المجلس غير ملزم ، وهم بهذا يخادعون .. هذا أولا .

وثانيا : فإن المواطن العربى ذكرًا كان أو أنثى صغيرًا أو كبيرًا صار منتميًا لهذا الكيان ومرتبطا به بوهم الحفاظ على مصالحه الخاصة أولا وبسبب ما فرض عليه من إجراءات من طرف الكيانات الأخرى قريبة أو بعيدة ثانيا ، وحتى لو

تحت أمامه بعض الحدود فهو أمام أولئك الناس المتسمين للبلد الذي فتح حدوده يعد أجنبيا بالواقع والقانون ويمكن طرده في أى وقت أو حتى حبسه ، أما الذي يحدث بفتح الحدود وإلغاء الإجراءات دون احتياط أو تنظيم وعناية فهو الفوضى وانعدام الأمن وانتشار المرض والفساد بمعنى أنه حسب التعبير اللغوى العربي (اختلاط الحابل بالنابل) على اعتبار أنه إجراء شاذ لمواجهة وضع شاذ وبذلك فإن النتيجة عكسية مؤثّرة على مطلب الوحدة التى تمثل القوة والأمن وتوفر الفرص المتساوية لكل أبناء الوطن الواحد والتوزيع العادل للدخل القومى على امتداد الوطن العربي، وعلى ضوء ما يتوقع في حالة الوضع الشاذ الذي قلنا إنه يتمثل في فتح الحدود ، نسأل ، هل نعارض الوحدة أو هل نكفر بها ونقاوم حتى مجرد التفكير فيها لا باعتبارها هاجسا وأملا وإنما ضرر وألم ؟ الجواب بالتأكيد ، لا ، إذ لا أحد يمكن أن يلغى ذاته ويتنكّر لأمته ووطنه الكبير ، وهنا فإن سبلا أخرى لابد أن تتبع ، كأن نقول :

أولا : نحن جميعا عرب وندرك غايتنا ونعى قوميتنا (وهما افتراضا ، الاستقلال والوحدة) ولكن هذه يمكن أن يقال أنها بديهية ولا جديد فيها لأن الدول قائمة والحدود باقية ، إلا أننى أعتقد أن الحدود تمثل القطر الذي يجب اعتباره خصوصية داخل الإطار القومى الواحد ، بمعنى أنه أحد أقطار الوطن الكبير، والذين يقيمون فيه مواطنون عرب ولاءهم الوطنى لابد أن يكون متمما للولاء القومى لا متناقضا معه ، ذلك أن الولاء الوطنى عامل نفسى ومصلحى ، وعندما يجد الإنسان أن مصلحته مصانة ولا تضار بل تتعزز فإن ذلك يجعله نفسيا قابلا للوضع الجديد والأشمل ليس فقط على مستوى الفرد وإنما على مستوى الكل ، كأن تتقدم الخدمات الصحية وينمو الإنتاج الزراعى والصناعى ويتوطّد الأمن والاستقرار وينهض مستوى التعليم ويترقّى البحث العلمى ، بحيث يمثل هذا الوطن الواحد الكبير ركنا بارزا في التقدم العالمى (كما كانت أمتنا العربية في السابق، الخ) أى أن المواطن حينئذ لابد أن يحس بمزايا وفوائد الوحدة ليس

كشعار فقط ولا لموقف سياسى بحت وإنما في معاشه اليومى ومصالحه الآنية وسمعته في الخارج بين دول وشعوب العالم كمواطن من بلد يساهم في رفاهية العالم وتقدمه ، وعادة ما تمثل المصلحة الوطنية أو الشخصية دافع قوى للقبول بأى وضع جديد وربما ذلك القول الذي يشبه (النكتة) يمثل خير دليل على ما نقول ، إذ يذكر أن سودانيا كان يسير في مظاهرة مؤيدة للوحدة وكان يهتف قائلا (مصر والسودان هته واهده) وفجأة اكتشف أن محفظة نقوده قد فقدت فصار يهتف قائلا (مصر والسودان هتتين) كذلك فإن أولئك الذين تآمروا على أول وحدة عربية في التاريخ العربي المعاصر وقاموا بفصل سوريا عن مصر لم يجدوا ما يبرروا به تلك الجريمة إلا القول : بأن مصالح المواطنين السوريين قد أضيرت وأن المصريين سيطروا على الإقليم الشمالى (أى على سوريا) مع أنه لم يكن خافيا على أحد مقدار الفائدة التى جناها ذلك القطر من الوحدة وبها ..

ثانيا : أن يحدث التوازن في النمو بحيث لا يكون نمو بلد على حساب الآخر ولا يحرم مجتمع قطر بمنح القطر الآخر في ظل الوحدة إلا ما زاد عن هذا القطر لينتفع به ذاك وبموافقة أهله علنا ورسميا ..

ثالثا : أن تشرّع قوانين وحدوية مع الإبقاء على القوانين السارية لبعض الوقت وإلى أن يحس الناس بفوائد الوحدة والاندماج على أن توحّد مناهج التعليم والعقائد العسكرية ويؤخذ بأفضلها تدريجيا ..

رابعا : أن يسمح بالتملك والإقامة والعمل وأن توحّد الجوازات والبطاقات الشخصية ويتاح التنقل بحرية بين الأقطار دون تعسّف في المنع أو الإجبار على الانتقال كذلك لا يجب إحداث تغييرات مفاجئة في الوضع القائم لدى أى قطر من أقطار الوحدة خصوصا في الجانب الاقتصادى أو الوظيفى بالنسبة للناس وعلينا أن نستفيد من تجاربنا السابقة ذلك أن فرض القوانين الاشتراكية على سوريا بعد الوحدة (رغم كل مزايا تلك القوانين وفوائدها) كان أحد الأسباب الذي دفع بالمتآمرين إلى تنفيذ مؤامرتهم بنجاح حيث لاقوا بعض التأييد وكذلك تكليف

المشير عبدالحكيم عامر رحمه الله بإدارة ذلك الإقليم وهو (لا يعرف عنه شيئا) ونقل عبدالحميد السراج الذي كان قد اتهم بالتسلط والدكتاتورية في سوريا ربما فقط لأنه كان متشددا في آداء واجبه القومى بالاعتماد على أجهزة الأمن وما كان من الرئيس جمال عبدالناصر إلا أن نقله من سوريا ليقيم في مصر وتكليفه بمهام أخرى وربما كان عبدالناصر بذلك يسترضى بعض الأطراف في الإقليم الشمالى ، أما عبدالحكيم عامر فقيل إنه كان كسولا غير مدرك للمصلحة العامة في ذلك الإقليم المضطرب دائما وربما يصدق على هذا الوضع القول الشائع (أن الواجب أساس الأخلاق والمصلحة عماد السياسة) وبين السرّاج وعبدالحكيم عامر ضاع الواجب والمصلحة في سوريا ، كذلك يذكر أن الرئيس شكرى القوتلى عندما وقّع مع الرئيس عبدالناصر على وحدة البلدين قال لعبدالناصر (الآن سلمتك خمسة ملايين زعيم) وعلى أى حال فإن انفصال سوريا أو فصلها قد فتح ثغرة كانت سببا في الكارثة التى مازلنا نعانى منها ..

هذه لمحات سريعة وربما هناك أمور أخرى ساعدت على إفشال تلك الوحدة التى كانت أملا يدغدغ المشاعر في تحققه وأدمى القلوب عند فشله ، وبطبيعه الحال لابد أن هناك قوى خارجية كان يهمها ويمثل شغلها الشاغل إفشال الوحدة ، وأذكر أننى قرأت في مذكرات رئيس وزراء إسرائيل (بن غوريون) قولا يوحى بأنهم كانوا حجر الزاوية في مؤامرة إفشال الوحدة وشن الحروب على مصر جمال عبدالناصر ، قال (إن اسرائيل لا يمكن لها أن تسمح بظهور محمد آخر في شخص عبدالناصر كى يوحّد العرب) والحقيقة أن تآمر أولئك النفر من الضباط السوريين ما كان يمكن أن ينجح لو لم يجد في الأرض خصوبة لذلك التآمر ولابد أن التاريخ سيلعنهم وكذلك كل العرب كما لعنوا (أبورغّال دليل أبرهة قبل الإسلام) وكما صاروا يلعنون الشيطان بعد الإسلام ، أما أمتنا العربية بكل ما وقع عليها وما أحاط بها من عنت وتآمر واستعمار وغزوات كانت تقاتل متّحدة ضد الخطر على كيانها ، فقد قاتل المسيحيون المصريون مع جيش عمر بن العاص وقاتل المسيحيون الغساسنة في سوريا ضد نصارى الروم، وكان المسلمون متسامحون حتى في نعت تلك الغزوات الغربية فقالوا إنها غزوات الفرنجة كما

جاء في كتاب (أسامة بن منذر) المعنون (الاعتبار) بينما كان النصارى يقولون: إنها الحرب الصليبية يقودها البابوات وأول من قال عنها أنها حرب صليبية كان: (مكسيموس مورنورد سنة ١٠٩٩م) وموقف أولئك وهؤلاء الباباوات لم يتغّير أبدا، منذ ذلك الوقت إلى البابا الحالى (بيندوتكس الرابع عشر) وتبقى الوحدة العربية الكاملة هاجسا وأملا إلى أن تتحقق بإذن الله وعزائم الرجال، ولأنها كانت كذلك بالنسبة لجمال عبدالناصر أردنا أن يكون هذا الكتاب سيرة حياة هذا الرجل الذي أعطى بعد الله العروبة الضياء ، وأذكر أن جزءا مما سيرد في الكتاب إنما هو من خلال علاقة شخصية مع هذا الزعيم قبل أن يتوفاه خالقه عن عمر يناهز الثانية والخمسين سنة ناقصة ثمانية أشهر وتسعة أيام وساعات ..



وأنا أجزم وعن يقين أن جمال عبدالناصر ستخّلد ذكراه كل أعماله ومنجزاته ومواقفه النضالية في الداخل والخارج كما خلّد التاريخ الكثير من الزعماء والرواد في الفكر والأدب والسياسة والعلم والنضال الثورى ، رجالات أفذاذ مثل (غاريبالدى في إيطاليا وبسمارك في ألمانيا وماو تسى تونج في الصين، الذين حققوا وحدة شعوب بلدانهم) ومثل (ديجول في فرنسا وتيتو في يوغسلافيا وبن بيلا في الجزائر وعمر المختار في ليبيا الذين مثّلوا قدرة وإرادة شعوبهم في مقاومة العدوان وتحرير بلدانهم ، وغير هؤلاء كثير) وأرى بكل تجرد وموضوعية أن جمال عبدالناصر يقف في مستوى عمر بن عبدالعزيز في الطهارة ونقاء السريرة ونظافة اليد، ومثل صلاح الدين في النضال من أجل العزّة والكرامة المتمثلة في الوحدة العربية مع بعض الفوارق التي يجب أن يحتكم إليها في سياقها التاريخى ، أى الزمان والمكان والظروف والأدوات الخ ، وأقول إننى عندما أكتب أعتمد غالبا على ما عايشت وشاهدت وسمعت عن قرب خلال مرحلة هامة من حياة أمتنا جرت فيها أحداث مثيرة ومدويّة محليا وإقليميا وعالميا وهى جزء من تاريخ الماضى القريب ، وأدرك بداية أنه لا أحد معصوم من الخطأ ، ومن تلك الأحداث التى عايشتها أروى تفاصيلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية لأننى شغلت خلالها مناصب سياسية وتنفيذية ودبلوماسية متمسكا بعقيدة

فكرية ودينية، ملتزما بمصلحة وطنية وقومية من أعماقى أرى فى مخالفتها كفرا ، ولهذا عندما قررت أن أكتب عن جمال عبدالناصر وعهده صممت أن ألتزم الحقيقة والصدق تاركا الحكم للقارئ الكريم على فترة عاشها جمال عبدالناصر وعشنا أغلبها معه ابتداء من ١٥ يناير ١٩١٨م إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م ، وأخلص إلى القول فى هذه المقدمة أن هناك ما لعبدالناصر وهناك ما عليه ، وأعتقد أنه لا مؤيد أو معارض عليها خصوصا بعد أن توفى هذا الرجل وأصبح جزءا من تاريخ الشعب المصرى ، ولابد أنه يحوز مكانا بارزا فى هذا التاريخ ، وما لعبدالناصر أو عليه يتمثل فى الأمور التالية من وجهة نظرى كمعاصر لفترة حكمه وقريبا منه أحيانا :

١- كان جمال عبدالناصر أول رئيس مصرى حقيقى ولم يكن هناك قبله (خلال آلاف السنين) إلا حكاما من الفراعنة والأباطرة والخلفاء والأتراك الخ ..

٢- وكان أول حاكم يلتف حوله المساكين والفقراء من الفلاحين والعمال فى مصر وينحاز إليهم بالكامل حيث كان يدغدغ مشاعرهم ويعبر عن إحساساتهم وآمالهم وهم غالبية الشعب المصرى .

٣- وكان أول حاكم يحظى بالتمجيد والأضواء والهتاف حتى تبح الحناجر عن نية وإخلاص على مدى قرابة عقدين من الزمان رغم كل محاولات الإساءة والتشكيك من طرف قوى عالمية وحتى خلال هزيمة جيشه فى حرب سنة ١٩٦٧م وتلك أول مرة فى التاريخ أن تزيد الهزيمة رفعة لحاكم كان مسؤولا عنها (ربما) لأنه أعلن تحمل المسؤولية كاملة بشجاعة وعلنا أو لأن شعبه كان يرى فيه القادر على المواجهة والنهوض من الكبوة .

٤- وكان أول وآخر حاكم عربى طاهر السريرة نقى الضمير نظيف اليد صادق الإيمان ولم ينل شيئا من متاع الدنيا على عكس غيره ممن ينهبون ثروات بلادهم ويعيثون فسادا فى الأرض .

٥- وكان أول حاكم ألهب مشاعر الجماهير العربية فى كل مكان من المحيط الى الخليج عندما حقق أول وحدة عربية فى التاريخ المعاصر .

٦- وكان أول حاكم فى العالم الثالث يقول لا للاستعمار ، لا للأحلاف ، ولا للسيطرة الأجنبية، وهو أول من تجرأ على التعامل مع الاتحاد السوفيتى رغم أنف الإمبريالية ، وأول من طرق

بعنفوان ودراية مجالات التصنيع بكل أنواعه ومستوياته (التسليح بمختلف أنواعه) من الكتلة الشرقية وعلى رأسها الاتحادي السوفيتي رغم الحصار الأمريكي وفرض منع بيع القطن المصري والتهديد بفرض حصار بحري وجوي على بلاده .

٧- وكان أول حاكم يقول (ارفع رأسك ياأخي فقد زال عهد الظلم والطغيان) وبذلك حرر الفلاح المصري من الإقطاع وجعل الملايين يتملكون الأرض التي كانوا خدما فيها في ظل الإقطاع .

٨- وأول حاكم جعل مداخن المصانع ترتفع متشابكة كسنابل زرع خصيب في كل أرض الكنانة تديرها أيدي الفنيين والعلماء والمهندسين والعمال المصريين بجدارة وقد بلغ عددهم قرابة سبعة ملايين .

٩- وكان أول حاكم تحدى غطرسة الولايات المتحدة الأمريكية ومن يقف خلفها عندما أمم قناة السويس من أجل إقامة السد العالي العظيم الذي وفر لمصر كل أسباب الاستقرار والتقدم من كهرباء وزيادة في الرقعة الزراعية رغم الحرب التي شنت على مصر وعليه بسببها والتي ظهر منها منتصرا (ولو سياسيا) عندما وقف على منبر الأزهر الشريف ليعلن (حنحارب) وكان الشعب المصري لا يحصل على أكثر من ثلاثة ملايين دولار سنويا من ريع القناة التي كانت تحتكرها بريطانيا وغيرها فصار الآن يديرها بواسطة أبنائه ويحصل منها على بلايين الدولارات إضافة الى فرض سيادته الوطنية على قناته وأرضه [1] كما أنجز مشروع السد العالي الذي يقف الآن شامخا كعنوان على العزّة والكرامة .

١٠- وكان أول حاكم ينحاز إلى صفوف العمال والفلاحين عندما منع بالقانون الفصل التعسفي وجعل للعمال نصيبا في الأرباح وحقّا في الإدارة وعضوية مجالس الشركات والمؤسسات وقرر مجانية التعليم من الابتدائي إلى الجامعي ومنع أسلوب الفوارق الاجتماعية التي كانت تحول دون ابن الفلاح والعامل من دخول الكليات والجامعات وقرر حق العمل لكل خريج الخ ..



---

(١) كان دخل القناة هذه السنة ٢٠٠٧م قد بلغ أربعة بلايين دولار وسبعمائة مليون وقد أعلن ذلك رسميًا يوم أمس الموافق (٢٩ يوليو) من خلال الإعلام المصري .

لقد كان جمال عبدالناصر زعيما وقائدا ومرشدا نزيها متفانيا وكان عظيما فى صوابه وفى خطئه (وجّل من لا يخطئ) ولا يمكن القول أن من يعمل لا يخطئ ومن يحاط بأعوان لا يستغلون ، كذلك لا يمكننا أن نقول : أن عبدالناصر لم يخطئ وأن أجهزته لم تتجاوز القانون بل إنها كانت هى القانون ، ولكن كيف كانت تلك الأخطاء ولماذا ؟ ..

١ – لقد كانت الإعدامات خطأ فى مسيرة الثورة رغم أنها فى البداية كانت انقلابا أبيضا وما حدث مع الملك فاروق أقوى دليل على الابتعاد عن إراقة الدماء .

٢ – ولقد كانت معاملة زعامات البلاد (حزبيين وسياسيين) على شكل خط المسطرة خطأ ففى تاريخ البعض منهم أعمال صادقة خيّرة .

٣ – وكان وضع كل الخيوط فى يد جند من العسكر (ضباط بمختلف الرتب) خطأ رغم أدوارهم فى التغيير .

٤ – وكان العمل السياسى بحزب واحد وحيد (هيئة التحرير ، الاتحاد القومى ، الاتحاد الاشتراكى) رغم أهمية المراحل التى جاءت فيها خطأ لأن الحزب الواحد الذى تنشئه الحكومة لا يجمع إلا المصفقين والانتهازيين غالبا .

٥ – وكان ضرب الإخوان المسلمين بالجملة (رغم ما حدث من بعضهم) خطأ بل وأكبر من الخطأ إعدام كبار السن منهم مهما كانت الأسباب كحالة الشيخ (سيد قطب) .

٦ – وكانت محاولة تطبيق المنهج الاشتراكى بواسطة إداريين انتفاعيين وضرب كل عناصر اليسار خطأ مهما كانت شطحاتهم .

٧ – وكان تطبيق الإصلاح الزراعى بعد الوحدة فى سوريا دون معرفة لوضع الناس وعقلياتهم وقيّم مجتمعهم وظروف حياتهم خطأ مميت قضى على أمل عظيم.

٨ – وكان استئساد أجهزة المباحث والمخابرات وتجاوز رجال هذه الأجهزة لكل القوانين والأعراف بممارسة أبشع أنواع التعذيب خطأ وجريمة فى حق عبدالناصر كما هى فى حق المواطنين .

٩ – وكانت ممالاة بعض القادة والتغاضى عن أخطائهم كما هو الحال مع عبدالحكيم عامر خطأ مدمر إذ لا يجوز أن تحكم العاطفة العمل الوطنى .

١٠- وكان حدوث الانفصال فى سوريا وتدمير أول أمل عربى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م خطأ ليس فى حق مصر بل فى حق كل الأمة العربية ، وعار فى أعناق أولئك النفر الذين قاموا به ..

١١- وكانت قمة الأخطاء تتمثل فى هزيمة سنة ١٩٦٧م وهى أم الكوارث فى تاريخ جيش كان يحمل أكاليل الغار كما هى ضربة أريد بها تحطيم عبدالناصر ومشروعه القومى ..



ومع كل هذا يظل عبدالناصر عظيما حيًا أو ميتا حيث أنه قد رسّخ دورة التاريخى وطنيا وقوميا وعالميا، وسيبقى له حيزاً فى تاريخ أمتنا العربية لن يصل إليه أحد فى وقت قريب ، وسيذكره الناس جيلا بعد جيل ، بكل منجزاته وأخطائه شامخا (بالسد العالى ، بقناة السويس ، بمئات المصانع ، بتطوير التعليم فى الأزهر الشريف ، بمجانية التعليم والصحة، بالأرض للفلاح والمكاسب للعامل .. إلخ .

وأخيرا أقول وقد عزمت بإذن الله على تأليف كتاب عن جمال عبدالناصر (ربما) يكون هو الأخير بعد مسيرة جاوزت نصف قرن فى مجالات الكتابة والصحافة وقد ألفّت وترجمت قرابة خمسين كتابا والعديد من المسرحيات والروايات فإننى أرجو أن أنهى هذا الكتاب الذى أراه من أوجب واجباتى عن رجل عرفته وأحببته قبل أن أغادر هذه الدنيا راضيا قانعا ..

ومن الله التوفيق

د- عبدالوهاب محمد الزنتانى

بلدة الزنتان في ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧م

ملاحظة ،، كان بينى وبين الأستاذ محمد مصطفى بازامه رحمه الله رحمة واسعة اتفاقًا على الاشتراك فى إعداد كتاب عن حياة الرئيس جمال عبد الناصر وتم الاتفاق على عنوان الكتاب (رجل العرب ، جمال عبد الناصر ، من المولد إلى الرحيل) ولكن الأستاذ بازامه رحل إلى جوار ربه حتى قبل أن ننتهى من مقدمة الكتاب وحتم علىّ أن أكمل المشوار إذا أعاننى الله وفاء بعهد والتزام بمبدأ ، ولذلك واصلت المهمة والتوفيق من الله ،،

الفصل الأول

١- المولد والنشـــــأة .

٢- الوضع العائلى .

٣- الوضع الاجتماعى .

الفصل الأول

١ – المولد والنشأة
٢ – الوضع العائلى
٣– الوضع الاجتماعى

المولد والنشــأة :

١ – ولد جمال عبدالناصر حسين كما يولد أى إنسان وعاش أعظم من كل الرجال في عصره ، حياته حافلة بالمعارك والنضالات بصرف النظر عن اختلاف الآراء والاجتهادات في معاركه ونضالاته (وجلّ من لا يخطئ) ولد في شارع القنواتى رقم ١٨ بحى يسمى باكوس في الإسكندرية يوم ١٥ يناير ١٩١٨م والده عبدالناصر حسين كان قد ولد سنة ١٨٨٨م في قرية بنى مر بصعيد مصر وهكذا فهو أى جمال من عائلة صعيدية فلاحية نشأ في أحضان عائلة محافظة (وهذا ديدن أهل الصعيد) ولكنها لم تكن مستقرة عكس فلاّحى مصر في ذلك الوقت حيث إن جمال لم يكمل الثلاث سنوات من العمر حتى فتح عينيه في أسيوط عندما نقل والده عامل البريد عبدالناصر حسين إلى بريد مركز أسيوط ، وعندما بلغ جمال سن الخامسة كان في منطقة تسمى (الخطاطبة) وهى تبعد حوالى خمسة وثلاثون كيلو مترا شمال غرب القاهرة وألحق هناك للمرة الأولى بالدراسة فيما يعرف وقتئذ (بالكتّاب) أى أن الدراسة لم تكن نظامية منهجية (طريقة التعليم الدينى) وهذا يسمى في المغرب العربي (الجامع) بينما يسمى في المشرق (كتّاب) وفى الكتّاب هذا يتم التعليم على يد فقيه يجلس القرفصاء وأمامه الطلبة كذلك يجلسون على حصير مطروح على الأرض يحفظون سورا من القرآن الكريم ، وعندما بلغ الطفل جمال الثامنة من العمر ألحق بمدرسة ابتدائية في القاهرة ، وفى هذه

المدينة الكبيرة أقام مع عمه خليل حيث توفيت فى هذا الوقت والدته وكان لها ثلاثة أولاد غير جمال على أن جمال لم يطل به المقام في القاهرة بعد وفاة أمه حتى انتقل إلى الإسكندرية ليلتحق بمدرسة هناك ويقيم مع خاله إلا أنه سرعان ما عاد مرة ثانية إلى مدرسته وخاله في القاهرة منتظما بالدراسة إلى أن أتم المرحلة الابتدائية وبلغ من العمر أربع عشرة سنة ونظرا لعدم استقرار الموظفين الصغار في مكان واحد فقد نقل والد جمال إلى السويس ونقل عمه إلى حلوان وفى هذا الوقت تزوج والده عندما استقر في السويس لبعض الوقت في حين التحق جمال بمدرسة داخلية في منطقة حلوان التى تقع بضاحية من القاهرة وبعد سنة أعيد عمه إلى القاهرة مما هيأ الفرصة لجمال أن يعود مرة ثانية إلى القاهرة مقيما مع عمه ومستأنفا الدراسة بها ثم انتقل إلى مدرسة ثانوية بالأسكندرية مقيما مع أخواله وحدث أنه بعد فترة قصيرة نقل والده من السويس إلى القاهرة ولهذا طلب منه أن يرجع ليقيم معه في القاهرة وينتظم في الدراسة الثانوية فلبى رغبة والده والتحق بمدرسة النهضة المصرية التى أتم فيها مرحلة دراسته الثانوية وكان عمرة ثمانية عشرة سنة وفى هذا الوقت قال والده إنه قد تهيأ لوظيفة حكومية لكن القدر أراد غير ذلك .



صورة الطالب جمال



أثناء فترة الدراسة الابتدائية ، الطالب جمال يتوسط والده وعمه (واقفا)

الوضع العائلى :

لم يكن الوضع العائلى مستقرا معيشيا ولا مريحا اقتصاديا فرب العائلة موظف بسيط يتعرض فى وظيفته لكثير من التنقلات فى الخدمة ، من قرية بنى مر إلى الإسكندرية إلى منطقة خيل العربان إلى خطاطبة إلى دمنهور إلى الإسكندرية مرة أخرى ثم إلى القاهرة الخ ، وزواج لم يدم طويلا من امرأة فى الإسكندرية تدعى فهيمة محمد حماد بعد إنجاب عدد من الأطفال كان أولهم جمال ثم زواج

آخر مع تعدد الأطفال (خمس من الزوجة الأولى وست من الثانية) وعدم الاستقرار في الواقع يعود إلى عبدالناصر حسين كموظف في مصلحة البريد هذا العمل الذي يخضع لإجراءات التنقل بين وقت وآخر ومن مكان إلى غيره بعيدا عن العاصمة أو قريب ، ولقد بدأ تنقل عبدالناصر حسين من قريته (بني مر) إلى الأسكندرية سنة ١٩١٧م ثم إلى أسيوط سنة ١٩٢١م ثم إلى قرية قطبطة سنة ١٩٢٣م ثم إلى أسوان سنة ١٩٢٨م فالرجوع الى الأسكندرية سنة ١٩٢٩م وأخيرا إلى القاهرة سنة ١٩٣٠م ويظهر هنا جليا عدم الاستقرار في أي بلد لأكثر من سنتين عدا القاهرة حوالى ست سنوات ولم يحدث الاستقرار في مدينة أو قرية ريفية وتبع هذا التنقل عدم الاستقرار بالنسبة للطفل جمال على الرغم مما في هذا التنقل من فوائد وبعض العيوب منها أن الطفل أو الشاب في هكذا حالات تنمو لديه الهوية الوطنية والقومية أي الأفق الأوسع الاجتماعي ، ولقد حدث أنه في آخر مراحل هذه التنقلات توافقت مع ظهور حركة سياسية نشطة متمثلة في حزب ذي أفكار ليبرالية ذلك هو حزب الوفد الذي كان ينادي بالوحدة الوطنية والاستقلال في ظل نظام برلماني وكان هذا خلال أو قبيل أن يكمل الطالب جمال مرحلة الدراسة الثانوية وكانت البلاد ترزح تحت ظل وضع اجتماعي رهيب وسيطرة إقطاعية أجنبية ربما لا مثيل لها في العالم وقتذاك أي في بداية سنة ١٩٣٦م ثم التحاقه بالكلية العسكرية وبعدها نقل إلى منقباد في السودان لثلاث سنوات ١٩٣٩- ١٩٤٢ كأنما عدم الاستقرار صار قدره انتقالا من بداية رحلة والده عبر البلاد من بني مر إلى أكثر من مدينة وقرية ، ونعرف من تاريخ العائلة أن عبدالناصر حسين بن خليل بن سلطان قد التحق بمدرسة قبطية في أسيوط وأنه حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٣م وهذا يعني أنه قد شهد بداية الحرب العالمية الأولى وعاصر حكم المندوب البريطاني اللورد كرومر ثم ثورة سنة ١٩١٩م ونضال مصطفى كامل والأفغاني ومحمد عبده وعرابي وسعد زغلول وغير هؤلاء كما عاصر ظهور الأحزاب الوطنية بمؤسساتها الإعلامية مثل جريدة المصري وجريدة القاهرة واللواء والسياسة والأخبار وكوكب الشرق والبلاغ

وروزاليوسف وكانت هذه الصحف بلا استثناء تشن حملات على الفساد وتدافع عن المصالح الوطنية وتشحذ الهمم للدفاع ضد الاستبداد وظلم الاستعمار الإنجليزى والمرتبطين به وتطالب بالاستقلال الوطنى على الرغم من إنها صحف حزبية أنشأتها قوى بورجوازية وكان من أبرز كتابها مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وأمين الرافعى ومحمد حسين هيكل ومكرم عبيد وأحمد حافظ وعبدالقادر حمزة وفاطمة اليوسف ومحمود سليمان ومحمد صبحى أبوعلم ومحمد التابعى وأحمد نجيب الهلالى وكوكبة أخرى من الرجال الذين ألهموا الحركة الوطنية الشعبية طريق النضال الذى صاحب وأعقب ثورة سنة ١٩١٩م ذلك النضال والتضحيات التى أدت إلى تحقيق معاهدة سنة ١٩٣٦م مع بريطانيا والتى جاءت نتيجة لنضالات الشعب المصرى خلال القرن الثامن عشر وهى رغم بعض إيجابياتها لم تلتقى بالكامل مع ما كان يهدف إليه ذلك النضال الطويل والتضحيات الجسام كتلك التى حدثت فى سنوات (١٨٧٩ و ١٨٨٨) ولا حتى القليل من أهداف ثورة سنة ١٩١٩م لكنها على أى حال فتحت الأبواب لنضالات أكثر وأهداف أهم مثل :

اولا : الاعتراف لمصر بالسيادة على أراضيها وحرية التصرف فى شئونها الداخلية مع قيد على السياسة الخارجية ينص على عدم التعارض مع سياسة بريطانيا .

ثانيا : اعتراف بريطانيا بالسيادة المصرية على قناة السويس مع شرط اعتبارها ممرا دوليا للمواصلات وحق بريطانيا فى إبقاء قواتها فى منطقة القناة .

ثالثا : انسحاب القوات البريطانية من القاهرة والإسكندرية وإبقائها فى قناة السويس بشرط أن تقوم الحكومة المصرية ببناء سكنات للقوات البريطانية فى الأماكن التى تحددها هناك مع إقامة وإعداد طرق بين القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والإسماعلية والسويس حسب مواصفات بريطانية .

رابعا : إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ويسمح لمصر بأن تحصل على عضوية عصبة الأمم فى مايو ١٩٣٧م .

خامسا : السماح للقوات المصرية بالعودة إلى السودان بعد أن كانت قد سحبت سنة ١٩٢٤م مقابل اتفاق ببقاء القوات البريطانية فى مصر لمدة عشرون سنة إلى أن تكون هذه قادرة على حماية القناة وتقوم بريطانيا بتدريب الجيش المصرى وتزويده بالمعدات مع وجود بعثة عسكرية بريطانية بأفرع الجيش المصرى ..

كانت هذه أهم ما جاء فى تلك المعاهدة وقد جرت محاولات وطنية من أجل زيادة أعداد أفراد وضباط الجيش المصرى وتسليحة رغم القيود التى تضمنتها المعاهدة منها فتح أبواب الكلية الحربية للشباب القادرين على دفع تكاليف الدراسة وقدرها ستون جنيها سنويا علما بأن مرتب خريج الجامعة لم يكن يتجاوز ثمانية جنيهات فى الشهر وهذا شرط مانع ثم كانت محدودية المعاهد والمدارس الثانوية التى تؤهل الطالب للالتحاق بتلك الكلية وهذا كان أيضا المانع الثانى بينما كان المانع الثالث يتمثل فى شرط الانتماء العائلى والاجتماعى .

الوضع الاجتماعى :

الوضع الاجتماعى فى مصر قبل الثورة (ربما) لم يكن له مثيل فى العالم إذ لم يكن للمواطن العادى (عامل وفلاح) أى قيمة ذلك أن الباشا (أى باشا) كان يملك الأرض ومن عليها ووسيلته الوحيدة فى التعامل مع هؤلاء هى (الكرباج) وكان أولئك الباشاوات وهم غالبا غير أصلاء فى البلاد (شركس وبلغار وألبان ويونان وترك إلخ) ولم يكن للفلاح حتى شبر من أرض ولا كانت للعامل أى حقوق قانونية أو إنسانية ، وكان الأول ينام مع الجاموسه بينما ينام الثانى على البلاطة وكلاهما خالى الوفاض لا شئ على الجسد ولا طعام فى البطن ولا أنين يسمع من كبير أو صغير ، حتى إن نكتة كانت دائرة بين الشفاه تقول : (إن أحد الفلاحين عضّه كلب الباشا فتجرأ على الشكوى إلى القضاء ، وحدث أنه فى يوم النطق بالحكم تجمع عدد كبير من الفلاحين أمام المحكمة انتظارا للنطق بالحكم ذلك أن هذه الحادثة كانت الأولى من نوعها حيث تشجّع فلاح برفع صوته أمام الباشا ، وعندما خرج الفلاح من دار المحكمة هتف الفلاحون سائلين ، ماذا حدث يا حمدين ؟ قال ، لقد أثبت محامى الباشا للمحكمة أننى أنا الذى غض كلب الباشا) .

ولقد كانت ثورات الفلاحين والعمال ضد الضيم والظلم الاجتماعى وبشكل خاص ضد ملاّك الأرض تتكرر لكنها لا تجد آذانا صاغية وبالتالى تضيع ويستمر البؤس عاما والبذخ خاصا لأن أولئك الملاك الإقطاعيين يسيطرون على كل أجهزة وإدارات الحكومة ويحولون دون أى تغيير اجتماعى مهما كان صغيرا ، كما كانت السيطرة الاحتكارية بين يدى الرأسماليين المرتبطين بالإقطاع مما جعل الظلم الاجتماعى يزداد ويتأصل على الرغم من أن البلاد نظريا تعيش تحت نسائم الديموقراطية متمثلة فى الدستور والبرلمان (مجلس النواب) وحكومة مسؤولة أمام هذا البرلمان وصحافة خاصة يفترض أنها حرة وتعكس الرأى العام وأحزاب متنافسة على إرضاء الأجنبى وملك فاسد تحكمه نزواته وبعض المرتزقة ، بينما الواقع يقول أن هذه كلها ديكورات لأن الكلمة العليا كانت للإقطاعيين والرأسماليين وفوقهم وقبلهم الوجود الأجنبى (قوات وسفراء وقناصل وشركات) لها كل السلطة الفاصلة فى الأمور والمتفصلة فى الدولة ولا شئ يحول دون تحقيق مصالحها ورغباتها ، وكان الفقير يزداد فقرا ويثقل كاهله الجهل والإهمال من طرف حكومة تسمى برلمانية قامت سنة ١٩٢٤م ...



الفصل الثانى

١- قيام الثورة .

٢- إعلان المبادئ الستة .

٣- بداية المسيرة وحدوث الخلافات .

الفصل الثانى

١- قيام الثورة .

٢- إعلان المبادئ الستة .

٣- بداية المسيرة وحدوث الخلافات .

على ضوء هذه التطورات والأحداث كان لابد من رجل يقوم بالدور التاريخى لإنقاذ البلاد والعباد ، شخص يعى أسباب الانهيار فى البلاد وأسباب الظلم والقهر الاجتماعيين السائدين فى المجتمع ويواجه بقوة غطرسة المال والسلطة، وكانت القوة الوحيدة فى هكذا حالة لابد أن تكون منظمة فى شخوصها وقادرة فى قوتها ولم يكن هذا موجودا فى غير المؤسسة العسكرية (الجيش) بحيث يحدث التغيير الذى يخلّص الناس وينقذ البلاد ، وليكن انقلابا أو ثورة ، وكان الخيار بين الاثنين ليس سهلا (الثورة وتحدث بالشعب وهذا لم يكن ممكنا بسبب من فشل انتفاضات وثورات سابقة أجهضت وقمعت وتم القضاء على أغلب عناصرها - قادة وأفرادا -) والانقلاب وأداته موجودة بل هى ربما جاهزة ولا تحتاج إلا إلى فئة تقتحم الخطر وتقوم بالمغامرة ، وكان هناك نفر من الرجال (الضباط) ممن أدركوا الواقع وأحسّوا بمعاناة الفقراء والمساكين وشاهدوا عن كثب جر البلاد إلى الضياع تحقيقا لمصالح فئة ظالة إما عميلة أو هى غريبة عن البلاد ، والذى احتاجه التغيير هو فئة من الرجال حفظوا الدرس جيدا وأعدّوا العدّة للتغيير وركوب المخاطرة والانقضاض على إعداء البلاد (إقطاعيون ورأس ماليون وعملاء ومرتزقة) رغم وجود قوات وقواعد عسكرية أجنبية كانت مهمتها حماية الوضع القائم وحراسة مصالح بلادها المتمثلة فى استغلال موارد وإمكانيات البلاد حتى العظم ، كان جمال عبدالناصر ورفاقه من ضباط الجيش قد وعوا الدرس

جيدا وقرروا بضربة واحدة القضاء على نظام أعمدته قائمة على مساندة ودعم الأجنبى ، وكانت مقدمات حدوث الثورة قد تجلّت فى المبالغة بإقامة الحفلات الصاخبة من جانب الملك وبطانته ووزرائه تلك التى يشار إليها فى وسائل الإعلام بكثير من التطبيل والمبالغة فى وقت كان فيه الفقر متفشيا بين المواطنين وكان المرض يطحن عظام أغلبهم وكان العامل المصرى يكدح ليل نهار مقابل قروش قليلة نظير ذلك العمل المضنى (إذا وجد إليه سبيلا) لا يزيد على (ستة قروش فى اليوم) وليس له أية مزايا ولا حقوق فى السكن أو التأمين ولا حق تقاعدى، أما الفلاح المصرى فكان يحصل على ثلاثة قروش فى اليوم وهو يعمل فى أطيان الباشا ، وأحيانا لا يحصل على هذه القروش وإذا ما اشتكى أو تذمر فإن الكرباج هو الرد على تذمره أو احتجاجه ، ولم تكن الدولة قادرة على مرتبات الموظفين ورجال الأمن الزهيدة حتى أن هؤلاء اضطروا إلى أن يضربوا عن العمل احتجاجا على سوء الحال هذا ، فكان أن أضرب رجال الأمن جميعا فى مصر وخرجوا فى مظاهرات وكانوا يرفعون أرغفة الخبز على رؤوس بنادقهم طلبا لهذا الرغيف الذى ندر وجوده وجوع أبنائهم ، وفى ٢٥ يناير ١٩٥٢ وبحجة أن البوليس المصرى يساعد الفدائيين فى السويس قامت قوات الاحتلال البريطانى بالهجوم عل مبنى مديرية الأمن ومبنى المحافظة بالدبابات والمدفعية فقتلت من قتلت وقد قاوم رجال الأمن المصريين بأسلحتهم الخفيفة ذلك الهجوم البربرى وماتوا دفاعا عن شرفهم وكرامتهم ، وبعد هذا الحادث بيوم واحد أى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢م حرقت القاهرة كلها وبقيت النار مشتعلة مدة طويلة وقد أكلت الأخضر واليابس تشفيا وانتقاما من المصريين ، ثم دبرت المكيدة وجهزّت التهم وتم القبض على آلاف الأبرياء من أبناء مصر ، ويذكر شوقى عبدالناصر وهو شاهد عيان معاصر فى كتابه (ثورة عبدالناصر) أن الملك فاروق يوم حريق القاهرة كان يحتفل بعيد ميلاد ابنه الطفل (أحمد فؤاد) حيث جمع كل قادة الجيش وضباطه العظام وكل الوزراء والكبراء والوجهاء فى قصر عابدين احتفالا بهذا المولود وكان الإنجليز وجواسيسهم هم

سادة البلاد يأمرون فيطاعون دون مناقشة ولا حتى مجرد احتجاج أو إظهار أى تذمر ، وهنا يقول شوقى عبدالناصر فى كتابه (ثورة عبدالناصر) لم يصف الحاقدون لأجيالنا كيف احتلت مصر سنة ١٨٨٢م وكيف أن الإنجليز دخلوها بدعوة من خديوى مصر وحاكم مصر توفيق وبمساعدة من كبار الأسر والعائلات العريقة الذين خانوا مصر وخانوا عرابى ، والأسماء كبيرة وكثيرة ، ولن يسقط التاريخ فى حسابه أبدا (خيانة الخونة) وستلاحقهم الأجيال مهما طال الزمن ، ولن يذكر أحد منهم إلا بالعار ، وكان ثمن الخيانة الباشوية والباكوية وآلاف الأفدنة وأكياس الذهب والفضّة ، ونفخ أعداء مصر فى أصدقائهم من الخونة ووضعوا على صدورهم الشوهاء كثيرا من الرتوش ليجعلوا منها لوحات مزوقة ونسوا أن القليل من الماء يزيل كل الطلاء ، ويضيف ، فحتى سنة ١٩٤٧م كانت كل منطقة جاردن سيتى فى القاهرة محاطة بالأسلاك الشائكة لأنها مخصصة للسفارة البريطانية وسكن لضباط الاحتلال الإنجليزى ، وكانت أرض الجامعة العربية وفندق هيلتون أكبر معسكر مبنى للإنجليز فى القاهرة يجلس فى نوافذه آلاف العساكر لا يرتدون إلا السراويل ولا يلوّحون للمصريين إلا بالبنادق ، ومنه خرجوا سنة ١٩١٩م وسنة ١٩٣٦م وسنة ١٩٤٥م وقتلوا آلاف المصريين وكانت المنطقة التى تضم الآن عمارة رمسيس فى القاهرة وما خلفها حتى نفق شبرا معسكرا للبوليس الحربى الإنجليزى ، وكانت القلعة وكل منطقة العباسية (مدينة نصر) الهايكستيب وألماظه ومطار القاهرة وما حوله والمعادى والمعصرة وحلوان كلها معسكرات لقوات الاحتلال ، ونفس الحال كان فى الإسكندرية ، منطقة كوم الدكّه ومنطقة الرمل ومعسكرات مصطفى كامل حاليا وضواحى سيدى بشر والرأس السوداء وأبو قير والدخيلة والعامرية كلها معسكرات للقوات البريطانية المحتلة ، ثم كانت كل منطقة الدكتا بدء من الكيلو ٩٩ على طريق الإسماعيلية وكل السويس ومحافظة الشرقية والقصاصين والإسماعيلية والتل الكبير وبورسعيد .. إلخ وقناة السويس وسيناء كلها مناطق خاضعة للاحتلال ، وغير مسموح بدخولها إلا لمن يعملون فى خدمة جيش الاحتلال ، وكان لجيش

الاحتلال البريطانى الأولوية فى التموين لهم ولحلفائهم أثناء الحرب العالمية النازية وكانت لهم كل المرافق وكل الخدمات ، انتهى[٢] هكذا كان الحال ، الكثير قبل حركة الضباط الأحرار وهذه الأحداث والتطورات مع غيرها من الكوارث كهزيمة حرب سنة ١٩٤٨م وقضية الأسلحة الفاسدة وغيرها مثلت إرهاصات التغيير [٣] أو الانقلاب، وكان التغيير خطوة واسعة إلى الأمام وفى يوم الأربعاء منتصف ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م قاموا بعمل عسكرى يمكن تسميته انقلابا حينها وسيطروا على كل مرافق الدولة وما كاد ينبلج فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م حتى قبضوا على مفاتيح مستقبل بلادهم ، وكانوا تسعون رجلا من مجموع عدد الضباط المنضمين فيما عرف بعد باسم (تنظيم الضباط الأحرار) ولقد جاءتهم جماهير العمال والفلاحين والمثقفين الشرفاء زاحفة مؤيدة مستبشرة ذلك أن دولة الظلم لا تدوم ، ومع زحف الجماهير وتكاتف الأيدى وصفاء القلوب ووحدة الهدف كان على قادة الانقلاب أن يقدّموا ما يمكن أن يكون دليلا مرشدا يبدأوا به مسيرتهم مع شعبهم الذى لم يبخل عليهم بالتأييد والمساندة وهكذا أعلنوا المبادئ الستة كدليل عمل آنى لابد أن يؤدى فى المستقبل القريب إلى ما يجعل الانقلاب يتحول إلى ثورة وطنية وكانت تلك المبادئ كما يلى :

١ - القضاء على الاستعمار وأعوانه .

٢- القضاء على الإقطاع .

٣- القضاء على الاحتكارات وسيطرة رأس المال على الحكم .

٤ - تحقيق العدالة الاجتماعية .

٥- خلق جيش وطنى قوى .

---

(٢) كتاب ثورة عبد الناصر تأليف شوقى عبد الناصر .

(٣) يلاحظ أننى أقول التغيير أو الانقلاب أو حركة الضباط الأحرار لأن الذى حدث فى البداية حقيقة وواقعا كان انقلابا ثم تحول إلى ثورة بكل معنى الكلمة .

٦- إقامة ديموقراطية سليمة .

ولقد كانت هذه المبادئ تمسّ بشكل محدد ومباشر مواضع المرض لأن الاستعمار وأعوانه متمفصلون فى أجهزة الدولة ، فالإقطاع قائم ومترسّخ ، والاحتكار وسيطرة رأس المال شامل فى كل شئ ، والعدالة الاجتماعية لا وجود لها ، والجيش الوطنى ليس جيشا بالمعنى المفهوم فلا تسليح جيد ولا تدريب متين ولااستراتيجية واضحة ، والديموقراطية ليست سليمة على الإطلاق وهى كانت مثل المكياج على وجه قبيح .

هكذا بالضبط كانت الحالة السائدة وهكذا كان القصد والمقصود بالمبادئ الستة ، وهى على أى حال تدل بكل وضوح على أن هؤلاء النفر من الرجال كانوا قد درسوا جيدا وضع بلادهم وحال أهلهم وأرادوا بما أعلنوا من مبادئ أن يبلّغوا القاصى والدانى إن هدفهم واضح وإرادتهم قوية وتصميمهم جازم من أجل حرية الوطن والمواطن وبالتإلى لابد أن تكون الطريق واضحة سالكة نحو الهدف الوطنى القائم على المبادئ الستة المعلنة ، أى أنه لابد من توزيع ملكية الأرض الزراعية بشكل عادل من أجل تحقيق نوع من الحرية والكرامة للفلاح المصرى وهى أرض محدودة وبيد فئة من السكان (الباشاوات والإقطاعيون) كما أنه لابد من توجيه رأس المال من أجل زيادة وتدعيم الثروة الوطنية بحيث تخدم المشروع التنموى الوطنى ، أما القوة القادرة على حماية المكاسب الوطنية التزاما بمبادئ التحول الجديد فلابد أن تكون متمثلة فى الجيش الوطنى القوى المؤمن بهذه المبادئ والأهداف ، وعلى ضوء تحقيق هذه الأهداف يمكن إقامة ديموقراطية سليمة وصحيحة .

وإذا كانت هذه أهداف التغيير الذى قام به ضباط الجيش الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (الضباط الأحرار) وكانت الساحة السياسية والاجتماعية كما مرّ بنا تحكمها قلّة من الناس لا همّ لهم غير جمع المال والاستمرار فى الاحتكارات وممارسة الظلم والعنت والضيم الواقع على أهل البلاد متآلفين فيما بينهم مع ملك

خليع فاسد يعتمد علـى بطانة ضالة لا ترتبط بتراب الوطن ، ومجلس نواب يجمع شتاتا من الناس فى الـغالـب إما جهلة لا يعلمون وإمـا عملاء جاء بهم الاستـعمار والقصر الملكى ، وقلّة (ربما) من الوطنيين الذين لا يزيـد عددهم على عدد أصابع اليد الواحدة أصـواتهم إذا أبدوها ضائعة لا يستـمع إليها أحد ، وأحزاب مـتنافسة متفرقـة لا تقوى على عمل شئ ، ودستور جمله وعبـاراته جميلة لا يزيد عن كونه حبر على ورق .

ولما كـانت الساحـة على هذا الشكل فكان لابد من إجـراء عمليـة جراحـية قيصرية بحيث توضع الأمور فى مكانهـا الصحيح ، وبهذا الإجراء لابد أن تختلف الآراء والتوجـهات بين الناس من جهة وبين الرجـال الذين قادوا التغيـير بل بينهم أنفسهم بعض الخلاف وإن لم يعق المسيرة ..



١- حدوث الخلافات .

٢- أولى الخطوات فى التغيير .

عندمـا حدث انقلاب ٢٣ يـوليو كان انـقلابا أبيـضا رغم أن الأعداء كـانوا كثيـراً (محليون وأجانب) بل وكل من يمكن أن تمّس مصـالحه والتغيير (أى تغـيير سياسى واقتصادى بالقوة أو بغيرها) لابد أن يضار منه البعض (عن حق أو غيره) ولهـذا فـإنه لابـد لهـذا الانقـلاب أن ينزع سـلاح كل أولئـك الأعـداء المعـروفين والمحتملين ، وسـلاحهم هو المال والسلطه والارتباطات الخـارجية ، وهذا من أجل القيـام بخطوات التغيير والتطوير السيـاسى والاجتماعـى والاقتصادى ولقـد أنجز رجال الانقـلاب هذه الخطوات دون إراقة دماء خلافـا للمعتـاد فى كل الانقلابات وأساليب أغلب الثـورات التى حدثت فى العالم غـربا وشرقا وجنوبا وشـمالا فى ذلك الوقت (وحتى فيما بعده) وكان الفضل فى هذا الأسلوب السلمى والمعالجة الحضـارية يعود لمواقف جـمال عـبدالناصـر فقد حـدث أنه فى أول اجمـاع للجنة

التنفيذية لهؤلاء الضباط أن نوقش الأمر واختلفت الآراء والرؤى أولا فيما يتصل بمصير الملك وثانيا فيما يتصل بأول مشروع للانقلاب أى (الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢م) الذى كلف به رئيس الوزراء المدنى (على ماهر) وهذا نص وفحوى النقاش والمواقف بين الأعضاء .



كان الملك فاروق كعادته خلال تلك الفترة يستجم فى الإسكندرية متنقلا بين قصورة وقت حدوث الانقلاب وتقرر أن يوجه إليه الضباط إنذارا بضرورة التنازل عن الحكم لابنه الطفل (أحمد فؤاد) وبعد أن أعد الإنذار كلف رئيس الوزراء (على ماهر) بتسليمه للملك ثانى يوم التغيير وكان نصه (حيث إنك أسأت بعملك لسمعة مصر على مشهد من البلدان الأخرى ، وحيث إنك قد تغاضيت عن الرشوة والخيانة التى أعقبت هزيمتنا فى حرب فلسطين ، أنا اللواء محمد نجيب باسم الجيش الذى يمثل إرادة الشعب ، قد خولّت مطالبتك بالتخلى عن العرش لصالح ابنك الأمير أحمد فؤاد قبل الساعة الثانية عشرة ومغادرة البلاد نهائيا قبل الساعة السادسة مساء اليوم ، وإذا رفضت الرضوخ لهذا الإنذار فإنك ستتحمل مسؤولية العواقب) فى هذا الوقت كان الصاغ جمال سالم يتأفف ولا يوافق على قرار إبعاد الملك سلميا ويقول إنه لا يجب أن يسمح لهذا الملك الذى أفسد فى البلاد أن يرحل بل يجب أن يوقّع عليه العقاب المناسب وهو الشنق فورا، يسأله جمال عبدالناصر ما إذا كان يرى أن عقوبة الشنق ضرورية ؟ ويضيف عبدالناصر أنا أرى نفى الملك فاروق ، كان جمال سالم مع اللواء نجيب والسادات وزكريا محى الدين فى الإسكندرية يعدّون لحصار قصور الملك بحيث لا يهرب ولا تحدث مشاكل من حرسه أو من الناس ، جمال سالم بإصراره على موقفه غادر بالطائرة إلى القاهرة حيث يوجد جمال عبدالناصر يسيّر الأمور لأنه يريد إقناع عبدالناصر بأهمية شنق الملك ، يقول عبدالناصر : إن شنق الملك قد يؤدى إلى كثير من المشانق وسيل الدماء التى لا يمكن الحد منها عند حدوثها ، لكن الرأى الآخر

يقول لابد من الشنق والقتل من أجل تنظيف البلاد من الخونة والعملاء والمرتزقة ، ولكن جمال كان يرى أنه إذا ما شنق الملك فإن الناس الذين وقع عليهم ضيم هذا الملك سينكّلون بالمئات من الذين لهم علاقة به فورا ويستمر القتل والشغب الذى لا يمكن وقفه ولقد كان هناك من بين الأعضاء من يطالب بإقامة المقاصل أمام قصر عابدين وفى ميدان الإسماعيلية ، فى هذا الوقت تم حصار قصور الملك وحدث تبادل إطلاق بعض النيران من جانب حراس القصور ولم تحدث إلا حالات بسيطة بين الجنود فقد جرح عدد قليل منهم ، وبعدها وافق الملك على التنازل لكنه طلب بعض الضمانات منها:

١- يتم التنازل عن العرش بطريقة تحفظ له كرامته .

٢- طلب أن يغادر إلى نابولى بإيطاليا بواسطة اليخت الملكى (المحروسة) .

٣- أن تطلق له المدفعية تحية التكريم وهى ٢١ طلقة .

٤- أن يكون اللواء محمد نجيب فى وداعه حفاظا على سلامته .

٥- أن يسمح لاثنان من خدمه مرافقته وهما (الإيطإلى بوللى والمصرى محمد حسن) .

٦- أن يسمح له بأخذ مجموعاته القيمة من عملات وهدايا وطوابع .

٧- وأبدى رغبته فى استخدام ثرواته وثروات إخوته داخل مصر لحسابهم .

وبعد دراسة هذه المطالب بشكل عاجل وافق جمال عبدالناصر أيضا بشروطة الخاصة وهى :

١- اليخت (المحروسة ملك للشعب المصرى ولابد أن يعاد فورا بعد وصول الملك

٢- بالنسبة للخدم لا نوافق عليهما إذ قد يلحقهما التحقيق .

٣- بالنسبة للعملات والهدايا والطوابع.. إلخ هذه من أموال الشعب ولا يسمح بإخراجها .

٤- بالنسبة لثرواته وإخوته لا يمكننا أن نعد بشئ من ذلك .

بعد رد جمال عبدالناصر أبلغ الملك بذلك الرد ووافق على التنازل والمغادرة ووقع فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا وكان قرار التنازل قد أعده اثنان من القضاة وقد كان نصه كما يلى :

(نحن فاروق فؤاد الأول رغبة منا فى رفاهية وسعادة وتقدم بلادنا ، وأملا فى مساعدتها على التغلب على الصعوبات التى تواجهها فى الظروف الراهنة الحاسمة ، قررنا التنازل عن العرش لابننا ولى العهد أحمد فؤاد الثانى ، ونحن بذلك نخوّل السلطة لسعادة على ماهر رئيس الوزراء للعمل طبقا لهذا (القرار) وعندما قرئ قرار التنازل على أسماع جمال عبدالناصر ، قال : هذا لا يكفى ، يجب وضع نصا يحدد القول (بإرادة الشعب) فى مقدمة القرار ، ووضع النص المطلوب الذى يقول (طبقا لإرادة الشعب) مباشرة بعد كلمة (قررنا) أمتنع الملك فى البداية لكنه بعد قليل من الوقت وقّع، وسمح له بحمل حقائبه التى بلغ عددها أكثر من مائتى حقيبة ، خرج متجها إلى اليخت وكان بصحبتة كل من زوجته ناريمان وابنه الطفل وبناته الثلاثة ومربية ابنه الإنجليزية وحراس من أصل ألبانى ، كما كان فى الوداع السفير الأمريكى (كافرى) ..



انتهى الوضع السابق وخرج الملك فاروق نهائيا على غير رجعة رغم أن تنازله كان لابنه ولى العهد (نظريا) وما كان لهؤلاء الضباط وقد كسبوا الجولة الأولى أن يرضوا بغير الحكم دون منازع لتنفيذ مشروعهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى (الذى ما زال فى ضميرالغيب) غير ما يمكن أن تفسره المبادئ الستة التى أعلنت ، وكان ضباط الجيش وعلى رأسهم جمال عبدالناصر على بيّنة من الأحداث السابقة ومن تعثر وفشل الانتقاضات والثورات السابقة وبشكل خاص ما واجه حركة الجيش سنة ١٨٨٢م وثورة الشعب سنة ١٩١٩م على الرغم من أن هذه الأخيرة قد تمتعت بالتأييد الشعبى الكامل فى مطالبها من أجل إجلاء الأجنبى وإنهاء الاحتلال العسكرى البريطانى لكنها واجهت عنادا من المحتل وخلافا بين

السائرين بها الذين أغرتهم المناصب والوظائف حتى وقع بينهم التنافس بل والعداء ولم يستثمروا ذلك التأييد لخدمة الثورة فانصرفوا بعيدا عن هدف ثورتهم وغرق الشعب فى البؤس الدائم والإذلال البشع ، ومن المعتاد أن الخلاف يحدث عند التطبيق بعد نجاح الثورة أو الانقلاب وتدور عجلة الزمن فتظهر الشهوات ويبرز المهرّجون والمصفّقون والنافخون فى المزامير وتحدث الوشوشات حيث تزيّن المواقف لهذا أو ذاك ، ونرى إنه من المفيد المرور ولو ببعض الإيجاز على ما واجه تلكم الأحداث وهى التى قلنا أن جمال عبدالناصر كان يعيها جيدا فقد حدث فى ثورة عرابى سنة ١٨٨٢م ما يلى :

(كان الباب العالى قد أرسل بناء لطلب الخديوى بعثة إلى مصر حيث طلبت من عرابى أن يذهب إلى إستانبول على وعد بأن ينال منصب كبير هناك (طبعا من أجل إبعاده أولا ثم محاكمته ثانيا رغم الوعد بالمنصب) لكن عرابى رفض قائلا ، إن السلطة التى أتمتع بها الآن لم أقم باغتصابها بل قلدنى إياها الشعب ويتوجب علىّ أن أنزل على إرادته وأعطى أذنا صاغية لشكاويه ، وعقب فشل البعثة بدأ تنفيذ خطة جديدة صاحب فكرتها المعتمد البريطانى وهى إثارة اصطدامات داخلية تكون سببا فى تدخل خارجى مسلح ، وهكذا حدث يوم ١١ يونيو ١٨٨٢م أن استؤجر مالطى كان فى خدمة القنصل الإنجليزى بالإسكندرية حوذيا حمله إلى إحدى الحانات وعندما طالبه الحوذى بأجرة نقله حدثت بينهما مشادة أطلق فيها المالطى النار على الحوذى وظهر عدد من الأجانب المشتبه بهم فأطلقوا النار على الأهالى الهائجين ، وفى توقيت معلوم ظهر فريق من البدو كان الخديوى قد استأجرهم فشاع الاضطراب فى الإسكندرية وقتل ١٤٤ مصريا و٥٠ أوربيا فى المدينة التى كان الأجانب من المرابين والمضاربين والرأسماليين قد بدأوا يتدفقون عليها بعد بداية الضائقة الاقتصادية الناتجة عن الديون، ولكن عرابى استطاع السيطرة على الاضطرابات وإعادة الهدوء إلى المدينة وانكشف أمر المدبرين وفشلت خطة التدخل ، ولقد شقّت هذه الحادثة المجتمع شقين ، الخديوى

وكبار الملاك والأعيان فى جانب والقوى الوطنية من المدنيين والعسكريين فى جانب آخر، وسار الخديوى إلى الإسكندرية ومعه كبار الرجعيين والإقطاعيين مثل نوبار باشا ورياض باشا وانضم إليهما أيضا شريف باشا وسلطان باشا،وهناك ألّف الخديوى وزارة خاضعة فى الإسكندرية برئاسة راغب باشا بينما القاهرة كانت تحت سيطرة الوطنيين ، ونبتت خطة ثالثة للتدخل الأجنبى عندما قرر أحمد عرابى ترميم الحصون الساحلية عقب زيارة الأسطولين البريطانى والفرنسى للأسكندرية، وأرسل الباب العإلى يطلب وقف الترميمات ، ووجد الأميرال سيمون قائد الأسطول البريطانى فى ذلك فرصة للتدخل فأرسل إنذارا إلى رئيس حامية الأسكندرية يوم ٦ يوليو ١٨٨٢م مطالبا بوقف التحصينات ، وأجاب عرابى بأنهم يقومون بالترميم فقط دون إقامة أى تحصينات جديدة ومع ذلك قدم سيمون إنذارا جديدا يوم ١٠ يوليو مطالبا بتسليم التحصينات خلال ٢٤ ساعة ورفض عرابى ذلك رفضا باتا ، فأطلق سيمون مدافع أسطوله يوم ١١ يوليو على الإسكندرية فحولها إلى أنقاض ومع ذلك ظل الخديوى وكبار الأعيان فى قصورهم بالضواحى بعد تحذير سيمون لهم فى الوقت المناسب وأصدر عرابى أمرا بانسحاب الحامية من المدينة المحترقة وغادرها معه آلاف السكان ، وبعد أربعة أيام احتل الإنجليز المدينة المهجورة ، وكان ذلك إيذانا بالحملة على مصر التى صوّت مجلس العموم البريطانى على اعتماداتها يوم ٢٧ يوليو ١٨٨٢م تحت قيادة الجنرال «ولسلى» .. وينتهى المؤلف إلى القول (وهزيمة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م أدت إلى نتائج وخيمة للحركة الشعبية وللقوى الوطنية فى الجيش) [٤] .



ثورة سنة ١٩١٩م :

وانفجرت ثورة سنة ١٩١٩م تحت ضغوط وإصرار البريطانيين على فرض الحماية على مصر وحالة الإرهاب التى امتدت طوال سنوات الحرب ، والمعاملة

(٤) أحمد حمروش قصة ثورة ٢٣ يوليو .

الخشنة والسخرة للمصريين من جانب قوات الاحتلال وارتفاع الأسعار وما صاحبها من ضائقة اقتصادية ، والتطلع إلى الاستقلال التام (مصر للمصريين) بعد المبادئ التى أعلنها (ويلسون) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

واشتعلت الثورة بين مختلف الفئات ، بدأت بالطلبة ثم العمال والفلاحين وإضراب الطوائف وتظاهر السيدات وأخيرا إضراب الموظفين ، ولم يكن للجيش دور إيجابى فى أحداث ثورة ١٩١٩م كما كان فى ثورة عرابى ، وكانت الأعوام التى انقضت بين الثورتين نفذت فيها قوات الاحتلال مخططا يقضى بفصل الجيش عن الحركة الوطنية ، وتولية نوعية خاصة من الضباط ذات جذور اجتماعية وفكرية تجعلها فى موقع بعيد عن مرجل الثورة ، وكان الضباط يدخلون المدرسة الحربية بتعليم محدود لا يتجاوز الابتدائية يمرون خلال مجهر استعماري خاص يفحص أصولهم الطبقية وهم كانوا غالبا أما أبناء ضباط معروفين أو أبناء أسر إقطاعية أو ثرية فشلوا وعجزوا عن مواصلة التعليم .

❁ ❁ ❁

وقد أدى توقف النمو الفكرى والثقافى للضباط إلى خلق فجوة واسعة بينهم وبين المثقفين الذين انجذبوا إلى حضارة الغرب ، ونقلوا الأفكار العصرية مبشرين بمجتمع جديد ، أحمد عرابى وضباط الجيش الوطنيين كانوا أقرب ما يكون إلى مثقفى عصرهم جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وأديب إسحق وعبدالله النديم ويعقوب صنوع (أبونضاره) وسليم نقاش وغيرهم ، أما ضباط الجيش عام ١٩١٩م فكانوا أبعد ما يكون عن مثقفى ذلك العهد ، محمد فريد ولطفى السيد وطه حسين .

خطب لورد كيرزون الوزير البريطانى يوم ٢٤ مارس ١٩١٩م والثورة فى قمة التهابها يثنى على موظفى (الحكومة ورجال البوليس والجيش المصرى) ويشيد بحسن سلوكهم أثناء الاضطرابات فى الوقت الذى أعلن فيه أن الحكومة البريطانية لا تنوى العدول عن الحماية ، وكان رد فعل هذا الخطاب عند الموظفين

قيامهم بإضراب طويل شامل بدأ فى ٢ أبريل وانتهى بسقوط وزارة حسين رشدى باشا رغم الإفراج عن سعد زغلول يوم ٦ إبريل وسفر الوفد بعد ذلك بخمسة أيام إلى مالطه ومنها إلى باريس وذلك لشعورهم بالحرج لما انطوى عليه الخطاب من اتهامهم بالانحياز إلى صف الاحتلال والحماية والتنكر للحركة الوطنية ، أما ضباط الجيش فلم يتحركوا حركة ثورية ، ليس لأنهم قد تنكروا لوطنيتهم فإن مواقفهم تدل على عكس ذلك فقد ذهب حشد منهم بملابسه الرسمية إلى بيت الأمة عقب نفى سعد زغلول وحملوا صورته أمام مصورى الصحافة دون أن يعبأوا بأثر ذلك عليهم ، وكان من بينهم اللواء محمد نجيب وهو مازال فى رتبة الملازم .



وينتهى المؤلف إلى القول أن ثورة سنة ١٩١٩م استطاعت أن تجبر الاستعمار والسرايا على وضع دستور سنة ١٩٢٣م الذى تشبث به الشعب ووجد فى تطبيقه تعبيرا عن إرادته رغم أنه كان ناقصا من الوجهة الديموقراطية إذ كان يعطى الملك حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده وإصدار مراسيم فى غيبته ، ومع ذلك فإن القوى المعادية لانطلاقة ثورة ١٩١٩م إلى أهدافها بادرت قبل أن تصل وزارة الثورة الأولى إلى إصدار (قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات فى الطرق العمومية وقانون الأحكام العرفية اللذين أصدرتهما وزارة يحى إبراهيم فى مايو ويوليو ١٩٢٣م كما عينت فنكس باشا البريطانى مفتشا عاما للجيش .



وخلال هذه الفترة التى بدأت فيها إرهاصات الثورة داخل الجيش وخارجه فى السودان قتل السردار العام سير لى ستاك يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٤م فى أحد شوارع الزمالك بالقاهرة وانتهزت إنجلترا الفرصة وقدمت إنذارا للحكومة المصرية عن طريق اللورد اللنبى الذى توجه إلى سعد زغلول برئاسة الوزارة فى موكب من ٦٠٠ فارس بريطانى مطالبا بسحب الجيش المصرى من السودان وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة

السودانيـة وحدها على أن تصـدر الحكومة المصرية بيـانا بذلك خلال ٢٤ سـاعة ، رفض سعـد زغلول الإنذار وقدم اسـتقـالته يوم ٢٣ نوفـمبـر ١٩٢٤ م بعد عـشرة شـهور فـقط من توليـه الحكم ، وأسرعت الحكومـة البـريطانية لتنـفيـذ مخططهـا بمحاصرة القـوات البريطانية للقوات المصـرية فى الخرطوم ورفضت الكتيبـة الثالثة المصرية السفر إلا بأمر وزير الحربية المصرى - انتهى .



على ضوء تلك الأحداث التى واجهت الثورتان السابقـتان وقد وعاها جيدا جمال عـبدالناصر وأراد أن يحـتاط بحيث لا تتكرر ،أصدر أمـراً يقول : (إنه على جمـيع الضبـاط ألا يدلوا بشئ لوسـائل الإعلام ولا يتـحدثوا عن أحـد أو يذكروا أسماءهم ولا يدّعوا فضلا فى شئ أو ينسبوا أى عمل لأحد أو لأنفسهم) .

وكان عبدالناصـر نفسه فى الظل فلم يظهر ولا تحدث لأحـد من الصحفيين أو الإعـلاميين على الـرغم من أن التعليـمـات والأوامر تصـدر منه ، وكـان اللواء محـمد نجيب هو الـذى فى الواجهة بما فى ذلك خـلال الفترة الـتى كان فيـها إنذار الضـباط يقـدم إلى الملك فى الإسكندرية حـيث كان هناك مـحمـد نجيب وحـسين الشافـعى وجمال سـالم وأحمـد شوقى مع رئيس الوزراء المعّين على مـاهر فقط ، وكان جمال عبدالناصر فى القاهرة يرجعون إليه فى كل أمر دون أن يذكروا اسمه، وبعدها مـباشرة وقـد تمت لهم السيطرة على مـقاليـد الأمور فى البلاد كـان الوجه البارز والمعروف ضابط برتبة عالية يدعى محمد نجيب وهو أكبر الضباط سنا ، وفى هذا الخصـوص ذكر جمال عـبدالناصر ذات مرة أنه أمـر ألا يذاع أو ينشر اسم أى من ضبـاط التنظيم الذين عرفـوا فيـما بعد باسم (الضـباط الأحـرار) والسبب فى ذلك كمـا قال : (إننى لم أكن أريد أن يحدث أى خـلاف أو انشقاق فى صـفوف هؤلاء الضـبـاط لأننا بشـر وأعـداؤها فى هذا الـوقت يمكن أن يسـتـغلوا الفـرص ويحدثوا الخـلاف بتمجيـد هذا أو ذاك وتفضيل البعض عن غـيرهم ويمكن (وهذا متوقع) أن يحاولوا إثارة البعض واستعداء هذا ضد ذاك ، والإنجليز لهم باع طويل

وكبير فى هذا الشأن ، وكان لابد أن نحتاط بحيث نحافظ على وحدتنا وموقفنا ..

بداية التغيير :

بسرعة كبيرة ودون إراقة دماء أو حدوث مشاكل وهى التى كان ربما ينتظرها البعض ومنهم بريطانيا العظمى تخلص الضباط من الملك فاروق والمحيطين به ، وكان عليهم أن يواجهوا أموراً أخرى قد يصعب التعامل معها وهى :

١- الوجود البريطانى - قوات وقواعد وجواسيس وعملاء .

٢- الفساد المستشرى فى مرافق الدولة والمجتمع - رشاوى ومحسوبية وسيطرة أموال وتقديس ألقاب ... إلخ .

٣- فقر ينشب أنيابه فى أجساد سكان مصر ، عمال وفلاحين ومتوسطى الدخل وعاطلين ، وكان عدد هؤلاء يزيد على العشرين مليونا من البشر (إذا صح أنهم يعاملون كبشر) .

٤- وأناس ذوى أنياب زرقاء سمتهم التعالى والغطرسة .

وكان لابد من الإسراع بالقرارات الحاسمة بحيث يحس كل المظلومين والمقهورين والمستغلين بأن التغيير يستهدف مصالحهم وحقوقهم وأن تلك الإجراءات من أجل تحريرهم من ربقة الظلم والضيم والطغيان ، ولأن فترة التغيير لم يصاحبها عنف أو دماء فقد يحس البعض أن رجالها ضعاف أو مترددين ، وهم كانوا اثنى عشر ضابطا من مجموع تسعون ضابطا تحركوا ليلة الانقلاب أى أنهم جزء من تنظيم الضباط الذين عرفوا فيما بعد باسم (الضباط الأحرار) البالغ عددهم ثلاثمائة ضابط من مختلف أفرع الجيش ، وكانت القرارات :

١- إلغاء عادة انتقال الحكومة وراء الملك إلى الإسكندرية كل فترة صيف .

٢- إلغاء كل الألقاب التى كانت تمنح بالواسطة والرشوة كمظهر من مظاهر الإثرة والتبجيل مثل (بيك وباشا .. إلخ) .

٣- تعيين أوصياء على العرش حيث كان ولى العهد الطفل (أحمد فؤاد) صغيرا وهى خطوة كانت من أجل التمهيد بعدها يتخذ الإجراء الذى كان يجول بأذهان الضباط إذ ليس من المعقول أن يتم الإبقاء على جزء من نظام حكم فاسد أطيح برأسه ، كذلك فقد كان هؤلاء الضباط حذرين من حدوث أى شغب قد تستغله بريطانيا وقواتها على بعد خطوات جاهرة للتدخل .

٤- إعلان مجانية التعليم لكل المواطنين الشئ الذى لم يكن متاحا لغير القادرين .

٥- وكذلك مجانية العلاج وهذه منحة أو هبة للعامل والفلاح خصوصا إذا علمنا أن ما يتقاضاه عامل التراحيل هو قرشان فى اليوم ولا يعمل إلا ثلاثة شهور فى السنة .

٦- قرار تشكيل هيئة خبراء يقدمون المشورة فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والقانونية والعلاقات الدولية ، وقد جمعت هذه الهيئة العديد من رجالات الخبرة ، علماء وأساتذة جامعات ومهندسون وقانونيون وأطباء.. إلخ .

٧- إقالة أول رئيس وزراء كانوا قد اختاروه بعد حدوث الانقلاب وهو (على ماهر) الذى تلكأ فى تطبيق مشروع قرره الضباط كأول عمل لصالح الفلاحين والعمال وهو (قانون الإصلاح الزراعى) وكان هؤلاء قد أرادوا أن يطبق المشروع فورا من أجل تحرير الفلاحين من ملاّك الأرض الإقطاعيين بحيث لا يبقى لأحدهم إلا مائتى فدان وتوزع بقية الأطيان على الفلاحين وتكون هذه الخطوة أول ما يقدم للفلاح المصرى الذى لم يملك فى حياته أرضا كذلك لأنهم يرون أن الإصلاح الزراعى وتوزيع الأرض من شأنه أن يخلق سوقا لتنمية الصناعة الوطنية ذلك أن الإنتاج المحلى يستطيع الفلاح والعامل أن يشتريه عندما يتوفر له دخل من إنتاجه، وتم تعيين اللواء محمد نجيب رئيسا للوزراء بدلا من على ماهر ، ومن المؤكد أن هذه الإجراءات وهى تستهدف مصلحة المواطنين تمثل رؤية شاملة للمستقبل وإرادة وطنية قوية لتحقيق تلك الرؤية حيث إنه لا يمكن تحقيق البناء الوطنى فى ظل الهيمنة الأجنبية والاستغلال والاحتكار وسيطرة القوى العميلة وبلا تحقيق العدل

الاجتماعى ، كذلك فإن هؤلاء الضباط عندما قرروا تسريع هذه الإجراءات ومنها كما قلنا مشروع الإصلاح الزراعى وتوزيع الأرض كانوا إنما يقررون فى نفس الوقت تغيير البنية الاجتماعية ويمكن القول إنهم أرادوا مواجهة الصعاب التى يتوقعونها فى وقت حددوه هم أنفسهم دون انتظار لتحرك تلك القوى التى ستضار بسبب تلكم القرارات أو الإجراءات ، ولابد أن اللواء محمد نجيب قد أدرك هذه الحقيقة عندما قال فى مذكراته التى أصدرها فيما بعد (لقد ظن عبدالناصر بكل عدم تروى ابن السادسة والثلاثين أن بمقدورنا أن نحوّل انتباه كل جزء من الرأى العام المصرى إذا كان ضروريا من أجل أن نتمكن من تحقيق أهدافنا ، ولقد اعتقدت بكل تدبر ابن الثالثة والخمسين أننا بحاجة إلى أكثر قدر ممكن من التأييد الشعبى ، وأكثر من ذلك فقد كان اعتقادى أنه من الأفضل أن نضحى أو على الأقل نؤجل تحقيق بعضا من أهدافنا لكى نضمن تحقيق باقى الأهداف ، وباختصار فإنى كنت أؤمن بأن نصف رغيف أفضل من لا شئ ، أما عبدالناصر فقد اقتنع بالمخاطرة خارجا عن حدود ما كان فى رأيي هو الحكمة - فى محاولة للحصول على الرغيف كاملا (٥) ....

٨- هذا ما قاله اللواء محمد نجيب بعد أن فقد بريق الحكم والنياشين رغم إنه جدير بتلك النياشين لإقدامه وشجاعته فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م ثم شجاعته فى المواقف الكثيرة ضد نظام الحكم الملكى ، ولعله من الإنصاف القول : أن الإنسان عندما يفقد وضعه فى الحكم كيفما كانت الأسباب يتأثر نفسيا وبالتإلى غالبا ما تكون كلماته أو كتاباته منعكسا عليها ذلك الوضع النفسى ولهذا نعتقد أن مذكراته حملت كثير من التجنى على الثورة وقادتها ، وسيكون الحكم فى ذلك للتاريخ ...

(٥) كتاب مصير مصر ، تأليف محمد نجيب ، ص (٢١٥ - ٢١٦) .

أعضاء اللجنة التنفيذية لضباط الانقلاب ويرى اللواء محمد نجيب فى الوسط بين جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر .



كان اللواء محمد نجيب قد قدم للشعب على أنه قائد الثورة أو الانقلاب ظاهريا أو هكذا فهم ، وكان الضابط الوحيد الذى يتحدث فى المناسبات وهى كثيرة لتوضيح أهداف التغيير ويلتقى بالصحافة ووسائل الإعلام ليرد على الأسئلة والاستيضاحات ، وهو فى الحقيقة لم يكن عضوا فى تنظيم هؤلاء الضباط الشباب الذين قدموه كزعيم لهم بسبب من كونه ضابط كبير فى الرتبة العسكرية وفى السن ، إضافة إلى أنه محترم وله تاريخ ناصع البياض فى الخدمة العسكرية وقد أكسبته شجاعته وإقدامه فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م سمعة طيبة وكذلك مواقفة من الملك والحكومة وعدم رضاه على ما كان يجرى فى البلاد عموما وفى الجيش خصوصا قبل الانقلاب ، وهكذا صار بإرادة هؤلاء الضباط الشباب رئيسا للوزراء وقائدا للجيش ورئيسا للجمهورية لأنهم رأوا فيه من خلال ماضية الاستقامة والأمانة لضابط يريدونه واجهة لثورتهم أو انقلابهم ، وعلى هذا الوضع حظى اللواء محمد نجيب بتأييد شعبى منقطع النظير ، ومع الوقت وخلال المسيرة الظافرة وبريق المناصب حدث الخلاف فى الرأى والتناقض فى المواقف بينه وبين

الضباط الأحرار وكلهم كانوا برتب عسكرية أدنى منه وفى أعمار أصغر ، وكان لا يستسيغ تطلعاتهم الجامحة ورغباتهم فى تحقيق كثير من الأعمال وإقدامهم على قرارات يراها غير صائبة ، وفى هذا الوقت كان الخلاف قد دبّ بشكل ينذر بأحداث مخيفة بين الضبا ط وحركة الإخوان المسلمين لأن هؤلاء اعتقدوا أن من حقهم أن يملوا شروطهم أو على الأقل أن يستشارون فيما يجب أن يتخذ من قرارات ومنها تشكيل الوزارة ، وحدث أنه قد طلب منهم ترشيخ أربعة من الأعضاء بحيث يمكن اختيار اثنان منهم ليكونا وزيرين فى الحكومة الجديدة لكن مكتب المرشد العام للجماعة أرسل أسماء أربعة وطلب تعيينهم جميعا فى مناصب وزارية ولما لم تتم الموافقة على تعيين الأربعة رفض المرشد العام أن يشغل أى عضو من الإخوان منصب وزارى أو غيره ، وكان أن وقع الاختيار من جانب ضباط الجيش على الشيخ أحمد حسن الباقورى ليكون وزيرا للأوقاف فى الوزارة الجديدة وقد استشير فوافق وما كان من المرشد العام الأستاذ الهضيبى إلا أن فصله، ومن هنا بدأ الخلاف والاحتكاك واتجه كل جانب وجهة مختلفة ، الضباط يريدون الحفاظ على حركتهم وهم أصحاب حق، والإخوان وهم أصحاب جهد وتضحيات خصوصا أثناء العمليات الفدائية ضد الإنجليز فى السويس وخلال حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م ، ولقد انصرف الضباط إلى ترتيب البيت الداخلى وهم يتوجسون خيفة من كل شئ وصار الإخوان يبحثون عن نقاط الضعف ليستغلوها إما لفرض شروطهم أو للإطاحة بالحكم الذى يقيمه هؤلاء الضباط الشباب ككل ، وكان هذا الذى وصل إليه الطرفان (الخلاف والمواجهة) خسارة لهما فى وقت واحد فى تلك الفترة الحرجة ، وإذا كان الإخوان قد قرروا فرض رغباتهم أو مشروعهم ولو بالقوة صاروا يترقبون أى بادرة خلاف أو ثغرة فى الصف يمكن أن يضربوا من خلالها أو ينفذوا منها ، وسرعان ما بان الخلاف ولاح الضوء من الثغرة بين ما حدث من الصاغ صلاح سالم وزير الإعلام فى الوزارة الجديدة ضد اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية (وأبناء سالم صلاح وجمال) يتمتعان بقدر كبير من التهور حتى إن جمال سالم كان أكثر المتشددين بشأن شنق

الملك فاروق وعدم الموافقة على إخراجه من البلاد سالما وبسبب إصراره كان قد أثّر على عدد من زملائه الأعضاء وكان يمكن أن يشنق الملك فاروق لولا موقف جمال عبدالناصر الذى وصل إلى درجة التهديد بالاستقالة إن هم أصروا على شنق الملك، وإضافة إلى ذلك كانت هناك قضايا ملحّة تشغل بال ووقت هؤلاء الضباط منها مطلب جلاء القوات البريطانية التى كانت تقبض على رقاب الناس وتجثم على صدر مصر منذ قرابة ثمانية عقود من الزمان وبجانبها المناورات وتحيّن الفرص التى تقوم بها القوى المعادية للنظام الجديد محلية ودولية ، وفى شأن هذه القضايا كان موقف اللواء محمد نجيب مخالفا وقد أظهر معارضته لتناولها فى وقت مبكّر ولهذا التقى موقفه بشكل مباشر أو غير مباشر مع مواقف وآراء جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم من المعارضين ولا يعرف بداية ما إذا كان نجيب قد سعى إليهم أو أنهم هم الذين انتهزوا الفرصة ومدوا أيديهم إليه باعتباره الرئيس الذى يمكن أن يكون ممسكا بمقاليد الأمور فى حين أنهم (كما كانوا يعتقدون) يحوزون على تأييد شعبى هائل فى البلاد يمكن تحريكه فى أى لحظة ، ويظن أنهم أقنعوا نجيب بأن يفجر الصراع فى الوقت المناسب وذلك بتقديم استقالته وذلك ما فعله فى ٢٣ يوليو ١٩٥٥ وحدث فى نفس الوقت نوع من الإضراب أو العصيان عندما عقد ضباط سلاح الفرسان (المدرعات) اجتماعا أعلنوا منه بعض المطالب منها :

١- تعيين قائد عام للقوات المسلحة يكون من الضباط القدامى الذين يتمتعون بالخبرة والمقدرة (وهذا يعنى رفضهم لتعيين عبدالحكيم عامر قائدا عاما للجيش) .

٢- إلغاء تعيين وترقية عبدالحكيم عامر كقائد عام للقوات المسلحة .

٣- حل مجلس قيادة الثورة (الانقلاب) وعودة أعضائه إلى وحداتهم العسكرية بالجيش ، وكان قبل هذا الوقت قد أعلن عن أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وعلى الرغم من أن جمال عبدالناصر ومعه حسين الشافعى قد حاولا التفاهم مع ضباط سلاح الفرسان رغبة فى تهدئة الوضع وإقناع هؤلاء الضباط ومنهم عدد من الضباط الأحرار وعلى رأسهم خالد محى الدين لكنهما فشلا وكان الرد قد جاء سريعا عندما تسرب خبر العصيان أو التمرد وتلك المطالب التى

قدمها ضباط سلاح الفرسان حيث تحرك عدد كبير من ضباط الجيش كرد على ضباط سلاح الفرسان وحاصروا مقر القيادة العامة للقوات المسلحة مطالبين باستمرار مجلس قيادة الثورة وعدم ترك مواقعهم بحيث لا تسرق الثورة ، وهكذا اجتمع أعضاء المجلس وقرروا عدم قبول استقالة اللواء محمد نجيب وبقاءه رئيسا للجمهورية واختيار خالد محى الدين رئيسا للوزراء ، وكان محمد نجيب فى هذا الوقت مضربا عن العمل ومقيما فى منزله بحلمية الزيتون إلا أنه وافق على العودة عن الاستقالة عندما بلّغ بما تم الاتفاق عليه وأعلن بالإذاعة ، وهو فى معنى ما نصرا مؤزرا إلى حين ، على أن الوضع ظل متوترا والأعصاب مشدودة والمقابض على السلاح وكاد أن يحدث التقاتل بين مختلف وحدات الضباط المؤيدين والمعارضين وحدث أن حاصر سلاح المدفعية ثكنات سلاح الفرسان ووجهت مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات إلى المدرعات التى يتوقع تحريكها وكانت هذه القوات بقيادة ضباط قيل : إنهم مواليون لجمال عبدالناصر وهم :

١- أبوالفضل الجزاوى

٢- أحمد شهيب

٣- سعد زايد

٤- وإبواليسر الأنصارى

٥- وعماد رشدى

وفى ذات الوقت تحرك البوليس الحربى بمختلف قواته ليحاصر مناطق العباسية وكوبرى القبه وكان له أن اعتقل كل ضباط سلاح الفرسان الذين كانوا متجهين إلى أماكن وحداتهم وقد بلغ عددهم بين ٣٥- ٤٥ ضابطا ، كما كان سلاح الطيران الموالى للثورة يحلق فى الأجواء أيضا بقيادة الضباط المؤيدين لمجلس قيادة الثورة ، ولأن الأمر صار فى حقيقته مؤامرة على الثورة أوصى بها أو رتبها الإخوان المسلمون عن طريق اللواء محمد نجيب وحركتها استقالته (ربما فى الوقت غير المناسب) فقد تقرر اعتقال اللواء نجيب وأمر الصاغ كمال رفعت وعدد

من الضباط بالتوجه إلى منزله بحلمية الزيتون ليحتجزوه فى منطقة ألماظه (بنادى الضباط) ولكن عبدالحكيم عامر لم يقبل بهذا التصرف وما كان منه إلا أن أعاد اللواء نجيب إلى بيته وكان غاضبا حتى إنه طالب بطرد الذين قاموا بهذا العمل من مناصبهم مهما كانت أهميتها (وربما كان تعاطفه مع نجيب يعود إلى كونه هو الذى قدمه أصلا وزكّاه لدى عبدالناصر ليكون واجهة للانقلاب) وأن خالد محى الدين أيضا كان وراء أحداث تمرد ضباط سلاح الفرسان فقد طالب البعض باعتقاله وأخيرا رؤى أن يمنح أجازة مفتوحة يقضيها فى أوربا ويذكر أنها لأسباب صحية ، وفى هذه الأثناء عندما تسربت أخبار ما لحق باللواء محمد نجيب جرت مظاهرات وإضرابات مؤيدة له وكاد الوضع أن ينفجر حتى داخل القوات المسلحة إذ هددت بعض الأجنحة باستخدام القوة العسكرية لإعادة محمد نجيب وحتى فى السودان جرت مظاهرات تأييد له سارت فى شوارع الخرطوم تهتف بحياته (تعاطفا معه لأن أمه سودانية) ولقد اضطر أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى التراجع مؤقتا من أجل تهدئة الوضع فعقدوا اجتماعا طارئا فى ٢٧ فبراير ١٩٥٤م وأعلنوا موافقتهم على عودة محمد نجيب رئيسا للجمهورية وما كان من نجيب وقد وافق على العودة إلا أن ظهر ليلقى خطابا من مقره فى قصر عابدين وكان يمكن أن يمر ذلك دون إثارة لشكوك لكن الذى حدث أن أحد زعماء الإخوان المسلمين كان يقف إلى جانبه وقد ألقى خطابا هو الآخر فى المتظاهرين المؤيدين لعودة نجيب الشئ الذى مثل تحديا للضباط وهو ما أكد لرجال الانقلاب أن نجيب يخطط للعمل مستعينا بالإخوان المسلمين علنا وخصوصا أن الذى ظهر بجانبه كان (عبالقادر عوده) أحد الذين دارت حولهم شبهات التآمر ، وإن لم يكن نجيب قد خطط لذلك فلابد أن الإخوان هم الذين استطاعوا استخدام نجيب ، وفى أى الحالين فإن ذلك يعد عملا مضادا للتغيير ولتوجهات هؤلاء الضباط ، وقبل هذه الأحداث كان الإخوان قد أوحوا لبعض العناصر بمهاجمة ضباط الجيش الذين استولوا على الحكم بالقوة فى خطب الجمعة علما بأن مكتب المرشد العام للإخوان المسلمين كان فيما سبق وبعد اتخاذ قرار حل الأحزاب قد أطلق على حركة الضباط تعبير (الحركة المباركة) ذلك أن قرار حل الأحزاب الذى اتخذ سنة

١٩٥٣م لم يشمل تنظيم الإخوان حيث تأخر حل حركتهم إلى سنة ١٩٥٤م عندما توضح موقفهم من كل إجراء يقدم عليه ضباط الانقلاب ، ولقد تم إبلاغ محمد نجيب بواسطة عبدالحكيم عامر عن خطورة التعاون مع الإخوان لكنه رفض التوقف بل بالغ فى توسيع النشاط الذى كان يخشاه الضباط فمد يده لأعضاء ما كان يعرف بالحزب الاشتراكى والتنظيمات الشيوعية هؤلاء الذين يقفون موقفا مشابها للإخوان المسلمين من حركة التغيير ، أما الضباط فقد كانوا رغبة فى إتقاء العاصفة التى قد تطيح بالجميع قد قرروا اتخاذ خطوات اعتقدوا أنها ستهدى الوضع المتفجر ، وهى :

١- إلغاء الأحكام العرفية .

٢- إلغاء الرقابة على الصحف .

٣- إقامة جمعية تأسيسية بالاقتراع الحر العام تعقد أول اجتماع لها فى يوليو ١٩٥٤م بحيث تبحث فى مشروع الدستور وإتمام المهام التشريعية إلى أن ينتخب مجلس نيابى طبقا للدستور الذى تقره هذه الجمعية التأسيسية على أن يتم إلغاء الأحكام العرفية قبل الجمعية التأسيسية وعلى أن يمارس مجلس قيادة الثورة السلطة إلى أن تتم إقامة الجمعية التأسيسية التى تنتخب انتخابا حرا وبلا قيود .

٤- الإفراج عن الضباط الذين اعتقلوا خلال أحداث مارس وما عرف بقضية سلاح الفرسان .

٥- لا يتم حرمان أحد من حقوقه السياسية فيما عدا أولئك الذين أخضعوا لقانون الإصلاح الزراعى (أى الإقطاعيون والرأسماليون وملاك الأراضى من الباشاوات) والذين كانوا وزراء قبل التغيير فى سنة ١٩٥٢م .

٦- السماح بحرية تكوين الأحزاب .

٧- حل مجلس قيادة الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤م بحيث يتم تسليم حكم البلاد لممثلى الشعب .

٨- يتم انتخاب رئيسا للجمهورية من طرف الجمعية التأسيسة حال انعقادها ..

❁ ❁ ❁

لكن هذه القـرارات لم تفـد شيـئـا بل هى بالعكس زادت من نشـاط أولئك الذين اعتقدوا أن الفرصة سانحة للتخلص نهائيا من الضباط الذين قادوا بالتغيير إذ إن قراراتهم هذه تعنى العجز عن مواجهة المعارضة وعدم القدرة على حكم البلاد ، وكانت أغلب تلك الأنشطة المضادة بإيعاز أو بالتعاون مع اللواء محمد نجيب الذى وقع تحت تأثير عدة عوامل ربما كانت سببا فى هذا الموقف ، منها:

١ - إحساسه بأن هؤلاء الضباط الشباب الذين جاؤا به سوف يتخلصون منه بشكل (ربما مهين وهو الضابط المحترم) وبالتإلى لابد أن يسبقهم .

٢ - وأنه رمز للثورة أو بمـعنى ما أصبح قائد الانقلاب الـذى لولاه ما كان يمكن أن ينجح كما أفهمه أولئك المقربون منه أو المتعاونون معه وبشكل محدد الإخوان وقـيـادات حزب الوفـد .. إلخ ومن المؤكـد أن تعـاونه فى بداية الثـورة عـمل يحسب لصـالحه ، ولقد كانت المراهنـة خاسرة بكل المقاييس سـواء من جانب اللواء نجيب أو من جهة الإخوان المسلمين وقيادات حزب الوفد ..

وفى مواجهة هذه التحركات التى كـانت أجهزة الحكم الجديد ترصدها بدقة تقرر مواجهتها بانقـلاب مضاد وباتخاذ قرار إلغاء تلك الإجراءات التى أعلنت فى ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤م بشأن الجمعية التأسيسـة وحرية تكوين الأحزاب .. إلخ ، وهكذا تم تحريك بعض القوى المرتبطة والمستفيدة من التغيير وهى :

١ - نقابات العمال . ٢- بعض قطاعات الطلبة .

٣- القوى الوطنية الأخرى التى كانت تدرك مفاسد الحكم السابق .

وفـورا أعلن المؤتمر العام لنقـابات العـمال الإضـراب العام من أول مـارس ١٩٥٤م مطالبـا بإلغـاء القرارات التـى اتخذت منهـا حل مـجلس قـيادة الثـورة ، واشترك فى الإضـراب نقابات النقل العام وسائقى سيارات الأجـرة وعمال السكة الحديـد وعمـال الغزل والنسـيج ، ونتج عن هذه الإجراءات الاحـتيـاطية المـضادة

لإعداء التغيير أن أقيل اللواء محمد نجيب الذى كان يراد له من طرف المعارضين للضباط أن يمثل ضمانتهم داخل القوات المسلحة ، كذلك إقالة خالد محى الدين من مجلس قيادة الثورة وهو الذى اعتبر مؤيدا لنجيب وسببا فى أحداث مارس ١٩٥٢م وكان لابد من الإسراع فى ترتيب الأمور فاتخذت القرارات التالية :

١ - تعيين جمال عبدالناصر رئيسا لمجلس الوزراء .

٢ - اعتقال الضباط التابعين لسلاح الفرسان (المدرعات) وهم الذين حاولوا التمرد على القيادة واعتبر عملهم محاولة لقلب نظام الحكم الجديد .

٣- اعتقال قيادات الإخوان المسلمين الذين كانوا سببا فى دفع اللواء نجيب إلى ما قام به محاولين معه الانقلاب على الانقلاب .

٤ - اعتقال بعض قيادات الشيوعيين الذين أثاروا كثيرا من الشغب حسب تقديرات أجهزة الأمن والمخابرات ،ولقد قالت تلك التقارير إنه من الغريب أن يلتقى الشيوعيون والإخوان على موقف واحد من التغيير وفى ترتيب مؤامرة قد تدمر البلاد إذا ما صحت تقارير المخابرات ، وكانت نتيجة فترة الاضطراب هذه ما يلى :

١ - حل الأحزاب السياسية .

٢ - عزل اللواء محمد نجيب .

٣- حل تنظيم الإخوان المسلمين .

٤ - تعطيل بعض الصحف (صحيفة المصرى) .

٥ - القبض على ضباط سلاح الفرسان .

٦- حل نقابة الصحفيين .

٧- حل نقابة المحامين .

٨- إقالة خالد محى الدين من المجلس .

وكان الجهاز السرى للإخوان المسلمين قد حاول اغتيال جمال عبدالناصر يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤م وإذ كانت المحاولة قد فشلت حيث تم القبض على الجانى المدعو (محمود عبداللطيف) وبالتالى القبض على أغلب عناصر الجهاز السرى للإخوان وتكشفت خطوط المؤامرة وكان من ضمن عناصرها اللواء محمد نجيب ..

وإلى هنا أسدل الستار على حياة رجال وتنظيمات كانت تطمح إلى تولى الحكم من بين أيدى الضباط الذين قاموا بالتغيير ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، وبدأت مسيرة طويلة وشاقة أخرى ستواجهها مؤامرات وحروب وتقلبات ، الحكم فيها وفى أسبابها ونتائجها للتاريخ على أننا سنرويها دون تحيّز أو تغيير .



الفصل الثالث

التنمية الوطنية (الخطوات التى يتوقع فيها أن يزدهر الحاضر ويولد المستقبل ..)

١- فتح الأبواب رغبة فى الاستثمار الأجنبى .

٢- بناء التنمية الوطنية .

٣- المشاريع الصناعية والزراعية .

الفصل الثالث

التنمية الوطنية
الخطوات التى يتوقع فيها
أن يزدهر الحاضر ويولد المستقبل ..

١ - فتح الأبواب رغبة فى الاستثمار الأجنبى .

٢- بناء التنمية الوطنية .

٣- المشاريع الصناعية والزراعية .

فى أول اجتماع لهيئة الخبراء برئاسة جمال عبدالناصر أولئك الذين تم اختيارهم سنة ١٩٥٢م من مختلف القطاعات والتخصصات طرح عبدالناصر سؤالا بسيطا (كيف نبنى ، وعلى ماذا ؟) فقيل له :

١ - التعجيل بمعدل النمو والتوزيع العادل للناتج الوطنى .

٢- إجراء تغيير أساسى اجتماعى بحيث يمنع ملاّك الأراضى والثروات الزراعية من تعطيل التغيير الإقتصادى .

٣- إصدار قانون خاص بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية بحيث يحدث التوازن بينهما .

٤ - تأسيس هيئة للتخطيط الوطنى تكون مهمتها جمع البيانات وتحليلها بحيث تقدم للجهات المختصة فى كل فرع من فروع التنمية .

ومقابل هذا لابد من دور حاسم للدولة لأنه لا يمكن أن يتحقق البناء والتطوير المستقبلى ما لم تمتلك الدولة أعنّة قطاع إنتاج كبير ، وفتح الباب لرأس المال الأجنبى من أجل الاستثمار واستمر البحث والنقاش لتحديد أساس

موضوعى للعمل وخطة قابلة للتنفيذ على ضوء إمكانيات البلد العلمية والفكرية والفنية والتنفيذية والمالية فى وقت كان فيه أمام عبدالناصر ورجاله أهم مشروع يرونه عاجلا لتحقيق طموحاتهم فى نوع من التوازن وإحداث كثير من التغيير ، ذلك هو مشروع الإصلاح الزراعى الذى من أجله أطيح بأول حكومة كانت برئاسة مدنى هو (على ماهر) الذى جاؤا به بعد الانقلاب مباشرة ، وتنفيذ هذا المشروع كان يعنى الكثير وقتئذ من وجهة نظرهم وطبقا لنصائح الخبراء :

١- يعنى تحرير الفلاح المصرى من الاستغلال والعبودية .

٢- يعنى تمليك قطعة أرض زراعية لفلاح لم يحلم فيما مضى بتملك شبر من هذه الأرض .

٣- يعنى تحرير الفلاح من كرباج (الباشا) وضيمه وغطرسته .

٤- يعنى أن خمسة عشر مليونا من الفلاحين المصريين سيملكون أرضا زراعية وسيعملون لأنفسهم ويحسّون بكرامتهم ، خمسة عشر مليونا من مجموع السكان وقتذاك البالغ عددهم واحدا وعشرون مليونا ، أى أكثر من ثلثى سكان مصر .

٥- يعنى أبلغ ما يعنى تحرير لقمة العيش لإنسان كان مقهورا مستغلا لعدة قرون من الزمان .

هذا مجمل ما كان يعنى ويستهدف أول مشروع أراده هؤلاء الرجال ، ولقد كانت مساحة الأرض الزراعية أو المزروعة قبيل حدوث التغيير سنة ١٩٥٢م ستة ملايين فدان فقط منها خمسة ملايين فدان مملوكة لقلّة من السكان (٦) ولذلك حدث إنه فيما يتعلق بتعجيل معدل النمو والتوزيع العادل للناتج الوطنى صدر قانون الإصلاح الزراعى رقم (١٧٨) فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢م الخاص بتوزيع الأرض وتنظيم الزراعة التعاونية وهو القانون الذى وضع حدّا للملكية الفرد بما لا يزيد على ٢٠٠ فدان مع إمكانية إضافة ١٠٠ فدان أخرى للزوجة والأولاد وما زاد

(٦) إحصاء سنة ١٩٦١م - النشرة الاقتصادية .

عن ذلك يصادر ويوزّع على الفلاحين بين فدانين إلى خمسة فدادين لكل مزارع ويقوم التوزيع ونسبته على أساس عدد أفراد أسرة الفلاح وعلى صلاحية الأرض الموزعة ، وكان الغرض الأساسى المستهدف من هذا القانون محو القيود الاقتصادية والاجتماعية بحيث تنقل ملكية الأرض من قلّة محتكرة إلى أغلبية محرومة، ذلك أن تلك القلّة كانت تسيطر على كل شئ بما فى ذلك القرار السياسى وورقة الانتخاب أو حتى إذن الدفن بسبب الثروة والمكانة الاجتماعية التى كانت تحددها ملكية الأرض والمال ، وهذان الوضعان (المكانة والثروة) كانا إما بالإرث أو الاغتصاب ، والأخيرة هى الأرجح، وبصدور وتنفيذ هذا القانون وضع حدّاً للملكية الزائدة وأحدث التغيير الاجتماعى المطلوب.

أما بالنسبة للتغيير الأساسى الاجتماعى بحيث يمنع ملاّك الأراضى من تعطيل ذلك التغيير فقد صدر قانون ثانى للإصلاح الزراعى برقم (١٢٧) بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٦١م أنقص حق ملكية الفرد من ٢٠٠ فدان إلى ١٠٠ فدان كما حدد هذا القانون نسبة الأراضى المستأجرة بما لا يزيد على ٥٠ فدان ، ويذكر تقرير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء بمصر أن مجموع ما وزّع على صغار الملاك بلغ حوإلى مليون فدان [٧] ..

وبالنسبة للقانون الخاص بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية بحيث يحدث التوازن بينهما فقد نص الدستور الذى صدر بقرار جمهوري فى ١٦ يناير ١٩٥٦م على التنمية المخططة والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى للسكان حيث جاء فى المادة (٧) ما يلى :

(يتم تنظيم مبادئ العدل الاجتماعى واستهداف تشجيع الإنتاج ورفع مستويات المعيشة) وهذا يعنى بكل وضوح أن الدولة يتعين عليها أن تعنى بسرعة التنمية الاقتصادية خدمة لعامة الشعب ، وإن تكون التنمية فى المجالين

(٧) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء - القاهرة .

(الاقتصادى والاجتماعى) متوازية بحيث يحدث فيما يتعلق بالجانب الاقتصادى أن تكون سياسة الدولة تتركز على الإسراع فى التنمية ورفع مستوى الإنتاج المحلى لمواجهة تزايد السكان وتحقيق نوع من الرفاهية ، ومن الجانب الاجتماعى تسريع الخدمات لمواجهة زيادة الاستهلاك الذى سيحدث من جانب مواطن يتحسن دخله إذ إنه لا يمكن إيجاد سوق للإنتاج المحلى دون تقدم فى الإنتاج الزراعى لأن الفلاحين وهم النسبة الكبيرة بين السكان سوف تتزايد دخولهم وبالتالى يقدمون على شراء الإنتاج المحلى كما تتحسن معيشتهم ، وينتهى حرمانهم الذى عانوا منه طويلا (٨) .



وبالنسبة لتأسيس هيئة تعنى بالخطيط الوطنى تكون مهمتها جمع البيانات وتحليلها لتقدم إلى جهات الاختصاص فى مختلف الفروع ، فقد شكلت لجنة التخطيط الوطنى سنة ١٩٥٧م وهى تابعة فى البداية لرئاسة الجمهورية ولكن فيما بعد رؤى أن تلحق بوزارة التخطيط التى أنشئت هى الأخرى بعد الهيئة مباشرة ، وكانت تلك الهيئة تجمع نخبة ممتازة من خبراء الاقتصاد والإصلاح الزراعى والصناعة والكهرباء والنقل والمنافع العامة والخدمات والصرف الصحى والمياه الجوفية والمواصلات والتجارة والسياحة .. إلخ ونتيجة للبحوث والدراسات الفنية والعلمية الدقيقة تقررت أول خطة خمسية يتوقع خلالها إنجاز قرابة ألفى مشروع خدمى وإنتاجى (زراعى اقتصادى صناعى تجارى) ولقد كانت الخطة الخمسية الأولى هذه تستهدف تحقيق مجموعة من المشاريع التنموية وهى :

١- خلق توازن بين التوسع فى إنتاج السلع والزيادة فى إنتاج الخدمات بحيث يكون التوسع فى إنتاج السلع المصدر المناسب الذى يضمن الزيادة فى إنتاج الخدمات .

٢- إيجاد الحلول الواقعية التى تضمن زيادة الدخل الوطنى التى من خلالها يمكن ارتفاع المستوى المعيشى للسكان يتوافق مع تزايدهم المستمر .

---

(٨) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء - القاهرة .

٣- تحقيق توسع كبير فى الصناعات دعما للاستقلال الوطنى بحيث تكون عماد الاقتصاد الوطنى مما يتوافق مع الزيادة الممكنة فى الإنتاج الزراعى .

٤- خلق فرص للعمل بحيث يقضى على البطالة أو التخفيف منها حتى يحس المواطن بفائدة الخطة وأهدافها .

٥- تحقيق العدالة الكاملة والصحيحة فى التوزيع بزيادة الإنتاج الذى يرسى القاعدة لعدالة التوزيع .

٦- إيجاد الحلول لأى عجز قد يطرأ فى ميزان المدفوعات مع الخارج أثناء المرحلة الأولى للتنمية بحيث لا يحدث العجز فى المدفوعات ويحدث التراكم .

لقد كانت الخطة الخمسية هذه تشير وتحدد أهداف الإنتاج لكل فرع من أفرع الاقتصاد والعمالة فى كل منها والزيادة المستهدفة فى القيمة المضافة ومصادر استخدامات السلع الرئيسية فى الاستيراد والتصدير وتوقعات الزيادات السكانية والتحويلات المحلية والخارجية .

وثانيا : كان الهدف المباشر الثانى من الخطة زيادة حجم الإنتاج الوطنى لتحدث استفادة الناس، ولابد أن الزيادة فى الإنتاج يقابلها زيادة فى الأيدى العاملة المدربة وهذا يؤدى إلى تسيير العمل الإنتاجى بشكل جيد تكون فيه الفائدة لأكبر عدد من الناس مما يعنى عدالة اجتماعية حقيقية ، وكذلك فإن هذا يوفر موردا ثابتا لدخل الفرد فلا تحدث الكثرة دون إنتاج ولا القلّة من العمالة خلال سنوات الخطة الخمسية هذه ، وتأخذ الخطة فى تقديراتها بشكل جلى العمل فى الإنتاج الزراعى الذى يفى باحتياجات تلك القوى العاملة التى ربما تكون زائدة ، وحيث إن الزراعة فى بلد نامى تكون أساس البناء الاقتصادى وتدعيم سوق الإنتاج المحلى فلابد من اعتبارها تفى بالتإلى:

١- الدخل المناسب لسكان الريف وهم الغالبية من عدد السكان .

٢- تتمثل فيها النسبة العالية لسد حاجات الفرد من استهلاكه اليومى .

٣- تقدم للصناعات المحلية ما تحتاج نسبيا من الخدمات المطلوبة التى تساعد على التبادل التجارى المنتج مع مختلف الدول .

٤- توسع سوق المنتجات المحلية ذلك أن توفر الإنتاج لدى الفلاح يوفر له دخلا يمكّنه من شراء السلع .

٥- تتكون مع الصناعة دعامة النشاط الاقتصادى .

وقد أستهدف الجزء المتعلق بالصناعة فى الخطة الخمسية عدة أمور هامة على أساس أن تنفيذ هذه الخطة سيرفع من مستوى الإنسان المصرى المعيشى بحيث يتقدم فى معاشه وسكناه وكذلك ترتقى الخطة إلى مستوى مواجهة الزيادة السكانية مع ملاحظة ذات أهمية فى الوقت الذى ينصب فيه الاهتمام على توفير السكن المناسب فإن ظاهرة سكنى المقابر لم تكن موجودة فى ذلك الوقت بينما هى الآن قاعدة وليس استثناء فقد بلغ عدد سكان المقابر عدة ملايين بل إن الأحزاب ومراكز الشرطة صارت لها مكاتب ومقار فى تلك المقابر ، وكان المتوقع أن يحدث :

١- توفير فرص العمل الدائم للمواطنين بحيث تنتهى أزمة البطالة .

٢- زيادة الدخل الوطنى باستغلال الموارد وثروات البلاد الطبيعية .

٣- تحسين وضع المنتجات للتصدير من أجل الحصول على النقد الأجنبى وكذلك الميزان التجارى .

٤- تحرير الاقتصاد الوطنى من تبعيته للاقتصاد الأجنبى وحمايته من التدخل والتأثير .

ثم اهتم المخطط بالعناصر الأخرى المرافقة للإنتاج سواء أكان زراعيا أو صناعيا إضافة إلى العنصر البشرى وتمثل ذلك فى :

١- المواصلات .　　　٢- النقل .

٣- التخزين .

وقدرت دراسات وزارة التخطيط وكذلك الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء فى مصر أن تنهض وتحقق الخطة الخمسية ما يلى :

١ - ٤٠٪ زيادة فى الدخل الوطنى سنة ٥٩ - ٦٠ .

٢ - ٤٢٪ زيادة فى إجمالى الإنتاج الوطنى سنة ٦٤ - ٦٥ .

٣ - إجمالى الإنتاج الوطنى التنموى سيبلغ قرابة ٨٪ عند انتهاء الخطة الخمسية الأولى .

ويورد شوقى عبدالناصر فى كتابه (ثورة عبـدالناصر) إحصائيات كثيرة فى الصناعة والزيادة نستدل بجزء منها فى الصناعة ، يقول :

١ - سنة ١٩٥٢م كان الدخل القومى لمصر ٦٦٠ مليون جنيه .

٢- سنة ١٩٥٩ أصبح الدخل القومى لمصر ١٣٠٠ مليون جنيه .

٣- سنة ١٩٥٢م كان إنتاجنا الصناعى ٢٣٩ مليون جنيه .

٤ - سنة ١٩٥٩م أصبح إنتاجنا الصناعى ٥٠٥ مليون جنيه .

ثم يضيف :

١ - زاد إنتاجنا حتى نهاية ١٩٥٩م من غزل القطن بنسبة ٧١٪ .

٢-زاد عدد المغازل فى نفس التاريخ بنسبة ٣٤٠ ٪ نفس المدة .

٣- زاد إنتاجنا من الأسمنت الأزوتى بنسبة ١٣٥٪ نفس المدة .

٤ - زاد إنتاجنا من الأسمدة ٥٦ ٪ نفس المدة .

٥ - زاد إنتاجنا من السكر بنسبة ٧٠ ٪ .

٦ - زاد إنتاجنا من الورق بنسبة ١٤١ ٪ .

٧- زاد إنتاجنا من غزل الصوف بنسبة ٢٣٥ ٪ .

٨- زاد إنتاجنا من نسيج الصوف بنسبة ١٨٠ ٪ .

٩ - زاد إنتاجنا من غزل الحرير الصناعى بنسبة ٢٠٠ ٪ .

١٠ - زاد إنتاجنا من نسيج الحرير الصناعى بنسبة ٩١ ٪ .

١١- زاد إنتاجنا من غزل الجوت بنسبة ٢٢٣ ٪ .

١٢-زاد إنتاجنا من مسطح الزجاج بنسبة ٢٦٤ ٪ .

١٣- زاد إنتاجنا من البطاريات السائلة بنسبة ٣٧٢ ٪ .

١٤- زاد إنتاجنا من المصابيح الكهربائية بنسبة ٢٠٠ ٪ .

١٥- زاد إنتاجنا من خامات الألوان بنسبة ٣٨٠ ٪ .

ولا ينتهى الأستاذ شوقى عند هذا الحد بل يقدم مئات الإحصائيات فى الصناعة والزراعة فى مختلف وسائل الإنتاج الخفيف والثقيل .. إلخ ولقد أردت أن أستدل ببعض منها فقط كنموذج من نتائج الخطط التى أعدت وتنفذ فى كل المجالات الصناعية والزراعية والاقتصادية والثقافية وغيرها على الرغم من أننى أردت بكتابى هذا أن أبتعد عن الصياغات الجاهزة أو الكتابات المكررة حتى لو كانت عن جمال عبدالناصر الذى أسعى أن أقدمه فى ثوب مختلف كما عرفته عن قرب وما سمعته من أولئك الرجال الذين كانوا معه وعونا له ..

❁ ❁ ❁

ونجد جمال عبدالناصر وهو يدشن أول خطوات تنفيذ الخطة الخمسية يقول :

(إن اشتراكيتنا فى التوزيع تقوم على مبدأ كل بقدر إنتاجه وعمله وليس حاجته وفى هذا تكريم للعمل وإثارة للحوافز والإتقان وزيادة الإنتاج بعكس الماركسية التى تطبق مبدأ لكل حسب حاجته، إن اشتراكيتنا لم تأخذ بتأميم ملكية الأرض وإنما أمنت بالملكية الخاصة فى قطاع الزراعة وبما لا يسمح بالاستغلال عن طريق تفتيت الملكيات الكبيرة بمقتضى قوانين الإصلاح الزراعى وزيادة عدد الملاّك من صغار المعدمين من الفلاحين ، وهكذا فهى بيت سعيد لكل أسرة يقوم على عمل القادرين أو المهنيين للعمل رجالا ونساء (مجتمع الرفاهية) مجتمع تكافؤ الفرص ، مجتمع العدالة الاجتماعية لكل أسرة ، ثم يقول - نحن نؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقّا وعليه واجبا يكافئ هذا الحق ، وأن على الدولة لكل فرد فيها

واجبا ولها عليه حقًا يكافئ هذا الواجب ، فهى تبعات متبادلة بين الحاكمين والمحكومين ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقات قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد ، هذا ديننا وذلك دين الشيوعية فلتؤمن الشيوعية بما تشاء فليس يعنينا ما تؤمن به وما تكفر به ، وإنما يعنينا أن نؤكد إيماننا بديننا الذى ندين لله عليه ونترسم دستوره فيما نعمل لأنفسنا ولقومنا (٩) ..



وفى مناسبة توزيع أول دفعة من قطع الأراضى على الملاك الجدد قال جمال عبدالناصر :

(لقد ثرنا من أجل الفلاح والعامل ، إن مصر يجب أن تحيا كريمة عزيزة قويه، إن مصر جديرة بحبنا لها واستشهادنا من أجلها وفى سبيلها ، ولقد قامت الثورة لتدافع عن حقوق الفلاح والعامل، قامت لتوزع ثروة الأرض فى مصر على أهل مصر ، إن الله يحب الأقوياء ويكره المستضعفين ، لقد ضعفنا كثيرا ودفعنا ثمن ضعفنا غاليا ، يجب أن ننظر إلى الماضى ولا ننساه ولنتخذ من كل ما رأيناه عضة وعبرة ، لقد مكنا حفنة من الناس لا تحس بإحساسنا وآلامنا أن تتحكم فينا وفى رقابنا ، لقد استبدوا بنا واتخذونا مطية لأغراضهم ، لن ننسى الماضى ولن تعود عقارب الساعة إلى الوراء ، إن الطريق أمامنا وعر وصعب ، شاق وصعب ، سنستمر فى الكفاح حتى نصل إلى أهدافنا وحريتنا ، إذا تحررت مصر فقد تحرر الإسلام ، يجب أن نحرر أنفسنا أولاً ونثق فى وطننا ، يجب أن نتحرر من الخوف والفزع لنسير فى طريقنا ونحقق آمالنا (١٠) .

وإذ أشارت الخطة الخمسية إلى أهمية الادخار والاستثمار فقد فتحت الأبواب من أجل استدعاء الاستثمار الأجنبى ، فما الذى حدث وما هى المشاريع التى جاء من أجلها الاستثمار الأجنبى وكم كانت ؟

(٩) كتاب سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر - تأليف سامى شرف - ص ٢٩١ .
(١٠) كتاب ثورة عبد الناصر - تأليف شوقى عبد الناصر - ص ٦٤ .

صدر قانون الاستثمار رقم ١٥٦ سنة ١٩٥٢م وقد حدد المال الأجنبى للاستثمار بأنه يشمل تلك الأموال التى تحول عن طريق البنوك والآلات والمعدات الزراعية ووسائل النقل والمواد الأولية ، وتقرر أن ينتفع بهذا القانون من كان مستثمرا فى مشروعات الصناعة والزراعة والتعدين والقوى المحركة والنقل والسياحة ، كما بيّن القانون نسب تحويل الربح وحصص الخبراء الأجانب الذين يعملون فى المشروع ، وكذلك نص على تشكيل لجنة بوزارة المالية المصرية عملها استثمار المال الأجنبى تمثل فيها الوزارات المعنية وتقدم إليها طلبات المشروعات الاستثمارية وتكون مهمتها المساعدة فى الحصول على التأشيرات للأجانب واعتماد تحويل المكافآت ، واستتبع هذا القانون بقانون آخر نص على المزيد من الضمانات لرأس مال الأجنبى حيث أعفاه من ضريبة الأرباح التجارية والضريبة على القيم المنقولة لمدة سبع سنوات ، وأعفى شركات المساهمة وشركات التوصية والتى تنشأ ويكون غرضها لازما للتنمية سواء من طريق الصناعة أو التعدين أو القوى المحركة أو الفنادق أو استصلاح الأراضى البور (١١).

ورغم كل هذه المزايا والتشجيع فقد سجل خلال ثلاث سنوات إن مساهمات رأس المال الأجنبى لم تدخل فى غير السياحة وصناعة الأحذية بمبالغ لم تتجاوز نصف مليون جنيه (١٢).

ولقد أورد شوقى عبدالناصر رأى جمال عبدالناصر فى مسألة الاستثمار الأجنبى وكانت كما يلى :

(من أول يوم فى الثورة جاء رأس المال الأجنبى عاوز يشتغل ، قلنا مافيش مانع نعمل له قانون خاص ، نضمن له حقوقه وأمواله ، قعدنا نحايل فيهم ونطبطب عليهم ومع ذلك كل ما دخل مصر فى تسع سنوات ثمانية ملايين جنيه ،

---

(١١) تقرير المجلس القومى للإنتاج ٥٦ .

(١٢) ثورة عبد الناصر - تأليف شوقى عبد الناصر - ص ٣٤٨ .

معظمـها فى البتـرول ، بعد كده أنا قلـت موش عاوز رأس مال أجـنبى خالص يدخل لاستثمـار لأن احنا بناخذ فى هذه الأمور خازوق كبير خـالص ، الأجنبى عاوز يجيب معاه قـرشين تافهين ويعمل بيهم مشـروع تافه وبعدين طبقا للقـانون يحول أرباحه إلى الخارج إلى الأبد ، أنا ضد أى استثمار أجنبى إلا إذا كان فى مشروعات تحتاج إلى تقدم علمى نفتقر إليه ، أو أبحاث جديدة علينا مثل صناعة الأدوية .

رأس المال الأجنبى عاوز يعمل مـشروعات سريعة تجيب ربح سـريع كبير ، مصلحتـه قبل مصلحة البلد ، ممكن يعـمل مصانع كوكـاكولا أو ١٠ لوكاندات أو عشر قرى سياحية يكسب فى السنه ٥٠٪ ولو قدر يرفعها ١٠٠٪ ما فيش مانع، ولهذا فإن الاستثمار لازم يكون له هدفين :

١ - أن الناس تجد فرص عمل .

٢ - أنه يخدم خطة البلد لزيادة الدخل القومى .. انتهى [١٣].

والواقع أن برامج وأهداف الثورة الطموحة لم يقابلها حماس المواطن ولا دراية الموظف لأسباب عدة منها :

١ - تلك الموروثات التى تعشـعش فى أدمـغة الـناس ، الموظف كسـول مـرتشى ، والمواطن لا مبإلى اتكإلى .

٢ - جهاز الدولة بيروقراطى قاتل ممل يحتاج إلى وقت طويل لإنجاز أى عمل بلا رغبة .

٣ - منظر الملفات والأوراق المكدّسة والموظف الذى ينظر شزرا لكل من يتقدم إليه

٤ - عـدم إدراك أهميـة المشـاريع الجديدة التـى جاءت بهـا الخطط ، وكـما يقـال : (الناس أعداء ما جهلوا) .

---

(١٣) نفـس المصـدر .



أرض الإقطاعيين وزعت على أصحابها من الفلاحين

عبد الناصر ونهرو مع الملاك الجدد للأرض

في الصورة العليا عبدالناصر يوزّع أرض الإقطاعيين على الفلاحين .
وفي الصورة السفلى عبدالناصر وصديقه رئيس وزراء الهند نهرو مع الملاّك الجدد للأرض ..

حتى إن عبدالناصر نفسه قال ذات مرة :

بعد كده بدأ الانحراف .. الانحراف إزاى ؟

كان فيه قطاع خاص فقط أصبح فيه قطاع عام أيضا ، كنا نصرف على الصناعة فى السنة اثنين مليون جنية أصبحنا نصرف عليها سنة ١٩٥٥م ٨٨ مليون، ميزانية المبانى كانت ٥ مليون أصبحت ١٦٠ مليون ..

الرأسمالية المستغلة تريد أن تربح الربح الفاحش الحرام ، وبدأت عملية الفساد ، اللى عايز عملية يكسب فيها ٢٠٠ ألف جنيه ماعندوش مانع يدفع ٢٥ ألف جنيه رشوة .

نرفض آلات من صنع مصانعنا مطابقة للمواصفات العالمية ونقبل عروض للاستيراد من الخارج بالعملة الصعبة والسبب الرشاوى . أصبح الاستيراد كله تهريب ورشاوى . وكان الأحسن والأسلم أن نسد باب الفساد ونضع جميع مصادره تحت سيطرة الدولة ، لهذا جعلنا الصناعات الثقيلة والمقاولات ضمن القطاع العام وجعلنا الاستيراد وجزء من التصدير حق للدولة فقط [١٤] انتهى .

هكذا حدث بالضبط ، وهذا حال التحول من نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى وعند التحول يحدث فى الغالب تنفيذ الاشتراكية بأدوات رأسمالية ، أى تنفيذ منهج بأيدى أعدائه ، ومن هنا يحدث إما فشل المشاريع بالكامل أو إدخالها فى مشاكل اقتصادية وخسائر فادحة ، وأذكر أننى رأيت الكثير من الفساد والتسيب والبيروقراطية عندما كنت مقيما فى موسكو كسفير لبلادى رغم مرور ثلاثة أرباع القرن على التطبيق الاشتراكى المتشدد هناك ، ورأيت أساليب الرأسمالية والبيروقراطية بشكل أشد وأبشع عن قرب عندما كنت كاتبا متجولا وزرت أغلب الجمهوريات السوفيتية ، ولهذا أقول : إن عيوب الممارسة فى اشتراكية عبدالناصر ومظاهر البيروقراطية والتسيّب فى بداية عهده لا يمكن اعتبارها معرّة لتلك التجربة بسبب قصر زمنها ، ولو استمر الحكم الوطنى فى ظل

(١٤) كتاب ثورة عبد الناصر - شوقى عبد الناصر - ص ٣٤٨ .

ثورة عبدالناصر وقتا أطول لكان يمكن أن تنضج التجربة ويستقيم الطريق ، كما أنه يمكن القول أن النظام أو الرجال الذين جاءوا بعد عـبدالناصر لو كانوا صادقين فى توجهاتهم وملتزمين بمنهج الثورة لكانت مصر أفضل مما هى عليه الآن..



الفصل الرابع

محاولات التركيع وكسر العظم

١- الضغوط والمؤامرات المحلية .

٢- الضغوط والمؤامرات الخارجية ، إقليمية ودولية .

٣- ردود الفعل من أجل حماية النفس والمكتسبات .

الفصل الرابع

محاولات التركيع وكسر العظم

١- الضغوط والمؤامرات المحلية .

٢- الضغوط والمؤامرات الخارجية ، إقليمية ودولية .

٣- ردود الفعل من أجل حماية النفس والمكتسبات .

تغيير أى حكم بانقلاب أو ثورة وخصوصا فى العالم الثالث لابد أن يضار منه بعض الناس في المال أو الممتلكات أو الوظائف أو حتى الحياة ، وحجم الضرر (إذا صح التعبير) يعتمد على وضع المجتمع والبلاد ونظام الحكم السابق ، (أى قبل حدوث الانقلاب) وكان النظام القائم فى مصر ملكى رجاله غالبا غرباء ألبان من محمد على الكبير سنة ١٨٠٥ وهو رجل عظيم على الرغم من أنه أول من استن قاعدة الإقطاع الزراعى فى مصر إلى فاروق سنة ١٩٥٢م وهو حاكم فاسد ، ومن المعروف أن محمد على الكبير جاء من مقدونيا ويعد من بناة الصناعة فى مصر وقد توفى سنة ١٨٤٥م وترك وشركس ويونان وطليان إلخ) والانقلاب أو التغيير لا يكون إلا أحد اثنين :

١- انقلاب من أجل الحكم فقط وبالتالى استبدال شخص بآخر يجلس على كرسى الحكم ، وهذا غالبا لا يحدث أى تغيير ولا يبدّل حال وقد لا يواجه صعاب أو مشاكل فيبقى كل شئ على حاله.

٢- انقلاب أو تغيير يتطور إلى ثورة يقضى على كل عيوب وسوءات ومفاسد ما قبله وهنا يمس مصالح بعض الناس وخصوصا أولئك الحكام الذين أطاح بهم والمرتبطون معهم بالمصالح أو الوظائف ..

وانقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان من النوع الثانى وسرعان ما تحول إلى ثورة غيرت كل شئ فى مصر غالبا إلى الأفضل ولقد مسّت كل مفاصل المجتمع لتقطع الفاسد منها وتبقى على الصالح ، وهكذا تجمع الفاسدون والمفسدون والطامعون والمرتبطون بغرب أو شرق أملا فى إيقاف عقارب الساعة وعجلة الزمن ، ويمكن القول أن أول عناصر الصدام كان مشروع الإصلاح الزراعى ، هذا المشروع الذى استهدف مصادرة الأراضى الزراعية من ملاكها الإقطاعيين أو بالأحرى مغتصبيها وتوزيعها على الفلاحين أصحاب الحق فيها والمحرومين منها منذ قرون ، ولقد كان الإقطاع والاستيلاء على الأراضى الزراعية قد بدأ مع محمد على الكبير خلال بداية القرن التاسع عشر حيث صار يوزع الأرض على أقاربه وضباط جيشه من الألبان والأكراد والشراكسة والأتراك وعلى الأعيان وكبار الموظفين ، وتملك هو نفسه آلاف الآلاف من الأراضى مع من عليها من فلاحين ، وبذلك يكون قد وضع سنّة أصبحت قاعدة بعده ، ويذكر أن الملك فاروق قد ورث عن أبيه فؤاد ١٥ ألف فدان زادت أثناء حكمه إلى ٤٨ ألف فدان كما استحوذ على ٤٥ ألف فدان من أراضى الأوقاف ، وكان والده فؤاد الأول عندما تولى الحكم سنة ١٩١٧م يمتلك ثلاثمائة فدان زادها فيما بعد وكانت قد بلغت ٢٨ ألف فدان عند وفاته سنة ١٩٣٦م كما كان الخديوى إسماعيل عندما تولى الحكم يمتلك ١٥ ألف فدان زادها خلال ١٧ سنة من حكمه لتبلغ ٥٩٠ ألف فدان ، وتبعا لهذه السنّة اتسعت طبقة الاحتكاريين والإقطاعيين وزادت سيطرتها فى امتلاك الأراضى حتى أن ٢٧ مالكا من أسرة محمد على الكبير كانوا يملكون حوإلى ١٤٤ ألف فدان غير أراضى الأوقاف أما الأسرة والأقارب والأصهار فكانوا يملكون حوإلى نصف مليون فدان سنة ١٩٣٩م وكان عدد ١٣ ألف مالك يستحوذون على قرابة ثلاثة ملايين فدان من إجمالى الأراضى الزراعية البالغة ستة ملايين فدان [١٥] ولقد استمرت عملية الاستحواذ والاغتصاب والاحتكار من سنة ١٨٠٥ إلى سنة

(١٥) قصة ثورة ٢٣ يوليو ، أحمد حمروش - ص ٢٥٢ .

١٩٥٢م وقت صدور قانون الإصلاح الزراعى وعند هذا الحد كان الصدام حتميا بين هذه الطبقة والمرتبطين بها من جانب وحركة الضباط من جانب آخر وهى الطبقة التى كان المستعمر يستند على زعمائها فى تأييدهم ومباركتهم لوجوده وفرض سيطرته على البلاد ولقد استطاعت أن تثبت بالغش أو التخويف فى عقول الفلاحين أن ملكيتها تعتبر حقًا ربانيا لا يجوز الاعتداء عليه وقد تبنى هذه الفكرة أو العقيدة وروّج لها أيضا الإخوان المسلمون (١٦) علما بأن الإخوان لم يطالبوا مطلقا بتحديد الملكية وإنما طالبوا على لسان مرشدهم العام حسن الهضيبى وهو المشرف العام على أطيان الملك عندما سأله مندوب صحيفة (شيكاغو دايلى نيوز) فى أبريل ١٩٥٢م عن الإصلاح المطلوب بالنسبة للفلاحين فقال (يجب ألا يسمح لملاكى الأراضى بأن يؤجروا أراضيهم للفلاحين نظير مبالغ ثابتة بحيث إذا طرأ ما يؤثر فى المحصول وقع الفلاحون فى الدين ، يجب أن يقوم إيجار الأرض على أساس نصيب من غلتها وبهذا يحصل المستأجرون على الأقل على جزء من مجهودهم) ولقد كانت نظرة الإخوان المسلمين لهذا الوضع والقضية الاجتماعية مؤيدة لكبار الملاك إذ إنه فى الوقت الذى أدلى فيه حسن الهضيبى بهذا الحديث كانت شكاوى الفلاحين قد ارتفعت من نظام المزارعة الذى ينهب عرق الفلاحين (١٧) .

ولأن موقف الإخوان كما جاء فى عديد من المقالات والكتب والدراسات كان مؤيدا للإقطاع فقد صاروا يهاجمون خطوات الضباط وبشكل خاص عندما أعلن عن مشروع الإصلاح الزراعى بعد أن كانوا يطلقون على حركة ضباط الجيش اسم (الحركة المباركة) ويتحدث أحمد حمروش فى الجزء الأول من كتابه (قصة ثورة ٢٣ يوليو) عن مرحلة الصدام تلك فيقول :

اعتمدت الحركة فى توطيد مركزها على الشعبية الجارفة التى حازتها بعد عزل الملك فاروق وفضح مفاسد النظام المنهار ومباذله وتطلع الجماهير إلى حكم جديد يرفع عنها قبضة الاستغلال ويحقق أملها فى مجتمع نظيف ، ويضيف ، ولم

(١٦) نفس المصدر ونفس الصفحة ، والرواية على ذمة الكاتب .

(١٧) نفس المصدر والكاتب .

تضيع الوزارة الجديدة وقتا لإعداد هذه المشروعات ولكنها كانت جاهزة ومعدة فى الملفات بل إن بعضها كان مصدرا للخلاف مع على ماهر وهو ما ظهر فى قانون الإصلاح الزراعى الذى أصدرته الوزارة الجديدة فور تعيينها يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢م ، هذا المشروع وغيره من المشروعات التى نتحدث عنها كانت تحمل التأييد للحركة فى نفس اللحظة التى سببت فيها الصدام الفعلى مع قوى اجتماعية وسياسية مختلفة – انتهى [١٨] .

لقد حدث الصدام مع الإخوان المسلمين الذى سنرى أنه تصاعد إلى درجة تستعمال السلاح عندما اتخذ الجهاز السرى للإخوان (كما ذكر) قرار اغتيال جمال عبدالناصر وتصفية الثورة بحيث يمكن للإخوان ومن يساندهم أو يعاونهم استلام الحكم لتنفيذ ما كانوا يعتقدون أنه ممكنا من خلال دعاوى إسلامية أو أشياء تنسب إلى الإسلام ، وكما ذكر فقد كان على رأس أولئك المتعاونون اللواء محمد نجيب ، والقصة من بدايتها محليا ودوليا كانت كما يلى :

١- العدوان والتآمر المحلى :

لقد كان فى حسبان هؤلاء الضباط الذين قاموا بحركة التغيير أن هناك قوى كثيرة لابد من مواجهتها عاجلا أو آجلا ، المحلية أو الخارجية ، إذ ليس من السهل القبول بهذا الذى قاموا به حتى لو كان تغييرا محدودا يتمثل فى الإطاحة بنظام حكم والاستمرار فى نفس طريقه ، بمعنى تغيير حاكم بحاكم ، حتى لو كان الأمر هكذا فإن القوى السياسية والاجتماعية المتمكّنة أصلا لا تستسيغ التعامل مع العسكر ، أى الزعامات الحزبية والباشوات وحركة الإخوان ، ولأن حركة الضباط لم تكن عملية استبدال حاكم بحاكم آخر ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ (الأحزاب : ٢٥) فإن أغلب تلك القوى قد تهيأت للعمل وكشرت عن أنيابها للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها ووظائفها وألقابها .. إلخ وتلك القوى كانت :

(١٨) قصة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو – أحمد حمروش .

١ - الإنجليز وهم دهاة التآمر وأصحاب الحنكة فى تدبير الانقلابات وقواتهم تجثم على أرض مصر بينما جواسيسهم يقبعون فى دهاليز الإدارات الحكومية والمتعاملين معهم من كبار الموظفين كثر .

٢ - الأمريكان بما لهم من إمكانيات وارتباطات واستراتيجيات وتطّلع إلى إيجاد مواقع أقدام فى هذا البلد أو ذاك ، بل والحلول محل ما أطلقوا عليه اسم (الاستعمار القديم) .

٣ - الإقطاعيون والباشوات والرأسماليون وقوى الأحزاب والإخوان المسلمون الذين تمرّنوا سرا وعلنا على القتل وتنظيم المظاهرات والمسيرات رغبة فى إسقاط هذا النظام أو ذلك ، أى ما لا يكون فى دائرة نفوذهم ومحل رغباتهم .

٤ - أصحاب الصحف الصفراء التى كانت تعبر وتعيش على فتات أجهزة المخابرات الغربية والشرقية وبشكل (ربما) محدد على حساب أموال المخابرات المركزية الأمريكية .

١ - وكان على حركة الضباط أن تتعامل مع كل هذه القوى بحذر شديد منها ما يمكن أن يحيّد ولو مؤقتا (تطمين القوى الخارجية على مصالحها ورعاياها _ الإنجليز والأمريكان) وكان معروفا أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية يريد حاكما طيّعا لا يمتد نظره إلى أبعد من حدود بلاده ولا يتجاوز تفكيره ما يرسم له سياسيا وعسكريا واجتماعيا وحتى (ثقافيا وتعليميا ودينيا) لأنهم صاروا يطالبون بالتغيير والتبديل حتى فى آيات القرآن الكريم وإن لم تحدث الاستجابة للتغيير فى القرآن الكريم وقتذاك فقد بادر الحكام العرب بعد عبدالناصر بعدة عقود بتحقيق رغبة الغرب وبشكل خاص رغبة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا يمكن لنا أن ننسى أن السيدة وزيرة خارجية أمريكا (كوندوليزا رايس) قد قالت وعلى الملأ (إن بعض آيات القرآن تحض على كراهية الشعوب !!) وما كان يطالب به الغرب بالتأكيد لا يقبله أى حاكم وطنى يحترم نفسه

وشعبه وتاريخ بلاده ، وعبدالناصر ليس من أولئك الطيّعون الذين يقبلون الإملاءات أو القرارات والشروط وارتداء ما يفصّله هذا الغرب ، وسنرى ماذا حدث مع محمد على الكبير خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ومع جمال عبدالناصر خلال النصف الأول من القرن العشرين .

٢- وكذلك كان يمكن مهادنة حركة الإخوان المسلمين وربما الاستعانة بقدرات هذه الحركة النضالية والسياسية والفكرية وليس تحييدها فقط لو أدرك زعماؤها أن التغيير الوطنى جاء لخدمة البلاد والعباد حتى أن عملية تطهير الأحزاب ثم إلقاؤها لم يطل حركة الإخوان المسلمين فى البداية ، وهذا ما يعنى أن نوايا الضباط كانت طيبة تجاه هذه الحركة .

٣- أما المواجهة العاجلة المتوقعة فقد أريد لها أن تكون مع الإقطاعيين والرأسماليين والزعماء الحزبيين المرتبطين بتاريخ مشين .

وكانت البداية بتنفيذ مشروع الإصلاح الزراعى الذى صدر فيه قانونا ينظم العملية المتعلقة بملكية الأرض الزراعية ، ولقد ظهر جليا أن ضباط الحركة عازمون مصممون على تنفيذ المشروع مهما كان الثمن وذلك عندما أطاحوا بوزارة السيد (على ماهر) الذى كانوا قد اختاروه ليشكل أول وزارة بعد التغيير والسبب أنه ماطل فى تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى وما لبث الأمر حتى تفجر الخلاف مع اللواء محمد نجيب وكان تمرد ضباط سلاح الفرسان وبروز اتجاه ومواقف الإخوان المسلمين أحد الأسباب المؤدية إلى الحسم ، ولقد كان جمال عبدالناصر ميالا إلى التعاون مع حركة الإخوان المسلمين بدليل أنه طلب منهم ترشيح أربعة أسماء لاختيار اثنان منهم ليكونوا أعضاء فى الوزارة لكنهم كانوا يريدون الحكم كله وقبل ذلك يريدون أن يكون الرأى رأيهم ، وهذا ما أكدته روايات ومذكرات وكتابات أغلب الرجال الذين تناولوا تاريخ ثورة ٢٣ يوليو بل هو ما جاء على لسان الرئيس جمال عبدالناصر عندما سألناه عن ثلاثة أمور كنا نراها هامة وذلك أثناء زيارته لليبيا بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٧٠م فى بنى غازى وهى:

١- لماذا كان ذلك الموقف المتشدد من جماعة الإخوان المسلمين وهى جماعة مجاهدة ناضلت بشرف فى فلسطين ثم ضد الإنجليز فى القناة ؟

٢- لماذا حل الأحزاب السياسية مباشرة بعد نجاح انقلاب ٢٣ يوليو وبعضها كان وطنيا عملا وسلوكا ؟

٣- ما هو الموقف من المشروع الأمريكى المعروف باسم (مشروع روجرز) وهو المشروع الذى تهاجمه بعض الجماعات الفلسطينية على اعتبار إنه يعنى تفريطا فى القضية، وقد ذهب بعضها إلى اتهامكم شخصيا وكذلك كان موقف حزب البعث السورى والجماعات التابعة له ومنها البعض هنا فى ليبيا ؟

قـــال :

١- لقد كنت أنظر إلى جماعة الإخوان المسلمين نظرة خاصة وكنت أتمنى أن يتم التعاون معهم على الأقل إلى أن تستقر الأمور ويتم إخراج الإنجليز من البلاد لكنهم أرادوا أن يفرضوا علينا أفكارهم ومواقفهم وكأنهم هم الذين أحدثوا التغيير ورغم استفادهم واستثنائهم من قرار حل الأحزاب بدأوا فى التآمر علينا أولا بالتشهير والتشكيك ، وثانيا بالسلاح بل إنهم أفسدوا العلاقة بيننا وبين اللواء محمد نجيب الذى كنا قدمناه كرئيس لنا .

٢- بالنسبة للأحزاب المصرية فقد رأينا بداية أن نطلب منها أن تطهر نفسها ، بمعنى أن يبقى الصالح ويخرج الطالح ، أى يبقى الذى يؤمن بأن التغيير لصالح البلاد ويخرج الانتفاعى الذى لا يؤمن إلا بمصالحه ووضعه ، وقدّرنا فى أول الأمر أننا يمكننا أن نستفيد منها رغم المعارضة الشديدة التى أبداها بعض الزعماء أو القادة فى تلك الأحزاب ورغم أيضا معارضة بعض أعضاء الثورة لهذا الاتجاه ، لكن الأحزاب لم تستفد من تلك الفرصة ، وبعد كل النجاحات التى تحققت فى مصر والوطن العربى لابد لنا مستقبلا أن ندرس أمر التعددية الحزبية وتداول السلطة ديموقراطيا إن شاء الله .

٣- المشروع الأمريكي جاء في وقت عصيب فنحن لابد لنا أن نحرر أرضنا بالسلاح ولعلكم ترون أن الشعب المصرى يردد تعبير (ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة) ونحن نعد لذلك ليلا نهارا ولكن خسائرنا فى الرجال كبيرة لأن الطيران الإسرائيلى يشن عشرات الغارات على مواقعنا ورجالنا الذين يقيمون قواعد الصواريخ ، وبدون غطاء جوى بالطائرات والصواريخ لا يمكننا عبور قناة السويس والدخول فى مواجهة عسكرية كاملة مع القوات الإسرائيلية الرابطة على ضفة القناة الشرقية ، وأنا بعد أو اثنين من هذا التاريخ سأزور الأصدقاء السوفيتى للتشاور فى هذا الشأن ، علما بأن خبراؤنا يقولون : إن المشروع الأمريكى يعطينا فرصة لبناء حائط الصواريخ دون خسائر والتقدم بها بحيث تغطى المساحة التى ستدور فيها الحرب شرق السويس ، وعليكم أن تتأكدوا من أن جيشكم (هكذا قال) سوف يحرر الأرض وسوف يهزم العدو ..

وفعلا غادر جمال عبدالناصر إلى موسكو وحدث إنه قبل المشروع الأمريكى المعروض باسم (روجرز) للأسباب التى كان قد ذكرها ، ولقد ثبتت رؤياه رغم إنه لم يقدّر له أن يشهد تحرير أرض بلاده ، وتلك إرادة الله التى لا راد لها ..

أعود إلى موقف الإخوان المسلمين من عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو فأعرّج على كتابات بعض شهود تلك الأحداث ومنهم الصاغ (أحمد طعيمه) وهو أحد الضباط الأحرار وكان (كما قال) عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة أو الانقلاب ، وبالتإلى فهو شاهد من أهلها ، يقول فى كتابه الذى صدر فى تسعينيات القرن الماضى بعنوان (شاهد حق - ص ٩٥) ما يلى :

كما ذكرنا فيما تقدم أن نسبة عدد الفلاحين فى مصر كانت حوإلى ٧٠٪ من عدد السكان أى ثلثى عدد المصريين ولم يكن لهم نصيب فى الأرض الزراعية غير الجهد الذى يبذلونه بمقابل لا يذكر ،وكان من أولويات حركة الضباط وهم من الطبقة المتوسطة أن يهتموا بحال الفلاحين والعمال وبالتإلى كان الإصلاح الزراعى من أهم المشروعات التى يلح عليهم تنفيذها ، وهكذا فقد كان لابد من تحقيقه ،

على إنهم كانوا يدركون مدى صعوبته وهو الذى يجب أن يكون عنوانا لانحيازهم إلى الطبقة الفقيرة المظلومة من أهلهم ، على أن هناك عقبة كأداء تقف فى مواجهة تنفيذ هذا المشروع الحيوى ، كان الباشوات وملاّك الأطيان والمنتفعين من أعيان وقيادات حزبية وإقطاعيين ... إلخ .

كانت من أول المعارضين علنا قيادات حزب الوفد بحجة أن الوفد كان قد عالج هذه القضية سنة ١٩٥٠م عندما فرضت وزارته ضرائب تصاعدية تدرجت حتى وصلت قرابة ١٠٠٪ وبالتالى فهو لا يرى ضرورة لقانون الإصلاح الزراعى وقاد مواقف متوارية للتشكيك فى أهمية المشروع ويظهر أن اتجاه حزب الوفد كان مدعوما من جانب جماعة الإخوان المسلمين وإن بشكل غير مباشر رغم اختلاف الطرفين ، ومن هنا اقتنع ضباط الحركة أن مشروعهم لن يكتب له النجاح ما لم يتخذوا خطوات أخرى خصوصا بعد أن تبين تردد رئيس الوزراء (على ماهر) عن تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى ، فأصدروا بيانا يطلب من الأحزاب تطهير نفسها وكان ذلك فى أواخر يوليو ١٩٥٢م وبعد التطهير يجب على الأحزاب أن تعلن برامج واضحة يقتنع بها الشعب ، وهذا يعنى تحديد مواقفها من قانون الإصلاح الزراعى ، وكان الضباط يعرفون أنها لن تفعل بحيث تتهيأ لهم الفرصة لاتخاذ إجراء آخر كان (ربما) جاهزا وهو حل كل الأحزاب على الرغم من أن بعض الأحزاب قد حاولت التخلص من أعضاء فيها فى حين أن حزب الوفد وهو فى ذلك الوقت من أقوى الأحزاب على الساحة قد قدم برنامجا قريبا من طموحات الضباط تحدث فيه عن الحد الأدنى لأجور العمال والتأمين الصحى لهم والتأمين الاجتماعى والموافقة على تحديد ملكية الأرض الزراعية .. إلخ وبعد كثير من محاولات الترقيع من جانب هذا الطرف أو ذاك استمرت قرابة سنة صدر فجأة ما كان يعد له حيث أعلن القائد العام للقوات المسلحة فى ١٧ يناير ١٩٥٣م قرار حل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة أموالها وكان القرار يحمل ما يمكن اعتباره تحذيرا يقول (منذ اليوم لن أسمح بأى عبث أو إضرار بمصالح الوطن وسأضرب

بمنتهى الشدة على كل من يقف فى طريق أهدافنا التى صنعتها آلامكم الطويلة) وكان القرار بتوقيع اللواء محمد نجيب ، وبعد بعض الإجراءات ضد فئات حزبية أعلنت حركة الضباط اسمها الجديد (مجلس قيادة الثورة) وجدير بالذكر أن قرار حل الأحزاب لم يشمل جماعة الإخوان المسلمين وكان فى هذا الوقت اللواء محمد نجيب رئيسا للوزراء وقائدا عاما للجيش وقد صدرت القرارات والقوانين باسمه ، وبعد قرار حل الأحزاب مباشرة فكر أعضاء مجلس قيادة الثورة (وهذا اسمه الجديد) خلق بديل سياسى يتولى دور تلك الأحزاب وإن بشكل مختلف ويكون معبرا عن توجهاتهم ، فأنشأوا ما يسمى (هيئة التحرير) ولقد اختلفت الآراء حول دور هيئة التحرير أو الحزب الذى أقامه العسكر والواقع أن أى حزب أو تنظيم يقيمه النظام الحاكم لابد أن يكون فاشلا لأنه غالبا لا يجمع إلا المنافقين الراغبين فى خدمة السلطة ، أى سلطة ، وهذا أحد الذين أشرفوا على تأسيس هيئة التحرير يقول :

(كانت فكرة جمال عبدالناصر فى إنشاء هيئة التحرير تستند إلى أن صناع الثورة كلهم من ضباط الجيش العسكريين ولم تكن لنا قاعدة شعبية يستند إليها مؤيدو الثورة من أبناء الشعب فلابد إذن من وجود جهاز مدنى يجمع شملهم ، فكان قراره بإنشاء هيئة التحرير، وكانت تجربة تستحق التسجيل والتوضيح ، ومازلت أؤكد أن هيئة التحرير كانت الجهاز السياسى الوحيد الذى أقامته الثورة ونجح نجاحا لم يلاقه أى جهاز سياسى آخر حتى يومنا هذا وذلك للأسباب التالية :

١- ولدت هيئة التحرير ولادة طبيعية ولم تصدر بقانون أو قرار جمهورى فكل الناس الذين آمنوا بثورة ٢٣ يوليو ومبادئها انضموا إلى هيئة التحرير بقلوبهم وأرواحهم وأموالهم، لقد كانت هيئة التحرير أملهم المنتظر فى أن يشعروا بأنهم مشاركون فى صناعة هذه الثورة ، فلم يترددوا أبدا عن المشاركة عندما أتيحت لهم الفرصة لمقاسمة الضباط الأحرار شرف الثورة ،[١٩] .

---

(١٩) أحمد طعيمه - شاهد حق - ص ٦٧ .

٢- على الرغم من أن الثورة هي التى أنشأت هيئة التحرير إلا أنها لم تخصص لها أية ميزانة أو موارد مالية فتكفل أعضاؤها بدفع النفقات والمصروفات لضمان استمرار هيئة التحرير فى أنشطتها واعتبروها هيئتهم وكيانهم وحزبهم الذى يملكونه ، ولم تكن هيئة التحرير حزبا سياسيا يحصل على دعم مإلى ومبالغ من مالية الدولة سنويا وإنما كما قلت فهى تعتمد على أعضائها .. [٢٠] ونكتفى بهذا القدر مما ذكره أحمد طعيمه عن هذه الهيئة ونعتقد أنه فى حديثة الطويل عنها يكون قد بالغ كثيرا لأنها ومن اسمها قد أنشئت لسبب واحد ومرحلة محددة باعتبار أن المرحلة هى مرحلة تحرير البلاد ويجب أن تضم كل الناس دون تمييز وكان عمرها قصيرا ..

وهذا رأى آخر جاء في كتاب (قصة ثورة ٢٣ يوليو) لمؤلفه أحمد حمروش ، وهذا الكاتب أيضا من ضمن تنظيم الضباط الأحرار ، يقول :

١- اعتقد مجلس قيادة الثورة أنه قادر على ملء الفراغ السياسى الناتج عن حل الأحزاب ووقف نشاطها بتكوين هيئة التحرير التى أعلن عنها يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بمناسبة مرور ستة شهور على الحركة وسط مهرجانات صاخبة حافلة ، وافتتح مقرها فى ثكنات الحرس الملكى (سابقا) بميدان عابدين يوم ٦ فبراير من نفس السنة ، أعلن محمد نجيب ميلاد الهيئة بعد أن هاجم الأحزاب هجوما عنيفا مفيدا أنها وراء كل تأخر وتنابذ وتردد وأقسم ومن خلفه الحاضرون قسما يقول: (اللهم إنك تحب الأقوياء وتكره المستضعفين وتنشر رحمتك على الذين يؤثرون الموت العزيز فى سبيل الحرية على الحياة الذليلة فى مجال الاستعباد ، اللهم إنك لقريب ترى وتسمع وإنا لنقسم بذاتك العلية على أن نعمل ما وسعنا العمل لإرساء قواعد الحياة المقبلة لوطننا المصرى على أصول محررة من العبودية منزّهة عن الهوى موصولة بالحق والعدل وأن نبذل فى سبيل ذلك كل ما تقتضيه مصلحة

(٢٠) نفس المصدر .

أمتنا ويبتغيه شرف بلادنا وأن يكون شعارنا دائما الاتحاد والنظام والعمل ، اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين) هذا القسم الإنشائى المجرد كان وحده صلة الجماهير بهيئة التحرير عند مولدها وفي وقت ضمت جدران سجونها قادة الأحزاب السياسية والتنظيمات الشيوعية ولم يكن مطلق السراح سواء الإخوان المسلمين تماما كما كانوا فى فترة حكم نجيب الهلالى بعد حريق القاهرة (٢١) ويستمر الأستاذ حمروش فيقول ، وقد قام بالإشراف على هيئة التحرير إبراهيم الطحاوى وأحمد عبدالله طعيمه وهما ضابطان بعيدان عن معترك العمل السياسى، وكان التصور أن تملأ هيئة التحرير الفراغ السياسى فى مصر ولكنها لم تستطع أن تضم إلى صفوفها أحدا من الذين مارسوا العمل السياسى من قبل عدا قلّة محدودة، كما أن قبضة الجيش فيها كانت واضحة وتبين أنها على قدر ما هزّت حركة الجيش قواعد النظام المنهار على قدر ما وقفت هيئة التحرير حائلا دون اندفاع الطبقات العاملة نحو إحداث تغييرات جذرية ديموقراطية فى المجتمع .. انتهى .

قلنا إن قانون الإصلاح الزراعى وإصرار ضباط الحركة على تنفيذه مهما كانت العقبات ، وهذا البرنامج أو المشروع هو الصخرة التى تحطمت عليها الرؤوس التى كانت بارزة فى حكم البلاد أى أولئك الذين اعتقدوا أن وراثتهم للحكم أبدية ومعهم كل الإقطاعيين الذين وقفوا متضامنين ضد أول خطوة إصلاحية كانت الغاية منها إعطاء الحق لأصحابه وكانت مواقفهم فى غاية الشراسة بما فيهم الملك فاروق الذى كان من أكبر الإقطاعيين أبا عن جد، وحدث حتى بعد الانقلاب (أى الثورة وهو الاسم الجديد لتنظيم الضباط) ومن بين الضباط أنفسهم أن ظهرت تحفظات واعتراضات ، فمثلا كان اللواء محمد نجيب أحد المعترضين (وقد رأينا فيما بعد كيف قدم مشروع الإصلاح بنفسه) ومعه فى

---

(٢١) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد هكروش - جدير بالملاحظة أن الأستاذ أحمد حمروش كان عضواً فى حركة (حدتو) الشيوعية التي كان لها نشاط داخل الجيش المصرى وهو كذلك عضو فى حركة الضباط الأحرار وربما كان له عذر فى الحملة على هيئة التحرير .

الاعتراضات عضوا مجلس الوصاية على العرش قائلين : إن القانون يعني مصادرة الأراضي وهذا يتنافى مع الدستور الذي مازال قائما (تم إلغاؤه فيما بعد) رغم أن قانون الإصلاح الزراعي قد أعده قانونيون متخصصون روعيت فيه مصلحة البلاد حيث إنه يحد إن لم يقض على نفوذ الإقطاعيين ، وبعد أن شكل محمد نجيب وزارته عندما أقيلت وزارة على ماهر بادر إلى إصدار قانون الإصلاح الزراعي إما عن اقتناع أو لأسباب أخري خصوصا أن بوادر الخلاف كانت بيّنة بينه وبين ضباط الانقلاب أي الثورة ، والفتنة كانت تطل برؤوسها في وقت كان فيه الإخوان المسلمون يناصبون جميع مشاريع وقرارات الضباط العداء وكانوا يهاجمون هؤلاء الضباط الذين لا يفهمون في السياسة شيئا (كما يقولون) وكان يحدث هذا علنا وبشدّة ، ومع بداية تنفيذ القانون واشتداد المعارضة تشكل مجلس عسكرى لمحاكمة الذين يعارضون من جماعات الأسر الإقطاعية ، والواقع أنه ما كان لأحد أن يقف ضد هذا التيار خصوصا إذا كان صاحب القرار لديه أدوات التنفيذ بالقوة المدعومة بالقناعة والمزايا ، وهكذا فقد كانت القرارات نافذة وتقليم أظافر الطبقة الإقطاعية جاريًا وسريعا ، وتلى ذلك ضرب القوي الأخرى المتمثلة فى قيادات الأحزاب ، وكانت أول خطوة تمهيدية فى هذا الاتجاه عندما طلب ضباط الحركة من الأحزاب تطهير نفسها بموجب أمر القيادة العامة للجيش فى ٣١ يوليو ١٩٥٢م أى بعد التغيير مباشرة ، ثم تلى ذلك أمر حل كل الأحزاب مع استثناء جماعة الإخوان المسلمين وكان ذلك قبل أن يحدث خلافهم مع الضباط وقبل تشكيل الوزارة التي خلفت وزارة على ماهر والتى كان رئيسها هذه المرة اللواء محمد نجيب وهو الذى استماله الإخوان فيما بعد أو بالتحديد إنه هو الذى رأى فيهم قوة يمكن أن يستند عليها ضد هؤلاء الضباط الشباب المندفعين دون وعى (حسب رأيه عندما أطيح به) فى هذا الوقت ظهرت فى السماء غيوم ملبّدة وبدأت جماعات الأحزاب تتحرك ومعها انفجرت مظاهرات طلابية رفعت شعارات ضد ضباط الانقلاب وكانت مدعومة ببعض الجماهير المؤيدة للأحزاب التى حلت ، وكان رد فعل الضباط شديدا لأنهم لا يستطيعون المهادنة أو المساومة لكى لا يعتقد أحد أنهم ضعفاء وتم اعتقال رجال الأحزاب والمؤيدين لهم ولاحت بوادر الخلاف تبعا لذلك بين ضباط الانقلاب أنفسهم (أى مجلس قيادة الثورة) لكن مع ذلك كان

أمر العودة إلى الوراء مستحيلا لأن ضباط الحركة أو مجلس قيادة الثورة كما صار يعرف كانوا منذ البداية (رغم مهادنة بعض القوى ومنها الإخوان المسلمون) مدركين لتطورات المستقبل وكانت أهدافهم واضحة (إن لم تكن للجميع فقد كانت في ذهن جمال عبدالناصر والمؤيدين له) وبعد تلك الاعتقالات وبعض الإجراءات الاحتياطية كان على أعضاء المجلس أن يقدموا أنفسهم للشعب فقام بعضهم مع اللواء محمد نجيب ببعض الزيارات وإلقاء الخطب في الوقت الذى أصدروا فيه الدستور المؤقت يوم ١٠ فبراير ١٩٥٣م وظهروا في مناسبة أخرى قالوا : إنها السنة الخامسة والأربعين (١١ فبراير ١٩٠٨م (على وفاة مصطفى كامل حيث نقل رفاته إلى القلعة ، وتأكيدا لرغبتهم في إرضاء أو تهدئة الإخوان المسلمين توجه اللواء نجيب وعبدالناصر لزيارة ضريح الشيخ حسن البنا بمناسبة الذكرى الرابعة (١٢ فبراير ١٩٤٨م) ولقد كانت سياسة مجلس قيادة الثورة واضحة من أجل الاحتفاظ بالسلطة ولم يكن ممكنا ولا مقبولا أن يقوم انقلاب عسكرى وينجح ثم يسلم مقاليد الأمور لغيره (فيما عدا حدث واحد وهو يعد أول ظاهرة صحية خلال النصف الأول من القرن الواحد والعشرين عندما حدث انقلاب عسكرى ناجح في موريتانيا وسلم قادته السلطة للمدنيين بكل هدوء وعن رغبة) ولابد لنا أن نثنى على موقف هؤلاء الرجال الذين استنّوا سنة حميدة لعلها تكون مؤثرة في مستقبل العرب وحكامهم الذين لا يتخلون عن الحكم الذى يقيمونه على جماجم مواطنيهم ولا يحترمون شرعا ولا قانونا في كل تعاملاتهم وتصرفاتهم.

في هذا الوقت تخلص مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م من حزب الوفد الذى كانت قياداته تعتقد أن من حقها استلام الحكم وتم بعد ذلك تصفية بقية القيادات الحزبية من يمين ويسار ، وقد تم اعتقال الشيوعيين في ١٩ يناير ١٩٥٣م وبالنسبة للإخوان المسلمين نظرا لما كانوا يتمتعون به من ضخامة التنظيم وقوته وتغلغله في أعماق الريف بل وفي صفوف الجيش فإن الأمر كان يتطلب معالجة من نوع آخر[٢٢] فقد عملت الثورة على تحييدهم عن طريق إبداء رغبتها في

(٢٢) الصراع الاجتماعي والسياسى في مصر - د. عبد العظيم رمضان - ص ١٤٦ .

إشراكـهم فى الحكم ، ولقد حـانت الفرصـة حين تقرر إسناد رئاسـة الوزارة للواء محـمد نجيـب خلفا لعلى ماهر حـيث عرضت الثـورة على المرشد العـام للإخوان المسلمين أن يشترك الإخوان فى الوزارة الجـديدة بأربعة أعضاء (٢٣) فقـبل المرشد العام من جانبـه هذا العرض لكن مكتب الإرشاد فى الجماعة كـان يرى أن اشتراك الإخـوان بهـذا العـدد القليل يقـوى الثـورة ويضعف الإخـوان ولذلك قـرر عـدم الاشتـراك فى الوزارة (٢٤) وفى بيان لمجلس قيادة الثـورة يذكر أن اثنين من جماعة الإخوان قابلا جـمال عبدالناصر وقالا له الآن بعـد حل الأحزاب لم يبق من مؤيد للثورة إلا جماعة الإخوان المسلمين ولهذا فإنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أن يردوا على كل أسبـاب التساؤل ، وقـد سألهمـا جمال عـبدالناصر عـما هو الوضع المطلوب ؟ فـأجاباه بأنهـما يقـصدان الاشـتراك فى الوزارة ، فـرد عليهـما جـمـال قائلا ، إننـا لسنا فى مـحنة وإذا كنتم تقـصـدون أن هذا الظرف هو ظرف المطالب وفـرض الشروط فأنتم مـخطئون ، فـأقترحـا عليه حـلا آخر يشـركهم فى الحكم من وراء الستار ويقـضى بأن تتكون لجنة من جماعة الإخوان تعـرض عليها القوانين قـبل صدورها للموافـقة عليهـا واعتبـرا هذا حلا ، ثم قالا هذا هو سـبيلنا لتأييدكم إن أردتم التـأييد ، ولكن جمال عبـدالناصر أجابهما بأنه قـد سبق أن قال للمـرشـد العـام إننا لن نقـبـل الوصـاية وإنه يكررها اليـوم مـرة أخـرى فى عـزم وإصرار (٢٥) وكان ذلك يمثل نقطة التحول فى موقف الإخوان المسلمين فقد أدركوا بما لا يدع مجالا للشك أن الضباط ينوون الاستئثار بالحكم ولا شريك لهم فيه وأن الآمال التى عقدوها على توجيه مركب الثـورة نحو تحقيق أهدافهم هى آمال خائبة لا سبيل إلى تحـقيقها فأخـذوا عن طريق تصريحات المرشد العام يهاجـمون الثورة وحكومتهـا فى الصحافة الخارجيـة والداخلية وفى مختلف اللقاءات والتـجمعات

(٢٣) بعض الروايات تقول الاشتـراك بأربعة وزراء أو أعضاء حيث يختـار مجلس الثورة من بينهم وزيرين والبعض الآخر يقول ترشيح ثلاثة أعضاء يختار المجلس من بينهم اثنين .

(٢٤) كان مجلس قيادة الثورة بعد أن رفض عرضه قد عين الشيخ أحمد حسن الباقورى وزيرا للأوقاف وما كان من الإخوان إلا أن ردوا بفصله من عضوية الجماعة كدليل على عدم رضاهم .

(٢٥) نفس المصدر .

وإلى أن حدث الصدام في الجامعة يوم ١٢ يناير ١٩٥٤م بينهم وبين منظمة الشباب التابعة لهيئة التحرير وهنا اتخذ أعضاء مجلس قيادة الثورة قرار حل الجماعة في ١٤ يناير ١٩٥٤م ومباشرة تم اعتقال عددا منهم وعلى رأسهم المرشد العام ، وبعد ذلك تهيأت الظروف المناسبة لبروز نوع من الثورة المضادة بانقسام مجلس الثورة على نفسه حيث تمرد اللواء محمد نجيب الذى استغله أو أراده الإخوان المسلمون عنصرا للقضاء على الثورة ، ولقد اختلفت الروايات والقصص التى قيلت ونشرت عن هذه القصة لأن الإخوان لم تتوقف اتهاماتهم لجمال عبدالناصر حتى بعد أن توفاه الله ، ومن ذلك ما جاء فى كتاب عنوانه (عبدالناصر المفترى عليه) لمؤلفه الأستاذ حسنين كروم ونصه :

(لقد حاول الإخوان المسلمون ومعظم الذين اشتركوا فى الحملة ضد عبدالناصر الترويج لفرية كبيرة ، وهى أنه قام بتدبير حادث إطلاق الرصاص عليه فى ميدان المنشية بالإسكندرية ليتخذه ذريعة لتصفية الإخوان المسلمين ، وقالوا إنه لفق لهم تهمة إقامة تنظيم سرى مسلح فى أغسطس سنة ١٩٦٥م ليقوم بتوجيه ضربة إجهاض لهم ،ومن أعجب الأقاويل التى يرددونها أنه ناصب الإخوان العداء لأنه أراد تصفية الدعاة لدين الله بدافع من إلحاده ، ووصل الأمر إلى حد اتهام عبدالناصر بأنه ضرب الإخوان عام ١٩٦٥م بتعليمات من المخابرات الأمريكية والروسية ، وليس هذا القول بنكتة ، إنما قالته السيدة (زينب الغزالى) وهى من الوجوه البارزة للإخوان التى اعتقلت سنة ١٩٦٥م فى حديث لها نشرته مجلة الإذاعة والتليفزيون بتاريخ ١ فبراير سنة ١٩٧٦م ، قالت - إننى أعتقد يقينا لا يداخله شك أن الأمر قد صدر من المخابرات الأمريكية والمخابرات الروسية لجمال عبدالناصر بتدبير هذه القضية لأن هناك فكرا سليما لفهم الإسلام صاحبه الشهيد (سيد قطب) وأن هناك نشاطا للتجمع على هذا الفكر بقيادة الشهيد عبدالفتاح عبده إسماعيل وزينب الغزالى ، ونفذ عبدالناصر تعليمات المخابرات الكافرة الفاجرة لروسيا وأمريكا فكانت ملحمة السجن الحربى أو مجزرته بمعنى آخر) .

اتهام واضح صريح لعبدالناصر بأنه تلقى تعليمات من المخابرات الروسية والأمريكية لضرب الإخوان !! وعلى الرغم من روح الفكاهة فى هذا الاتهام المرح فالسيدة زينب الغزإلى قد نفته دون أن تتنبه عندما قررت أنه كان هناك نشاط للتجمع بقيادتها ومعها عبدالفتاح عبده إسماعيل ، وهو اعتراف صريح بتشكيل تنظيم وأن الضربة التى وجهت إليهم لم تكن بدون مبرر ..

ويضيف الكاتب قائلا ، ويشاء الله سبحانه وتعإلى أن يقوم الإخوان أنفسهم بتبرئة عبدالناصر من تهمة تلفيق الاتهام لهم سنة ١٩٦٥م بإقامة تنظيم سرى مسلح ويعترفون بأنهم أنشأوا بالفعل تنظيما سريا ، والأهم أنهم يعترفون أن التعذيب لم يشمل جميع الذين اعتقلوا فى السجن الحربى ، وهذه الاعترافات جاءت بالحرف فى كتاب (مذابح الإخوان فى سجون ناصر) الذى ألفه جابر رزق وهو أحد الذين قبض عليهم عام ١٩٦٥م وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما قضى منها عشر سنوات وأفرج عنه السادات ، وصدر كتابه فى القاهرة عام ١٩٧٧م ، وقال فى الصفحات ٣٧-٤٣) ما يلى :

(وأضرب مثلا لذلك ضابط المباحث الذى ألقى القبض علىّ يوم ٢١ أغسطس ١٩٦٥م فقد كان مؤدبا متعاطفا معى سهلا ، قام بتفتيش شقتى بطريقة ليست همجية كما كانت تفعل الشرطة العسكرية التى سرقت إسورة زوجتى فى إحدى الزيارات التى حدثت بعد القبض علىّ ، لقد أخذ معه بعض أوراقى الخاصة وكان من بين تلك الأوراق خطاب أرسله إلىّ سيد نزيل صاحب مأساة قرية كرادسه ، حدثنى فى هذا الخطاب فى الصفحة الأولى عن مشروع زواجه بأخت أحمد عبدالمجيد عبدالسميع عضو قيادة التنظيم ، وفى الصفحة الثانية من الخطاب كان حديثا عن التنظيم بصريح العبارة ، ورغم أننى كنت قد صفيت أوراقى الخاصة إلا أننى لا أعرف كيف سقط هذا الخطاب ولم أتخلص منه ، وأردت بحركة سريعة أن أخفى الخطاب مع بعض الأوراق الخاصة ولكن الضابط بأدب قال لى ، هات هذه الأوراق سنأخذها معنا لنقرأها هناك ، وسقط قلبى وأحسست أن أمر التنظيم قد اكتشف واستسلمت لأمر الله ، أكمل الضابط عملية التفتيش وصحبنى إلى وزارة الداخلية وبدأ يقرأ أوراقى ، وكان هذا الخطاب أول ما قرأ ولم يقرأ منه إلا الصفحة الأولى واستسمحنى أن يمزّق الخطاب فرحبت بذلك ، .. وكان .. انتهى) .

إذن فقد كان هناك تنظيم وقيادة ولم يكن الأمر ملفقا ، انتهى ..[٢٦]أما العملية التى أقدمت عليها جماعة الإخوان المسلمين والتى خطط لها جهازهم السرى فقد كانت محاولة اغتيال جمال عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية وهى التى كانت القشة التى قصمت ظهر البعير وكانت تراجيديا بكل معنى الكلمة رغم إنهم (أى الإخوان المسلمين) حاولوا أن يفهموا الناس أنها أكذوبة وأن عبدالناصر اخترعها ليجد مبرر القضاء عليهم ، وظلوا يرددون هذه القصة حتى بعد وفاته ، ومن هنا نرى أن بعض الكتاب قد أعطوا القارئ فكرة عن تلك العملية حتى يمكنه أن يتصور أى الجانبين كان على حق ، على أننى شخصيا أعلم أن محاولة الاغتيال كانت فعلا حقيقية ومن تدبير الجهاز السرى للإخوان المسلمين وبموافقة المرشد العام شخصيا لأننى سمعت الرواية شفويا من الأستاذ أمين هويدى وكان قريبا من جمال عبدالناصر كوزير ثم كمدير للمخابرات الحربية ، ونفس التفاصيل سمعتها من الأستاذ (سامى شرف) والرجل كان مديرا لمكتب جمال عبدالناصر نفسه طيلة ثمانى عشرة سنة وكان بدرجة وزير وسمعتها من عبدالناصر نفسه عندما صار الحديث معه عن الإخوان وكان فى بنغازى بليبيا سنة ١٩٧٠م (كما ذكرت فيما تقدم) وقال بالحرف الواحد (إنهم قتلة) وفيما يلى روايات بعض شهود تلك المرحلة ، فقد ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه (لمصر .. لا لعبدالناصر) قائلا:

(أتذكر أننى فى سنة ١٩٦٥م ذهبت إلى عبدالناصر أقول له إن معلوماتنا فى الأهرام تقول : إن عدد المعتقلين خلال الشهر الأخير قد زاد على خمسمائة معتقل ، وكان رده ، قد وصلوا الآن إلى ستمائه مع الأسف ، لقد كان بين خطط التنظيم السرى الذى قبض على قيادته خطط بنسف كبارى وجسور والقيام بعمليات اغتيالات بالجملة ، ولقد وافقت على اعتقالات واسعة أخذا بالاحتياط لأنى لا أستطيع أن أقبل بنسف كبارى أو جسور ثم إن (البلد) لا يستطيع فى هذه الظروف أن يتحمل احتكام بعض الناس إلى المسدس يقتلون به من يخالفهم فى الرأى ..

(٢٦) كتاب عبد الناصر المفترى عليه - حسنين كروم - ص ١٧١ .

ولاحظ هو ترددى ، وكان قوله ، مشكلتى أننى لا أستطيع أن أتردد ، أنت صحفى تستطيع أن تفكر من اليوم إلى الأبد ، ولكن مسؤوليتى عن البلد تحتم علىّ أن أفكر حتى لحظة معينة ثم أقرر وأتحمل المسؤولية (٢٧) .

ثم جاءت شهادة أحمد طعيمة فى كتابه (شاهد حق) عندما قال :

علاقة عبدالناصر بالإخوان المسلمين موضوع شائك ترددت فيه الروايات المختلفة وخاصة تلك الادعاءات التى أطلقتها جماعة الإخوان ومحاولاتها المستمرة للتضليل والتشكيك فى كل الحقائق ، حتى بلغت بهم الجرأة الادعاء بأن حادث المنشية الذى تعرض فيه جمال عبدالناصر لمحاولة الاغتيال وأطلقت عليه عدة رصاصات إنما كان حادثا مدبرا من رجال عبدالناصر إن لم يكن من عبدالناصر نفسه ، وهو ادعاء باطل يرد عليه تاريخ جماعة الإخوان الإرهابى الدموى كما سبق وأوضحت لأنى علمت باسم محمود عبداللطيف منفذ العملية قبل إطلاقه النار على جمال عبدالناصر فى المنشية وأبلغت جمال عبدالناصر باسمه ضمن عشرة أسماء سيكلف أحدهم بالقيام بمحاولة الاغتيال وقد حصلت على هذه المعلومات وهذه الأسماء العشرة من أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين كانوا متعاطفين معنا وضد سياسة حسن الهضيبى .. ويضيف طعيمة قائلا :

وفضلا عن ذلك كيف يمكن أن يبادر شخص ما وأن يقبل أن يطلق عليه النار من مسافة عشرة أمتار تقريبا فيصاب سكرتير هيئة التحرير الواقف ملتصقا بجانبه وهو الأستاذ أمين بدر ، كيف يمكنه التأكد بأنه لن يصاب هو أيضا لو حدث خطأ فى التصويب ، وكيف لا يحسب رجل مثل عبدالناصر عامل الخطأ البشرى الذى يجب أن يحسب حسابه فى أى تقدير أو تدبير ، انتهى (٢٨) ويستمر قائلا ، لقد بدأت بحادث المنشية باعتباره قمة العداء والتآمر من جماعة الإخوان المسلمين ضد ثورة ٢٣ يوليو عامة وجمال عبدالناصر بصفة خاصة على الرغم من أن جمال عبدالناصر كان متعاطفا منذ البداية مع جماعة الإخوان إلى أقصى الحدود وأمل

(٢٧) - هيكل - لمصر .. لا لعبد الناصر - ص ٨١ .

(٢٨) طعيمة - شاهد حق - ص ٩٥ - ٩٦ .

دائما فى التعامل معهم وتعاونهم مع الثورة ، كما حاول اكتساب ثقتهم من أول لحظة بالإفراج عن أعضاء الجماعة المسجونين فى الحوادث السابقة واستثناهم كجماعة من قرار حل الأحزاب السياسية على الرغم من أن جماعة الإخوان تعتبر النشاط والعمل السياسى يسبق الأداء الدينى ،

ويؤكد السيد طعيمة أن ما يقوله ليس منطلقا من خصام أو عداء لأنه كما قال من قدامى الإخوان المسلمين ، وهذا نصه :

وقبل حادث المنشية تطوع ببعض الإخوان المتعاونين معى أنا والأخ الطحاوى بحكم أننا من قدامى الإخوان وقدموا لنا أسماء ٣٠٠ من أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين بعد ما كثرت الشائعات عن احتمال لجوء الإخوان لعمليات الاغتيال وتوجهت معهم إلى جمال عبدالناصر واقترحوا على جمال عبدالناصر إصدار قرار بفصل هؤلاء الثلاثمائة من الخدمة وبذلك ينشغلون بأنفسهم وعائلاتهم عن أى نشاط إجرامى آخر ، ولكن عبدالناصر لم يصدر القرار الذى طالبنا به أكثر من مرة بناء على استعجال هؤلاء الإخوان إلى أن نفد صبرهم وطلبوا لقاء عبدالناصر مرة ثانية ، وفعلا توجهنا إليه قبل حادث المنشية بأيام ، استقبلنا عبدالناصر ولما سألوه عن القرار أجاب بأنه أجرى حسبة بسيطة ٣٠٠ فى ٥ متوسط عدد أفراد الأسرة للشخص الواحد يعنى ١٥٠٠ فرد سيتعرضون لأخطار ومصائب لا حد لها وأن ضميره لم يقبل التوقيع على القرار _ انتهى (٢٩)..

وفى ملاحظة أخرى يقول السيد طعيمة إن عبدالناصر أقسم بأنه أمسك القلم عدة مرات ليوقع قرار الفصل لكنه فى النهاية أحس أنه غير قادر على التوقيع رغم أن القرار كان معدا وقال معقبا ، من يريد اغتيالى فليفعل ولكنى لن أوقع هذا القرار الذى يشرد عائلات كاملة .. انتهى .

ولقد كان الإخوان المسلمون ضد اتفاقية إجلاء القوات البريطانية من السويس (مصر) لأنهم اعتقدوا أن نصوص الاتفاقية لا تخدم مصلحة مصر وكان موقفهم واضحًا وصريحًا حيث صاروا يهاجمون عبدالناصر ورجال الثورة ، ومن

(٢٩) شاهد حق - أحمد طعيمة - ص ٩٥ - ٩٦ .

المؤكد أن معارضة الاتفاق ليس على أساس أنه لا يخدم مصر وإنما اعتقادا منهم بأنه يقوى موقف جمال عبدالناصر شعبيا ، وهناك سابقة تؤكد ما نقول وهى إنهم عندما طلب منهم ترشيح أربعة أعضاء من الجماعة رفضوا رغم موافقة المرشد العام فى البداية ، وعندما رفضوا قالوا : إن هذا يقوى موقف الثورة وضعف جماعة الإخوان ، بمعنى أنهم أصلا لا يريدون شيئا يقوى وضع الثورة ، ولهذا صاروا يهاجمون الثورة علنا فى ندوات يعقدونها ويقولون : إن عبدالناصر تخاذل بل هو استسلم للبريطانيين ،وكان فى هذا الوقت موقفهم قد صار معروفا متعاونين مع اللواء محمد نجيب فى محاولة الإطاحة بالحكم ، ولأن عبدالناصر كان عليه أن يرد على ادعاءات الإخوان فى مهرجانات لابد أن يعقدها (وهذا شئ طبيعى) فقد كانت تلك فرصة مناسبة لأمور دبروها بليل حيث قرروا التخلص منه بالاغتيال وهو يلقى خطابا بالإسكندرية ، يقول السيد طعيمة :

كنت أنا فى القاهرة فى مكتبى بهيئة التحرير عندما سمعت طلقات الرصاص والاعتداء من الراديو واطمأننت على سلامة جمال عبدالناصر وقد فوجئت بعد قليل بالسيد عبدالعظيم فهمى وكان مديرا للمباحث العامة يتصل بى قائلا ، بأن اسم الفاعل هو محمود عبداللطيف وأنه ضمن الأسماء العشرة التى دونها جمال عبدالناصر فى مفكرة سوداء صغيرة يسجل فيها عادة أهم الموضوعات ، وقصة الأسماء العشرة ترجع إلى أن أحد أشقاء عائلة السعودى الذين كانوا أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين الذين حضروا إلى مكتبى فى هيئة التحرير وأملانى عشرة أسماء مؤكدا أن أحدهم سيكلف باغتيال جمال عبدالناصر وأن هؤلاء العشرة يتدربون على إطلاق النار فى إحدى قرى محافظة الجيزة ، قابلت الرئيس جمال عبدالناصر فورا بالأسماء العشرة ودونها فى مفكرته .. انتهى (٣٠).

ويتحدث الأستاذ أحمد حمروش عن نوايا الإخوان المسلمين وتنظيمهم السرى فيقول :

لم يفطن الإخوان المسلمون إلى أن اتفاقهم مع حركة الجيش عقب الإفراج عنهم وإعادة تنظيم جماعتهم هو أمر لا يمكن أن يدوم لتنازل السلطة، كما أن

(٣٠) - أحمد طعيمة - شهادة حق - ص ٩٦ .

حركة الجيش لم تكن لتسمح بوجود تنظيم قوى آخر ، خاصة وهى تعرف أنه جهاز سرى مسلح وأنه متسرب فى الجيش ، وبدأت حركات التصادم تعود من جديد ، وكانت نقطة الخلاف المعلنة هى اتفاقية الجلاء التى تم توقيعها يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤م بالأحرف الأولى وقد وقعها عن الجانب المصرى جمال عبدالناصر وعن الجانب البريطانى أنطونى هيد وزير الحربية البريطانى [٣١] وقد حدثت فى أواخر أغسطس اشتباكات كانت بين البوليس والإخوان المسلمين عندما وقف حسن روح بعد صلاة الجمعة يحرض الناس على مقاومة الثورة ويدعوهم إلى العنف ، وتبلورت معارضة الإخوان للثورة فى موقف الرفض الذى وقفته كافة القوى السياسية ضد ما ورد فى اتفاقية الجلاء التى ورد فيها تعبير حق عودة القوات البريطانية إلى مصر فى حالة وقوع هجوم مسلح على أى بلد يكون طرفا فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو تركيا ، وعندما تم التوقيع النهائى على الاتفاقية يوم ١٩ أكتوبر لم تستقبلها الجماهير استقبالا طيبا وانتهز بعض الإخوان المسلمين فرصة الشعور المعارض لتدبير اغتيال جمال عبدالناصر أثناء إلقاء خطابه بالإسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر احتفالا بتوقيع الاتفاقية فى ميدان المنشية بالإسكندرية ، وكانت تقارير البوليس الحربى تدل على أن الشعور المعادى يسود الإسكندرية وتختلف الأقوال فى جو سرادق الاحتفال بينما يقول إبراهيم الطحاوى سكرتير عام مساعد هيئة التحرير إن رجال الحرس الوطنى تحت قيادة اللواء عبدالفتاح فؤاد الذين حضروا إلى السرادق كانوا يهتفون هتافات خاصة بهم لا يذكرون فيها اسم جمال عبدالناصر ، ويقول حسين عرفه : إن جماهير الإسكندرية التى احتلت السرادق تعإلى هتافها ضد النظام ومن أجل الحرية ، وبينما يقول الطحاوى إن رجال الحرس الوطنى قد افتعلوا ضجيجا مفتعلا فى السرادق عندما حضر الوفد السودانى معتقدين أنه موكب عبدالناصر ، ويضيف الطحاوى ، أنهم أخلوا السرادق من الجماهير فى الخامسة بعد الظهر ، ويتفق الطحاوى وعرفه على أن غالبية الموجودين فى السرادق كانوا عشرة آلاف من عمال مديرية التحرير الموالين للثورة موالاة تامة والذين تسرب من بينهم محمود عبداللطيف أحد أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين وقد أدت إجراءات

(٣١) - حمروش - قصة ثورة ٢٣ يوليو - ص ٣٥٤ .

إخلاء السرادق وإعادة ملئها إلى تأخير حضور عبدالناصر وزملائه بعض الوقت ، وما إن بدأ خطبته حتى أطلقت من مسدس محمود عبداللطيف ٩ طلقات وكان يجلس فى الصفوف الأمامية على بعد ١٥ مترا من منصة الخطباء والضيوف ، أصيب ميرغنى حمزه وزير السودان والمحامى أحمد بدر الذى كان يقف بجانب جمال عبدالناصر الذى لم تصبه الطلقات والذى أصر على متابعة خطبته بعد ما حدث فى السرادق من هرج مرددا ، أيها الرجال فليبق كل فى مكانه حياتى لكم ، دمى فداء لمصر ولشعبها [٣٢] ولقد كان حادث الاعتداء نقطة تحول هامة فى مشاعر الشعب الذى كان يسخطه إرهاب الإخوان المسلمين قبل ٢٣ يوليو والذى يرفض بطبيعته المسالمة مثل هذا الأسلوب الدموى ويستنكر أن تكون طلقات الرصاص هى لغة التفاهم والإقناع ..

اعتقل بعض الضباط الموجودين فى السرادق محمود عبداللطيف الذى أطلق الرصاص واعتدوا عليه بالضرب الشديد ولكن أحمد نور تحفظ عليه فى غرفة بجوار مكتبه طوال فترة التحقيق ولم يلبس ملابس السجن [٣٣] .

كان محمود عبداللطيف العامل البسيط الذى يسكن إمبابه مقتنعا بما أقدم عليه متأثرا بما أوحى به إليه محام إخوانى اسمه هنداوى دوير من أن اتفاقية الجلاء ليست فى مستوى ما يطلبه الشعب بعد نضاله الطويل ، إنها تكلف مصر أعباء طائلة وتضعها تحت رحمة الإنجليز فى المستقبل ، ولقد حولت طلقات الرصاص مشاعر الجماهير نحو عبدالناصر الذى قام بجولة فى الشوارع قابلته فيها الجماهير بحماس ، وخطب صلاح سالم ليلتها فى نقابة المحامين بالإسكندرية فتأثر بعضهم حتى البكاء ،

وفى نفس الليلة صدرت الأوامر باعتقال الإخوان المسلمين وبدأت أكبر حملة اعتقال شهدتها مصر حتى وصل الأمر إلى حد إعطاء المعتقلين بطاقات يسجلون فيها أسماءهم وعناوينهم لتدون فى كشوف سليمة ، وشكل مجلس قيادة الثورة فى أول نوفمبر ١٩٥٤م محكمة خاصة باسم محكمة الشعب كانت برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعى فكانت رابع نوع من

(٣٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٣٥٥ .

(٣٣) نفس المصدر أعلاه ص ٢٥٦ .

المحاكم تشكله الثورة بعد المجالس العسكرية ومحكمة الغدر ومحكمة الثورة وشكلت ثلاث دوائر فرعية فى محكمة الشعب الأولى برئاسة اللواء صلاح حتاته والثانية برئاسة قائد الجناح عبدالرحمن عنان والثالثة برئاسة القائمقام حسين محفوظ ندا ..بلغ عدد الذين حكمت عليهم محاكم الشعب ٨٦٧ وعدد الذين حكمت عليهم المحاكم العسكرية ٢٥٤ شخصا ، وصدر الحكم بإعدام محمود عبداللطيف ويوسف طلعت وهنداوى دوير وإبراهيم الطيب وعبدالقادر عوده ومحمد فرغلى ونفذ الحكم فعلا ، كما صدر حكم إعدام حسن الهضيبى ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم حكم على سبعة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان محمد نجيب مازال حتى لحظة محاولة الاعتداء على حياة جمال عبدالناصر رئيسا للجمهورية بلا سلطات عملية تقريبا يقوم بمعظم واجباته ويحضر مقابلاته حسن إبراهيم وزير الدولة لشئون الرئاسة ، وعندما وجد محمد نجيب فى اتفاقية الجلاء بعض ما يستحق النقد كتب مذكرة إلى مجلس قيادة الثورة ثم فوجئ بها مطبوعة يوزعها الإخوان المسلمون ، انتهى (٣٤) .

نلاحظ هنا أن نجيب قد وجه المذكرة إلى مجلس قيادة الثورة فكيف قام الإخوان بالحصول عليها وهم فى صراع مع هذا المجلس وأغلب قياداتهم وأعضائهم فى السجون والمعتقلات لو لم يكن اللواء محمد نجيب فعلا متعاونا معهم وهو الذى سرب المذكرة إليهم وبالتالى فهو لا يمكن أن يكون قد فوجئ بها توزع من طرفهم كما ذكر المؤلف ، والإخوان المسلمون رغم كل الحقائق التى ذكرت فى مقالات وكتب ونشرات بعضها منهم أنفسهم وما جاء فى حيثيات المحاكم ظلوا يشككون فى كل إجراء سواء جاء من المؤيدين لحكم عبدالناصر أو المعارضين له بل ومن طرف أناس لحقت بهم إجراءات الاعتقال كحالة الشيوعيين، ثم إن هؤلاء الإخوان لم يتركوا فرصة إلا واستغلوها فى الهجوم على عبدالناصر ونظامه وكل منجزاته حتى بعد وفاته وخصوصا خلال الفترة التى أتاحها لهم الرئيس السادات عندما أطلق سراح المعتقلين منهم وأطلق أيديهم وألسنتهم وكان غرضه من ذلك ليس رحمة بهم (كما رأينا فيما بعد) وإنما

(٣٤) قصة ثورة ٢٣ يوليو - حمروش .

لاستخدامهم من أجل ضرب الناصريين والتخلص منهم، علما بأنه عند وفاة جمال عبدالناصر لم يكن منهم أكثر من ٤٥٠ فى السجون بعضهم كانوا متهمين بالتخابر مع إسرائيل ، وذكر الأستاذ عبدالله إمام فى كتابه (عبدالناصر والحملة الظالمة) ما يلى :

(فى ٣٠ مايو ١٩٥٦م وقبيل تأميم قناة السويس وما تبعه من عدوان ثلاثى ذهب المرحوم كامل الشناوى رئيس تحرير جريدة الجمهورية ليجرى حوارا مع جمال عبدالناصر وفى الحوار قال له لقد قررتم رفع الرقابة على الصحف نهائيا وبصورة كاملة فهل سيتبع ذلك اتخاذ قرار تخفيض قيود الأحكام العرفية التى فرضت على البلاد أثناء فترة الانتقال ؟

فقال عبدالناصر : إن الأحكام العرفية استمرار لقرار آخر برلمان فى ٢٦ يناير ١٩٥٢م مع فارق أنها كانت تستغل ضد الوطنيين أما بعد الثورة فقد اتخذت ضد أعداء الوطن وسأعلن وجهة النظر فى هذا الخصوص نهاية الأسبوع ..

وقال كامل الشناوى : والمعتقلون ؟

أجاب عبدالناصر : قررنا الإفراج عنهم [٣٥] .

فقال الشناوى : جميعا ؟

قال عبدالناصر : جميعا وبلا استثناء ، ولكن هل تعرف عدد المعتقلين ؟

قال الشناوى : ليس عندي معلومات أكيدة عن عددهم وكل ما أعلم أن كثيرين ممن أعتقلوا أو صدرت عليهم أحكام قضائية ونشرت قوائم بأسمائهم قد تم الإفراج عنهم فى صمت ولست أعرف ما هى الحكمة فى كتمان هذه الأنباء .

قال عبدالناصر : سأذيع خلال أيام قليلة بيانا عمن اعتقلناهم ومن أفرجنا عنهم وسيفاجأ الرأى العام حين يعلم أن حملات التضليل قد ضربت الرقم الحقيقى للمعتقلين فى عشرة أو عشرين وسيعلم الرأى العام أيضا أننا لم نؤذ معتقلا فى رزقه ولم نهمل شأنه أو شأن أحد ممن يعولهم وأن الاعتقال كان إجراء تحفظيا لسلامة الدولة وحماية مصلحتها العليا ، وأن الاعتقال بالنسبة إلى كثير من المعتقلين لم يكن عقوبة بل كان علاجا ووقاية .

(٣٥) عبد الناصر والحملة الظالمة - عبد الله إمام - ٣٠ .

الشناوى : هل أستطيع أن أعرف عددهم ؟

عبدالناصر: إن عدد المعتقلين الآن ٥٧١ سيفرج عنهم جميعا قبل ٢٣ يوليو [٣٦] ..

بعد ذلك بيومين كان عبد الناصر يفى بوعده ويعلن عن عدد المعتقلين وقصة اعتقالهم كاملة فى مؤتمره الصحفى ، فقال : إن أكبر عدد من المعتقلين طوال هذه الأيام فى ٢٤ أكتوبر ١٩٥٥م كان ٩٤٢ بعد اكتشاف القنابل ومخازن الأسلحة والمنظمات السرية وكلكم تعلمون الفترة التى مررنا بها ، وقبل هذا الوقت وهذه الحوادث كان عدد المعتقلين فى أكتوبر ١٩٥٤م عددهم عامى ٥٢- ٥٣ حوالى ٢٣٧ شخصا فقط ولما قامت الحوادث المؤسفة باسم الدين قام بعض الناس ممن خدعوا وغرر بهم ودفعوا دفعا لمقاومة هذه الثورة، ورغم هذا كله فإن عدد المعتقلين وصل إلى ٢٩٤٣ شخصا وفى سنتى ١٩٤٨- ١٩٤٩ لم تكن البلد تحكم حكما عرفيا استثنائيا وصل عدد المعتقلين إلى خمسة آلاف شخص ..

ثم شرح عبدالناصر أسباب الاعتقال أو التى دفعت إلى الاعتقال فقال : علينا أن نفكر فى الأسباب والدوافع قبل الحكم على قرار ما حتى نستطيع أن نحكم حكما سليما ، وأضاف، فى السنوات الماضية أقيمت محاكم عسكرية وحكمت على الأشخاص الذين كانوا يقاومون الثورة والذين كنا نعتبر أى نجاح لهم يعد انتكاسا لهذه الثورة وأن أى نجاح قد يثبّت الاستعمار وأعوانه ، وعلى ما أعتقد أن الأحكام لا يتجاوز أقصاها ثمانى سنوات انتهى [٣٧].

والواقع أن الثورة أى ثورة أو أى انقلاب لابد أن يتخذ إجراءات حماية والأعمال التى تواجهه ينظر إليها على أساس أنها تستهدف القضاء عليه ، وهذه حقيقة واجهت أغلب الثورات أو الانقلابات التى حدثت فى العالم وما تختص به ثورة عبدالناصر أنها كانت بيضاء من البداية واستمرت كذلك ولم يحدث على الإطلاق أن وافق أو أمر جمال عبدالناصر بقتل أو اغتيال أى إنسان رغم كثرة المخالفين والمتآمرين والمارقين فى الداخل والخارج ، وأذكر أننى سمعت قصة من الأستاذ سامى شرف وهو صديق أعتز بصداقته أكتبها هنا للتدليل على بعد جمال

(٣٦) نفس المصدر أعلاه .

(٣٧) نفس المصدر أعلاه .

عبدالناصر عن أعمال القتل وتصفية الحسابات بتلك الطريقة أو غيرها من أعمال التآمر بالليل ، قال :

كان أحد المصريين يشرف على إذاعة تنعق ليلا ونهارا ضد عبدالناصر وتذيع أخبارًا مضللة وتصفه بأشنع الأوصاف ، وحدث أن وزير الداخلية (لم يذكر اسمه) قال لعبدالناصر أثناء جلسة لمجلس الوزراء (يا ريس فلان زودّها وقد رصدناه ونودّ أن نستأذن فى التخلص منه) لم يرد عبدالناصر ولكنه نهض وانفض اجتماع المجلس، وحدث فى جلسة أخرى أن ردد الوزير نفس الكلام وهذه المرة أقاله عبدالناصر من منصبه (كوزير للداخلية) ولكن بقية الوزراء قالوا للرئيس (يا ريس الرجل يريد حمايتك فتعاقبه بالفصل) !! قال عبدالناصر إقالته أفضل من أن يقنعنى بالقتل .. هذا ما ذكره سامى شرف وهو أقرب مسؤول لعبدالناصر ، وأنا أروى حديثه وهو حى يرزق أطال الله عمره ، وأثق فى شهادته خصوصا إنها كانت بعد وفاة جمال عبدالناصر ، وهناك قصص وروايات أخرى سأذكرها فى مكانها من هذا الكتاب ..



محاولة اغتيال عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية

٢- الضغوط والمؤامرات الخارجية :

(قيل إن السياسة فن المستحيل)

وقالوا إن سياسة الدنيا تقوم على المصلحة وأخذ شئ بترك شئ آخر ، فمن أراد الحق كاملا وإلا ، فلا ، فلينشد ذلك فى المثل الأعلى للأخلاق لا فى السياسة أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للأخلاق .

لكن فى وقتنا الحاضر جرت العادة أن تخضع السياسة للمصالح ويخضع الحق للقوة ، وأظن أنه ما كان لعبدالناصر أن ينتظر ولا كان للسياسة أن تخضع للأخلاق أبدا ، وكان عبدالناصر بالتأكيد يدرك أن حروبا شرسة من مختلف الجهات ستشن عليه وعلى مشاريعه التى لا يرضى عليها الغرب الاستعمارى وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، لأن هذا الغرب اعتاد أن يملى إرادته (مهما كانت) فيطاع ولأن الصدام المحلى والمؤامرات المحلية لم تكن بعيدة عن خدمة النوايا والرغبات والمصالح الخارجية ، وكذلك لأنها لم تنجح فقد بدأت الضغوط والمؤامرات الخارجية ، والقوى الخارجية هذه أدواتها أقوى وأمضى وهى تبدأ من الاقتصادية والسياسية والمالية والصناعية وليس آخرها العسكرية ، ونعلم كم مارست الولايات المتحدة الأمريكية من أنواع تلك الضغوط على عبدالناصر ومصر عندما أقدم على ما عرف وقتذاك (بكسر احتكار السلاح) وتعامل مع دول كانت تعرف فى وقته (بالكتلة الشرقية أى الشيوعية) وتحديدا (تشيكوسلوفاكيا) حتى أن الرئيس الأمريكى دوايت أيزنهاور هدد بضرب حصار بحرى على مصر بحيث يمنع التصدير أو الاستيراد منها وإليها وقال إنه سيجعل القطن المصرى يتكدس فى الحقول وتجويع الشعب المصرى عقابا له بسبب حكم عبدالناصر وأنه سيمنع وصول السلاح الشيوعى إلى مصر أو غيرها اعتقادا منه أن عبدالناصر سوف يرتعب ويتراجع بالعا نواياه ورغباته وربما سيطلب الرحمة من سيد البيت الأبيض (كما يفعل حكام العرب الآن) ولكن ذلك كان صفير ريح فى واد عميق ، وكان هيكل قد ذكر فى كتابه (لمصر .. لا لعبدالناصر) الصادر فى طبعته الرابعة سنة ١٩٨٥م ما كانت تخطط له المخابرات المركزية الأمريكية ، حيث قال :

(نقلت وكالات الأنباء العالمية قصتين إخباريتين مصدرهما واشنطن ، القصة الأولى كتبها (دونالد روتربيج) أحد مراسلى وكالة (الأسوشيتدبرس) نصها كما يلى :

(أعلن جون ماركس) أحد مؤلفى كتاب (عبادة المخابرات) أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حاولت ثلاث مرات فى أواخر الخمسينات اغتيال جمال عبدالناصر ، وقد رتبت المخابرات الأمريكية فعلا ثلاث فرق للاغتيال تقوم بهذه المهمة ، ولكنها لم تنجح فقد قبض على إحداها وعجزت الأخرى عن تنفيذ المهمة ، كما أن الثالثة وهى مكونة من عرب [٣٨] فى خدمة المخابرات المركزية لم تبلّغ عما حدث لها بعد أن وصلت فعلا إلى مصر ..)

وقال (جون ماركس) إن التخطيط لمحاولات اغتيال جمال عبدالناصر بدأ فى اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى كان يحضره (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الأمريكية الأسبق وكان يحضره أيضا شقيقه (آلان دالاس) الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وحدث أن عرض فى هذا الاجتماع تقريرا عن الأضرار التى تسببها سياسات جمال عبدالناصر لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة وقال (جون فوستر دالاس) ألا تستطيع المخابرات تصفية هذه المشكلة ؟

واعتبر آلان دالاس أن هذه العبارة تكليف رسمى بتصفية جمال عبدالناصر وبدأ الترتيب لاغتياله ، هذا ما نقلته وكالة (الأسوشيتدبرس) على لسان (جون ماركس) ويعلق هيكل على القصة قائلا :

---

(٣٨) هذه القصص ذكرها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه ثم فى برنامجه الذى كانت تبثه محطة تليفزيون الجزيرة الفضائية بعنوان (مع هيكل) خلال شهر يونيو ٢٠٠٧م .. ومع الأسف فإنه ليس جديدا تآمر بعض العرب على بلادهم وأهلهم من خلال المخابرات الأجنبية ، ونجد فى وقتنا الحاضر وفى نهاية القرن العشرين من يبيعون أنفسهم ليس رغبة فى مال ولكن عمالة وسفالة مثلما فعل الأمير السعودى (بندر بن سلطان) وكان سفير السعودية فى واشنطن عندما قال لبوش الابن إنه يصلى كل صباح داعيا له أن يدمر العراق، جاء هذا فى كتاب (خطة الهجوم) لمؤلفه (بوب وودوارد - ص ٣٤٨ ...) .

هكذا إذن وبشهادة خبير عارف بما يقول ، حاولوا تصفية عبدالناصر كإنسان باغتياله تماما كما فعلوا مع (السيلفادور الليندى) فى تشيلى وباتريس لومومبا فى الكونغو وغيرهما ، ونأتى للقصة الإخبارية الثانية وهى تتعلق بتقرير أذيع من واشنطن عن تحقيقات لجنة السيناتور (تشرش) فى نشاط وجرائم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وكانت جريدة (نيويورك تايمز) بين الوسائل الصحفية التى نقلت كثيرا من تفاصيله ، يتحدث التقرير فى جزء منه عن الأساليب التى اتخذتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى مجال توجيه الرأى العام فى العالم ومنذ بدأت نشاطها أثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (وكالة الخدمات الخاصة) ثم تحولت بعد ذلك بقانون أصدرة الرئيس الأسبق (هارى ترومان) إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، ويرسم التقرير صورة عجيبة لنواحى النشاطات التى لجأت إليها المخابرات المركزية فى مجالات الصحافة والنشر والإعلام بصفة عامة لكى تضمن تحقيق أغراضها ، من ذلك مثلا أن الوكالة أنشأت من وراء الستار دورا صحفية فى العديد من دول العالم الثالث وكان تمويل هذه الدور كله من مصادر الوكالة كما أن هناك دوراً أخرى ساعدت الوكالة على إنشائها ولم تطلب الوكالة من أصحابها شيئا محددا بالذات ولكن مجرد ربط مصالحهم بالوكالة حتى تحقق (تكييف) اتجاهاتهم من أغراض هذه الوكالة على حد نص تعبير القرار ، ثم يقول المؤلف :

أعود إلى الحرب المستمرة على جمال عبدالناصر ، فقد حاولت قتله وقتل سياساته ماديا وحاولوا ثلاث مرات يعترف بها (جون ماركس) ، انتهى [٣٩].

ومؤامرات الغرب على الزعماء والقادة الذين لا يسيرون فى ظل هذا الغرب ويخدمون مصالحه كثيرة عبر كل الأزمان وبالنسبة لمصر بالذات كانت المؤامرات والضغوط كثيرة جداً من محمد على الكبير مرورا بأحمد عرابى إلى جمال عبدالناصر ، فمثلا كان محمد على الكبير على خلاف مع السلطان العثمانى لاعتقاد السلطان أن محمد على يريد بناء مجد على حساب الإمبراطورية العثمانية وقد أصدر فرمانا فى شهر مايو ١٨٣٣م يعلن فيه خروج محمد على عن طاعته

(٣٩) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكل - ص ١٥ .

وكذلك ابنه إبراهيم وعزله عن ولاية مصر ، لكن بعد هذا الفرمان مباشرة سعت فرنسا وبريطانيا للتوسط بين محمد على والسلطان العثمانى محمود الثانى لرغبة هاتين الدولتين تعطيل الاتفاق بين السلطان وروسيا التى كان قد طلب منها المساعدة ضد طموحات محمد على وفعلا دخلت جيوشها البحرية المياه المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط ، وبهذا المسعى الذى لم يكن لا من أجل عيون السلطان ولا رغبة فى محمد على وإنما لمنع الروس من وضع أقدامهم فى مياه البحر الأبيض المتوسط ، وافق السلطان على إلغاء فرمان حرمان محمد على وابنه إبراهيم ووافق على حقوقه فى ولاية مصر والسودان والجزيرة العربية وكريت وفلسطين وسوريا ، وكان السلطان قد وقع معاهدة مع روسيا (كما أشرنا) خوفا من طموحات محمد على لكن هذه المعاهدة لم ترض فرنسا وبريطانيا ولذلك بذلتا مساعى للتوفيق بين الاثنين ، ويذكر أن رئيس وزراء بريطانيا قد نبّه سنة ١٨٣٣م إلى أن محمد على يسعى إلى تكوين مملكة عربية برئاسته فى مصر بحيث تضم كل البلاد العربية وبتعبيره (البلاد التى تتكلم اللغة العربية) ومن المؤكد أن الرأى البريطانى هذا قد وصل آذان السلطان العثمانى الذى سارع باتخاذ الإجراء المشار إليه ولم تتراجع بريطانيا إلا بعد اتفاقه مع روسيا ، وقال المبعوث الفرنسى لدى إبراهيم باشا فى سوريا إن ابن محمد على الذى يحكم سوريا يعمل على إحياء الأمة العربية وغرس شعور وطنى جديد عند العرب[٤٠] .

والحقيقة إن طموحات محمد على كانت كبيرة وكان يرى فى نفسه الرجل القادر على إقامة الدولة العربية القوية من المحيط إلى الخليج ، وكان ابنه إبراهيم يقوم فى سبيل ذلك إلى جانب خطواته الحربية بخطوات أخرى اجتماعية فقد قام بعدد من الإصلاحات مثل التى قام بها والده فى مصر لإنهاء العسف الإقطاعى وتحريم الابتزاز حيث أعفى الأرض البكر من الضرائب وأسكن البدو فى الأراضى المناسبة ، وفى عهده زادت مساحة الأراضى المنزرعة فى سوريا من مائتى ألف فدان إلى أربعمائة ألف فدان فى منطقة حوران واستطاع الفلاحون أن يتاجروا بمحاصيلهم بدلا من تخزينها خوفا من الباشوات الأتراك وكبار الإقطاعيين الذين

(٤٠) تاريخ الأقطار العربية الحديث - لوتسكى .

أجبـرهم إبراهيم باشـا على الركوع للسلطة المركـزية ، وأعاد إبراهيم تنظيـم البلاد على أساس ست مديريات بنظام عـصرى مركزى كمـا أصلح نظم التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية فى كافة أنحاء سوريا والمدارس الثانوية فى المدن ..(٤١) .

ولـم تكن الحكومـة البريطانية مـرتاحة إلى نجـاحات محـمد على فى التـقدم الصناعى والزراعى والعسكرى الذى حققه فى مصر وسيطرته على الجزيرة العربية وسوريا الشئ الذى يجعل طريق الهند تحت رحمة رجل قوى منظّم يقود قوة هائلة ولعب (بالمرستـون) وزير خارجـية بريطانيا دورا خـبيثـا فى تحقـيق أهداف دولته بالاتفاق مع الباب العإلى وكان محمد على متعجلا فى تحقيق أهدافه فأبلغ قنصلى بريطانيا وفرنسا أنه قـرر إعلان استقلاله تمشيا مع سياسـته الإصلاحية وتطور بلاده وأن بقاء مصـر وسوريا فى حظيرة السلطان يتنافى والواقع السياسى والاجـتماعى فى الشرق .. إلخ ، ويضيف المؤلف قائلا :

كان تفكيـر محمد على سليـمًا فى استعـداده لمواجهة بريطانيـا بالقوة ولكن حيل (بالمرستـون) لـم تنضب فركز على النشاط الدبلوماسى وحصل عـلى موافقة كل من النمســا وبروسيا وروسـيا وتركيـا على اتفاقيـة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠م حـيث تـم توجـيـه إنذار إلى مـحـمـد على فى ١٩ أغـسـطس ١٨٤٠م ينص على الشروط التالية :

١ – تسلـم محمد على مقاليد مصر كملك وراثى .

٢ – إناطة إدارة فلسطين (ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحياة .

٣ – إعادة جميع الممتلكات الأخرى إلى السلطان .

٤ – فى حالة عدم موافـقة محمد على على هذه الشروط المقترحـة خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها .

٥ – إن لـم يوافق خـلال عشـرين يومـا على هذه الشروط يعـمل على عـزله عندئذ بجهود الحلفاء المشتركة .

(٤١) – تاريخ ثورة ٢٣ يوليو – حمروش – ص ٣٦ .

رفض محمد على الإنذار وأعلن أنه ينوى أن يبقى بالسيف ما ربحه بالسيف وبدأت الحروب بنزول قوات بحرية بريطانية ونمساوية مشتركة على شواطئ لبنان وانتهت بسقوط بيروت واللاذقية والإسكندرية وعكا وتهديد الأسطول البريطانى بهدم الإسكندرية، اضطر محمد على أن يوقّع على الاتفاقية يوم ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠م تحت فوهات المدافع البريطانية بعد أن اقتصرت مساعدة فرنسا حليفة مصر على الإمداد بالأسلحة والتأييد المعنوى متحاشية دخول حرب أوربية ضد روسيا وإنجلترا فى وقت واحد فتركت مصر وحدها فى كفة الأقدار .

لقد أقام محمد على فى مصر نظاما اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا انتكس بعد موته ولكنه لم يندثر ، وكان محمد على قد وضع أساسا سليما لإقامة بناء ينفرد به المصريون ولا يخضعون فيه لسلطة قوة خارجية عنهم . انتهى (٤٢) ..

وهكذا تحالفت قوى الغرب لضرب مشروع محمد على المستهدف تقدم مصر وأفشلوا خططه الصناعية والزراعية والثقافية والاجتماعية الشئ الذى أدى إلى عدة أمور :

أولها : عدم تمكين مصر من التقدم صناعيا أو زراعيا وثقافيا ذلك أنها لو تقدمت وأمكن لهذا الزعيم أن ينفذ مشاريعه فسوف تمثل خطراً على مصالح الغرب .

وثانيا : سوف تحقق مصر مشروع التوحد العربى أو بالتحديد سوف تقود العرب لتكوين الدولة العربية الواحدة التى تتوفر لها كل مقومات التقدم والرقى ، وهو نفس الشئ الذى سعى إليه جمال عبدالناصر وقد واجه نفس الصعاب والمشاكل والمؤامرات وإذ لم تكن هناك إسرائيل والصهيونية فى عهد محمد على ولا فى عهد أحمد عرابى فإن عهد جمال عبدالناصر كان فى وقت وجدت فيه هذه الدولة التى صنعها الغرب لتكون شوكة فى خاصرة الأمة العربية ، ولعله من المفيد أن نشير إلى ما ذكره (بن جوريون) أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل فى مذكراته ، قال (إن إسرائيل لا يمكنها أن تسمح لمحمد جديد فى شخص جمال عبدالناصر يقوم ليوحّد العرب كما وحد النبى محمد العرب والمسلمين) ذلك كان عبدالناصر رحمه الله رحمة واسعة الذى توفاه الله فى وقت مبكر ، وبعده ما جاء حاكم عربى إلا انطبق عليه قول الشاعر الفرنسى (لامارتين) :

(٤٢) - قصة ثورة ٢٣ يوليو - حمروش - ص ٤١ .

(فى الشرق لا وجود للنظم والأجهزة بمفهومها الصحيح ، ولا أثر للتقاليد السياسية ، ولا وجود فيه إلا لسيد من ناحية ولعبيد من ناحية أخرى ، الرجل الكبير فيه ليس سوى شخصية أو حدث ، بل هو أشبه بنجم يتلألأ لحظة فى ظلمات البرية ، هو رجل يقوم بأعمال كبيرة يسخّر لها آلافا من الناس الذين يحكمهم ولكنه لا يغير شيئا فى مستوى شعبه ، ولا يؤسس دولة وطيدة الأركان، ولا يخلق أجهزة ، ولا يضع قوانين ، فإذا غادر الدنيا طوى عبقريته كما يطوى البدوى خيمته وتوارى معها تاركا المكان خاليا كما كان قبل قيامه [٤٣] . ويذكر أن ورقة بن نوفل كان قد قال للرسول محمد عليه الصلاة والسلام (ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذى) ومع عدم المقارنة بالرسول فإنه ما جاء حاكم وطنى مخلص صادق مع نفسه ومع أمته إلا حورب بكل أنواع الأسلحة ..

٢- دوافع تلك الضغوط والمؤامرات :

أسباب ودوافع الضغط والتآمر عديدة وكثيرة ، محلية وخارجية ، فهى ترتبط بغايات ومصالح وأهداف وعقائد وسياسات ، الخارجية منها :

ربما ليس هناك من لا يعرف كيف كان وضع الوطن العربى فى التاريخ المعاصر قبل حدوث ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وبروز جمال عبدالناصر على الساحة المصرية أولا وقد أراد القضاء على الفساد وتحرير الفلاح والعامل ومنع الاحتكار والاستغلال والاستعباد ، بمعنى إحداث تغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وتعليمية وحتى نفسية ، وعلى الساحة العربية حيث يعمل من أجل الاستقلال الوطنى والتخلص من قوى الاستعمار بجميع أنواعه ، وعلى الساحة الإقليمية حيث ساند جميع حركات التحرير فى أفريقيا والشرق الأوسط وجعل من عاصمة بلاده (القاهرة) مركزا لنشاط حركات التحرير ورعاها أمنيا وسياسيا وماليا وقدم لعناصرها التوجيه والتدريب ، وعالميا حيث وقف ضد كل أنواع السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية والتمييز وشارك فى ظهور حركة عدم الانحياز تلك الحركة التى رفضت وقاومت هيمنة الغرب والشرق فى وقت واحد ..

---

(٤٣) - قصة ثورة ٢٣ يوليو - حمروش .

٣- ولعله لم يكن هناك من لا يعرف كيف كانت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تتعامل مع العرب وبلدانهم ، فلقد كانوا يرون أن هذا العربى الذى يجلس على ثروات هائلة يجب أن يبقى جاهلا متخلفا لا يحصل إلا على فتات موائد السادة الأوربيين وقد نصّبوا فى بلاد العرب حكاما جهلة بألقاب أمراء وملوك وسلاطين ورؤساء وبايات مهامهم قهر شعوبهم وسرقة أقواتهم ، ثم كيف أصبح بعدئذ الوطن العربى وكيف تعززت مكانة العرب ككل قبيل وفاة جمال عبدالناصر ، ولقد كانت هذه الأحداث والتغييرات والتطورات بالتأكيد هى الأسباب الرئيسية لكل الضغوط والمؤامرات ومحاولات التركيع ، وتفصيل ذلك كما يلى :

١- البلاد العربية كانت تداس بسنابك خيول الأجانب وتدنّس بأقدامهم وكان بعضها اعتبر مستقلا ظاهريا ولكنها مكبّلة إما بمعاهدات أو اتفاقيات أو قواعد عسكرية على أراضيها وجواسيس فى إداراتها وأجهزتها ، والبقية مستعمرة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا لا تملك من نفسها شيئا ولا تدرى ماذا يجرى فى أجوائها وسمائها وحتى أرضها .

٢- قبيل وفاة جمال عبدالناصر كانت كل البلاد العربية متحررة مستقلة ولا نقول بغير جهود وتضحيات أبنائها ولكن كان دور جمال عبدالناصر كبيرا فى تحفيز قدرات الرجال ودفع هممهم إلى العلى حيث كان صوت العرب من القاهرة يخاطب العرب من الخليج إلى المحيط وقد كان وسيلة عبدالناصر فى توصيل صوته إلى كل مكان ونعلم أن إذاعة صوت العرب قد بدأت فى منتصف يوليو ١٩٥٤م حتى إن عبدالناصر صار يحكم الوطن العربى من خلال صوت العرب فى القاهرة وكان يحدد العلاقة بين المواطنين العرب وحكامهم الذين كانوا يرون فى الاستماع لهذه الإذاعة جريمة يعاقبون الناس عليها ، ومن خلال صوت العرب وقف جمال عبدالناصر ضد الأحلاف وضد سياسات الهيمنة على العرب وضد الحكام الذين يتآمرون على شعوبهم ويبيعون ثرواتها إرضاء للغرب وأملا فى المساعدة منه للبقاء على كراسيهم التى كانت تهتز ، ولم يكن عبدالناصر يطلب الحق بالباطل وإنما الحق بالحق ، البلاد العربية لابد أن تتحرر والشعوب العربية لابد أن تستقل والثروات العربية لابد أن تكون فى خدمة الإنسان العربى، وما كان هذا

مقبولا ولا مسموحا به ، فقالوا : إن الصغير لابد أن يبقى صغيرا وقد نعتوا جمال عبدالناصر بكل ما فى اللغات من أوصاف مسيئة حتي إنهم قالوا : إنه (هتلر جديد) وأنه (طاغية) يعمل على تخريب العالم ولابد من كسر عظمه ليكون عظة وعبرة لكل من يتطاول أو يرفع رأسه حتى يرى أبعد من قدميه ، وكانت بريطانيا العظمى وكانت فرنسا وكانت إسرائيل ، ومن وراء هؤلاء العم سام ، قالوا كيف يمكن لعربى أن يكسر احتكار السلاح وقد أعلن ذلك ناصر فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥م وكيف له أن يمس مصالح الغرب ؟ وكانت البداية ، ولابد أن تستعرض إسرائيل عضلاتها بالدسائس أولا ، تخريب من الداخل لإرعاب الناس وتحريض الغرب بضرب مصالحه داخل البلاد وإظهار الحكم بأنه عاجز ، ثم بالعدوان المباشر لأنه لا يجوز لعبدالناصر أن يخرج الإنجليز من السويس وكان الهجوم على الجنود المصريين فى غزه يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٥م فقد قتلت إسرائيل ٢٧ وجرحت ٣٠ دون رادع أو راد ، ودمرت محطة السكة الحديد الواقعة شمالى غزة وكان على عبدالناصر أولا أن يطلب السلاح من الغرب للدفاع عن النفس ، قالوا ، السلاح ، لا ، لأنه يمثل خطرا على إسرائيل ، وعلى عبدالناصر أن يقبل شيئًا آخر ، دفاعًا مشتركًا لأن الذى يخرج من الباب لابد أن يعود من الشباك ، بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قدمتا مشروع خطة الدفاع المشترك لعبدالناصر ، أى أن يضع بلاده من جديد تحت الحماية وبعض الرحمة ! رفض عبدالناصر هذه الوصاية ، وقد اعتبرتا هذا الرفض تمردا على إرادتيهما التى لا يجب أن ترد ، كذلك فإن المطالبة من طرف عبدالناصر بجلاء القوات البريطانية من السويس بمصر بعد ثمانين سنة من وجودها يعتبر خروجا على الطاعة ، معارضة حلف بغداد رغم نصائح (دالاس) وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية و(إيدن) وزير خارجية بريطانيا العظمى يعد تمردا على إرادات القوى الكبرى ، وهذا غير معتاد وغير مقبول ، فبريطانيا ترى مركزها الاستراتيجى فى السويس فوق كل نقاش أو اعتبار لأنه مركز الدفاع عن الشرق الأوسط ومصالح بريطانيا فى الهند والوقوف ضد الخطر الشيوعى الذى قد يجتاح المنطقة ، وكان ردها القاطع ، لا تفاوض ولا جلاء ، وبالمقابل كان تصميم قادة ثورة ٢٣ يوليو ، العمليات الفدائية التى يجب أن تجرى ليل نهار من أجل إجبار هذه الدولة المتغطرسة على الفرار أو إجبارها على

الرضوخ لمطالب الثوار وهو فى النهاية رغم التضحيات الكبيرة ماذا حدث ؟ تم توقيع اتفاقية الجلاء فى يوليو ١٩٥٤م والمدة عشرون شهرا فقط ..

٣- وكان الفراق النهائى بين ثورة ٢٣ يوليو والغرب ، وتحديدا بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية تلك المحاولات التى قامت بها هذه الأخيرة لإفشال أهم مشروع وضعته الثورة المصرية ضمن أولوياتها ، ذلك هو مشروع السد العالى، ولقد تشكلت الكثير من لجان الخبراء والفنيين فقررت فوائده الاقتصادية ، وحدث أن الخبراء الألمان والإنجليز والفرنسيين التابعين لشركات كبرى فى بلدانهم أجمعوا على أن السد العالى من أهم المشاريع المائية فى العالم وعلى ضوء دراساتهم قرر البنك الدولى للإنشاء والتعمير تقديم قرض مالى وكذلك الحكومتان البريطانية والأمريكية حيث استعدتا بتوفير الأموال اللازمة من العملة الصعبة لإنجاز المشروع ، ولكن ما لبث الموقف أن تغير ذلك أن البلد الذى لا يقبل الشروط الدولية ومنها تلك التى تمس كرامته ومستقبله السياسى لا يجد القبول من جانب هذه الدول والمؤسسات فتراجعت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا عن وعدهما وسحب البنك الدولى عرض القرض ، وما كان من وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن قررت بلاده إلغاء موافقتها بتقديم الدعم المالى لبناء السد ومعها البنك الدولى إلا أن أعلن قائلا :

(إننا نشك فى أن المصريين يستطيعون أن ينفذوا هذا المشروع العملاق الذى يتكلف مجهودا هائلا والذى لا يوجد فى العالم كله مشروع للرى بمثل حجمه ، وشكك كذلك ليس فقط فى المجهود البشرى المصرى وإنما أيضا فى الاقتصاد المصرى - (٤٤) .

وكان لابد من رد قوى يتناسب مع مبادئ الثورة المصرية وزعامتها ويكون شاهدا على تصميم وإرادة وإصرار الشعب المصرى ويتكافأ مع تضحياته ، فإذا كان هؤلاء المتغطرسون قد قالوا لا للتصنيع ولا للسد العالى ولا لمجرد التفكير فى مصلحة العرب ناهيك عن وحدتهم ولا للتسلح ، فلابد أن يكون الرد أقوى وأبلغ من لاءاتهم ، وهكذا كان رد الفعل دفاعا عن النفس والكرامة والمبادئ .

(٤٤) كان حديث الوزير الأمريكى فى مؤتمر صحفى عقده يوم ٢٠ إبريل ١٩٥٧م .

كان عبدالناصر قد أعلن في خطاب رسمي يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥م كما مر بنا عن صفقة السلاح مع واحدة من دول المعسكر الاشتراكي أو الشيوعي كما يقول الغرب بعد أن باءت كل المحاولات بالفشل مع الغرب في الحصول على بعض السلاح حيث قالت بريطانيا العظمى إن الموافقة على بيع بعض الأسلحة (لاحظوا تعبير بعض) لمصر لابد أن يتلازم مع التصالح مع إسرائيل ونهج سياسة مصرية تميل إلى الغرب ، وقالت الولايات المتحدة الأمريكية إنها لا يمكن أن تزود مصر إلا بأسلحة خفيفة للشرطة والاستعمال المحلي (الأمن الداخلي) وقالت فرنسا إن سلاحها لا يسلّم إلا إذا تخلت مصر عن مساندتها للثورة الجزائرية ، ولم تكن واحدة من هذه الدول الكبرى تنظر إلى اعتداءات إسرائيل غير أنه عمل تأديبي ضد العرب ومصر بنوع خاص ، ولم تكن حاجة الجيش للأسلحة غير للدفاع فقط وهو ما كانت تردده بعثات محاولات شراء السلاح من الغرب ، وعندما أعلن عبدالناصر عن صفقة السلاح مع (تشيكوسلوفاكيا) تشيكيا الآن قامت قيامة الغرب وأرغت وأزبدت قيادات الإدارة الأمريكية ، كيف يجرؤ رجل صغير (حسب تعبيرهم) على هذا التحدي؟ تكرر التهديد والوعيد (سلاح شيوعي يستتبعه نفوذ شيوعي) غير مقبول ولن يسمح به ، وكان جمال عبدالناصر قد قرر أن يضرب على الحديد وهو حامي وأن يقدم على ما هو أكبر وأعظم صونا لكرامة شعبه وأمته ، (ديليسبس) تلك هي الكلمة السحرية في خطاب على الشعب يوم ٢٦ يوليو ١٩٦٥م (ويوليو هو عيد الثورة) أعلن فيه تأميم شركة قناة السويس العالمية وقال (لقد كانت حاجتنا كبيرة وملّحة لبناء قواتنا المسلحة ومع ذلك لم تكن هناك مساومة حول مبادئنا بسبب هذه الحاجة ولم نرض بقبول السلاح المشروط بسياسة مفروضة علينا) ومثلما قامت الضجة العالمية التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية ومن ورائها إسرائيل حول صفقة الأسلحة التشيكية والتي قالوا إنها أخلّت بالتوازن العسكري في المنطقة وإنها جعلت سباق التسلح واقعا ، وانضم إلى جوقة المطبلين الباكين بعض الحكام العرب ليس فقط بشأن الأسلحة ولكن (كما قالوا) النفوذ الشيوعي والخطر على الإسلام (كلمة حق أريد بها باطل) على الرغم من أن الاتفاق المصري التشيكي كان تجاريا وليس سياسيا ، والواقع أن الاتفاق قد فتح أبوابا واسعة لدول الكتلة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي وربما كان السبب الأساسي في ذلك يقوم على ثلاثة مبادئ :

١- إن الاتحاد السوفييتى ودول الكتلة الاشتراكية تعاملوا مع مصر تعاملا كريما وقبلوا بتبادل تجارى متواز حتى إن الأسلحة كانت مقابل منتجات زراعية وملابس وأحذية .. إلخ .

٢- إنه لم يكن هناك أية قيود على شراء الأسلحة التقليدية ومصر لم تكن تريد غير ذلك النوع من التسلح .

٣- إن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية قد رفض بعنت حتى مجرد دراسة طلبات الأسلحة المصرية .

ومثلما كانت هناك شروط قاسية بشأن شراء الأسلحة من الغرب وقد أشرنا إليها فيما سبق وكان عبدالناصر قد رفض تلك الشروط فقد كانت هناك شروط ومحاولات ابتزاز أقسى وأشد بشأن مشروع السد العالى ، وكان الاتفاق المبدئى ينص على أن تقدم الولايات المتحدة الأمريكية ٤٦ مليون دولار فى حين تقدم المملكة المتحدة ٢٤ مليون دولار فى المرحلة الأولى وتقدمان فيما بعد ١٣٠ مليون دولار ويقدم البنك الدولى ٢٠٠ مليون دولار، وفى زيارة مدير هذا البنك السيد (يوجين بلاك) لمصر اشترط أن يكون للبنك الحق فى بحث الوضع الاقتصادى والمالى لمصر ، وهنا ظهرت أمام جمال عبدالناصر ورفاقه دروس سابقة كانت سببا فى احتلال مصر من جانب الإنجليز وفكروا فى أحداث سنة ١٨٥٤م وموضوع شق قناة السويس ، وفى خطاب رسمى قال جمال عبدالناصر إن هناك عرضًا سوفييتيًا مريحًا لكننا لم ندرسه بعد ، ولم تمر إلا شهور قليلة بعد حديث مدير البنك الدولى للإنشاء والتعمير مع عبدالناصر حتى بادر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية فى يوم ١٩ يوليو ١٩٥٦م إلى التراجع وسحب العروض المتعلقة ببناء السد العالى ملمحا إلى أن اقتصاد مصر لن يصمد فى مواجهة أعباء مصاريف المشروع الكبير ، ولابد أن هذا الموقف الأمريكى الغربى جاء كرد على اعتراف مصر بالصين الشعبية (الشيوعية) فى مايو ١٩٦٥م وكانت السياسة الأمريكية وقتذاك قائمة على عزل هذا البلد الشيوعى العملاق بل وكل البلدان الشيوعية وينطبق على هذا التصرف المثل الشعبى الليبى القائل (ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى) فهم يقدمون جميع أنواع الأسلحة لإسرائيل إضافة إلى الدعم

السياسى والمالى بل ويؤيدونها فى ضرب العرب وتأديبهم فى حين لا يريدون أن تشترى مصر سلاحا ولا تتعامل مع من لا يرضون عنه ، وهذا بالطبع ما لا يمكن أن يقبل به عبدالناصر ورفاقه ، لهذا وذاك فإن سياسة عبدالناصر لا تعجبهم ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد ألا يخالف إشارة من بنانها والمملكة المتحدة تريده أن يقبل وجهة نظرها فى التعامل والتصالح مع إسرائيل وفرنسا تريده أن يتخلى عن الثورة الجزائرية ، أما إسرائيل وهى العدو الأساسى فتريده أن يتلقى ضرباتها متى رأت ذلك دون رد أو شكوى .. ولم يتوقف الأمر عند خطاب وزير الخارجية الأمريكية بل صحبه تشكيك وتسفيه عجيب ، وهذا ثروت عكاشة الذى عاصر تلك الفترة وكان سفيرا لبلاده فى باريس يتحدث فى كتابه المعنون (مذكراتى فى الثقافة والسياسة) فيقول (إن السد العالى مر فى الولايات المتحدة بمراحل اكتنفتها الأزمات ، وكان من نتيجة هذه الأزمات تأميم قناة السويس ثم حرب السويس وكانت الولايات المتحدة إذن تخفى عاملا سياسيا هاما وراء موقفها السلبى من إنقاذ معبد أبوسمبل لكنها لم تعلن أسرار هذا الموقف وحقائقه لاسيما بعد أن نجحت الدعوة إلى فصل العمل السياسى عن القيم الثقافية ، من هنا كان لابد من تركيز خاص فى أوساط الولايات المتحدة انتهى بنا إلى أن نوفد معرضا على أعلى مستوى فنى يطوف فى أنحائها فيكوّن رأيا عاما بين الشعب الأمريكى بحيث تجد الحكومة نفسها منساقة إلى العناية بمعبدى أبوسمبل والمساهمة فى إنقاذهما ويضيف، وأذكر بمناسبة موقف الولايات المتحدة وقتذاك أن مدير عام اليونسكو ونائبه كانا على وشك زيارة مصر للتشاور فى بعض أمور حملة الإنقاذ وإذا بى أتلقى مكالمة تليفونية من السيدة كريستيان ديروش نوبلكير توقظنى فى الساعة السابعة صباحا لتفاجئنى خلالها بصوتها المتهدج وفى انفعال شديد بقولها إنه لم يغمض لها جفن طوال الليل فقد كانت تتناول طعام العشاء على مائدة المستر راينهارت السفير الأمريكى فى مصر وإذا به يسخر من الجهود المبذولة لإنقاذ الآثار، ويسر إليها بأن السد العالى لن يشيد وأنه أكذوبة سياسية ، ومضت تسألنى إذا كان ما يقوله السفير حقّا وإنها تخشى إذا ما وصل مدير اليونسكو ونائبه مصر أن تتطرق هذه الشائعة إلى آذانهما فتثبط همتهما وينال اليأس منهما، وبطبيعة الحال طمأنتها بأن مشروع السد العالى مرتبط بنظام الحكم الحالى ولا معدل عن تنفيذه .. انتهى [٤٥] .

---

(٤٥) مذكراتى فى الثقافة والسياسة - عكاشة - ص ٥٦ .

ومع التشكيك ومحاولات التسفيه التقت النوايا والرغبات ، فلا العلاقة مع الصين مقبولة، ولا الحصول على السلاح من الشرق جائز ، ولا سد عإلى يجب أن يقام ، ولا تأميم لشركة قناة السويس يمكن أن يتم ، كل هذه الأمور والتطورات تؤدى فى رأى هؤلاء الفرقاء إلى شئ واحد وهو الإطاحة بنظام جمال عبدالناصر، وكان الإجتماع من أجل التخطيط لهذا عمل بين فرنسا وبريطانيا وإسرائيل فى (سيفر) بفرنسا ، اجتمع جى موليه رئيس وزراء فرنسا ، وأنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا ، وديفيد بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل ومع كل منهم وزير دفاعه ومستشاريه ، وضعت الخطة للعدوان الثلاثى وتم الاتفاق وتحدد الموعد والهدف والأدوات ، ونعرف أن حرب سنة ١٩٥٦م تفاصيلها كتبت وقرئت ولا حاجة إلى كتابتها هنا مرة أخرى لكن الشئ الذى لم يذكر وربما لم يعرف لعامة الناس هو مقدار الفوائد المطلوبة أو المنتظرة من هذا العمل الذى تشترك فيه ثلاث دول جمعها العداء لعبدالناصر ونظامه ولكن هذا لا يكفى ، فقد ورد فى تفاصيل الخطة ما يلى :

١- فرنسا ترى أن القضاء على الثورة الجزائرية يكمن فى كسر رأس جمال عبدالناصر فى القاهرة .

٢- بريطانيا إضافة إلى ضرب عبدالناصر تريد إعادة سيطرتها وامتيازاتها فى وعلى قناة السويس وربما مصر كلها كما فعلت منذ حوإلى قرن ونصف من الزمان .

٣- أما إسرائيل وهى التى ستكون مخلب القط فهى لا تكتفى بإسقاط عبدالناصر وعودة قناة السويس ولا القضاء على ثورة الجزائر ولهذا عندما عرضت الخطة للتوقيع ، تقدم جى موليه فوقّع ، وبعدة أيدن ووقّع ثم جاء دور بن جوريون فرفع القلم ولم يوقّع ، قال ، أعرف غرض كل منكما وأنتما تريدان إسرائيل أن توفر لكما مبرر الحرب بحيث توجهان إنذارا لناصر وتعرفان أنه لن يقبل الإنذار وبالتإلى تتدخلان فما هى فائدة إسرائيل من كل هذا ؟ سألاه ، ماذا تريد أنت وإسرائيل ؟ قال ، أولا توقيع وزير الدفاع الفرنسى الآن على تزويد إسرائيل بالمفاعل الذرى المطلوب منذ مدة على أن يوافق جى موليه على تزويدنا بالخبرة واليورانيوم ، فوقّع وزير الدفاع ورئيس الوزراء الفرنسيان على طلب بن جوريون، ثم قال ومن بريطانيا العظمى أطلب موافقة رئيس الوزراء على أن تقوم إسرائيل باحتلال الضفة الغربية وهى تحت السيادة الأردنية ،

فقال ايدن هذا غير ممكن الآن لأننا نرتبط باتفاقية دفاع مشترك مع الأردن ولا يجوز لدولة كبرى أن تخالف معاهداتها والاتفاق سينتهى سنة ١٩٦٧م ، فقال بن جوريون ، لا بأس نطلب منك الموافقة مبدئيا الآن وسوف ننتظر إلى أن تنتهى الانفاقية كما قلت سنة ١٩٦٧م ، وافق إيدن ، والبقية معروفة وهو الذى حدث سنة ١٩٦٧م ..

٤- ومعروف أن إسرائيل بدأت الهجوم على الأراضى المصرية سنة ١٩٥٦م أى أنها قدمت المبرر المتفق عليه نظير الثمن الكبير الذى دفع لها حسب اتفاق (سيفر) وقامت الدولتان الكبيرتان (بريطانيا وفرنسا) بتوجيه الإنذار إلى كل من مصر وإسرائيل تطلبان من كل منهما الانسحاب مسافة عشرة كيلومترات من قناة السويس حفاظا كما قالتا على سلامة الملاحة البحرية ، رفض جمال عبدالناصر الإنذار وكانت الحرب وربما كانت بريطانيا ومعها فرنسا تتوقعان ما حدث مع محمد علي منذ قرن ونصف أو أكثر أى فى (١٩ أغسطس ١٨٤٠م) أنه سيتكرر من عبدالناصر ، ولكن عبدالناصر غير محمد على والظروف الدولية غير تلك التى كانت فى ذلك الوقت ، وكان امتياز شق قناة السويس قد منح فى ٥ يناير ١٨٥٤م وتم العمل وافتتحت القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٧م وتمت إعادتها إلى أصحابها الشرعيين فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦م ..

وأريد أن أنهى هذا الفصل بالعودة إلى قصة الإخوان المسلمين وصراعهم مع جمال عبدالناصر الذى ابتدأ من جانبهم مع بداية الثورة وبلغ قمته فى محاولة الاغتيال ، وعبر هذه المرحلة وحتى الآن لم يتوقف هؤلاء عن التبليغ بأعلى الأصوات ومن خلال كل منبر أن قصة الاغتيال مصطنعة بواسطة عبدالناصر أو رجاله لتبرير القضاء عليهم بل إنهم قالوا إن ما قام به عبدالناصر موحى به من جانب مخابرات دولية كافرة ! وعودتى إلى الموضوع فى نهاية هذا الفصل الغرض منها إلقاء الضوء على خطط هؤلاء الناس فى ممارسة الاغتيال قبل عبدالناصر وربما بعده ، فلقد ذكر مؤلف كتاب (٢٣ يوليو وعبدالناصر _ شهادتى) المحامى عصام حسونة الذى تولى التحقيق فى قضايا الاغتيال التى نفذها أو حاولها التنظيم السرى للإخوان المسلمين قبل ثورة ٢٣ يوليو ، قال فى كتابه - ص ٤١ _ ٤٦ مايلى :

(استيقظت مصر يوم ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨م لتعرف لأول مرة أن جماعة الإخوان المسلمين التى تعرفها حق المعرفة ، قد أنشأت فى الخفاء تنظيما سريا) لم

تعرف مصر بأمره من قبل ، وكان هذا التنظيم السري العبقري الرائع المروّع نتاج عقول رسمت وخططت وتآمرت وهي آمنة مطمئنة واثقة من نفسها ، ومن غفلة خصومها ، لا يعكر صفاءها شئ، وليس يؤرقها خوف ، تنظيم استكمل قوته الضاربة والمدربة على القتال للاستيلاء على السلطة حين يصدر إليه الأمر من قادته، تنظيم له مخابراته السرية التى لم تعرف مصر لها من قبل مثيلا ، مخابراته التى تسللت في هدوء إلى أهم مراكز الدولة الحساسة، واستكملت أهبتها للاستيلاء عليها ، وشل حركتها ، وله أجهزة إعلامه ومحطة إذاعته لتكون فى خدمة التنظيم السرى العبقرى الرائع المروّع ..

اكتشفت مصر ذلك كله صباح يوم ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨م وعرفت أن فى مصر دولة داخل الدولة الشرعية ، بل فوق الدولة ، تستعد للانقضاض عليها متى أصدر القادة أمرهم .. وقد كانوا على وشك أن يفعلوا ..

وفى صباح ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨م لم يكن الإخوان قد دخلوا السجون بعد ..لا سجون السعديين فى العهد الملكي ، ولاسجون عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ..فلم تعرف مصر في سنة ١٩٤٨م أن هناك فى طى الغيب ضابطا يدعى عبدالناصر سيقود بعد نحو أربع سنوات طوال ثورة تعرف باسم ٢٣ يوليو ..

وإذا كانت شهادة ميلاد التنظيم السرى قاطعة في أن مولد التطرف الديني نشأ فى مصر فى منتصف الأربعينات ، فقد كان لزاما على بناة التنظيم ، ومؤرخيه ، أن يطمسوا شهادة الميلاد الحقيقية ، وأن يزيّفوا وأنصارهم شهادة أخرى .. تقول : إن التطرف الديني قد ولد فى حضن سجون السعديين وسجون عبدالناصر ، ولم يملّوا وأنصارهم ، ومؤرخوهم الذين يعرفون - قبل غيرهم - الحقيقة من تكرار هذه القالة، حتى كتابة هذه الشهادة فى منتصف ١٩٨٩م ..

وهكذا أخفيت شهادة الميلاد الحقيقية واستبدلت بشهادة ميلاد زائفة ، وقد ضبطت فى العربة الجيب أسلحة وذخائر ، وقنابل ومتفجرات ، لكن الأهم من ذلك السطور التى حرروها ، بأقلامهم ، واعترف بها قادة التنظيم السرى ، والتى أرست المبادئ والقيم والشعارات ، التي لاتزال تعتبر دستور جماعات التطرف الدينى حتى اليوم ، فهم وحدهم جماعة المسلمين ، وكل من يحاول مناوأتهم ، أو

الوقوف فى سبيلهم مهدر دمه وأن قاتله مثاب على فعله ، وتحدث مؤسسو التنظيم عن الأجانب يهودا كانوا أو نصارى وحذروا من خدعة أنهم ذميون وقالوا : إنه إذا كان إعلان الحرب النظامية على أهل الذمة ليس فى مقدور أعضاء الجماعة ، فإن عليهم ألا يترددوا فى اغتيال أعداء رسول الله ، وأن من سياستنا أن الإسلام يتجاوز عن قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة ..

وأعد قادة التنظيم عدتهم ، باعترافهم ، لنسف ثكنات الجيش المصرى ، وتعطيل أسلحته عن طريق العمال الموالين للتنظيم ، وإلى استعمال القنابل المتفجرة لنسف مكاتب شركة قناة السويس وورشها ومعداتها ، وإلى تعطيل خطوط السكك الحديدية ونسف القطارات بواسطة الألغام ، ونسف الطرق والكبارى ، ونسف أقسام البوليس والاستيلاء على أسلحتها وقتل خيولها عن طريق وضع السم لها ..

وتحدث بناة التنظيم السرى عن سياستهم فى الإعلام فقالوا : إن الأمر قد يتطلب اغتيال شخصية معادية خارج القطر للفت أنظار العالم ، وأن برنامج إذاعتهم ينبغى أن يتم بسرد الإشاعات المثيرة لعواطف ومشاعر الجماهير على الطريقة الألمانية وبإصدار منشورات عن الحوادث التى يرتكبها أفراد الحركة بصورة مبالغ فيها تارة وبالنقد والتجريح للإيهام تارة أخرى وأنه يتعين تهيئة أشخاص للعمل فى بعض الأماكن والشركات والاشتراك فى أسهم الشركات أو تأسيسها ، واعترف أحد أفراد التنظيم (مصطفى مشهور) الذى كان يعمل بمطار ألماظه أنه سطر بخط يده لنسف مخازن المطار ومعداته ، ولقد كان من نصيبى كمحقق فى قضية العربة الجيب أن أفحص ما احتوته أوراق التنظيم السرى من بيانات عن المحال المملوكة لليهود فى القاهرة ، ولو تخفى أصحابها وراء أسماء مسيحية أو مسلمة ، وما احتوته تلك الأوراق عن السفارات الأجنبية ومنازل الشخصيات العامة من يهود ومسيحيين ومسلمين وكيفية القضاء عليهم .. ويضيف الكاتب ، وقد قلت فى موضع آخر : إننى لم أجد فيما دونوه بأوراقهم غير الحقيقة التى كشفها التحقيق .. وهنا يسأل المؤلف ، كيف تم اكتشاف الجهاز السرى ؟ ويقول :

كان ضباط القسم السياسى _ ما يقابل مباحث أمن الدولة اليوم _ قد علموا من التحريات بعد تعدد حوادث النسف بمدينة القاهرة ، أن نفرا من جماعة الإخوان المسلمين قد أخذوا يتخلصون من المواد الناسفة التى يخفونها فى منازلهم إلى أمكنة أخرى أكثر أمنا ، مستعملين فى نقلها سيارات من طراز جيب لا تحمل أرقاما معدنية، فوضع الصاغان محمد محمد الحراز ومحمد توفيق السعيد من ضباط القسم السياسى نظاما لمراقبة أحياء مدينة القاهرة بواسطة قوات من رجال البوليس الملكى تكون مهمتهم مراقبة الحالة ، وملاحظة هذا النوع من السيارات ، وقد وجه الضابطان عناية خاصة إلى حى الوايلية نظرا لما تبين من حوادث سابقة ، من أنه يضم نفرا من تلك الجماعة وعيّنا لمراقبة هذا الحى واحدا من سكانه وهو البوليس الملكى صبحى على سالم ..

فى الساعة قرابة الثالثة من ظهر يوم ١٥/ ١١/ ١٩٤٨م اتصل صبحى هذا بالصاغ محمد الحراز تليفونيا وأبلغه أنه ضبط سيارة طراز جيب محملة بصناديق فى شارع جنينة القوادر بالوايلية ويركبها بعض أشخاص فانتقل الضابط مع زميله الصاغ محمد توفيق السعيد إلى محل ضبط السيارة أمام المنزل رقم ٣٨ شارع جنينة القوادر وأمرا بالتحفظ عليها، وقد تبين لهما أن كلا من أحمد عادل كمال وطاهر عمادالدين وإبراهيم محمود على كانوا من ركاب السيارة ، وأن مصطفى مشهور ضبط قريبا من السيارة يحمل حافظة من الجلد تحتوى على أوراق ..

وقد شهد رجل البوليس الملكى صبحى على سالم أنه فى حوالى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٥/ ١١/ ١٩٤٨م شاهد سيارة رمادية اللون من طراز جيب لا تحمل أرقاما تسير ببطء مقبلة من شارع لبيب بجهة الوايلية متجهة إلى شارع جنينة القوادر ثم وقفت أمام المنزل رقم ٣٨ وقد أثارت هذه السيارة ريبته إذ رأى عليها صندوقا وحقيبتين وأوراقا كما رأى ركابها ينزلون منها ويقفون بجوارها وعرف منهم أحد سكان ذلك المنزل وهو إبراهيم محمود على ، فتقدم من

ركاب السيارة وأمرهم بالوقوف فى أماكنهم فدفعه أحدهم وجرى مع أحد زملائه إلى جهة شارع عبده باشا فتبعهما الشاهد وجمهور من المارة وهو يصيح (صهيونى) إذ تبادر إلى ظنهم أن السيارة لجماعة من الصهاينة وقد تمكنوا من ضبط المشتبه فى أمرهم ركاب السيارة الذين سلفت الإشارة إليهم ، هذه هى قضية السيارة الجيب فى إيجاز ، وتعتبر أخطر قضية سياسية فى العهد الملكى وقد انكشفت بضبطها أسرار أخطر تنظيم سرى عرفته مصر وأعنى به التنظيم السرى لجماعة الإخوان المسلمين، وقد قرر عبدالحميد أحمد حسن المتهم بقتل دولة محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء فى ٢٨/ ١٢/ ١٩٤٨م قضية الجناية العسكرية رقم ٥ سنة ١٩٤٨م إن هذا التنظيم السرى هو الذى جنده فى الخلية السرية التى عهدت اليه بمهمة قتل رئيس الوزراء وهيأت له كل أسباب الجريمة من زى عسكرى والمسدس الذى استخدمه فى قتل المجنى عليه كما قرر أحمد عادل كمال أحد المضبوطين فى قضية السيارة الجيب أنه هو الذى حرضه على الانضمام إلى الخلية السرية سالفة الذكر ، ثم عرفه ببقية المتهمين فى قضية السيارة والمتهمين فى قضية قتل النقراشى باشا ، وأن محمد مالك يوسف المتهم الثانى فى قضية قتل النقراشى باشا حضر إليه يوم ١٨/ ١٢/ ١٩٤٨م أى قبل قتل النقراشى باشا بعشرة أيام وطلب منه أن يذهب لمقابلة أحمد فؤاد ضابط البوليس وعضو الخلية فى منزله بالعباسية وقد زوّده هذا العضو بالنقود لشراء سترة كاملة لضابط بوليس كما أعطى إليه التعليمات الأخيرة لاغتيال الرئيس ، وقد ضبطت بالسيارة الجيب متفجرات وأسلحة هى لغم وكميات كبيرة من المواد الناسفة من أنواع مختلفة والقنابل ولفافات من فتيل الإشعال ومدفع ستن وثلاثة خزانات لمدفع ستن و٢٧ مسدسا من أنواع مختلفة وأربعة خناجر وعدد كبير من الطلقات النارية والمتفجرات الكهربائية والطرقية وست ساعات زمنية وقناع أسود..

ولقد كانت الأوراق التى ضبطت بالسيارة أكثر خطرا من الأسلحة إذ كشفت خطط التنظيم السرى للجماعة .. هذا ما ذكرة المحقق الذى تولى التحقيق فى قضية الاغتيالات تلك وهو عصام حسونة - انتهى [٤٦] .

ولابد لنا أن نسأل هل كل هذه المعلومات والأسلحة والقتل كانت مدبرة من أحد فى ذلك الوقت كما قالوا عند محاولة إغتيال جمال عبدالناصر بأنه هو الذى دبر القضية للتخلص منهم بل أكثر من ذلك عندما قالوا : إن المخابرات الروسية والمخابرات الأمريكية الكافرة هى التى أمرت عبدالناصر بالتخلص منهم ! !



(٤٦) كتاب ٢٣ يوليو وعبد الناصر - عصام حسونة ص ٤١ - ٤٢ .

الفصل الخامس

١- ذمّـــة عبدالناصر

٢- سلوكه الشخصى

٣- اختيار وزرائه ومساعديه

٤- طريقة عمله الرسمى

٥- تعامله مع عائلته وأسرته

الفصل الخامس

١- ذمّة عبدالناصر .
٢- سلوكه الشخصى .
٣- اختيار وزرائه ومساعديه .
٤- طريقة عمله الرسمى .
٥- تعامله مع عائلته وأسرته .

عفـفت فعفّوا يا عـمر ، حكمة أزلية قـالها على بن أبى طالب كرّم الله وجـهه ، هكذا بالضبط ، فـقد روى عن سيدنا عمـر بن الخطاب رضى الله عنه أنه خاطب جنود المسلمين عندما وضـعوا أمامه أكداسـا من الذهب واللآلىء والتيجان المرصّـعة بالزمّرد الذى جاءوا به بعد سقـوط الإمبراطورية الفارسية ، فقـال : أشهد أنكم جند الله وكان بجانبـه على بن أبى طالب فنظر إليه وقال : عـففت فعـفّوا يا عمر ، مـوعظة وحكمة ، ذلك إنه إذا كان الحاكم ولى الأمر عفيفا عفّ المحكومون او الرعيّة ..

ومع عدم المقـارنة بين الاثنين فقـد رأيت أن أبدأ بما عرف عن سـيدنا عـمر بن الخطاب رضى الله عنـه وهو أعدل العـادلين كـدليل على العـدل بين الناس ، وكـان جمـال عبـدالناصر عـفيفـا لم يكن لزخـرف الدنيا أثر فى نفـسه رغم ما يـوضع أمام الحاكم فى مصر من زخارف ومغريات ، وكان فيما نعلم يقيس أقدار الناس على قدر أخلاقهم ونزاهتهم ، كان بسيطا فى ملبسه مـعتدلا فى مأكله متواضعا فى تعامله ، لم يوافق على تغيير أى شئ فى بيته المتـواضع جدًا منذ كان ضابطا بالجيش إلى أن توفاه الله ، شهد له كل من تعامل أو عمل معه فى وظيفة أو فى لقاء بما ذكرناه .

جمـال عبدالناصـر الذى غيّر وجـه التاريخ وجسّـم آمال الفقـراء والبسطاء حيث حـولها إلى واقع معـاش ، والذى عاش ومات مناضـلا من أجل كرامة أمـته العربية وحقـها وحريتها من المحيط إلى الخليج ، تعرض لحـملة إساءة ومحاولات تشهير وتشكيك من جـانب جهات كثيرة وعديدة ، عربية وأجنبـية ، أفراد وهيئات وحكومـات ، حكّام ومسـؤولين أثناء فتـرة حكمه من ٢٣ يوليـو ١٩٥٢م إلى يوم

وفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وإلى الآن فى بداية القرن الواحد والعشرين ، ولقد كانت ومازالت الحملة شرسة حاقدة ظالمة من أناس أقل ما يقال فيهم أنهم (يشوّهون تاريخهم) وحق علينا أن نرد ليس تبريرا وإنما إحقاقا للحق ووضعا للأمور فى موضعها الصحيح ، وعبدالناصر وقد توفاه الله منذ ثلاثة عقود ونيّف لم يعد جالسا على كرسى الحكم بحيث (يمكن) أن يقال : إننا نتقّرب إلى حاكم من أجل مال أو وظيفة ، وحقيقة إن مواقف أغلب العرب (مع الأسف) تكون (مع الحاكم طالما كان يمسك بالرقاب ومقاليد السلطة والبصق عليه وتشويه تاريخه إذا اختفى)

سأستأذن القارئ الكريم فى أن أقتطف من بعض الكتابات ما جاء فى هذا الشأن بحيث أتمكن من رسم صورة توافقية بين ما رأيت وسمعت وبين ما جاء فى بعض الكتب التى تناولت سيرة جمال عبدالناصر وخصصت أجزاء منها لذمته ، ولعلنى لا أخطئ إذا ما بدأت بما قدمته ابنته الكبرى الدكتورة هدى بعد فترة طويلة من الإحجام عن الكلام والرد على كثير من الكتابات المغرضة من داخل مصر وخارجها ، وإلى أن بلغ السيل الزبى (كما يقال) ولقد كان جمال عبدالناصر قائدا وزعيما وبعد مماته ظل مثار جدل ونقاش بين منصف ومغرض ، وطنى وعميل ، منافق وصادق ، وعلى أى حال فهذا شأن كل الذين كان قدرهم فى الحياة أن يتصدوا لمهام تاريخية ويتخذوا مواقف وقرارات مصيرية تمس مصالح بعض الناس ، وهم كذلك ملك للتاريخ والناس يتجادلون فى سيرهم مصيبين ومخطئين ، ولقد كتب الأستاذ عبدالله إمام رحمه الله كثيرا مدافعا عن الحق متصديا للمنافقين والمزوّرين على صفحات الجرائد وفى ساحات المحاكم ثم وجها لوجه ، وفى كتابه (عبدالناصر والحملة الظالمة) قدم لما ذكرته الدكتورة هدى جمال عبدالناصر كما يلى:

(بعنوان وصلوا إلى ذمة جمال عبدالناصر ، قال : تحدثوا فى البداية عن الملايين التى هربها جمال عبدالناصر للخارج ثم تحدّثوا عن مجوهرات أسرة محمد على .. وأخيرا أعادوا ترديد ما سمى بشيكات الملك سعود ، وبعد هذا كله تطفو على السطح فقاعات تحاول إثارة ضوضاء حول أمور جانبية وفرعية مثل ما نشره عثمان أحمد عثمان حول الفيلا التى تسكنها السيدة هدى عبدالناصر ، وقد ذهب عثمان أحمد عثمان نفسه إلى مجلس الشعب ليكذّب ما ذكره فى كتابه ويدّعى أنه

كان يقول كلاما مرسلا يدور على ألسنة الناس ولم يقصد أى شخص معين ، ولقد ثبت بالوثائق أن كل ما قيل عن فيلا السيدة هدى عبدالناصر غير صحيح ، وبقيت قضية الملايين التى هربها عبدالناصر للخارج ..

ولا يتصور عاقل أن القوى المعادية لعبدالناصر ومن ورائها أمريكا وإسرائيل لم تكن قادرة على معرفة البنوك التى اودعت فيها هذه الملايين وأرقام الحسابات مهما كانت سريتها ، فهذه القوى ظلت معركتها الأساسية لمدة سنوات وحتى الآن تشفيا فى جمال عبدالناصر وفكره وأعماله وسمعته ، فإذا مضت كل هذه السنوات ولم تقدم ما يثبت ادعاءها يكون التسليم بعدم صحتها هو المقبول ..

ويحاول البعض أن يلبس ثوب المدافع عن جمال عبدالناصر بطريقة لا تدعو للريبة بحيث يثبت الإشاعة فيدّعى أن الأموال المودعة بالخارج مشروعة لأن هدفها تأمين الثورة ضد أى انقلاب من القوى المضادة ، وليس من المعقول أن تأمين الثورة فى الداخل يتم عن طريق أموال توضع فى الخارج ، وبأرقام سرية ، كما أنه لم يكن من المعقول تصور أنه فى حالة حدوث انقلاب مضاد يمكن أن يهرب عبدالناصر الى الخارج فلم يكن من طبيعة الرجل الهروب أو عدم المواجهة ، وحتى إذا حدث فهل كان عبدالناصر سوف يحتار كيف يعيش هو وأولاده حتى يؤمن نفسه بأموال يودعها فى الخارج ؟

ولقد قال لى صلاح نصر إذا كان جمال عبدالناصر قد هرب أموالا للخارج فلماذا لا تتدخل الدولة لتعيد هذه الأموال وقد كانت هناك سابقة فإن الأموال التى كانت مودعة بالخارج باسم الزعيم الجزائرى خيضر طلبتها الحكومة الجزائرية بعد مصرعه وكان الطلب باستعادة تلك الأموال من البنك على أساس إنها أموال عامة تخص جبهة التحرير وكانت مودعة باسم شخص وقد استجاب البنك ، وقد نشرت ذلك فعلا فى وجود الرئيس السادات وطالبت الحكومة المصرية بحسم هذا الأمر ولكنها لم تحسمه لأنها كانت تريد أن تظل الإشاعة المغرضة قائمة .

وإذا كانت هناك أموال أودعها عبدالناصر فى الخارج وعجزت عن بيانها أجهزة الدول العظمى التى مازالت تأخذ منه موقف العداء وتسعى لتشويه صورته فى أذهان الجماهير فإن التساؤل يكون عن قيمة وجدوى هذه الأموال ، هل عادت

إلى أسرته ؟ وكيف ؟ والناس جميعا يعرفون الأسرة فردا فردا ، وأنهم جميعا يعيشون حياة عادية وفى شقق يستأجرونها فيما عدا السيدة هدى وزوجها حاتم صادق والسيدة منى وزوجها أشرف مروان ، فمثلا الدكتورة هدى عبدالناصر كان قد اشترى والدها الأرض من الجمعية التعاونية المصرية لبناء المساكن لضباط القوات المسلحة على أن تسدد على خمسة عشر قسطا سنويا ، وتم السداد إلى أن أصدر مجلس الوزراء قرارا بعد وفاته بأن تتحمل الحكومة ديون جمال عبدالناصر فسددت الحكومة بقية الأقساط ، وقد تم الاقتراض من الجمعية لبدء البناء كما هو ثابت بالوثائق التى قدمت لمجلس الشعب عندما أثار عثمان أحمد عثمان هذه القضية فى كتابه الذى تراجع عنه ، ولا يختلف كثيرا موقف فيلا السيدة منى عن ذلك ، (ملاحظة من أجل القارئ غير المصرى الذى ربما لا يعرف ترتيبات الزواج فى مصر نقول: إنه من التقاليد المصرية فى هكذا حالات يقوم أهل الفتاة ببناء او شراء مكان السكن - شقة أو فيلا أو بيت عادى - ويقوم أهل الفتى بتأثيث هذا السكن) وعبدالناصر لم يكن استثناء ولذلك استدان كما ذكر من الجمعية التعاونية وأقام البناء لابنتيه هدى ومنى حيث تزوجتا..

كان زوج منى أشرف مروان مجندا بالقوات المسلحة ثم منتدبا للعمل بمكتب سامى شرف وقت وفاة جمال عبدالناصر (ملاحظة هامة أخرى ، لم يكن زوج منى أشرف مروان يملك شيئا غير مرتبه وقت وفاة الرئيس جمال عبدالناصر) ولم يكن قد أصبح من رجال الأعمال وقد استطاع أن يكوّن ثروة ابتداء من أراضى البناء التى وهبها له بعض شيوخ الخليج فى بلادهم (وأنا أعرفه شخصيا حيث كان يرافق أحد أعضاء مجلس الثورة الليبية فى بعض زياراته منها أنه رافقه فى واحدة من زيارات العمل فى الاتحاد السوفييتى وقابلنى هناك حيث كنت سفيرا لبلادى وأعلم أنه حصل على عمولات من ألمانيا الغربية نظير وساطة فى شراء عربات للجيش الليبى وقد أبلغت الجهات المختصة رسميا عن ذلك ولم نكن نعرف فى بلادنا مسألة العمولات أو غيرها وقتذاك) المهم أنه عندما بدأت المضاربة على الأراضى وارتفع ثمنها عشرات الأضعاف والتهبت أسعار البترول وامتد العمران إلى الأراضى النائية استطاع أشرف مروان أن يبدأ الطريق إلى الثروة

من طريق بيع هذه المساحات من الأراضى ، ولم يكن لأشـرف مروان أعمال تذكر داخل مصر ، وإنما كانت وظلت أعماله فى الخارج (٤٧) .

ولقد تغيرت الظروف بالنسبة له عـندما اختلف مع السادات (أذكر أنه قبل أن يبتعد عن السادات ومن مصادر مطلعة فى مصر أن سبب تقربه من السادات فى بداية الأمر قيامه بالإبلاغ عن أشرطة وتسجيلات لكل أحاديث الرئيس السادات كان يقوم بهـا وزراء عبـدالناصـر ، بل وقـيل إنه هو الذى أحـضـر تلك الأشرطة بـحيث قـام السادات بضربهم جميعا فـيما عرف وقتئذ بأحداث مايو وقدمهم جمـيعا للمحاكمة وتم سجنهم ومن الوزراء محمد فائق وأمين هويدى وشعراوى جمعة وسامى شرف ولبيب شـقير وبقـية كل الوزراء) ولقد بقى فـترة بجانب الرئيس السـادات ثم عينه رئيسا لهيئة التصنيع الحربى العربيـة وهذه كانت ميزانيتها بالبلايين!؟ يقول الكاتب : إنه بعد أن ترك موقعه افتتح مكتبا حرا لأعماله ، ويضيف الكاتب ، أن القضية ليست فى ثروة أشرف مروان فهنـاك ألوف قد حققوا خلال السبـعينات ثروات تفوق ثروته ولا أحد يذكرهم وإنما القضية هى محـاولة النيل من ذمة عبدالناصر من طريق صهره أشرف مـروان ، ولو كـانت هذه الثروة التى حـققـها أشـرف مروان مـرتبطة بجمـال عبدالناصر لكان الأولى بتـحقيقها أولاد جمال عبـدالناصر وهم ثلاثة ذكور وابنتان ، خالد يعمل أستاذا بكلية الهندسة ، المهندس عبـدالحكيم وشارك عبدالحميد فى شركة محدودة للمقاولات بعد أن آثرا الابتعاد عن العمل الحكومى (والشركة هذه أسست بعد وفاة جـمال عبدالناصر) ولم نسـمع أن واحدا من هؤلاء قد أصبح فى حـياة أبيه من أصحـاب الملايين أو أنه كوّن ثروة وسكن القـصور فى مـصر أو فى الخارج كـما يحلو للبعض، وكان أولاد عبدالناصر دون غيرهم إذا تحركوا أو عملوا أو سافروا فإن حركـتهم مرصـودة وأن أى مال يكسـبونه لابد أن يكون من أموال الـدولة ، ولم تبد مظاهر الثـراء على أى مـنهم ، ولم يبـد على واحـد منهم أنه عـاطل بالـوراثة فكلهم يعملون من أجل توفير مستقبل أفضل لأسرهم وكلهم يستأجرون شققا يسكنونها هم وأسرهم ، مثل سائر أبناء الشعب المصرى ..

(٤٧) عبد الناصر المفترى عليه - عبد الله إمام - ص ٩٠ .

وبمناسبة الحديث عن أعمال أبناء وبنات جمال عبدالناصر نجد كل التفاصيل فى كتاب الأستاذ (محمد هيكل) المعنون (لمصر .. لا لعبدالناصر) وهى كما يلى :

أريد هنا أن أمس نقطة بالغة الأهمية ، تلك هى أسرة عبدالناصر ، بناته وأبناؤه بالذات، يمكن أن يحسبوا عليه حتى مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وأما بعد ذلك فحساب كل واحد منهم على نفسه ، ويوم رحل جمال عبدالناصر كانت ابنته الكبرى هدى تعمل فى سكرتاريته بمرتب قدره ستة وثلاثون جنيها ، وكان قرينها حاتم صادق بعمل معى فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بمرتب قدره مائة جنيه ، وكان قبل ذلك يعمل فى سكرتارية رئاسة الجمهورية .

وكانت ابنته الثانية منى تعمل معى أيضا فى دار المعارف المملوكة للأهرام بمرتب قدره ثلاثون جنيها ، وكان زوجها أشرف مروان يعمل فى سكرتارية الرئيس للمعلومات موظفا فى الدرجة السادسة بمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيها فى الشهر ، وقد يسأل سائل لماذا كان عملهم معه أو معى ؟ وأسمح لنفسى أن أشرح السبب لأول مرة ..

حينما تخرجت هدى وتخرج معها فى نفس السنة قرينها حاتم صادق من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة كان جمال عبدالناصر فى حيرة شديدة ، وأتذكره يومها يقول لى (لا أعرف ماذا يفعل حاتم وهدى ، لابد لهما بالطبع أن يعملا ، ولا أستطيع أن أكلم وزيرا أو رئيس مؤسسة لكى يلحقهما بعمل عنده ، ولو تركتهما للظروف الطبيعية فإنى أعلم أن كثيرين سوف يتسابقون عليهما وهذه مفسدة لهما فى هذه السن ..) .

وسألنى بطريقة عابرة ..

هل تستطيع أن تأخذهما معك فى الأهرام ، معك أستطيع أن أتكلم بغير حرج وأعرف أنهما لن يجاملا ، فإنك بصداقتك لى لست فى حاجة إلى استعمالهما زلفي أو تقربا ..

وقلت له :

إننى أعرف الاثنين ، وبالفعل أريدهما معى فى مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية أقوم بتأسيسه الآن .

وبعد يوم أو اثنين من هذه الحادثة ، قال لى بطريقة عابرة وسط حديث طويل على التليفون (لا تفكر فى موضوع حاتم وهدى ، لقد وجدت الأسلم أن أعينهما هنا فى الرئاسة حيث أستطيع أن أضمن ظروف العمل بما لا يفتح مجالا لأى استغلال .. ..انتهى[٤٨] ..

جمال عبدالناصر لا يستطيع أن يكلم أى وزير من أجل تشغيل ابنته الكبرى التى تخرجت من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية لتوها ، وحتى عندما اشتغلت بسكرتارية رئاسة الجمهورية كان مرتبها ثلاثين جنيها ، وكان قبل ذلك قد طلب من هيكل استخدامها هى وزوجها فقط لكى لا يستغلا من طرف الوصوليين والانتهازيين الكثير ، وهو يعلم ذلك ، وابنته الثانية منى تعمل هى الأخرى بمرتب ثلاثين جنيها أما زوجها الذى صار بعد وفاة جمال عبدالناصر صاحب ملايين إن لم نقل مليارات فكان يعمل بسكرتارية الرئاسة وكانت درجته السادسة وبمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيها ، ومازال هناك من يتجنى على جمال عبدالناصر وذمته ، عجبا ، ويقول هيكل فى هذا الشأن :

ومضت شهور ، ومضت سنة ومضت سنتان ، وجاءنى حاتم صادق يوما وقد سمع عن خطط وخطوات إنشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ورغب أن يعمل فيه ، لأنه يشعر أنه فى سكرتارية رئاسة الجمهورية لا يجد فرصة كافية لكى يتعلم ، ويخوض خبرة الحياة ، وتحدثت فى الأمر مع جمال عبدالناصر فى مرة من المرات ، وكان تعليقه، (إننى أعرف أن ظروف عمله هنا فى الرئاسة لا تعطيه الفرصة لإظهار طاقته على العمل ، وإذا أردته معك فليكن ، ولكنك تعرف كيف أفكر فى الموضوع ..) .

وحين تخرجت منى من الجامعة الأمريكية وكانت قد دخلتها لأنها لم تحصل على مجموع كاف يؤهلها لدخول الجامعة المصرية ، وجدت جمال عبدالناصر يطلبنى على التليفون ليقول لى ذات صباح وهو يضحك (يظهر أننى سأقدم لك طلب استخدام لكى تأخذ منى فى أى عمل معك) والتحقت منى بقسم نشر كتب الأطفال فى دار المعارف انتهى ..

---

(٤٨) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكل - ص ٢٩ .

رئيس جمهورية مصر عبدالناصر الكبير العظيم ابنته لا تستطيع أن تدخل الجامعة المصرية لأن مجموع درجاتها لا يؤهلها لذلك ، الجامعة المصرية لا تقبلها ولا أحد يمكنه أن يتدخل ، القانون هو القانون ، واللوائح لابد أن تحترم ، هكذا العدل بين الناس ..

يتحدث الأستاذ هيكل ، بعد رحيل جمال عبدالناصر عرض الرئيس أنور السادات على هدى أن تواصل عملها معه فى سكرتارية رئيس الجمهورية كما كانت مع أبيها ، ولكنها استأذنته أن يسمح لها بالعمل فى الأهرام ، فبقاؤها فى الرئاسة أكثر مما تستطيع تحمله عاطفيا ، وإذن فإن أقرب شئ إلى الالتزام بمعايير أبيها هو أن تعمل معى ، وفى هذه المرة كان الرئيس السادات هو الذى طلب منى عملا لهدى .. وفى ذلك الوقت كان أبناؤه الثلاثة - خالد وعبدالحميد وعبدالحكيم فى سلك الدراسة أولهم فى كلية الهندسة والثانى فى الكلية البحرية والثالث فى الثانوية ، هكذا كانت ظروف الكل وأحوالهم ولست أعرف إذا كان فيها استغلال سلطة من جانبه أو إنها كانت عزوفا عن استغلال السلطة من رجل كان يملك أن يشير بطرف أصبعه فإذا الكل يتسابق ليعطى أحسن المناصب وأوسع الفرص لأبناء جمال عبدالناصر، تلك كانت ظروف الكل وأحوالهم عندما رحل وحسابه عنهم يتوقف عند تلك اللحظة من الزمان ، وأما بعدها فكل منهم مسؤول عن نفسه ،

لكن الرجل وتلك أمانة أمام الناس والتاريخ ، لم يحاول تأمين حياة أولاده بعده ، بل تركهم واثقا من طيبة قلوب الناس فى بلدنا ، وأنهم بعده سوف يضعون أولاده فى عيونهم .

هذه جوانب من تصرفات الرجل (كإنسان) وهى واضحة فى تعبيرها عن مجموعة القيّم الاجتماعية التى يؤمن بها ، وعنها تصدر تصرفاته ، ومنها ننتقل إلى مجموعة أخرى من القيم الإنسانية تظهر تصرفاته كمشتغل بالسياسة ..

وعود على بدء نقول : كيف هى ثروة جمال عبدالناصر؟ وما الذى كسبه فى حياته إذا كانت الأمور تحسب بالمال ؟ وكيف كان يعيش حتى فى مأكله ، وفى البيان الذى قدمته الدكتورة هدى عبدالناصر الرد الكافى الوافى وقد قدم لذلك الأستاذ عبدالله إمام بما يلى :

ثروة عبـدالناصر ... وحـتى نقف على الحقـيقة والكذب حـول ذمة جـمال عبدالناصـر فإننا لابد أن نعرف موقف الرجل ، ورؤيته للمـال وللملذات الحياة ، لم يعرف عن عبدالناصـر حبه للمال ، أو جريه وراء مظاهر أو متع مهمـا كانت، فهو لم ينفـصل عن بيته ، مكتـبه فى بيـته ، حيـاته فى بيتـه ، الزوار يستـقبلهم فى بيـته الأصدقـاء يذهبون إلى بيتـه ، فلم يكن عاشقـا للرفاهية كـما إنه لم يكن يستـخدم مئات أو عشرات الاستراحات ،

ومثل هذا الرجل لم تستهوه ملذات الحياة ملبس أو مـأكل ، عندما رحل من دنيانا كانت كـل ممتلكاته كما رصدتهـا الوثائق الرسمية لا تتجـاوز ثلاثة آلاف جنيه من أسهم ومسـتندات وأموال سائلة ، وقد سجلت جـميعها ،وسددت عنهـا ضريبة التركات ثم وزعت على أولاده ، تقول ابنته الدكتورة هدى :

(أود حسما لكل جدل أن أحدد ، مؤيدة بالوثائق ، ما كان لدى والدى حتى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وهو التاريخ الذى ينتهى عنده تحمل اسم جمال عبدالناصر لمسؤوليتنا جميعا :

أ - مبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانية عشر جنيها و ٣٧٢ مليما فى حسابه الخاص رقم ١٩/٦٤٢٢٢٦ فى بنك مصر

ب- عدد من الأسـهم قيمتـها رمزية اشتـراها من ماله الخاص مسـاهمة فى بعض الصناعات الـوطنية ، وقد أبقـيناها باسمـه .. ولقد تمكنت من الحـصول على قيـمة بعـضها كـما هو مـوضح أدناه ، وهذه الأسهم مودعـة باسم والدى فى بنك مصر :

١- مائتا سهم شركة كيما .

٢- خمسة أسهم شركة مصر للألبان .

٣- سهم واحد بنك الاتحاد .

٤ _ سهم واحد بنك العقارى .

٥- ستمائة جنيه شهادات استثمار أسهم الحديد والصلب .

٦- عشرة أسهم شـركة نصر لصناعة الأقلام قيمتـها الإجمالية ثمانية عـشر جنيها وسبعمائة مليم .

٧- عشـرة أسهم بنك الاتحـاد التجـارى قيمـتها الإجـماليـة واحد وثلاثون جنيـها وخمسمائة مليم .

٨- مائة سهم الشركة القومية للأسمنت .

٩- تسعة وثلاثون جنيها سندات تأمين .

ج- وثائق تأمين على الحيـاة لم يرد ذكرها فى شهـادة الإفراج الضريبى عن التـركة حيث إن وثائق التأمين معفاة من الضرائب بحكم القانون بيانها كالتالى :

١- وثيقة بصندوق تأمين الجيش بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه مصرى .

٢- وثيقة لدى شركة الشـرق للتأمين بمبلغ ألف جنيه مصرى زيدت فى ١/ ٥/ ٧٠ إلى ألفين وخمسمائة جنية مصرى .

٣- وثيقة لدى شـركة القاهرة للتأمين بمبلغ ألف جنيـه مصرى ثم زيدت إلى ألفين وخمسمائة جنيه مصرى .

٤- وثيقة لدى شركة مصر للتأمين بمبلغ الف جنيه مصرى .

٥- وثيقة لدى شركة التأمين الأهليه بمبلغ ألفين وخمسمائة جنيه مصرى .

٦- السيـارة الأوستن التى كان يملكهـا وهو ضابط وقـاد بها الثورة ليـلة ٢٣ يوليو ٥٢، ولقد تم تسديد ضـريبة التركات ورسوم الأيلولة والبلدية المستـحقة على هذه العناصر وبلغت مائتين وثمانين جنيها و ٦٣٣ مليما ..

هذا هو كل ما تركـه والدى تدعمه الوثائـق المرفقة وغيـر ذلك لـم يكن هناك على الإطلاق أى شئ غيره ، لا محال ، ولا عقار ، ولا أرض ..

وتظل هناك مسـألة أخيـرة وهى تتـعلق بسـيـارات أعطيت لأبناء جـمـال عـبدالناصـر ولا تشكل امـتـيازا لأنهـا لـم تكن مـتكررة وإنما أعطيت لمرة واحـدة ، وكذلك قـرار الحكومة بتسـديد ما كان على جـمال عبـدالناصر من ديون ، وفيـما يتـعلق بهذا الدين الـذى سددته الدولة عن والدى بعـد رحـيله وقد حـصلت على

مسكن أستطيع تسديد ما يخصنى من هذا الدين وهو مبلغ وقدره ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه و ٦٨٥ مليمًا وبفوائده إذا كان ذلك هو الأصوب والأكثر ملاءمة دفعا لأى تأويل ولكى يستقر كل أمر فى نصابه ..) .

تلك هى قصة الامتيازات التى يقال إن أسرة عبدالناصر تتمتع بها ..

ولم تكتف الدكتورة هدى عبدالناصر حيث كان هناك نوع من (اللغط واللغيط) بين بعض المغرضين فى مجلس الشعب وربما هم أولئك الذين أضيروا من الإجراءات الاشتراكية التى نفذها جمال عبدالناصر لصالح الفقراء أو من قانون الإصلاح الزراعى الذى قررته الثورة فى بدايتها واستفاد منه مئات الآلاف من الفلاحين المصريين المعدمين فقد تقدمت بمذكرة توضيحية طويلة هذا نصها وقد نشرت فى مجلة المصور : قالت :

(قال لى والدى قبل رحيله بعام : هذا المنزل ملك للدولة والأثاث فيه عهدة ويجب أن تتوقعوا كل الاحتمالات .

امتيازات أسرة عبدالناصر تقررت بعد رحيله فلم الزج باسمه فيها .

أتنازل عن نصيبى فى معاش والدى .)

هذا ما تقدمت به الدكتورة هدى عبدالناصر في مذكرتها الموجهة إلى مجلس الشعب المصرى وقد نشرت المذكرة مجلة المصور وهى كما يلى :

(هذه المرة كان الموقف يتطلب مواجهة عملية ، فالقدرة على الصمت أصبحت مستحيلة، والمواجهة بالكلمات لم تعد ذات جدوى ، وكان لا مفر من مواجهة الموقف كله بالأفعال ، هذا ما قالته لنا هدى عبدالناصر بهدوء عندما زارت دار الهلال خلال الأسبوع الماضى ، قالته وهى تضع على المكتب ملفا به أوراق كثيرة ومضت ، وتبدأ وتنتهى وتدور كلها حول القرار الذى اتخذته كبرى بنات الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والتى تعمل حاليا عضوة فى هيئة التدريس بجامعة القاهرة .



الخطاب وما فيــه ،،

تقـرأ الخطابات دائما من عناوينـها والورقـة الأولى فى أى ملف هى المدخل وهى أيضا العـنوان ، هذه الورقة الأولى رسالة مـوجهـة من هدى عبدالـناصر إلى ممتاز نصار عضو مجلس الشعب تتكلم فيها عن القضية وعن القرار .

الصمت والكلام :

تقـول هدى عبـدالناصر ، خـلال السنوات الأخيـرة أمتنعت عن الخـوض فى طوفان من الجدل الذى حفلت به الصحف وغـيرها من وسائل الإعلام فى مصر إلى الحـد الذى كان مـعـه توضيـحى لبـعض الوقائع المتـصلة بوالدى فى إحـدى المرات استثناء لا يقـاس عليه ، ولم يكن ذلك ، علم الله ، من قلة اهتمـام ابنة باسم أبيها أو عن سلبيـة إزاء ما يجرى فى وطن أعطاه عـبدالناصر شبـابه وحياته ، عمله وعـمره، فلم أملك أكثر من ذلك فى غـيبة فرصة حقـيقية للتصحـيح ولا كان فى طاقتى شئ أواجه به حملات غير مبررة ، ثم إنها ظالمة فـى حق مقاتل وشهيد مصرى لا يختلف أحد فى الدنيا على حجم إخلاصه وعطائه، ولا على قيمة إسهامه فى التاريخ العربى المعاصر ولا على أنه أصـبح بعد رحيله مثلما كـان فى حضوره رمزا وتجسـيدا لآمال وطموحات أمته العربيـة، وقد كنت أدرك فى كل الظروف التى لا أكاد أملك فرصة التصـحيح ولا الشكوى وفى كل الأحوال فلقـد كان اعتـقادى أن والدى ليس ملك أسرته وإنما هو ملك شـعبه وأمته وعليـهما وعلى التاريخ نفـسه مسؤولية التـصحيح وإحقاق الحق ، ووضع كل أمر فى موضعه الصحيح .

الشكوى لمن ؟؟

تكمل هدى عبـدالناصر فى رسالتهـا ، ولـم تكن ممارسة حق الشكوى وإردة مـهمـا كانت الضـغوط ، فـأول ما يخطر عـلى البال فى شـأنها هو السـؤال ، ولمن الشكوى ؟ وقد عـاش جمال عبـدالناصر ثائرا ورحل مناضلا وليس لأحـد بعده ، ولا أقرب الناس إليـه أن يتقدموا باسـمه أو نيابة عنه بشكوى ، لكننى فى الشـهور والأسـابيع الأخيـرة لاحظت عـودة إلى الزج باسم جـمال عـبـدالناصر فى صـدد ملابسات ليس من شأنى أن أخـوض فيها رغم اعتقادى أن اسم جمـال عبدالناصر قد أقـحم فى هذه الملابسـات المؤسفـة إقحامـا ليس له ما يـبرره، وكانت آخـر هذه

الملابسات فى مناسبة مناقشة مزمعة فى مجلس الشعب لمخصصات أسرة عبدالناصر استغلتها بعض الصحف مرة أخرى بتناول إعلامى يجىء فى توقيت يصعب أن تخطئ حقيقة مقاصده ، وهى النيل من جمال عبدالناصر ، والرغبة فى التغطية على تجاوزات أخرى ، واتخذت هذه الصحف فى ذلك أسلوبا يتصف فى أقل تقدير بالتهويل وعدم التحديد ليترك، عن عمد ، لشطحات الخيال مساحات واسعة، عكفت على استكمال الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع كى أضع بعض النقاط على الحروف من أمر الامتيازات التى قيل إن أسرة جمال عبدالناصر تتمتع بها .

امتيازات الأسرة :

يفرض السؤال نفسه ، عن هذه الامتيازات ما هى ؟ ما حدودها ؟ من الذى قررها ؟ ومذكرة هدى عبدالناصر تقدم الإجابة الدقيقة على كل سؤال :

بالتأكيد هناك بعض الامتيازات لكننى أنبه ذاكرة إلى أن هذه الامتيازات قد تقررت بواسطة مجلس الأمة فى أعقاب رحيل والدى وكبادرة حفاوة شعبية ورعاية كريمة لأسرته وكانت الامتيازات تنحصر فى ثلاثة أشياء .

١- معاش شهرى مساو لمرتبه وقدره أربعمائة وواحد وأربعون جنيها ومخصصاته كرئيس للجمهورية وتبلغ خمسمائة جنيه مصرى فى الشهر وهذا هو المبلغ الذى تعيش عليه والدتى وتبقى به بيته مفتوحا .

٢- مقر منزله بمنشية البكرى وخدماته وقد خصص لوالدتى مدى الحياة على أساس تحويله بعد ذلك إلى متحف .

٣- استراحة المعمورة فى الإسكندرية .

هذه هى الحقائق :

١- وتوضح هدى عبدالناصر الحقائق حول هذه الامتيازات فتقول : إن مجلس الأمة قد قرر هذه الامتيازات بعد رحيل والدى ، فكل محاولة إذن للزج باسمه فى هذا الموضوع مردود عليها سلفا بأن ما تقرر كان لاحقا على عودته إلى رحاب الله ..

٢- سبق أن أثير موضوع امتيازات أسرة عبدالناصر فى مجلس الشعب بعد رحيله بحوالى أربع سنوات ، وتوجهت يومها إلـى السيد حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى فى ذلك الوقت معترضة على إقحام اسم والدى فى هذا الموضوع ومطالبة بتخفيض هذه الامتيازات.

القــــرارات :

فى مذكـرة هدى عبـدالناصر تقف المفـاجأة والقـرار وراء المقدمـات ، تقول هدى بالحرف الواحد :

١- إن مـقر منزل والدى بمـنشيـة البكرى والمخـصص لسكنى والدتى واسـتراحـة المعمورة تحت تصرف مجلس الشعب فى أى وقت يراه وسأترك لها بيتى تنزل فيه مهما كانت العقبات وإلى أن نتمكن من تدبير منزل ملائم لها .

٢- إننى أعلن تنازلى عن حـصتى الشـرعية فى مـعاش والدى الذى قـرره مجلس الأمة فى حـينه ، وبصفـة استـثنائية ، ثم ينتـقل إلى أولاده بعد حـياة والدتى ، أطال الله عـمرها ، لأن الحكمـة من هذا القرار الذى صـدر حين كان أخـوتى قصرا وفى المراحل الدراسيـة المختلفة قد انتفت بعد أن تخـرجنا فى الجامعات وأصبح لكل منا عمله وحياته .. ثم توضح هدى بعد قرارها أمرين :

١- أولهما أن والدتها ليس لديها أى ممتلكات شخصية تدر لها دخلا .

٢- إنه فى ظل الظروف الاقتصادية السائـدة الآن فإن المبلغ الذى تصرفه قرينة عبدالناصر شهريا قد يبـدو ملائما ، فلا أحد ، إن كان منزها عن الغرض ، يقبل لقـرينة جمال عـبدالناصر أن تـعيش معـتمدة على آخـرين ولو كانوا أبناءها ، وخاصة من الناحية المعنوية ، فلقد تركهـا جمال عبدالناصر أمانة فى عنق شعـبه ولم يحاول حـتى أن يؤمن لها من بعـده حياة وقـد قضتـها راضية فى ظل زوج كان لأمته وشعـبه المكان الأول فى تفكيره ومشاعره ، فى همه وأمله ..

ومع كل التفاصيل التى جاءت فى المذكرة التفصيلية قدمت هدى عبدالناصر الوثائق الدامغة لما قالت ، وهى:

١- شهادة إفراج من مصلحة الضرائب مأمورية تركات القاهرة شعبة مصر الجديدة والملف رقم ٥٣٥ لسنة ١٩٧٠م .

٢- رسالة من بنك مصر مؤرخة فى ٢٩/ ١/ ١٩٧٧م حول حساب المرحوم جمال عبدالناصر ورقمه ٦٤٢٢٦

٣- خطاب خاص بتوريد مبلغ ٦٨٠ جنيها و٦٢٣ مليما للضرائب من الورثة الشرعيين .

٤- خطاب من رئاسة الجمهورية إلى بنك مصر لعمل اللازم نحو إيداع نصيب كل من الورثه الشرعيين من التركة بعد تصفيتها على النحو الآتى :

١- ٤٢٧ جنيها و٧٧٢ مليما باسم السيدة تحية محمد كاظم .

٢- ٣٧٢جنيها و ٧٧٢ مليما باسم السيدة هدى عبدالناصر .

٣- ٣٧٢ جنيها و٧٧٢ مليما باسم السيدة منى عبدالناصر .

٤- ٧٤٧ جنيها و٦٥٠ مليما باسم السيد خالد عبدالناصر .

٥- ٧٤٧ جنيها و٦٥٠ مليما باسم السيد عبدالحميد عبدالناصر .

٦- ٧٤٧ جنيها و ٦٥٠ مليما باسم عبدالحكيم عبدالناصر .

٧- وثائق شركات التأمين .

٨- بيان بالمرتبات التى حصل عليها الرئيس جمال عبدالناصر فى فترة رئاسته للدولة .

٩- قرار الرئيس أنور السادات رقم ٩٨١ لسنة ١٩٧٠م فى شأن تقرير معاش لورثة المغفور له الرئيس الراحل جمال عبدالناصر حسين .

١٠- شهادة من البنك الأهلى خاصة لمعاش السيدة تحية كاظم .

١١- شهادة من الجمعية التعاونية المصرية لبناء المساكن لضباط القوات المسلحة الخاصة بقطعة الأرض التى بنتها السيدة هدى عبدالناصر مناصفة مع زوجها السيد حاتم صادق .. انتهى .

ورغم كل محاولات تفنيد ادعاءات المدّعين ظلما وعدوانا وبالوثائق والمستندات لم تتوقف الحملات المغرضة ولقد نسوا أو تناسوا جميع تلك الأعمال العظيمة التى تحققت للشعب المصرى ماديا ومعنويا وإلى حدّ كبير لكل العرب

خصوصا فيما يتعلق بالنضال الوطنى والاستقلال، ومع ذلك فنحن لم نقل إن عهد جمال عـبدالناصر خالد تماما من الأخطاء فهو من البشـر (وكلنا خطاءون) ولقد أعلن هو نفسه وبكل شـجاعة عن مسؤولياته فى بعض الأخطاء مـثلما حدث بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م تلك التى حـاول البعض أن يتـحاشى عند الحديث عنهـا تعبـير (هزيمة) فوقف هو وقال نعم إنها هزيمة وأنا أتحمل كل المسؤولـية عنها وفيها وقدم إسـتقالته .. ونخلص من مـذكرة الدكتورة هـدى عبدالناصر لنـقدم كشفـا بما كان يتقاضاه عبدالناصر من مرتب شهرى ، والبيان التالى عن سنة كاملة ..

ويرى القارئ الكريم كيف أن جمال عبـدالناصر كان يعامل مثل أى موظف فى الدولة من حيث الـضرائب وما إليـها وإن كامل مـرتبه كان فى حـدود ثلاثمائة وستين أو سبعين جنيها مصريا ..

ومعلوم أنه لا يوجـد أى دخل آخر للرئيس جـمال عبـدالناصر ، ولقـد كان أولاده فى ذلك الوقت مازالوا فى المراحل الدراسية بمعنى أنه لا أحد منهم يعمل أو يحـصل على مـرتبـات أو مزايا عـلى الرغم من أن عـبدالنـاصر لم يسـمح لأحـد بالحصول على أى مزايا مادية ..

وإذ لم يكن ممكنا لهؤلاء المتجنّين وأغلبهم كانوا من المطبّلين السبّاقين إلى الإطراء لكل أعمال جمال عبدالناصر فى حياته أن يقنعوا القارئ أو المستمع بأكاذيبهم حول ما حدث فى داخل مصر ابتكروا أساليب أخرى للنيل من سمعة جمال عبدالناصر بكثير من الأقاويل عن الأرصدة فى الخارج وتهريب الملايين التى أوعدت فى حسابات سرية .. إلخ ، وهنا يطرأ سؤال كما قال هيكل : (من الذى يضع الأموال السائلة الطائلة تحت تصرف أصدقائه (المعسكر الرأسمالى أو المعسكر الاشتراكى ؟)

ويقول : لا يشك أحد فى أن التعامل مع المعسكر الرأسمالى أقرب إلى تحقيق مزايا مالية لا شك فيها لمن يبحث عن ثروة تكون تحت تصرفه خفية وبغير أن يعرفها أحد ، ونقول: إن الدليل على ذلك ما ظهر حديثا عن أموال الرشوة التى دفعتها الشركة البريطانية (كما جاء فى الإعلام الغربى نفسه) للأمير بندر بن سلطان وغيره وكانت بالملايين نظير التوسط فى صفقة شراء سلاح لبلاده من بريطانيا وإذ كانت الفضيحة قد أبرزها الإعلام الحر فى بريطانيا فقد قام رئيس الوزراء (بلير) بإيقاف التحقيق ليس نفيا لما ذكر وإنما خوفا على مصالح بريطانيا كما قال ، وهذه الحكومة الأمريكية قد بدأت تحقيقا جديدا فى الصفقة .. إلخ) نعود إلى كلام هيكل ، يقول : ولا نذهب بعيدا ففى الوقت الذى تصور فيه الرئيس الأمريكى (دوايت إيزنهاور) أن النظام المصرى بعد الثورة على استعداد لمسايرة السياسة الأمريكية ، بادر فوضع تحت تصرف سلطة الدولة العليا فى مصر ثلاثة ملايين دولار لكى تصرف سرا فى أى وجه تراه هذه السلطة ضروريا لأمنها ، وأحدث تقديم هذا المبلغ لسلطة الدولة فى مصر وقتها دهشة واكتنفته ظروف مثيرة ثم تقرر توجيه المبلغ إلى بناء برج القاهرة وشبكة مواصلات مع العالم فيه وأصبح برج القاهرة بعد هذه القصة رمزا عاليا لسخافة السياسات الخفية للولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن ذلك لم يوقف الأموال الضخمة المتدفقة أو المستعدة للتدفق على كل من يتوافر لديه الاستعداد ليساير ، انتهى .

ونقول نحن أيضا : إنه ليس بعيدا ولم يمض وقت طويل حين كشفت عملية طائرات (شركة لوكهيد) وظهرت أسماء ملوك ورؤساء عرب حصلوا على أموال كثيرة وبالملايين دون أن يتشجع أحد منهم رغم أن أسماءهم قد ذكرت فيعلن عنها ، وهنا يقول هيكل مرة أخرى : ولقد ساير كثيرون فى الشرق الأوسط وخارجه ، والقصص والروايات عن المبالغ الخرافية التى أصبحت توضع خفية تحت تصرف الذين يتوافر لديهم الاستعداد لمسايرة شائعة ذائعة فى دوائر لجان التحقيق فى الكونجرس الأمريكى، وبينها مثلا أن (الجنرال ثيو) رئيس فيتنام الجنوبية كان يحصل سرا كل سنة على مائة مليون دولار توضع تحت تصرفه بترتيب

خاص بينه وبين الرئيس الأمريكى ، بل وأقرب من ذلك إلينا مكانا وزمانا فلقد تسرب قبل شهرين سر إعطاء زعماء الحزب الديموقراطى المسيحى فى إيطاليا مبلغ ستة ملايين دولار فى شهر ديسمبر الماضى وقد قدمت إليهم من اعتمادات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

ولم يكن جمال عبدالناصر قريبا من التعاون أو التواطؤ مع هؤلاء الذين يعطون المال بغير حساب ، ولو كان على استعداد ليساير؛ لاغترف ما يحلم به وما لا يحلم به ولكانت عنده الأموال بغير حساب ، لكن اختياره الدولى كان اختيارا مستقلا بعيدا عن ذلك كله ! انتهى [49] وبمناسبة المال والباحثون عنه حلالا أو حراما وهم زائلون نعرّج الآن على ما ملك أو يملك جمال عبدالناصر إضافة إلى ما ورد أعلاه بشأن ذمة الرجل وهو فى ذمة خالقه ..

يقول السيد (رشاد كامل) فى كتابه المعنون (عبدالناصر الذى لا تعرفه) أشياء وأحداث كثيرة ومنها ما يتعلق بذمة جمال عبدالناصر مع ملاحظة أن الكتاب صدر بعد وفاة عبدالناصر بحوالى ثلاثة وعشرون سنة أى أن الرجل لا غاية أو غرض له غير التاريخ ونحن نقرأه ونقدمه من أجل التاريخ ، يقول : عندما كانت السيدة الجليلة قرينته تطلب منه شيئا يشعر هو بعقلية المصرى الصعيدى أنه شئ غير عادى ، كان يقول لها برقته الباسمة التى كانت نعومتها تنطوى على الحزم: الله ، جرى إيه يا مدام، أنت نسيتى ، وحدث ذات مرة أن قالت لسامى شرف ، ولم تكن الشئون الداخلية لبيت جمال عبدالناصر من اختصاصه وقد فوجئ ذات يوم قبل أيام قليلة من عيد ميلاد جمال عبدالناصر (١٥ يناير) أن السيدة حرم الرئيس تتصل به وتقول : أنا عاوزه منك طلب بس أرجوك موش عاوزه الريس يعرف عنه حاجه ، وقال لها سامى شرف تحت أمرك يافندم ، وقالت له السيده تحية ، أنا عايزاك تشترى طقم شاى مناسب عشان أقدمه للريس هدية فى عيد ميلاده ، لأن براد الشاى اللى عندنا (البزبوز) بتاعه انكسر ، وكل ما أجى أصب الشاى فى الفنجان (يندلق) والريس بيقعد يتريق علىّ بسبب (البزبوز المشروخ) لأن طقم الشاى ده كان ضمن الجهاز بتاعى اللى اتجوزت بيه[50] !! وأذكر أننى سمعت هذه القصة شخصيا من الأستاذ سامى شرف قبل أن يكتبها

---

(٤٩) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكل - ٣١ .

(٥٠) عبد الناصر الذى لا تعرفه - رشاد كامل - ص ١٦ .

المؤلف بحوالى عشرين سنة ، والأستاذ سامى كان يرويها أحيانا ضمن أمور كثيرة يذكرها عن حياة الرئيس جمال عبدالناصر وتقشفه فى حياته وفى بيته ، ولعل القارئ الكريم يعلم أن جهاز زواج السيدة تحية الذى قدم لها فيه جمال عبدالناصر طقم الشاى كان فى منتصف الأربعينات ..

ويذكر السيد منير حافظ قائلا ، كانت الرياضة وبشكل خاص السباحة والتنس هى هوايات عبدالناصر المحببة إلى قلبه ، وعندما كان يشعر بالزهق من ضغوط العمل كان يذهب إلى استراحة المعمورة بالإسكندرية وخاصة فى شهور الصيف ، وعندما زاد المرض عليه اقترح الأطباء بناء حمام سباحة صغيرا فى بيته بمنشية البكرى ، ولم يجرؤ أحد على مفاتحته فى شأن هذا الاقتراح ، المهم أن محمود فهيم سكرتيره الخاص قال له : إيه رأيك يا ريس نعمل حمام سباحة هنا فى البيت ، وقال عبدالناصر شوف مع وزير الإسكان (على السيد) هيتكلف كام؟ وفعلا طلب محمود فهيم من وزير الإسكان معرفة كم يتكلف بناء مثل هذا الحمام ؟ وقال له الوزير بعد أن أجرى حسابه بالورقة والقلم : إنه يتكلف حوالى سبعة آلاف جنيه ، واندهش محمود فهيم من هذا الرقم وقال للوزير ولكن لو ذكرت هذا الرقم للرئيس سيرفض الفكرة ، واقترح أن يقول لعبدالناصر أن حمام السباحة سيكلف خمسة آلاف جنيه فقط حتى لا ينزعج من ضخامة المبلغ !

وبعد أيام كان محمود فهيم يقول للرئيس ببساطته المتناهية ، يا ريس حمام السباحة هيكلفنا حوالى خمسة آلاف جنيه .. يا بلاش !! وكان عبدالناصر ينصت لمحمود فهيم ثم صمت للحظات وعاد ليقول : بلاش يا محمود ، واستفسر محمود فهيم قائلا ، ليه يا ريس ؟ قال عبدالناصر أنت عاوز الناس تقول : عبدالناصر بنى حمام سباحه فى بيته بخمسة آلاف جنيه .. بلاش يا محمود .انتهى [٥١] .

وأشهد وقد زرت البيت عدة مرات فى أوقات مختلفة أننى لم أر تغييرا فى هذا البيت على الإطلاق منذ سكنه الرئيس جمال عبدالناصر إلى أن توفاه الله فيه ، وأعرف أن أبناءه وهم صغار كانوا كثيرا ما يلحّون على السفر إلى الأسكندرية صيفا من أجل السباحة فى البحر كبقية المصريين ، وكان يقول ليس لدية الوقت لذلك ..

(٥١) كتاب عبد الناصر الذى لم تعرفه - رشاد كامل - ٣٧ .

كذلك يذكر منير حافظ قائلا : كانت الملابس آخر اهتمامات الرئيس عبدالناصر ، ولو دققت النظر جيدا فى الصور الفوتوغرافية التى كانت تنشر له بكامل هيئته تلاحظ أن بدلاته واسعة جدّا وطالما حدثت مناقشات بسبب ملابسه، وكان يقال له : يا فندم : إنت بتروح وبتسافر وبتيجي وبتقابل ناس كثير وتكاد ملابسك تكون هى ، هى ، لم تتغير موديلاتها ، وكان الرئيس يردد دائما جملة واحدة هى، ماحدش له علاقة أو يتدخل فى ملابسى !! بل أن الترزى الذى ظل يفصل ملابس الرئيس عبدالناصر كان قد تعرف عليه منذ كان عبدالناصر ضابطا فى الجيش ولم يغير الرئيس هذا الترزى ، إلا بعد أن مات يرحمه الله قبل شهور قليلة من وفاة عبدالناصر نفسه .. ويضيف منير حافظ : أذكر مرة وكنت ضمن الوفد المرافق للرئيس عندما سافر إلى اليونان بدعوة من الملك جورج الخامس، ورغم فقر اليونان إلا أن أفراد العائلة المالكة كانت على درجة عالية جدّا من الحرص على البروتوكولات الملكية العريقة فى الحفلات الرسمية ، وقيل لنا وقتها إن حضور كل الحفلات التى ستقام وقتها للرئيس عبدالناصر والوفد لابد من حضورها بالملابس الرسمية ، وبالطبع لم يكن عبدالناصر يملك مثل هذه الملابس الرسمية أو حتى يحبها ، ولم يخطر بباله أبدا أن يغير من طبيعة الملابس المدنية التى يرتديها وهو فى قمة السلطة ، فلم تكن تتغير عما كان يرتديه فى السابق ، المهم ذهبنا إلى الحفل بملابسنا العادية وكان ضمن المدعوين كل رجال السلك الدبلوماسى الأجنبى وجاءوا وهم يرتدون الملابس الرسمية وكنا نحن وسطهم أشبه بعمال نقابة النقل البرى أو عساكر الجهادية أيام زمان ، الملفت للنظر وقتها أن السيد (لم يذكر اسمه) أحد أفراد الوفد المرافق للرئيس حضر هذا الاحتفال وهو يرتدى جاكيت بنى وبنطلون طحينى وحذاء أبيض، وبمجرد أن رأينا هذا المنظر حتى أنتابتنا نوبة من الضحك !!

ومن المعروف أن المناسبات الرسمية لها طقوسها وترتيباتها فى الملبس والمأكل وحتى الحديث .. إلخ ونعرف أن هذه المناسبات كما ذكر يطلب من ضيوفها أن يرتدوا ملابس خاصة رسمية معروفة وبالنسبة للأجانب كالعرب مثلا أو الأفارقة أو غيرهم فيقال لهم : أن اللباس إما أن يكون الرسمى الأوربى أو اللباس الوطنى ، ولا أحد يتصور أن جمال عبدالناصر يمكن أن يرتدى الجلابية الصعيدية والعمامة وهى اللباس الوطنى المصرى أو قل لباس الغالبية العظمى من

شعب مصر زيادة على أن عبدالناصر لم يرتدى فى حياته كما نعلم الجلابية لأن حياته كانت غالبا فى المدن ، المهم أن التزام عبدالناصر وتقشفه ليس فى اللباس فقط بل فى الأكل أيضا ، ويذكر منير حافظ شيئا من هذا فيقول : فى إحدى الفترات كانت هناك بعض التعديلات والإصلاحات تجرى فى بيت الرئيس ، وحتى تنتهى هذه الإصلاحات تقرر سفر أسرة الرئيس إلى المعمورة بالإسكندرية ، ولكن حدث ظرف طارىء استدعى عودة الرئيس ، المهم ذهبت الأسرة إلى قصر القبة للإقامة المؤقتة حتى يصبح البيت جاهزا ، وفى أول يوم للإقامة فوجئ عبدالناصر على الإفطار وهم يقدمون له الطعام الذى كان يتكوّن من حمام وكبدة !!وصرخ عبدالناصر فى محمود فهيم سكرتيره الخاص ، إيه اللى أنت جايبه ده ، فيه حد يفطر فراخ وحمام وكبده ؟ لما ولادى يتعوّدوا على الحاجات دى النهارده ، بكره أنا موش عارف مصيرى إيه ولا هيحصل لهم إيه من بعدى !! إعمل معروف يا محمود بلاش الأصناف دى كلها ولم تفلح اعتذارات محمود فهيم بأن طباخى قصر القبة هم الذين تصرفوا هذا التصرف ، وأضاف عبدالناصر قائلا له : وإنت عارف يا أخى أنا موش بأكل غير حتة الجبنه والمربى ، وكان أول ما فعله عبدالناصر أنه طلب سرعة الانتهاء من الإصلاحات الجارية بالبيت حتى يعود إليه فى أسرع وقت ، فقد كان هو والسيدة حرمه يشعران بالغربة الشديدة فى هذا القصر الطويل ..

ويتحدث الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى كان قريبا من عبدالناصر فى أغلب الأوقات عن هذه الناحية فى حياة جمال عبدالناصر فيقول :

ولقد كان بين المعايير الصارمة التى ألزم عبدالناصر نفسه بها ألا يملك أرضا ولا عقارا ، وكان يعتقد - واعتقاده صحيح - أن الملكية هى التجسيد العملى للامتياز الطبقى ، ولم يكن ضد الملكية كمبدأ ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها فى مجتمع أغلبيته الساحقة من المعدمين ، وكان رأيه أن الحاكم فى مصر لا يجوز له أن يمتلك لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية ويجد نفسه ، مهما حسنت نواياه ، يعبر عن مصالح الأقلية ، ونراه يتساءل ، هل كان نمط حياته يزيد عن موارده وهل كان مضطرا إلى أن يجارى مستويات من المعيشة يراها من حوله مترفة ناعمة ، ومجاراته لها تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن مصادر أخرى

لتمويل العجز ؟ وهنا يجيب :

لم تكن للرجل ، وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه فى مصر أو فى العالم العربى أو فى الدنيا الواسعة كلها ، شهوة فى طعام أو شراب ، وكان أفخر الطعام عنده على حد تعبيره ، لحما وأرزا وخضارا (وماذا يأكل الناس غير ذلك؟) كان تساؤله دائما مشوبا بالدهشة والاستغراب حينما كنت أقول له فى بعض المرات مداعبا : (أن الدنيا تقدمت ومع التقدم تطوّر المطبخ ولم يعد الطعام وسيلة للشبع ولكنه أصبح فنا من فنون الحياة) وكان ذلك فى رأيه تجديفا يكاد أن يقترب من الكفر بنعمة الله .. ! وكان نهاره وليله عملا متواصلا ، وكانت لمسة الترف فى نهاره حينما يجلس للعمل فى مكتبه تسجيلا لأغنية من أغانى أم كلثوم يدور وراءه خافتا فى خلفية جو عمله ، وكانت لمسة الترف فى الليل ذهابه إلى قاعة السينما فى بيته يشاهد فيلما أو فيلمين قبل أن يأوى إلى فراشه ..انتهى .

مازال الحديث يدور حول عبدالناصر وذمته لأن كل الذى ذكر لم يردع أولئك الذين يدبرون بليل ومع قوى أجنبية هى الأخرى لم تستطع أن تجد ما تدين به عبدالناصر فى عيون شعبه ، فجاؤا بحديث شيكات الملك سعود ، وقصة الملك سعود ربما تكون معلومة للجميع فهو عندما كان ملكا على العربية السعودية قرر أن يقتل جمال عبدالناصر (قتله بالتآمر والرشوة) فبحث هو ومن كلّفه على فرصة للجريمة ، كان جمال عبدالناصر فى سوريا وعند موعد عودته إلى مصر قام عملاء الملك سعود بالاتصال بالسيد (عبدالحميد السراج) وقدموا له ثلاثة ملايين دولار نظير موافقته على وضع قنبلة فى طائرة عبدالناصر ليموت هو ومن معه ، ولكن هذا المواطن السورى الشريف فضح العملية وأبلغ الرئيس بما كان يخطط له من عدوان ، وبالتالى فشلت العملية وصارت فضيحة يتحدث بها القاصى والدانى، ولقد دارت الدوائر على الملك الذى أراد قتل جمال عبدالناصر فأطيح به من أقرب الناس إليه (إخوته وأقاربه) وقد أخرج من بلاده ليلا ومن اليونان أرسل إلى عبدالناصر يطلب المجئ والإقامة فى أرض الكنانة (رغم جريمته التى كان قد دبرها ولم تنجح) قال عبدالناصر : إن القاهرة لا ترفض من يطلب اللجوء إليها ، وهكذا جاء الملك سعود ليقيم فى القاهرة ربما لأنه اعتقد بما لديه من أموال أنه من هناك يستطيع أن يستعيد عرشه ، المهم فى الأمر أنه قد تبرع ببعض المال للمجهود

الحربى المصرى كما قدم قرضا للحكومة المصرية ، وكانت هذه القصة فرصة لأن يتلقفها المشككون فيقولوا : إن عبدالناصر قد هرب تلك الملايين وملأوا الدنيا ضجيجا وكان ضجيجهم كحفنة من تراب فى مواجهة ريح عاتية ، يقول الأستاذ عبدالله إمام فى كتابة : (عبدالناصر المفترى عليه) تحت عنوان (شيكات الملك سعود) ما يلى: (وقصة شيكات الملك سعود التى تحدث عنها جلال الدين الحمامصى بدأت عندما ترك الملك سعود السعودية وسافر إلى اليونان ثم أرسل رشاد الحسينى إلى القاهرة ليقول إنه يريد أن يبدأ صفحة جديدة مع مصر ويحضر ليقيم بها ، وطلب عبدالناصر أن يرسل الملك خطابا بذلك يقول فيه : إنه يريد الإقامة بمصر لأنها مركز إسلامى حتى لا يهاجمه البعض لاستضافة مصر للملك سعود ، فالاستضافة هنا لعربى مسلم ، وتم الاتفاق على كل ترتيبات الإقامة وطلب عبدالناصر أن يستقبله فى المطار سعد زايد محافظ القاهرة ، ثم استقبله فى بيته بعد ذلك ، منتهى التسامح ، ملك مخلوع كان قد تآمر على قتله ومع ذلك كرّمه ..

وكان صلاح نصر المسؤول عن إقامة الملك سعود وهو حلقة الاتصال بينه وبين جمال عبدالناصر ، ورصد الملك سعود مليونى جنيه لمعاونته فى استرداد عرشه ، وكتب شيكا بالمبلغ باسم صلاح نصر ، وبعد حرب ١٩٦٧م كان الموقف الاقتصادى فى مصر سيئا وكانت مصر فى حاجة إلى عملات صعبة وخاصة بعد إغلاق قناة السويس فأرسل عبدالناصر صلاح نصر للملك سعود ليقرض مصر عشرة ملايين دولار واستجاب الملك ، وتم توقيع بروتوكول بين الملك وحسن عباس زكى وزير الاقتصاد على قرض قيمته عشرة ملايين دولار ..

ولقد سلّم صلاح نصر الشيك الذى كان باسمه إلى وزير الاقتصاد بعد استئذان الملك ، وحولت كل الشيكات على البنك المركزى ، هذه هى قصة شيكات الملك سعود ، كما أثبتتها وثائق البنك ، ولكن جلال الدين الحمامصى أصرّ على أن الشيكات دخلت فى حساب عبدالناصر ، وذكر ذلك فى كتاب أصدره ، وقد أثار هذا النشر ضجة لاتهام جمال عبدالناصر بالسرقة وكان منطقيا أن يسأل هؤلاء أنفسهم ، إنه إذا كان أراد أن يسرق ألم يكن أمامه إلا شيكات من الملك ؟

وعلى كل فقد حوّل الأمر إلى المدعى العام الاشتراكى للتحقيق وأرسل نتيجة تحقيقاته إلى مجلس الشعب ، ولكنها لم تنشر حتى اليوم ، ولا يمكن أن يكون فى التقرير الذى أعد فى زمن السادات وفى ظروف صعبة ، ما يدين جمال

عبدالناصر لأن ذمته فوق مستوى الشبهات ، كما أنه فى نفس الوقت يصعب أن يبرئ التقرير الذى وضع فى تلك الظروف جمال عبدالناصر ..

والنتيجة أن التقرير لم يعلن حتى الآن ، وسوف يمضى وقت طويل قبل أن ينشر ، إن وقائع الحياة التى عاشها عبدالناصر تؤكد أنه لم يكن عاشقا للمال ، أو الاستمتاع بملذات الدنيا ولكنه سيظل هناك من يشك فى ذمته لأن هناك إصرار ومصلحة لجهات معينة فى تشويه صورة الرجل ، فالهدف هو القضاء على صورة جمال عبدالناصر ، والهدف هو القضاء على النموذج الذى مازال الناس يتطلعون إليه، ثم القضاء على كل منجزاته .. والمواطن العربى العادى فى أى تجمع من العالم العربى يعرف هذه الحملة الشرسة ومن هم وراءها فيزداد تمسكا بعبدالناصر الفكر ، والعمل ..

ويتساءل ، وله كل الحق فى التساؤل ، ويستغرب وله الحق فى ذلك لأنه أحد الذين كانوا بجانب جمال عبدالناصر طيلة حياته فى النضال والعمل والسياسة ، يتساءل الأستاذ محمد حسنين هيكل قائلا:

هل كان فى طبعه الاستزلام للأغنياء طمعا فى أن يجودوا عليه بفضول أموالهم ؟

وهل كان رجلا تهون عليه كرامته فيقبل مالا من خصم قاتله فى مبدأ وضغط عليه حتى تنازل عن عرشه ، ثم فتح له باب وطنه لاجئًا تحت سلطانه، كالملك سعود ؟

لقد كان بين مشاكل عبدالناصر أنه رجل شديد الكبرياء ، وكبرياؤه وحدها كانت تكفيه عاصما ضد مهانة الرشوة أو ذلك الاستجداء ؟! ولقد أردت أن أناقش الموضوع من زاوية مجموعة القيم التى أثّرت فى تصرفاته كإنسان اجتماعيا وسياسيا ، ولم أشأ أن أتعرض للناحية البوليسية فى الموضوع ، ولم أشأ أن أسأل ..ألم يجد وسيلة للثروة غير شيكات الملك سعود مسحوبة على بنوك عالمية ؟ ألم يجد طريقا آخر غير اتفاقيات رسمية تعقدها وزارة الاقتصاد وينفذها البنك المركزى المصرى ؟

ولم أشأ أن أسأل ، ألم تكن تحت تصرفه خزائن مصر ؟ ألم تكن تحت أمره اعتمادات بغير حدود لأوجه من النشاط السياسى معفاة من أى رقابة ؟

ولم أشأ أن أسأل , لو أن له حسابا سريا خارج مصر ، حتى لو لم يكن فى

هذا الحساب غير مليم واحد ، فهل كان أعداؤه وهم الأقوياء فى هذه الدنيا ، خصوصا دنيا البنوك ، عاجزين عن خزائنها وعن أرقامها ؟ وينتهى هيكل إلى القول : أفهم تماما لماذا تحاول بعض القوى العالمية ، ولأغراضها ، أن تشوه التجربة المصرية التى قادها جمال عبدالناصر ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم ، حقيقة ، أسباب مسايرة بعض عناصر النظام المصرى الحاضر ، بل وحماستها الزائدة أحيانا لتشويه هذه التجربة ؟!!

وبعد هذا كله تطفو على السطح فقاعات تحاول إثارة ضوضاء حول أمور جانبية وفرعية لا قيمة ولا تأثير لها مثل ما نشره عثمان أحمد عثمان عن الفيلا التى تسكنها السيده هدى عبدالناصر ، وبعد ما كتب تراجع وذهب إلى مجلس الشعب ليكذب ما ذكره فى كتابه ويدعّى إنه كان يقول كلاما مرسلا يدور على ألسنة الناس ولم يقصد أى شخص معيّن ، ولقد ثبت بالوثائق أن كل ما قيل عن فيلا السيدة هدى عبدالناصر غير صحيح وبقيت قضية الملايين التى ادعّوا أن جمال عبدالناصر هربها للخارج ..

ونقول: إنه يمكن لأى إنسان عاقل أن يفكر فيما يريد أن يقدم عليه خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بمصير أمة بكاملها سواء أكان ذلك الأمر دينى أو سياسى أو اجتماعى .. إلخ وفى الحياة وسلوك البشر أشياء كثيرة تناقش من أجل التصحيح أو الإيضاح أو حتى النفى والإلغاء ، ذلك أن حياة البشر كلها تجارب ما عدا ما يتعلق بالجانب الإلهى ، وكل فرد يمكن أن يخطئ ويكون خطأه أو صوابه كبيرا إذا كان يتصرف فى أمور الناس (الرعية) وفى هذا يتعرض للنقد والمساءلة ، وبالتالى فهو يحب ويكره ، يكتسب أصدقاء ويخلق أعداء ، ولقد صعق الفاروق (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه عندما سئل وهو فى المسجد عن ثوبه وكيف أن الثوب طويل مما يعنى أنه أخذ قماشا أكثر من غيره من المسلمين ، فقال (لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فىّ إن لم أسمعها) وبيّن أنه أخذ جزءا من ثوب ابنه عبدالله، ولكن عمر غير أى إنسان وزمنه غير زمننا ، المهم إن جمال عبدالناصر وقد حكم مصر بعد ثورة قام بها مع زملائه من ضباط الجيش وكان عليهم والحالة تلك كما هى قائمة فى مصر (إقطاع وباشوات ورأسمالية متحكمة ورشوة وفساد وارتباط بقوى خارجية ، وضيم واقع على الفقراء والمساكين فلاحين وعمالا) أن

يقوموا بإجراءات شديدة فى محاولات تصحيح الوضع وإحقاق الحق بحيث يسود مجتمعهم العدل إن أمكن أو بعض العدل ، والواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى كان معقدا صعبا، وخلال الثمانى عشرة سنة عملوا الكثير جداً رأوا أنه لصالح الشعب لصالح الفقراء والمعوزين ، وكانت تجربة فيها الصواب والخطأ ، لأنهم كانوا بشرا شأن كل الناس ، والحاكم لابد أن يرضى بعض الناس ويغضب البعض الآخر ويكون الحكم عليه حسب نواياه ونتائج أعماله ، هكذا كان جمال عبدالناصر ، فقد أقام نظام حكم وطنى قوى فى ظروف صعبة ومجتمع تتقاطع فى حياته آثار قرون وقرون من الاستغلال والاحتكار وحتى العبودية ، ورائد الحق يواجه الصعاب والمشاكل وذلك ما حدث مع جمال عبدالناصر ، فقد قدم وعودا وأنجزها ،(عدالة اجتماعية ، استقلال غير منقوص ، رغيف خبز لكل مواطن ، قطعة أرض زراعية تقى المزارع عضة الجوع ، حرية وطن ومواطن) هزم وانتصر فى مواقف أو معارك ، وخلال سنوات حكمه كانت حياته مثار جدل فى الداخل والخارج ، من جانب الأصدقاء والأعداء ، وكانت حياته عريضة غير طويلة شغل بها الدنيا فى مواقفه الصحيح منها والخاطئ ، وهى حياة حافلة بالأحداث الكبيرة جداً ،كان فيها رمزا عاليا شامخا فى بلاده مصر وفى أمته العربية وفى كل مكان من العالم الواسع ، فقد كان لمصر فى الداخل وللعرب فى الخارج ، كانت زعامته بلا منازع تاريخية بكل معنى الكلمة اكتسبها بحق فى قلوب العرب والمسلمين وبالتالى فإن تجربته وحياته لابد أن تواجه بالقبول والرفض وبالنقد أحيانا كثيرة ، على أننا لابد أن نقول ومن واقع الإخلاص : إن أجهزته (وهذا شئ طبيعى) ضمن الظروف التى ذكرناها لم تتح للناس فرصة المساءلة أو المناقشة أو النقد حتى لو كان بناء اعتقادا (ربما) من قياداتها أن كل شئ سوى وصحيح، ولعل القول (أن الأجهزة السرية لا تقيم حكما ولكنها تخدم نظما قائمة) بمعنى أنها تخدم أى حاكم مهما كان ، ولم تدرك أن النقد البناء يصلح الحكم والحاكم ويمثل حصانة لاستمرار النظام لأن النقد يشير وينبه إلى العيوب والأخطاء ، ومع الأسف فقد كانت الحملة على جمال عبدالناصر شديدة وشرسة ، ويمكننا القول : إنها غير عادلة ولا منصفة ولا كانت تستهدف الصالح العام ، وإنما بعضها كان إما شخصى أو مسخرا فى خدمة جهات أجنبية أو تلك التى تضررت مصالحها فى البلاد أو

خارجها ، وكان يمكن أن يخدم النقد مصلحة البلاد والنظام لو كان موضوعيا وصادقا ، وكان جمال عبدالناصر يقبل النقد البناء ويذكر له كل الذين عرفوه أو تعاملوا معه أنه ينصت بصبر كبير ، ولقد كانت فى الغالب الأجهزة السرية لا توصل للحاكم إلا ما يرضيه ، وما يرضى الحكام فى الغالب شئ غير المديح والنفاق أما ماعدا ذلك فهى تتخذ الكثير من إجراءات العقاب محتمية بأنها تحرص على حياة الحاكم ونظامة، ولا تختلف هذه الأجهزة فى هكذا تصرف فى كل البلاد العربية ، ويبقى على الحاكم أن يجد سبيلا لمعرفة الحقائق بحيث يمكنه أن ينصف الناس إذا ظلموا ، ولقد حدث مع الشاعر المبدع نزار قبانى عندما نشر قصيدته الناقدة الرائعة (هوامش على دفتر النكسة) أن تحركت الأجهزة المصرية لتمنع دخوله لمصر وهو من عشاقها ، وثانيا لتمنع نشر أو حتى قراءة تلك القصيدة، وثالثا لتمنع حتى الأغانى التى تكون كلماتها من شعر نزار قبانى ، رحمه الله ، بل ومنعوا حتى كتبه ، وكان ذلك مؤلما لرجل أحب مصر وعبدالناصر ولأنه يعرف أن عبدالناصر لا يمكن أن يكون قد علم أو وافق على ما وقع عليه فقد بادر بالكتابة إلى جمال عبدالناصر برسالة رقيقة لا يشكوا فيها وإنما ينبه لما حدث وعندما وصلت الرسالة لعبدالناصر وقرأ القصيدة أمر فورا بإلغاء جميع الإجراءات التى اتخذت ضد نزار قبانى بل وقال : إن الرجل يجب أن يكرّم ، ولأن رد جمال عبدالناصر قد ضمّد جراح الشاعر الكبير فقد كتب رسالة يقول فيها (أجد أن الأمانه التاريخية تقتضينى أن أسجل للرئيس الراحل جمال عبدالناصر موقفا لا يقفه عادة إلا عظماء النفوس ، والللماحون والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم وشفّت رؤيتهم فارتفعوا بقيادتهم إلى أعلى مراتب الإنسانية ، والسمو الروحى ، فلقد وقف الرئيس جمال عبدالناصر إلى جانبى ، يوم كانت الدنيا ترعد، وكسر الحصار الرسمى الذى كان يحاول أن يعزلنى عن مصر بتحريض وإيحاء من بعض الزملاء الذين كانوا غير سعداء لاتساع قاعدتى الشعبية فى مصر ، استعداء السلطة علىّ ، حتى إن أحدهم طالب وزارة الإعلام بمقال نشرة فى إحدى المجلات القاهرية بحرق كتبى والامتناع عن إذاعة قصائدى المغناة من إذاعة القاهرة ووضع اسمى على قائمة الممنوعين من دخول مصر .. وحين شعرت أن الحملة خرجت

عن نطاق النقد ، والحوار الحضارى ودخلت نطاق الوشاية الرسمية قررت أن أتوجه مباشرة إلى الرئيس جمال عبدالناصر وكتبت إليه هذه الرسالة :

(فى هذه الأيام التى أصبحت فيها أعصابنا رمادا ، وطوقتنا الأحزان من كل مكان ، يكتب إليك شاعر عربى يتعرض اليوم من قبل السلطات الرسمية فى الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظلم لا مثيل له فى تاريخ الظلم ..

وتفصيل القصة أننى نشرت فى أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها (هوامش على دفتر النكسة) أودعنها خلاصة ألمى وتمزقى ، وكشفت بها عن مناطق الوجع فى جسد أمتى العربية ، لاقتناعى أن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوارى والهروب وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا ، وإذا كانت الصرخة حادة وجارحة وأنا أعترف سلفا بأنها كذلك فلأن الصرخة تكون كحجم الطعنة ، ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح ، من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران ، ومن منا لم يخدش السماء بأظافره ؟ من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض ..

إن قصيدتى كانت محاولة لإعادة تقويم أنفسنا كما نحن بعيدا عن التبجح والمغالاة والانفعال ، وبالتالى كانت محاولة لبناء فكر عربى جديد يختلف بملامحه وتكوينه عن فكر ما قبل ٥ حزيران ..

إنى لم أقل أكثر مما قاله غيرى ولم أغضب أكثر مما غضب غيرى ، وكل ما فعلته أنى صنعت بأسلوب شعرى ما صاغه غيرى بأسلوب سياسى أو صحفى ..

وإذا سمحت لى سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحا وصراحة ، قلت أنى لم أتجاوز فى قصيدتى نطاق أفكارك فى النقد الذاتى ، يوم وقفت بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة وتعطى ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ..

إنى لم أخترع شيئا من عندى فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية مكشوفة كالكتاب المفتوح ، وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن من مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ، ووجهها الأسود معا ؟ ومن يكون الشاعر يوم يتحوّل إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق له ..

لذلك أوجعني يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتي من دخول مصر ، وأن يفرض حصار رسمي على اسمي وشعرى فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها ، وليست القضية قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر لكن القضية أعمق وأبعد ، القضية هى أن نحدد موقفنا من الفكر العربى ، كيف نريده ؟ حرا أم نصف حر ، شجاعا أو جبانا ..؟ .

القضية هى أن يسقط أى شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائى لأنه تفوّه بالحقيقة ، وقصيدتى أمامك يا سيادة الرئيس ، أرجو أن تقرأها بكل ما عرفناه عنك من سعة أفق وبعد رؤية ، ولسوف تقتنع برغم ملوحة الكلمات ومرارتها بأننى كنت أنقل من الواقع بأمانة وصدق ، وأرسم صورة طبق الأصل لوجوهنا الشاحبة والمرهقة ، لم يكن بإمكانى وبلادى تحترق الوقوف على الحياد .. فحياد الأديب موت له ..

لم يكن بوسعى أن أقف أمام جسد أمتى المريض أعالجه بالأدعية والحجابات والصراعات فالذى يحب أمته يا سيادة الرئيس ، يطهر جراحها بالكحول ، يكوى إذا لزم الأمر ، المناطق المصابة بالنار ..

سيادة الرئيس إننى أشكو لك الموقف العدائى الذى تقفه منى السلطات الرسمية فى مصر ، متأثرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين ... وأنا لا أطلب شيئا أكثر من سماع صوتى ، فمن أبسط قواعد العدالة أن يسمح للكاتب أن يفسر ما كتبه ، وللمصلوب أن يسأل .. ولا أحد يعرف لماذا أشتم ، وأن أطعن بوطنيتى وكرامتى لأننى كتبت قصيدة ، ولا أحد قرأ حرفا من هذه القصيدة ، لقد دخلت قصيدتى كل مدينة عربية ، وأثارت جدلا كبيرا بين المثقفين العرب إيجابا وسلبا ، فلماذا أحرم من هذا الحق فى مصر وحدها ، ومتى كانت مصر تغلق أبوابها فى وجه الكلمة وتضيق بها ؟

يا سيدى الرئيس ، لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه ، والمجروح على جراحه ، ويسمح باضطهاد شاعر عربى أراد أن يكون شريفا وشجاعا فى مواجهة نفسه وأمته ، فدفع ثمن صدقه وشجاعته ..

يا سيدى الرئيس ، لا أصدق أن هذا يحدث فى مصرك ..

انتهى نزار من كتابة رسالته ولحسن الحظ أنه وجد كاتبا مصريا قريبا من جمال عبدالناصر وهو (أحمد بهاء الدين) سلمه الرسالة وهو فى بيروت وكان بالتأكيد واثقا من أن عبدالناصر لا يعلم بكل هذه الأمور، ثم يقول :

لم يطل صمت عبدالناصر، ولم تمنعه مشاكله الكبيرة، وهمومه التى تجاوزت هموم البشر من الاهتمام برسالتى فقد روى لى أحد المقربين منه أنه وضع خطوطا تحت أكثر مقاطع الرسالة، وكتب بخط يده التعليمات الحاسمة التالية :

لم أقرأ قصيدة نزار قبانى إلا فى النسخة التى أرسلها إلىّ، وأنا لا أجد أى وجه من وجوه الاعتراض عليها، يتخذ التالى :

١- تلغى كل التدابير التى قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته ،ويطلب إلى وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة .

٢- يدخل الشاعر نزار قبانى إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد ويكرّم فيها كما كان فى السابق ..

ويواصل نزار قبانى روايته قائلا (بعد كلمات جمال عبدالناصر) تغير الطقس وتغير اتجاه الرياح وتفرق المشاغبون، وانكسرت طبولهم ودخلت (الهوامش) إلى مصر بحماية عبدالناصر، ورجعت أنا إلى القاهرة مرة أخرى لأجد شمس مصر أشد بريقا، ونيلها أكثر اتساعا ونجومها أكثر عددا، وينهى كلامه قائلا (لقد كسر الرئيس عبدالناصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفن وبين السلطة، بين الإبداع وبين الثورة، واستطاع أن يكشف بما أوتى من حدس وشمول فى الرؤية أن الفن والثورة توأمان ملتصقان وحصانان يجران عربة واحدة وأن كل محاولة لفصلهما سيحطم العربة ويقتل الحصان .. انتهى [٥٢] .

وأنا أتذكر مناقشة جرت فى اجتماع بين عبدالناصر وبين الأستاذ خالد محمد خالد وهو كاتب إسلامى معروف بمواقفه المتشددة فى الحق، وفيما أعتقد كانت فى مناسبة المراحل التحضيرية للتنظيم السياسى، ولقد أوضح عبدالناصر فى بداية النقاش أهمية وضرورة النقد ومشاركة الجميع فى تقرير مصير البلاد ومصالح الناس والحكم السليم وكان نص ما قاله كما يلى :

(٥٢) عبد الله إمام - عبد الناصر المفترَى عليه - ٢٠٠ .

لا مانع من نقد الإجراءات .. بل لابد من أن ننتقد وننظّم ونغيّر ، وإذا كان هناك شئ خطأ نصلحه ، ولكن لا نصوّر الحكومة بأنها روتين ، ثم ما هو الروتين ؟ إننا لو حذفنا الروتين ستكون لدينا كل يوم مليون قضية سرقة .. وحتكون العمليه سلبيه ، وفيها خطر ، فلابد أن تكون هناك قواعد منظمة لعملنا، وهذا هو الروتين ، وإذا كان هناك شئ نحن غير مقتنعين به نعدله ، ولكن بقاعدة أخرى أيضا..

وبالنسبة لموضوع الصحافة ، أنا لا أنادى بفرض رقابة عليها ولكن لابد أن يكون هناك توجيه ، ولابد أن نعمل لجنة للصحفيين ، ولابد أن ينفذوا هذا الكلام فى جريدة الأخبار ، إن حاتم مسؤول عن الصحافة وأنا أكلمه يوميا ، ولكن من المسؤول عن التنفيذ ؟ لابد أن يكون هناك شخص مسؤول فى كل جريدة وتكون لديه فكرة عن سياستنا ، ثم لابد أن يشكل حاتم لجنة من رؤساء التحرير يجتمع بهم ويتكلموا ويعطيهم توجيهات ، انتهى [٥٣].

ويتحدث خال محمد خالد قائلا : لا أذكر أننى ترددت أمام كلمة أريد إلقائها مثلما ترددت اللحظة عندما طلبت الإذن بهذا التعقيب ، ولم أتردد لأننى أهاب مناقشة الرئيس جمال عبدالناصر فأنا منذ فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وأنا أدير فى كتبى مناقشة أمينة لثورتنا ولقائد ثورتنا ، إنما ترددت لأن السيد الرئيس عندما عرض لموقف الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يوم فتح مكه ذكر لنا إنه يعاود الحديث فى هذا الأمر لأن راديو دمشق قال ما قال ، قلت لنفسى حين بدا لى أن من واجبى أن أعقب على كلمة السيد الرئيس ، ترى هل أتقدم لأعقب وأعطى راديو دمشق وغير راديو دمشق فرصة للمناوأة ؟

وألهمنى الله الرشد سريعا ، فقد أدركت أن الحق هو الحق لا ينبغى أن يصدنا أى اعتبار عن الجهر به ، هذا أولا .

الأمر الثانى ، أنه لا شئ فيما أعلم ، يستطيع أن يرد كل إذاعة مناوئة خاسرة صاغرة ، سوى أن تسمع حرية الكلمة فى هذا المجتمع تجلجل وتدوى لا تخاف ولا تخوّف ، السيد الرئيس ذكر أن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فى فتح مكه

(٥٣) سنوات وأيام مع عبد الناصر – سامى شرف – ص ٥٦٤ .

قال ، من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، لأن الإسلام كان قد انتصر وتم نصره ، فى الحقيقة أنا عندما ذكرت هذه الواقعة فى كلمتى ، فى الجلسة الأولى كنت أحاول أن أعطى رمزا لا أكثر ولا أقل ، كنت أحاول أن أقول ليكن لنا فى مجتمعنا الجديد مسجد حرام ، هو البناء الاشتراكى العادل الذى نقيمه ولنقل للناس هذا مسجدنا الحرام جميعا من دخله فهو آمن ، ومن ثم لم أكن أجد فى الحقيقة مبررا لأن أفيض فى تبيان الواقعة التاريخية الخاصة بهذا الشأن ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يقل ذلك وقد تم نصره ، قاله وهو فى اللحظات الأولى من النصر ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد فتح مكه ظل يخوض حروبا ومغازى مع أعداء الله وأعداء دعوته ، لكنه ، عليه الصلاة والسلام أدرك أنه وقد فتح الله له معقل الكفر هذا فإن ثمة أناس كثيرين كانوا يناوئونه ظنا بأنه لن ينتصر ، كانوا يناوئونه خوفا من وجهاء قريش وقوة قريش ، أما الآن وقد فتح ، وقد دهم قريش فى عقر دارها ، أما الآن وقد دهم وحطم سلطانها فإن كثيرين جداً سيقبلون على دعوته حتى من بين الذين كانوا يعادونه أو يظهرون معاداته ، عندئذ فتح لهم قلبه الكبير لأنه صاحب دعوة كبيرة ، وقال لهم ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

أما أعداء الدعوة ، لا أقصد الأعداء الذين لم يؤمنوا بالدعوة ، الذين ظلوا على دينهم فقد اعترف بهم محمد ، عليه الصلاة والسلام ، أعضاء فى مجتمعه وضمن لهم حقوقهم ، أهل الكتاب الذين لم يجدوا رعاية لحرماتهم وهم على دينهم لم يدخلوا الإسلام مثلما وجدوها فى مجتمع محمد بن عبدالله ، لم يؤمنوا بالإسلام وأخذوا كل حقوقهم فى مجتمع الإسلام ، هذا ما كنت أريد أن أقوله ، انتهى (٥٤).

لقد مررت على بعض مقتطفات من حوارات مع عبدالناصر تدليلا على أن حرية النقد كانت موجوده وقائمة بل وقد نادى بها الرئيس نفسه وغرضى من هذا أن من كان صادقا وحريصا على مصلحة الشعب كان له حرية النقد والتصحيح ، ولو كان هناك ما يتصل بذمه عبدالناصر لكان يمكن أن ينتقد أما وقد جاء الهجوم

(٥٤) سنوات وأيام مع عبد الناصر – سامى شرف – ١٤٨ .

والتجريح والافتراء والرجل فى ذمة الله فهو لا يعنى شيئا غير الحقد والانتهازية لأن الذى تولى الحكم بعد عبدالناصر كان قد فتح الباب لهكذا تهجم وإساءات ، وأعود لما قيل ونشر عن ذمة عبدالناصر فأجد الأستاذ حسنين كروم فى كتابه (عبدالناصر المفترى عليه) يقول :

وامتدت الحملة إلى ميدان الكتب ، وصدرت العشرات منها تهاجم عبدالناصر ، وتولت مؤسسة الأخبار ترويجها عن طريق عرضها بشكل مثير وعلى مساحات واسعة فى جريدة الأخبار (وأخبار اليوم) وهى عملية دعائية مجانية مؤثرة ، إضافة للإعلانات المكثفة فى الصحف والتلفزيون ، وفى المقابل صدرت كتب تدافع عن عبدالناصر ورغم أنها أقل عددا فلم تقم أى جريدة بعرضها أسوة بالكتب الأخرى ، وسمح بالإعلان عن بعضها بالأجر فى الصحف ، ولكن التلفزيون رفض بتعليمات مشددة قبول أى إعلانات عن معظمها فى الوقت الذى أذاع إعلانات للكتب التى هاجمت عبدالناصر، وكان المطلوب محاولة منع وصول أصوات المدافعين وترويج ما يكتبه ويقوله المهاجمون ، ولقد اتخذت الحملة شكلا متدرجا ، ففى البداية كانت الاتهامات توجه إلى مراكز القوى دون الإشارة لاسم عبدالناصر وكان ينعت بصفات الديكتاتورية والفردية والإرهاب والسجون والمعتقلات والاستبداد ، ثم تهدأ الحملة بعض الشئ ، لتنتقل إلى مستوى آخر أكثر حدّة ، وكان أهم تطور فيها هو اتهام عبدالناصر بالسرقة كما ورد فى كتاب جلال الدين الحمامصى (حوار وراء الأسوار) وقد أثار الاتهام ضجة هائلة واستنكره الشعب، واضطرت الحكومة إلى نشر التحقيق التى قامت بها وبثت فيها أن الأموال التى ادعى الحمامصى أنها دخلت جيب عبدالناصر ذهبت إلى خزينة الدولة ، صحيح أن الاتهام تم دحضه ولكن يبقى أنه نشر على نطاق واسع وتم التشكيك فى ذمة عبدالناصر المالية وهدأت الحملة إلى حد ما وبعد مدة تحركت مرة أخرى إلى مستوى آخر وهو التشكيك فى وجود علاقات نسائية سرية لعبدالناصر ونشرت جريدة (الجمهورية) و(الأخبار) هذا على لسان شوكت التونى المحامى الذى كان يترافع فى قضية تعذيب الإخوان المسلمين وضباط مدرسة المشاة ، إذ أدعى أن صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق الذى اعتقل فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧م أنه هدد عبدالناصر عام ١٩٦٨م بكشف علاقاته النسائية السرية إذا أمر باغتياله فى السجن ، وقد نفى صلاح نصر هذه الرواية نفيا قاطعا كما أن الدولة استنكرت هذا التشهير ولكن يبقى إنه نشر

على أوسع نطاق وفى الصحف الخاضعة لها ، ويبدو واضحا أن الهدف تهيئة أذهان الناس لسماع أشياء لم يتصوروا حدوثها لأن خصوم عبدالناصر قبل مؤيديه يعتقدون بنظافة يده ونقاء ذمته واستقامته ، حتى يمكن إثارة الشكوك فى هاتين الصفتين وفبركة أحداث لم تقع والكشف عن أسرار وهمية ، وكلها تخدم هدفا ثابتا محددا رغم عدم معقولية ما يقال ويروى .. انتهى (٥٥).

٢ - سلوك جمال عبدالناصر :

لم يكن جمال عبدالناصر يعلن شيئا ويتصرف بعكسه ، ولا كان يبطن ما لا يعلن ، ولا كان يخفى الحقيقة ويبتعد عن الصواب فى القول ، ولعله اكتسب هذا من حياته العسكرية وتربيته العربية الإسلامية فى حضن أسرة صعيدية ، ولم يتأثر بأساليب السياسة التى قال عنها ذات مرة السياسى المخضرم البريطانى السير (وينستون تشارشل) (أن السياسى لكى يمرر حقيقة واحدة يحتاج إلى كتيبة من الأكاذيب .. (٥٦) ولابد فى هذا من العودة إلى بعض أحاديث وروايات أولئك الرجال الذين تعاملوا أو عملوا مع جمال عبدالناصر خلال مراحل حياته ومن قبل أن يكون رئيسا لمصر ، فهو منذ كان ضابطا فى الكلية الحربية لم يعرف عنه أنه اختلط بشلة سهر ولا تناول مسكرا أو لعب ورقا أو قال مزحة فيها مساس بشرف أو خدش حياء ،وقال عنه الدكتور (محسن عبدالخالق) وهو أحد الضباط الأحرار (أقول لمن يسأل : إن جمال عبدالناصر كان رجلا هادئا تميز بالاحترام المطلق بيننا ، قوى الشخصية، متزنا عميق التفكير ، مع امتلاكه قدرة فائقة على تحليل المواقف برؤية صافية ، كما كان يتمتع بجاذبية شخصية والقدرة على استقطاب جماعات الضباط الأحرار وهو رجل ليس له نزوات تشينه أو تدينه ، واسع الأفق مستمعا ممتازا قارئا عميقا ، قادرا على الفهم والتحليل ببراعة كبيرة ، ومتعدد الجوانب والأبعاد ، وباختصار كان جمال عبدالناصر يمتلك كل مقومات الزعامة ، ولهذا اتفقت كافة الجماعات الوطنية التى انضمت إلى بعضها بعد حرب فلسطين على اختياره قائدا وزعيما ، أو على الأقل لم يعارض هذا الاختيار أحد ...) ويقول هيكل : (والزاوية التى تغرينى هى الزاوية الاجتماعية ، أقصد سلوك

---

(٥٥) عبد الناصر المفترى عليه - حسنين كروم - ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥٦) كتاب الحرب العالمية الثانية - الجزء الثانى عشر - تشارشل .

عبدالناصر أو سلوك أى إنسان غيره على ضوء مجموعة القيم التى آمن بها ، والتى طبعت نمط حياته ، واتجاهات سياساته وتصرفاته اليومية، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ، هل كانت الثروة أو كان الغنى بين مجموعة القيم الاجتماعية التى آمن بها جمال عبدالناصر ؟ ومن هذا السؤال تبرز أسئلة فرعية عديدة :

١- لمن انحاز جمال عبدالناصر اجتماعيا .. هل كان انحيازه للأغنياء أو كان انحيازه للفقراء ؟ إن ألد أعداء جمال عبدالناصر لا يكفون عن اتهامه بالحقد على الأغنياء ، ويعزون كثيرا من سياساته إلى هذا الحقد الذى يتصورونه ، ولم يكن جمال عبدالناصر حاقدا ، ولكنه كان يرى الغنى الفاحش فى وسط الفقر المدقع جريمة لا تغتفر ، وهكذا جعل هدفه الذى لا يحيد عنه تذويب الفوارق بين الطبقات ، ولو أنه وجد نفسه من الأغنياء ، أو أوجدته مطامعه بينهم ، لاختلفت تصرفاته ذلك أن كل إنسان حريص على مصالح الطبقة التى ينتمى إليها ، أو حتى تلك التى يتطلع يوما للانتماء إليها ، أى أن الذى يريد الثروة لنفسه يؤمّن الثروة لغيره ، والذى يسعى إلى توسيع ملكيته الخاصة، وذلك أساس أى غنى ، لا يسمح لنفسه أن يبتدع مبدأ التعرض للملكية الخاصة أو المساس بحقوقها ، وإذا كان جمال عبدالناصر قد تعرض لأموال الأغنياء لصالح الفقراء ، وإذا كان قد تعرض لملكية من يملكون لصالح الذين لا يملكون، إذن فإننا نستطيع أن نتصوّر ببساطة أن جمع الثروة والحرص على الملكية التى تتراكم فيها الثروة ، لم يكونا بين مجموعة القيم الاجتماعية التى آمن بها فى حياته أو لحياته .

٢- ولقد كان بين المعايير الصارمة التى ألزم بها نفسه ألا يملك أرضا أو عقارا ، وكان يعتقد ، واعتقاده صحيح ، أن الملكية هى التجسيد العملى للامتياز الطبقى، ولم يكن ضد الملكية كمبدأ ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها فى مجتمع أغلبيته الساحقة من المعدمين ، وكان رأيه أن الحاكم فى مصر لا يجوز له أن يتملك لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية ويجد نفسه ، مهما حسنت نواياه ، يعبّر عن مصالح الأقلية ..

٣- هل كان نمط حياته يزيد عن موارده ، وهل كان مضطرا إلى أن يجارى مستويات من المعيشة يراها من حوله مترفة ناعمة ؟ ومجاراته لها تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن مصادر أخرى لتمويل العجز ؟ لم يكن للرجل، وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه فى مصر أو فى العالم العربى أو فى الدنيا الواسعة كلها ، شهوة فى طعام أو شراب ، وكان أفخر الطعام عنده على حد تعبيره ، لحما وأرزا وخضارا ، و (ماذا يأكل الناس غير ذلك ؟) كان تساؤله ذلك مشوبا بالدهشة والاستغراب حينما كنت أقول له فى بعض المرات مداعبا : (أن الدنيا تقدمت ومع التقدم تطوّر المطبخ ولم يعد الطعام وسيلة للشبع ولكنه أصبح فنا من فنون الحياة) وكان ذلك فى رأيه تجديفا يكاد أن يقترب من الكفر بنعمة الله ! وكان نهاره عملا متواصلا، انتهى (٥٧).

ولم يكن من سلوكيات جمال عبدالناصر أن ينكر على أحد حقه فى التشريف أو التكريم وبالتالى فقد كان يأمر بتذكير الناس بأولئك الرجال الذين سبقوه وقادة الثورات أو الانتفاضات الشعبية التى سبقت ثورته وهو ما حدث فعلا حيث كان فى مقدمة أعمال ثورة عبدالناصر تقدير الزعماء الوطنيين ، وفى هذا يقول الأستاذ عبدالله إمام :

(لقد كان فى مقدمة أعمال الثورة إعادة تصحيح تاريخ الثورة العرابية الذى شوّه لحساب الأسرة المالكة، فأفرجت عن الكتب التى صودرت لأنها لا تهاجم الثورة العرابية ، ولا تصفها بأنها هوجة ، وكان هذا أول رد اعتبار لتاريخ أحمد عرابى المفترى عليه والذى ظلم طويلا .

ثم قررت فى ١١ فبراير ١٩٥٣م ذكرى مصطفى كامل ونقل رفاته من مقبرة الإمام الشافعى إلى المقبرة التى أقيمت له ، وتم ذلك فى احتفال حكومى وشعبى كبير ..

وبعدها بشهور فى ١٥ نوفمبر من نفس العام تقرر أن يقام احتفال رسمى وشعبى أيضا لنقل رفاة محمد فريد من مقبرته بجوار السيدة نفيسه إلى حيث يرقد جثمانه إلى جوار زميل جهاده مصطفى كامل ..

---

(٥٧) كتاب لمصر ... لا لعبد الناصر - محمد حسنين هيكل . .

بعدها أيضا تم نقل جثمان سعد زغلول إلى مقبرته التى أقيمت وظلت عشر سنوات خاوية لأن وزارات ما قبل الثورة رفضت ولم يستطع الوفد وهو فى الحكم أن ينقله إلى مقبرته ..

وكانت هذه لفتة رسمية لتكريم زعماء مصر الوطنين وعندما بدأت محكمة الثورة التى رأسها عبداللطيف البغدادى وقدم إليها عددا من السياسيين ، وفتح المجال واسعا لنشر ما يدور فيها من أقوال المتهمين والشهود والدفاع فى جلسات علنية كان أحد أهداف تقديم بعض السياسيين إليها نشر كثير من وقائع تاريخ السنوات السابقة القريبة على الثورة من وجهة نظر مختلفة ، لذلك فإنه رغم صدور الأحكام بالسجن على السياسيين لمدد طويلة إلا إنه تم الإفراج عنهم لأن الهدف لم يكن سوى إتاحة الفرصة للناس لكى يعرفوا ما كان يدور فى كواليس السياسة فى مصر .. انتهى [٥٨] .

وعندما تنكر كل رجال حزب الوفد لمصطفى النحاس فى سنواته الأخيرة ، وكان قد قدم طلبا لبنك مصر للحصول على سلفة ، اتصل رئيس البنك أحمد فؤاد بجمال عبدالناصر الذى أمر بأن يصرف له كل ما يريده فورا ، وعلى نفقة الدولة ، وأن توفر له حياة كريمة ، وقد انتقل النحاس باشا إلى رحمة الله وجمال عبدالناصر فى اليمن ، وتقرر أن تكون جنازته رسمية وشعبية وأن تشارك فى جنازة مصطفى النحاس الحكومة.. ولكن البعض رأوا لأسباب خاصة أن يحولوا الجنازة التى شارك فيها الجيش ، وفيها مندوب الرئيس أرادوا تحويلها إلى مظاهرة سياسية ضد النظام ، الأمر الذى أدى إلى القبض على عدد منهم .. انتهى) .

ولأن تفكير جمال عبدالناصر وبالتالى سلوكة منسجما مع تصرفاته ومواقفه وأعماله ، وهو من طبقة وسطى تحدث ذات مرة عن نفسه قائلا :

إننى الابن الأكبر لأسرة مصرية من الطبقة المتوسطة الصغيرة ، وكان أبى موظفا صغيرا فى مصلحة البريد ، يبلغ مرتبه الشهرى حوالى العشرين جنيها، وهو مرتب يكفى بصعوبة لسد ضرورات الحياة، لقد ولدت بالإسكندرية ولكن ذكرياتى الأولى تدور حول قرية الخطاطبه وهى قرية تقع بين القاهرة والإسكندرية

---

(٥٨) عبد الناصر المفترَى عليه - إمام - ص ٦٥ .

حيث كان أبي يعمل وكيلا للبوسطه ، وكنا دائما أسرة سعيدة يحكمها أبي ، ولكن القوة المحافظة فيها كانت أمي التي كنت أنا وإخوتي نتفانى في حبها ، كان أبي قلقا بسبب آرائي السياسية حتى في أيام التلمذة فقد سجن أخوه في الحرب العالمية الأولى بتهمة الإثارة السياسية ، ولذا كانت مخاوفه أن يحل بي ما حل بعمي، مخاوف طبيعية فقد كان أمله أن نحيا جميعا حياة آمنة بعيدة عن المزعجات .

وبعد الثورة تحدث جمال عبدالناصر وهو يرد على بعض أولئك الذين أشاعوا عنه بأنه يحقد على طبقة معينة فقال : قالوا جمال عبدالناصر عنده حقد طبقي ، ليه ؟ وازاي ؟ أنا بقيت رئيس جمهورية وموجود كويس وقاعد كويس وعندي عربه كاديلاك ، يبقى حقد طبقي إيه بقى ؟ أنا لا أحقد على طبقة معينة ، ولا على أسماء معينه ، أنا ماعرفهومش ، وما شوفتهومش ، وماقعدتش معاهم ، ولكن أنا شفت الناس التانيين ، أنا شفت الشعب اللي احنا كلنا طالعين منه ، شفت العمال الزراعيين ، وشفت عمال التراحيل ، وشفت الملايين ، شفت العمال السهرانين ، شفت مخلة العيش الناشف والبصل ، وشفت قدرة المش ، وقدرة الملوحة ، وشفت الرجلين الحافيه المشقوقه والعينين الزايغه من الجوع ، شفت عمال التراحيل عريانين ملط لغاية ما يغسل الشوال اللي هو لابسه في الترعة ، ولغاية ما ينشف الشوال في الشمس ، طبعا كل واحد من الشعب عرف هذا الكلام ، إن ما نطلبه اليوم هو حق هؤلاء الناس ، حق العمل ، حق الفلاحين، حق الكادحين والمطحونين (٥٩) .

وفي حديث سامي شرف مع الصحفي الأستاذ عبدالله إمام قال ذات مرة سألني جمال عبدالناصر تليفونيا قائلا :

إحنا بنتعب علشان مين .. أنا موش فاهم حاجه أبدا من اللي بيحصل ده؟ قلت خير يا فندم ؟ قال ازاي ابن عامل ترفض قبول أوراقه في كلية الشرطة وما هي الأسباب ؟ عايز أعرف حالا الأسباب والمبررات التي رفضت بناء عليها أوراق هذا الطالب ، تكلم شعراوي دي الوقت وترد عليّ فورا ..

قلت : حاضر ..

---

(٥٩) حديث مع مراسل الساندى تايمز سنة ١٩٦٢م شهر يونيو .

طلبت الأخ شعـراوى جمعه وقلت ما هـى الأسباب ، فطلب إمهـاله فرصة ليـبحث ويرد علىّ ، وبعـد ذلك رد علىّ شعـراوى ، قال الحـقيـقة يا سـامى الولد مستوفى الشـروط ولائق طبيا لكن اعترض على قبول أوراقه لأن أبيـه سائق سيارة مع أنه مساعد فى الشرطة .

طلبت الرئيس وأبلغته ما ذكره المرحوم شعراوى جمعه ، فقال الرئيس (إحنا بنقول تكافـؤ الفرص ومـجانية التـعليم ، يعنى كلام فى الهـواء ولا يطبّق ، وكيف يقبل شـعراوى مثل هذا الاعتراض وهـو وزير الداخلية لابن من أبناء وزارته ، بلغ شعراوى أن تقبل أوراقـه فورا ، وإذا كانت هناك حالات أخرى مشابهة ومـستوفاة شروط القبول فتقبل كذلك ، وكلمنى عندما يتم هذا ، وعايز أعرف كام واحد كان مرفوض طلباتهم وما هى الأسباب ..

وطبـعا بـلغت الأخ شعـراوى بتـعليـمات الرئيس ، وكـانت ثلاث حـالات أخرى مشـابهة فقبلت أوراقهم، وكـان لهم شرف الانتماء لأسـرة الشرطة المصرية العريقة وأصبحوا من كبار رجالهـا الناجحين والحمد لله،لابد أن جمال عبدالناصر بهذا يستذكر ما كمن فى قلبه من مساوئ عهد سابق قام على الوساطة والمحسوبية مما يستـثير فى ذاكـرته حدث واجـهه فى بداية حيـاته عندما تقـدم راغبا الالتـحاق بالكلية الحـربية ، وعندما مـثل أما لجنة القبـول فى وقت أن قرأ الإعلان عن قـبول طلبة الثانوية العامة من المصريين .

ولقد سأله رئيس اللجنة :

اسمك ايه ؟

قال ، جمال عبدالناصر حسين .

أبوك بيشتغل إيه ؟

موظف بمصلحة البريد .

موظف كبير ؟

لا موظف صغير

بلدكم إيه ؟

بنى مر ، مديرية أسيوط .

يعنى فلاحين ؟

أيوه .

فيه حد من عيلتكم ضابط جيش ؟

لا .

أمّال أنت ليه عاوز تبقى ضابط ؟

عشان أبذل دمى فداء الوطن .

فيه حد إتكلم عشانك ؟

واسطه يعنى ، أنا واسطتى ربنا .

أنت أشتركت فى مظاهرات سنة ١٩٣٥ ؟

أيوه .

كده ، طيب اتفضل .

وبعد كلمة تفضل هذه رفض قبوله ، لأنة بلا واسطة ولأنه ابن فلاّح أو من عائلة فلاّحين !!

وكثيرا كانت الخطابات الشخصية أو قدوم بعض ذوى الحاجات من الفقراء بمنشية البكرى يطلبون ويشرحون ظروفهم المعيشية والأسرية وكان هناك مكتب للرئيس جمال عبدالناصر مختصا بالشئون الداخلية ، إلى جوار مكاتب الشكاوى وكانت حصيلة أنشطة هذين المكتبين تدّون فى تقرير إسبوعى يعرض على الرئيس ضمن الأفضليات من المواضيع لأنها كانت بشكل ما تمثل نبض الجماهير انتهى.. (٦٠) وانحياز جمال عبدالناصر واضح فى كل مواقفه وقراراته وهو يهتم بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياة الناس الذين ثار من أجلهم ، وأذكر فى مناقشة مع الصديق أمين هويدى وهو أحد رجالات عبدالناصر وقد شغل منصب وزير الحربية ومدير المخابرات العامة بعد نكسة سنة ١٩٦٧م قال لى نحن كنا فى مجلس الوزراء نقيس الوقت الذى ستستمر فيه الجلسة على ضوء ما كانت تحملة حقيبة الرئيس

جـمال من مـشاريع أو خطـط أو أوراق ... إلخ وحدث ذات يوم أن دخل الرئيس وكـان خلفه السيـد محمد أحمد يحـمل الحقيبة فى يده اليـمنى وقد لاحظنا أنها حقيبـة منفوخة بشكل يثير الانتـباه فنظرنا إلى بعـضنا وتهامـسنا قائلين : لابد أن الجلسـة لن تنتهـى قبل منتصف الليل وكنا فى وقت مبكر من الـصباح ، جلس الرئيس ووضعت الحقيـبة بجانبه فإذا هو يفتحهـا ويخرج منها أرغفة خبز ناشف، وكانت الأرغـفة من مختلف المحافظات بالبلاد وصـار يرينا كل رغيف ويسأل مـن منكم يأكل مثل هذه الأرغفـة ، سأل أولا وزير التموين (كمال رمزى ستينو) قائلا : هل تأكل مثل هذا الرغيف ، فتلعثم الوزير وبعد فترة قـال والله يا ريس (لا) وكـانت فعـلا الجلسـة طويلة إذ إن الرئيس سـأل كل واحـد من الوزراء وكان يعلّق على كلام كل منا بألم وحـسرة وقد أشعرنا جميـعا بما يمكن أن يسمى عدم العناية بأكل الناس ، كان هذا الحديث فى نهاية سنة ١٩٨٤م ..

ولقد ذكر تفاصيل هذه الأحداث الأستاذ سامى شرف فى كتابه (سنوات وأيام مع عـبدالناصـر) الذى صـدر أخيـرا هذه السنة (٢٠٠٧م) قـائلا : وفى كـثيـر من الأحيان كان عبدالناصر يميل الى استقاء معلوماته من مصادرها الأصلية ، ففى إحدى الأمسيات وعلى الخط الساخن اتصل بى وكلفنى بجمع عينات من أرغفة العيش التى يتم إنتاجهـا من المخابز التابعة للدولة ، وأن يتـم هذا التجميع من مناطق مـختلفة فى مدينة القاهرة ، وقد قمت فعلا وبواسطة عناصر من التنظيم الطليعى بتجميع العينات المطلوبة من مصـر الجديدة والوايلى والزيتون والمطرية وشبـرا وروض الفرج والدرب الأحمر وحلوان ، وفى اليوم التالى كان موعد الاجتماع الدورى لمجلس الوزراء وقد افتـتح عبـدالناصر الجلسـة بقوله : أنا عندى صـورة واضحـة تماما عن حيـاة الموظف العادى لا لبْس فيـها ولا نقاش ، الناس تعبـانه فى بند اللبس وبند الأكل وبند الإنتاج الصناعى الذى يستخدمه المواطن العـادى ، ثم طلب الشنطة التى كانت تحوي عينات العيش ووضعت على مائدة الاجتماعات أمام الوزراء ثم التفت عبدالناصر إلى وزير التموين كـمال رمزى ستينو وسأله مـستنكرا ، تقدر تأكل الرغيف ده يا دكتـور كمال ؟! فرد الـوزير : لا يا ريس ، فقـال الرئيس : ما هوا ده اللى بتطلـعه مخـابزك ، وإذا كنت لا تقـبل أن تأكله وأنا لا أقـبل بالتالـى فكيف بالله عليك تقـبل أن تأكله الناس ؟ البني آدم العادى بيشـترى كم رغيف فى اليوم ؟ على الأقل عشـرة أرغفة فى المتـوسط إن لـم يـزد ، هل هذا رغيف عـيش يؤكل ؟ عـارضـا الرغـيف على الحضور ، يا دكـتور كمال عندك ٤٨ سـاعة لتصحيح هـذه الأوضاع وإلا سأضطر

لاتخاذ إجراءات بنفسي لتصحيح الأمر، ويضيف المؤلف « وحدث أن قل المعروض من الحلاوة الطحينية فأثار عبدالناصر الموضوع فى إحدى جلسات مجلس الوزراء قائلا للوزراء المختصين : يا إخوانا الراجل الفقير حايأكل إيه ؟ رغيف العيش وحتة الحلاوه وحتة الجبنه .. موش كده ولا أيه ؟ طيب إذا عجز الحكم عن توفير تقديم الجبنه والحلاوة الطحينية للناس فعلينا أن نرحل ونتخلى ويجي غيرنا يحكم .. انتهى (٦١) .

وكثير الكثير الذى يناقشه ويسأل عنه جمال عبدالناصر يتصل مباشرة بحياة المواطن العادى الفقير، يسأل عن كراريس الأطفال فى المدارس وعن الشنط وعن الملابس وقد لاحظ ذات يوم ارتفاع أسعار الملابس المدرسية والأقلام وغيرها ، فقال للدكتور (عزيز صدقى) وزير الصناعة :يا دكتور عزيز السنة الدراسية ابتدأت وأسعار الملابس يا دكتور عزيز المنتجه محليا خياليه فى أسعارها ، ونار زى الناس ما بتقول ، وبيكتبوا لى فى جواباتهم مين يقدر يشترى الفانلة بجنيه ؟ ثم استفسر تفصيلا عن أسعار باقى كل ما يلزم الطلبه والطالبات من ملابس مثل البلوفرات والقمصان والمرايل والبنطلونات والجوارب والجزم والأدوات المدرسية من أقلام وكراريس وكتب وغيرها ، وقال : إزاى يبقى سعر البلوفر جنيه أو جنيهين ، والشراب ربع جنيه والقميص خمسين قرش ؟ يعنى لو واحد عنده خمسة أولاد حيحتاج لعشرين جنيه أو ثلاثين جنيه لشراء بلوفرات وشرابات فقط !! كيف يحدث هذا ؟ وكم حيدفع الموظف علشان يشترى هدوم ولبس وجزم ومساطر وأساتيك وكراريس ... إلخ لأولاده وبناته لدخول المدارس؟ إن لم تعمل على تخفيض أسعار المنتجات دى أنا حضطر إنى أعمل اتفاقية مع الصين لاستيراد الملابس منها حتكون تكون أرخص من ملابسك وكمان حأدخل كرئاسة دولة منافس لك فى إنتاجك وحأرفع الدعم اللى بديهولك ، عليك أن تحسن الإنتاج وتخفض الأسعار ، وبالمناسبة الناس اللى قادره تبقى تفتح لهم فرع خاص فى ميدان سليمان باشا وتستورد لهم المنتجات الأجنبية اللى هم عايزينها ..

---

(٦١) عبد الناصر كيف يحكم – عبد الله إمام – ٣٠٠ .

ثم التفت إلى وزير التربية والتعليم قائلا ، عايزك تحد من تغيير ملابس الولاد والبنات كل سنة لأنها عملية مكلفة وبتشكل أعباء كبيرة على الآباء وعلى الطبقات الفقيرة .. انتهى(٦٢).

٣ - أسلوب عبدالناصر فى الحكم واختيار الوزراء والمساعدين ،،

كان جمال عبدالناصر عندما تحدث لزملائه فى أول اجتماع رسمى لهم قد طرح سؤالا يقول : علينا مسؤولية كبيرة فى إدارة شئون البلاد ومصالح العباد ولهذا فإننا يجب أن نحدد أولويات العمل للحكومة بحيث تكون بينة واضحة كفلسفة أى طريق سير ، وإذ طردنا الملك فإن المسؤولية الآن على أكتافنا بشكل جديد واتجاه جديد ، وهناك كثير من القوى المتربصة بنا المعادية وقوى أخرى تنتظر منا ما يمكن أن نقدمه لها وفى هذا الأمر شيئان ، إما أن ننجح فى تحييد القوى المعارضة أو المضادة ثم بعد قليل نقدم للقوى المنتظرة ما يطمئنها على مستقبلها بحيث ترى فى التغيير خيرا ، كما أننا رفعنا شعارات ولهذا فإن عملنا يجب أن يتكافأ مع مضمونها .

بدأت المناقشات وكان هناك من يرى أن لا حل مع الأعداء إلا السجون أو المشانق ... إلخ وإذ اختلفت وتعارضت وتعددت الآراء قال عبدالناصر : فيه ناس بتقول نعمل زى غيرنا ما عمل ، نمسك الإقطاعيين ونذبحهم ، ونمسك الرأسماليين والرجعيين ونذبحهم ، وبهذا نخلص منهم ومن شرهم ..

وأنا أسأل ، هل هذا صحيح ؟ أقول أبدًا ، ده موش طريقنا ، وده موش سبيلنا إحنا ثورتنا بيضاء ولا يمكن أن نلوثها ، وهذا الباب إذا فتح فلن يقفل أبدا (٦٣) وليحدد الاتجاه منذ البداية قال : الثائر ينحاز للفقراء والكادحين ، والحاكم ينحاز دائما للأغنياء ، وكان ما حدث فى ٢٣ يوليو هو ثورة ، والثورة إذا لم تغيَر وجه المجتمع (لصالح الشعب) وإذا لم تقتلع الفساد وتعيد الحق إلى أهله صارت انقلابا واستبدالا لحاكم بحاكم ، والثورة إذا انحازت إلى جانب الأغنياء والجشعين صارت انقلابا وحكما وتجارة بمقدرات الناس ، والثورة لا تطلب من

---

(٦٢) نفس المصدر .

(٦٣) ثورة عبد الناصر - شوقى عبد الناصر - ص ٤٣٥ .

أجل أن تعيد الحق لأهله ، ولكن لكى تعيد الحق كان عليها أن تأخذ وتعطى ، كان واجبها الثورى أن تعيد لمصر حقوقها المنهوبة ، وأن تعيد للعامل والفلاح حقه المسلوب ، وأن تعيد للشعب كل الشعب شرفه وكرامته ..

وهل من الممكن أن تقول الثورة للإنجليز والنبى علشان خاطرنا اخرجوا من مصر؟ ،

وهل من الممكن أن تقول الثورة للاحتكاريين والمغامرين واللصوص والنبى ادونا البنوك والشركات والمصانع المنهوبة لتعود للشعب ، كل الشعب ؟،

وهل من الممكن للثورة أن تقول لأصحاب قناة السويس المزعومين والنبى الشركه دى بتاعتنا وابتاعت أجدادنا ونحن ورثتهم فأعطوها لنا ؟

وهل من الممكن للصوص أن يعيدوا ما سرقوه طوعا ؟

وهل من الممكن والعقل والمنطق أن يطيع هؤلاء ويقدموا ما يطلب منهم على طبق من فضة ؟

ولقد حدد عبدالناصر منذ البداية ما يتسق مع القيم التى يؤمن بها وعرضها على المجتمعين ليناقشوها وربما يلتزموا بها اقتناعا ، وكان من عادته ألا يطرح شيئا لم يكن قد فكر فيه مليا وبالتالى لا يتزحزح عنه مهما تعددت الاجتهادات أو حتى الخلافات (ويذكر القارئ الكريم كيف كان موقفه قبل إخراج الملك فاروق ومباشرة بعد نجاح الثورة حيث كان هناك من بين أعضاء القيادة من طالب بمحاكمة الملك وإعدامه وعلى الرغم من أن الاقتراح وجد التأييد من بقية الأعضاء فإن جمال عبدالناصر كان قد جمع أوراقه وخرج قائلا : لا يمكن أن أوافق على الدم وإذا بدأتهم به لن يتوقف ، وبسبب موقفه هذا بقيت الثورة بيضاء) وفى هذا عندما عرض أفكاره كانت محددة كما يلى :

١- الاستقلال ورفض التبعية ، ولكنهما فى الوقت نفسه لا يشكلان هدفا أو غاية فى حد ذاتهما بقدر ما يعتبر وسيلة للتنمية الاجتماعية والرفاهية للشعب .

٢- الانحياز الكامل إلى جانب الفقراء وللأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع دون أن يعنى ذلك عداء شخصيا لأى من الأفراد أو الطبقات داخل المجتمع .

٣- الواقعية والتفكير العملى فى تناول كل المسائل والمشكلات الصعبة دون سعى للاصطدام بأى من القوى الداخلية أو الخارجية فى هذا الوقت وإنما التصميم على تحقيق أقصى استفادة ممكنة من كل القوى لصالح أهداف الثورة وللنهوض بالمجتمع المصرى دون أن نتنازل عن مبادئنا فى الاستقلال والكرامة الوطنية والقومية .

٤- لا تكون السلطة أبدا وفى أى وقت وسيلة لكسب الامتيازات أو التحكم فى رقاب البشر ، بل لابد أن تكون للخدمة الوطنية والتضحية وبذل كل ما يمكن من جهد وعرق فى سبيل رفاهية المجتمع لأنه لابد أن يكون هناك يوما للحساب ، ولا يستحق الحق إلا صاحب الحق ، وصاحب الحق هنا هو الشعب الذى وقع عليه الكثير من الضيم والظلم ...

ويحدد الأستاذ سامى شرف فى كتابه أيام وسنوات مع عبدالناصر طريقة تفكير جمال عبدالناصر وأسلوبه فى اختيار الأشخاص الذين يمكن أن يلعبوا أدوارا فى تحقيق المهمات الكبيرة والخطيرة طبقا لمنهجه فى العمل ، يقول : حددت فلسفة عبدالناصر وتكوينه الاجتماعى والفكرى نوعية القرارات التى يمكن أن تتخذ فى إطار مبادئ الثورة ، وتحدد طبيعة المهمة ، ولقد كان أبرز ما يميز عبدالناصر فى صنع القرارات هو تحديد الهدف بوضوح لكل مرحلة وبالتالى اختيار العناصر الملائمة للمرحلة والقادرة على تنفيذ الهدف ، ولقد تدرجت هذه العملية على مدى تاريخ الثورة كله ، ويخبرنا الأستاذ سامى شرف عن كيفية اختيار عبدالناصر لرجاله منذ البداية، فيقول : كانت المناسبة الأولى فى حوار أجراه مندوب جريدة (سكوتسمان) البريطانية فى بداية الثورة مع عبدالناصر، وقد وجه المراسل إليه سؤالا نصه : كيف وأنت بهذه التركيبة المتناقضة الغريبة حققت هذا النجاح يوم ٢٣ يوليو، وأنت تعلم وأنت رجل مثالى وقائد للثورة أنه لا أحد يستطيع أن يقول فيك شئ ، إنك لم تقم بالثورة مستعينا بعناصر ... ولم يشأ المراسل أن يكمل السؤال ، وفهم عبدالناصر ما يريد أن يقوله ،فأجابه بقوله : أولا: لكى تحدث تغييرا يجب أن تستخدم أشخاصا يتسمون بالرغبة والجرأة فى المغامرة وليس كل إنسان ذو قيّم قادر على المغامرة ، أحيانا الإنسان ذو القيم والأخلاق عندما يجد رقبته تحت حد السيف غالبا ما يفكر أو يراجع نفسه ، وليس معنى ذلك أن أستبعده أو أصفه بالجبن أو الخيانة ، فأنت أولا وأخيرا تتعامل مع بشر من لحم

ودم وليسوا من حديد أو جماد ، هؤلاء البشر يملكون العقل ومنهم من يحسن رصد خطواته أو يتردد ، ومنهم من يلعب الكوتشينه وآخرون لا يقاربون منها ،تلك هى طبيعة البشر ، فيها السلبى وفيها الإيجابى ، ولكن لكى تحدث تغييرا بهذا الحجم ، وإذا كان هذا التغيير مسلحا فأنت تحتاج بالدرجة الأولى إلى تشكيل جبهة سياسية تتجمع فى داخلها كل هذه العناصر وهذه النوعيات .. وثانيا : أنت فى حاجة لكى تجمع كل هذه العناصر التى تؤمن أو توافق على التغيير ، عليك أن تبذل جهدا لاستقطابها إلى صفك رغم ما قد يكون بينها من تناقضات حتى تضمن النجاح للجبهة كلها، ولعلمك فقد كانت توجد داخل هذه الجبهة عناصر مدنية مثل أحمد فؤاد الذى كان يعمل قاضيا وحامد مطيع الذى كان يعمل مهندسا فى السكك الحديدية وكلاهما كانت له صلات مباشرة بالضباط الأحرار، وثالثا : لابد أن تأخذ فى الاعتبار أن التغيير المنشود قد يحتمل النجاح وقد يحتمل الفشل ، فإذا فشلت العملية فلماذا تعرّض عددا أكبر للخطر ، يكون علىّ فى هذه الحالة أن أترك بعض العناصر الصالحة للمستقبل عسى أن يتمكنوا من استكمال المسيرة فى المستقبل إذا ما تعثرت ، ولعلمك فإن عددا ليس قليلا من رجال الصف الثانى كانوا فى خاطرى ولم أشركهم فى التنفيذ يوم الثورة حفاظا على المسيرة ، ولكننى لم أتردد فى إبرازهم والاستفادة من قدراتهم بعد نجاح الثورة .. انتهى (٦٤).

وتذكر كل الأحاديث التى سمعتها من رفاق جمال عبدالناصر إنه لا يعتمد على التقارير ولا على تزكية شخص لآخر أو توصية على فرد ما ، وإنما كان يتصل بنفسه ببعض الذين يكتبون رسائل أو يبعثون برقيات فيها نقد لأوجه العمل فى هذا المرفق أو ذاك ، وفى هذا الشأن يتحدث الأستاذ ضياء الدين بيبرس فى كتابه (الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر) عن قصص رواها له (محمود الجيار) الذى كان هو الآخر قريبا من عبدالناصر فيقول : وصلت برقية إلى رئاسة الجمهورية يقول فيها مرسلها : ولدكم أحمد يا سيادة الرئيس ينتظر تحديد موعد لمقابلتكم ، وكانت البرقية بتوقيع (دكتور فلان) وكان اسما معروفا فى الحقل الذى تخصص فيه ، ولكن لا يمكن إعلانه الآن طبعا دون موافقته .. وقابله الرئيس

(٦٤) أيام وسنوات مع عبد الناصر - سامى شرف - ص ٤٦ .

عبدالناصر فعلا وناقشه فى اعتراضاته على سياسة الدكتور القيسونى المالية ، وطلب منه أن يواجهه بتلك الاعتراضات ، ثم طلب منه أن يكتب له عدة تقارير مفصلة حول وجهة نظره .. وبعد قليل اختاره وزيرا ، وكانت أعجب طريقة تم بها اختيار وزير ، ولكن هذه القصة غير العادية لم تكن بيضة الديك فى أسلوب عبدالناصر فى اكتشاف الرجال والتعرف عليهم ، وأذكر أنه فى السنة التالية للثورة أعجب وهو يزور مجلس الإنتاج القومى بمهندس شاب كان فى درجة وظيفية صغيرة، وكان سبب الإعجاب أن المهندس الشاب شرح بطريقة موضوعية متّزنة حافلة بالثقة بالنفس أمام رئيس الجمهورية الجديد بعض جوانب عمل مجلس الإنتاج ثم جرؤ على أن يخالفه علنا فى آرائه أمام جمهور المرافقين ، وكانوا من رجال الثورة .

وفى الأسبوع الثانى لهذا اللقاء عين الرئيس هذا المهندس الصغير وزيرا للصناعة ،وكان عبدالناصر أحيانا يعين هذا الوزير أو ذاك إذا استرعى انتباهه وإنما لكى يريه أن القول غير العمل ، وأن الانتقاد غير الممارسة وأن الذى يده فى الماء ليس كالذى يده فى النار ، وبعد أن يتضح للوزير الجديد أن شقشقة اللسان شئ غير مكابدة المسؤولية كان يسرحه بالمعروف فى أول تعديل وزارى .. وما أكثر ما كان يطيش لب الوزير المعفى بعد أن كان يظن أنه مخلّد فى الحكم ، فسرعان ما كان يمطر عبدالناصر بخطابات من نوع ، والله يعلم يا سيادة الرئيس أننى أريد أن أدخل الوزارة لا للوزارة ذاتها ولكن لأكون إلى جانبك !! إلى هذا الحد كان عبدالناصر يهتم ببريده وخاصة الجزء الحافل بالانتقاد أو التهجم أو الاستفزاز ، وكان يشدد على مساعديه بأن لا يخفوا شيئا عنه فى أى رسالة أو برقية أو ما شابه وإلى حد أنه كان عن طريق البريد والنقد يختار أحد وزرائه ، وقد كان من مظاهر اهتمام الرئيس ببريده إنه كان يقارن بين ما يحتويه وبين ما تنقله إليه أجهزة الأمن ، انتهى [٦٥].

٣- طريقة عمله ،،،

وكان يوم عمل جمال عبدالناصر هكذا ، كان يستيقظ الساعة السادسة صباحا للاستماع للإذاعات حتى السابعة والنصف أو الثامنة يستمع لنشرات

(٦٥) الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر - بيبرس .

الأخبار والتعليقات والبرامج السياسية الصباحية ، ثم يتناول إفطارا بسيطا ، قطعة من الجبن الأبيض وشرائح خيار أو طماطم وخبز بلدى وفنجان من الشاى، ثم يبدأ فى قراءة الصحف المحلية والعالمية وغالبا ما يعطى توجيهات إما تليفونيا أو مكتوبة بخط يده عن أهم الأنباء التى تبرز فى الإذاعة أو تعليقات يخطها أو يحدد خطوطها العريضة ، ويتصل بالمسؤولين المعنيين تليفونيا للاستفسار أو المشورة أو لإعطاء توجيهات ، ثم يقرأ التقارير اليومية ويضع ملاحظاته وتأشيراته عليها أو لا يكتب عليها شيئا أو يطلب مزيدا من البحث حول الموضوع أو جزئية منه ..

ولقد كانت دائما أكلته المفضلة الجبنة البيضاء التى كان لا يوجد عنده طعام ألذ منها فى الدنيا وبخاصة إذاكانت مغمّسة بالخبز الناشف ، وعند عودته ذات مرة من العلاج فى يوليو ١٩٦٩م من (تسخالطوبو) بالاتحاد السوفييتى ألزمه الأطباء بالتقليل من كميات الجبنة البيضاء وقد آلمه ذلك لأنها من أهم أكلاته [٦٦].

٥- تعامله مع عائلته وأسرته ،،

المصلحون والأطهار يذكرهم التاريخ بأعمالهم المجيدة وبحروف من ذهب مهما تنكّر لهم الحاقدون ، وتآمر عليهم المتآمرون ، وهم عادة ما يواجهون الصعاب أو الرفض أو المعارضة الشديدة فى مجتمعاتهم، وأحيانا القتل بخنجر أو بسم ، فعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وهو الذى كان مثل جده عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عادلا منصفا تقيا ورعا وضع له ذووه سما فقتلوه حين قطع ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة ، كلّموه فى ذلك فقال : لا يتسع مالى لكم ، وأما هذا المال إنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى البلاد ، وذكر الأوزاعى ، أن عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، كان جالسا فى بيته وعنده أشراف بنى أمية فقال : أتحبون أن أولىّ كل رجل منكم جندا ؟ فقال رجل منهم : لم تعرض علينا ما لا تفعله ؟ قال : ترون بساطى هذا؟ إنى لأعلم أنه يصير إلى بلى وفنى وإنى أكره أن تدنسوه بأرجلكم ،

(٦٦) نفس المصدر .

فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم ؟ هيهات لكم هيهات ! فقالوا له : لم ؟ أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الأمر إلا سواء ، إلا رجلا من المسلمين حبسه عنى طول شقته.. (٦٧).

وقال حسن القصاب : رأيت الذئاب ترعى مع الغنم بالبادية فى خلافة عمر بن عبدالعزيز ، فقلت ، سبحان الله ذئب فى غنم لا يضرها ؟ فقال الراعى ، إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس (٦٨).

نعم والله .. إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ، هذا يصدق تماما على جمال عبدالناصر مع عدم المقارنة بين الخلفاء وغيرهم ولكن العدل هو العدل وطهارة السيرة ونظافة اليد والقناعة صفات لا تتوفر لكل الناس ، لكل حاكم أو أمير ، وهذه أمثلة عن إنصاف عبدالناصر والمساواة بين الناس :

١- كان جمال عبدالناصر يكن احتراما شديدا لوالده ولا يرد له طلبا (وهذا شئ طبيعى طبقا لديننا الإسلامى - وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ..) بشرط ألا يكون متجاوزا الحق والعدل وألا يطلب استثناء ، وهو ما حرص الوالد عليه بعد أن عرف الأمر ، المرة الوحيدة التى عارض فيها جمال والده كانت عندما أحيل الحاج عبدالناصر حسين إلى المعاش ، عرض عليه المرحوم عبداللطيف أبورجيله المليونير المصرى المعروف ، أن يعينه عضوا فى أحد مجالس إدارة شركاته بمرتب كبير ، وعندما تحدث الحاج عبدالناصر حسين مع الرئيس جمال عبدالناصر حول هذا الموضوع ، رفضه الرئيس بلا مناقشة ، وقال لوالده: (يا والدى دول عايزينك فى مجلس إدارة ، طيب أفهم إزاى ده يتم وأنت موش خبير فى النقل والمواصلات .. دول عاوزين يشترونى من خلالك .. وكان الحاج عبدالناصر حسين يستخدم المواصلات العادية فى جميع تنقلاته وقد حاول أكثر من مرة أن يشترى سيارة بواسطة جمال عبدالناصر ، وكان رد الرئيس دائما ، لما ينصلح حالنا وحال البلد نبقى نتكلم فى هذا الموضوع ،

(٦٧) ولد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بأرض الكنانة مصر بمنطقة حلوان وتوفى بحمص فى سوريا وكان عمره تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر .

(٦٨) كتاب تاريخ الخلفاء - الإمام الحافظ جلال الدين - ص ٢٣٣ .

وفى سنة ١٩٥٨م اشترى له الرئيس جمال عبدالناصر سيارة (نصر ١٣٠٠) [٦٩] وبالتقسيط دفع جمال عبدالناصر (الأقساط) وكان يقول للوالد الحاج عبدالناصر حسين ولإخوته حول الزواج والمصاهرة العبارات التالية :

٢- أنا ماعنديش مانع تناسبوا أى شخص بس بشرط مايكونش إقطاعى ولا عليه الحراسة ولا اسم من الأسماء الرنانة ، دى محظورات ثلاثة تفهموها كويس .

٣- وحدث أن مصطفى حسين أخو الرئيس جمال عبدالناصر حصل على الثانوية العامة وأراد أن يلتحق بالكلية الحربية ، وتصادف أن شرط السن كان لا ينطبق عليه لزيادة عمرة بأيام عن المطلوب ، رفض جمال عبدالناصر استثناءه من اللوائح والشروط مما اضطر معه أن يلتحق بكلية الشرطة وتشاء الأقدار أن يرسب فى امتحان كلية الشرطة فى نهاية العام الدراسى وهو أخ لجمال عبدالناصر .

٤- ومع شقيقه الليثى عبدالناصر ، وهذا كان قد حاول أن يدخل فى أعمال المقاولات ، فقال له جمال عبدالناصر ، أنا ما عنديش مانع إن مستواكم المادى ينمو ويتحسن بس مع نمو المستوى الإقتصادى للبلد كلها وبشرط أن تعتمدوا على أنفسكم ، يعنى الناس كلها مستواها ينمو علشان أنتم موش مميزين عن بقية الناس ، وبصراحة شديدة لوحد فيكم فكر أنه يستغل اسمى أناموش حارحمه ..

٥- ويذكر السيد إبراهيم علوان فى كتابه (مراحل مجهولة من حياة الرئيس) قائلا: .. تحدث الرئيس مع مصطفى أمين صاحب جريدة الأخبار اليومية ، وسأله : ألا ترى الصفحة الأخيرة يا أستاذ ؟ وأجابه مصطفى أمين : نعم ، هل تقصد صورة والدك ؟ ما هو الخطأ فى ذلك ؟ فأجابه جمال عبدالناصر ببطء وتصميم : إننى لا أحب أن تنتشر أخبار أبى بين الناس ، إننى أخاف أن يركب ذلك رأسه ، إننى أريد أن يعيش أبى وأخوتى مثل الناس العاديين ولا أريد أن يفسدهم منصبى .

---

(٦٩) هذا النوع من السيارات كانت تصنعه مصر وهو إيطالى نوع فيات الصغيرة .

٦- وحدث أن امرأة فرنسية غنية فى الإسكندرية كانت فى ورطة لأنها نقضت قواعد أحد مكاتب الحكومة وطلبت من خال جمال عبدالناصر أن يتوسّط لها، وعندما فعل ذلك اتصل رئيس هذا المكتب الحكومى بعبدالناصر يطلب تعليماته ، وأصبح عبدالناصر أمام قرار صعب، لقد كانت مشاعره بالنسبة لأمه لازالت قوية وهذا هو أخوها ، ولكنه أصدر أوامره بإلقاء القبض على خاله وإيداعه السجن .

٧- ولقد كان جمال عبدالناصر يهتم كثيرا بالفقراء والمغلوبين وينحاز إليهم كثيرا دون ظلم إلا لمن يظلم ، يقول الأستاذ هيكل : وأتذكر مرة كنت فيها معه فى سيارة يقودها على طريق ، (برج العرب) فى الصحراء الغربية ، وتوقف عند جماعة من عمال التراحيل يعملون فى إصلاح جانب من الطريق ، ونزل إليهم ووقف وسطهم ، وراح يتحدث معهم ، وحين عدنا إلى السيارة وأدار مفتاحها وانطلق بها على الطريق وجدته يهز رأسه ويقول : مثل هؤلاء هم الأغلبية فى مصر ، وهم التحدى الحقيقى فى مصر ، لا تتصور أن مشكلة مصر هناك فى واجهة القاهرة الحديثة ، كل ما هنالك فى هذه الواجهة قشرة ، ثم استطرد الكارثة إن هؤلاء الذين نريد أن نعمل من أجلهم لا يصل إليهم صوتنا ، كيف الوصول إلى هؤلاء وتحريكهم ؟ لا أعرف .. وطال صمته بعدها .. انتهى .

لقد كان جمال عبدالناصر يحمل فى قلبه هموم هؤلاء الفقراء والمغلوبين، كان يحس بآلامهم ومعاناتهم من الفقر والضيم والظلم ، لقد أدرك مبكرا أسباب تلك المعاناة ، وعرف كم يشقى هؤلاء المساكين ، ولقد اختزن فى ذاكرته كل ذلك الذى رآه وأحس به ، فقد خالط العمال والفلاحين منذ صغره بل هو واجه أنواعا من هذا الحال ، كل شئ بالواسطة ربما حتى الهواء (أستغفر الله) فكيف له أن يسكت عن الضيم والظلم وقد صار وليا لأمر هؤلاء الناس ، وكان يحس بعدم رضاهم ولكن ماذا عساهم أن يفعلوا والكرباج يحرق ظهورهم إذا ما تأخروا أو توانوا أو أظهروا حتى مجرد الأنين !!

لابد أن عبدالناصر قد عاهد نفسه منذ فجر يوم ٢٣ يوليو أن ينصف هؤلاء المساكين ، أن يحررهم من الخوف ، وأن يتيح لهم فرص العيش الكريم، وبذلك الموقف إزاء الشاب الذى لم يقبل فى كلية الشرطة أكد عبدالناصر أن بهارج السلطة

فى مصر لم تبعده عن إحساس الغلابة ، وكان يصيغ السمع لأنّات الفقراء ويحاول بث الأمل فى نفوسهم ذلك أن أضواء الحكم لم تخفى عنه ما يعانيه شعبه ، ولا أفسدته السلطة (كما يحدث عادة فى دنيا العرب) ولابد أنه بتلك المواقف والاهتمامات استطاع أن يصل إلى أغلب فقراء مصر وأن يضمد جراحهم ويواسيهم فى آلامهم ، وغالبا ما كان يتولى بنفسه حل مشاكلهم ، لقد كان نصيرا للفقراء والمظلومين ، وكان دائما يقول إن هؤلاء هم شعب مصر ، وأن الثورة ما لم تصل إلى هؤلاء فهى لم تفعل شيئا ، ولابد أن كل هذه الأحاسيس جعلته يولى مشاكل الناس اهتمامه كأن يسأل عن ثمن الملابس المصنوعة محليا ، وعن رغيف العيش ، وكراسات المدارس ... إلخ .



الرئيس جمال عبدالناصر مع أبنائه الثلاثة ، خالد وعبدالحميد وعبدالحكيم



جمـــال مع والده عبدالناصر حسين في الإسكندرية

❁ ❁ ❁

الفصل السادس

١- شهامته ووفاؤه ، أخلاقيا وأدبيا .

٢- رأيه في التغيير ، وكيف يتم ؟

٣- رأيه في الأحزاب ، وكيفية التعامل ؟

٤- رأيه في حرية الشعب ، كيف ؟

٥- رأيه في الدين والواجب .

الفصل السادس

١- شهامته ووفاؤه ، أخلاقيا وأدبيا .

٢- رأيه في التغيير ، وكيف يتم ؟

٣- رأيه في الأحزاب ، وكيفية التعامل ؟

٤- رأيه في حرية الشعب ، كيف ؟

٥- رأيه في الدين والواجب .

١- يقولون (وهذا في الغالب صحيح) الطبع يغلب التطبّع ، والواجب قبل المصلحة ، والعدل أساس الحكم ، وفي أمثالنا الشعبية نقول (من شبّ على شئ شاب عليه) ولقد تميّز عبدالناصر بالصدق والوفاء بحيث لا يتخلى عن رجاله مهما كانت المخاطر والصعاب، وإذا كان في السياسة ونظم الحكم ما يمكن أن يسمى مصداقية في الممارسة فإن عبدالناصر يكون في طليعة رجال الحكم والسياسة والفكر،وكدليل على ما نقول يظهرأمامنا مثالان وهما : الموقف من صلاح سالم أثناء حرب السويس أو العدوان الثلاثي ، وثانيهما ، الموقف من عبدالحميد السراج بعد جريمة فصل سوريا عن مصر ، والموقفان بفاصيلهما ، وفي الحالتين كان موقف عبدالناصر أخلاقيا وأدبيا وإنسانيا ، كما يلي :

أولهما : المعروف عن الأخوين (صلاح سالم وجمال سالم) أن طباعهما حادة جدّا ومواقفهما متطرفة كثيرا ، ظهر موقف جمال سالم المتشدد أو قل المتطرف في محاكمات الثورة ، وظهر موقف صلاح سالم قبيل حدوث العدوان الثلاثي على مصر وعندما وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا لمصر ، فقد تحدث صلاح سالم عند ذاك قائلا ، يا جمال نحن لم نقم بالثورة لكي نعرّض البلاد للخراب ، أن وطنيتنا كمجلس ثورة تحتم علينا أن نترك الحكم ، ونسلّم أنفسنا للسفير البريطاني، وبذلك ننقذ مصر من الخراب ، لكن عبدالناصر اعتبر ذلك خيانة وجبن فلا يجوز لمن قام بالثورة أن يستسلم أمام أول خطر ، لكن صلاح سالم تفوّه

بعبارات شديدة في وجه عبدالناصر وقال له أنه سيكون السبب في دمار مصر ، ومعلوم أن جمال عبدالناصر قرر تحدى بريطانيا وفرنسا وذهب إلى الأزهر الشريف ليعلن (حانحارب) وقد حارب الشعب المصرى ووقف وراء عبدالناصر ورغم ما قالته الألسن افتراء فإن عبدالناصر قد انتصر بشعبه ضد العدوان الثلاثى (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) وكان على صلاح سالم أن ينزوى نتيجة لموقفه وخلافه الحاد مع عبدالناصر مما أتاح للمرتجفين كثير من فرص التهجم ، وحدث أن صلاح سالم أصيب بمرض شديد أقعده فى المستشفى فكان عبدالناصر يزوره مواسيا ومشجعا ، ثم عندما توفاه الله كان عبدالناصر فى مقدمة المعزّين والسائرين مع جثمان الشهيد يوم ١٩ فبراير ١٩٦٢م .

وثانيهما : كما قلنا الموقف من عبدالحميد السرّاج ، فقد حدث أن قام مجموعة من ضباط الجيش السورى مدعومين من جهات أجنبية وعددا من المرتزقة المحليين مثل (الكوزبرى وغيره) قاموا بانقلاب على الوحدة بين مصر وسوريا ، وكان عبدالحميد السراج قد اعتقل ووضع فى سجن (المزّة) سئ السمعة ، وصاروا يهاجمون عهد عبدالناصر ومصر ، ولأن عبدالناصر لا يؤمن بالدم ولا بوحدة تقوم على جماجم الناس فقد أعلن قائلا (أعان الله سوريا على أمرها) لكنه فى نفس الوقت قرر ألا يتخلى عن رجاله الذين كانوا عمادا للوحدة وعونا له فى البلاد التى عرفت أثناء الوحدة باسم (الإقليم الشمالى _ سوريا) وأول أولئك الرجال الذين يجب الدفاع عنهم بكل الوسائل كان عبدالحميد السراج ، وهذه قصة إخراجه من ذلك السجن الرهيب ، (سجن المزّه) كما رواها أحد أبطالها الذين كلفهم عبدالناصر بإنقاذ السرّاج مهما كانت المخاطر ، يقول الأستاذ سامى شرف ما يلى :

(كانت قد وصلت معلومات مؤكدة للرئيس جمال عبدالناصر تفيد أن عبدالحميد السراج يتعرض فى سجن المزّه بدمشق لأبشع أنواع التعذيب وأن السيدة حرمه تكاد تفقد بصرها أو هى فقدته ، ووفاء من جمال عبدالناصر لمن عمل معه ، ومهما كانت الظروف ، فقد طلب الرئيس إعداد مشروع خطة لتهريب عبدالحميد السراج من سجنه إلى القاهرة ، وخلال أربعة أيام كانت الخطة جاهزة ، وكان قد تم الاتصال ببعض الأصدقاء فى بيروت ودمشق وعمان ، للإعداد

ولبحث إمكانيـة التنفيذ بنـجاح، كانت أمام الرئـيس خطتان تبادليـتان ، أطلق على الأولى (العمليـة جمال) وعلى الثانية (عمليه س ش) وقد روعى فى العملية (جمال) البساطة وعدم التعقيد وتقليل عدد الأشخاص بقدر الإمكان وكانت تقوم على أربعة محاور :

١ – معرفـة الوضع تفصيـلا داخل السجن وترشيح عنصر أو عناصـر يمكن الاتصال بهم من داخل السجن ، وذلك عن طريق الاتصال بالسيد عبدالحميد السراج .

٢ – تأمين وجود السراج فى لبنان .

٣ – دراسة خطوط السير من خارج السجن حتى الحدود اللبنانية .

٤ – التوجه إلى القاهرة بالطائرة أو بحرا إلى الإسكندرية أو بور سعيد .

أما العملية الثانية (س ش) فتقوم على :

١ – إقتحام سجن المزّة بعناصر فدائية سورية لاختطاف عبدالحميد السراج.

٢ – الهروب به إما الى الأردن حتى ميناء العقبة فالساحل المصرى ، أو إلى لبنان ومنها جوا إلى القاهرة أو بحرا إلى الإسكندرية أو بورسعيد .

وتمت دراسة تفصيلية للعمليتين بما فيها استطلاع خط السير على الأرض فى سوريا ولبنان والأردن، وتم الاتفاق مع أحد المساعدين الذين كانوا يتولّون حراسة عـبدالحـميد السـراج فى السـجن، وكذلك تم الاتـصال وترتيب طاقـم للحمـاية وترتيب وسائل الأنتقال فى دمشق ولبنان والأردن .

ولقـد اسـتقـر الرأى على أن تنفـذ الخطة الأولى (جـمـال) بدأ جس نبض السلطات العليا فى لبنان ممثلة فى اللواء فؤاد شهاب ، وكان الرجل إيجابيا ، ولكنه طلب فـقط البعـد عن توريط السلطات اللبنانية فـى نتائج قـد تضر بأمن وسـلامة لبنان، وقد قـمت بزيارة خاصة إلى لبنـان لمقابلة الرئيس شهـاب ، وللإشراف على تنفيذ الخطة ، وحملت رسالة من الرئيس جمال عبدالناصر للرئيس شهاب تقول : إن كل حـبة رمل فى أرض لبنان الشـقيق رمـال مـصرية نحـافظ عليهـا بأرواحنا ، وكانت هذه الرسـالة كافـية لإعطائنا الضوء الأخـضر للعـمل من خلال الأراضى اللبنانية الذى رؤى أنه الأفضل ، لأن العمل من خلال الأراضى الأردنية كان سيتم

بدون علم السلطات نظرا لطبيعة العلاقات غير المستقرة بين مصر والأردن فى ذلك الوقت ، ولتفادى مجازر لا داعى لها، ومن ناحية أخرى حماية لعناصر قومية شريفة كانت ستتولى تأمين المسيرة وتوفير وسائل الانتقال على مسؤوليتهم الخاصة وقد يكون فى ذلك مخاطرة بالنسبة لهم .

وفى الخطة أدخل جمال عبدالناصر عددا من التعديلات وبالتالى كانت كما يلى :

١- الاتصال بالمساعد منصور رواشده (حارس السراج فى السجن) شخصيا لتأمين بدء العملية وضمان قيامه بالمساعدة الإيجابية الفعالة فى تهريب السراج من باب السجن حتى مشارف دمشق .

٢- إعادة دراسة طبيعة الأرض وخطوط الاقتراب من دمشق حتى الحدود اللبنانية السورية بما فى ذلك كل الطرق والوسائل التبادلية فى النقل من الخيل والجمال والموتوسيكلات والسيارات وأدلة السير ، مع تفادى نقاط التفتيش بما فيها اللبنانية منعا للحرج .

٣- استخدام الرسائل فى نقل التعليمات أو أية تعديلات بدلا من استخدام اللاسلكى أو الشفرة والتى قد تتعرض للكسر .

٤- ترتيب تواجد غواصة مصرية أمام سواحل بيروت فى اتجاه مبنى السفارة المصرية .

٥- يتولى قيادة الطائرة المصرية التى ستصل بيروت لنقل السراج إلى القاهرة الكابتن عبدالرحمن عليش رحمه الله .

٦- مجموعة العمل تتكون من سامى شرف ، منير حافظ ، محمد نسيم ، محمد المصرى ، على أن يبقى منير حافظ فى القاهرة ويتواجد الثلاثة الآخرون فى بيروت ، ويترك لسامى شرف حرية الاتصال بالسلطات اللبنانية حسب تقديره للموقف .

كانت الاتصالات مع منصور رواشده مستمرة ومؤمنة بمعرفة الزعيم اللبنانى الكبير كمال جنبلاط واللواء شوكت شقير ، وعندما اكتملت الصورة وتأكدنا من نجاح التنفيذ كان أحد المندوبين قد وصل إلى دمشق ، واتفق مع منصور على التنفيذ فى اليوم والساعة ، وكان هو الذى سيتولى فى نفس الوقت تأمين خروج

السراج من دمشق حتى الحدود اللبنانية ، وكان لديه تلقين كامل عن الطرق والطرق التبادلية التى سيسلكها ، وقد نصح بأن يتبع أصعب الطرق وأبعدها عن التصديق أن يسلكها إنسان أو دابة ، وفعلا فقد استخدمت البغال والخيل والجمال فى رحلة الهرب رغم أن ذلك سيطيل مدة التعرض وبالتالى ستطول مدة انتظارنا وأيضا تلف أعصابنا ، وكان مقدرا أن العملية ستستغرق بين ٢٦ و٣٢ ساعة أو أكثر قليلا لو كانت هناك عوائق ، وانتقل محمد نسيم ومحمد المصرى ومن معهما من رجال الزعيم كمال جنبلاط إلى نقاط معينة على الحدود السورية اللبنانية ، وكنت أنا فى بيروت بالاتفاق والتنسيق مع الرجل الشريف (سامى الخطيب) وزير داخلية لبنان الحالى بتعليمات من الرئيس فؤاد شهاب فى انتظار وصول السراج إلى مشارف بيروت فى نقطة متفق عليها من قبل .

كان الاتفاق مع سفيرنا فى لبنان عبدالحميد غالب وأعضاء السفارة أن يكونوا جميعا طبيعيين فى تصرفاتهم وتحركاتهم ، ولا يبدو وكأن هناك شيئا غير عادي يتصل بهم ، حتى لا نلفت الأنظار أكثر مما هى عليه بالنسبة لسفارتنا التى كانت محط أنظار كافة القوى فى ذلك الوقت ، المهم وصل عبدالحميد السراج ومعه حارسه فى السجن (منصور رواشده) وكان فى استقبالهما الزعيم كمال جنبلاط الذى اصطحبهما فى سيارته الكاديلاك السوداء الخاصة إلى منزل محمد نسيم فى بيروت ، كان من ضمن الترتيبات استخدام شقق آمنة كمواقع تبادلية لإقامة السراج فيها ، ولكن بناء على اقتراح الأخ محمد نسيم اتفق على أن يقيم السراج فى منزله إمعانا فى التصرف الطبيعى الذى لا يلفت الأنظار ، وبمجرد وصول السراج لمنزل محمد نسيم تمت عملية تغيير ملامحه بشعر مستعار وشوارب .

وقد قمت بعد ذلك بزيارة الرئيس فؤاد شهاب وبصحبة السفير عبدالحميد غالب حيث أبلغته بوصول السراج إلى بيروت وأن المخطط هو سفره إلى القاهرة فى أسرع وقت حتى لا نسبب حرجا للسلطات اللبنانية ، وأطلعناه على مخطط المرحلة التالية ، وقد استجاب الرئيس شهاب وأمر بأن يكون كل من أحمد الحاج مدير مكتبه، وسامى الخطيب تحت تصرفنا وتنفيذ جميع مطالبنا واحتياجاتنا ، التى لم تكن سوى سيارة جيب وملابس عسكرية لبنانية .

قام سامى الخطيب بقيادة السيارة بنفسه فى طريقه إلى مطار بيروت من منافذ خلفية غير مطروقة وكان يجلس بجواره محمد نسيم وفى الخلف جلس السراج

وسامي شرف ومحمد المصري ومنصور رواشده وكلنا مرتدين ملابس عسكرية لبنانية مازلت احتفظ بها للآن ، وكنا نبدو كإحدى دوريات الأمن ، واخترقت سيارتنا سور المطار من ثغرة أعدت على عجل دون أن تبدو ملحوظة، أى أنها كانت مموّهة ، ووصلت السيارة مدرج المكان مباشرة حيث وصلتها فى نفس اللحظة الطائرة المصرية التى تحمل الصحافة المصرية إلى بيروت يوميا وبعد أن أفرغت حمولتها اتجهت الى نهاية المدرج حيث أبلغ قائدها برج المراقبة أن هناك عطلا مفاجئا فى الطائرة وفتح بابها وأسقط سلمها من داخلها ..

تم تنفيذ المتفق عليه تماما بدون معوقات أو مفاجآت ودخلنا الطائرة ، ومن الظريف أننا عندما دخلنا الطائرة وجلسنا فى مقاعدنا تقدم لنا مضيف الطائرة وهو يحمل أكوابًا من العصير ، ، وتساءل سامى شرف ، هل تعرف من كان هذا المضيف ؟ ورد : كان الأخ والزميل عبدالمجيد فريد، وكان الرئيس قد أمره أن يتوجه الى بيروت مع الطائرة عند إقلاعها من مطار القاهرة . ثم يضيف ، أقلعت بنا الطائرة المصرية وعليها عبدالحميد السراج ومنصور رواشده ومحمد المصرى وأنا، ونظرنا إلى بيروت ، ساطعة وهى هادئة تنام ، نظرة كلها حب وتقدير ، وغرق كل منا فى أفكاره وذكريات أيام صعبة عشناها قبل أن تشق بنا الطائرة السماء ، وأضواء النهار تتأهب لتملأ الدنيا ، وصلت الطائرة إلى مطار القاهرة ، كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا ، وكان فى استقبالنا زغلول كامل وكيل المخابرات العامة وبعض أفراد مكتبى ، وتوجهنا إلى أحد قصور الضيافة التابعة لرئاسة الجمهورية فى مصر الجديدة وقمت على الفور بالاتصال بالرئيس جمال عبدالناصر وأبلغته بنجاح المهمة ووصولنا ، طلب الرئيس عبدالناصر أن نتوجه أنا والسيد عبدالحميد السراج إلى منشية البكرى فورا لتناول الإفطار معه ، وفى إعلان الخبر نوقش الموضوع ولكن الرئيس طلب أن يترك له الأمر ، ليعلنه كما يرى ، وفى اليوم التالى نشر خبر صغير من ثلاث سطور فى الصفحة الأولى بجريدة الأهرام عنوانه ، عبدالناصر يستقبل عبدالحميد السراج وتفاصيله بالنص :

(استقبل الرئيس جمال عبدالناصر أمس بمنزله بمنشية البكرى السيد عبدالحميد السراج ..فقط لا غير ..) (٧٠) .

(٧٠) كتاب أيام وسنوات مع جمال عبد الناصر - سامى شرف - ص٢٧٥ - ٢٧٦ .

لقد نقلت تفاصيل إخراج عبدالحميد السراج من سجنه الرهيب فى دمشق بسوريا وكيف أن جمال عبدالناصر سخّر كل إمكانيات وقدرات مصر الفنية والبشرية وعلاقاتها مع الغير من أجل إنقاذ أحد رفاقه الذين عملوا معه بإخلاص من أجل أهدافه القومية ، وهنا يجب التأكيد أنه لولا الثقة فى مواقف وشجاعة وصدق جمال عبدالناصر ما كان لأحد من الرجال الذين قدموا كل تلك المساعدات أن يقدم على أى عمل خطير كهذا وهم كما مر بنا كثر وكبار ، وأذكر بالمناسبة الأستاذ كمال جنبلاط الذى ورد اسمه فى سياق الحديث عن رحلة السراج أنه كان صديق صادق للرئيس جمال عبدالناصر وسندا له فى نضاله القومى العربى ولقد سمعت منه شخصيا قصة علاقته بعبدالناصر ومقدار حبه له عندما كنت ذات يوم أزوره فى بيتة (بعالية) يوم ١٦ مارس ١٩٧٧م ومع الأسف فقد كانت زيارتى تلك الأخيرة له وقبل اغتياله بيومين فقط ، كنت سفيرا لبلادى فى لبنان وبالتالى كانت واحدة من أهم علاقاتى تلك التى حظيت بها مع هذا الرجل الصادق العظيم ، وأذكر أنه فى تلك الزيارة قال لى : إننا سنلتقى فى بيروت بعد غد إذا لم يحدث شيئا ، وسألة : هل تتوقع حدوث شئ كبير ؟ قال حياتى : وسألته مرة أخرى ، كيف وممن ؟ قال من بلد مجاور له مصالح فى تدمير لبنان وقتل زعمائه ، عرفت منه ماذا ومن يقصد ، ولقد أغتيل قبل أن يصل بيروت وفى منتصف الطريق عبر جبل لبنان بين نقطتى تفتيش عسكريتين سوريتين واحده بأعلى الجبل والأخرى بأسفله ، فهل أحتاج إلى مزيد من التوضيح ، ولقد ذكرت ذلك فيما بعد لابنه وليد كمال جنبلاط عندما كنت أرافقه فى زيارة لبلادى (ليبيا)

٢ - رأى عبدالناصر فى التغيير ،،

واحدة من حسنات جمال عبدالناصر (وهى كثيرة) صبره فى التعامل مع الناس ، عاديين أو مسؤولين أفرادا أو جماعات ويشهد بذلك الذين كانوا قريبين منه فى العمل اليومى ، وهدوء أعصابه عند بحث القضايا ذات الأهمية البالغة بما فى ذلك الأمور العسكرية ، ويقول الأستاذ أمين هويدى الذى شغل مناصب وزارية آخرها كان منصب وزير الحربية ومدير المخابرات العامة فى كتابه (مع عبدالناصر) تحت عنوان (كيف يتعامل عبدالناصر مع وزرائه ؟) .

(كان من أهم خصال عبدالناصر قدرته على الاستماع وهى ميزة ثمينة لرجل الحكم ، ورجل الدولة ، كان فى إمكانه أن يستمع لفترات طويلة دون أن يقاطع أو يتدخل فإذا انتهى المتحدث من الإدلاء برأيه تبدأ المناقشة فى أغلب الأحيان بهدوء) .

وفى اتخاذ القرارات سواء بالتعيين أو الفصل أو الإقالة أو شئ من هذا، (يقول سامى شرف : لم يحدث أبدا أن درس جمال عبدالناصر أى موضوع منفصلا عن الوضع العالمى بمعنى أنه كان يقول (السيناريو) ماذا سنفعل ؟ وما الذى يجب اتخاذه وماذا سيكون رد الفعل ؟ وهكذا كان يضع الاحتمالات والافتراضات للأحداث التى يمكن أن تترتب على اتخاذ أى قرار سواء كان القرار مفروضا علينا أو أنه قرار اتخذناه نحن من هنا ، فمثلا عندما درس موضوع تأميم قناة السويس وتمويل السد العالى تفرعت من هذه الدراسة مسائل كثيرة ، أين مواطن القوة المحلية والعربية والدولية بالنسبة لمثل هذا الحدث ؟ موقف الغرب مثلا سيكون كذا ، ويحدث تجزئة الموقف الواحد إلى عدد من الأقسام والمواقف الفرعية ... إلخ ويقول : كان جمال عبدالناصر فى مرحلة ما مصرّا إصرارا كاملا وبعنف (وبنشفية دماغ) سميها زى ما تسميها، لتنفيذ بيان ٣٠ مارس وأحداث التغيير الكامل الشامل لنظام العمل فى مصر وتغيير الأشخاص ، كان يريد التغيير بوجوه شابة ، وكان يعنى فعلا أن جيلا آخر المفروض أن يحمل العلم ويقود المسيرة وهو ترجمة لما ورد فى بيان ٣٠ مارس ..) .

من المعلوم أن هذا حدث بعد جريمة الانفصال السورى عن مصر تلك الجريمة النكراء التى ثبطت العزائم وخلقت شرخا فى العلاقات العربية حتى صار من يفكر فى الوحدة يبرز أمامه مباشرة درس الانفصال ، على أن جمال عبدالناصر لم يفقد الأمل فى أمته العربية ذلك أن الذين تآمروا هم فئة قليلة مأجورة لن تقوى على البقاء والاستمرار رغم نجاحها فى الانقلاب على الوحدة ومما يؤكد عمالة الضباط السوريين الذين تآمروا على الوحدة وفصلوا سوريا عن مصر توافق عملهم التآمرى مع بداية إسرائيل فى تنفيذ مشروعها الخاص بتحويل مياه نهر الأردن إلى صحراء النقب، وكان العرب بمبادرة من عبدالناصر قد بدأوا ينسّقون لمنع إسرائيل من تنفيذ المشروع ولكن عمل هؤلاء النفر من الضباط العملاء قد

خلط الأوراق وأجج الخلافات العربية كما بدد كل جهد عربى وخدم إسرائيل ، ورغم أن الأعمار بيد الله فلابد أن ذلك العمل الإجرامى الذى قام به حفنة من ضباط الجيش السورى قد حدد موعد وفاة جمال عبدالناصر حيث انتقل إلى رحاب خالقه بعد تسع سنوات بالضبط من تاريخ الانفصال أى أن الانفصال حدث فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م وعبدالناصر توفى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م ، ومن أجل التغيير قدم عبدالناصر مشروع ميثاق العمل الوطنى لمؤتمر القوى الشعبية يوم ١٢ مارس سنة ١٩٦٢م حدد فيه عشرة أبواب بدأه بمقدمة كنظرة عامة وما يتعلق بالثورة وجذور النضال المصرى ودرس النكسة وضرورة الحل الاشتراكى والديموقراطية السليمة والوحدة العربية والإنتاج الوطنى ... إلخ ولأن جمال عبدالناصر كان دائما إلى جانب الفقراء (فلاحين وعمالا) قرر أن يحدث تغييرا فى جهاز القضاء المصرى عندما علم بأن هناك انحيازا من جانب بعض القضاة الذين يمكن أن يكونوا منتمين إلى أسر إقطاعية إلى جانب ملاّك الأراضى ، ومن المعلوم أن عملية المساس برجال القضاء غاية فى التعقيد لكن الأمر كان يستلزم موقف شجاع رغم ما سيستتبعه من أقاويل ، وفى هذا يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل ما يلى :

سمعت ذات مرة من جمال عبدالناصر خلال تلك الفترة فى الإسكندرية أن بعض المشاكل فى مجال القضاء تطرح نفسها عليه ، وأن تقارير أمامه تشير إلى أن بعض المحاكم تطرد فلاحين من أراضيهم المستأجرة لصالح كبار الملاّك ، ثم أن بعض هذه التقارير تشير إلى أن بعض القضاة الذين أصدروا مثل هذه الأحكام سبق أن طبقت عليهم أو على أسرهم أحكام قانون الإصلاح الزراعى ، وكان رأيه أن ذلك وضع لابد من بحثه وأنه شكل لذلك لجنة خاصة تقدم إليه توصياتها ، وكان بين أعضائها الساده شعراوى جمعه وسامى شرف والمستشار عمر الشريف المستشار القانونى لرئاسة الجمهورية وآخرون .. يستمر هيكل ، ولاحظ هو تحفظى على ما سمعته منه ، أضاف : إننى وضعت أنور السادات على رأسهم لكى يتابع ما يفعلون ، وهو بينهم الذى يتصل بى ، وبعد حديث طويل يقول هيكل : فتحت الموضوع مرة أخرى مع الرئيس ، وقلت إن مسألة القضاء حساسة ، فهو مرفق فى مصر مقدّس ، وأى اقتراب منه يجب أن يكون بمنتهى الدقة والتحرر ، ثم يضيف ،

أحسست بعد هذه المقابلة أنني أديت واجبي كمواطن وكصديق لجمال عبدالناصر، وكان منطقي أنه إذا كانت اللجنة التي تبحث موضوع القضاء تعمل تحت رقابة أنور السادات ويشترك في أعمالها جمال العطيفي ؛ إذن فالأمور في مسارها الصحيح ، ويقول : وصدرت بعد ذلك يوم ٣١ أغسطس ١٩٦٩م إجراءات في مجال القضاء وأثارت هذه الإجراءات ردود فعل ثم ينتهي إلى القول لقد كان أمامه مشكلة اجتماعية سياسية رآها من وجهة نظره ، خطأ أو صوابا، تتطلب حلا .. انتهى [٧١].

٣ - وضع الأحزاب المصرية ورأى عبدالناصر فيها :

يقال لا يعرف الحق بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق .. ولقد كانت هناك أساليب المغالطة والدس والأباطيل التي تعودت عليها زعامات الأحزاب المصرية السابقة وهذا في رأيي ليس جهالة لأنهم يعلمون جيدا مرامي وأغراض أعمالهم لكنهم اعتقدوا (وهو اعتقاد خاطئ) أن ذلك يمكن أن ينطلي على عسكر يقولون (إنهم لا يفهمون في السياسة) وبالتالي فإنه يمكن التحايل على أحداث التاريخ الذي ربما لا يعرفه هؤلاء الجدد على الحكم والسياسة ! أقول ربما ، ولكن قبل البحث في قضية الأحزاب وأمل تناوب السلطة سلميا بين القوى السياسية في الوطن العربي لابد من بحث ومناقشة برامج تلك الأحزاب أو التنظيمات الدينية ، ولماذا الخوف من المسلمين ، وربما يمكن القول ، الخوف من الإسلام تحديدا ، على الرغم من أن الدول العربية أغلب سكان بلادها مسلمون ، وهذه الدول تنص في دساتيرها (التي لا تحترمها) على أن دين الدولة الإسلام ؟!

وبالمقابل لابد أن نسأل لماذا ترتكب الجماعات أو التنظيمات الإسلامية أخطاء وتستخدم السلاح والاغتيالات لهدف الوصول إلى الحكم ؟ والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ . . . ﴾ (الأنعام : ١٥١) . ويذكر القارئ الكريم أنني قلت في مقدمة هذا الكتاب : أن واحدة من أخطاء عبدالناصر أنه منع الحزبية على الرغم من أنه في آخر سنوات حكمه ذكر أنه لابد من وجود أحزاب معارضه [٧٢] وقال : إنه اتخذ

---

(٧١) لمصر ... لا لعبد الناصر - هيكل - ص٦٢ - ٦٣ - ٦٤ .

(٧٢) قال هذا الكلام أثناء زيارته لمدينة بني غازي في ليبيا في يونيو ١٩٧٠م .

إجراء حل الأحزاب المصرية السابقة للثورة لكثير من الأسباب سنذكرها تاليا ، إما قضية الخلاف حول الأحزاب والحزبية في الوطن العربي فهي قضية شائكة ومزمنة بينها وبين حكومات هذه البلدان ، ولنأخذ مثالان على هذا الخلاف بين الحكومات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية بشكل خاص :

الأول في الجزائر :

فلقد كانت جبهة الإنقاذ قد فازت بأغلبية مطلقة في أول انتخابات ديموقراطية نزيهة جرت في هذا البلد ، وسبب فوزها أنها قدمت برنامج عمل يركّز على مواضيع يحس بها الشعب في الجزائر بل هو يطالب بها كلما أتيحت له فرصة التعبير عن نفسه (وهي قليلة) وهي (العدل في الحكم ، والشفافية في الممارسة ، والحفاظ على المال العام ، وتكافؤ الفرص في العمل وأمور الحياة بين المواطنين) ذلك أن المواطن الجزائري كان يعاني من عضة الفقر وشظف الحياة وهو يعلم أن بلاده غنية لكن نظام الحكم فيها فاسدا وقادته ينهبون أمواله ، ولهذا رحب ببرنامج جبهة الإنقاذ الإسلامية وأعطاها صوته ، لكن الذين يستغلون ثروات البلاد ويسيطرون على مقاليد الأمور لم يستريحوا لمجرد سماع كلمات الشفافية والمحاسبة ، فألغوا نتائج الانتخابات واعتقلوا قادة الجبهة وسجنوهم ولهذا أدخلوا البلاد في مأزق لم تخرج منه منذ عقد ونصف ، وقد لا تخرج منه أبدا حيث سالت الدماء في شكل شبه حرب أهلية ، ولو أمكن أن تتاح الفرصة لتلك الجبهة بعد أن فازت في الانتخابات كي تنفذ برنامجها فإن هي وفّقت شكرناها وإن لا فإن صناديق الانتخابات التي جاءت بها تبعدها ، وقيل أن جنرالات الجيش هم الذين ارتكبوا خطيئة ضرب الديموقراطية في الجزائر وذلك خطأ تاريخي أو هو جريمة لابد أن يحاسبوا عليها ولو كانوا أمواتا .

والثاني في فلسطين :

كانت حركة حماس قد فازت أيضا في انتخابات ديموقراطية جرت بإشراف دولي ، وبناء على برنامجها المثالي الذي تضمن كثيراً من الوعود المعبّرة عن آمال الإنسان الفلسطيني كالاستقرار والتقدم والشفافية في الحكم ورعاية المال العام ومحاسبة الفاسدين والمفسدين وتكافؤ الفرص بين الناس انتخب أعضاؤها

وبالتالى سيطرت على البرلمان بسبب أغلبية أعضائها المنتخبين وشكلت الحكومة التى كان ينتظر منها الكثير فى تنفيذ برنامجها الانتخابى ، لكن حماس هذه عندما تولى قادتها الحكم أغمضوا عيونهم وصمّوا آذانهم وقفلوا أبوابهم أمام أى فرصة تعامل (لا اعتراف بمنظمة التحرير ، ولا اعتراف بأى اتفاق دولى أو معاهدة دولية) واعتقدوا أن العالم سيطرق أبواب مكاتبهم وبيوتهم راجيا مد أيديهم إليه !! دون أن يدركوا أن العالم قد تغيّر كثيرا كثيرا منذ انتهاء القرن الماضى ، ودون أن يقدّروا أن منظمة التحرير التى أعطيت شرعية تمثيل الشعب الفلسطينى وهى تناضل من أجل حقوق الشعب الفلسطينى منذ قرابة نصف قرن أو أكثر ، بصرف النظر عن الأشخاص وما يقال عن التجاوزات أو الفساد الذى كان يمكن أن يصلح من الداخل وبين الشركاء فى المصير الواحد ، ثم حدث الخطأ الكبير الذى قامت به حماس بانقلابها على مؤسسات الشعب الفلسطينى فى غزة ، وتلك كانت القشّة التى قسمت ظهر البعير كما يقال ، وما تبع ذلك من انتهاكات وقتل وتنكيل بإخوتهم الفلسطينيين لمجرد أنهم (ربما) ينتمون لفتح وبذلك خلقوا الشحناء وقضوا على إمكانية التعايش السلمى بين أبناء الوطن الواحد وأتاحوا أعظم فرصة لعدو يتربص بهم بحيث يضرب هذا الرأس بآخر مع الأسف !! وأنا أعتقد وقد عرفت أغلب المنظمات الفلسطينية وتعاملت مع هذه المنظمات عندما كنت سفيرا لبلادى فى لبنان وتحديدا خلال سنوات الحرب الأهليه ، عرفت أن بين هذه المنظمات تظهر الولاءات بشكل شديد وغالبا ما يغلب الولاء لهذا النظام أو ذاك على المصلحة الوطنية الفلسطينية التى جاءت أو نشأت من أجلها هذه المنظمة أو تلك ، وعلى الرغم من أن حماس لم تكن قد ظهرت وقتذاك ، أو على الأقل أنها لم تعرف على الساحة العربية ولا المحلية ، فقد عرف عنها قرب نهاية القرن العشرين بروزها فى نطاق الأرض المحتلة وبشكل كبير عندما تم الإفراج عن زعيمها الشيخ أحمد ياسين ، عرفنا قياداتها نقية طاهرة مناضلة وكنا نأمل أن تتوّج نضالها بفهم أكبر للوضع الدولى بحيث يمكنها أن تساهم فى بناء الدولة الفلسطينية القادرة على الحياة ، ولكن مع الأسف منعها ضيق نظرها عن ذلك .

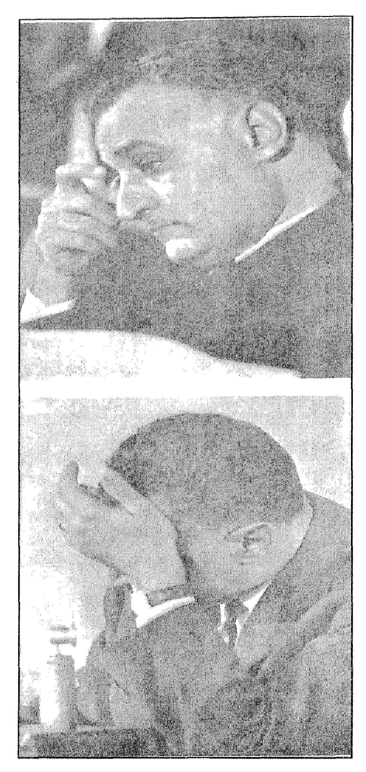
ومن هنا يمكن القول أن الأخطاء مشتركة سواء أكانت من النظم العربية الحاكمة أو التنظيمات الإسلامية فالأولى تتمسك بالكراسى والثانية تبحث عن مكان تحت

الشمس ، ولا يفـهم المرء لماذا ترفض الحكومات العربية قيام أحزاب إسلامية وما هو الضرر إذا كانت العلاقة بين الأطراف يحددها الدستور والقانون بحيث يكون التعامل حضاري قائم على الرأى والرأى الآخر ، ونعتقد أن الإسلاميين لو تمكنوا من قبولهم كأحزاب أو تنظيمات بين مجتمعهم لما لجأوا إلى لغة السلاح ، ونقول : فلتكن هناك أحزاب إسلامية ومسيحية ويمينية ويسارية وقومية ... إلخ على أساس أن الوطن للجميع ، ولكم تمنيت على إخوتنا فى حركة حماس أن يتبعوا دبلوماسية وهدوء المرحوم أحمد الشقيرى مؤسس منظمة التحرير القائل (لا أكون ليّنا فأعصر ، ولا صلبا فأكسر) .

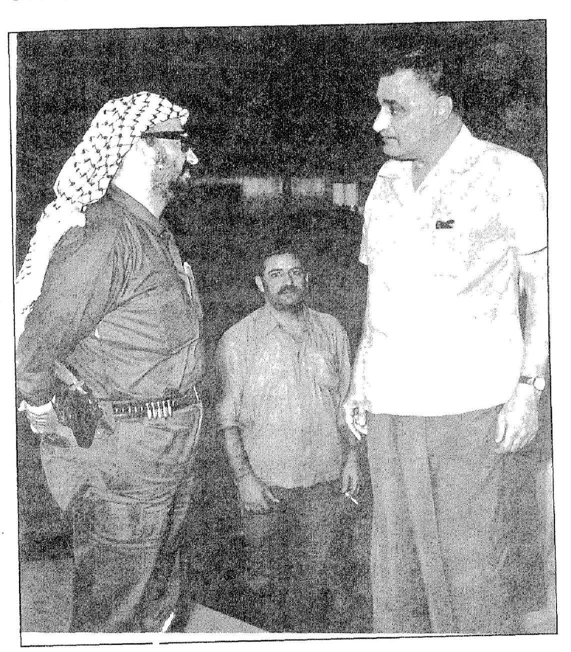
ولقد كان الرجل صادقا فى جهوده وفيما قاله عن سلوك الحكام العرب وتعاملاتهم ، ولهذا فهو أراد ألا يكون لينا ولا صلبا فى التعامل مع الحكام العرب إلا أنه كان مرغما على التعامل معهم ، لأنه أولا صاحب قضية تآمرت عليها دول وحكومات ، ولأنه مسؤولا عن شعب لاجئ مشتت فى أنحاء المعمورة ، وكذلك لأنه عمل فى دهاليز منظمة الأمم المتحدة وبالتالى عرف كيف يكون العمل الدبلوماسي والسياسي وحتى أعمال الخفاء كحالة المخابرات ، ومن رأى أنه كان يجب أن يكرّم بين أهله على ما أدى من أعمال .



يرى جمال عـــبدالناصر فى سيناء على قمـــة جبل موسى يوم ١٥ أبريل ١٩٤٨ فى استطلاع ميدانى مع بعض ضباط كلية أركان الحرب ، وبعد رحلة الاستطلاع هذه بشهر واحد عاد إلى الميدان مـــقاتلا من أجل فلسطين ، وهناك (كما قال) أدرك أن الميدان الحـــقيقى لتحـــرير الإنسان فى القاهرة وليس فى غـــيرها ، وعلى أرض فلسطين بدأ تنظيم تنظيمه الذى قام بالثورة سنة ١٩٥٢م .



لقد كانت فلسطين شغل عبدالناصر الشاغل فى كل وقت



ومن أجل فلسطين أيضـا جمع الملوك والرؤساء العـرب في مؤتمر طارئ فى العشرة الأواخر من شهر سبتمبر لحقن الدماء العربية وإيقاف الة تال بين المنظمات الفلسطينية والجيـش الأردنى ، وكان له هذا اللقاء من ياسر عرفـات أثناء انعقاد المؤتمر ، وكان آخر لقاء ، وقد توفاه الله بعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء ، وبعد أن تمكن من حقن الدماء فى عمان ؛ رحمه الله رحمة واسعة .

نعود لوضع الأحزاب فى مصر ورأى عبدالناصر فيها أو فى قياداتها إذ ربما كانت هناك استثناءات بسبب الظروف القاسية الطويلة التى مرت بها البلاد والقيّم والأبنية الاجتماعية الموروثة .

يقول جمال عبدالناصر :

حينما قامت الثورة اتصلنا بالأحزاب وقلنا لهم ، أن هدفنا هو إقامة حياة نيابية سليمه، وسألناهم رأيهم فى التخلص من الإقطاع الزراعى والتقريب بين الطبقات .

تناقشوا فيما بينهم ثم عادوا وقالوا لنا ، إننا لا نقبل توزيع الأرض ولا تحديد الملكية ، ولكن نقبل زيادة الضرائب ، هذا يزيد دخل الحكومة وبهذا يمكنكم تحقيق أغراضكم ، قلنا لهم إنه ليس من أغراضنا أن نفرض الضرائب ولسنا طلاب ثروة ، بل كل ما نبغى هو تحرير الفرد ، ولا يمكن أن يتحرر الوطن الكبير قبل أن يتحرر الفرد ، إن تحرير الأرض يحرر الفرد من كل أنواع الذل والاستعباد والإقطاع ، كيف يشعر الفلاح الذى يعمل عند الإقطاعى ؟ أنه حر وهو تحت رحمته يطرده هو وأولاده من الأرض متى شاء ، من أجل هذا صممنا على تنفيذ الإصلاح الزراعى، لنحقق للفرد الحرية والعزة والكرامة ، لقد كنا نئن من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى ، ولهذا فإن الأحزاب القديمة لن تعود ، وإذا كانت الثورة قد تسامحت معهم فلأنها ثورة بيضاء ، تأخذ روحها من روح هذا الشعب السمح الكريم ، الثورة قائمة مستمرة ، فهى ثورة الشعب ضد الذين استغلوه [٧٣] .

ويقول شوقى عبدالناصر فى كتابه (ثورة عبدالناصر) نقلا عن عبدالناصر ، ما يلى :

وكان ما حدث يوم ٢٣ يوليو هو ثورة ، والثورة إذا لم تغير وجه المجتمع لصالح الشعب ، وإذا لم تقتلع الفساد وتعيد الحق إلى أهله صارت انقلابا واستبدال لحاكم بحاكم ، والثورة إذا انحازت إلى جانب الأغنياء والجشعين صارت انقلابا وحكما وتجارة بمقدرات الناس ، ولم تكن الثورة لكى تعيد الحق إلى أهله أن تطلب ، ولكن لكى تعيد الحق كان عليها أن تأخذ وتعطى، وكان واجبها الثورى أن تعيد لمصر حقوقها المنهوبة ، وأن تعيد للعامل والفلاح حقه المسلوب ، وأن تعيد للشعب ، كل الشعب شرفه وكرامته .

---

(٧٣) خطاب الرئيس جمال يوم ٣ يوليو ١٩٥٥م فى لجع حمادى بمناسبة توزيع بعض الأراضى .

وهل كان من الممكن أن تقول الثورة للإنجليز (والنبى علشان خاطرنا اخرجوا من مصر ؟)

وهل كان من الممكن للثورة أن تقول للإقطاعيين (والنبى علشان خاطر الفلاحين الغلابة اعطونا الأرض لنوزعها عليهم ؟

وهل كان من الممكن للثورة أن تقول للاحتكاريين والمغامرين واللصوص (والنبى ادونا البنوك والشركات والمصانع المنهوبة لتعود ملكا للشعب ، كل الشعب ؟

وهل كان للثورة أن تقول لأصحاب قناة السويس المزعومين (والنبى الشركة دي بتاعتنا وبتاعت أجدادنا ونحن ورثتهم فاعطوها لنا ؟)

وهل كان للصوص أن يعيدوا ما سرقوه طوع ؟

وهل كان من العقل والمنطق أن يطيع هؤلاء ويقدمون ما يطلب منهم على (طبق من فضة ؟) .

ويتحدث مرة أخرى عبدالناصر في رد على سؤال قائلا :

قلت للذي سألنى ، لو أننى سمحت للأحزاب أن تعود الآن ، فماذا تكون النتيجة ، (وكان هناك في السابق عشرون حزبا) أغلب الظن أننى سأجدها ثلاثة أحزاب :

أحدها : يدعو للتحالف مع الغرب ، وسيكون عماده بعض الإقطاعيين والرجعيين .

وثانيها : يدعو إلى التحالف مع الاتحاد السوفيتى ، وسيكون عماده من الشيوعيين ..

أما الحزب الثالث فسيكون الحزب الذى ينادى بسياسة عدم الانحياز والحياد الإيجابي .

وستكون بين الثلاثة معركة عنيفة تمزق وحدة بلادنا ، فهل هذا ما نريده ؟

إن جوابى بالطبع لا ، وفى تحليله للوضع ورؤيته لمستقبل البلاد فى ظل النظام الثورى الجديد يقول جمال عبدالناصر :

(إنه لابد من إحداث تغيير جذرى فى الخريطة الاجتماعية لمصر والتى كانت قد وصلت إلى أقصى درجات انحدارها فى عام ١٩٥٢م لقد كان الحكم غارقا فى

الفساد بأقصى درجة ، والحكم هنا يشمل كلا من القصر أو الملك وحاشيته والحكومة وقيادة الأحزاب التى انشغلت بمعاركها الخاصة وتجاهلت المصلحة الوطنية العامة ، وكانت المعركة محتدمة بين المجموعات الفدائية وبين الإنجليز فى منطقة قناة السويس ، لكن الحكومة وعناصر الإنجليز داخل البوليس السياسى المصرى كانوا يساهمون فى اعتقال الفدائيين والقبض على العناصر الوطنية من السياسيين من كل الاتجاهات وتزايد حالة السخط الشعبى بسبب الضغوط الاجتماعية والمعيشية والتى أدت فى بعض الأحيان إلى انقضاض الفلاحين على قصور بعض كبار ملاك الأراضى في الريف وتزايد ظاهرة الإضرابات التى شملت كل الفئات من طلبة وعمال بل وشملت أيضا إضرابا لضباط البوليس تم في حديقة الأزبكية بالقاهرة مرتين فى بداية الخمسينات ،ولجأت السلطة إلى استخدام العنف فتكونت مجموعات شعبية تبادل العنف بالعنف دفاعا عن أنفسهم مما هدد بدخول البلد في مواجهة دموية لا تعرف نهايتها أو مصيرها ، وإحداث التغيير الجذرى فى الخريطة الاجتماعية لمصر لابد منه ، ولكن القضية الأساسية هى إحداث التغيير المطلوب من خلال بلورة عدد من القضايا العامة التى تنبثق عن دوافع وطنية بالدرجة الأولى لضمان توفير الإجماع حول القرار وضمان النجاح فى مرحلة التنفيذ ، ولو كنت طرحت منذ البداية قضية التحول الاجتماعى أو قضية القومية العربية لدخلت في دائرة عقيمة من الجدل والاختلاف ، ولما أمكن تنفيذ الثورة أو الوصول إلى النجاح الذى تحقق فعلا فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لكن ما طرح فى البداية كان قضايا مثل ، الملك ، الفساد الإنجليز ، الإقطاع ، الأحزاب السياسية ، وهى كلها قضايا لا يختلف اثنان على ضرورة حسمها مهما كانت الأخطار ، ومهما اختلفت الميول ، والاتجاهات التى يتبناها أى مصرى وطنى .. انتهى (٧٤) .

ولا يغيب عن الذهن أن الأمر كان واضحا ومحسوما في فكر عبدالناصر ، فإذا كانت الثورة لابد أن تقتلع نظام الحكم السابق وعلى رأسة الملك فاروق فلابد أن يشمل التنظيف أحزاب متخاصمة ومتناحرة من أجل القضايا الخاصة والمصالح

(٧٤) سنوات وأيام مع عبد الناصر – سامى شرف – ٥٠ .

الآنية مع قليل من الاستثناء فى البداية ، وحديث الرئيس جمال عبدالناصر يلتقى مع آراء كثير من أولئك الذين كتبوا فى قضية الحكم السابق ووضع الأحزاب المصرية ، وهى القضية التى كانت مرتكزا للهجوم على حكم جمال عبدالناصر من قوى الداخل والخارج وبعض الذين يتغنّون بالديموقراطية ولا يلتزمون بمبادئها ، نجد الأستاذ حمروش فى كتابه (قصة ثورة ٢٣ يوليو) الجزء الأول يقول :

(تمت الخطوة الأولى لاستيلاء الجيش على السلطة نتيجة ظروف متعددة وهى :

١- تمت حركة ٢٣ يوليو فى توقيت مناسب سليم كان الشعب قد وصل فيه إلى ذروة النقمة على الملك ورجال الحاشية وحكومات الأقلية التى عطلت الدستور عمليا ، واستندت إلى إرهاب الأحكام العرفية ، ولذا جاء استقبال الجماهير للحركة معبرا عن التأييد الكامل مشجعا الضباط الأحرار على مواصلة السير فى الطريق .

٢- أحزاب الأقلية كانت لافتات تضم فريقا من الإقطاعيين وكبار الرأسماليين بعيدا عن ساحة الشعب ، ولذا فإنها مع ظهور الحركة لم تعد أحزابا منظمة ، وإنما تحولت إلى شخصيات يسلك كل منها سبيلا خاصا يدافع به عن نفسه وعن مصالحه ولو على حساب الآخرين وهذه الانهيارات كشفت للضباط مدى التفسخ والتمزق الذى كانت تعانى منه هذه الأحزاب ، وسقطت بعض الأسماء الكبيرة بتصرفات صغيرة .

٣- احتفظ الوفد بوحدته ولم يحدث له مثلما حدث فى أحزاب الأقلية ، ومع ذلك ظل موقفه صريحا وغير واضح ، يؤيد الحركة فيشجعها على الاستمرار ، ويرقب الاعتداء على الدستور ولا يشن حملة شعبية حول ذلك ، ولعله كان حذرا لعدم قدرته السير فى اتجاه مضاد للتيار الشعبى المتدفق المؤيد للحركة والذى كان يضم بالتأكيد جماهير الوفد الممثله فى القوى العاملة التى طال بها الحرمان ، ولذا لم تشعر الحركة بجدية المعارضة ، أو صلابة الموقف المسؤول .

٤- كان نجاح حركة ٢٣ يوليو هو فرصة الإخوان المسلمين الفريدة للسيطرة على الحكم والسلطة ، فقادتها ليسو غرباء عن تنظيمهم ، بل إنهم نشأوا فيه واستمر بعضهم به ، وواصل البعض الآخر علاقته الطيبة بهم ، والإخوان

يعتبـرون أنهـم شاركوا فى نجاح الحـركة عندما كلفوا بعض أعـضائهم المسلحين بحراســة دور العبادة وبعض المرافق العامــة وأرسلوا فريقا منهم إلى طريق مـصر السويس واستنفـروا قواتهم فى منطقة القنال مسـاء ٢٣ يوليو بعد مقـابلة جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين لحسن عشماوى وصالح أبورقيق قبل يومين من الحركة ، وشجع مـوقف الإخوان المؤيد وهم ثانى التنظيمات السياسـية انضباطا وجمـاهيريا ، شجع ضبـاط الجيش على الاستـمرار فى مسيـرتهم وذلك قبل أن تظهر التناقضات بينهم وبين الجيش فى محاولة التنازع على مركز السلطة .

٥- وقفت حركة الديموقراطية للتحرر الوطنـى أكثر القوى الديموقراطية تأثيرا موقف التأييد لحركة ٢٣ يوليو منذ اللحظة الأولى ، وكان ذلك أمرا طبيعيا فالمنشورات كانت تطبع عندهم ومعضمها يكتب بأيدى الضـباط المنضمين إليها ، والمعتقلون الشيـوعيون أفـرج عن بعضـهم ، وشجع هذا الموقف أيضـا ضباط الحـركة على الاقتناع بأنهم لا يجابهون معارضة من أى اتجاه ,, انتهى (٧٥).

٦- لقد تناول الكتّـاب المصريون قضيـة الأحزاب كل من وجهة نظره كـما رأينا من كتـابات حمـروش وعلى الرغم من أن الأحزاب فـعلا كانت خـاوية ومتنافـسة على المصـالح وإرضـاء النظام القـائم قـبل الثـورة ، لـكن المؤكـد أن جـمـال عـبدالناصـر كان على بيّنة وإدراك لـوضعـها كـما هو الحـال ربما مع رفاقـه فى الحركة، ونجد كاتبًا آخر تناول هذا الموضوع على الشكل التالى :

اقتـضى ظهور الأحـزاب ظهور المـؤسسات الإعـلاميـة اللازمة للدفـاع عن وجهة النظر الحزبية ، وكان ذلك أساس نشأة الصحف الحزبية البورجوازية وظهور الأقلام الـبورجـوازية ، وظهور الفكر البـورجوازى ، فـقد اقـتضى تأليـف الحزب الوطنى القديم ظهور جريدة تعبر عـن رأيه ومصالحه ، فكلف الحزب أديب إسحق صاحب جريدتى (مصر) و (التجارة) اللتين أبطلهما رياض باشا بإنشاء جريدة فى باريس اسمـها (القاهرة) حملت على رياض حـملات شعواء ورمـته بالظلم والاستـبداد والرغبـة فى بيع البلاد للأجانب ، وأطـلقت عليه اسم (رياضسـتون)

---

(٧٥) قادة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٢٤٦ - جدير بالملاحظة أن الكاتب كان عضواً فى الحـركـة الديموقراطـية للتـحـرر الوطنى (حـدتو) وهو كـذلك أحـد الضبـاط الأحـرار.

وعندما أخذ مصطفى كامل يباشر نضاله ضد الإنجليز أسس (اللواء) فى يناير ١٩٠٠م كما أسس أقطاب حزب الأمة أشهر الجرائد التى حملت فكر البورجوازية المصرية ،وهى (الجريدة) التى كان يحررها فيلسوف البورجوازية المصرية الأكبر أحمد لطفى السيد ، وقد بلغ من فاعلية هاتين الصحيفتين وغيرهما من صحف ما قبل الحرب العالمية الأولى فى مناوأة الإنجليز وتعبئة الجماهير المصرية ضدهم ، أن أطلق على هذا الطور من أطوار الحركة الوطنية المصرية اسم (الطور الصحافى) وبعد الحرب العظمى ، ومع انتعاش الحركة الوطنية على يد الوفد المصرى ظهرت الصحف التى تعبر عن وجهات نظر فرق البورجوازية المصرية المختلفة ، وكانت (السياسة) ومحررها الدكتور محمد حسين هيكل تعبر عن وجهات نظر حزب الأحرار الدستوريين ، بينما كانت (الأخبار) لأمين الرافعى تدافع عن وجهة نظر الحزب الوطنى ، أما الوفد فكانت تتبنى وجهة نظره صحف عديدة ومن أهمها (البلاغ) و (كوكب الشرق) و (المصرى) و (روز اليوسف) وبرزت الأقلام الوفدية الكبيرة ، مكرم عبيد وعبدالقادر حمزه وأحمد حافظ عوض وفاطمه اليوسف وعباس محمود العقاد ومحمد صبرى أبوعلم ومحمود سليمان غنام ومحمد التابعى وأحمد نجيب الهلالى وغيرهم، ويستمر الكاتب فى تعديد صحف الأحزاب وهى كما قال تعبر عن نفسها ، أنتهى [٧٦] .

هكذا كان الحال ، رأى جمال عبدالناصر فى الأحزاب والتنظيمات ووسائل إعلامها ، وكذلك هكذا كان وضع الأحزاب وقياداتها ، وكان لابد من إجراء إما وفاقى أو تأديبى ، ولما لم يتم الوفاق حدث الثانى ، ولو حدث الوفاق والاتفاق لكان ربما أنفع وأفيد للثورة وللأحزاب والبلاد ..

٤ - رأى عبدالناصر فى حرية الشعب :

حرية الشعب ، تعبير قاله جمال عبدالناصر كثيرا وتحدث به فى كثير من المناسبات كأنما هو جزء من ذاته وحلم يراوده فى منامه وصحوه ، ولكن هل تحقق هذا الحلم فى ربوع دولته على الرغم من أن عهده كان قصيرا ؟ وما الذى يعنيه

(٧٦) كتاب الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر - د. عبد العظيم رمضان - ٢٤.

بحرية الشعب ؟ هو من عائلة متوسطة الحال وقد عاش بين الناس العاديين فى مصر شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ، ولابد أنه أحس بمعاناة الأغلبية الساحقة من أهله وشهد على أحوالهم وشاهد تعاستهم فى وقت كانت فيه القلّة القليلة تأخذ من كل طيبة أكثر مما يحتاج ويصل إليها خبزها مغموسا بالسمن والعسل (كما تقول الأمثال) وقد طبق عبدالناصر على نفسه وأهله وذويه ما كان يراه عيشا بسيطا كما هو الحال بالنسبة لمتوسطى الحال فى مصر ، والواقع أن الحرية التى أرادها لم تكن فقط حرية العيش ، ولا هى حرية الإنسان المصرى فقط حتى كانت الحرية بمعناها الكامل ، وإنما أراد الحرية لكل أمته العربية من المحيط إلى الخليج (وربما) تلك واحدة من أسباب متاعبه خلال كل فترة حكمه ، ولقد رأينا عبدالله إمام وهو الذى كان صوت حق ضد الباطل فى الدفاع عن مواقف وآراء جمال عبدالناصر يقول :

(فى خطاب جمال عبدالناصر وفى سنة ١٩٥٦م وفى حملة عبدالناصر من خلال التعبئة للاستفتاء على أول دستور بعد الثورة ، وعلى رئاسة الجمهورية لأول مرة بعد الفترة الانتقالية شرح عبدالناصر مفهوم الحرية السياسية كما يراه ، وكان ذلك قبل الميثاق ، فقال ، إننا ظللنا سنين لم تكن فى مصر حرية سياسية ولا ديموقراطية ، وكانت تتمتع بها طبقة معينة ، إن كل ما وصلنا إليه اليوم وكل هدفنا من نظام الحكم الجديد هو أن نمنع استغلال الرجعية واستغلال الانتهازية لهذه الحرية السياسية حتى لا تستخدم ضدنا وضد مصالحنا ، الحرية السياسية لا يمكن أن نبيحها ونمكّن منها أعوان الاستعمار ، إذن الحرية السياسية ، هى أن كل بلد يطبقها بما يلائم مصالحه وبما يلائم ظروفه وبما يلائم الطبيعة ـ الحرية السياسية إذا قيدت فيجب أن تقيد لصالح المجتمع على الزغم أنه فى واقع الأمر لا توجد حرية سياسية كاملة ... إلخ [٧٧] .

وفى حديثه عن الشعب ، أو حرية الشعب ، ومن هو الشعب ؟ قال : أنا شفت الشعب اللى إحنا كلنا طالعين منه ، شفت العمال الزراعيين وشفت عمال التراحيل وشفت الفلاحين ، شفت العمال السهرانين شفت مخلة العيش الناشف

(٧٧) عبد الناصر المفترى عليه – عبد الله إمام – ٢٤ .

والبصل ، وشفت قدرة المش ، وشفت الرجلين الحافية المشقوقه والعينين الزايغه من الجوع ، شفت عمال التراحيل عريانين ملط لغاية ما يغسل الشوال اللى هو لابسه فى الترعه ، طبعا كل واحد من الشعب عرف هذا الكلام ، إن ما نطلبه اليوم هو حق هؤلاء الناس ، حق العمل حق الكادحين والمطحونين .. ويقول : هى العين تعلى على الحاجب ؟؟

نعم هذا مفهوم الحرية للشعب لدى جمال عبدالناصر ، إنها حرية رغيف العيش ، حرية أن تكون للإنسان كرامة ، ولقد صدق سيدنا على بن أبى طالب كرّم الله وجهه حين قال (والله لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفى) ويقول عبدالله إمام فى كتابه (عبدالناصر كيف حكم مصر) نقلا عن لسان سامى شرف ما يلى ردا على سؤال ، ما هى الحرية لدى عبدالناصر ؟

قال : منذ ١٩٥٦ تستطيع أن تقول أنه كانت هناك خطوات لمشاركة الجماهير بتطبيق الأبعاد الاجتماعية لحرية المواطن بمعنى توسيع التعليم ثم مجانيته الكاملة، ومجانية العلاج وحق الانتخاب للمرأة وتخفيض سن الإدلاء بالصوت إلى ١٨ سنة ، هذه عناصر جوهرية حكمت تجربة عبدالناصر، بدأت منذ ٥٦ فى جانبها الاجتماعى ، الذى يتمشى مع فلسفته ، فى حرية التعبير وربطها بالبعد الاجتماعى وهو ما تبلور نهائيا فى سنة ١٩٦١ حيث انتقل إلى مرحلة متقدمة أكثر وهى العمل على منع الاستغلال وغير ذلك ،وقال أن الطريق أمامى طويل لن ينتهى إلا عند القضاء على استغلال الإنسان للإنسان ، ومن هنا بدأ جمال عبدالناصر يفكر فى إبراز الرأى الآخر فى إطار تحالف قوى الشعب العاملة ، ونص الميثاق على إنشاء التنظيم الطليعى وكانت فكرته أن تكون النواة الأولى للحزب الإشتراكى تميهيدا للفكر الذى تطور بعد ١٩٦٧ إلى ما أعلنه عبدالناصر من ضرورة قيام حزبين أو ثلاثة سياسية ، وهذا ما كتبه جمال عبدالناصر بخط يده فى ملفه الشخصى، وما ناقشه مع العديد من المسؤولين ، وكان يرى مع عام ٧٥ أن تقوم فى مصر تعددية حزبية ، ولقد كان بيان ٣٠ مارس هو المقدمة الطبيعية لهذا التطور فى المستقبل . انتهى .

٥- رأى عبدالناصر فى الدين والسياسة :

الحديث عن الدين أو عن أى معتقد أمر حساس جدّا خصوصا إذا استخدم الدين فى القضايا السياسة ويحدث حينئذ الخلط فى مخاطبة غرائز الناس دون

عقـولهم ، وفى حـياتنا اليـومية نحن فى العالم الثـالث يسهـل علينا تصنيف الناس ودمغهم بمختلف النعوت إذا صار بيننا أى خلاف دينى أو سياسى أو فكرى أو حتى اجتماعى ، ونلاحظ أنه عندما حدث الخلاف بين جماعة الإخوان المسلمين ومجلس قيادة الثـورة المصرية نعتوها فى شـخص جمال عبدالناصـر بأبشع الأوصاف بل هم كفّروا رجالهـا بعد أن كانوا يطلقون عليها اسم (الحركـة المباركة) ويمكن لنا أن نجد بعض العذر لهم أو لغـيرهم فى حالة الخلاف السـياسى وليس الدينى ، فعبـدالناصر فى رأيهم أوجد المبـررات لهدم الإسلام والتنكيل بالمسـلمين ، وأنه تلقى الأوامر من المخابرات الروسيـة والمخابرات الأمريكية الكافرة فـى وقت واحد بأن يفعل ذلك !! ومن يراجع أدبيات الثورة بما فيها خطب عبـدالناصر وممارساته وكما جاء فى الميثاق وفلسفـة الثورة يجـد أن هؤلاء الذين يتهمـونه بالكفر أو الخـروج على الإسلام إنما غرضهم سياسى مصلحى ، ولنا فى الميثاق الدليل البيّن ، يقول:

(وكان الفتح الإسلامى ضوءا أبرز هذه الحقيـقة وأنار معالمها وصنع لها ثوبا جديـدا من الفكر والوجدان الروحى ، وفى إطار التـاريخ الإسلامى ، وعلـى مدى رسالة محمد صلى الله عليه وسلـم ، قام الشعب المصرى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة الإسلامية) [٧٨].

(وفى فلسفة الثورة قال : ثم تبقى الدائرة الثالثة ، الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت : إنهـا دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهـون معنا أينما كان مكانهم تحـت الشـمس إلى قـبلة واحـدة ، وتهـمس شـفـاهـهم الخـاشـعـة بنفس الصلوات، ولقـد ازداد إيمانى بمدى الفـاعلية الإيـجابيـة التى يمكن أن تتـرتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة السعودية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير[٧٩] ولقد وقفت أمام الكعبة وأحـسست بخـواطرى تطوف بكل نـاحيـة من العـالم وصل إليـها الإسـلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى ، يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعـبة تذكـرة إلى دخول الجنة بعـد عمـر مديد ، أو مـحاولة سـاذجة لـشراء

(٧٨) الميثـاق - صـ ٣٩ .

(٧٩) المقصود الملك عبد العزيز آل سعود الذى توفى فى نوفمبر ١٩٥٣م .

الغفران بعد حياة حافلة ، يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صور طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلمائها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها وملوك الصناعة فيها ، وتجارها وشبابها ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامي العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام ، يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع لكن عاملين ، ومستضعفين لله ، ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ، ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة ، إن هذه هى فعلا الحكمة الحقيقية فى الحج ... إلخ (٨٠).

ودون الإفراط في الاستدلال سأقدم هنا مجموعة من القرارات التى اتخذها جمال عبدالناصر دعما وخدمة للإسلام والمسلمين وسترى أنها لا تخالف أى نص إسلامى ، وهى :

١- مجانية التعليم .

٢- قوانين الإسكان .

٣- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٤- إذاعة القرآن الكريم .

٥- مدينة البعوث الإسلامية .

وفى مجال الخدمات :

١- قوانين العمل .

٢- تحديد الملكية الزراعية .

ثم نستدل بآراء بعض المفكرين الإسلاميين ، وتحديدا :

١- الرئيس أحمد بن بلا .

٢- الدكتور محمد عماره .

(٨٠) فلسفة الثورة ، جمال عبد الناصر - ص ١٠٠ - ١١١ .

مجانية التعليم :

رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، قال : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وإذ كان العلم فريضة فى حديث نبوى فهو بالتالى كالصلاة ، فهل يدفع المسلم رسوما كى يصلى ؟ وهل يدفع مصاريف حتى يعبد الله ؟ لذلك فإنه محتما على ولى الأمر المسلم أن يمكّن الناس من فريضة العلم والتعليم ، وأستطيع القول بأن ساحة العلم التى فتحها جمال عبدالناصر ، واستقبلت مئات الآلاف من أبناء مصر المحرومين من التعليم لم تلبث أن كانت سببًا رئيسيا فى تعاظم التيار الإسلامى وما كان لهؤلاء أن يعرفوا هذا التيار لولا فرصة العلم المجانى ، أو تحديدا ما كانوا يعرفوه على حقيقته وسماحته .

إنشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

هذا الإنجاز الإسلامى فاق كل الإنجازات على امتداد العالم الإسلامى حتى الآن وهو الإنجاز الذى يقصد به أن يقرب المذاهب ومفاهيمها إلى بعضها ، وذاك الخلاف أو الاختلاف كان يمثل الفتنة الكبرى ، وفى رحاب هذا المجلس انعقد المؤتمر الأول لعلماء المسلمين والذى ضم ممثلين للمذاهب الإسلامية الثمانية (الحنفى ، المالكى ، الشافعى ، الحنبلى ، الجعفرى ، الزيدى، الأباضى ، الظاهرى) ولأول مرة فى تاريخ العالم الإسلامى يتفق علماء هذه المذاهب فى رحاب القاهرة عام ١٩٦٢م على إصدار موسوعة الفقه الإسلامى وهى التى عرفت بقرار العلماء باسم (موسوعة ناصر للفقه الإسلامى) وأعدت خطة عمل لبحث جميع أبواب المعاملات على المذاهب الثمانية لفتح الباب أمام الأجيال لتعرف ما هو المتفق عليه وما هو المختلف بشأنه وهى أكبر حركة عقلية فى تاريخ الإسلام بعد حركة المعتزلة، وقد نشرت أول مطبوعة على نفقة وزارة الأوقاف المصرية وهى كتاب (المختصر النافع فى فقه الإمامية) ... إلخ .

إنشاء إذاعة القرآن الكريم :

وهو القرار الذى يتكفل بتعطير الأثير بآيات الله البينات ، والذى مكّن كل راغب فى الاستماع إلى كتاب الله وتعلمه وحفظه أن يتلقاه من كبار الشيوخ ، وهو الذى تسابقت على تقليده الدول الإسلامية بعد ذلك ، وصار فى كل دولة

إسلامية إذاعة للقرآن الكريم ، وتطبيقا لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام : (من سن سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن عبدالناصر وهو مصدر القرار سوف يثاب على قراره بقدر ما كان للقرار العظيم أثر عظيم .

إنشاء مدينة البعوث الإسلامية :

وهو القرار الهام الذى أكمل فلسفة تطوير الأزهر الشريف بإنشاء مدينة للبعوث الإسلامية ، وهنا نتذكر أن الأزهر ظل طيلة ألف عام ونيّف قبلة أبناء المسلمين من مختلف أرجاء العالم الإسلامى يأتون إليه رجالا وعلى كل ضامر ، فيستقبلهم فى أروقته المتواضعة وغير المريحة ، فصارت مدينة البعوث الإسلامية التى أقيمت على مساحة هائلة فى قلب القاهرة تتضمن عشرات المبانى المناسبة التى تتسع لآلاف الطلاب والتى يجدون فيها طيب المقام بما يجعل إقبالهم على دراستهم تاما وخالصا للعلم والدين ، وكما كان ومازال الأزهر الشريف ومدينة البعوث الإسلامية يستقبلان صفوة أبناء العالم الإسلامى الراغبين فى العلم والدين (٨١) .

ومن الدراسات القيمة عن منهج عبدالناصر فى دعم الإسلام والمسلمين هذه دراسة نشرت للرئيس أحمد بن بلا ، ويليها دراسة للمفكر الكاتب الإسلامى الأستاذ محمد عمارة ، نشرتا فى كتاب (الناصرية والإسلام ـ الصادر عن مركز إعلام الوطن العربى) ...

يقول الفلاسفة : إننا نعيش فى زمن (الشك المذهبى) وكثيرون يعتقدون بأن (الله قد مات) قتيل العلم والتكنولوجيا والعقلانية والتطور ، الشك باعتباره منهجا معياريا لكل تأمل فلسفى ليس شيئا جديدا هو الشك المنهجى، المتشائم عمدا ، والمتولد عن غرق الأيديولوجيات والمنظومات فى الغرب، لكن هل تبرر مثل هذه المعاينة حكما أكثر تعميما يؤكد (موت الله) فى غير الغرب وفى كل مكان ؟

صحيح بمعنى من المعانى أن الثورة الصناعية التى أدت إلى تركيز اقتصادى وسياسى متعاظمين دوما مضافين لأن حافتهما ، ميلاد عقلانية مبتذلة تشكل خلفية النظام كله ، تعطى الأفضلية للكمى وللعلوم الدقيقة زعما ، كل ذلك جعل من المصنع

(٨١) الناصرية والإسلام - العقالى - ص ٣٦٥ .

كـاتدرائية لدين جـديد ومن الربح الأصل لكنيـسة جـديدة ، لكن من يسـتطيع أن يزعم بأن هذا قـد نجح تماما فى الغـرب نفسـه ؟ ظاهرة جـان الثـانى ، وجـماهيـر الشبـاب الفقـيرة المتدافـعة لتحـيته ، وإشـعاع بعض الكنائس فى أمـريكا الوسطى والجنوبيـة التى انحـازت للعدل ، وأكـثـر من ذلك أيضا ، مـا يجـرى وراء السـتـار الحديدى فى الجمهوريات الإسلامية أو فى بولندا مثلا ، سيما فى أوكرانيا وغيرها، ألا تدحض مثل ذلك الحكم ؟

من جهـته عـاش عالم الإسلام ومـازال يعيش على هامش مـثل هذا القلق، على هامش مثل أزمات الضمير هذه ،كـان الله فى عالم الإسلام حاضرا دائما، إنه حاضر فى الأفـعال الكبرى كما فى حـركات وسكنات الحياة اليومـية الأقل شأنا ، بينما الله اليوم غـائب عن الاهتمامات الجوهرية للكثيريـن فى الغرب ، فإن العالم الإسلامى يحيـا ، وخاصة عند الشباب ، فـترة من الحماس الدينى لا مـثيل لها منذ عقود من السنين .

الانحطاط السيـاسى الذى أصاب العالم الإسلامى أدى أحيـانا إلى الحديث عن انحطاط الإسلام ، وهذا الالتباس فقط يدل على جهل كبير بالإسلام ، لم يتأثر الإسلام جديا بانحطاطه السياسى ، أنه لم يتخل عن حدوده الجغرافية الموجودة إبان تدمير عصابات المغول لبغداد عاصمته السياسية والروحية .

تقيـيم الانحطاط السيـاسى نفسه ينـبغى أن يعاد فـيه النظر ويصـحح جديا ، فالخـلافة العثـمانيـة ظلت زمنا طويلا بدون نظير فى قلب أوربا نفـسهـا حتى سنة ١٦٨٣م كما ينبغى أن يصحح على الصعيد الثقافى ، فالحضارة المنغولية الباهرة لم تخرب إلا فى القرن الثامن عشر بسبب التـغلغل الاستعمارى الإنجليزى ، ألا يعيد اسم أكبر إلى الذاكرة أبهة حضارة مازال بريقـها المعمارى يثير العجب والإعجاب حتى اليوم ؟

مثل هذه الأخطاء مـصدرها الخطأ الشائع الذى يخلط فـيما يتـعلق بالإسلام بين الزمنى والروحى ، وحـتى فـيمـا يخص الانحطاط الزمنى فـمن الخطأ تأريخـه بسقوط بغداد فى ١٢٥٨م تـثبيته انطلاقا من الانحطاط السيـاسى للإسلام العربى من مساوئ مثل هذا الخطأ محو خمسة قرون من التاريخ .

ما كاد حكم خلفاء أكبر يتهاوى وما كـاد تقدم العثمانيين يصد حتى ظهرت أفكار جديدة فى العالم العربى ، فقد ساعـد حكم محمد على فى مصر على بزوغ حركة الإصلاح الدينى والثقافى والنهضة مـع ظهور جمال الدين الأفغانى وستبلغ الموجة عبر أمـواج متعاقبة تخـوم الإسلام لتحييه حتى أيامنا هـذه ولتتركز فى إيران مع الثورة الإسـلاميـة ، بينما الشباب فى كل مكان من أرض الإسلام يـتدفق على المساجد مطالبا باستـعادة هذه المساجد لوظيـفتهـا القديمة كخليـة حية توجه حـياة مجتمع يستظل بنور الإيمان بالله .

حركـة إصلاحية أخـرى تستمد تعـاليمها من نفس مـصدر حركة النهـضة (ابن تيميه) كانت قد ظهرت قبل ذلك فى قلب الجـزيرة العربية نفسها ، ، هذه الحركة قادها رجل بارز هو مـحمـد بن عبـدالوهاب ، عرفت فـيمـا بعد باسم (الوهابيـة) لكن هذه الحركة بـعد أن أحيت كثيرا من الآمال بقت هامشـية بينما أخصب فكر جـمال الدين الأفغـانى إخصـابا دائما العـالم الإسلامى ، هذه المسـاجد التى لا تفـرغ وهذه المنارات المتكاثرة الشاخصة نحو السماء ندين بها أولا لتعاليم جمال الدين الأفغانى .

جـمال الدين الأفـغانى هو فكر تجـسد فـعـلا ، لقد كـان شحنة أنعـشت جسـد الإسلام ، لكن رسـالة الإسلام وكذلك الهـيبة الروحـية والثقـافية والسـياسيـة لإسلام الانحطاط السياسى بقت عالقة فى قلوب من آمن به ، لكى لا تفارقهاأبدا ، حتى عندما يكون هذا الإيمان غير معاش بشكل كامل وغير مضطلع به على نحو صحيح .

سجلت سنة ١٤٩٢م إلى جانب سقوط غـرناطة حدثا هائلا مع بداية مغامرة لا نظيـر لها بالـنسبـة للغـرب لكن أيضا بدايـة انحراف سـيقـوى على مـر السنين والقرون ، تطور يجسده ويرمز إليه تصريح العالم الفرنسى (لابلاس) بخصوص الله مؤكدا أنه لم تعد له به حاجة كافتراض فى منظومته الفكرية .

كانت أوربا عند اكتشاف أمريكا تتحكم فى ٩٪ من الكرة الأرضية ، ولحظة انهيار الإمـبراطورية المغولية فى الـهند كانت تتحكم فى ثلثهـا ، وباتت تتحكم فى ثلثى الكرة الأرضية بعد مؤتمر برلين والاقتسام الاستعمارى للكرة الأرضية حوالى سنة ١٨٨١م وعشية الحرب العالمية الأولى كانت القارة الأوربية تسيطر على ٨٥ ٪ من أراضى القارات الخمس .

إله الغـــرب :

مع ميلاد هذا العام الجديد ظهر إله جديد ، هو الرأسمالية التجارية التى أعقبتها الرأسمالية الصناعـية التى ستولد منها الإمبرياليـة ، مثل هذا النظام لا يسمح بالوجود الدائم لإلهين اثنـين فى نفس الوقت ، وقـد تم هذا على حسـاب الإله الأول ، الأداة التى تغلبت عليه اسـمها البراديجم أو النمـوذج ، هذه الشريحة المقسمة فى الحقـيقة والتى تحفر وتثقب بدون هواده كمثـقب العظام ، أدى كل هذا إلى نجاحات مدوخة ، نزل الإنسان على سطـح القمر ، تراجع المرض تراجـعا مشـهودا ، اختـفت الأوبئة أو كادت ، انتشرت المعرفة بكثافة على الأقل فى نصف الكرة الغربى ، وبغض النظر عن مضمونها ، أما الحسنات المادية فمن ذا الذى يتجاسر على إنكارها .

لكن يا لفداحة الثمن الـذى دفعه الإنسان والطبيعة مـعا ! ، وبثمن أى تبذير سفـيه ؟ لأن هذا الإله الجديد ينفـث سم الأنانية التى بلغت مدى لم تـبلعه قط من قبل ، لقد اعتاد تاريخ الإنسانية على التضحيات الفردية والجماعية التى قامت على مذبح الطمـوح و (المجد) لكن هذا الإله سيغـتال عرقا بكامله ، العـرق الأحمر ، شمـال وجنوب أمريكا ، وسـيجـعل البيض الوافـدين من أوربا يستـأثرون بأرض الهنود الحمر ، والذين استطاعوا منهم البـقاء لم تكتب لهم الحياة إلا بانطوائهم فى تخوم غـابات الأمازون ، أو بحـشرهم فى حـظائرهم الخاصـة التى ليس بإمكانهم مغادرتها لأقرب مدينة لهم إلا إذا كانوا حاملين لجوازات سفر داخل نفس الأرض التى كانت قديما (مـوطنهم) من بقى حيا من هنود أمريـكا لا حق له فى الحياة إلا فى سراديب موت جديدة وحتى هنـا فهم مازالوا مطاردين ، ولكى يقطعوا نسلهم ها هم يحقنونهم وينشرون بينهم الإدمان على الكحول .

ملاحظة : الرئيس ابن بلا يولى اهتمامًا كبيرا بالجانب الإنسانى (ربما) فى موازاة مع الجانب الدينى وقد رأيناه هكذا بعد سنوات السجن الطويلة ، مع الأسف ، فى بلاده الجزائر التى ناضل من أجلها طويلا ، ولهذا لم نكمل المقال عن الهنود وغيرهم من المحرومين بحيث نورد الجانب الدينى كما يلى :

فى مواجـهة العلم والتكنولوجيـا والعقلانية وتـطور (الشك المنهجى) عند الفلاسـفة الجدد ، أليس الإسـلام فى هذا السياق ملجـأ ؟ محاولة للـتعلق بالماضى

أمام الحضارات الاجتماعية والثقافية التى لم يسبق لها نظير على وجه هذه الأرض، اسألوا أنفسكم ، إذا كان علينا أن نتحدث عن ملجأ ، فإنه ينطبق أكثر ما ينطبق على هذا الجزء من الشباب الغربى الحائر الباحث عن دين جديد ودخيل ، وعن آلهة جديدة ، الإسلام لا يرفض استخدام العقل، وهذا تحصيل حاصل وإنما هم يرفضون استعمال العقلانية للعقل ، وبالمناسبة فمن المفيد التذكير بأن (الكوجيتو) (أنا أفكر أنا موجود) قد صاغها حرفيا تقريبا الغزالى أى قبل ديكارت بأكثر من خمسة قرون، وليس من المستبعد نظرا لشهرة الغزالى فى أوربا يومئذ أن يكون ديكارت قد أخذها عنه ، لكن الغزالى قد استخدم (الكوجيتو) استخداما مختلفا قاده إلى التصوف ، ثم ينتهى ابن بلا إلى القول ، فى حين أن الله قد طرد من الحياة فى الغرب وحل آلهة آخرون محله ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين لا تعترف إلا بإله واحد، إله الإسلام، وهو نفس إله أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ..

قدرة الإسلام على تعبئة الناس فى إتجاه التقدم لا تحتاج إلى برهان ، فالتاريخ يشهد علينا بوضوح من وجهة شعبنا نحو التحرر غير الإسلام ، أليس افتراء على الكلمات أن ننسب للقومية معنى غير معناها الحقيقى عندنا، عندنا فى الجزائر ، فى المغرب ، فى تونس فى ليبيا ، فى مصر ، فى السودان ، وفى كل مكان من دار الإسلام فى مواجهة كل التحديات الخارجية وخاصة التحدى الاستعمارى والإمبريالى ، وعندما كانت جميع قناعاتنا تهتز وجميع أحلامنا تتلاشى ، ألم يكن آخر ملجأ لنا الذى هو غالبا رمز النصر هو (الله أكبر) الذى يحيي الهمم الخامدة ويزيل الخوف من القتال ، فى حرب رمضان كما فى غرة نوفمبر ١٩٥٤م ، كما فى زمان الأمير عبدالقادر من حرب الريف إلى حرب الحاج عمر فى أفريقيا السوداء ، من حرب المهدى فى السودان إلى حرب عمر المختار فى ليبيا .. انتهى(٨٢) .

وإذ كان أحمد بن بلا قد تناول الإسلام التقدمى فى هذا المقال فهو يعنى تمام كيف التزم جمال عبدالناصر بهذا المنهج ، وأنا شخصيا وكل من تعامل أو عرف الرئيس أحمد بن بلا يعرف موقفه من حكم جمال عبدالناصر وتقديره لكل أعماله، بل لقد رأيناه فى كل مناسبة علنية يقول أنه ناصرى حتى العظم .

(٨٢) الناصرية والإسلام - أحمد بن بلا - ص ٣٥٦ .

ولقد كان جمال عبدالناصر واضحا كوضوح شمس النهار فى قضية الإسلام مبدأ وعقيدة ، وها هو يؤكد ذلك فى الميثاق حيث يقول (وكان الفتح الإسلامى ضوءا أبرز هذه الحقيقة وأنار معالمها وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى ، وفى إطار التاريخ الإسلامى ، وعلى هدى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قام الشعب المصرى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة الإسلامية ، ثم كان قد تحمل المسؤلية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعية باسم الدين ، والدين منها براء .. انتهى[٨٣] .

ثم نلتقى بالمفكر الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ محمد عماره يقول بعنوان، هل كان عبدالناصر علمانيا ؟ :

فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٤م وإبان الصراع بين الثورة والإخوان المسلمين يخطب عبدالناصر فيقول : هم يقولون القرآن دستورنا ، ونحن نخلع الملك ، ونقضى على الفساد ، والظلم الاجتماعى ، ونحقق الجلاء ، فهل هذا الذى نعمله خروج على القرآن ؟ فالخلاف بين الفريقين ليس على القرآن ، بل إن ما بينهما هو مزايدة على القرآن ؟ !

وفى ٢٢ مارس ١٩٦٦م أثناء المرحلة الثانية من الصدام العنيف بين الثورة والإخوان ممثلين فى تنظيم المرحوم سيد قطب ، يخطب عبدالناصر فيقول ، لم تكن الرجعية أبدا شريعة الله ، ولكن شريعة الله كانت دائما هى شريعة العدل ، فأين هى العلمانية عند عبدالناصر الذى يقول أنه والثورة الملتزمون بشريعة الله ، وليس الإخوان المسلمين؟ !

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٢م يخطب عبدالناصر فى ذكرى وحدة مصر وسوريا فيقول : إن الإسلام ثورة ، والتضامن الإسلامى تحتاجه الشعوب ، وعن ذات القضية يتحدث فى خطاب ٢٨ مايو ١٩٦٢م قائلا ، بالنسبة للروابط الإسلامية ، إحنا طبعا أشرنا فى (الميثاق) إلى الإسلام والروابط الإسلامية ، ولقد أشير إلى هذا من أول يوم من أيام الثورة فى كتاب فلسفة الثورة ، فأين هو ذلك

(٨٣) الميثاق الوطنى - جمال عبد الناصر - ص ٤١ - ٤٢ .

التحول عن الروابط الإسلامية ؟ واستغراقها فى الوحدة العربية (الأكثر علمانية) كما يقول الدكتور لويس ؟

ولقد التزم عبدالناصر، والتزمت الثورة بالتصور الذى تحدث عنه كتاب (فلسفة الثورة) حول الدوائر التى تتحرك فيها مصر وهى (الدائرة الوطنية ، فالدائرة العربية ، فالدائرة الإسلامية ، وهى دوائر يسلم كل منها للآخر دونما تناقض أو تضاد ، ولم تكن الوحدة العربية فى فكر الثورة ولا فى ممارساتها نهاية المطاف ، ولا الدائرة التى تلغى روابط الجامعة الإسلامية والتضامن مع عالم الإسلام ، وفى هذا المعنى يقول جمال عبدالناصر فى خطاب ٢٧ مايو ١٩٩٧م إن الأمة العربية لا ترى أى تعارض بين قوميتها العربية المحددة وبين تضامنها القلبى والأخوى مع الأمم الإسلامية ، أى أن الأمة العربية بقواها التقدمية الثورية لا ترى فى الإسلام عائقا عن التطور ، بل تراه ، بحس وإيمان، دافعا لهذا التطور ..

من الذى يستطيع أن يغفل دلالة زيادة تركيز عبدالناصر على دور الدين فى عملية إنهاض الأمة لمواجهة الهزيمة التى حلت بها فى يونيو ١٩٦٧م ؟ لقد عاش عبدالناصر السنوات التى أعقبت الهزيمة ولا هم له أكبر من بناء القوة الضاربة القادرة على تحقيق النصر وإزالة عار الهزيمة ، والذين يطالعون خطبه وأحاديثه وخاصة إلى الجنود والضباط يلمسون التركيز على دور الإيمان والتدين فى هذا العمل الكبير الذى ختم الرجل به حياته ، ففى حديثه إلى الجنود والضباط يوم ١٠ مارس ١٩٦٨م يقول ، عاوز كل عسكرى يكون مؤمنا بالدين وبالمبادئ والقيّم ، ولازم التوجيه المعنوى يعمق هذه المبادئ ، ويجعل عامل الإيمان بالله أساسيا فى توعية الجندى ، وهذا الإيمان الذى يملأ قلب كل واحد يدفعه ألا يتردد فى وقت الشدة ، وقد لمستم ذلك فى المعركة وعشتم أيامها ، وأدركتم قوة المبادئ والإيمان .

وفى خطابه فى اليوم التالى ١١ مارس ١٩٦٨م يتحدث عن عوامل النصر فيقول ، بالإرادة والإيمان بالله والثقة بالنفس والتدريب والجهد وبالعلم نستطيع أن نحيل الهزيمة إلى نصر ، بل إننا لواجدون فى فكر الثورة ما يقطع بوعيها بقيام العلاقة بين الدين الإسلامى وبين الدولة ، الأمر الذى يجعل الحديث عن علمانية هذه الثورة وقائدها ضربا من التزييف لحقائق الفكر ووقائع التاريخ ، ففى المذكرة

الإيضـاحيـة لقـانون تطوير الأزهر رقم ٦٠٣ بتـاريخ ٢٢ يوليـو ١٩٦١م نقـرأ هذه العبارة ذات الدلالات الهامة ، إن الإسلام فى حـقيقته لا يفرق بين علم الدين وعلم الدنيا إنه دين اجـتماعى ينظم سـلوك الناس فى الحياة ليـحيوا حـياتهم فى حب الله عاملين مؤثرين فـى المجتمع فى ظل طاعة الله ، والإسلام يفـرض على كل مسلم أن يأخذ بنصيبه من الدين والدنيا ، فكل مسلم يجب أن يكون رجل دين ورجل دنيا .

فهـذه العبارات التى تضمنتـها هذه الوثيقـة الرسمية من وثائق حكومـة الثورة حاسمة لا فى نفى العلمانية بمعنى فـصل الدين عن الدولة فقط وإنما هى حاسمة فى نقض العلمـانية وفى العـداء لها ، وفى كلمـات عبـدالناصر نجـد ذات المعنى ونفس الموقف ، ففى خطابه يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٣م يقول : فيه ناس بيقولوا إن الإسلام دين رجعى ، وأنا أقول أبدا ، الإسلام دين تقدمى ، هو دين التطور والحياة ، الإسلام يمثل الدين ويمثل الدنيا ، لا يمثل الدين فقط ، الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية ..

وعندما تخرج إذاعـات بعض الدول العربية المناوئة لعبـدالناصر تتهكم على اعتـماد الثورة وقائـدها على الفكر الإسلامى ، يتناول عبـدالناصر هذه القضـية فى ذات الخطاب يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٣م فيعلن أن علاقة الدين بالدولة فى وطن الأمة العربيـة هى حقيقـة تاريخية ، وأن هذه الأمة عـلى امتداد تاريخهـا لم تمكن لحاكم خـارج على الدين من السلطة والسلطـان فى بلادها ، ثم يقول : عـلى طول عمـر المنطقـة كانـت قد تمسكت بالـدين ، وطول عمـر هذه المنطقـة العـربية دافـعت عن الدين، وطول عـمر هذه المنطقـة تدافع عن الدين ، ولـم تمكن أى خـارج عن الدين من أن يكون صاحب سلطان فيها ، فـأين هى العلمانية يا ترى ؟ تلك التى يتحدث عنها الدكتور لويس ، وأين وجدها ؟ وها هو ذا فكر الثورة من خلال فكر قائدها ، ومن خلال وثائقها القانونية شاهد صدق وعـدل على نفيها للعلمانية ، بل وعدائها لمضمونها الأساسى ، وهو فصل الدين عن الدولة ؟!

وأكـثر من فكر الثـورة فى نفي العلمـانية تقـوم (ممارساتهـا) والواقع الذى ورثته وطورتـه وأضافت إليه ، مع الحـفاظ على طبيعـته ، وكلها شـواهد على أن الحديث عن علمـانية مـصر الناصرية هو ضـرب من تزييف حقائـق الفكر ووقائع التاريخ ، فمنها :

١ - المساجد الجديدة التى ارتفعت مآذنها فى سماء مصر الثورة تنفى عنها العلمانية .

٢ - والنمو الملحوظ فى ميزانيات الأوقاف شاهد ثان من شهود الواقع على إسلامية مصر الثورة .

٣ - وقيام منظمة المؤتمر الإسلامى شاهد ثالث .

٤ - والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وسلاسل الكتب التى أصدرها وأنشطته بين الشباب المسلم شاهد خامس .

٥ - والمراكز الإسلامية التى أقامتها مصر الثورة وأنفقت عليها خارج حدودها شاهد سادس .

٦ - والعداء للفكر المادى ومنع تدريسه للبعثات التى ذهبت للتدريس فى المجتمعات الماركسية شاهد سابع .

٧ - واهتمام الإذاعة المسموعة والمرئية بالفكر الإسلامى شاهد ثامن .

٨ - والتوسع فى التعليم الإسلامى من خلال الأزهر وجامعته ومعاهده شاهد تاسع .

وهذه شواهد تضاف مع مثيلاتها الكثير ، إلى فكر الثورة وقيادتها لتجسد لنا حقائق الفكر ووقائع التاريخ فى مصر ثورة ٢٣ يوليو ، وهى الحقائق والوقائع التى تقول : لقد كان المشروع الناصرى مشروعا قوميا يلى فى التاريخ ويتماثل فى الأهمية مع مشروع محمد على باشا وسابقه مشروع الناصر صلاح الدين الأيوبى (١١٣٧ - ١١٩٣) وهذا المشروع الناصرى وإن لم يكن إسلاميا خالصا فإنه بالقطع ليس علمانيا ، وإنما هو خطوة على درب الإحياء لذاتية الأمة الحضارية ، ولخصوصيتها المتميزة ، وهى ذاتية وخصوصية يمثل الإسلام الحضارى جوهرها ، إحياء هذه الذاتية وإبراز هذه الخصوصية فى مواجهة الغرب وفكرته العلمانية وتحدياته التى فرضها على وطن العروبة وعالم الإسلام ، من هنا فإن هذا المشروع الناصرى هو خطوة هامة من الناحية الموضوعية نحو (أسلمة) الحياة والنهضة فى عالم الإسلام ، ومن هنا جاءت مواجهة الغرب لهذا المشروع على نفس المستوى الذى واجه به المشاريع النهضوية التى سبقته على درب النهضة والتحرر والإحياء .

تلك هى حقيقة المشروع الناصرى الذى قال عنه الدكتور لويس عوض أنه الحقبة العلمانية الرابعة فى تاريخ مصر الحديثة .... انتهى (٨٤) .

ولعله من تحصيل الحاصل أن نقول إن خلاف الإخوان المسلمين مع عبدالناصر وثورته ما كان إلا من أجل الحكم والمصالح الآنية ولا شئ غير ذلك ، وأن اتهامهم لعبدالناصر بمخالفة الإسلام إنما هو زور وبهتان ولا علاقة له بما تتخذه الثورة من قرارات وإجراءات ، فهذا منظر الجماعة (سيد قطب) يقول فى كتابه معركة الإسلام والرأسمالية نادى فيه بما يلى :

(تحديد الملكية بشكل واضح وصريح بل وتطرف إلى القول ، بأن الملكية الزراعية فى مصر تقوم على أسس غير شرعية لأنها ثمرة امتيازات الطبقة الحاكمة وأذناب الاستعمار والقروض الربوية ، وأنه إذا تم مصادرتها على الإطلاق وليس التحديد فقط ، فلا تواجه تلك المصادر مأزقا شرعيا ، ويستمر فى القول محذرا من تعويض كبار الملاك عما يؤخذ منهم من أراض تجاوز ما سوف يحدد حيث قال ، إننا إذا دفعنا لهم تعويضا حولنا الإقطاع الزراعى إلى إقطاع رأسمالى وليس فى هذا مصلحة الشعب .. انتهى .

يجدر بنا هنا أن نتساءل ، أيوجد ما يبرر الخلاف على أساس هذا التفكير بين الثورة والإخوان أى بين عبدالناصر والإخوان المسلمين ، فإذا كان منظّرهم (سيد قطب) ينادى بالتأميم بل والمصادرة وعدم التعويض فأى خلاف يمكن أن يظهر معهم حول قانون الإصلاح الزراعى مثلا ؟ فإذا كان الرد بأنه لا يجب أن يكون هناك أى خلاف بناء على رأيهم هم أنفسهم ، فإنه لا شئ آخر يمكن أن يفسر تهجمهم ومعاداتهم لعبدالناصر وثورته غير السلطة والحكم ، بل هم كانوا قد رفضوا حتى المشاركة فى الحكم ببعض الوزراء وإنما اشترطوا استشارتهم فى كل شئ بما فى ذلك إصدار القوانين ، يعنى فرض الوصاية على الثورة .. ويذكر أن حق ملكية الأراضى الزراعية من وجهة نظر جمهور الفقهاء الإسلاميين هى وظيفة اجتماعية يحسن أن تعالج فى إطار مصلحة المجتمع وفى إطار عدم تراكم الثروة ،

(٨٤) عن الناصرية والإسلام - محمد عمارة - ص ١٥٩ .

تحقيـقا للهدف القرآنى فى قـوله تعالى ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشـر - ٧] .. لقد تعلمنا عبر كل مراحل التـاريخ أنه ليست الوصاية أو المشاركة ممكنة أو مقـبولة من جانب أولئك الذيـن يقومون بأعمـال تاريخية كـبيرة كـالثورة والتغـيير الاجتمـاعى والسياسـى فلا يعقل أن يقـدّموا بالمجّـان هالات المجد على غيرهم ، وهو أمر طبيعى فى حياة البشر .



جمال عبدالناصر مع القرآن فى رحاب الأراضى المقدسة ،اداء فريضة الحج
وهى فريضة على كل مسلم ومسلمة

❁ ❁ ❁

الفصل السابع

١- معركة السد العالى وتأميم قناة السويس .

٢- النصر السياسى فى المعركة .

٣- الوحدة مع سوريا ، فوائد وخسائر .

٤- دوافع وأسباب الانفصال .

٥- لماذا الميثاق الوطنى ؟

الفصل السابع ،،

١- معركة السد العالى وتأميم قناة السويس .
٢- النصر السياسى فى المعركة .
٣- الوحدة مع سوريا ، فوائد وخسائر .
٤- دوافع وأسباب الانفصال .
٥- لماذا الميثاق الوطنى ؟

يقول الميثاق ، عن أصداء النصر الذى حققه الشعب العربى فى مصر لم تقتصر على آفاق المنطقة العربية ، وإنما كانت التجربة الجديدة الرائدة آثارها البعيدة على حركة التحرر فى أفريقيا وفى آسيا وفى أمريكا اللاتينية .

إن معركة السويس التى كانت إحدى الأدوار البارزة فى التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصرى نفسه ، أو اكتشفت فيها الأمة العربية إمكانياتها فقط ، وإنما كانت هذه اللحظة عالمية الأثر رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على أمرها أن فى نفسها طاقات كامنة لا حدود لها ، وأنها تقدر على الثورة ، بل إن الثورة هى طريقها الوحيد .

فى هذا الفصل بدأنا استدلالا بما جاء فى الميثاق فقط لأنه منهج العمل الذى سارت عليه ثورة عبدالناصر فى طريقها الوعر والذى بثت فيه آلاف الألغام فى مصر والعالم العربى وما يحيط به والتى فجرت تباعا لتدخل مصر وعبدالناصر فى حروب ومآسى لم تتوقف ، وفى هذا يجب علينا أن نشير إلى أن جمال عبدالناصر منذ البداية ألزم نفسه بتأييد الشعوب المناضلة من أجل الحرية والاستقلال والوقوف مع الثورات العربية أولا والعالمية ثانيا ، وفى هذا الالتزام كان عليه أن يستخدم إمكانيات مادية وعسكرية وإعلامية لم تكن لتتوفر له وقتئذ ، إضافة إلى أن بعض الحركات أو الثورات والانتفاضات قامت فى مناطق شعوبها لم تكن قد تهيأت لتغييرات مدويّة كحالة (لومومبا) فى الكونغو ، و(السلال) فى اليمن ... إلخ

وعلى الرغم من أن تلك الإمكانيات لم تتوفر له فقد فاتته فرص التراجع (وهو من النوع الذى لا يتراجع) وكان الثمن باهظا ، ورغم أن الأعمار بيد الله فإنه يمكننا القول إن تحقيق الوحدة مع سوريا قد بعث فيه أمل كبير (وسنفصّل فى هذا الموضوع) فى حين أن الانفصال قد أهدر آخر قطرة من دمه ! ..

وإذا كان أول بند فى هذا الفصل عن السد العالى ويليه تأميم قناة السويس وهما موضوعان مرتبطان وقد قيل وكتب عنهما الكثير فلا نود أن نفصّل فيهما غير اعتبارهما نقطة بداية ، يقول الأستاذ عبدالله إمام عن مشروع السد العالى :

(على أن من أهم ما أسفر عنه وجود مجلس الإنتاج القومى هو ما قررته لجنة من الخبراء العالميين فى اجتماعها يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٤م من إنشاء أكبر وأهم مشروع في مصر بالقرن العشرين وكانت اللجنة مكونة من (المستر كارل ترزاكى والمستر مستول من الولايات المتحدة الأمريكية ، والمسيو أندرى كوين من فرنسا والهر ماكس بروس من ألمانيا الغربية والمستر لورنج شرادب من أمريكا ، ثم انضم إليهم يوم ١٨ نوفمبر المسيو أنسى الفرنسى ، وفى ٢٦ نوفمبر انضم إليهم الهر مور الألمانى .

كانت هذه لجنة الخبراء العالميين الذين درسوا مشروع السد العالى وحددوا مكانه واختاروا موقعه وصمموا قطاعاته ، وكان يشاركهم فى العمل فى جميع مراحله خبراء مصريون ، ويلاحظ أن لجنة الخبراء التى درست مشروع السد العالى وأقرته ليس فيها سوفييتى واحد ، فهى لجنة ضمت أكبر الخبراء فى أمريكا وألمانيا الغربية وفرنسا .

وقد درست اللجنة تكاليف المشروع وتأثيراته على الإنتاج الزراعى والإنتاج الصناعى ، كل إيجابياته وكل آثاره الجانبية ، وفى ٤ ديسمبر ١٩٥٤م قدم الخبراء تقريرا موحدا أجمعوا فيه على صلاحية مشروع السد العالى .. انتهى وبقية القصة معروفة فقد تراجعت أمريكا عن وعدها وكذا بريطانيا والبنك الدولى ، بل لم يكتف وزير خارجية الولايات المتحدة بقرار سحب الوعد الأمريكى وإنما تطوّع بالتشكيك فى قدرة الاقتصاد المصرى على مواجهة ما يترتب على هذا المشروع، ويذكر أنه قال (إن أمريكا قد عرفت تكاليف الأسلحة التشيكية وتكاليف السد

العالى وهذا سيكون حمـلا كبيرا على الاقتصـاد المصرى وهو يرتاب الآن أن مصر ستكون قادرة عـلى أن تدفع ثمن الأسلحـة وتكاليف بناء أكـبر سـد فى العـالم) وشنت وسـائل الإعـلام الأمريكـية والغـربيـة فى وقت واحـد حمـلة تشكيك فى الاقتصاد المصرى وفى قدرة مصـر على مواجهة تلك التكاليف ، وكان على جمال عبدالناصر كما أشرنا سابقا أن يرد بما يتناسب مع الموقف المستجد وما يحفظ لمصر كرامـتها ، وهكذا أقـدم على أجرأ خطوة هزت أركـان الغرب الذى لم يعـتد على مـثل ذلك الرد، ومن هنا بدأت المواجهـات الحقـيـقـيـة بين رجل يريد أن يبنى بلده ويخدم أمـته وبين دول لا تستسـيغ من يرفض أو يرد ما أشـارت به ، أمم الرئيس جمـال عبـدالناصر قناة السـويس وتحدث عن المرغوب والمـرفوض ، فى حين أراد الغرب ألا يوقف المشروع فقط بل أن يكسر رأس ما أطلق عليه ألقاب (الديكتاتور الصغير) و (هـتلر الشرق) ... إلخ . ولقد قال عبدالناصـر فى خطاب التأميم يوم الثلاثاء ٢٦ يوليو ١٩٥٦م وهو يقف فى ميدان الحرية بالإسكندرية :

(لقد جاء الخـبير المالى الأمريكي السيد (يـوجين بلاك) إلى مكتبى وعندما جلس فى مواجهتى تخيلت مسـيو (دي ليسبس) الرجل الفرنسى الذى كان لديه تفويض بـحفر القناة ، عنـدما زار الخديوى دى ليـسبس ، (كـرر عبدالـناصر اسم ذلك الفرنسى لأنه كان قـد أمر رجاله بالاستيلاء على شـركة قناة السويس وتأمين جميع مرافقها والسيطرة على وثائقهـا ومستنداتها بمجرد أن يذكر إسم دى ليسبس عدة مرات) كانت الخطة مدروسة ومعالمها محددة لدى رجال عبدالناصر المنتظرين فى السـويس والإسمـاعلية ، هؤلاء الرجـال الذين يتزعـمهم المهنـدس (محـمود يونس) قامـوا على الفور بما كـان مطلوبا عندما سـمعوا الرئـيس يذكر إسم (دى ليـسبس) استمـر عـبدالناصـر ، قرر مـجلس الوزراء حل الشـركـة العالميـة لقناة السويس الملاحية وكل الأجهزة الأجنبية الأخرى المرتبطة بالقناة ، وسيعوّض حملة الأسهـم طبقـا لأعلى سعـر فى سوق الأوراق الماليـة فى القاهرة ، ستـتـولى وزارة التجارة المصرية إدارة القناة ، أن القناة ملك لنا (هنا ارتفع صـوت عبدالناصر عاليا مجلجلا مما يدل على التحدى) وسيكون دخلهـا ملكنا فى المستقبل ، ولقد حفرت القناة بأيـدى مـصـرية ومـات مـا يزيد على مـائـة وعـشـرون ألف مـصـرى وهم يحفرونهـا، وستؤلف شركة جديدة لقنـاة السويس وستعتمـد من الآن وصاعدا على

قوتنا وعلى عضلاتنا ، وستكون القناة تحت إدارة المصريين، (كرر كلمة المصريين عدة مرات) ثم قال ، هل تسمعوننى ؟ المصريين .. ثم أضاف عبدالناصر فى خطابه ، لقد عرضت علينا الولايات المتحدة وبريطانيا سبعين مليونا من الدولارات كمساعدة فى بناء السد، وأن الدخل السنوى لقناة السويس يبلغ مائة مليون دولار ، ففى مدى خمس سنوات سيكون لدينا نصف مليار دولار من قناتنا نستخدمها فى بناء السد .

وهكذا خلّص عبدالناصر بلاده من سرطان يسيطر عليها ويهددها بالموت البطئ ، وأعاد عبدالناصر لبلاده (مصر) قناتها التى حفرها أبناؤها على مدى عشر سنوات ، لقد كانت صيحة الحق مدوية فى أرجاء العالم ، وكانت غصّة فى حلق إيدن ودالاس وجى موليه وغيرهم فى الغرب ، احتجت بريطانيا ، وقالت فرنسا إن الرد لابد أن يكون بالسلاح ، أما دالاس فقال (إنها صفعة محزنة) أما عبدالناصر فقد كان يتلقى التهانى من كل مكان فيه نسمات الحرية ، وكان موقف الاتحاد السوفييتى مشرّفا .

وإذ كان السد رمزا للثورة وصورة من صور التحدى والعزّة الوطنية فقد تحدث عبدالناصر فى مناسبة بدء العمل فيه يوم ٩ يناير ١٩٦٠م قائلا :

(أيها الأخوة هذا هو السد العالى الذى دارت من حوله المعارك وحارب من أجله الأبطال ، هذا هو السد العالى الذى شهد كل هذا الكفاح واستحق كل هذا الكفاح لا بسبب قيمته الذاتية فحسب بل لأنه أصبح كرمز لتصميم الأمة العربية كلها على أن تسير فى بناء وطنها الكبير المتحرر ، قيمته الكبرى أيها الأخوة تصميم بلدنا إننا نستطيع الصمود للعواصف ، وقد صمدنا للعواصف وعشنا فيها ثم عشنا بعدها ، صمدنا للعدوان وعشنا فيه ثم عشنا بعده ، هذه أيها الأخوة هى القيمة الكبرى للسد العالى بالنسبة للأمة العربية كلها ، إن الشعوب تقيم نصبها التذكارية تخليدا لانتصاراتها الكبرى وإننا لنعتبر أن السد العالى هو النصب التذكارى لمعركة العرب وانطلاق القومية العربية لتحقيق دورها التاريخى ، دورها الإنسانى ، إنه تذكار أيها الأخوة يتناسب فى ضخامته ويتناسب فى فوائدة ويتناسب فى آثاره مع عظمة الأمة التى أنشأته.

إنه تذكار حي خلاّق وليس مجرد حجر أصم تلقى الزهور من حوله ، إنه حياة جديدة متجددة ، إنه قوة دافعة للتطور ، إنه عون وذخر وسند في معارك طويلة على طريق طويل من أجل تحقيق الأهداف العربية الكبرى . انتهى [٨٥].

ولقد تأكد حقيقة أن السد العالى كان ذخرا وسندا لمصر رغم كل حملات التشكيك التى جاءت بها أقلام مأجورة لا ترى الحقيقة ولا تعترف بالنتائج مهما كانت واضحة ، تأكد أنه ذخرا لمصر عندما أعلن علماء مصر أنه لولا السد العالى لكانت مصر قد عانت من الجفاف الذى ضرب القارة الأفريقية منذ قرابة عقدين من الزمان ، إضافة إلى ما وفّر من كهرباء لأكثر من ثلاثة آلاف قرية مصرية ، ومع الأسف فقد شكك هؤلاء حتى فى وجود الكهرباء لأن منهم من قال أن الفلاح قبل الكهرباء كان ينام مبكرا وينهض مبكرا ليعمل ! !

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل : الخطوة الأولى فى مجال التنمية ، وقد كانت فى مجال رد الفعل أكثر منها فى مجال الفعل ، بدأ عبدالناصر يفكر فى الطريقة التى يمكن بها وضع خطة كاملة للتنمية الاقتصادية فى مصر ، وأقرّ توصية لمجلس الإنتاج فى ذلك الوقت بأن يعهد إلى بيت خبرة أمريكى عالمى ، هو بيت (آرثر دوليتل) الشهير ، بإجراء مسح شامل لإمكانيات مصر الاقتصادية ، وكيف يمكن التخطيط لها تخطيطا شاملا ، وفى نفس الوقت كان جمال عبدالناصر يدرك أهمية قيام جهاز تخطيط وطنى ، ومع أنه كان يعتقد أن التخطيط أرقام ، فقد كان يشعر فى نفس الوقت أن التخطيط التزام أيضا ، كان ذلك فى سنوات (١٩٥٣م- ١٩٥٤م -١٩٥٥م (وجاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦م ، وكانت حرب السويس فى حقيقتها حرب على التنمية فى مصر ، فقد كان محورها هو السد العالى ، وكان تأميم القناة هو رد جمال عبدالناصر على سحب المساهمة الأمريكية البريطانية فى السد العالى ، وعلى إحجام البنك الدولى إثر ذلك عن أن يقوم بتمويل المشروع .

وكان السد العالى هو التجسيد العملى لآمال عبدالناصر الطموحة فى التنمية ، وكان بين حجج جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية وهو يسحب المساهمة الأمريكية فى تمويل السد ، هو أن مصر وشعبها وميزانيتها لا

(٨٥) مجموعة خطب عبد الناصر - المجلد الثالث .

تستطيع تحمل أعباء مثل هذا الحلم العملاق"! وأثناء حرب السويس وبعدها أضاف جمال عبدالناصر إلى إمكانيات ووسائل التنمية عنصرين جديدين :

١ - قناة السويس وقيمتها الاقتصادية ودخلها .

٢ - مجموعة البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية التى كانت مملوكة للإنجليز والفرنسيين والبلجيك ، وقد وضعت هذه المصالح تحت الحراسة فى ظروف الحرص أولا، ثم صدر قرار بتمصيرها ثانيا ، ثم تغير التمصير إلى التأميم ثالثا ، وكانت تلك أول نواة للقطاع العام يقوم بدور طليعى فى عملية التنمية .. انتهى (٨٦).

ولا أعتقد أننى فى حاجة إلى تفاصيل ما حدث فى عملية التأميم إذ إنها قيلت وكتبت ، وربما يكون من المفيد أن نذكر بعض المعلومات عن القناة نفسها وقد أصبحت مصرية بالواقع والقانون والإرادة الوطنية الصادقة ، فالقناة تربط البحر الأبيض من جانب بورسعيد بالبحر الأحمر عند مرفأ السويس ، وهى تربط القارات الأربع (أوربا ، أفريقيا ، آسيا ، أستراليا) وطولها يبلغ ١٦٠ كيلومترا وأشرف على حفرها المهندس الفرنسى (فردينان دى ليسبس) بامتياز عقده خديوى مصر إسماعيل باشا مع الشركة ومدته ٩٩ سنة بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤م وكانت مصر تابعة للدولة العثمانية ، وقد بدأ العمل فى الحفر فى ١٧ إبريل ١٨٥٩م وانتهى فى ١٧ أكتوبر ١٨٦٩م وعمل فى حفرها آلاف المصريين سخرة حيث مات منهم أعداد كبيرة من العمل الشاق والكرباج والجوع .

النصر السياسى بعد السد والتأميم :

كانت قضية السد العالى أمل مصر فى التقدم والبناء وهدف ثورة جمال عبدالناصر فى العزّة والاستقلال الحقيقى الناجز ، وكان تأميم قناة السويس الرد العملى البارز على القدرة والتصميم ورفض الخضوع للقوى العالمية التى أرادت إخضاع مصر وعبدالناصر ، وكان خطاب جمال عبدالناصر (حانحارب) فقد وقف شامخا على منبر الأزهر الشريف يوم الجمعة الأول من نوفمبر ١٩٥٦م

(٨٦) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكل - ص ١٠٥ .

وكـانت إسرائيل قـد بدأت هجـومهـا على الأراضى المصـرية يوم ٢٩ أكتـوبر ٥٦ ووجـهت كل من بريطانيا وفـرنسـا إنذارهما المشـؤوم يوم ٣١ أ كتـوبر ١٩٥٦م ، أعلن جمال عبدالناصر هناك ردا حاسما (حانحارب) وبذلك يكون قد حقق أول انتصـار على التردد أو الخوف رغم مـا كان يعرفه جـيدا من خسـائر فى الممتلكات والأرواح ، ولقـد انتصـر ثانيـا عندما وزعت أجـهـزته نصف مليـون قطعة سـلاح وبدأت مواكب الفـداء تأخذ طريقها لردع الـغزاة من شعب جديد بشـرف النضال دائما من أجل الحرية والكرامـة مكوّنا ملحمة جهادية فى مـواجهة بوارج وطائرات وكل أسلحـة الأعداء ، وانتصـر ثالثا عندمـا بث روح المقاومـة فى نفوس مـواطنيه الذين يعلم علم اليقين أنهـم لا يقبلون الضيم، ولقد أراد الله القـادر أن يجعل من عبدالناصر بطلا عالميا على إثر اندحار هذا الغزو البربرى، ولابد أن عبدالناصر عند وقفـته على منبـر الأزهر الشريف كـان يعرف صـمود شعـبه ضـد الغزاة عـبر كل مراحل التاريخ ، ونحن نستذكره وهو يقـول فى كتاب فلسفة الثورة (لقد أراد الله أن ينقذ الحضـارة ويرد السلام إلى الأرض بأيدى المصريين ، فانتـصرنا على المغول فى مـوقـعة (عـين جالوت) مـن أرض فلسطين فلم تقم لهم بعـد ذلك قـائمـة ، ويضيف: ولـم تكد مصر تفرغ من هم الحروب الصليبية حتى كان المغول الزاحفون من وراء سد الصين قد بلغـوا فى زحفهم حدود بلادنا، بعـد أن دمّروا فى طريقهم إلينا بغداد عـاصمة الخلافة العـباسية ، ووطئت خـيلهم بلاد الشام ، ولم يبق إلا أن يأكلونا كـما أكلوا كل الأمم التى اعـترضـت سبـيلهم منذ خرجـوا من مجـاهلهم يجـتاحـون البلاد بالـويل والدمار ، ولقـد توالت الانتـصارات بعـدئذ ، الانتصـار السياسى فى حرب السويس ، وكان انتصارا مضمخا بالدماء الزكية واندحر الغزاة حيث ارتفع عبدالناصر محليا وعربيا وعالميا وكان جديرا بذلك .

وعلى الرغـم من مـواقف بعض الرفـاق فى الدعوة إلـى الاستـسلام واتهـام جمـال عبدالناصر بأنه بـعناده سيدمر مـصر (كمـا فعل صلاح سالم رحـمه الله) فلقد مثل عبدالناصر بذلك الموقف إرادة أمته العربية وشعبه المصرى فى ظرف كان صعبا ومـرحلة كانت عصيبة ، ولقـد أراد أن يقدم حياته فداء لأمتـه عندما سار فى موكب عبر شوارع القاهرة متجـها إلى الأزهر الشريف يركـب سيارة مكشوفة تحت سماء تئز فيها محـركات طائرات الأعداء ، فعل ذلك وهو يعلم مقدار الخطر لكنه

كان محاطا بألوف من شعبه المناضل يؤازرونه وهم يرددون قائلين : إن مصر مقبرة الأعداء مما زاده قـوة وهو قوى، وعندما وقف على المنبر ليـخاطب أناس متـجهون بقلوبهم وأرواحـهم إلى الكعـبة لم يتـردد ولا اهتـزت نبرات صـوته رغم الظرف الحالك السواد ذلك لأنه مؤمن بوطنه وأمته ، قال :

أيها المواطنون ، فى هذه الأوقات الحاسمة من تاريخ وطننا ، أتحدث إلى كل فرد منكـم ، فى هذه الأوقات يتجـه تفكيرنا جـميـعا إلى الوطن وسلامـته وشـرفه وكرامته إما أن نحـيا حياة شريفة كريمة، وإما أن نحيا حـياة زكية أو نموت بشرف ، كنا ننادى دائما بالسلام ، ونعمل من أجل رفاهية مصر ، كنا نقول نسالم من يسالمنا ونعـادى من يعادينـا ، لقد بدأت إسـرائيل بالعـدوان بلا سبـب ، واتضحت أبعـاد المؤامرة ، مؤامرة انجلترا وفرنسا وإسـرائيل بهجوم إسرائيلى مفاجئ يوم الإثنين ٢٩ أكتوبر علينا .

لم يكن هناك سبب للتآمر إلا الحقـد من فرنسا وإنجلترا ، فى يوم ٣١ أكتوبر قدم إلينا إنذار بوقف القـتال ، والانسحاب عـشرة أميال من القناة ، كـانت الملاحة مستمرة ومنظمة ، وكانت إسرائيل بعيدة عن القناة ، إذ كان الإنذار لمصر وحدها ، طبعا رفضنا الإنذار ، بدأت فرنسـا وإنجلترا فى ضرب المطارات المصرية ، ثم بدأت الغارات الـبريطانيـة الفرنسـية على القـاهرة والإسكندرية ومنطقة قناة الـسويس ، ظهـر أن خطتهم تدمـير قـواتنا المصرية الجـوية ، وسحب جـيشنا إلى داخل سـيناء وتدميره هناك ، ثم احتلال مصر دون أى مقاومة .

كان لابد من اتخـاذ قرار خطير نحـبط به المخطط ، وأصدرنا قـرارا للقوات المسلحـة بأن تنضم إلى الشعب غـرب السويس ، وبهذا أنـقذنا قواتنا المسـلحة من عزلها وتدميرها فى صحراء سيناء .

لقد أعلنت مـصر دائما أنهـا ستقـاتل دفاعا عن سيـادتها ودفاعـا عن الحرية والعزّة والكرامة ، إنـنا نقاتل قتالا مريرا ، ولن نسـتسلم ، دفاعا عن شـرف مصر ، دفاعا عن كرامة مصر ، دفاعا عن حرية مصر .

لقد صدرت الأوامـر بتوزيع السلاح على الشعـب ، ليكن شـعارنا ، سنقاتل ولن نستسلم ، سنقاتل ، سنقاتل ، سنقـاتل .. كان هذا فى يوم ١ نوفمبر ١٩٥٦م، وبدأ الهجوم على بورسعيد .

دولتان كبيرتان استعماريتان ، إنجلترا وفرنسا تهاجمان بورسعيد بالأساطيل والطيران والقوات البرية ، نزلت القوات البرية فى بورسعيد جوا وبحرا ، وقفت بورسعيد كلها وقفة الأبطال ، ولقد قاتل رجالها بشرف وفدوا الأمة العربية كلها .

لقد أكدت المعركة والصمود أن شرف الأمة العربية واحد ولا يتجزأ ، وأن العدوان على بلد فى الوطن العربى إنما هو عدوان على كل البلاد العربية والأمة العربية ، ويقول جمال عبدالناصر ، يوم العدوان اتصل بى الملك سعود تليفونيا وقال لى : إن جيش المملكة العربية السعودية تحت تصرفنا ، وأن أموال المملكة العربية السعودية تحت تصرفنا ، وفى نفس اليوم اتصل الملك حسين تليفونيا وقال: إن الجيش الأردنى مستعد لأى أمر تراه القيادة المشتركة ، وفى ذات اليوم اتصل بى الرئيس شكرى القوتلى وعرض فتح جبهة ثانية للتخفيف عن مصر ، إن القومية العربية لم تعد كلاما يقال .. إن القومية العربية أصبحت عملا فعالا .



عبـــدالناصر من على منبر الأزهر الشــــريف يقف شامخـــا متحـــديا ويقول (حانحارب) ولن نستسلم وسننتـــصر بإذن الله لأننا نطلب حقـــاً ، كان ذلك فى يوم الجمعة ١ نوفمبر ١٩٥٦م ولقد انتصــر بتأييد من الله وشعبه المصرى وأمته العربية (وإن كان النصر سياسيا) وإذا نظر إليه فى الواقع كل منصف لعرف أنه نصر بكل المقاييس ، دولة صغيرة نامية ضد دولتين صناعيتين كبيرتين (بريطانيا وفرنسا) ومعهما إسرائيل .



بعد الحرب مباشرة سنة ١٩٥٦م وقد انتهت بهزيمة المعتدين اعتقد البعض أن عبدالناصر سيمد يده طلبا للمساعدات ، فقال لا نقبل حسنة أو إحسانا .



آخر صلاة عيد أدّاها جمال عبدالناصر قبل وفاته بالجامع الأزهر الشريف

٤ - الوحدة المصرية السورية :

الوحدة (بنصب الواو وليس بخفضه لأن الخفض يعنى الانفراد) الوحدة قيل فيها وعنها الكثير ويجب أن يقال الكثير ، فكل الوحدات العربية التى كان فيها جمال عبدالناصر يمثل (قلب الرحى) ندور حوله ونرمى عليه بأثقالنا ، فنحن نطلبها ونسعى إليها بإلحاح كأنما هى للدعاية فقط أو بسبب خوف ما ، ثم ننقلب عليها عند التطبيق إذا ما مسّت مصالحنا ، كما فعل مع الأسف الرئيس شكرى القوتلى فى الوحدة الأولى مع مصر فقد جاء إلى القاهرة الرئيس شكرى القوتلى لمناقشة جمال عبدالناصر فى الأوضاع العربية ووضع سوريا بشكل خاص وقال إنها تتعرض لضغوط كبيرة وكثيرة وأنه بناء على رغبة الشعب السورى يريد أن يعمل شيئا مع القاهرة كأن تتحقق وحدة أو اتحاد بين البلدين من أجل حماية سوريا ، وبعد أن رجع إلى سوريا أعلن هناك أنه اتفق مع الرئيس عبدالناصر على نوع من الوحدة التى ستكون بداية لوحدة عربية كاملة ، وكان عبدالناصر قد أرسل قوة من الجيش المصرى إلى سوريا لترابط فى حدودها الشمالية من أجل حمايتها من التهديد التركى أو الغزو المتوقع ، وبعد ذلك اتفق البلدان على قيادة عسكرية مشتركة، ثم تطورت الأمور إلى إقامة الوحدة العربية بين البلدين فى شهر فبراير ١٩٥٨ م وتسمّت باسم (الجمهورية العربية المتحدة) وكما هو معروف كانت أول وحدة عربية بين بلدين عربيين مهمين فى التاريخ المعاصر ، ولقد تغنى كل العرب بها ترحيبا وتمجيدا حتى أن الرئيس شكرى القوتلى تسّمى باسم (المواطن العربى الأول) ولكن مع الأسف ما لبث أن انقلب على الوحدة وفقد هذا (اللقب التشريفى) بتأييده للضباط السوريين الذين فصلوا سوريا عن مصر بانقلاب تآمرى مدفوع الثمن وبالتالى صار شريكا لهؤلاء الذين تآمروا على الوحدة وعلى الأمة العربية بدلا من أن يبقى (المواطن العربى الأول) والمؤسف أنه مات بعد ذلك بشهور قليلة ، ولابد أن كل العرب الذين قرأوا التاريخ المعاصر قد تذّكروا أو توقّعوا تلك الأمجاد التى حققها القائد البطل (صلاح الدين الأيوبى) عندما وحّد القطرين وقضى على الوجود الصليبى محررا بيت المقدس بعد (مائة عام) من الاحتلال الصليبى الغربى ، تذكّروا ذلك ورأوا فى عبدالناصر وشكرى القوتلى رمزين جديدين لبعث أمجاد الأمة العربية بهذه الوحدة التاريخية ، ولقد ألقى الرئيس جمال عبدالناصر خطابا ، قال فيه :

أيها المواطنون ، اليوم نهض الشعب العربى فى سوريا والشعب العربى فى مصر ليعلنا إرادتهما فى إقامة دولة جديدة قوية ، أيها الإخوة استطعنا أن ننشئ دولة قوية لأول مرة فى الوطن الذى كان قد احتله الأجنبى ، واليوم نشعر أن القومية العربية أصبحت حقيقة واقعة ، إننا ننظر إلى المستقبل ونحن مصممين على أن الماضى لن يعود ، وأن الأجنبى لن يعيدنا أو يستغلنا .

لقد شعرنا أن أعداءنا كانوا يعملون دائما على تقسيم الأمة العربية إلى دول صغيرة يستطيعون السيطرة عليها ، وشعرنا أن مصير كل دولة عربية يؤثر على مصير الدولة الأخرى وأننا فى حاجة ماسة إلى أن نقف صفا واحدا وأن نتحد ونقّوى روابطنا الأخوية حتى نتمكن من القضاء على أطماع الدول المستعمرة وحتى نؤمّن سلامتنا ... إلخ (٨٧) .

وتمت الخطوات التنفيذية لإقامة كل أجهزة ومؤسسات الدولة الجديدة ، انتخب جمال عبدالناصر رئيسا للدولة الجديدة انتخابا شعبيا ديموقراطيا وصار لكل إقليم مجلس تنفيذى يتولى شئونه ، وتحدث بعد ذاك عبدالناصر ليوضّح مبادئ هذه الدولة باختصار شديد ووضوح أشد حيث قال :

لقد قامت دولة كبرى فى الشرق الأوسط ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة .

ليست عادية عليه ولا مستعدية .

دولة تحمى ولا تهدد .

تصون ولا تبدد .

تقوّى ولا تضعف .

توحّد ولا تفرّق .

تسالم ولا تفرّط .

تشد من أزر الصديق .

تردّ كيد العدو .

لا تتحزب ولا تنحاز .

(٨٧) سجل خطب جمال عبد الناصر - المجلد الثانى - الأهرام .

تؤكد العدل وتدعم السلام .

توفر الرخاء لها ولمن حولها وللبشر جميعا ،، انتهى .

ويقول الأستاذ عبدالله إمام نقلا عن لسان الأستاذ سامى شرف حديثا مهما عن الوحدة والظروف التى مرت بها فيقول : إن تجربة الوحدة تستحق لن نقف عندها طويلا ، لأنها تمثل منعطفا هاما فى تاريخ الأمة العربية لذلك فلا بأس من أن نتناولها فى أكثر من لقاء ، ونتوسع فى أسبابها وأيضا فى مصيرها الفاجع، فكما أنه كان للوحدة أثرا فقد ترك الانفصال جروحا فى جسم الأمة العربية ، وسبب مضاعفات ربما مازلنا نعانى من بعضها حتى الآن .

لابد أن تكون بدايتها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما كانت سوريا أول بلد يستقل وكانت بتراثها وتاريخها مؤهلة لتستكمل الدور الذى كان محور كفاحها القومى وهو الوحدة واسترداد كيانها الذى تم تفتيته بواسطة بريطانيا وفرنسا منذ معاهدة (سايكس بيكو) حتى الاستقلال ، ولكن ما إن تحررت سوريا حتى وقعت فى صراع مستميت ، الإنجليز الذين كانوا يريدون وراثة فرنسا وضمها إلى الملك عبدالله لتقوم مملكة سوريا الكبرى التى تنضم للعراق ليحقق الهلال الخصيب (يا ليت ذلك حدث على الرغم من أنه كما قال المؤلف تخطيط إنجليزى إلا أنه مع ذلك يكون قد حقق وحدة ثلاث بلدان عربية وقتئذ) ثم بين الولايات المتحدة الأمريكية وكانت تريد وراثة فرنسا وبريطانيا وأن تبدأ بسوريا لتفك الحصار عن إسرائيل ، وبدأت سلسلة الانقلابات الأمريكية والانقلابات البريطانية المضادة وكانت سوريا أول تجربة لنقل انقلابات أمريكا اللاتينينة، وهكذا تحول الاستقلال السورى إلى مأساة دامية - انتهى .

فيما يتعلق بانقلابات سوريا أذكر أننى قرأت عن أول انقلاب حدث هناك وقد دبرته المخابرات الأمريكية لصالح شركة (أرامكو) وتقول القصة (أن شركة أرامكو أرادت أن تمرر خطوط نفط المملكة العربية السعودية عبر الأراضى السورية، وكان الملك عبدالعزيز آل سعود يكتب للرئيس شكرى القوتلى طالبا الإذن بذلك وفى رسائله كان يخاطب الرئيس السورى بتعبير ، ابننا العزيز شكرى القوتلى ، وكان الرئيس شكرى يرد بتعبير ، والدنا العزيز جلالة الملك سعود ،

ورغم هذا الود فى التعامل فإن الرئيس شكرى القوتلى لم يستطع أن يحصل على موافقة البرلمان السورى من أجل الموافقة للشركة الأمريكية (أرامكو) بحيث تمرر خطوط نفطها عبر الأراضى السورية ، ومن هنا تقرر إحداث انقلاب يسمح ويعطى الموافقة لتلك الشركة ـ فدبرت المخابرات المركزية الأمريكية انقلاب حسنى الزعيم الذى وافق قبل مرور أسبوع على انقلابه للشركة الأمريكية تلك بتمرير خطوط النفط عبر الأراضى السورية ، ومنذ هذا الوقت تعددت الانقلابات فى سوريا) نعود إلى عبدالله إمام وسامى شرف ، يقول : كانت العملية الكبرى التى تحالفت فيها الأطراف التركية والعربية والإسرائيلية والذى قادها (لوى هاندرسون) أحد أقطاب المخابرات المركزية فى عقد مؤتمر أنقره لإعطاء إشارة البدء للقوى التى كانت قد تمت تعبئتها فى الداخل وتم تمويلها وتسليحها ، وأصبح الوجود والاستقلال السورى مهددا ، اتخذ جمال عبدالناصر قراره الثورى بإنزال القوات المصرية على الأرض السورية فى حركة سياسية عسكرية بارعة وحاسمة ، وانهار بعد هذا الإجراء الأمل فى إحداث أى انقلاب ، ولقد وضعت القوات المصرية التى وصلت إلى سوريا فى الوقت المناسب تماما أسس الوحدة ومبرراتها ، وأدى ذلك إلى حالة هيستيرية من التآمر كان لابد أن يوصل إلى الوحدة فلم يترك التآمر الداخلى والخارجى للوحدة أن تتحقق فى ظروف أفضل ، وبمقومات أصح وعلى مدى أطول ، كما كان يريد جمال عبدالناصر ، فالتاريخ لا يسير أبدا كما نتمنى .

لقد نجحت الوحدة مع سوريا فى تحقيق الاستقرار الذى لم تنعم به من قبل ومنذ بدأ تاريخها الحديث بعد الحرب العالمية الأولى ووفرت لها كل المقوّمات لتقوم بدورها العربى وكانت مساندتها للقوى الوطنية والديموقراطية حاسمة فى ألا تتحول لبنان إلى قاعدة لنظرية أيزنهاور بملء الفراغ ، تحت حكم طائفى (الواقع أن الذى حافظت عليه سوريا وقتئذ قد أفسدته مع نهاية القرن العشرين فى لبنان فهى لم تحافظ على الدور القومى الذى أدّاه الجيش السورى أثناء الحرب الأهلية فى لبنان عندما تدخل ليوقف القتال بين الأخوة فحوّلت ذلك الدور القومى إلى دور استعمارى اضطهادى ومارست كل وسائل البطش والقهر والاستغلال ، ولو لم يجبرها المجتمع الدولى على الخروج من لبنان لبقيت تمارس ذلك الدور المخرّب

وعلى الرغم من أنها أخرجت من لبنان فقد ظلت تمارس الاغتيالات والتخريب بواسطة بعض العملاء وهو الشئ الذى خلق بين البلدين حساسيات وثارات لن تنتهى إلى وقت طويل) ويقول المؤلف ، وساندت سوريا القوى الوطنية فى العراق حتى قامت ثورة ٥٨ م وأسقطت حلف بغداد الذى أسقط بالتالى الاستراتيجية الاستعمارية الجديدة فى المنطقة (الواقع أن الذى قاوم وأسقط حلف بغداد هو عبدالناصر وإعلامه) يضيف المؤلف ، استطاعت سوريا فى ظل الوحدة أن تحقق تغييرات اجتماعية عميقة كانت تتطلع اليها منذ الاستقلال ، ووقف الإقطاع السورى ضدها فقد كانت قوانين يوليو سنة ٦١ م تحقيقا لمطالب متراكمة منذ زمن طويل لم يستطع أى حزب سياسى أن يحققها .

ومن المؤكد كما نرى نحن أن تطبيق تلك القوانين على سوريا أثناء الوحدة بالطريقة التى طبقت بها فى مصر كان خطأ وقد حدث دون أى دراسة أو دراية بما يحتاجه الإقليم الشمالى وهو ما ألبّ قوى كثيرة ضد الوحدة يستمر المؤلف فى القول ، وأهم من ذلك كله فإنه رغم كل الصعوبات والتناقضات أثبتت هذه التجربة أن الوحدة العربية حقيقة وأن أسسها صحيحة ، وأن ما تفجره من طاقات العرب بلا حدود ، ولقد جسّدت حلم الأمة العربية والثورة العربية ، ولقد خلّفت سنوات الوحدة وراءها حلما ذهبيا ، وكان ومازال يسيطر على خيال سوريا وعلى خيالنا كلنا أيضا،.. انتهى (٨٨) .

والحقيقة أن هذا الحلم الذهبى الذى تحدث عنه السيد سامى شرف ما لبث أن تلاشى مع زحمة الأحداث التى خلقها الانقلاب الذى قاده مجموعة من الضباط السوريين فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م وبذلك غرسوا خنجرا فى قلب الأمة العربية وخلقوا حاجزا بين شعوب الأمة العربية ، وإذ أننا لسنا فى مجال التفسير لما حدث فإنه من المناسب أن نشير إلى ما أذيع ونشر وتتذاك عن الانفصال والشركة الخماسية والأموال التى دفعت للكزبرى ودور الضابط النحلاوى فى قيادة الانفصال ... إلخ والحقيقة أن ما كنا سمعناه عند حدوث الانفصال أن قوات مصرية جوية وبحرية قد أرسلت من أجل إعادة الوضع إلى طبيعته وأن جزءا من

(٨٨) عبد الناصر وكيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٢٦٧ .

الجيش السورى (قيادة حلب) كانت تقاتل الانفصاليين ، ولكن عبدالناصر استدرك بسرعة وأمر القوات ألا تقاتل السوريين وأن تعود أدراجها، فلا يمكن أن تبنى الوحدة على جماجم المواطنين ، وكانت هناك كثير من التساؤلات تجرى على الألسن ربما إلى هذا الوقت ، تقول : كان على جمال عبدالناصر أن يعيد الوحدة بالقوة وهو قادر على ذلك لأنه يحظى بتأييد الشعب فى سوريا وفى مصر ، ولقد أورد الأستاذ ضياء الدين بيبرس فى كتابه (الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر) نقلا عن لسان السيد محمود الجيار وهو أحد الضباط القريبين من عبدالناصر صورة مغايرة لما كنا سمعناه أو عرفناه وهى كما يلى :

قبل شهرين كانت تتكاثر التقارير التى تنبئ بوجود تدبير ما ضد الوحدة ، وكان مفهوما أن هذا التدبير يجرى داخل الجيش ، وفى تلك الأيام كان يملك السلطة السياسية فى سوريا من يملك فرض أمر واقع عسكرى فى جيشها ، ولهذا حرص عبدالناصر على أن يضم إلى وزارة الوحدة أكبر الضباط السوريين نشاطا سياسيا أو حزبيا فى الجيش ليكونوا مسؤولين أمام الرأى العام ، ويضمن استقرار الوحدة ذاتها ، ومع ذلك ها هو الانقلاب يتم على الوحدة ، كيف ؟ ومن أين جاءت الضربة ؟ يضيف الجيار قائلا ، حاصرتنى هذه الأفكار والأسئلة طوال الطريق إلى القاهرة وهو طريق يستغرق ساعة وربعا ، ولكنى قطعته يومها فى ٤٠ دقيقة ، واتجهت إلى منزلى حيث أبدلت ثيابى فى لحظات ثم سألت عن عبدالناصر فوجدته فى القيادة وأسرعت إلى هناك ، كانت دمشق وقتها تذيع البيان رقم ٩ الذى يقول : إنه بعد قليل سيذيع المشير عبدالحكيم عامر بيانا يعلن فيه عودة الهدوء واستقرار الأوضاع ، وما كدت أدخل على عبدالناصر وهو يستمع إلى البيان ، حتى أمرنى أن اطلب له المشير فورا على التلفون اللاسلكى ، ولسبب ما كان قادة الانقلاب لم ينتبهوا إلى هذا التليفون ، ولم يقطعوا إرساله ..

تم الاتصال فورا بين عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر أى بين القاهرة ودمشق ، والمشير عامر فى مبنى القيادة فى دمشق ، وبادره عبدالناصر قائلا ، ما هذا الذى سمعت يا عبدالحكيم ؟ هل صحيح أنك ستذيع بيانا بعودة الهدوء ؟

وأنصت عبدالناصر إلى رد المشير ثم قال : أوعى تعمل كده ! ولم أسمع بالطبع ماذا قال المشير ، ولكن عبدالناصر عاد يقول : إذا كانوا جادين حقا اطلب منهم أن يعودوا أولا إلى ثكناتهم ، وإلا ، فلن تعود تملك شيئا معهم ، إن أى بيان

ستصدره الآن سيخدمهم ، لا تدعهم يكرّرون معك ما فعلناه نحن مع الملك فاروق، (كان ضباط يوليو قد خدعوا الملك فى أول حركتهم بمطالب معتدلة جعلته يسلم بها قبل أن يفصحوا عن هدفهم الحقيقى ويأمروه بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد) وأضاف عبدالناصر قبل أن تنتهى المكالمة ، لا تخف ولا تساوم ، ونحن الآن نحرك قواتنا .

وانصرف بعد ذلك عبدالناصر يتمم ما كان قد شرع فيه ، كان يعد أمر العمليات للقوات التى قرر تحريكها إلى سوريا لحماية الدولة الموحّدة من التمرد الانفصالى الذى بدأ فيها وكانت العملية كما خطط لها تتضمن تحرك الجيش والأسطول، وجاءت الأنباء بعد ذلك بأن (حلب) ماتزال صامدة لمؤامرة الانفصال ، ومادامت حلب صامدة فاللاذيقية لابد أن تكون صامدة هى أيضا فالمدينتان تتبعان منطقة عسكرية واحدة ، واللاذيقية هى الميناء الذى سيستقبل قواتنا المحمولة بالبحر أو بالجو ، وعندئذ قلت لعبدالناصر ، أن قوات اللاذيقية لا تعرف طبعا أننا سننجدها بقوات من عندنا وقد تستسلم فجأة تحت أية ظروف ، ولهذا يجب أن نبعث إليها فورا بمن يبلغها بتحركنا حتى تواصل الصمود .

واقترحنا أن أذهب أنا حتى أوصل الرسالة ، وإذا بعبدالناصر يقول لى : لا سأبعث إليهم بعبدالمحسن أبو النور (وذلك لأنه كان يعمل مساعدا لقائد الجيش السورى وأبعد من هناك بعد محاولات بعض ضباط الجيش السورى تشويه موقفه (أما أنت فانتظر حتى تذهب معى ! وذهلت، لم أكن أعرف أنه ينوى الذهاب إلى عرين الانقلاب ولكن هذا كان قراره ، كانت خطته أن تهبط قواتنا هناك وبعدها مباشرة يهبط هو ، ويخوض المعركة مستندا الى الشعب السورى (يا ليته فعل رغم المخاطرة) .

وتم الاتصال فورا بعبدالمحسن أبو النور وكانت الأوامر تقضى بأن يصحب كتيبة من قوات الصاعقة ويهبط بها فى اللاذيقية وينضم إلى القوات الصامدة هناك، وأسرعت أبلغ الأوامر إلى عبدالمحسن أبو النور وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا ، وذكرّته بأنه يجب أن يصل قبل آخر ضوء لأن مطار اللاذيقية لا يصلح للهبوط بعد غروب الشمس ، ومضى عبدالمحسن أبوالنور يعد

نفسه والقوات التى سيهبط بها ، بينما قرر عبدالناصر أن يعود إلى البيت ، وتم تحويل اللاسلكى إلى مكتبه هناك ، وفى هذه الساعات كان كمال الدين حسين هو الوحيد الذى جاء وانضم إلى عبدالناصر ومضى يتابع معه تطورات الموقف ، وإذا بمفاجأة تقع ، وتقلب الموقف رأسا على عقب!

كانت المفاجأة هى عودة عبدالمحسن أبوالنور دون أن يهبط فى مطار اللاذيقية! كيف حدث هذا؟ قال ببساطة : إنه وصل بعد آخر ضوء ولم يعد ممكنا أن يهبط ، والطائرات الأخرى التى تحمل قوات الصاعقة ؟ قال إن واحدة منها نزل جنودها بالباراشوت ولا يعرف شيئا عن الباقيات !

وبعد قليل فوجئت بعبدالناصر يستدعينى ويقول لى ، عبدالحكيم قادم قد يصل فى الرابعة أو بعدها بقليل ، اذهب مع كمال حسين وانتظراه فى المطار (نحن هنا لا نملك إلا الاستغراب ، كيف أن عبدالمحسن لم يصل إلا بعد الغروب إلى اللاذيقية وعاد ، وكيف أن عبدالحكيم يصل فى حوالى الساعة السابعة !!هنا قال الجيار ، بعد عودة عبدالمحسن أبوالنور بقليل استدعانى عبدالناصر وقال يصل عبدالحكيم الساعة السابعة ، وهذا يعنى أن عبدالمحسن أبوالنور وصل مبكرا إلى اللاذيقية ولم يهبط لسبب ما ثم عاد إلى القاهرة قبل مجئ المشير أى قبل الساعة السابعة مساء، ونستغرب أكثر كيف أنه كان يستعد منذ العاشرة صباحا ولم يصل اللاذيقية قبل الغروب وهو لو كان مسافرا إلى طوكيو من الصباح لكان وصلها قبل الغروب !!)

يضيف الجيار ، وفى المطار كان المشهد مثيرا ، نزل عبدالحكيم فى حالة واضحة من العصبية والذهول ، أخرج من جيبه مسدسا وأعطاه لى ، وأراد كمال الدين أن يأخذ منى المسدس ، فقال له المشير ، تأخذه تعمل بيه إيه ، ده مزوجن ! كانت إحدى الرصاصات محشّوة فى الماسورة لم تنطلق ولم أعرف حتى الآن متى حاول المشير إطلاقها ؟ ولا على من كان يريد إطلاقها ، وعدنا جميعا إلى بيت عبدالناصر لنجد فى انتظارنا مفاجأة أخرى ، كانت المفاجأة هذه المرة فى الراديو، فقد بدأت إذاعة حلب تغيّر اتجاهها الوحدوى وتهاجم جمال عبدالناصر كإذاعة دمشق تماما ، ولا أذكر أنى سمعت فى حياتى أقذع من الشتائم التى سمعتها من

تلك الإذاعة وقتها ، ولمن ؟ لعبدالناصر الذى خرج الشعب السورى يستقبله بجنون أسطورى قبل الوحدة واختاره رئيسا بالإجماع ، انتهى .

والواقع أن الروايات والكتابات عن الأحداث فى سوريا وعملية الانفصال قد اختلفت بين واحد والثانى فما كنت قد سمعته من بعض المسؤولين المصريين خلال تلك المرحلة جاء مختلفا ، وما قرأته فى كتابات البعض أيضا كان مختلفا ، فقد اختلف ما ذكره السيد سامى شرف وهو قريب من الرئيس عبدالناصر عن ما كتبه أو قاله السيد محمود الجيار وهو أيضا من الدائرة المحيطة بالرئيس عبدالناصر، كذلك الحال بالنسبة لموسوعة الأستاذ أحمد حمروش القيّمة والتى صدرت بعنوان (قصة ثورة ٢٣ يوليو) وتعميما للفائدة أنقل بعضا مما كتب الأستاذ حمروش عن الوحدة والانفصال مع سوريا ، قال :

(تقرر أن يلقى جمال عبدالناصر وشكرى القوتلى بيانين أمام مجلس الأمة المصرى ومجلس النواب السورى لشرح أسس الوحدة على أن يتم الاستفتاء عليها خلال ثلاثين يوما ، وقد كتب البيانين صلاح البيطار وفتحى رضوان وعفيف البزرى ، ولذا أسرع الملك سعود بمحاولة وقف الوحدة قبل إتمامها وهدمها قبل إعلانها والإستفتاء عليها ، واتصل الملك سعود بعبدالحميد السراج يغريه بأى مبلغ يطلبه ليمنع الاستفتاء على الوحدة ، ولم يكن هذا هو الاتصال الأول فى محاولة إقامة نظام موالى للغرب .

اتصل يوسف يس مستشار الملك سعود بالرئيس شكرى القوتلى يعرض عليه إقامة حلف إسلامى والابتعاد عن الاتحاد السوفيتى ، وكان القوتلى على علاقة طيبة مع السعوديين وخاصة فى فترة ابتعاده عن رئاسة الجمهورية .

لم يستجب القوتلى لذلك فقد كان الأمر أقوى من الرغبة الشخصية وتيار التحول الوطنى الجارف كان يلتقى مع الدول الاشتراكية فى مسار واحد ، وسوريا كانت قد عقدت بعد مصر صفقة من الأسلحة السوفيتية فى ربيع ١٩٥٦م ووقف الاتحاد السوفيتى إلى جانبها وقفة حازمة أثناء الحشود التركية على حدودها ، وبعد عرض يوسف يس اتصل الملحق العسكرى الأمريكى بعبدالحميد السراج وأبلغه أن حكومة الولايات المتحدة قد زهقت من الأحزاب ، وربط السراج هذه

الخيوط ببعضها البعض وعندما أبلغ صلاح البيطار بذلك نصحه بمقابلة عبدالناصر فسافر إلى مصر في خريف ١٩٥٥م ، ومع ذلك لم يصدق عبدالناصر في البداية محاولة الملك سعود الأخيرة والتي علم بها عن طريق تقرير حمله رسول خاص من السراج وصل إلى القاهرة يوم توقيع شكري القوتلي وعبدالناصر على بيان الوحدة .

كان الملك سعود قد كتب شيكا لعبدالحميد السراج رقم (٨٥٩٠٢) مسحوبا على البنك العربي بالرياض بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٥٨م بمبلغ مليون جنيه إسترليني وطلب عبدالناصر من السراج صرف المبلغ فعلا فصرفه ووضعه في البنك العربي بدمشق ، وصرف شيكين آخرين رقم (٨٥٩٠٣) بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه إسترليني ورقم (٨٥٩٠٤) بمبلغ ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني ، وكانت فضيحة للنظام السعودي المتآمر بالمال ، وهي محاولة لم تمنع الاستفتاء ، ولم تمنع الوحدة .

ويتحدث الكاتب عن الوضع الاقتصادي في سوريا وكذلك في مصر والفوارق التي كانت قائمة حتى في مرتبات الموظفين وكيف أنها كانت فوارق كبيرة ، وفرص استثمار الأموال ... إلخ (والواقع أن هذه الأمور تظهر في كل محاولة بين بلدين يعملان من أجل الوحدة أو الاتحاد ، وأذكر أن نفس هذا الوضع قد واجهناه وقد كنت عضوا في واحدة من لجان الوحدة الليبية المصرية في عهد الرئيس السادات ، وأثناء المحادثات كانت تظهر كثير من الصعاب ومنها عملية مرتبات الموظفين وضباط الجيش والبوليس وعلى الرغم من أن الفرص بين البلدين (مصر وليبيا) كانت أفضل من عدة نواحي فإن الوحدة لم تنجح ، ولابد لي أن أذكر أن الجانب الليبي كان صادقا في هذا التوجه بينما كان الرئيس السادات رحمه الله يناور فقط ربما لكسب الوقت ... إلخ) ويتحدث حمروش عن الخلافات بين الضباط السوريين والمصريين من جانب وبين الوزراء أيضا السوريين والمصريين من الجانب الآخر وكان جمال عبدالناصر يحاول حل المشاكل والتوفيق بين كل الأطراف ، ولكن أهم ما ذكره الأستاذ حمروش هو ما يتعلق بالمعلومات عن الإعداد للانفصال داخل الجيش السوري وكيف أن المعلومات لم تجد الاهتمام الكافي بحيث يحبط ذلك الإعداد أو التخطيط فيقول :

الموقف في سوريا ينبئ بحدث ما .. التناقضات تزيد في كل اتجاه بين النظام الحاكم والتنظيمات المعارضه من بعثيين وشيوعيين فتحت لهم المعتقلات ، بين

السلطة القائمة والبورجوازية التى زحفت عليها التأميمات ، بين المشير عامر وعبدالحميد السراج والاثنان نواب لرئيس الجمهورية ، بين العسكريين المصريين والعسكريين السوريين ، كانت هناك علامات تشير إلى أن خطرا حقيقيا يهدد تجربة الوحدة ، ولكن الإجراءات التى اتخذت لم تكن كافية لإزالة التناقضات ، ولم تتوافر القدرة على وضع حلول جذرية للمشاكل .

كانت الصورة معروفة عند جمال عبدالناصر ، قال لى أمين شاكر : إنه كان فى زيارة لسوريا بصفته رئيسا لجمعية الأمن القومى ، وهناك سمع من الدكتور نورالدين حاطوم عن تصرفات بعض الضباط فأبلغ ذلك للمشير عامر الموجود فى دمشق ، فهاج عليه وهدده بالضرب ، وأخرجه من مكتبه ، فاستدعاه جمال عبدالناصر وسمع منه ما قاله للمشير ، ولكن كان الصمت هو التعليق الوحيد ، حسين عرفه مدير المباحث الجنائية العسكرية قال لى إنه التقى بأحد الضباط البعثيين فى القاهرة الذى نبّه لاحتمال حدوث انقلاب فى سوريا ، وأسرع حسين عرفه فاتصل لاسلكيا بعلى شفيق فى دمشق الذى أخذ الموضوع باستخفاف منكرا قدرة أحد على الحركة ، ومنهيا حديثه بسؤال حسين عرفه عما إذا كان يطلب شيئا من دمشق ، وكان معروفا أن عربات رسمية تنقل كل شئ كان مطلوبا أو غير مطلوب من بيروت ، وأن الطائرات الحربية غالبا ما كانت تحمل شحنات خاصة من الثلاجات والغسالات وغيرها .

وكانت المخابرات العامة توضح الصورة أيضا ، وفى هذه الفترة قدم أمين هويدى أحد نواب مدير المخابرات الثلاثة (طلعت خيرى وشعراوى جمعه وأمين هويدى) (استقالته وبقى فى منزله ٦ شهور بلا عمل أو ارتباط بالإدارة ، ومكتب الاتصال المصرى فى دمشق أستشعر الخطر قبل وقوعه واتصل بهم ضابط سورى مجهول عن طريق مفتش وحدوى فى وزارة الداخلية السورية وأبلغهم أن هناك خطة مدبرة للانقلاب بتحرك القوات من معسكر قطنه واعتقال المشير كرهينة لفرض إرادتهم وتنفيذ اغراضهم ، حمل العقيد محمود الحمزاوى ومعه الرائد أحمد رشدى من المباحث العامة التقرير إلى استراحة المشير حوالى منتصف الليل ، وقابلهما أحمد علوى وعلى شفيق وهما ضابطان من قيادة المشير وأظهرا استخفافا بما ورد فى التقرير من معلومات ، وكانت كل رغبتهما كامنة فى معرفة اسم

المصدر الذى رفض الحمزاوى أن يفصح عنه ، ودخل التقرير إلى المشير وعاد وعليه تأشيرة تقول (من هو المصدر ؟!) .

المعلومات تتجمع بأن شيئا ما فى الأفق .. ولكن القدرة على مقاومة العاصفة كانت محدودة ، والتناقضات الثانوية بين الأشخاص طغت على التناقض الرئيسى بين الوحدة وأعدائها ، وكان جمال عبدالناصر قد استشعر الخطر ، وجمع الوزراء السوريين العسكريين فى استراحته بالأسكندرية حيث صارحهم قائلا : إنه لا يستطيع أن يترك الأحوال فى الإقليم السورى تمضى على ما هى عليه ، وقال لهم فى هذه الجلسة صراحة إن تناقضات دعاة الوحدة وخلافاتهم تسبب له المتاعب أكثر مما يسبب له أعداء الوحدة ، وأعلن أيضا إنه سيعيد تشكيل أجهزة الحكم ليكون له الإشراف الكامل على ما يحدث فى سوريا .

ودخل شكل الحكم تجربة جديدة يوم ٦ أغسطس ١٩٦١م ، أصبح هناك سبع نواب لرئيس الجمهورية ، عبداللطيف البغدادى للتخطيط ، وعبدالحكيم عامر للحربية ، ونورالدين كحاله للإنتاج ، وزكريا محى الدين للمؤسسات العامة ، وحسين الشافعى للمؤسسات العامة أيضا ، وكمال الدين حسين للإدارة المحلية ، وعبدالحميد السراج للداخلية ، وشكلت وزارة واحدة مقرها القاهرة حيث يستقر الوزراء جميعا ، نواب الرئيس جميعا من العسكريين عدا نورالدين كحاله ، عبدالحكيم عامر استمر نائبا لرئيس الجمهورية مسؤولا عن سوريا ، وعبدالحميد السراج غادر مكتبه فى دمشق لأول مرة منذ الوحدة .

ولم يحقق هذا التغيير أثره المطلوب ، بل بدأت تلاحقه تناقضات جديدة فقد كان الوزراء السوريون عموما والعسكريون خصوصا ضد هذا النوع من الحكم المركزى ، وكانت تجارب تنفّذ لمجابهة مواقف شخصية دون دراسة موضوعية ، وكان ذلك نابعا من الاعتماد على عناصر من العسكريين دون الاهتمام بتكوين جهاز دولة وجهاز سياسى سليم ، السحب تتكاثف والجو يبدو شديد العتامة، وأخطاء التجربة تكاد تعصف بها ، وأعداء الوحدة يجسّمون التناقضات ويبذرون الخلافات ، أثاروا الشكوك حول الضباط المصريين فى سوريا الذين بلغ عددهم حوالى ٨٥٠ ضابطا وصوروا ذلك كأنه نوع من الاحتلال ، كما أثاروا الشكوك فى نفس الوقت من وجود عدد من الضباط السوريين فى مصر وقد تجاوز عددهم ٢٠٠ ضابط وصوروا الأمر كأنه إبعاد لهم ، والحقيقة أن الجيش

السورى كان يحتاج لعدد من الضباط المصريين بعد التسريحات التى تمت فيه ، وأن بعض الضباط السوريين فى مصر كانوا يؤدون دورا هاما فى قيادة القوات المسلحة، ولكن تصرفات بعض الضباط فى المراكز القيادية هى التى أساءت إلى وضع الضباط عامة ،ومنهم من أمضى وقته كله فى الجبهة أمام إسرائيل ومنهم من أدى دورا بارزا فى التدريب ..

ولم يعد خافيا على أحد أن هناك حساسيات تنمو وتزيد بين الضباط السوريين والقيادات التى يسيطر عليها مصريون ، وقد أسرعت التناقضات فى الظهور والتجسم بعد صدور القرارات الاشتراكية ، وأثارت الرجعية حولها إتهامات بالتسرع ، ووصل الأمر ذروته بعد نقل الوزارة إلى القاهرة وتصادم عبدالحميد السراج مع المشير عبدالحكيم عامر ، وكانت أجهزة الأمن التابعة للداخلية قد خلقت خلال سنوات الوحدة جوا من الإرهاب الشديد ، وجّه أساسا إلى العناصر الشيوعية ثم البعثية وأخيرا بدأ تحرك عناصر من التجار ضد القرارات الاشتراكية كما روى لى أكرم ديرى وزير الاقتصاد والخزانة فى آخر وزارات الوحدة ، وينطبق هذا على موقف السراج من قوانين التأميم قبل صدورها ، وكان إنتقال عبدالحميد السراج من دمشق إلى القاهرة ضربة شديدة موجهة إلى نفوذه وسلطته وتحركت بعض العناصر البوليسية السورية تقاوم هذا النقل عن طريق إثارة التجار وبعض العناصر السياسية ..

وطلب عبدالناصر من عبدالحميد السراج أن ينقل معه هذه العناصر إلى القاهرة ولكنهم تلكأوا فى تنفيذ القرار ، وأدرك عبدالناصر أن قنبلة الخطر التى تهدد الوحدة هى الثورة ضد الإرهاب ، فطلب من المشير عامر أن يحسم هذه المشكلة وخاصة أنه قد بدأت فى مصر بعض الإفراجات عن عدد من الشيوعيين والإخوان المسلمين ، وأصدر المشير عامر قرارا فى ١٨ سبتمبر ١٩٦١م نص على : توقيف اعتقال أي شخص إلا بمذكرة من النيابة العامة ، أى إنه لا يجوز لأى سلطة من سلطات الأمن توقيف أى مواطن إلا إذا كان هذا التوقيف عن طريق السلطة القضائية ، أى النيابة العامة . وكان التناطح بين المشير والسراج قد وصل إلى نقطة اللاعودة ، أصبح الموقف مهيأ تماما لحركة مضادة للوحدة متخفية تحت شعار ضرب النفوذ المصرى فى سوريا ، فى وقت كانت الأخطاء فيه قد فرضت على

المسؤولين أن يتخذوا خطوات العلاج ، وبدأ الانقلاب بفكرة ملحة على بعض الضباط السوريين ، وتحول إلى حدث متوقع عند الجماهير ، وتجمع بعض الضباط، عبدالكريم النحلاوى مدير مكتب المشير عامر وموضع ثقته ، حيدر الكزبرى الشاويش السابق فى الجيش الفرنسي والذى ترقى ضابطا من غير طريق الكلية الحربية ، وعبدالغنى الدهمان ، وموفق عصاصه من القوات الجوية ، كان المشير يحاول كسب الرأى العام ولكن الوقت كان متأخرا والمدبرون للانقلاب انتهزوا فرصة الخلاف وقرروا توجيه ضربتهم ، قوات البادية التى يقودها حيدر الكزبرى توجهت ليلة ٢٧-٢٨ سبتمبر ١٩٦١م إلى القيادة تسأل عن المشير عامر ، وقال لهم الحارس إنه فى بيته فاتجهوا إلى هناك وانطلقت القذائف تدمر المنزل وتوقظ دمشق وتقتل الحراس، ولكن المشير وقتها كان فى القيادة العامة فى قاعة الأركان مع بعض الضباط السوريين وحول القيادة القوات المتمردة ، ولم تعد نقطة لقاء وتم الانفصال فعلا .. أنتهى) .

وهكذا كان على عبدالناصر أن يحدد فى الميثاق أهداف وغايات ومبادئ الوحدة العربية التى يريدها للأمة العربية مستشرفا المستقبل بعد كل الذى حدث ، فقال : إن مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة فى صنع التقدم وفى دعمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية كلها ، إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها ، لقد جاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته ، يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ، ويكفى أن الأمة تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير ، إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية ، إن مجرد وجود هذه الخلافات هو فى حد ذاته دليل على قيام الوحدة .

إن هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعى فى الواقع العربى ، واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية فى كل مكان من الوطن العربى والتجمع الذى تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية فى الوطن العربى ، وهو الدليل على وحدة التيارات

الاجتماعية التى تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسيقها عبر الحدود المصطنعة ، إن التقاء القوى التقدمية الشعبية على الأمل الواحد فى كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة فى كل مكان من الأرض العربية ، هو فى حد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة ، إن مفهوم الوحدة العربية قد جاوز النطاق الذى كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات ، إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحى للوحدة العربية ودفعت به خطوة إلى مرحلة أصبحت فيها وحدة الهدف هى صورة الوحدة ، إن وحدة الهدف حقيقة قائمة عند القواعد الشعبية فى الأمة العربية كلها ، واختلاف الأهداف عند الفئة الحاكمة هو صورة من صور التطور الحتمى الثورى وإخلاف مراحله بين الشعوب العربية ، لكن وحدة الهدف عند القواعد الشعبية هى التى ستتكفل بسد الفجوات الناشئة من إخلاف مراحل التطور ، إن وحدة الأمة العربية قد وصلت فى صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية ، ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكرى ، ولا أساليب الانتهازية الفردية ، ولا أساليب الرجعية المتحكمة ، على شئ إلا على دلالتها بأن النظام القديم فى الوطن العربى يعانى جنون اليأس وأنه يفقد أعصابه تدريجيا وهو يسمع من بعيد فى قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها .. انتهى) (٨٩) .

هذا ما جاء فى الميثاق الوطنى ، وفى رأيي أنه مجرد أمل ، وأذكر أن عبدالناصر نفسه قال : إن الميثاق يحتاج المراجعة بعد عشر سنوات ، ومن ذلك نفهم أنه كان يرى أن هذه الأهداف المثلى قد يقصر دونها الجهد وقد تفشل قبلها المحاولات حتى وإن كانت صادقة ، ومن المعروف أن الأفكار المثالية تحتاج إلى كثير من الوقت وكثير من الجهد وكثير من الرجال المخلصين ، وهذه جميعها لم تتوفر لأن الرجل توفاه الله فى وقت مبكر ، ولأن الذين تولوا من بعده لم يلتزموا بما أراد ، ولعله من المفيد أن نرجع قليلا إلى الوراء نقرأ ما كان يدور فى محادثات الوحدة مع جمال عبدالناصر، أى وحدة ، ومثالنا على ذلك محادثات الوحدة الثلاثية التى جاءت بعد إنهاء حكم الانفصال فى سوريا ، ويذكر القارئ الكريم

(٨٩) الميثاق – جمال عبد الناصر – ص ١٩٦ – ١٩٧ .

أننى قلت (نحن نرمى بأثقالنا على أكتاف جمال عبدالناصر ، وهذا ما تبيّنه محادثات الوحدة التى أشير إليها الآن ، وقد شرفت بتقديمها للقارئ العربى وقامت دار المسيرة مشكورة بنشرها فى جزئين ، وما جاء فيهما يمثل نموذجا لما يدور بين من يطلبون الوحدة مع مصر عبدالناصر) .

حدث أنه فى أول يناير ١٩٦٣م وفجأة وصل كبار ضباط الجيش السورى برئاسة رئيس أركان هذا الجيش يطلبون فى عجلة العمل على تحقيق الوحدة او الاتحاد ، ولقد وصلوا القاهرة دون أن تكون حكومتهم فى البداية على علم ولأنهم يريدون الوحدة بأى شكل مع مصر فقد كانت الحكومة السورية مجبرة على مشاركتهم هذه الرغبة حتى لو كان فى جعبتها نوايا أخرى ، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر رأى فى ذلك نوعا من التسرع الذى لا يحبه ولذلك طلب أن يتم مثل ذلك الإجراء خلال فترة قد تصل إلى (ثلاث أو خمس سنوات) لكن هؤلاء القادة ومعهم ممثل الحكومة فى دمشق أصروا على عبدالناصر قائلين : إن هذا العمل هو الذى يمكن أن ينقذ سوريا من مصير مظلم ، وقالوا : إن الجيش منقسم على نفسه بسبب العداوات المستحكمة وأن الأحزاب متصارعة على مصالح لا تخدم البلاد وأن عبدالناصر هو القادر على إنقاذهم من أنفسهم ومن مؤامرات السياسيين وأنهم واقعون تحت ضغط شعبى من أجل الوحدة أو الاتحاد مع مصر ..

ثم جاءت الحكومة السورية بكاملها وعلى رأسها رئيس الجمهورية إلى القاهرة من أجل المرحلة النهائية فى المفاوضات ..) [٩٠] هكذا كانت دائما الضغوط على عبدالناصر ، وهكذا كان دائما يستجيب حرصا منه على البلد أو الدولة التى تطلب الوحدة رغم إدراكه لمخاطر الاستعجال وأسبابه ، وكما قلنا فيما تقدم فهى عادة إما من أجل الدعاية أو الخوف ، وفيما يلى المرحلة التالية ..

بدأت المباحثات بين الوفود الثلاثة (مصر وسوريا والعراق) فى أبريل ١٩٦٣م وقبلها كانت هناك مباحثات تمهيدية بين أيام ١٤ - ١٧ مارس ، ولقد استمرت على ثلاث مراحل ، ففى المرحلة الأولى امتد النقاش فى خمس

---

(٩٠) محاضر محادثات الوحدة - ص ٦٤ .

اجتماعات بين الوفود الثلاثة (مصر وسوريا والعراق) وفى المرحلة الثانية امتد النقاش فى ست جلسات ، وفى المرحلة الثالثة امتد النقاش فى عشر جلسات .. وننقل الآن ما جرى فى الاجتماع الأول ...

كان الجانب المصرى برئاسة جمال عبدالناصر - وكان الجانب السورى برئاسة نهاد القاسم - وكان الجانب العراقى برئاسة على صالح السعدى ، تبودلت كلمات قبل الجلسة ، قال عبدالناصر : إن البعث الذى تعاملت معه كان برئاسة أكرم الحورانى ، وقال عبدالحكيم عامر : لا يمكن أن تقوم وحدة على مناورات سياسية ، وقال على صالح السعدى : كان توقيع البيطار على عريضة الانفصال جريمة ، بدأت الجلسة الأولى مساء يوم ١٤ مارس بدأ الحديث رئيس الوفد السورى نهاد القاسم ، قال : الحمد لله الذى حضرنا هنا ، سبق أن قلت لك سيدى الرئيس أن الزعيم البطل هو الذى نزع من النكسة الانتصار ، وقد حضرنا لتهنئتكم على النصر الذى أحرزه الشعب السورى، ولنطمئن سيادتكم بأن ثورة سوريا الأخيرة هى ثورة وطنية وحدوية تقدمية اشتراكية ، وقد حضر معنا ممثلون من ثورة العراق ، الثورة التى عجّلت بثورة سوريا ، إن هذا الاجتماع التاريخى يجمع رجال ثلاث ثورات ، إننا متأكدون أن القاهرة ستستجيب لطلبنا ، لقد حضرنا لنبحث معكم إقامة اتحاد أو وحدة اتحادية بين الجمهوريات الثلاث على أسس مدروسة سليمة .

على صالح السعدى رئيس الوفد العراقى ، لقد تبين لنا أنه يجب أن نخطو خطوات فعلية لتأخذ الوحدة مكانها فى الواقع ولتكون قاعدة لباقى الدول المتحررة فتتسع وتنضم إليها دول أكثر وأكثر ، إن القضية الآن هى مسألة تقرير مصير ، إنها مسألة خطيرة وتتطلب دراسات فى شتى النواحى ، إن ما نطلبه الآن هو أن نعلن هذا الشئ للعالم ، وهو أننا نسعى فى سبيل الوحدة وأن تكون الأيام القادمة لتقرير الخطوات نحو الوصول إلى الوحدة المطلوبة ، إننا نعتبر الانفصال نكبة وكارثة ولكنه فى نفس الوقت كان خيرا لنا إذ إنه عزز ومكّن من فكرة القومية العربية وجعلها على أسس راسخة وأثبت أنه ليس مجرد فكرة طارئة ، وقد جئنا إلى القاهرة لنعلن للعرب أننا سوف نسوّى الوحدة ..

الرئيس جمال عبدالناصر ، لا شك أن هذا اليوم من أعز الأيام إذ نلتقى من أجل الوحدة وخاصة بين مصر والعراق وسوريا ، وإنى كنت أعتبر ذلك أملا يصعب تحقيقه بهذه السرعة ، ومنذ شهر كان هنا على صالح السعدى موجودا فى نفس هذا المكان ولم نكن نعتقد أن الكلام عن الوحدة سيجئ بهذه السرعة ، نحن طلاب وحدة ووحدويون عن اقتناع بدليل أننا قبلناها فى عام ١٩٥٨م والجميع يعلم أنها كانت صعبة .

إنى أرحب بالوحدة مع سوريا والعراق ولكننا نريدها وحدة لا انفصال مغلّفا فى شكل وحدوى لأن الأمة العربية لا تحتمل جريمة انفصال أخرى ، لقد اكتوينا بنار الانفصال بدرجة لا توصف ، لقد تسبب عنها ردة فى مصر ، وكنت أخشى أن تصبح مصر انفصالية ، إن الوحدة أو الاتحاد المطلوب هو ما يتمناه الشعب ولكن لابد من أن نتناول الأمر بمنتهى الصراحة والوضوح ، إننا فى بداية علاقاتنا مع العراق وليست بيننا مشاكل ولكن مع السوريين لنا خمس سنوات وهناك عدة مواضيع لابد أن نعرضها بصراحة ، إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولكنها مسألة الأمة العربية بأسرها ..

هناك إقليمية فى مصر وأخرى فى سوريا ومن الخطأ أن نتجاهل هذا الاعتبار ، هذه مسألة ، ومسألة أخرى هى أننا لابد أن نتعامل على نور ، هل المطلوب منا الآن أن نقيم وحدة مع حزب البعث ؟ أم وحدة مع سوريا ؟ إذا كان حزب البعث هو الذى يحكم سوريا وستكون الوحدة معه فأنا على غير استعداد للبحث على الإطلاق ..

وحدة مع سوريا كلها أنا على استعداد لها وحدة مع حزب البعث سأقول لكم متأسف ، إن حزب البعث فى رأيي انقلب على تجربة الوحدة وحاربها وكان من القوى التى مهدت للانفصال ! ولم يكتف بذلك بل أراد أن يؤثر فى الأوضاع فى مصر نفسها فى المرحلة الحرجة بعد الانفصال وأنا أعتبر ذلك جريمة ، كذلك لابد أن نتكلم عن الشعارات التى رفعت والتى رفعها حزب البعث فى تعميماته التى قرأتها ينادى فيها بوحدة بدون عبدالناصر ، وكل مسألة فى رأى يمكن أن تحل، حتى لو كانت مصلحة الأمة العربية فى وحدة بدون عبدالناصر فإننا نستطيع أن نجد حلا لذلك ، وأنا الآن لا أتكلم كعبدالناصر ولكننى أتكلم كرئيس وفد

للجمهورية العربية المتحدة ،وإنى لا أعقّد الأمور فأنا شخصيا أشد الناس تحمسا فى مصر لهذه الوحدة ولكن الموضوع يتعلق بمسألة أمة ، يسأل جمال عبدالناصر .. ما هو المطلوب ؟

هل المطلوب وحدة أم وحدة اتحادية ؟

هل الاتحاد المطلوب صورى أم حقيقى ؟

هل المطلوب وحدة تنّفذ أم وحدة مؤجلة ؟

كل هذه الأسئلة مهمة ، كذلك لابد أن نسأل :

ما هو الوضع الآن فى سوريا ؟

هل فى سوريا ثورة أم فى سوريا انقلاب ؟

هل الجيش فى سوريا يحكم أم الوزارة فى سوريا هى التى تحكم ؟

هل الحكم فى سوريا بعثى أم الحكم فى سوريا قومى ؟

ذلك ضرورى أن يتضح لكى نتصرف جميعا على هدى ، لابد من عملية فحص وتدقيق ودراسة واسعة وجدية ، لنستعرض كل هذه الأمور ، وكل خطأ من الممكن تقويمه ، ولنرى ماذا يمكن عمله،وبهذا يمكن تنفيذ العملية ،

هل هناك شكوك ؟ هناك شكوك بغير جدال .. وهناك أخطاء حدثت أثناء الوحدة السابقة ولكنى أقول طالما أننا نعمل فستحدث دائما أخطاء ، ستقابل الوحدة بقوى معادية كبيرة وستحاربها دول الاستعمار كلها ، ودول حلف بغداد والرجعيات العربية والأحزاب الشيوعية والشعوبية والانتهازية، ولا أنسى منذ الشهر الثالث للوحدة السابقة إننى سمعت اصطلاح (الاستعمار المصرى) والتسلط المصرى من داخل الحكم ومن الذين شاركوا فى الوحدة ، من حزب البعث .

كيف إذن نطمئن هذه المرة ؟

قبل أن ندخل فى وحدة يجب مناقشة جميع هذه النقاط ، وفى ما يتعلق بالتجربة السابقة فإنى لم أكن شخصيا أحكم سوريا وإنما كان يحكمها السوريون ، على سبيل المثال كان الحورانى رئيسا للمجلس التنفيذى واتخذ قرارا برفع رسوم

الجمارك على كل شئ فـى سوريا حتى على الأكل ، واتخذ قرارا بغـير علمى ومع كده تنصّل هو من مسؤوليته وتنصّل كل واحد غيره ، قيل كما قرأت فى تعميمات حزب البعث ، أن المطلوب وحدة ديموقراطية قبل وحدة اتحادية ، وقيل وحدة بدون عبدالناصر ، وقيل وحدة بدون الحكم الحالى فى مصر ، كل ذلك قيل ، ونحن على استعداد لبـحث جميع هذه النقاط ، كذلك أريد أن أعرف مـا هى الوحدة وما هى الحرية وما هى الاشتراكية؟

لابد أن نلتقى عـلى تعريفات لهـا ، وليس المطلوب أن نلتقى على شـعارات فقط ، ولابد فى هذا الاجـتماع أن نتكاشف بكل وضـوح وصراحة ونبـحث كيف نقيم الوحدة الجديدة ، مادامت هى غايتنا ، سليمة قادرة على البقاء ..

عايزين وحدة بدون انفصال ، عايزين وحدة أبدية تجمع باقى الدول العربية ، وعلينا أن نقرر هل نريد وحدة حقيقـية أو صورية ، وعلينا أن نقرر هل نريد وحدة تقوم على مبدأ المشاركة أم وحدة وكل واحد يعمل اللى عايزه ؟

فى هذا الاجتماع أنا أريد أن أسمع أكثـر مما أتكلم ، موقفنا نحن تكلمنا فيه كثيرا ، نقدنا أنفسنا فى التجربة السابقة وأنا مارست النقد الذاتى فيها علنا ، ونحن طلاب وحدة فى كل وقت ولا أظن أحدا يشك فـى ذلك ، لهذا نريد أن نسمع من سوريا ومن العراق ، ونريد أن نسمع بالتفصيل عن الماضى وعن المستقبل ..

السيد على صالح السعدى :

إننا فـعلا لم نحـضر إلا لـتقـييم وحـدة لا تنفصـل وطلبنا الآن هو أن تعلن الدول العربيـة الثلاث أنهـا فى سبيل تحـقيق وحدة اتحـادية ، ثم تكون هذه الخطوة مفتـاحا للدخول لهذا الشئ ، قـد تطول الدراسة سنة أو سنتين أو ثلاثة ولكن المهم أن نعلن ذلك فورا وأن نباشر الدراسة فى نفس الوقت..

السيد نهاد القاسم :

إن ما قاله الأخ عـلى صالح قد يكون مناسبـا للوضع فى العراق ولكن ليس بالنسبة لسـوريا ، لذلك فإنى أتحفظ بالنسبة لما قاله ، إن الوضع فى سـوريا مختلف عنه فى العـراق نهـائيا ، فـفى سـوريا هناك من ينادى بوحـدة فـورية ، ومن يطلب

وحدة بين سوريا والجمهورية العربية المتحدة ، وأن ما صرح به الأخ على صالح يعتبر عملية تحذير لمطلب الوحدة وللرأى العام فى سوريا ، والمهم هو أن ندرس الأخطاء ونتصارح إلى أبعد الحدود ، وأسجل إنى سبق أن قلت : إن الأخطاء لم يكن المسؤول عنها جمال عبدالناصر فكلنا مسؤولون ، يجب أن نخرج من هنا بنتيجة إيجابية وبمشروع يباشر فورا ..

السيد عبدالحليم سويدان ،

لا شك أن الوصول إلى الوحدة يقتضى منا حربا مريرة وفى هذه الحرب قد نخسر بعض المعارك ، ولكن فى النهاية سنربح المعركة ، ولقد كان الشعب السورى أول من نادى بالقومية العربية والوحدة العربية ، ، لقد عاش هذا الشعب إبان الانفصال أشد تحمسا وتمسكا بالوحدة إيمانا منه بها وحرسا عليها ، وفى صبيحة الثامن من آذار مسحت الثورة آثار الخيانة والعار من جبين الجيش العربى والشعب العربى فى سوريا وفرضت إرادة الشعب ، إنها الثأر الأول لكارثة ٢٨ أيلول وثورة رمضان الثأر الثالث لها ..

السيد عبدالكريم زهور ،

الحقيقة أن الوحدة العربية ليست حلما فقط ولكنها طريق الخلاص الوحيد للأمة العربية ، الطريق الوحيد الذى يجعلها تقوى فى هذا العالم ، ولقد ظهرت فى سوريا القومية العربية بوضوح لأسباب واقعية خاصة بها ، وقبل أن تظهر على هذا المستوى فى الأقطار العربية الأخرى ولم تكفر سوريا بها بتاتا ، بالطبع هناك خونه إلا أنهم لا يعبرون عن هذا الشعب أبدا ، وسوريا سنة ١٩٥٨م أقبلت من تلقاء نفسها على الوحدة ، وما ذكره السيد الرئيس صحيح وأذكر ذلك عندما كنت عضوا فى الوفد البرلمانى الذى حضر للقاهرة قبل الوحدة للتدارس مع إخوانه فى مصر عنها.

لقد تمت الوحدة السابقة عام ١٩٥٨م ونحن اليوم فى عام ١٩٦٢م وقد تغيرت الظروف كثيرا وخاصة خلال السنة الماضية ، اليمن ثار وتدفعت قوات الجمهورية العربية المتحدة مع قوات اليمن عن ثورته ، والعراق ثار ، وها هى سوريا ثارت ، صورة جديدة للوحدة ، يا سيادة الرئيس هناك خطر دائم فى المشرق

العربي أن يظل العراق بعيدا أو أن تظل مصر بعيدة لذلك كان من اللازم العمل مخلصين لوحدة الأقطار الثلاثة حتى نسد الطريق أمام إمكان عودة الصراع لهذا المشرق العربي ، وأعتقد أننا لو نجحنا في التخطيط فسنجعل موضوع تحقيق وحدة المشرق العربي مسألة زمن لا أكثر ولا أقل ، لا شك أن السيد على صالح قد بالغ عندما قال بدراسة الوحدة لمدة سنة أو سنتين أو ثلاثة فإن القضية لا تحتمل مثل هذا الزمن الطويل ، كذلك من غير المعقول أن نعلن الوحدة ثم إذا هي وحدة مرجأة ، يجب ألا تعلن إلا عند ممارستها وإلا نكون قد ضحكنا على أنفسنا ، ينبغي أن نعلن عن هذا الاجتماع التمهيدي أننا سائرون فيه نحو الوحدة ، لم نأتي هنا لنلهي الناس ولكن لتشكيل لجنة من الأقطار الثلاثة لتبدأ الدراسة الفعلية للوحدة ، وتنبثق عنها لجان فرعية لدراسة المسائل العسكرية والاقتصادية إلى آخره ..

اللواء راشد قطيني ،

سأبدأ الحديث منذ ٢٨ أيلول ، لقد قامت بكارثة الانفصال فئة ساندتها الشعوبية والطبقية الرجعية اليمينية ، استولت على الحكم بطريق عاجل ومنذ اليوم الأول بدأت الاتصالات في الجيش للوقوف في وجه هذا التيار الانفصالي ومنذ فترة اجتمعت عدة فئات عسكرية قومية واتفقت فيما بينها على الثورة ولم يكن هناك فيما بينها وبين أية جهة مدنية أي اتصال ، وقد شكل مجلس قيادة الثورة من جميع الفئات والهيئات التي اتصلت ثم نفذت الثورة ، ولقد أقسم المجلس منذ اليوم الأول أنه لا يوجد هدف للجيش في الحكم ولقد درس موضوع قيام وحدة أو اتحاد وهناك رغبة جامحة لإقامة وحدة اتحادية بين الدول الثلاث وذلك للوقوف أساسا أمام الخطر الكبير الذي يبعد عن دمشق بما لا يزيد عن ستين ميلا ، لقد شكلت الوزارة على النحو المعروف لكم ورأسها واحد من الموثوقين ، وتمت إجراءات عنيفة لتطهير الجيش وأقصى منه كل من ليس بعربي وأصدرت الوزارة بيانها الوزاري الذي صدر أمس كما طلب المجلس تلبية لرغبة الرأي العام تخصيص فقرة للوحدة الاتحادية بين الدول الثلاث ، ويؤمن الجيش بالفكرة ويطالب تحقيقها والرغبة الملحة أنه لا داعي أن ندخل من الآن في تطويلات لنتجنب إرجاء الوحدة ، ولقد سبق أن أخطرنا السيد طالب شبيب عند عودته من القاهرة منذ أيام بواسطة على صالح بضرورة سفر وفد سوري إلى القاهرة ، أما عن سؤال السيد الرئيس من

يحكم سوريا ؟ أن الذى يحكم الآن مؤقتا هو لجنة مركزية من مجلس الثورة وتختص بالتوجيه السياسى والتخطيط العام ، ولقد اجتمعت هذه اللجنة أمس وقررت أن تبدأ معكم فى محادثات عن الوحدة الاتحادية وليس مفاوضات ، إن الرأى العام السورى لا يتتظر ولا يرحم ، إنه يريد أعمالا وليس أقوالا ، إنى أتكلم باسم القيادة والجيش مؤمنا بضرورة البدء فورا بتشكيل لجنة لوضع الأسس التى ستجمع هذه البلدان فى وحدة تدوم آلاف السنين ..

اللواء زياد الحريرى ،

الموضوع ببساطة أننا فى الجيش قمنا بثورة لإقامة الوحدة ، لقد قام النحلاوى بعملية غدر وكان المسيطر فى ٢٨ أيلول الطبقة الرجعية ، ثم جاء ٢٨ آذار وطالب الجيش بضرورة تصحيح الأوضاع، والطريق الصحيح لنا هو إقامة الوحدة المطلوبة وإنها بالنسبة لنا حياة أو موت ، لقد حدثت ثورة العراق يوم ١٤ رمضان ثم حدثت ثورة سوريا لتضعها فى مكانها الصحيح وبوجهها الصحيح ورغم الصعوبات فقد نجحت الثورة ومنذ اليوم الأول بدأنا دراسة إعادة الوحدة وقرر المجلس إنه بدلا من وحدة ثنائية أن تضم لها دولة ثالثة لتكون المنطلق الجديد للوحدة ، ولا ننسى أن العراق كان دائما إقليما منفصلا بعيدا عنا ، والمطلوب الآن يا سيادة الرئيس هو العمل بأقصى سرعة بما يحقق لنا الوصول إلى هدفنا ..

المقدم فهد الشاعر ،

من الطبيعى أن يكون للوحدة أخطاء وأننا جميعا فى سوريا وفى مصر مسؤولون عنها ، ولكن لا ينبغى أن نبحث عمن أساء ولكن يجب القضاء على كل إساءة ، لقد عم القوات المسلحة والجيش فى فترة الانفصال استياء عام وتذمر ، ولولا هذا لما نجحت الثورة ، ونحن كعسكريين قد نخطئ أثناء المعركة ولكن المهم هو العمل على تفادى هذه الأخطاء لإنجاح المعركة .

ولم يكن إيمان السوريين بوحدة بين قطر أو قطرين فقط وإنما هم يؤمنون بالوحدة الشاملة بين جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس قام التنظيم العسكرى يدعمه الشعب مؤمنا بفكرة الوحدة العربية ، ولقد دخلت حركة التطهير فى القوات المسلحة بهدف الإبقاء على العنصر العربى الذى يؤمن بهدف الثورة ،

وهو الوحدة والتى لا يحميها إلا واقع عملى ، نحن الآن نمثل ثلاثة أقطار عربية متحررة وهناك دول عربية أخرى مثل الجزائر واليمن وغيرهما ، ولذلك فإنه يتحتم على دولنا الثلاث العمل بشكل جدى وبدون تأجيل من أجل الوحدة ، لأن التأجيل ليس فى صالحنا وأرى أن يتفق المجتمعون على مباشرة العمل السريع فى هذا السبيل ، أما بالنسبة لطريقة البدء ، هل نبدأ بالوحدة السياسية أم نبدأ بالوحدة الاقتصادية أم بالوحدة العسكرية ؟ فلست أعتقد أن جلّ هذه الأمور بالأمر الصعب ، فالشعب العربى فى كل قطر عربى شئ واحد ، فالفلاح الموجود فى الصعيد هو نفس الفلاح الموجود فى شمال سوريا وهو نفس الفلاح الموجود فى جنوب العراق ، الاختلاف موجود فقط بين الطبقة المثقفة ، إن الشعوب العربية لا تحتمل التأخير أو أى عبث ولندع الكلام المطاط ولننطلق فورا ..

السيد طالب شبيب :

إن ثورة ١٤ رمضان لم تكن فى الحقيقة ثورة عراقية إقليمية ولكن العراق عملت فيه الشمولية والشيوعية لتحطيم الحس القومى ، ويوجد بالعراق مليون كردى لا يرحبون بالوحدة وهناك اختلاف طائفى إلى غير ذلك ، كذلك كانت القاهرة وبغداد فى أغلب الأحيان فى تنافر تنفيذا لسياسة استعمارية قديمة ، ويجب وضع هذا موضع الاعتبار والتريث قبل اتخاذ قرارات سريعة ، ولا شك من ناحية أخرى أن الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا تعد عاملا أساسيا لدعم القوى القومية وتفجير الثورة فى ١٤ تموز فى العراق ، ولا شك أيضا فى أن الأخطاء التى تعرضت لها الوحدة ستفيد حتما كتجربة فى وضع الأسس الجديدة لكننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن الوحدة لا يجب أن تتأثر بعواطف الجماهير ، كذلك أريد أن ألفت النظر إلى أن العراق له مشاكله الداخلية الخاصة وهى مشاكل معقّدة ..

السيد نهاد القاسم :

إنى أناقش الموضوع كقاضى بحيث لا أتأثر بالعواطف ، فعواطف الجماهير ليست هى الأساس ، وإن كان من الواجب أخذها فى الاعتبار ، والحقيقة أن الجماهير التى تنادى فى سوريا بعودة الوحدة ليست مدفوعة بعواطفها وحدها وإنما

بالأسباب التى دفعت إلى الوحدة السابقة فى ١٩٥٨م وبعده تكلم كل من :

السيد نهاد القاسم ، السيد عبدالكريم زهور ، السيد عبدالحمن البزاز ، السيد طالب شبيب ، السيد على صالح السعدى ، وأخيرا قال السيد عبدالكريم زهور وهو يخاطب الرئيس جمال عبدالناصر : يا سيدى نريد أن نتدارس وعموما فنحن الآن عايزين رأى الرئيس ..

الرئيس جمال عبدالناصر ..

من ناحية المبادئ العامة فالحقيقة أننا سبق أن قلنا رأينا فى الميثاق ، كل شئ عن الحرية والاشتراكية وفى الوحدة ، من وحدة الهدف إلى الوحدة الدستورية ، وقد سبق أن قلت أن القومية العربية شبح بالنسبة لأعدائنا ، يصعب ضربه طالما هو فى حيز الفكرة ، وبمجرد أن تتحقق وتتجسم فى شئ مادى تبدأ الدول الاستعمارية والأعداء فى مهاجمتها ، وعندما قامت ثورة سوريا فى ٨ مارس أيدناها على أساس أنها حكم وطنى ، وقد ظهر من البيان الأول أن اتجاهها وطنى فأيدناها ، كذلك الحال فى العراق من ناحية التنفيذ ، فالحقيقة أننا نعانى عقدة من الوحدة ، ليه؟ لأن الكلام الكثير الذى قيل ربى لنا عقدة ، ولكن رغم ذلك فلم نكفر بالوحدة وحين جاءنى السيد طالب شبيب بمقترحات العراق قلت له صراحة ، قبل أن أناقش مقترحاته بالتفصيل : إنه ليس من المعقول أن أتكلم مع سوريا عن طريق العراق ، وقلت له ، قبل ما تقول وحدة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية علينا أن نتكاشف بصراحة تامة ..

وأردت أن أوضح لإخواننا العراقيين أنى لا أقصد أبدا عدم الثقة بهم إذا ما قلت للأخ طالب ابتداء إنى لا أستطيع أن أتكلم مع سوريا عن طريقهم ، ولم أعترض على بعض ما تضمنته مقترحاتهم لأنى لا أريد تصعيب الأمور ، وإنما أعترضت مثلا على عملية تدخل الجيوش فى أراضى دولة أخرى لأن ذلك قد يكون معناه عدم الثقة فى أفراد الجيش للدولة المعنية ، ونحن هنا فى مصر لا نوافق على هذا الاقتراح ، أما بالنسبة لبقية المقترحات مثل إقامة مجلس أعلى أو مجالس مشتركة للتخطيط فنرحب بها لأننا فى حاجة دائما لاجتماعات مشتركة ، وفى رأيي أنه قبل أن نقرر أى شئ لابد أن نعرف ما هى الأخطاء ، فنحن حقيقة طلاب

وحدة ، ولكن لابد أن يكون جميع أطرافها قلوبهم مفتوحة ولازم نأخذ درسا من جريمة الانفصال وأخطاء الوحدة معروفة ، وأنا بصفتى رئيس الجمهورية العربية المتحدة أعتبر نفسى متحملها ، وسبق أن قال لى كمال حسين حين مارست النقد الذاتى للتجربة فى خطاب عام لماذا تحمل نفسك وحدك المسؤولية ؟ لكنى لصالح النضال العربى على استعداد لأن أتحمل أى تضحيات أو مسؤوليات ..

إن الخطأ الكبير فى الوحدة هو فى استغلال الإقليمية ، وقد ظهر استغلال الإقليمية أول ما ظهر من بعث سوريا ، ولقد كان كل من أعرفهم من البعث وقتئذ هم أكرم الحورانى وصلاح الدين البيطار ..

ولابد أن أقول إنى مليان بالشك وعدم الثقة من البعث السورى ، فالبعث تآمر علينا واتصل بضباط من الجيش المصرى ، وطبعا كلنا عارفين الاتصال بداود عويس ، وأنا لا يمكننى أن أتكلم على نفاق ، لازم نقعد ونوّضح ونكون صرحاء ، لازم نبحث جميع الظروف والملابسات التى أحاطت بالتجربة السابقة ، ليس بقصد الحساب ولكن بقصد الفائدة والفهم ، قيل لى على سبيل المثال أن السبب أن الجيش السورى تضايق من (عنطزة المصريين) ليكن ، لابد أن نبحث هذا لازم نتكلم بصراحة ..

كذلك أنا أعتبر أن استقالة البعثيين جريمة ، وكانت جريمة مدبّرة ، لم تكن إنسحابا من وزارة الوحدة ولكن كانت انسحابا من الوحدة ذاتها وانقلابا عليها ، وهذا كله يجب أن نتفاهم فيه قبل أى تجربة جديدة ، لا يمكن أن نقيم وحدة على خداع ، ويجب أن نتكلم فيها بكل صراحة وبكل وضوح ، أقسم لكم أننى لم اصدق أن صلاح البيطار وقع وثيقة الانفصال إلا بعدما شاهدت زنكوغراف توقيعه ..

لقد ورثنا الأخطاء فى سوريا ، وفى الجيش ، والجيش كانت فيه كتل ، ولقد أثر وجود هذه الكتل حتى على تجربة الوحدة ذاتها ، واليوم لا أعرف ما هو الوضع فى الجيش السورى ؟ هل مازالت الكتل تتحكم فيه ؟

اللواء راشد قطينى ،

لا توجد الآن كتل بالجيش

الرئيس عبدالناصر ، لا تتضايق إذا قلت لك أننى لا أعتقد أن هذا الكلام صحيح ، وعلى أى حال فيما يختص بالخلاف بين البعث والجمهورية العربية المتحدة فلقد بذلت كل جهد لتلافيه وتحقيق كل سبب للشكوى ، ولقد حدث يوما

أن صلاح البيطار قال لى إن حزب البعث مطارد فى سوريا من عبدالحميد السراج فأحضرت السراج من سوريا وطلبت من صلاح البيطار أن يتكلم أمامه بما يشاء ولكن البيطار لم يقدم أية تفاصيل .

لقد كانت استقالة وزراء البعث غلطة كبرى ، ولدى الشجاعة أن أقول لكم أننى أعتبر التسرع فى قبولها من جانبى غلطة أخرى ، ولكن كان هناك استفزاز وأنتم تعلمون ماذا ردد البعثيون بعد الاستقالة ..

على أى حال لم نكن نعرف قبل أن تجيئوا إلى هنا طلباتكم ولهذا فإنى سوف أجمع مجلس الرئاسة لعرض الأمر عليه قبل أن نعطى ردا كاملا ..

نحن طلاب وحدة ولا شك ، ومستعدين للوحدة باكر ، ولكن لازم نتكاشف ونفتح قلوبنا ، وأن نعرف مع من نتعامل ، وما هى المبادئ التى نسعى إليها ، من هم أعضاء المجلس الوطنى فى سوريا مثلا ،أنا لا أعرفهم ؟ وما هى الحرية ؟ فى مفهوم حزب البعث مثلا ، لا أعرفه ، أكرر لكم أننا فى الجمهورية العربية المتحدة موقفنا واضح ، ولكن الذى يحتاج إلى توضيح هو موقف النظام الجديد فى سوريا ، هناك رؤوس موضوعات كثيرة يجب أن توضع تحتها التفاصيل ..

ما هى سياسة سوريا نحو أعداء الوحدة ؟

وما هى سياسة سوريا نحو الاشتراكية ؟

وما هو مفهوم الوحدة ، والحرية والاشتراكية ؟

ما هى الوحدة التى نطرحها للحديث اليوم ؟ إذا كانت وحدة صورية فنحن لا نوافق ..

ما هى الوحدة الاتحادية ؟ رأيى أن معناها اتحاد ، فلماذا لا نسميها اتحادا ولماذا نستعمل ذلك التركيب الغريب للوحدة الاتحادية ؟ نتكلم عن الوحدة ونحن نقصد الاتحاد ، فلماذا لا نسمى الأشياء بأسمائها ونقنع الناس بما نؤمن به وأنا واثق أن الناس على استعداد للاقتناع ..

سؤال آخر هام ،

هل الحكم الجديد فى سوريا بعثى ؟

اللواء زياد الحريرى : لا يا سيدى .

السيد نهاد القاسم : لا ، جبهة وطنية .

السيد عبدالكريم زهور : ليس بعثا يا سيدى ولكن البعث شريك فيه مع عناصر وطنية من العسكريين والمدنيين .

الرئيس جمال عبدالناصر ، مرة ثانية بأقول بوضوح ، إذا كان الحكم فى سوريا بعثيا فلست على استعداد للجلوس مع البعثيين السوريين للحديث عن وحدة جديدة ، وأنا أعتبرهم من العناصر التى حاربت الوحدة سنة ١٩٥٨م أما إذا كان الحكم كما سمعت منكم جميعا الآن قوميا فأنا على استعداد للبحث مع جميع الفئات وليس مع البعث وحده على أساس أن نصّفى أولا آثار التجربة السابقة ، لا تؤاخذنى على الصراحة ، لأنها مطلوبة فى هذا الظرف ، وإلا كنا غير مقدرين للظرف ، مازالت عندى أسئلة أخرى ..

هل الفكرة من وراء الوحدة الثلاثية هى موازنة الجمهورية العربية المتحدة بالعراق بحيث لا يحدث (كما كان البعث يقول) تسلط مصرى وحتى يحدث توازن فى الوحدة ؟

هل هذه مناورات سياسية ؟

هل هو مناورة حزبية بحيث يكون هناك صورتان للبعث ضد صوت واحد غير بعثى هو مصر ؟ سبق أن قلت أنه لو قامت وحدة بين سوريا والعراق فسأكون أول من يؤيدها ، ولكن رد الأخ مهدى عماش علىّ فى ذلك الوقت بأنهم لا يوافقون على ذلك ، لابد من تصحيح النكسة بإقامة الوحدة بين مصر وسوريا ، وبرغم كل النكسات فأنا مؤمن بالوحدة ويوم الانفصال كان أسوأ أيام حياتى ..

المشير عبدالحكيم عامر : لا يمكن أن تقام وحدة على مناورات سياسية .

الرئيس جمال عبدالناصر : والأخطاء مهما كانت فلا تعالج بالانفصال.

السيد عبدالحليم سويدان : لا يمكن أن يكون الهدف من الوحدة الثلاثية صوتين ضد صوت واحد .

الرئيس جمال عبدالناصر : أنا تكلمت بصراحة .

السيد عبدالحليم سويدان : إن فكرة المنطلق الثلاثى هى فكرة وطنية .

السيد عبدالكريم زهور : إنى معجب بالرئيس وقد طرح هذا الموضوع بكل

صـراحـة حـتى تتطابق أفكارنا ولكى لا يكـون هناك أى احـتمـال فى المسـتـقبل لتناقضات رئيسية ، والحقيقة أن البعث كان فى أوائل أيام الوحدة سنة ١٩٥٨م من أشد المتحمسين للوحدة ، وقد قبل قرار حل حزب البعث نظريا وعمليا ، لقد عبت مرة علـى الحورانى تشكيل وزارة بهـا رجعـيون مرة وهو نـائب رئيس الجمـهورية وقال لى : إنه بلا اختصاص ونصحته بالاستـقالة ، كما أن البعثيين قد أهينوا بوجه عام عندما دخلوا الحكم ، ولقد تركت هذه الأمور وغيرها أحقادا فى نفوس كثيرة، مع ذلك فقد انقسم البعث على نفسه ..

ولا شك أنه من الضرورى لمن أخطأ أن نكرهه علانية على الاعتراف بخطئه بدون تردد حـتى نمضى فى طـريق النضـال الوحـدوى ، سـيـدى الرئيس لـم يعـبـأ الشعـب بحل الأحزاب بعدما تقرر تشـكيل اتحاد قومى ، ولكن كان الاتحاد القومى فراغا منذ نشـأته ، وقد قضى هذا الفراغ على الوحدة وشجع أمـثال النحلاوى بأن يعمل شيئا ، والحقيقة أن قـبول الرئيس للوحدة عام ١٩٥٨م كان تضحية منه ، ولا أنكر أن الأوضاع فى سـوريا معقـدة ولكن لو اتبع قرار حل الأحزاب بقـيام تنظيم شعبى يتيح للجماهير الشعبيـة العمل السياسى السليم لأمكن مواجهة النكسة ، أما ما هو الرأى فى الحـرية والاشتراكـية والوحدة فالحـزب يفخر بأن هذه الشـعارات أصبحت منذ ١٥ سنة هى شعارات الأمة العربية ولست أقصد بالحرية البرلمان إذ كلنا يعرف كيف تشـترى الأصوات وهى ديموقراطية بورجـوازية وهى عملية تثبيت للتخلف ، والديموقراطية الشعبـية فى رأينا قد تأخذ صورة قيادة الحزب يؤلف من الفئات الأخرى جبهة قومية ، وقد يكون ائتلاف مـجموعة أحزاب تتفق على أهداف فى مرحلة معينة تخرج منها قيادة سياسية ، وقد يكون بدون أحزاب مثل الاتحاد الاشـتراكى ، وقد قرأنا الميثاق ونوافق علـى معظم ما جاء فيـه ، وليس المهم هو الميثاق، بل المهم هـو تنظيم الاتحاد الاشتـراكى العربى ونحن ننتظر نـتـائج هذه التـجـربة ، فـالأصل فى ذلك هو الـديموقـراطيـة الشـعـبـيـة لا الديموقراطية البورجوازية ، أما عن الاشتراكـية فقد تكون توسيع القطاع العام وقد تعنى التأميم وقد تتطور للتخلص من القطـاع الخاص ، وفى الواقع فإن الجمهورية العربية المتحدة ضربت مثلا طيبا فى تنفيذ الاشتراكية وأعطت لهذا الموضوع قدره ، أقول شـيئا آخر إن الوحـدة الاندماجيـة التى حدثت بين مصـر وسوريا لم تنجح ،

وفى رأيي غير قابلة للتطبيق فى هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية ..

نحن نعترف بالتاريخ البابلى والآشورى والفرعونى ولذلك فالفرعونية لا تسئ إلى مصر كلية ، وسبق أن قلنا وصرحنا أن جمال عبدالناصر له الفضل بعد ثورة ٥٢ فى وضع الملايين من العرب داخل الخط العربى ، كما أننا لا نريد وحدة شكلية تعود بنا إلى الصورة السابقة للوحدة عام ١٩٥٨م اتفاقيات اقتصادية وثقافية وقيادة مشتركة .. إلخ ..

إذن بالمطلوب هو الوحدة الاتحادية مع بحث كيفية تجنب إمكانيات التصادم بين الفئات المشتركة فى هذه الوحدة الاتحادية ، إنى لم أحضر هنا كمندوب لحزب البعث وكان كعضو فى الوفد يمثل الحكومة السورية ، وإنى أرى أن نعطى مهلة للتداول وبعدها نتفق على كيفية إخراج العمل ..

الرئيس جمال عبدالناصر ،

إنى متفق مع الأخ زهور على أنه كان هناك فراغ وكان من الواجب أن نجمع الأحزاب والفئات القومية ، كما أتفق معه على أن الوحدة الاندماجية سابقة لأوانها ، وهذا ما عبرت عنه فى كلامى بضرورة مراعاة العوامل الإقليمية ، والآن أمر بسرعة على بعض النقاط التى أثارها السيد زهور وأسجل أنى استشرت أكرم الحورانى بوصفه مسؤولا عن حزب البعث فى اختيار الوزراء وفى تشكيل الوزارة كلها علما بأن حزب البعث لم يكن يمثل سوريا ، وإنما كان طول عمره مجرد شريك فى الائتلافات الوزارية وبينها الائتلاف الذى وقع اتفاقية الوحدة ..

وكان المجلس التنفيذى فى سوريا له كل الصلاحيات والسلطات ، علما بأنه لم تكن هناك حكومة مركزية فى ذلك الوقت ، أما الكلام عن حل الأحزاب فقد كان أمرا مقررا من جانب الضباط السوريين الذين حملوا عليّ فكرة الوحدة ، أما الاتحاد القومى فقد اشترك معنا الحورانى فى الدراسة وأجتمع معنا عدة ساعات فى القناطر الخيرية ولم يعترض على ما تقرر ، ولم يبد أية ملاحظات ، وكان عبدالمجيد فريد سكرتيرا لهذه الجلسة ولديه المحاضر الكاملة لها ..

وفى الحقيقة أن الحورانى بدأ يظهر استياءه يوم أن ذهب المشير عبدالحكيم

عامر إلى دمشق ، وعموما فلم يحضر الحوراني إليّ من قبل ليشكو من اى شئ ، وأود أن أكرر أنه لم يصدر قانون من جانبنا في مصر دون أن يبحثه المجلس التنفيذي السوري ..

السيد نهاد القاسم ،

للتاريخ قابلني مرة الحوراني وشكا من عدم وجود اختصاصات أو سلطات له ، وأنه يشعر أن الرئيس لا يعطيه احترامه الكافي ..

الرئيس جمال عبدالناصر ، سبق أن قابلت الحوراني وأوضحت له اختصاصاته وسلطاته الكاملة ، أما عن موضوع احترامه فلقد كنت أحرص دائما على أن يكون بجانبي حتى وسط الزحمة في الاستقبالات الرسمية ، وحين كنت أشعر أنه تأخر كنت أقف أناديه وأنتظره ليبقى بجانبي ، وكان بغدادي معنا في روسيا لم أكن أفعل ذلك بعد ، ولكني كنت أعرف حساسيات البعثيين وعقدهم ولا يغرب عن بالكم أنه من المعتاد في أي زيارة أن يركز الاهتمام على الرئيس الموجود وليس هذا معناه إهمال أو عدم احترام المرافقين الباقين ، وبالنسبة لنظام الحكم وقتئذ فقد كانت هناك ثلاثة لجان تشريعية وتنفيذية واقتصادية واختصاص كل منها محدد تماما وهي التي كانت تبحث جميع الموضوعات ثم تعرضها عليّ بوصفي رئيسا للجمهورية من أجل التوقيع ، وكانت هذه اللجان موجودة في سوريا كما كانت في مصر ، وكنا نجتمع في الوزارة المركزية بعد ذلك ونناقش كل ما يتعلق بالسياسة الخارجية بالتفصيل ..

السيد على صالح السعدى ، إذا كان الحزب هو موضوع المناقشة فسأتحدث عن ذلك قليلا ، لا شك أن أوضاع البعث في سوريا كانت مهلهلة إلى الدرجة التي تبقى أمثال الحوراني أعضاء فيه كما أسجل أن التحدى للحزب كان واضحا جدًا في سوريا ، وليس لحزب البعث السوري فقط ، وإنما للحزب عامة ، كذلك فإن الحكومة ركزت وسائل إعلامها من إذاعة وصحافة لخدمة المطرودين من الحزب أمثال الركابي والريماوى ، أما عن توقيع البيطار لوثيقة الانفصال فإنها

كانت جريمة وأن الذى دفعه إلى ذلك هو الحورانى وقد فاجأه بها ، كما أن صلاح البيطار بكى كثيرا بعد ذلك على ارتكابه هذا الجرم ..

إن صلاح البيطار وعفلق مخلصان فى دعوتهما للوحدة وفى حسن نواياهما للعمل من أجلها ، وإن ما قيل عن المناورات السياسية أو عن عدد الأصوات فغير وارد نهائيا فى أذهانهما أو لأى عضو بعثى آخر ، ثم قال إننا غير مستعدين إطلاقا أن نخفى عليك شيئا ، وثق أننا سنعرض عليكم أية نشرة قبل أن نخط أى كلمة عنكم فيها ، إنى متأكد أن الاتجاه العام للحزب هو نفس الاتجاه الذى أسجله لسيادتكم الآن ، إننا سنساهم منذ الآن مساهمة فعالة فى سوريا وسنحمى الحزب من أن تدخل فيه عناصر مخربة مثل الحورانى ولقد اتفقنا جميعا على تقييم حكم عبدالناصر ونفخر به، وهو أنه أدخل ثلاثين مليون فى المعركة القومية ..

الرئيس جمال عبدالناصر :

أنا آسف لصراحتى فى كلامى عن البعث وإنما أتكلم عن تجربة سابقة ، وإن لم أقل ذلك فهذا معناه نفاق ، والبعثيون الذين سبق أن تعاملت معهم كان على رأسهم الحورانى ..

اللواء راشد قطينى :

يا سيادة الرئيس الساعة الآن حوالى الواحدة والنصف ولما سافرنا اليوم من دمشق إلى القاهرة فإن الجميع ينتظرون الرد مساء اليوم ، ولذا أرجو أن نعلن شيئا عن اجتماعاتنا قبل أن تنتهى الإذاعة فى القاهرة ودمشق ..

المقدم فهد الشاعر :

لن يعود الوفد السورى من هنا إلا بحل جذرى ولن نترك هذه القاعة قبل الوصول إلى حل ، إننا نقرر مصير أمة أو فلنعلن للشعب أننا غير قادرين ..

اللواء الحريرى :

لا شك أن ما قيل كلام صريح وواضح ، ولكن ليس المقصود هو الرد فقط ، إذ يجب أن نضع الحلول والطرق الصحيحة للوصول إلى مشروع ناجح ..

السيد عبدالحليم سويدان :

كما أرجو ألا يعلن حديث السيد الرئيس عن البعث للرأى العام فى سوريا ..

الرئيس جمال عبدالناصر :

إننا لا نخشى ذلك ولا يجب أن نخشاه ، فوجود الخلاف بيننا لا يعنى وجود تناقض ، والخلاف لا يؤثر على علاقاتنا ، كذلك فنحن لا نريد أى شئ يكون من نتيجته إضعاف الجبهة الوطنية فى سوريا الآن ، إن الجمهورية العربية المتحدة بصرف النظر عن الوحدة تريد قوتكم وتريدكم أقوياء ، أن الجمهورية العربية المتحدة مستعدة لبذل الدماء لأى حكم وطنى فى سوريا ولأى حكم وطنى فى العراق بدون وحدة أو اتحاد ، إن قوتكم فى سوريا مطلوبة كما أن سياسة الإحراج لا نقبلها ، وأنا حريص على سوريا كل الحرص ، وقد سبق أن قلت ليس المهم أن تبقى سوريا فى الجمهورية العربية المتحدة ،وإنما المهم أن تبقى سوريا ، والموضوع موضوع أمة وليست كرامة فردية ، وقد قلت فى اعترافنا الجمهورية الجديدة بسوريا إنه يشرفنى أن أعترف بها ..

والآن باقى على آخر نشرة أخبار الساعة الثانية صباحا بصوت العرب حوالى عشرة دقائق ، ولا مانع أن نعلن خبر يطمئن الشعب العربى وخاصة فى سوريا .

انتهت الجلسة وتم الاتفاق على إذاعة بيان يذكر (أسماء المجتمعين ومكان وساعة الاجتماع وأن البحث جار فى موضوع الوحدة بين الأقطار الثلاثة وأن وجهات النظر كانت متقاربة ، وأن الاجتماع سيستأنف ظهر اليوم التالى) انتهى [٩١] .

وكانت المرحلة الثانية قد بدأت فى يوم ١٩ مارس وقال عبدالناصر فى الجلسة الأولى للبيطار (لم أصدق توقيعك على وثيقة الانفصال بصرف النظر عن أى خلاف سياسى) وقال كل من الأتاسى والشاعر بحضور ميشيل عفلق (انقلاب ٨ آذار غير مرتبط بحزب) وفى هذه المرحلة عقدت ست جلسات ، وفى المرحلة الثالثة عقدت ثلاث جلسات ، فى أغلب المناقشات كان جمال عبدالناصر يلح على ضرورة التريث ويقول الوحدة سنة ١٩٥٨م كانت صعبة وأعترف بأنه

أخطأ بقبولها بينما أجمع وفدا سوريا والعراق على القول أن الانفصال كان جريمة، وقال اللواء راشد قطيني نريد هذه الوحدة أن تبقى ألف عام ، والواقع أن اللقاءات والمناقشات لم تنته إلى أى نتيجة .

ولقد قال جمال عبدالناصر فى واحدة من الجلسات : أنتم تريدون دولة مهلهلة بلا إرادة وأنا لا أوافق على هذا أبدا ، وقال: ستقولون أنا وأخى على ابن عمى ، وتكون مصر هى ابن العم الذى تتحدون عليه ، وفى المرحلة الأولى بينما كان يتحدث عن بعث سوريا قال (إنى مليان بالشك وعدم الثقة من البعث السورى) فالبعث تآمر علينا واتصل بضباط من الجيش المصرى ، وطبعا كلنا عارفين ، والواقع أن رأى الرئيس جمال عبدالناصر فى بعث سوريا كان دائما هكذا حتى إنه أثناء مؤتمر القمة العربية الذى عقد سنة ١٩٦٤م ومثل فيه سوريا رئيسها فى ذلك الوقت أمين الحافظ ، قال له عبدالناصر : والله يا أخ أمين إنى أخاف على سوريا من إسرائيل إذا بقى البعث يحكم سوريا بروح المزايدة ، وما كان من الرئيس السورى إلا أن قال : نحن نخاف على العواصم العربية كلها إذا استمر الوضع العربى على حاله الحاضر ، أما بالنسبة لدمشق فإذا اقتربت إسرائيل فسيكون حائط المبكى الإسرائيلى لا بضعة أمتار كما هو الآن بل سيمتد من دمشق إلى بيت المقدس !!)[٩٢] .

(٩١) محاضر محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق - المرحلة الأولى ١٤ مارس ١٩٦٣م خمس جلسات .

(٩٢) نقل هذه الرواية السيد محمد الشقيرى فى كتابه (من القمة إلى الهزيمة مع الرؤساء والملوك العرب - ص٤٩) .

في الصورة التالية الرئيس جمال عبدالناصـــر في دمشق احتفالا بتحقيق أمله الكبير في الوحدة العـــربية النواة بين مصر وسوريا كتلك التي كان قـــد حققها صلاح الدين الأيوبي وانتصر بها على الغزاة الإفرنجه واستعاد بيت المقدس بعد مائة سنة من الاحتلال الإفرنجي ، مع عبدالناصر يرى الرئيس شكرى القوتلى (عندما كان عربيا أو لا) اللقب الشرفي له بعد توقيع اتفاق الوحدة ..



❁ ❁ ❁

الفصل الثامن

١- فلسطين فى مرحلة النضال .

٢- اليمن والثورة فى غير وقتها .

٣- الهزيمة فى ٦٧ وآثارها .

٤- حرب الإستنزاف وما ترتب عليها .

الفصل الثامن

١- فلسطين فى مرحلة النضال .

٢- اليمن والثورة فى غير وقتها .

٣- الهزيمة فى ٦٧ وآثارها .

٤- حرب الاستنزاف وما ترتب عليها .

فلسطين قضية العرب ، كل العرب ، الحكام يمضغون اسمها ليل نهار ويحررونها بالكلام فى كل مناسبة ، وأهلها يعملون بأمر هذا الحاكم أو ذاك إما صدقا من أجل كرامتهم وحقهم أو ارتزاقا وابتزازا ، وفى كل الأحوال فقد مرت سنوات وسنوات دون تحرير وربما بلا حتى قليل من الأمل، بعد الحرب العالمية الثانية حدثت تطورات ووعود من الدول الكبرى قدمت للعرب وتحديدا من جانب بريطانيا ، وبعد الحرب تبخرت الوعود وعض حكام العرب فى هذا الوقت أصابعهم دون أن يفتحوا أفواههم وكما يقول المثل الإنجليزى (المشكلة أن المكان الذى يخرج منه الصوت يدخل منه الطعام) ونقول لو أمكن الحكم على الأحداث فى غير سياقها التاريخى لعددنا الكثير من أخطاء العرب مثل موقفهم من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م هذا القرار الدولى الذى رفضوه دون أن يستعدوا لما يمكن أن يحدث بعده وإلى أن أعلنت بريطانيا وهى الدولة المنتدبه على فلسطين بأنها ستنهى انتدابها على هذا البلد فى ١٥ مايو ١٩٤٨م فى حين كان الصهاينة قد أعدوا لكل شئ عدته !!

فى وقت إنهاء الانتداب البريطانى بادر (ديفيد بن غوريون) بإعلان قيام دولة إسرائيل وعاصمتها تل أبيب وقد بادرت أغلب دول العالم بالاعتراف الرسمى بهذه الدولة فور إعلانها وفى مقدمة دول العالم كانت الدولتان العظميان (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى) ومن المؤكد أن اعتراف هذه الدول لم يأت فجأة وإنما هو نتيجة لعمل كبير ومنظم وذكى قام به يهود العالم الذين

كـانوا يعدون لإنشـاء دولتـهم التى أرادوها أن تكون دولة كل اليـهود فى العـالم ، وقبل هذا الوقت أيضا لم يفعل العرب شيئا ، وقد ينطبق عليهم القول الشائع (من سبقتـه الأيام لعنه التاريخ) ولأن الأيام قد سبقت هؤلاء الحكام الـعرب فقد أرادوا أن يلحقوا بها عبطا ودون تهيئة أو استعداد أيضا فقرروا إعلان الحرب اعتمادا على جيوش تفـتقـد لكل شئ من العـزيمة إلى التدريب إلـى التسليح وحـتى الإيمان ، دخلوا الحـرب متـفـرقين بل حـتى متـخـاصمين وكـانت النتـيجـة كـارثة ، هزائم وإحبـاطات وخسـائر ولو لـم يتدخل المجتـمع الدولى ويقرر الهـدنة لكان يمكن أن تحتل إسرائيل ما احتلته بعد ذلك الوقت بأكثر من ربع قرن من الزمان ، وعودا على بدء يجب القول أنه قبل إعـلان الدولة العبرية نكلت عصابات الهـاجاناه وأرجون اليهوديتين بالفلسطينيين فى حيفا وقبيه والقسطل ودير ياسين ، وخلقت رعبا جعل الناس يفـرّون من منـاطقـهم ، وكـان فى هذا الوقت بعض الأثرياء الفـلسطينيـون يبيعـون أراضيهم لليهود ، ولعـل قصائد الشاعر الفلسطينى إبـراهيم طوقان كانت خـير دليل على تلـك الخيـانة ، وقد عـدد فى تلك القـصائد عـيـوب أغنياء عـرب فلسطين وكـيف أنهم كانـوا يبيـعون أرضـهم لليـهود دونما اهتـمام بما سيحـدث بعدذاك، إلى أن قال فى واحـدة من قصائده أنكم أيها الناس لم تتـركوا حتى مكان لقبر أحد منكم يدفن فيه ؟!

ولقد أورد مؤلـفا كتاب (من حصـار الفالوجه حتى الاسـتقالة المستـحيلة) وهما (جـاك دومال ومارى لوروا) تقارير مندوب هيـئة الصليب الأحمر (المـسيو جان دى رينيه) عن تلك المجازر ننقل منها ما يلى : (لقد التقينا فى طريقنا إلى يافا بحشـد كبيـر من العرب من مخـتلف الطبقـات الاجتمـاعية، يسـوقون حمـيرهم ويحملون عـلى رؤوسهـم خليطا من أدواتهم الشـخصيـة ، لقد هاجـروا من مدينة (يافـا) ومناظر الهـجرة هـذه التى تكاثرت تحت ضـغط الإرهاب اليـهودى تحـمل جـمـيـعهـا الطابع الأليم اليـائس الذى يميـز قطيعـا من الماشـية يسـاق إلى المسلخ . وكـانت القوات اليـهودية التى تـرابط على جانبى الطريـق تكتفى بأن تضـايق هذه الأمواج مـستولية على مـا يكون هؤلاء المساكين قد اضـطروا إلى تركه فى الطريق من جراء التعب والإرهاق ..

ياله من منظر مروّع فى وسط مزارع البرتقال الشاسعة التى تعطّر الجو وتحت شمس الربيع الساطعة! إن الطبيعة نفسها تبدو وكأنها هى الأخرى كفّت عن الاهتمام بمصير هؤلاء البشر الذين يرفضون هباتها الملكية ليستسلموا لهموم الحرب والأحقاد ، ويضيف المؤلفان : وفى القدس تجنبا للقتال فى الأماكن المقدسة تعاون كل من الجيش الأردنى والجيش اليهودى مع هيئة الصليب الأحمر ، ولكن بمجرد جلاء القوات البريطانية بادرت القوات اليهودية (عصابات سترن وايرغون) إلى بدء العمليات الحربية ، الأمر الذى كان يحتم التدخل الغربى فى الحال وذلك لإسعاف المسيحين والمسلمين المهددين بالإبادة ، إنها الحرب وقد أستلزم الأمر ستة أيام من المناقشات فى الأمم المتحدة للوصول إلى قرار بتعيين (الكونت فولك برنادوت) وسيطا دوليا فى فلسطين ..) (٩٣) وفى الوقت نفسه أعلن الرئيس الأمريكى (ترومان) اعتراف الولايات المتحدة بدولة إسرائيل التى كان قد أعلن قيامها القادة الصهاينة ، ودخلت مصر الحرب ، ولكن الملك فاروق لم يرسل إلى فلسطين أكثر من أربع فرق ، أى حوالى ٣٠٠٠ آلاف جندى وعلى رأسهم جميع الضباط الذين لم يكونوا موضع ثقة البوليس السياسى ، وفى ١٦ مايو انتقل عبدالناصر إلى الجبهة حيث شاهد بعينيه ولمس عن قرب مدى تهاون القادة المصريين ولامبالاتهم، فقد كانوا يرسلون الجنود إلى (المسلخ) على حد تعبيره .. انتهى ..) (٩٤) .

ويقول مندوب الصليب الأحمر الدولى عن حادث اغتيال المندوب الدولى الكونت برنادوت بواسطة العصابات الصهيونية ما يلى :

كنا قد احتطنا منذ البداية فى إعطاء عصابة (شتيرن) أسماء وهويات مندوبينا الذين يضطرون إلى المرور من مكان معين ، وفى المناسبة كان لا يفوتنا أبدا التحدث إلى الحراس وزيارة رئيس العصابة نفسه ، وهكذا كنا معروفين من الجميع، وعندما وصلت قافلة الكونت برنادوت إلى نقطة الحرس الثانية قطعت

---

(٩٣) العصابات الصهيونية قتلت هذا الوسيط الدولى فى فلسطين .

(٩٤) كتاب من الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة - جاكدومال ، ترجمة ريمون نشاطى - ص٥٨ .

الطريق عليها سيارة مجهولة ، وترجل منها رجلان بالزى العسكرى ، مسلحان بالرشاشات ، راحا يفتشان ركاب السيارة ، وبعد تحرى الأولى انتقلا إلى السيارة الثانية وبسرعة انتهيا من استجواب الدكتور (فازل) لينصرفا إلى السيارة الثالثة ، وسألا فيما إذا كان برنادوت فيها ؟ وانتظرا وما كادا يسمعان الجواب حتى أفرغا رصاص رشاشيهما في جسمه ففارق الحياة على الفور ، وحاول الكولونيل الفرنسى (سيرو) وكان هو الآخر جالسا فى السيارة أن يحمى برنادوت بجسده فسقط قتيلا معه ، وما كاد الدكتور (بازل) يسمع صوت الرصاص حتى أسرع فى سيارته نحو الجرحى ، فيما كان القاتلان يعودان الى سيارتهما ، ولكن الأوان كان قد فات ، وقضى الأمر ، ولم يعد فى استطاعة أحد أن يفعل شيئا .. انتهى) (٩٥) .

هكذا هو العدل !! قتلوا الوسيط الدولى وهو سويدى مكلّف من الأمم المتحدة فى مهمة إنسانية ، كما قتلوا مرافقه الفرنسى أيضا وهو يقوم بدور إنسانى وعلنا فى وضح النهار ولم يحدث شيئ ولا حتى نوع من الاحتجاج الدولى أو الإدانة لأن هؤلاء الصهاينة ترعاهم الولايات المتحدة الأمريكية التى تملأ الدنيا الآن صراخا من أجل ما تسميه حقوق الإنسان ..

وعن مذبحة دير ياسين يقول تقرير مندوب الصليب الأحمر (المسيو جان دى رينيه) ما يلى : وبينما كان السكان العرب فى قرية دير ياسين القريبة من القدس مايزالون يغطّون فى نومهم، دخلت العصابات الإرهابية الصهيونية وأصدرت الأوامر بمكبرات الصوت لجميع سكان القرية بمغادرتها على الفور وفى مهلة لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة ، وكان الذين أطاعوا قلّة ، أما الباقون فقد انهال عليهم المعتدون بمدافعهم الرشاشة وقتلوهم جميعا ، بما فى ذلك الأطفال والنساء والشيوخ ، لقد كانت مجزرة لا مثيل لها فى التاريخ ، فقد تعدت الوحشية الصهيونية فى قرية دير ياسين درجة الشناعة التى بلغتها مذبحة قرية (أورادور) فى النمسا أواخر الحرب العالمية الثانية ، ولقد بقرت بطون النساء ، قتل الأطفال ، وقطّعت الجثث ، وعندما توجه المندوب السويسرى للجنة الدولية للصليب الأحمر فى اليوم التالى للمذبحة ، إلى قرية دير ياسين لم يجد هناك من الأحياء سوى

(٩٥) جمال عبد الناصر فى طريق الثورة – جورج فوشيه – ص ٢٤٩ .

ثلاث نساء مذهولات بينهن فتاة صغيرة ، نجون بأعجوبة من المدافع الرشاشة والسكاكين التابعة لمنظمة أرغون الإرهابية وقد كتب المندوب فى تقريره : (كان لمذبحة دير ياسين أصداء بعيدة المدى ، ففى الجانب العربى نشأ مناخ من الرعب والجزع العام ، تدبّر اليهود أمرهم دائما فى إذكائه وإلهابه ، ولقد غادر العرب بيوتهم مدفوعين بالذعر ، وبذلك تم إجلاء المزارع المنعزلة ثم القرى فالمدن الكبرى، وكانت الهجرة الجماعية تبدأ بمجرد التهديد بالهجوم من جانب اليهود ، وفى نهاية الأمر تحّول أكثر من ٧٠٠٠٠٠ عربى إلى لاجئين بعد أن تركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم خوفا من أن يصيبهم ما أصاب سكان دير ياسين ، والآثار التى تركتها هذه المجزرة بعيدة عن أن تمحى ، إذ أن الألوف المؤلفة من اللاجئين العرب مازالوا يعيشون اليوم فى مخيمات بدائية ، دون عمل ودون أمل ، بينما الصليب الأحمر يوزّع عليهم مساعدات الأمم المتحدة . انتهى) [٩٦] .

ولقد جعلت تلك الاعتداءات الصهيونية على عرب فلسطين شباب الأمة العربية يتنادون من أجل الدفاع عن شعبهم الفلسطينى وأرضهم المقدسة مدنيين وعسكريين من المحيط إلى الخليج ، ولعل أدق تعبير عن ذلك ما ذكرة جمال عبدالناصر فى كتاب فلسفة الثورة .. قال :

(ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس ، وأذكر يوما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وكان لا يزال يعيش فى (الزيتون) وأقول له : إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك، ويدربّون المتطوعين وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوّع وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء ، وقال لى الحاج أمين الحسينى ، سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة ، وعدت إليه بعد أيام وكان رده ، الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض ، ويستمر عبدالناصر فى سرد

---

(٩٦) نفس المصدر السابق .

التطورات فيقول ، وأذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار، كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى [(٩٧)] وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فى المنطقة الشمالية من فلسطين ، ووضع حسن إبراهيم وعبداللطيف بغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير ، وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لا تمتلك طيرانا يساعدها فى المعركة ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركزّ فوق ميدان العملية لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟ ولم يتردد حسن إبراهيم وعبداللطيف بغدادي وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة ،ولكن كيف ؟ ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة، بما فيها سلاح الطيران حذرا متيقظا ، ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة ..

بدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح بعض الطائرات وإعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ، ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر ، يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدّوا ليوم تجئ فيه من سوريا إشارة سرية فينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق ،ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون على صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها ، وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية ، وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ، وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار ، والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين فى السر الكبير، أن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا فى المغامرة ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، وإنما كانت وعيا ظاهرا لإيماننا بأن (رفح) ليست آخر حدود

(٩٧) فوزى القاوقجى كان قائدا لجيش الإنقاذ فى حرب فلسطين ، وهو لبنانى الأصل .

بلادنا وأن نطاق سلامنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة ، ولم تتم الخطة يومها لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا ، ثم يقول عبدالناصر : هذه الحرب دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماس ، وإذن فهذه الشعوب جميعا تشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سلامتها ، لقد خلوت لنفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية (٩٨) وفى جحورها وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع ، وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان ، وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيدا مع الخيال ،

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بعيدا إلى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها ، وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى ، هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط ، وهذه قوات العدو تحيط بنا ، وهذه قوات أخرى لنا ، هى أيضا محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقى لها مجال للمناورة المحدودة ، إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا ، نحن القابعين فى منطقة الفالوجة ..

ثم هذه قوات إخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة ، وفى الدافع الذى جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين ، هذه هى جيوش إخواننا جيشا جيشا كلها أيضا محاصرة بفعل الظروف التى تحيط بها ، والتى كانت تحيط بحكوماتها ، لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها إلا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين ، وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة ، أخفت عنها عمدا حقيقة ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه ، وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى، ولا تعنينى أحلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

---

(٩٨) عراق المنشية فى الفالوجة وهى التى حوصرت فيها القوات التي كان رئيس أركان حربها جمال عبد الناصر وقد ضرب الحصار عليها لمدة شهور وكانت تعوزها المواد الغذائية الكافية ولكنها دافعت باستماتة شرفت الجيش المصرى وقتذاك .

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال ، فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار ، بعد أن خربت بيوتهم ، وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش ، وكنت دائما أقول لنفسى، قد يحدث هذا لابنتى !

كنت مؤمنا بأن الذى يحدث فى فلسطين كان يمكن أن يحدث ، ومازال احتمال حدوثه قائما لأى بلد فى هذه المنطقة ، ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن ، ولما انتهى الحصار ، وانتهت المعارك فى فلسطين ، وعدت إلى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلاّ واحدا ، وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى ... انتهى (٩٩).

ولأن الهزيمة كانت للحكام العرب أو قل تلك الدول العربية التى أعلنت الحرب على إسرائيل فلقد امتلك بعض الرجال القادة والجنود فى الجيوش العربية الشجاعة رغم تخاذل الحكام واستمروا فى مقاومة العدو بكل الوسائل إلى الآن وخير دليل على ذلك انتفاضات الشعب الفلسطينى المتوالية والمستمرة رغم المؤامرات المحلية والدولية ورغم الخلافات المؤسفة بين القيادات الفلسطينية التى ترتبط بهذا النظام أو ذاك والتى تصل غالبا إلى حد التقاتل بين الإخوة كما يحدث الآن بين حماس وفتح على أرض فلسطين وهو لا يخدم إلا العدو الإسرائيلى ، الواقع أن الخلافات بين القيادات الفلسطينية ليست جديدة وقد برزت على السطح منذ بداية إنشاء منظمة التحرير التى أسسها المرحوم أحمد الشقيرى وسعى إلى أن (حفيت رجليه) كما يقول على توفير سبل الحياة لها والحقيقة أننى من خلال قراءاتى لأغلب ما كتب وما بذل من أجل قضية شعبه أحمل له فى قلبى تقديرا عاليا ولا أفهم لماذا تجاهله ويتجاهله التاريخ الفلسطينى والإعلام الفلسطينى فهو الذى أسس منظمة التحرير عندما أقنع الحكام العرب فى أول مؤتمر لهم سنة ١٩٦٤م بالقاهرة وجعل لها مكاتب وممثليات من موسكو إلى نيويورك إلى القاهرة الى كراتشى ... إلخ وجعل لها مركز أبحاث فلسطينى كما أسس جيش التحرير

(٩٩) فلسفة الثورة - جمال عبد الناصر - ص ٦٦ .

وإذاعات تنطق باسمها ، وأجد فى كتابه المعنون (من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء العرب) الصادر سنة ١٩٧١م ما يشبه أحداث اليوم (٢٠٠٧م) فى فلسطين يقول :

كنت قد طلبت موافقة الحكومة الباكستانية على إنشاء مكتب فى كراتشى لمنظمة التحرير الفلسطينية ليكون نافذة على العالم الإسلامى وقد أيقنت أن صداقتى مع المشير أيوب خان وزمالتى الطويلة لوزير خارجيته السيد على ذو الفقار بوتو ستفتح لنا أبواب الباكستان على مصاريعها وترددت على سفارة الباكستان فى القاهرة مرات أطلب تأشيرة دخول والسماح بفتح مكتب المنظمة فى كراتشى ، ومضت أشهر طويلة والتأشيرة لم تصدر ، وأصبح الأمر عندى لغزا كبيرا وخاب ظنى فى صداقتى العريقة مع الباكستان ، ولولا الإسلام لم يكن مبرر لوجود الباكستان ، وتصيدت صديقى القديم وزير الخارجية الباكستانى ذو الفقار على بوتو [١٠٠] فى فندق هيلتون فى إحدى زياراته للقاهرة وسألته فى غضب ودود عن السبب ؟ فقال بوتو بإيجاز .. ماذا أصنع أنتم يضرب بعضكم بعضا ، السيد أمين الحسينى بعث برسالة طويلة إلى المشير أيوب خان يقول فيها (إن منظمة التحرير الفلسطينية تعمل على تصفية القضية الفلسطينية ، وهى تسير فى فلك القاهرة كما تسير المنظمات الفلسطينية الآن فى أكثر من فلك (!!وأن الشقيرى يعمل على تنفيذ هذه الأغراض الاستعمارية الصهيونية ، بشعور أو غير شعور) وقد عجبت ان يصدر عن الحاج أمين الحسينى مثل هذه الاتهامات وخاصة عليك ، وأنت الذى كنت تسرد لى محاسنه ووطنيته !!

وقلت ، نعم لقد كنت أسرد محاسنه ، ولكنى لم أكن أسرد لك مساوئه ، وهو الآن فى مرحلة (أرذل العمر حمانى الله وإياك منها) وخرجت من فندق الهيلتون وأنا أقول ليت الحاج أمين وأمثاله من المشتغلين بالقضايا العامة يتعلمون

---

(١٠٠) صار فيما بعد ذو الفقار على بوتو رئيسا لدولة الباكستان وكان صاحب مشروع القنبلة الذرية الإسلامية التى مكنت الباكستان بعده من أن تكون واحدة من الدوله الذرية المحترمة ، ولقد كان لى شرف معرفته ثم ترجمة مذكراته إلى اللغة العربية وكانت بعنوان (إذا ما اغتالنى) ومع الأسف فقد اغتاله جنرال يدعى ضياء الحق استخدمته المخابرات المركزية الأمريكية .

آداب الخصام السياسى من الإنجليـز ، من الأمريكان، بل من الإسرائيليين ، الأعداء الألداء ..) ونحن نقـول : ليت هؤلاء المشتغلـين الآن فى فلسطين يتعلمـون كيف يكون التـعـامل بـينهم وأن يحـقنوا الدم الفلسـطينى ويتـخلوا عن شطحـاتهم ومصالحهم ، أما الشـقيرى رحمه الله فقد كان يقـول : إننى مربوط مع رقبتى باثنى عـشر حـبلا يمسك بهـا اثنا عشـر ملكا ورئيسا عـربيا ، وفى حـديثة عن الثـوريين والرجعيين وشئ من ذلك يروى قصة طريفة جـرت له مع بعض المسؤولين البعثيين فى سوريا عندما رفضوا الاعتراف بمنظمة التحرير باعتبارها رجعية كما قال ، وبعد محـاورات مع أحد المسؤولين وشـرح أهداف المنظمة يقول : (وطال الجـدل حول هذا الموضوع قـريبا من ثلاث ساعات حـتى لم أترك لمحاورى حجة (إلا أنهكـتها وأنهكته) فسكت وحسبت أنه اقتنع ، قلت يبـدو أننا اتفقنا ؟ ولنقرأ الفاتحـة تيمنا فى هذا الاتفاق؟ وكانت لحظة اهتـزت لها دمشق عرين العروبة ومـعقل الإسلام ، فقـد وقف الرجل محملقا وقـد تورّمت أوداجه وهو يقول : وهل أنا رجـعى حتى أقرأ الفاتحة ! ! وما كان يواجهه الشقيرى من الحكام العرب بحيث يستطيع أن ينفذ من هذا الثـقب أو ذاك كان عـبدالناصـر يواجه أكـثر منه بكثـير من جـانب الحكام العـرب ومن جانب بعـض المنظمات الفلـسطينية نفـسـها التى تـرتبط بتلك النظم العربية أو الأحزاب العربية ويكفى أن نشير إلى ما قـامت به الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عندما قبل جمـال عبدالناصر مشروع (روجرز) فقـد سيّرت هذه المنظمة ومعـها (ربما) أطراف أخـرى مظاهرات فى المدن الأردنيـة وفى العاصـمة عـمان تحديدا ووضعت أمام واحدة من المظاهرات الكبيرة حمارا يسير وعلى ظهره بردعة كتب على الحمار (جمال عبدالناصر) وعلى البردعة (روجرز) ومع ذلك وغيره فإن عـبدالناصر لـم يتخل عن الشعب الفلسـطينى ومنه تلك المنظمة عندمـا حدث القـتال بين هذه المنظمـات والجيش الأردنى وكـان يمكن أن يقضى الجـيش الأردنى على كل فلسطينى لولا جهود عبدالناصر التى بذلها من أجل حقن الدم الفلسطينى ومات على إثر ذلك ..

وفى شأن مواقـف عبدالناصر تجاه القـضية الفلسطينيـة والشعب الفلسطينى يقول الأستاذ عبدالله إمام فى كتابه : (عبدالناصر كيف حكم مصر) ما يلى :

لا يحتاج موقف جـمال عبدالناصر من القضيـة الفلسطينية إلى إيضاح ، وهذا الجـزء من الحـوار لا يهدف إلىَ إلقاء الـضوء على عـلاقـة عـبـدالناصـر بالقضـيـة

الفلسطينية، ولكن المعنى منه بالدرجة الأولى الحديث عن اللقاءات السرية بين عبدالناصر والمنظمات الفلسطينية ، وأيضا الأزمة التى تفجرت بينه وبين بعض الفصائل الفلسطينية بعد قبوله مبادرة (روجرز) وأيضا بعض التفاصيل التى لم تنشر من قبل حول وقائع أيلول الأسود ، والاقتتال الذى دار فى عمان بين الفلسطينيين والأردنيين ، وهو الاقتتال الذى دعا إلى عقد مؤتمر القمة العربى الأخير الذى عقد بالقاهرة وحضره ياسر عرفات والملك حسين ، وما هى ظروف كل ذلك ؟

وفى البداية لابد من مقدمة صغيرة ضرورية نقول من خلالها : إن عبدالناصر أحب شعب فلسطين كما لم يحب أى شعب آخر وقد بادله الشعب الفلسطينى حبا بحب أكبر ..

لقد قاتل عبدالناصر مع الشعب الفلسطينى عام ٤٨ وأصيب بالجراح ، وتولدت بينه وبين الفلسطينيين علاقة وجدانية غريبة وعميقة تبلورت فى ثقة لا حدود لها بينه وبين الفلسطينى العادى ، وتحولت هذه العلاقة إلى بركان فجرته ثورة ٢٣ يوليو لتجسّد مولد الثورة العربية الكبرى فى العصر الحديث ، وظلت فلسطين طابعا مميزا لمسيرته حتى انتهت حياته لفلسطين أيضا ..

ولقد ميزت العلاقة بين الرجل وبين الثورة الفلسطينية علاقات تتجسّد فى روح شابة مشبعة بالأمل واليقين ظلّت تمر بها قوى الثورة الفلسطينية سواء أكانت هذه القوى جماهير عادية أو قوى منظمة وحماية معنوية ومساعدات مادية بلا حدود لتعيد تأسيس وطنها الفلسطينى وحتى تتأكد من ممارسة هذا الوطن لدوره العربى والإبقاء على التلاحم بين الشعب العربى فى مصر والشعب العربى الفلسطينى ومقاومة أى محاولة تهدف إلى عزلهما عن بعضهما ..

نعم لقد عاشت القضية الفلسطينية فى فكره ووجدانه طالبا وضابطا ثائرا ، وأدرك منذ صباه وشبابه أن المخطط الاستعمارى والصهيونى يبدأ بفلسطين ثم يثّنى بالعدوان على باقى البلاد العربية لتحقيق أمل الصهيونية فى إنشاء دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل ، ويذكر أنه عندما كتب عن صباه فى فلسفة الثورة تحدث عن وعد بلفور وبداية التفكير الصهيونى فى فلسطين، لقد كان يعتبر دائما أن القضية الفلسطينية هى قضيةمصرية وهو يقول : إن ما يحدث على الأرض

العربيـة فى فلسطين يمكن أن يحدث لأى بلد فى المنطقة مـادام مستسلمـا للعوامل والعناصر والقوى الـتى تتحكم الآن ، كان عبدالناصـر مدركا تماما أن المعـركة تبدأ بالجولة الأولى ، بالثـورة الكبرى لاقتـلاع الأنظمة الفاسـدة فكانت ثورة ٢٣ يوليو التى وضعت القـضية الفلسطينيـة فى مكانها الصحـيح ضمن نضال الأمة العـربية وفى صدر حـقيـقة الصـراع العربى الاسـتعـمارى الصـهيـونى ، ثم تحمّل جـمال عبـدالناصر مسؤوليـاته التاريخيـة فى دعم حركات التـحرر انطلاقا من مفـهوم أن وحدة النضـال لا تتجـزأ ولم يكتف بالدعم المادى للقضـية الفلسطينيـة بل حرص على أن يقدم كل الدعم السياسى لانتـزاع اعتراف العالم بها ثم بشرعيـتها وبالتالى بأنه لا شرعـية للوجود الإسرائـيلى ، وكان محور سـياسة عـبدالناصر فى القضـية الفلسطينيـة تمثل بالتالى محـورا استـراتيجيـا أكبر يحـقق للعالم الثـالث، ممثلا فى حركات التـحرر ، الشخصيـة المستقلة القادرة على إقـامة التوازن الدولى من أجل رفاهية البشرية ..) (١٠١) .

ذكرت فـيما تقـدم أن الرئيس جمال عـبدالناصر أثـناء زيارتة لليبيـا ، وكان الشغل الشاغل فى ذلك الوقت هو الموقف من المشروع الأمريكى الذى عرف باسم وزير خارجية هذا البلد (مشروع روجرز) لأن البعثيين كانوا يشككون فى موقف عبدالناصر ، وقد تحدث بوضوح قائلا : إنه سـوف يحدد موقف الجمهورية العربية المتحدة مباشرة بعد زيارة موسكو خلال اليومين القادمين ، وفى زيارته لموسكو التى تمت فى أول شهر يونيو ١٩٧٠م كان من المتوقع أن البحث والنقاش سيدور حول القضايا العسكرية إذ أنه كـان يعد لتحرير الأرض تنفيذا لمقولتـه (ما أخذ بالقوة لا يسـترد إلا بالقـوة) وحقيـقة أن جـرح الهزيمة كـان لم يندمل بعـد وكرامة الجـيش المصرى لا تسترد إلا بنصر مـؤزر ، مع هذا فقد رأيناه يضع فى أولوياته خلال لقاء القادة السوفييت قضية فلسطين ومـستقبل الشعب العربى الفلسطينى وهو ما أشار إليه وزير خارجيته السيد محمود رياض فى مذكراته التى صدرت بعنوان (البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط) قال :

(١٠١) عبد الناصر - كيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٢٨٢ .

ذكر بريجنيف بأن الإتحاد السوفييتى قد قرر من جانبه الاستجابة لمعظم الطلبات التى تقدم بها الفريق محمد فوزى ، ويصل ثمنها الى حوالى ٤٠٠ مليون دولار وأنه قرر أيضا تقديم تخفيض فى القيمة يصل إلى خمسين فى المائة ، وأكد بريجنيف أن الأسلحة سوف تصل إلى مصر طبقا للجدول الزمنى الذى تم الإتفاق عليه بين الجانبين وطبقا لذلك فسوف يصل إلى مصر ثلاثة أرباع الكميات المطلوبة قبل نهاية سنة ١٩٧٠م ..

وهنا علّق عبدالناصر قائلا ، إننى أود أن اشكر الإتحاد السوفييتى على معاونته لنا على الصمود فى وجه الأطماع التوسعية الصهيونية ، فإسرائيل تريد منا أن نترك لها القدس والضفة الغربية والجولان ، ولو أننى وافقتهم على ذلك لكان من الممكن أن نستخلص سيناء كاملة ، وربما قطاع غزّة ، منذ سنة ١٩٦٨م بناء على إقتراحات وزير الخارجية الأمريكى السابق دين راسك ، وأضاف عبدالناصر، إننا على استعداد لقبول الحل السلمى والإقرار بوجود إسرائيل بالرغم من المعارضة العربية ، والسماح لهم بالمرور فى قناة السويس ،ولكن على إسرائيل قبل ذلك أن تنسحب من جميع الأراضى العربية المحتلة وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطينى - انتهى ..) (١٠٢) . ولكن مع الأسف فإنه كما قال المتنبى :

(ومن البلية عزل من لا يرعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم)

وليس هناك من شك فى أن جمال عبدالناصر كان يعمل على بناء القوة القادرة على النصر واستعادة الحق الفلسطينى رغم كل الذى حدث ويحدث ، وقولته (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) خير دليل على ذلك، بل إنه كان يقول فى كل مناسبة : إنه لو قبل بالحلول الناقصة والاهتمام بمصر فقط ما كان واجه تلك الصعاب والمؤامرات والحروب ، ولم يسقط من تفكيرة فى أى يوم من الأيام أن حقوق الشعب الفلسطينى لابد أن تكون فى مقدمة أى طلب أو قرار أو تسوية، وهو يقول : إن القوة الذاتية هى السبيل ، ولقد تجسدت مواقفه فى إصراره والتزامه بتقديم العون المادى والمعنوى والسياسى للعمل الفدائى الفلسطينى ، ويرى أن النضال الفلسطينى وخصوصا بعد نكسة أو هزيمة سنة ١٩٦٧م علامة تحّول بارزة

(١٠٢) البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط - محمود رياض - ص٢٦٦ .

فى الوضع العربى كله ، وهو الذى حافظ على حركة الفدائيين الفلسطينيين نشطة وحرة من القيود الرسمية وكان يبذل جهوده فى تسوية الخلافات العربية الفلسطينية، والخلافات الفلسطينية الفلسطينية ، كما حدث مع الأردن ولبنان ، ونظن أن كل الأحداث والخلافات والتقاتل الذى جاء بعده ما كان يمكن أن يحدث لو كان موجودا ، كما حدث للكويت فى عهد الرئيس عبدالكريم قاسم حيث أوقف جمال عبدالناصر طموحات هذا الرئيس فى الكويت ثم ما حدث فى عهد صدام حسين(رحمه الله) مع الكويت عندما لم يكن هناك من يمنع العدوان، هذا العمل الذى أقدم عليه الرئيس صدام وأدخل به الأمة العربية وفى مقدمتها بلده فى مأزق لا يعلم إلا الله كيف يمكن أن ينتهى ، ومن خلال مراحل النضال الفلسطينى الطويل فإن عبدالناصر لم يحاول ولا سمح بفرض وصاية على الفلسطينيين ونضالاتهم ولم يحدث أن عمل على خلق منظمة تابعة لمصر كما عمل بعده أغلب الحكام فى المنطقة على الرغم من دوره البارز ورأيه القاطع الذى ما كان يعترض عليه أحد فيما لو أراد أن يفعل شيئا من ذلك ، وأذكر أنى سمعت من ياسر عرفات (رحمه الله) القول : أن عبدالناصر قال له : (لقد حرقت دمى علشان أحافظ عليكم وكان سهلا بالنسبة لى أن أصدر بيانا إنشائيا كما يفعل غيرى أعلن فيه تأييدكم وأجعل لكم محطة إذاعة تتحدثون من خلالها وأستريح فى مكانى هذا هنا أتفرج ، لأن قرارى منذ البداية هو أن أكون إلى جانبكم مؤيدا ومناصرا وحتى مقاتلا ، أكون إلى جانبكم لحمايتكم من أنفسكم ومن الغير ، وقال ياسر عرفات (أبوعمار) : لقد قلت للرئيس : (إن الله قد كتب عليك أن تحمل هموم العرب كلهم وبكل خطاياهم) كذلك سمعت من أبوعمار وكنت أتعامل معه (غالبا) كل يوم بسبب عملى الدبلوماسى فى بيروت قولا لا أنساه وهو ممثل بارع وسياسى كبير ، قال وهو يعزّى فى وفاة جمال عبدالناصر) لقد مات الرجل الذى كنا نبكى على صدره ! (ويذكر السيد سامى شرف فى كتاب عبدالله إمام أن) جمال عبدالناصر كان قد اصطحب أبوعمار معه سنة ١٩٦٨م على طائرته الخاصة إلى موسكو وقدمه للزعماء السوفييت ونتيجة لذلك بدأ إمداد المنظمة بالسلاح كما مهّد للاتصالات السياسية والتأمين السياسى العالمى بعد ذاك ، وأضاف ، كان عبدالناصر يرى أن استعادة الضفة الغربية والقدس عملية صعبة

ويجب أن يبدأ العمل فيها من الداخل حتى لا تتعرض للتهويد على الرغم من أن الأردن صار يقاوم التسلل والعمليات الفدائية عبر نهر الأردن وكان يعتقل الفدائيين .. انتهى .

كان لعبدالناصر علاقات متينة وربما يمكن أن يقال صداقة مع صحفيين بارزان فى العالم وهما (الهندى كارانجا والبريطانى أنتونى ناتنج) وقد عرف القراء العرب كليهما من خلال تلك المقابلات التى كانا يجريانها بين وقت وآخر مع ناصر (هكذا يسمى فى الغرب) عرف (كارانجا بمقابلة الألف سؤال مع عبدالناصر حتى أنه يقال : إن كارانجا كان آخر سؤال له فى تلك المقابلة الطويلة والتى ضمّت ألف سؤال جاوب عليها ناصر ، أنه فجأة سأل عبدالناصر قائلا ، لماذا شعر رأسك أكثر شيبا من شعر وجهك ؟ فرد عبدالناصر قائلا ، لابد أنك تعرف أن شعر رأسي نبت قبل شعر وجهى ولهذا لابد أن يشيب قبل شعر وجهى ..) أما أنتونى ناتنج فقد أصدر كتابا قيّما بعنوان (ناصر) تحدث فيه عن لقاءاته مع ناصر وكيف عرفه قائدا وسياسيا وإنسانا ، يهمنا منه ما قاله ناتنج عن موقف عبدالناصر من القضية الفلسطينية ، قال (كان الفلسطينيون يتذكرون بجلاء تام الفترة السابقة على عام ١٩٥٢م عندما كانت معرفة المصريين قليلة واهتمامهم أقل بما ارتكبه وما كان يرتكبه المغتصبون الإسرائيليون فى فلسطين ، ولم يكن فى استطاعتهم نسيان الروايات الملفقة التى كانت تتناقلها مقاهى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد باختطاف الضباط المصريين وبيعهم إلى الإسرائيليين فى حرب عام ١٩٤٨م ، كما كانوا يذكرون الآمال العريضة التى أثارها عبدالناصر فى نفس كل فلسطينى عندما أعلن أن مصر أصبحت دولة عربية ، وتعهد بمساندة المصالح العربية أينما تعرضت للتهديد ، لقد كان أول زعيم مصرى يتحدث بهذة اللغة المطلقة كما أنه أبدى فضلا عن ذلك استعدادا لأن يقرن القول بالعمل فى المراحل الأولى من حكمه ، فبالرغم من أن غارات الفدائيين فى عام ١٩٥٥م كانت أقل فعالية مما كان مأمولا فإنها أوحت على الأقل بأن نزعة نضالية جديدة قد سيطرت على قيادة مصر ، لذلك عندما سأل عبدالناصر فى عام ١٩٥٥م أحد الطلبة الفلسطينيين الشبان عن سبب تأييده له ؟ جاءه الرد بلا تردد ، لأننا معشر الفلسطينيين نرى فيك التعبير عن مطامحنا ، لذا أرجو ألا تخذلنا ..

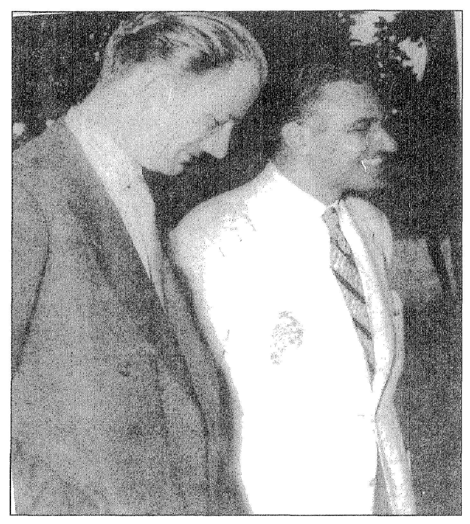
ومع ذلك ، فمهما يكن من حديث عبدالناصر وتصرفه في مستهل حكمه فإنه لم يتبين آنذاك ولا في أي مرحلة لاحقة الطريقة التي يعالج بها مشكلة استرداد أراضي الفلسطينيين المفقودة ، وإذا كان عبدالناصر قد تصوّر لنفسه أنه صورة تاريخية فهي صورة حديثة لمحمد علي ولم يكن صلاح الدين قد بعث من جديد ، وكما رفض آراء من أشاروا عليه بتعيين مستشارين له من أبناء الدول العربية الأخرى لإسداء النصح له فيما يتعلق ببلادهم إذا أراد أن يقود العالم العربي بصورة فعالة، فقد رفض أيضا أن يشترك الفلسطينيون في تفكيره بالنسبة لمشكلاتهم إلى أن تمكن ومعه الشقيري من خلق (الكيان الفلسطيني) في مؤتمر القمة الذي عقد بالقاهرة ، وحتى في ذلك الحين كان يقابل أقل عدد ممكن من الفلسطينيين ، مدركا أن أفكاره الخاصة بالعمل لصالحهم مفيدة إلى حدّ بعيد بأوضاع سياسية وأنه لا يستطيع تحقيق رغبتهم في القتال في سبيل نيل حقوقهم فمثلا : لم يقابله ياسر عرفات إلا بعد ذلك بثلاث سنوات عندما قدمه إليه محمد حسنين هيكل بعد حرب سنة ١٩٦٧م باعتباره قائد المقاومة الفلسطينية الجديد (هنا لنا تعليق على ما ذكره السيد ناتنج بشأن المستشارين العرب أو الفلسطينيين ، نقول إن عبدالناصر لابد أنه كان يدرك أن أي استشارة عربية مباشرة لن تؤدي إلا إلى المزيد من التشرذم والخلاف ، وكما رأينا فإن العرب (غالبا) كل منهم له رأي خاص يتبع جهة ما ، أما أخوتنا الفلسطينين فإنهم لم يتفقوا على هدف واحد أو قرار واحد أو موقف واحد منذ بدأت المنظمات الفلسطينية تظهر حتى هذه الساعة ودليلنا على ذلك ما يحدث ويجري الآن على أرض فلسطين ..)

ويستمر السيد أنتوني ناتنج قائلا : (وليس معنى هذا أن عبدالناصر لم يكن يعطف على شعب فلسطين ، فقد كان على النقيض من ذلك ينفق أموالا طائلة على قطاع غزة الذي كان يضم جميع اللاجئين الفلسطينيين في مصر البالغ عددهم ثلاثمائة ألف لاجئ ، وذلك لتنمية المنطقة وتحسين أحوال السكان المطحونين ، ولما تحولت غزة إلى منطقة معفاة من الرسوم الجمركية أصبحت منطقة جذب سياحي مزدهرة نسبيا إذ جذبت إليها أعدادا كبيرة من المصريين وغيرهم من الزائرين ، وزودت بالطرق المعبدة وبمستشفى وبشبكة من الصرف الصحي التي لم يكن لها وجود من قبل ، بل حين كان كل إنتاج مصر من الأسمنت مخصصا للسد العالي

أصر جمال عبدالناصر على ألا يؤثر هذا على احتياجات غزة كما كانت الحكومة المصرية توفر الوظائف لأولئك الفلسطينيين الذين يتخرجون من مدرسة التدريب المهنى التابعة للأمم المتحدة ، فكان البعض منهم يعيّن فى وظائف التدريس فى مدارس القرى التى لم يكن المدرسون المصريون يرغبون فى العمل فيها ، كما كان آخرون يجدون تبعا لمهاراتهم أعمالا فى مجال الصناعة أو الزراعة لكن بالنسبة للفلسطينيين الأكثر تشددا فإن هذا الأسلوب العلاجى لم يكن كافيا فقد كانوا يريدون عملا لا صدقات وأنهم أصيبوا بخيبة أمل بالغة لأن عبدالناصر رغم كل حديثه المتشدد وجهوده التى كانت تبعث على الأمل فى منتصف الخمسينات فقد حماسه منذ حملة سيناء عام ١٩٥٦م وهى فترة جمود أتاحت للمغتصب ، وفقا لما يدّعون ، أن يزيد من إحكام قبضته على أرض فلسطين ، ولقد استطاع جمال عبدالناصر ولا شك، أن يسيطر على مؤتمر القمة وأن يكشف ما كان يتّسم به أمين الحافظ رئيس سوريا من غباء طابعه الغرور ، إلا أنه كان يعلم أيضا أنه سيتعين عليه فى المستقبل أن يكرّس قدرا أكبر من الوقت والحكمة للمشكلة الفلسطينية إذا لم تفشل سياسة وقف العمليات العسكرية التى كان قد انتهجها فلم يكن هناك خطر قيام الفلسطينيين الأكثر تطرفا بالتحالف مع متطرفى سوريا فحسب وإنما كان الشقيرى نفسه ، الذى انتخب مؤخرا كمتحدث باسم فلسطين من ذلك الطراز من الرجال الذى لا يبقى قائما إلى ما لا نهاية بدور منسق سياسى لحكومة فى الظل فى انتظار أن تقوم الأمم المتحدة أو الدول الكبرى بتسوية المشكلة ، فكان الشقيرى لا يمل من أن يردد لكل شخص فى كل مناسبة أنه مع استمرار إسرائيل فى تجاهل كل قرار يصدره مجلس الأمن حول فلسطين سوف يتعين على الفلسطينيين أن ينتظروا إلى الأبد إذا ما تركوا للأمم المتحدة مهمة أن تعيد إليهم حقوقهم ، والواقع أن الشقيرى لم يضيع وقتا فى متابعة قرارات مؤتمر القمة الذى عقد فى القاهرة وما يقرره الحكام العرب ..انتهى ..) (١٠٣) .

(٣١٠) ناصر – تأليف أنتونى ناتنج – ص ٢٥٠ الطبعة الإنجليزية .

مـلاحظة - مـؤلف الكتاب الـسيـد أنتـونى ناتنج كـان وزير دولة فى وزارة أنتونـى إيدن وقد استـقال احـتجـاجا على قـرار حكومة رئيس الوزراء البـريطانى أنتونى إيدن المشاركة فى الحرب مع فرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦م وكان قد انتخب عضـوا فى البرلمان سنة ١٩٤٥م ثم بعـد الانتخـابات البريطانيـة سنة ١٩٥١ م عيّن وكيلا للخـارجية البريطانيـة للشئون الخارجيـة وكان أبرز المشاركين فى مبـاحثات الجلاء عن مصـر سنة ١٩٥٤م وقد استقال سنة ١٩٥٦م وهـو كاتب وله عديد من المؤلفات عن الشرق الأوسط .



وزير الدولة البريطانية مؤلف كتاب (ناصر) وهو الذى استقال من الوزارة احتجاجا على رئيسه أنتونى إيدن الذى وافق على الاشتراك فى الحرب على مصر سنة ١٩٥٦م متآمرا مع فرنسا وإسرائيل ، وكان صديقا للرئيس جمال عبدالناصر (الصورة تجمعه مع ناصر) وقت إعداد كتابه القيّم ، وهو القائل : إن جمال عبدالناصر قد دعا أقرانه من الحكام العرب فى مؤتمر الإسكندرية عام ١٩٦٤م ليصدقوا على قرار إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية التى وصفها بأنها الخطوة الأولى لتحرير فلسطين العربية ولم يكن الملك حسين سعيدا بهذه الخطوة لخوفه من أن تؤدى هذه الفكرة إلى أن يصبح الفلسطينيون فى الأردن دولة داخل الدولة (يلاحظ أن ما توقعه الملك قد حدث بعد حوالى ست سنوات).



ومع الكاتب الصحفى الهنــدى كارانجا وزوجته ، فقــد كان هذا الكاتب أحد أصدقاء الرئيس جمال عبدالناصــر لأنه كاتب ملتزم ، كذلك فهو ينتمى إلى بلد صديق كان دوما إلى جانب القضايا العربية العادلة وكان رئيسه جواهر لال نهرو أحد أبرز الزعماء الذين أسّسوا حركة عدم الانحياز ، لقد كتب كثيرا كارانجا عن عبدالناصر وعن ثورة ٢٣ يوليو ومختلف القضايا العربية ..

وجدير بالملاحظة أن أنتونى ناتنج يلتقى فى وجهة نظره حول مواقف وسياسات عبدالناصر مع الكاتب الفرنسى (جاك دومال) الذي أصدر كتاب (جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة) نقتطف من كتابه جزءا يوضّح وجهة نظره فى تلك الأحداث وهى كما يلى :

كيف ضمن عبدالناصر تأييد الدول الأفريقية لحق الشعب الفلسطينى ؟ نظرة عامة ، لم تكن ملكة إنجلترا ولا خبيرها فى الشئون الشرقية (أنتونى إيدن) ولا حلفاؤهما الفرنسيون ، يتصورون عندما بدأوا يعدّون العدّة لشن عملية السويس ، إنهم كانوا يستعجلون بأنفسهم زحف الاشتراكية فى مصر ، فتحت ضغط الظروف اضطرت الدولة المصرية إلى أن تقيم الحراسات وأن تقوم بالتأميمات ، وأن تدير بنفسها عددا من المؤسسات الأجنبية ، وعلى عكس التقديرات والتنبؤات أثبتت أنها فعلا جديرة بذلك ، وفى ضوء الخبرة الواسعة النطاق التى نالتها مصر فى هذا الصدد ، قام جمال عبدالناصر وزملاؤه فى عام ١٩٦١م بالثورة الاجتماعية تحقيقا للبنود ٢-٣-٥ من قائمة أهداف الثورة .

إن كلمة (الاشتراكية) تحمل باللغة الفرنسية سلّما واسعا ومعقّدا من المعارف والمشاعر ، وتستخدم للتعبير عن كلمة عربية يتحول معناها بوضوح إلى (عمل اجتماعى) أو (تعاونى) وإن الاشتراكية العربية تقدّس حقوق الإنسان كما أنها ترفض من حيث المبادئ كل شكل من أشكال الإلحاد ، وهى كذلك تقسّم الأملاك الشاسعة من أجل تنمية الملكيات الصغيرة بطريقة تنظيمية ، إلى حد أنها استطاعت أن تفرض على خبراء الاقتصاد السوفييت الاعتراف بأن الإشاعية الزراعية لا يمكن تحقيقها فى بعض البلدان ، وأن (الاشتراكية العربية) كما سنحاول أن نثبت فيما بعد، ليست مقطوعة من أصدق التقاليد الإسلامية ، برغم أن هناك بعض الاشتراكيين العرب الذين يسيئون فهم هذه الاشتراكية ويتخيلونها أحيانا فى صور تكاد تكون ضيقة الإطار وخادعة ، وفى هذا المجال تكون المنجزات هى التى يمكن اعتبارها مقياسا للعمل الاشتراكى العربى ، أكثر من النظريات التى يطلقها المذهبيون ..

ويبدو أن المبدأ القائل بأن الوحدة العربية والثورة الاجتماعية يكملان بعضهما ويسيران جنبا إلى جنب ، قد فرض نفسه على جمال وزملائه حتى

استطاع ذلك المبدأ أن يـدفعهم فى شهر سـبتمبر ١٩٦٢م إلى اتخـاذ خطوة فاصلة على هذا الطريق ، بمسـاندتهم للثورة اليمنية التى دفعت بمصـر على طريق حرب دامـية بين العربى وأخيه العربى ، والحق أن جمال عبدالناصر لم يكن بطبيعته من أنصار التدخل ، وهناك عـدة مواقف اتخذها الـرئيس المصرى تثبت ذلك بوضوح ، فـفى عام ١٩٦١م وعندما قـامت فى سوريا حركة الانفـصال ، أوقف جمال بنفسه تدخل جيشـه حفاظا على الوحدة العربية من حرب أهلية ، وإذن ، فـلماذا تدخل جمال فى اليمن ؟ هل كان يتصّـور مدى تطورات هذه المشـكلة ؟ كان يدرك على أى حـال أن اليمن ، شأنـها فى ذلك شأن الكونغو ، بلد قبائل حريصة كل الحرص على استقلالها وتقاليدها ، وأن أى تدخل هناك كـان محكـوما عليـه بأن يواجـه العقبات والمشاكل نفـسهـا التى لقـيهـا الاسـتـعمار الفـرنسى ، حينما أراد أن يفـرض سيطرته على المغـرب ، إلا أن اليمن من الناحية الجغرافية البحتة ليست هى الكونغو، وليست هى المغرب، إنها جزء عضوى من الجنوب العربى التى تسيطر بريطانيا على القسم الأكبر منه ، جزء من منطقة تتبلور فيها آمال ومخاوف أكبر وأضخم المصالح المالية فى العالم ، إن أصحاب المصالح البترولية ، ترعشهم فكرة احـتمال حصول هذه المنطقة على اسـتقلالها ، فهم يجهـدون للحصول على تأييـد إيران لمخططاتهم السـوداء ، ولا يبـخلون فى وعـودهم بالتنازل لإيران عن بعض أجزاء الجنوب الـعربى ، إن اليمن تقـوم الآن بدور إحدى القـواعد المتقـدمة فى معركة البترول الكبرى ، ويبدو أن قيامها بهذا الدور لن ينتهى قريبا ..

ويسـتمـر الكاتب مـعددا جـهود جـمـال عبـدالناصر فى دعـم الفلسطينيين وقضـيتهم على المسـتوى الإقليمى والدولى فـيقول مـباشرة بعـد لقاء عبـدالناصر والمارشال تيـتو ورئيس الوزراء جـواهر لال نهرو فى نيويورك : عـمل عبـدالناصر على عقـد مؤتمر فى المغرب خلال شـهر يناير ١٩٦١م بإشراف عـاهل المغرب ضم رؤسـاء كل من الجمهورية العربية المتحدة وسيلان ومالى وغينيا رغانا والجزائر وقد حـصل جمـال عبـدالناصر خـلال هذا المؤتمر من هذه الدول على تأييـد إجمـاعى لحقـوق اللاجئين الفلسطينيين مما اعـتبر نصـرا كبيـرا ، فى الوقت الذى كانت فـيه الدعايـة الصهيـونية تسـاندها رؤوس الأموال الأمـريكية الضـخمة ، تحـاول أن تشق للنفـوذ الاسـتـعمارى الغـربى مناطق نفـوذ فى آسيـا وأفريـقيـا ، وفى أبريل أعلن

عبدالناصر تأييد بلاده لجميع الدول الأفريقية التى تناضل من أجل الحصول على استقلالها .. انتهى) (١٠٤).

ولقد أورد (دومال معلومة مهمة جدًا نقلا عن رواية ذكرها له الكاتب) يولقيم جوستون ونصها كما يلى :

(إن أحد عملاء إدارة المخابرات المركزية الأمريكية قال له ذات يوم ، إن مشكلتنا مع جمال عبدالناصر أنه لا عيب فيه ، الأمر الذى يجعل من المستحيل شراءه أو تعرضه للضغط أو التهديد بالتشهير ، ومن ثم يستحيل الإطاحة به) .

هذه شهادة من عدو تشرّف عبدالناصر ، على الرغم من أنه لم يأت بجديد ذلك إن جمال عبدالناصر مشهور بطهارة اليد ونقاء السريرة والزهد فى المال وبذلك كان نصيرا للفقراء والمحتاجين والمظلومين فى بلاده وغيرها من بلاد العالم وهو الشئ الذى جعل عبدة الدولار من العرب يتآمرون عليه خدمة لأسيادهم لوردات النفط ، كذلك فإن جمال عبدالناصر كان يكره العنف وكانت ثورته نقية بيضاء وهو الذى قال لزملائه عندما صوّتوا فى مجلس الثورة على محاكمة الملك فاروق إنه إذا ما أصروا على هذا الموقف فإنه سيستقيل ، ويروى لنا الكاتب الفرنسى جورج فوشيه فى كتابه (جمال عبدالناصر على طريق الثورة) نص حديث دار بين جمال عبدالناصر والكاتب البريطانى (دسموند ستيوارت) أن جمال عبدالناصر أكد له على الرغم من أنه رجل عسكرى وثورى فإنه يكره العنف ، فهو لا يحب قساوة (أتاتورك) الذى لم يعف عن توقيع الحكم بالإعدام على صديق حميم له ، وهو يعجب بجورج واشنطون الذى عرف بطيبة قلبه ، وقد لاحظ دسموند أن اختيار السلك العسكرى يتعارض مع هذا الإيمان بالسلم ، وهذا الشجب للعنف على طريقة (غاندى) فأجاب جمال عبدالناصر على ذلك ، إن هذا التناقض ظاهرى ، وفى بلد كمصر يمكن اعتبار الجيش وسيلة للتثقيف ، ودور الجيش يمكن أن يختلف بين بلد وآخر ، ثم هل تعلم بأننى كنت فى فجر الثورة من معارضى تنظيم جيش كبير ، لقد كنت مسالما حتى حيال الخصوم، وزملائى الضباط هم الذين كانوا يبرزون الأخطار المحيطة بنا ، ولكن كل شئ قد تغير عندما

---

(١٠٤) جمال عبد الناصر من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة - جاك دومال - ص٩٠.

حصل العدوان الإسرائيلى على غزة ، وكل ذلك قد تبدل فى ليلة وضحاها يوم ٢٨ شباط ١٩٥٥م عندئذ فهمت أنه يجب أن يكون لدينا أسلحة للدفاع عن أنفسنا ، لقد رأيت اللاجئين الفلسطينيين مشرّدين فهلعت وخفت من مجرد التفكير فى إمكانية حدوث ذلك للمصريين ، لذلك طلبنا الأسلحة من الغرب الذى رفض أن يبيعنا إياها ، وقد أخذناها من تشيكوسلوفاكيا بدون قيود سياسية ..

ويقول المؤلف : إن هذا التصريح يزيل جميع الملابسات ويشرح الظروف التى ألقيت فيها الخطبة على طلاب الأكاديمية العسكرية عام ١٩٥٥م فقد كان هناك عدوان إسرائيلى على غزة ترك أربعين قتيلا من المصريين ، وعلى الأثر شعرت مصر بأنها ضعيفة من حيث القوة العسكرية والأسلحة .. انتهى) (١٠٥).

والواقع أن جمال عبدالناصر كان الرجل الوحيد فى دنيا العرب الذى يستطيع أن يوقف أى انحدار أو اختلاف أو تقاتل ، وما حدث ويحدث على الساحة العربية الآن ينبئ بأنه لم يعد هناك من يوقف أو حتى يؤثر أو يوقف المؤامرات والتقاتل بين العرب كما كان يفعل جمال عبدالناصر ، ولنعطى صورة عن ذلك ، هذه مذكرات (محمود رياض) وزير خارجية عبدالناصر وهو يتحدث عن واحد من أخطر الأحداث العربية التى كادت تؤدى إلى كارثة ربما لا مثيل لها خلال القرن العشرين ، يقول :

كانت احتمالات الصدام بين حركة المقاومة الفلسطينية والملك حسين فى الأردن دائما ، وخلال سنتى ١٩٦٩- ١٩٧٠م لم يخل اجتماع بين عبدالناصر والملك حسين أو زعماء المقاومة من نصيحة رددها عبدالناصر عن ضرورة ضبط النفس والتنبه إلى المحاولات الإسرائيلية لتفجير التناقضات الفلسطينية الأردنية ..

ولقد كانت إسرائيل من جانبها حريصة من البداية على طمس الوجه الفلسطينى فى الصراع العربى الإسرائيلى ، حتى لا يبدو الصراع فى الشرق الأوسط بين إسرائيل وبين المقاومة الفلسطينية التى تسعى إلى تحرير ترابها الوطنى وإقامة دولتها المستقلة ، وكان علينا أن نبين للرأى العام العالمى أن أساس الخلاف العربى الإسرائيلى هو قضية الشعب الفلسطينى ..

(١٠٥) جمال عبد الناصر فى طريق الثورة - جورج فوشيه - ص ٢١٠ .

ومن ناحية أخرى كان علينا أن نحتوى أولا بأول التناقضات التى لا مفر منها ، والناشئة من حقيقة أن المقاومة الفلسطينية تمثل شعبا يعيش جزء منه تحت نير الاحتلال الإسرائيلى ، وجزء آخر مشرد يعيش فى معسكرات اللاجئين فى لبنان والأردن وسوريا ..

وبالنسبة للضفة الغربية وغزة فلقد كان الاحتلال الإسرائيلى يستخدم ضد السكان أبشع وسائل القهر والتنكيل ، أما بالنسبة لمئات الألوف الآخرين من الفسلطينيين المقيمين فى كل من لبنان والأردن فقد كانت هناك خلافات بين المقاومة الفلسطينية التى ترغب فى العمل ضد الاحتلال الإسرائيلى وبين السلطة فى كل من لبنان والأردن ، التى كانت ترى أن هذه الأعمال تعرض أمن مواطنيها للخطر ، وكان الخط الرئيسى للسياسة المصرية فى هذا المجال يعتمد على ضرورة المحافظة على حركة المقاومة الفلسطينية وتفادى الصدام بينها وبين السلطة الشرعية فى كل من لبنان والأردن ..

وعندما هدد الصدام بين المقاومة والسلطة اللبنانية باحتمالات خطيرة فى سنة ١٩٦٩م لجأ الطرفان إلى مصر للوساطة فدعوت كلا من ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والعماد البستانى قائد الجيش اللبنانى إلى القاهرة للاتفاق على ترتيبات تحول دون تفجر الموقف وكان الرئيس اللبنانى شارل حلو يشكو من عدم وجود تنسيق بين المقاومة الفلسطينية وبين الجيش اللبنانى ، مما أدى الى قيام إسرائيل بشن الغارات ضد القرى اللبنانية ، ومن ناحية أخرى فقد كانت المقاومة تشكو من أن السلطات اللبنانية تضع القيود على حرية تحركاتها فى جنوب لبنان ..

وعقدت عدة اجتماعات فى القاهرة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٦٩م مع الطرفين بهدف وضع اتفاق ينظم العلاقات بين المقاومة الفلسطينية والحكومة اللبنانبة ، وقد رأيت للسرية أن تتم اللقاءات فى وزارة الحربية وكان يشارك فيها الفريق فوزى ، وبعد عدة جلسات أمكننا التوصل إلى اتفاق وقعه الطرفان وعرف فيما بعد باسم (اتفاقية القاهرة) وهو الاتفاق الذى جرى العمل به طوال السنوات الأربع التالية ، وكان هذا الاتفاق يقضى بتمركز القوات الفلسطينية فى مكان محدد بمنطقة العرقوب داخل الأراضى اللبنانية وبالقرب من الحدود اللبنانية

السورية ، علـى أن تكون للمقاومـة حرية الحركـة فى بقيـة مناطق الجنوب اللبنانى دون أن تكون لها مواقع دائمة ..

وعندما استقر الموقف فى لبنان بدأت ألاحظ تصعيدا فى الأردن ، وكان هذا التصـعيد ينطلق من الاحـتكاكات اليوميـة بين المقاومة الفلسطـينية وبين السلطات الشرعـية فى الأردن ، وتوالـت تقارير سـفارتنا فى عـمان فى صـيف عام ١٩٧٠م تشير إلى قرب الاصطدام بين المقاومة الفلسطينية والجيش الأردنى مما قد يؤدى إلى تصفية المقاومة فى الأردن ، كمـا وصلت رسالة من الرئيس السودانى جعفر نميرى وحملهـا نائب رئيس مجلس الثورة السـودانى إلى الرئيس جمال عبـدالناصر عن تخـوف السودان من تصـفيـة المقـاومة الفلسطينيـة فى حـالة صدامـها مع الجـيش الأردنى، وكان عبدالناصـر يشعر بالقلق الشديد خوفا على مصيـر المقاومة وكانت تصلنا معلومات تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تغذى هذه الخلافات ..

ولقـد كنت أرى بأن أى صـدام أردنى فلسطيـنى سـوف يؤثر بشكل خطيـر على الجبهـة الشرقية وكانت خطتنا لتحـرير الأراضى العربية تركز على قيـام جبهة شرقيـة فعالة تضم سـوريا والأردن والعراق والمقاومة الفلسطينيـة ، وأى صدام بين هذه القوى يضعف إلى حدّ كبير فعالية الجبهة ..

وعندما أعلنت مصـر قبولها لمبـادرة روجرز سنة ١٩٧٠ م وبدأ سريان وقف إطلاق النار على الجـبهة المصـرية فى مطلع شهـر أغسطس بادرت بعض الـعناصر الفلسطينيـة فى مهاجـمة عبـدالناصر واتهامـه بالتواطؤ مع الأمـريكان وكانت هذه التهمة تنطلق من محطة إذاعة صوت فلسطين من القاهرة وهى التى كانت الحكومة المصرية تتيحها للفلسطينيين ، فاضطر عبدالناصر إلى الأمر بإغلاق محطة الإذاعة ، ومع ذلك فلم يسمح عبدالناصر بتحـويل الأمر إلى عداء مصرى فلسطيني ، وكان يرى بأن من حق الفلسطينـيين أن يهاجـموا مشـروع روجرز والتـحرك الأمـريكى الجديـد ، ولكن دون توجيـه هجوم للسـياسـة المصرية التى لم يكن حـرصهـا على القضية الفلسطينية يوما ما موضع شك ..

وعندما حـضر الملك حـسين إلى القاهرة فى الأسـبوع الثالث مـن أغسطس ١٩٧٠م لاحظت ضيقه الشديد من تصرفات المقاومة الفلسطينية فى الأردن والتى

قد تؤدى إلى احتكاكها بسلطات الأمن الأردنية ، ثم ذكر أنه لا يوافق إطلاقا على رأى بعض العناصر الفلسطينية والتى تتصور أن احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضى العربية كرد فعل للأعمال الفلسطينية سوف يدفع الدول العربية إلى تعبئة مواردها وإمكانياتها للتصدى للعدوان الإسرائيلى وتحرير فلسطين فى النهاية ، واستطرد الملك حسين قائلا : إن قبول هذا المنطق سيؤدى إلى احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضى العربية ، بينما يجب أن نعمل بكل الوسائل للمحافظة على ما فى أيدينا من أرض ننطلق منها من أجل استرجاع ما فقدناه فى حرب ١٩٦٧م ..

ولقد شعرت بالمشكلة التى يواجهها الملك حسين وتفهمت دقة موقفه ، وفى نفس الوقت كنت ألمس متاعب الفلسطينيين والمرارة التى تولدت فى نفوسهم بسبب الظلم الذى حاق بهم منذ تشريدهم من وطنهم وأراضيهم ، الأمر الذى كان يدفعهم فى بعض الأحيان إلى القيام بأعمال يائسة، وكان من الصعب مطالبة الفلسطينيين الذين تشردوا من أراضيهم ويعيشون فى خيام اللاجئين منذ عام ١٩٤٨م أن يفكروا بنفس الأسلوب الذى يفكر به هؤلاء الذين يعيشون فى بيوتهم وأوطانهم وينظرون إلى المستقبل بأمل لهم ولأولادهم ..

وعندما اجتمع عبدالناصر بالملك حسين فى اليوم التالى بالإسكندرية ، أثار الملك حسين موضوع تفاقم الخلافات بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية ، وأشار إلى قيامهم بعمليات داخل إسرائيل عبر الحدود الأردنية دون تنسيق مع سلطات الجيش مما يؤدى إلى قيام إسرائيل بغارات مفاجئة على القرى الأردنية ..

وقد شرح جمال عبدالناصر للملك حسين كيف عالج موضوع خلاف منظمة التحرير مع مصر حول مبادرة روجرز وطلب من الملك حسين ألا يهاجم أو أن يعمل ضدهم لأن المستفيد فى هذه الحالة هو العدو ، وأضاف عبدالناصر ، أرجو أن تأخذهم بالصبر حتى ولو أخطأوا وذلك من أجل شعبك ومن أجل الشعب الفلسطينى ، ولا تنسى أن سيدنا أيوب كان من سكان نهر الأردن ، ولهذا أعتقد أنك ستكون قادرا على حسم الأمور باتزان وحكمة رغم وجود بعض المتطرفين الفلسطينيين، وإنما فى نفس الوقت توجد بينهم أيضا عناصر كثيرة متزنة، وعموما أرجو أن نتشاور فى هذا الموضوع لأننى أعتبره أهم موضوع عربى فى الوقت الحاضر ، وتوصية

أخيرة أكررها وهى أن تتعاملوا فى هذا الموضوع بالعمل السياسى وليس بالعمل البوليسى ، ولكن معناه أن هذا يتطلب منكم القيام بتحرك سياسى ضخم ، إننى أأسف لكونى تحدثت معكم فى شئونكم الداخلية ، ولكن السبب بسيط وهو أن أى ضربة عندكم سوف تكون لها ردود فعل عديدة على جبهتنا ..

وقد رد الملك حسين قائلا ، سيادة الرئيس أما عن صبر أيوب فهذا هو شعار سياستنا منذ أمد طويل ، ولكن هناك ولا شك حدود للصبر ، إن وجود جميع منظمات المقاومة على أرضنا نقل إلينا كل التناقضات الموجودة فى العالم العربى كذلك فإن المتاجرة بشعار (من النهر إلى البحر) هو عملية مغرضة القصد منها نسف ما هو باق لدينا من إمكانيات عربية لتحرير أراضينا ، والملاحظة أن العمل ضدنا من أفراد المقاومة يتزايد يوما بعد يوم محاولين إثارة الشك والبلبلة فى صفوفنا حتى داخل القوات المسلحة الأردنية ولكن الحمد لله فالوحدات العسكرية مازالت سليمة حتى الآن ، إن الاستفزازات من أفراد المقاومة للسلطة الأردنية لا حدود لها ، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، تسير سيارات المقاومة فى المدن والطرقات دون أن تحمل أى أرقام أو علامات مميزة ، وبذلك يستحيل على السلطة المحلية أن تقوم بواجبها عند حدوث اصطدام أو وفاة أو إصابة لأى من المدنيين الأبرياء ..

ورد عبدالناصر قائلا : لقد سبق أن تحدثت كثيرا مع قيادات المقاومة بشأن ضرورة الامتناع عن عمليات الاستفزاز للسلطات الأردنية المحلية ، وفى الحقيقة إنهم كانوا معى مدركين آثار هذا الاستفزاز وما ينجم عنه ، ولكن للأسف بينهم من يرتكب بعض الأخطاء، ومع ذلك وبصفة عامة،من الممكن أن يعاد بحث مثل هذه الأمور على أن نراعى مصالح كافة الأطراف ، وقبل أن تنتهى الجلسة ، أرجو أن أكرر ما طلبته خلال حديثى معك اليوم وهو أن نتوخى الصبر والحكمة، وإنى على ثقة من أن الله سوف ينصرنا فى معركتنا مع إسرائيل بعد أن صبرنا وعملنا بجد وبعرق لمدة ثلاث سنوات متتالية ..

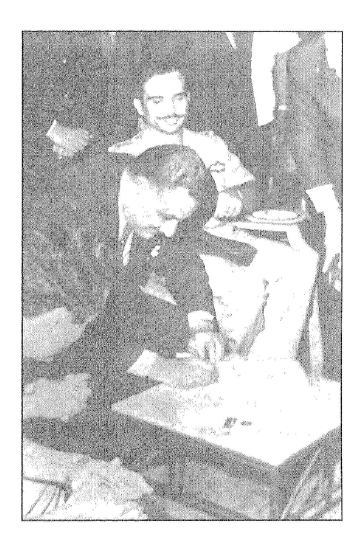
ولكن لم يمر أسبوعان على ذلك الاجتماع إلا وتفجر الموقف بين المقاومة والسلطات الأردنية وقد عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعا طارئا لبحث الموقف المتفجر فى الأردن وشكل لجنة خاصة لهذا الغرض سافرت الى عمان يوم ٧ سبتمبر .. والباقى معروف .. انتهى) (١٠٦) .

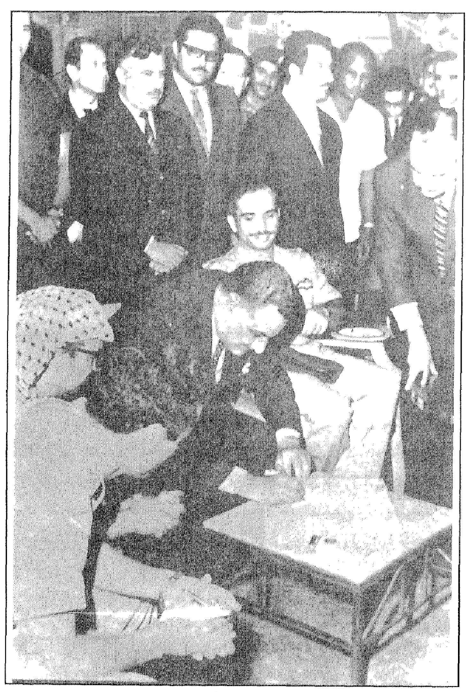
---

(١٠٦) البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط - محمود رياض - ص ٣٠٠ .

والواقع أن تلك الأعمال الطائشة والتجاوزات والاستفزاز لم يكن يخدم إلا مصالح العدو الإسرائيلى، ولا يعرف المرء لذلك اى سبب غير أن بعض تلك الجهات إما أنها مأجورة بحيث تفسد كل شئ أو أنها فاقدة الأمل وتعمل بمقولة (علىّ وعلى أصدقائى - ليس أعدائى) وها نحن نشهد الآن وخلال منتصف القرن الواحد والعشرين أبشع عمل تقوم به جماعة من الفلسطينيين أطلقت على نفسها اسم (فتح الإسلام) وهى بالتأكيد ليست من الإسلام فى شئ ، قامت هذه الجماعة بتفجير الوضع فى البلد العربى الصغير (لبنان) وأدخلته وجيشه فى قتال دام أكثر من ثلاثة شهور فى مخيم يسمى (نهر البارد) شردت منه حوالى عشرين الفا من اللاجئين أيضا الفلسطينيين ، واضطر الجيش اللبنانى أن يستخدم كل الوسائل الحربية وهى قليلة لمواجهة هذه العصابة المجرمة بدلا من أن يوفر ما لديه للدفاع عن بلاده وشعبه ، فتح الإسلام هذه لابد أنها مأجورة من جهة ما لها مصلحة فى تفجير الوضع فى لبنان وربما كانت تلك الجهة تتوقع حدوث حرب أهلية جديدة فى هذا البلد بحيث تختلط الأوراق ، ولكن هذا لم يحدث وقد تم القضاء على هؤلاء المجرمين ومن المتوقع أن تظهر النتائج التى ستكون وبالا على من كان وراءهم .

الملك حسين ينظر باهتمام إلى جمال عبدالناصر وهو يوقع اتفاق إطلاق النار بين الجيش الأردنى والمنظمات الفلسطينية فى عمان ، وكان عبدالناصر قد طالب الملك بكثير من الصبر .. وهذه واحدة من ساعات الصبر .





آخر كلمة خطها عبدالناصر بيده كانــت توقيعه على اتفاق القتال فى عمان بين المنظمات الفلسطينية والجيش الأردنـــى ، وهو يجلس بين المتقاتلين (الملك حسين وياسر عرفات ،ولو تكلم لقال إنها أسعد لحظة فى حياته لكن المنية كانت أسبق ..

الثورة التى جاءت فى غير وقتها :

لم يكن اليمن سعيدا كما كان يطلق عليه إلا إذا كان التخلف يسعد الإنسان، ولا نظن أن ذلك يمكن أن يكون صحيحا ، وما كان يعرف عن هذا البلد قبل ثورة السلال أنه يعيش فى زمن القرون الوسطى ومن المؤكد أنه لم يكن سعيدا بدليل حدوث الثورة فيه ، والواقع أن ما يعنينا هنا هو ما حدث بعد الثورة وموقف عبدالناصر والقوى الأخرى ، وكيف جرت الأمور وجاءت النتائج ، كذلك من المؤكد أن حكم التاريخ سيكون لصالح عبدالناصر ورفاقه إذا ما قورن بين ما كان عليه وضع اليمن قبل التغيير وما صار بعده ، فما كان عليه تنطبق عليه الرواية القائلة (لو عاد آدم عليه السلام إلى الأرض ورأى اليمن قبل ثورتها لقال إنها نفس اليمن التى رأيتها يوم خرجت من الجنّة ، ولقال هذه هى اليمن التى رأيتها من قبل ولا يمكن أن أخطئ ، إنها هى كما خلقها الله لم يتغير فيها شيء سوى أن بها أحفادا لى يعيشون على أمل أن تدركهم عناية الله ورعايته ..) .

وعندما قامت الثورة فى ٢٩ سبتمبر ١٩٦٢م بقيادة عبدالله السلال كان هناك بعض اليمنيين المقيمين فى مصر إما لاجئين أو دارسين وكانت هذه التطورات فى اليمن قد جاءت بلا موعد أو انتظار أو ترتيب ، وكانت مصر عبدالناصر لم تضمّد جراحها بعد من عنف الصدمة التى أحدثها الانفصال السورى الذى حدث فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م أى أن الثورة اليمنية حدثت بعد الانفصال السورى بمدة سنة ويوم واحد، وكان من الطبيعى وقد حوصرت مصر على إثر ذلك الانفصال من كل جانب أن ترى فى هذه الثورة نافذة تتيح لها فرصة مناسبة لكسر الحصار الاستعمارى الرجعى والرد بقوة على المشككين والمتربصين فقرر جمال عبدالناصر مساندة الثورة اليمنية مهما كانت المشاكل والصعاب والمخاطر ، والثورة فى حد ذاتها مخاطرة ، ولم تكن هناك بيانات أو معلومات عن وضع اليمن ديموغرافيا وجغرافيا وعسكريا وحتى سياسيا ذلك أن هذا البلد كان مغمورا خلف كل أحداث التاريخ إلى سنة ١٩٣٦م ، ولذلك بادر جمال عبدالناصر بتشكيل لجنة من السياسيين والخبراء والعسكريين المصريين وقيل إن معهم اثنين من اليمنيين المقيمين فى مصر لدراسة الوضع على الطبيعة وتقدير احتياجات الثورة اليمنية ، ولقد ذكر الفريق محمد فوزى أن اللجنة تكونت من :

أنور السادات ويكون مسؤولا سياسيا عن اليمن من أجل التخطيط السياسى والعسكرى العاجل ومعه اليمنيان وهما الدكتور البيضانى والقاضى الزبيرى وكذلك أعضاء عسكريون يمثلون القيادة العسكرية العليا فى مصر وهم العميد على عبدالخبير والعميد طيار مهندس أحمد نوح ومقدم من قوات الصاعقة ، وكان أن سافرت اللجنة بسرعة إلى اليمن وعادت باقتراحات عسكرية أساسها دعم سريع بكتائب صاعقة وسرب طائرات معاونة لقذف القنابل والصواريخ ، واستطلاع جوى، ويقول الفريق فوزى وهو عسكرى معروف ومشهود له بالخبرة والمعرفة العسكرية، أن إمكانيات الدعم الجوى إلى اليمن عبر مسافة أكثر من ٢٠٠٠ كيلومتر محدودة للغاية فى الجمهورية العربية المتحدة فى ذلك الوقت ، فاقترح العميد طيار أحمد نوح إمكانية استخدام طائرة التدريب (ياك ١١) بعد تطويرها كى تحمل صواريخ(أوريكلون) جو / أرض وكانت هذه الطائرة تصنع فى الجمهورية العربية المتحدة على ان تنقل الطائرة مفككة إلى صنعاء حيث يعاد تركيبها واستخدامها، وكانت وسيلة النقل الجوى قد اعتمدت على طائرة (الأنتينوف ١٢) التى وصلت حديثا من الاتحاد السوفييتى، كما أمكن استخدام طائرة النقل الجوى (إليوشن ١٤) بعد تركيب حمّالات نقل قنابل زنة ٥٠٠ كيلوجرام أيضا ، ونجحت القوات المسلحة المصرية فى سرعة نقل أفراد الصاعقة والطائرات والإمدادات الى اليمن، بعد أيام من قيام الثورة ، وقيل وقتها أن هذه القوة التى لم يزد عدد أفرادها عن (١٠٠٠) فرد سوف تنهى مهمتها خلال ثلاثة أشهر على الأكثر .. انتهى .

والواقع أنه لولا القرار الجرىء والشجاع الذى اتخذه جمال عبدالناصر وتأييد أعضاء مجلس ثورة ٢٣ يوليو له ما كان يمكن أن تنجح الثورة فى اليمن ، رغم ما ترتب على ذلك القرار من خسائر مادية وبشرية تحملها الشعب المصرى على مضض وبكثير من الصبر ، نقول ما كان يمكن أن تنجح الثورة لعدة أسباب وهى :

١ - لم يكن هناك اتفاق وتنسيق كاملان بين الضباط الذين قاموا بالانقلاب حتى أن السلال الذى صار فيما بعد زعيما للثورة لم يكن موجودا خلال الليل وذكر أنه لم يحضر إلا فى الثامنة صباحا وإن كان قد أدى دورا بارزا بعد حضوره فى إنجاح الثورة .

٢- كانت هناك قوات بريطانية وجيش تابع لها فى جنوب اليمن (عدن) وقد تحركت تلك القوات مستعدة للتدخل وإفشال الثورة .

٣- وجود الأمير سيف الإسلام الحسن الذى أعلن نفسه إماما بدعم من العربية السعودية التى كان موجودا بها خلال تلك الفترة .

٤- عدم القبض على الأمير البدر وهو ولى العهد ، وقيل إن عددا من الضباط اليمنيين ساعدوه على الهرب .

ومن المعلوم أن الذى قام بالدور الأساسى فى الإعداد للثورة والاتصال بالضباط هو العقيد عبدالله جزيلان وذلك حسب وثائق الثورة اليمنية بينما كان عبدالله السلال قائدا لحرس الأمير البدر وقد أبلغه جزيلان بأمر الثورة وربما كان اختياره فيما بعد قائدا للثورة لأنه كان قد اشترك فى محاولة الانقلاب على الإمام سنة ١٩٤٨م وسجن لسنوات عديدة بعد فشل ذلك الانقلاب وخرج من سجنه سنة ١٩٥٥م ..

المهم أن عبدالناصر قد اتخذ قرار مساندة الثورة اليمنية بكل الوسائل العسكرية والسياسية والمادية، وهو تأييد لثورة أو قل انقلاب كانت فرص نجاحه كما قال القائمون به أنفسهم ٥٪ (خمسة فى المائة) وقد أرسل عبدالناصر لجنة تقصى الحقائق ومعرفة ظروف البلد ، تلك اللجنة التى عادت من اليمن وأوصت بإرسال قوات رمزية وبعض الأسلحة ، ولعل أدق وصف لليمن فى ذلك الوقت جاء فى كتاب محمود رياض حيث قال :

توجهنا بطائرة عسكرية لزيارة اليمن ، وعندما وصلنا إلى تعز ، لم يستطع قائد الطائرة أن يتّبين موقع المطار ، إذ كانت تحيط بنا الجبال الشاهقة من كل جانب، ولم يستطع قائد الطائرة التعرف على المطار إلا عندما شاهد الغبار يتصاعد خلف طائرة قرر قائدها السويدى ، وكان يعمل فى خدمة الإمام أن يصعد بها إلى الجو ليرشدنا إلى طريق المطار ، وعندما هبطنا لم نجد من معالم المطار سوى الكم الهوائى الذى يشير إلى اتجاه الريح ..

والواقع أن ما شاهدناه فى مدن اليمن سواء فى تعز أو فى صنعاء أو فى البيضا لم يكن يخطر على بال أحد ، بل لم أكن أتصور أن هناك بقعة على الأرض

مازالت تعيش فى مثل هذا التخلف الذى شاهدناه ، فلم تكن هناك عملة نقدية ، وإنما كان التعامل يتم عن طريق الريال الفضى وعليه صورة امبراطورة النمسا (ماريا تريزا) باعتباره قطعة من الفضة ، لم تكن توجد فى هذه المدن بنوك أو مستشفيات أو مدارس ، وكان التليفون الوحيد فى صنعاء موجودا لدى الإمام ، وقد أدى هذا التخلف إلى هجرة أعداد كبيرة من اليمنيين إلى شرق أفريقيا وأماكن عديدة فى أنحاء العالم العربى..

وعندما ذهبنا إلى البيضا استضافونا فى منزل يتكون كل طابق فيه من غرفة واحدة ، إذ كانت المنازل بطريقة تسمح بأن يدافع سكانها عنها ضد أى هجوم خارجى ..

وكانت المفاجأة فى الصباح ، عندما وفد رجال القبائل لتحيتنا يهتفون باسم جمال عبدالناصر وللقومية العربية ، واستمعت إلى بعضهم يذكر اسم أحمد سعيد ولم أكن سمعت بهذا الاسم من قبل فسألت زميلى فتحى الديب المسؤول عن الشئون العربية فى المخابرات العامة ، فابتسم قائلا إنه الموظف المسؤول عن صوت العرب وأدركت قوة الإذاعة ومدى تأثيرها ، كانت المخابرات العامة توافى الإذاعة بالمعلومات عن أحوال اليمن وأسماء القبائل والمشايخ فكان أحمد سعيد يتلو أسماءهم ويدعوهم لمقاومة الاستعمار فى جنوب اليمن وكان اليمنيون يتعجبون لسماع أسماء مشايخهم ، واشتهرت قصة رفض رجال القبائل شراء أجهزة الراديو قبل أن يتأكدوا من أنها تبث إرسال صوت العرب ، ويصرون على سماع الإذاعة قبل شراء الراديو ..

وعلمنا أثناء وجودنا فى تعز أنه حتى يضمن الإمام أحمد ولاء زعماء القبائل كان يحتفظ فى قلعة بتعز بعدد من أبنائهم كرهائن ، ومرت اليمن بفترات كانت الأمور تسير فيها بطريقة لا مثيل لها فى العالم ، فشعوب العالم فى كل الدول تدفع الضرائب للدولة ، أما فى اليمن فإن الحاكم كان يضطر أحيانا لكى يضمن ولاء القبائل أن يقدم لهم المال ، ..

وقد زرت اليمن بعد ذلك عدة مرات بعد ثورتها عام ١٩٦٢م وفى كل مرة كنت ألمس التقدم السريع الذى تحققه يوما بعد يوم وفى آخر مرة زرتها كنت أعجب كيف استطاع شعب اليمن الانتقال ببلاده فى فترة قصيرة من ذلك التخلف الشديد إلى كافة مظاهر الحياة الحديثة ..

المهم أن الإمام خلال حديثه معنا كان يؤكد استعداده التام للتعاون مع مصر ويرفض فكرة الأحلاف وكان يرى إن مصر تمثل سندا له لمقاومة أى تهديد بريطانى يأتيه عبر عدن ، وقبل مغادرتنا اليمن توجهنا لتوديع الإمام فقدم لصلاح سالم صندوقا مستطيلا وطلب منه ألا يفتحه إلا عند وصوله لمنزله فى القاهرة ، وفى الطائرة انتاب صلاح القلق وسألنى ، لماذا يطلب منى الإمام عدم فتح هذا الصندوق إلا فى منزلى ؟ فقلت له ، وما الفرق بين فتح الصندوق الآن أو فى المنزل ؟ فطلب من أحد معاونيه إحضار الصندوق ، وعندما فتحه وجدنا به سيفا ، إلا أن المفاجأة كانت وجود (صرّة) بالصندوق ، وعندما فتحها وجد بها ما يقرب من ألف جنيه ذهب ، وغضب صلاح سالم غضبا شديدا وتبرع بالمبلغ لأحد المشاريع الخيرية .. انتهى) (١٠٧) .

وعلى ضوء ذلك الوضع فى اليمن الذى قامت فيه ثورة كان لزاما على عبدالناصر أن يقف إلى جانب رجالها بكل ما له ، ولقد ترتب على ذلك إرسال آلاف من الجنود والضباط المصريين لمساندة الثورة اليمنية ، ولأن هذا البلد كان فى غاية التخلف كما ذكر السيد محمود رياض وهو شاهد عيان كان على الجيش المصرى أن يقوم بجميع الأعمال الحربية والمدنية ، حربية لحماية الثورة ، ومدنية للنهوض بالبلد ، فقد اضطر إلى بناء المدارس وتعبيد الطرق وإنشاء المزارع وتمديد خطوط الكهرباء وعمليات الصرف الصحى وخطوط المياه إلخ ولقد حدث نفس هذا الشئ قبل اليمن بأكثر من عشرة عقود حين وجد نفس هذا الجيش نفسه يقوم بجميع الأعمال الحربية والمدنية فى بلد أفريقى هو (السودان) وحقيقة أن أحداث التاريخ تتكرر فى مختلف الأزمات وهذه قصة ذلك :

كان استرداد السودان وتوقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩م للحكم الثنائى المصرى البريطانى ، وهى الاتفاقية التى وقعها بطرس غالى عن مصر ولورد كرومر عن بريطانيا والتى جاء فى مقدمتها أن الأسباب التى دعت إلى الحكم الثنائى هى أن مصر

(١٠٧) كتاب مذكرات محمود رياض - الجزء الثانى - ص ٥٤ - تبرع صلاح سالم يؤكد ما ذكرناه فيما تقدم عن طهارة أيدى هؤلاء الحكام بسبب طهارة رئيسهم ، وقلنا عففت فعفوا يا عمر - صدق على بن أبى طالب ﷺ وكرم وجهه .

حكمت السودان حكمـا سيئـا مما أدى إلى ضياعه (ومـوافقة) الحكومـة المصرية على السماح لإنجلترا بإدارة السودان لقاء المعونة التى قدمتها إلى مصر فى السودان ..

أصبح الحاكم العام البريطانى هو السلطـة العليا فى السودان تتجمع فى يديه جـميع السلطـات المدنية والعـسكرية والتنفـيـذية والتشـريعـية ، وبدأت الحكومـة البريطانية ترسم سياسة جديدة نحو الجيش المصرى ..

وهناك أنشأ الجيش المصرى طرق السكك الحـديدية فى ظروف بالغة القسوة والصـعوبة ، قال الـلورد كرومر إن هـذا الجيش قد مـد (٣٢٥) ميـلا من خطوط السكك الحديدية خلال ١٤ شـهرا وقال أحد الضبـاط المصريين أنه توجد تحت كل شبر منها جـثة جندى مصرى ، وكثير من منشـآت السودان فى المدن المختلفة بنيت بواسطة الوحدات المصرية حتى أصبح ذلك طابعا للجيش ..انتهى)[١٠٨] .

ويتحدث الفـريق أول محمد فوزى فى كتـابه (حرب الثلاث سنوات) عن تطور الأحداث فى اليمن بعد الثورة قائلا :

(نشطت القبائل اليمنية المضادة للثورة ، والمدعّمة من الخارج ، بالإضافة الى نشـاط المخابرات الأمـريكية المركـزية الموجـه ضد الحكم الشـورى فى اليمن ، وقـد تمكنت هذه القوى المعادية لثورة اليمن من تطوير الوضع الداخلى مما أحرج موقف القوة الصغـيرة التى أرسلتها الجـمهورية العربية المتـحدة وأصبحت المسـألة صراعا على السـمعة واضـطرت مصر الـى إرسال دعـم عسـكرى أكثر ، الأمـر الذى أدى بمرور الزمن إلى إرسـال قوات برية كـبيـرة وصلت إلى (١٣ لواء) كمـا أرسلت معظم كـتائب الصاعـقة (٧ كتائب) ولـواء دبابات ، وكتائب مدفـعية مـيدان فى حدود ١٠ كتائب بالإضافة إلى الوحدات الإدارية ..

كانت الألوية الأولى التى دفعت إلى اليمن من الأسلحة الغربية القديمة لكن بمرور الوقـت ، وزيادة دفع القـوات إلى اليـمن اضطرت القـيادة الى دفع وحـدات مـسلحة تسـليحـا شـرقيـا حديثا كـما أرسلـت أسرابا من القـوات الجـوية للنقل والمواصلات وأسرابا مقاتلة ، وأسرابا مقـاتلة قاذفة من أنواع (ميج ١٥- ١٧) كما

(١٠٨) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - الجزء الأول - ٧١ .

ظلت الطائرات (تى يو ١٦) تعمل فى المسرح من قاعدة أسوان الجوية ، وأرسلت بعض قطع بحرية مختلفة المهام والنوعية ، وهى مدمرة ، ٢ فرقاطه ، ٢ ناقلة ، كاسحة ألغام ، كما أنشئت قيادة كبيرة لمسرح العمليات فى اليمن يقودها ضابط برتبة فريق ..

ولقد وصل عدد القوات فى عام ١٩٦٤م الى ٧٠,٠٠٠ مقاتل مصرى ، وكانت الأعمال التى قامت بها هذه القوات حتى عام ١٩٦٤م كافية جداً من وجهة النظر العسكرية ، إذ كانت القوات العسكرية المصرية قد حققت السيطرة الكاملة على المثلث الداخلى فى اليمن وهو صنعاء - تعز - الحديده - وكان تعزيز هذه المنطقة وسكانها المهمة العسكرية لمصر فى اليمن ، وينتهى الفريق أول محمد فوزى إلى القول :

ونجحت عملية اليمن استراتيجيا وقوميا إذ أنها حققت الآتى :

١- فتحت عيون أهله على العالم الخارجى .

٢- بدأ التحرر للجنوب العربى باليمن الجنوبية ، وبذلك تقلص نفوذ الاستعمار البريطانى فى المنطقة بتواجد ثورات محلية .

٣- بدأ الإحساس بأهمية وجود وعى استراتيجى عربى قومى فى المنطقة العربية.

٤- تغيرت السياسة الاستغلالية لشركات البترول الأجنبية خاصة الأمريكية والبريطانية فى المنطقة .

٥- فتحت الطريق لكل من اليمن الشمالية والجنوبية للاستقلال والتحرر الوطنى والسعى لأخذ معونات ومساعدات تسليح من الاتحاد السوفيتى .

٦- أصبح نجاح ثورة اليمن واستقرار الحكم الجمهورى فيها ، دليلا على نجاح استراتيجية الجمهورية العربية المتحدة .. انتهى) .

٧- وكما ورد فى كثير من التقارير وكتابات بعض المراقبين أو المشاركين فى تلك الحرب التى تطورت إلى مواجهات بين الثوريين والملكيين ، مصر مع ثورة اليمن ، والسعودية والغرب على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية مع ولى العهد الأمير البدر وعمه الحسن ، وكان ذلك بالتأكيد متوقعا إذ لا أمريكا ولها مصالح كثيرة هناك منها

البترولية ، وبريطانيا وهى بقواتها وقواعدها فى الجنوب (عدن) إضافة الى مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة كلها وقتذاك ، والمملكة العربية السعودية التى ترى قيام نظام ثورى فى خاصرتها قد يهدد نظامها بالكامل ، المواجهة بين هذه الأطراف عسكريا وسياسيا ومخابراتيا قد تصاعدت ، وكان جمال عبدالناصر كما تقدم ذكره قد كلف أنور السادات بملف اليمن سياسيا فإن سؤالا لابد أن يطرح ، يقول : ما هو دور السادات فى ترجيح كفة تلك الحرب إلى هذا الجانب أو ذاك إذا ما علمنا فيما بعد أن السادات (كما جاء فى تقارير كثيرة أنه كان يتعامل مع المملكة العربية السعودية عن طريق مدير مخابراتها المدعو (كمال أدهم) وقيل إنه كان يتلقى أموالا منها ؟؟

ولقد ذكر الأستاذ عبدالله إمام فى كتابه (انقلاب ١٥ مايو) نقلا عن الأستاذ هيكل أن كمال أدهم صهر الملك فيصل أول من كان وسيطا بين السادات وأمريكا ، ونص ما ذكره فى هذا الخصوص كما يلى :

(يقول هيكل إنه جاء إلى القاهرة فى شهر نوفمبر كمال أدهم صهر الملك فيصل ومستشاره الخاص وتحدث خلال هذه الزيارة عن الوجود السوفييتى فى مصر وما يسببه للأمريكيين من إزعاج فى وقت يحاول فيه السعوديون زيادة اهتمام الأمريكيين بمشاكل الشرق الأوسط ، ورد الرئيس السادات أن مصر تعتمد على الاتحاد السوفييتى فى أشياء كثيرة بينما الأمريكيون يقدمون لإسرائيل كل ما تطلبه إلى حد أنها استطاعت خلال حرب الاستنزاف أن تضرب مصر بالقنابل لمدة ١٧ ساعة متواصلة ، وقال الرئيس السادات لكمال أدهم إنى لن آتى بالروس وحدهم لكنى سآتى بالشيطان نفسه إذا كان فى مقدوره الدفاع عنى ، لكنه أضاف أنه إذا تمت المرحلة الأولى من مراحل الانسحاب الإسرائيلى فإن فى استطاعته أن يعد بإخراج الروس من البلاد ، وسأل كمال أدهم الرئيس عما إذا كان يستطيع أن يبلغ ذلك للأمريكيين فأجابه الرئيس السادات بالإيجاب ، أى أن التخلص من السوفييت كان واردا من قبل لإرضاء الأمريكيين حتى لا ينزعجوا ! ..)[١١٠] ومن هنا كان السؤال واردا ، كيف لا تواجه القوات المصرية الخسائر الفادحة فى الأرواح إذا كان هذا حال أبرز المسؤولين على ساحة المعركة فى اليمن ..

(١١٠) انقلاب ١٥ مايو - عبد الله إمام - ص ١٥٨ .

ونعلم أن الملك سعود كان فى زيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة قبل تلك الأحداث وهناك كان محط أنظار واهتمام كبيرين وهو الذى كان قد هندس بأموال بلاده العملية التآمرية على الوحدة وحقق الانفصال السورى ، ولعله كان ينتظر المكافأة من لدن البيت الأبيض ، ولابد أن الثورة فى اليمن قد جاءت مفاجأة وصدمة له ولغيره من أصحاب المصالح هناك وقبل أن يعود إلى بلاده تم الاتفاق على العمل المشترك للقضاء على هذه الثورة وإفشال المخطط المصرى فى الجزيرة العربية كما قيل ، على الرغم من أن مصر كما تبين فيما بعد لم تكن وراء الثورة أو الانقلاب وإنما هى أيدته عند حدوثه لأن الثوار اليمنيين طلبوا مساعدة الجمهورية العربية المتحدة وكان لابد من الاستجابة لطلبهم انسجاما مع مبادئ الثورة المصرية وإدراكا للأخطار التى ستواجه الثورة التى حدثت فى تلاقى المصالح الغربية والنظم العربية واليمينية ، ومن المؤكد أن عبدالناصر لم يتخذ قرارا بالحرب فى اليمن ولكنه عرض الموضوع على مجلس الرئاسة بحيث تؤخذ الآراء فيما إذا كان من الواجب مساعدة تلك الثورة ، واتخذ القرار بدعم الثورة اليمنية ، ويقول سامى شرف ما يلى :

(إن الأمور فى اليمن قبل الثورة لم تكن مستقرة فقد شهدت اليمن انتفاضات شعبية عديدة كانت تقمع بوحشية ، وكان إصرار قوى التحرر على تحقيق أهدافها مهما كانت التضحيات ، وكان الإمام أحمد يكره السعودية ويخشاها ، وكان فى نفس الوقت محاصرا بالاستعمار البريطانى فى الجنوب ، لذلك لم يكن أمامه إلا أن يلعب لعبة التوازن بإقامة علاقات ودية مع مصر ، وحدثت لقاءات سياسية وجاءت بعثات لتتعلم فى مصر ، كما أوفدت مصر مدرسين ، وكان الضباط الأحرار اليمنيون يتحركون وحدهم ، وأحب أن أذكر أنه لم يكن لهم أية اتصالات تنظيمية بمصر، وأن حركتهم كانت يمنية خالصة ، ولكنهم كانوا يدركون أن عبدالناصر لابد أن يساعدهم فى ثورتهم إذا قاموا بها ، وبعد الثورة كانت رسالتهم الأولى تطلب مساندة مصر عن طريق الاعتراف الفورى ، وبالتالى المساعدة فى كسب اعتراف الدول الصديقة ، وتوفير الدعم الإعلامى للثورة ، وسرعة إرسال قوة عسكرية محدودة ترابط فى العاصمة صنعاء، لأن وجودها سيحد من تدخل أى قوة خارجية ، فضلا عن عمق تأثير التواجد المصرى نفسيا على رجال القبائل..

وصل الطلب اليمنى ، وفى نفس الليلة أيقظنا جميع أعضاء مجلس الرئاسة ودعوناهم لاجتماع عاجل فى منزل الرئيس بمنشية البكرى ، وحضروا جميعا وهم لا يعرفون ما هى القضية الملحة والعاجلة التى أدت إلى الدعوة لمثل هذا الاجتماع الذى حضره أيضا وزير الخارجية ، وربما ما كان قد فكروا فيه عن سبب الاجتماع أمور عديدة لكنه لم يصل أبدا إلى الموضوع الذى فاجأهم به عبدالناصر ، قال لقد قامت الثورة فى اليمن ، وسيطرت على قصر البدر وعلى الإذاعة وتحفظت على القيادة الموالية للإمام ، واستولت على قصر السلاح وهو مخازن الذخيرة وأن هذه الثورة الوليدة تطلب من مصر المساعدة وفقا لرسالة محمد عبدالواحد ..

ودارت مناقشات طويلة انتهت إلى الاستجابة لهذه المطالب ، انطلاقا من مبادئ الثورة بدعم ومساندة حركات التحرر فى العالم ، فما بالك باليمن ، واتخذت قرارات بالإجماع من أجل الاعتراف بالنظام الثورى الجديد فى اليمن ودعمه ، لقد كان القرار بالإجماع ولم يعترض أحد أبدا من أعضاء مجلس الرئاسة على ضرورة الاستجابة للمطالب ، وكانت المناقشة حول الأسلوب وحجم قوة المساندة ، وغير ذلك من الأمور الفنية ..

كان أنور السادات مسؤولا سياسيا عن اليمن ، وكان من قبل ذلك له علاقة بعبدالرحمن البيضانى الذى كان موجودا بالقاهرة ، كما كان موجود أيضا القاضى محمد محمود الزبيرى والسيد أحمد نعمان ، وهما من القيادات الوطنية وكانا ينسقان العمل مع الأخ فتحى الديب المسؤول عن الشئون العربية والذى عين سفيرا لمصر فى سويسرا ، وكان من رأى السيد أنور السادات أن الثورة لا يلزمها إلا التأمين السياسى ومعاونة عسكرية رمزية ، علما بأن ثورة اليمن لم تكن أبدا من صنع مصر بل إن هذه المقولة إنكار لحق الشعب اليمنى فى تقرير مصيره وفى فرض إرادته وفى أن يحقق التغيير ..

أرسلت مصر بعض القوات الخاصة التى ساندت فى تأمين وتثبيت الأوضاع الجديدة وكان يمكن أن تنتهى الأمور عند هذا الحد ، فالثورة نجحت وأعلنت الجمهورية وهرب البدر إلى السعودية ، ومن ناحية أخرى فإن جمهورية اليمن

الوليدة لم تكن تشكل خطرا على أى وضع مجاور لا شمالا ولا جنوبا ، ولكن البعض رأى فى ذلك عملا عدائيا وبدأ يعد لوأد هذه الثورة .. انتهى) (١١١).

كان ذلك على حد قول أحد المقربين من عبدالناصر وما دار بين أعضاء مجلس الرئاسة الذين اجتمعوا ليتدارسوا الوضع الجديد فى اليمن ، ونعتقد أن السيد سامى شرف قد جانبه الصواب عندما قال (ربما) نقلا عن أحد الحاضرين ، إن الثورة فى اليمن لا تمثل خطرا على أحد ، فى حين انها تمثل أشد خطر على عدة جهات محلية ودولية وما كان يمكن أن يتقبلها هؤلاء دون تحريك إصبع فى اليد الواحدة بل كان الوضع من جانبهم يقضى لا بتحريك أصابع وإنما أساطيل بحرية وجوية وبرية .. إلخ ومن هنا جاء السؤال البديهى الذى طرحه الأستاذ هيكل والقائل (هل يمكن أن يكون هناك تقييم للتدخل العسكرى المصرى فى اليمن لا يأخذ فى حسابه الظروف السياسية التى كانت تسود العالم العربى وقتها ؟؟) .

كان ذلك بعد مؤامرة الانفصال ، ونحن نذكر ملابساتها وما جرى فى سوريا وقتها ، وكان ذلك فى أعقاب مؤتمر (شتوره) الذى اتخذه النظام الانفصالى فى سوريا منبرا للهجوم على الحركة الوطنية العربية ، وكان يبدو أن القوى المعادية للتقدم العربى تريد أن تخنق كل صوت ينادى بالتحرر العربى .

وفى ذلك الوقت جاءت ثورة اليمن وانقضّت عليها العواصف ، ولا أريد أن أعود إلى التفاصيل حتى لا أنكأ جراحا قديمة شفاها الزمن فيما أتمنى ، وفى يوم عصيب من أيام شهر أكتوبر ١٩٦٢م كانت ثورة اليمن الوليدة وحدها فى مهب العاصفة ، وفى القاهرة كانت هناك مشاورات مستمرة بعد أن طلبت الثورة الوليدة نجدة من مصر بدورها وحجمها فى العالم العربى فى ذلك الوقت ، وكان أنور السادات أكثر الناس اهتماما بهذا الموضوع فى القاهرة لأن اختصاصه السياسى فى القيادة المصرية كان يشمل ضمن ما يشمل شئون اليمن والجنوب العربى والخليج ، وكانت توصية أنور السادات ، فى نطاق اختصاصه ، تتلخص فى أن مصر لا يسعها أن تتفرج على ما يجرى فى اليمن مكتوفة اليدين وأن الواجب القومى يحتم عليها أن تتدخل عسكريا - خصوصا بالطيران - لرد العاصفة عن الثورة اليمنية ..

(١١١) عبد الناصر كيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص٣٣٣ .

ودارت مناقشات واسعة حول هذه التوصية .. وأتذكر أنه كان لى فى الموضوع رأى يختلف ، وقد قلته لجمال عبدالناصر ، وأتجرأ فأقول ذلك لأن جمال عبدالناصر أشار إلى رأى فى آخر جلسة حضرها لمجلس الوزراء قبل رحيله، وما قاله فى هذا الصدد مسجل بصوته فى وثائق مجلس الوزراء .. شاهدا ومرجعا ..

كان رأيي فى ذلك الوقت يتلخص فيما يلى:

- إننى لا أعرف إذا كانت الظروف الموضوعية فى اليمن مهيأة لنجاح الثورة ..
- ثم إننى لا أعرف إذا كانت الثورة التى قامت فى اليمن تستطيع أن تتحمل عمليا ثقل التدخل العسكرى المصرى فى اليمن ، وبواسطة القوات المسلحة المصرية ..

وسألنى جمال عبدالناصر سؤالا مباشرا :

- هل معنى ذلك أن نترك الثورة اليمنية وحيدة يسهل ضربها ، وماذا يحدث للحركة العربية العامة إذن ؟

وقلت :

- إننى أدرك أهمية نجدة ثورة اليمن ، ولهذا فإنى أقترح تشكيل قوات متطوعين عرب من كل البلاد العربية يذهبون إلى اليمن للقتال فى صفوف الثورة ، وأضفت ، لماذا لا نجعل اليمن معركة شعبية للحرية بمثل ما كانت الحرب الأهلية فى إسبانيا معركة شعبية للحرية ؟ وحتى لو أننا خسرنا المعركة فإن الخسارة ستتحول إلى أسطورة فى النضال العربى تلهم وتلهب خيال أجيال بعد أجيال ، ذلك أسلم فى رأيي من الزج بالقوات المسلحة المصرية فى ظروف شاقة معظمها مجهول ، ثم قلت للرئيس وقتها :

لدى دراسة قام بها باحث مصرى عن الأحوال فى اليمن وعن تاريخه المعاصر وأريدك أن تقرأها ، وسوف أرسلها لك ..

وأشار عبدالناصر الى هذه الدراسة فى التسجيل الموجود بصوته فى سجلات مجلس الوزراء فى آخر جلسة حضرها قبل الرحيل .

كان الرأى المقابل للرأى وقتها يتلخص فيما يلى :

- إن أمن ومستقبل الحركة الوطنية العربية معلق فى الميزان .

- إن الوقت لا يحتمل التردد وإلا ضاعت الثورة اليمنية .

- إن تدخل بعض قوات الصاعقة وسرب واحد من الطيران يكفى .

وبهذا المنطق تدخلت مصر لنجدة الثورة فى اليمن وكان أنور السادات ولمدة خمس سنوات متصلة هو المسؤول الذى تولى إدارة الجهد السياسى المصرى فى اليمن فى حين أن عبدالحكيم عامر كان المسؤول عن الهدف الحربى ، وأعترف الآن ـ وهذه شهادة صدق ـ أن أنور السادات كان على حق فى مناداته بالتدخل العسكرى لحماية الثورة فى اليمن وإننى كنت على خطأ لأننى نظرت إلى الموضوع من وجهة نظر مصرية إقليمية بحتة ، وذلك لا يجوز إزاء مسؤولية مصر ودورها القومى .. انتهى ..) (١١٢) .

والواقع أن بعض الوثائق تشير إلى أن ولى العهد الأمير البدر كان يعد نفسه لخلافة والده الإمام أحمد وكان هناك تنافس شديد بينه وبين عمه سيف الإسلام الحسن ، وكان هذا الأخير ينسق مع جهات إقليمية وأجنبية ومحلية ليزحف من تعز ويتولى الحكم عند وفاة الإمام أحمد ، والسبب أنه ومن يساعده كانوا يتهمون الأمير البدر بأنه على اتفاق من بعض العرب وأنه متأثر بالاتجاه القومى وبالتالى إذا تولى الحكم بعد والده سيفتح الباب للنفوذ المتطرف العربى ، والمقصود بذلك النفوذ المصرى ، بل هناك من يتهم البدر بأنه شيوعى لمجرد أنه كان قد زار الاتحاد السوفييتى ، وكان هناك طرف ثالث يعد للعمل المستقبلى فى هذا البلد وهو بعض ضباط الجيش الذين كانوا قد درسوا وتدرّبوا خارج اليمن إما فى مصر أو العراق ومنهم الجزيلان والسلال ، والذى حدث أن هذا التنافس الذى كان جاريا بغطاء شفاف بين الأطراف الثلاثة جعل كلاً منها يستعجل التحرك ولقد قام الأمير البدر بالخطوة الأولى حيث أعلن نفسه إماما خلفا لوالده الذى توفى وصار يرتب الأوضاع حتى أنه ألقى خطابا قبل الثورة مباشرة قال فيه أنه سيسير على خطى والده ربما كنوع من التطمين لبعض الأطراف فى وقت كان قد تلقى فيه برقية تعزية من القاهرة لابد أنها كانت قد التقطت وسربت إلى الأطراف الإقليمية التى لا ترضى على الأمير البدر وأرادت أن تحرك عمه وتدعمه لكن ضباط الجيش كانوا

(١١٢) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكل - ص ٥٥ .

أسرع ، وسرعتهم تلك كانت مخاطرة ربما غير محسوبه وكان يمكن أن تفشل لولا مبادرة القاهرة بالتأييد والمساندة لثورتهم التى كانت واقفة على رجل واحدة والرياح تهب عليها من كل جانب .. وفى هذا يقول السيد سامى شرف :

(أوفدت القاهرة العميد على عبدالخير وبصحبته القاضى محمد محمود الزبيرى والدكتور عبدالرحمن البيضانى صديق أنور السادات والطيار عبدالرحيم عبدالله أحد الأحرار اليمنيين والذى قام بدور هام وحيوى لا يعرفه الكثيرون ، وترتب على هذه الزيارة ضرورة عقد معاهدة دفاع مشترك بين اليمن ومصر ، وتم إيفاد أنور السادات فى الأسبوع الثانى من أكتوبر ووقعت هذه المعاهدة بهدف إتاحة الفرصة لمصر لمساندة اليمن ضد أى أخطار وأرسلت ثلاث طائرات حربية وعدد محدود من القوات الخاصة كتعبير عن تصميم مصر على مساندة ثورة اليمن، وفى هذه الحدود فقط كان تصور عبدالناصر لدور مصر فى دعم الثورة هناك .. انتهى) (١١٣) .

لابد أن السيد سامى شرف قد قال هذا الرأى بناء على مناقشات دارت فى اجتماعات أعضاء الرئاسة ولا يمكن أن تكون هى الرأى الأخير فلا يعقل أن القيادة فى مصر لم تكن على بينة من المناوئين للنظام المصرى والذين على استعداد لأن يقوموا بأى عمل عسكرى أو سياسى ضد أى تدخل فى تلك المنطقة خصوصا أن الملك السعودى كما سبقت الإشارة أنه كان فى زيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية وعاد مسرعا بعد أحداث اليمن ، وقبل ذلك كان هناك تعاون وتنسيق بين مملكته والقوى الكبرى حيث حققوا ضربة قاصمة للنفوذ المصرى عندما شجعوا وساعدوا ومّولوا عملية الانقلاب على الوحدة وتم فصل سوريا عن مصر، بمعنى إنه لم يكن معقولا بعد ذلك أن يسمحوا لمصر بأن تضع قدمها فى صنعاء دون مقاومة مهما كانت الأمور ، على أنه ربما يمكن القول : أن القبائل كلها فى اليمن يمكن أن تقبل بالوضع الجديد عندما يتبين لها أن مصر قد تدخلت عسكريا ، ولكن أين يكون موقف المسؤول السياسى عن اليمن وهو كما ذكر على علاقة مشبوهة مع العربية السعودية عن طريق مدير مخابراتها وقتذاك كمال أدهم ؟؟

(١١٣) عبد الناصر كيف كان يحكم مصر - عبد الله إمام - ص ٣٣٦ .

ولقد تطورت الأحداث بشكل عاصف ربما كما قال (أنتونى ناتنج ، إنها فيتنام عبدالناصر) ..

(لإن تسنى لعبدالناصر أن يحقق فى اليمن ما حمله مستشاروه على أن يتوقعه من نصر سريع حاسم لأصبح قادرا على استعادة زعامته للعالم العربى لأكثر من لحظة عابرة ، ربما بات مركزه مع عدم وجود منافس قوى بين أقرانه من الحكام ولوجود حاكم صديق له فى العراق بدلا من ذلك الذى كان يناصبه العداء، لا يقل قوة عما كان عليه قبل أن تدهمه سلسلة النكسات الأخيرة .. لكن مغامرة اليمن لم تسر كما كان عبدالناصر يأمل ، فرغم ادعاءات السلال المتكررة من أنه قد سحق مقاومة الملكيين وقضى على تدخل السعودية والأردن فإن قتالا عنيفا قد استمر بين الجيش الجمهورى وحلفائه المصريين وبين رجال القبائل التابعين للإمام تساندهم السعودية والأردن بالرجال والعتاد بما فى ذلك الطائرات ، لقد تكبد الجانب الجمهورى من الخسائر أكثر بكثير مما تكبده خصمه من الملكيين الذين بدوا منذ بداية الحرب وقد احتفظوا بزمام المبادرة فى أيديهم والواقع فإن الفرحة الوحيدة التى صادفها الجمهوريون فى الستة شهور الأولى كانت عندما أقلع من عمان تشكيل من المقاتلات الأردنية بهدف تعزيز قوات الإمام ، وطار إلى القاهرة حيث انضم الطيارون فى الحال إلى المصريين ..

هكذا لم تمض ثلاثة شهور على قيام الثورة اليمنية حتى أدرك عبدالناصر أن تعهده للسلال سوف يورّطه فى حملة أطول أمدا مما كان يتوقع ، فقد كانت مساندة السعودية للملكيين ، طبقا لتقديره للموقف ، أكثر فعالية من أى مساعدة يستطيع الجيش المصرى أن يقدمها للسلال ، وإن كان مرد ذلك إلى عامل القرب وحده ، وبدأ عبدالناصر يفكر فى أن مبادرة مصر بالانسحاب من اليمن ، بشرط موافقة السعودية والأردن على سحب قواتهما أيضا ، سوف لا تلحق أى ضرر بالثورة بل قد تؤدى ، بمراعاة كل الاعتبارات ، إلى مساعدتها وكانت هذه ، ولا شك ، وجهة نظر كل رفاق عبدالناصر فى الحكومة تقريبا ..

هذا فضلا عن أن السلال قد بدأ يكشف عن مواطن ضعف خطيرة فى شخصيته كزعيم وطنى ، فلم تكن لديه لسذاجته التامة أى دراية أو تجربة سياسية

ولأنه لم يظهر أى دلائل على قدرته على توطيد أقدامه كحاكم مستقل نزع إلى الاعتماد كليا على مساندة مصر ، والحقيقة إنه لم يكن ، فيما يبدو يرغب ، فحسب، بل كان أيضا متلهفا فى أن يضطلع المصريون بإدارة شئون اليمن ، بينما يقوم هو بدور نائب عبدالناصر ، وعندما تم التوقيع على ميثاق الوحدة الثلاثية الفاشلة ، بعد سبعة شهور من ثورة اليمن ، اغتنم الفرصة لكى يتخلص من مسؤولياته وبادر بطلب الانضمام الى الوحدة الجديدة ، ولافتقار السلال إلى خلفية قبلية لم يكن لديه أى معرفة بالسكان خارج المدن ، وما كان رجال القبائل اليمنية ليقبلوا إطلاقا أن يكون السلال حاكما لهم ، ولو لم يتعهدوا بتأييد الإمام كذلك لم يظهر أى قدرة على العمل مع رفاقه من الثوار فقد اختلف فى غضون بضعة شهور من استيلائه على السلطة مع نائبه عبدالرحمن البيضانى الذى فر إلى عدن تطارده تهمة الخيانة ..

ولما واجه احتمال أن يطول أمد الحملة ، وهو احتمال بغيض ، فى مساندة مثل هذا الحليف المرهق ، اقترح عبدالناصر فى ديسمبر عام ١٩٦٢م انسحاب القوات المصرية من اليمن بشرط أن تتوقف مساعدات السعودية والأردن للملكيين، لكن الأمير فيصل على الرغم من كل الآمال التى علقها عبدالناصر عليه من قبل لم يكن آنذاك يقل عن أخيه سعود كراهية لفكرة إرضاء المصريين ، فضلا عن إنه كان المسؤول عن الحكومة السعودية عندما رفضت قبول الكسوة المصرية للكعبة فى مكة وساعد على إشاعة جو من عدم الترحيب بالعمال المصريين أدى الى أن غادر معظمهم البلاد بل إنه وضع العراقيل فى طريق الحجاج المصريين المتجهين إلى مكة بإصراره على ضرورة أن يؤدوا الرسوم بالعملات الصعبة ، وتضافر مع حسين ملك الأردن فى محاولة لنقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة للقضاء على ما كان يعتبره نفوذا مصريا كبيرا ، ومن ثم لم يكن محتملا أن يبدى فيصل استعدادا للسماح لعبدالناصر بالخروج من الشرك الذى أوقعه فيه تدخله فى اليمن ..

وفيما خلا ذلك صدم كل من فيصل وحسين باعتراف الأمريكيين بنظام حكم السلال بشرط واحد هو أن يعيد تأكيد التزام اليمن بالمعاهدات التى عقدتها ، وشعرا بأنه كان ينبغى على واشنطن أن تمتنع عن الاعتراف بنظام حكمه مثلما فعل البريطانيون حتى وإن كان ذلك الامتناع نابعا من الرغبة فى عدم تشجيع انتشار

فكرة الثورة إلى أقاليم عدن المجاورة ومحميتها فى الداخل ، وعلى ذلك صمم الملكان على أن يوضحا للأمريكيين مدى حماقة تصرفهم قبل الأوان وحكمهم بالقضاء على الملكية في اليمن ، ومع ذلك فكلما ازدادت الجهود لسحق الجمهوريين فى اليمن كلما تزايدت محاولات واشنطن لتحقيق تسوية سلمية، ذلك أن الرئيس كيندى لم يكن تواقا إلى القضاء على أى أسباب قد تؤدى إلى احتكاك بين أمريكا ومصر فحسب وإنما كانت السفارة الأمريكية فى الرياض تخشى أيضا أن يخلق تورط السعودية فى اليمن لفترة طويلة متاعب داخلية قد تعرض الملكية للخطر وبالتالى تهدد المصالح البترولية الأمريكية ..

ومن ثم عرض كيندى بعد انقلاب السلال بشهرين وساطة أمريكا لوقف القتال فى اليمن، وأوفد ممثلا خاصا من واشنطن لكى يحاول إقناع فيصل بقبول العرض الذى لم يهتم به فيصل أو الإمام، ولم يتحمس لهذه الفكرة من بين الأطراف المعنية سوى السلال وعبدالناصر ، وعندما رفض طلبه تخلى كيندى عن محاولة إحلال السلام وترك هذا الدور للأمم المتحدة ، ورغم أن السعوديين أعلنوا فى ذلك الوقت التعبئة العامة بين قواتهم فإن الدكتور رالف بانتش السكرتير العام للأمم المتحدة لم يصل إلى اليمن إلا فى مارس ١٩٦٣م أى بعد أربعة شهور من فشل مبادرة الرئيس كيندى فى بعثته لتقصى الحقائق ولم يصل أول فريق من مراقبى الأمم المتحدة إلى مسرح الأحداث إلا بعد انقضاء أربعة أشهر أخرى ، وفى هذه الفترة وبينما كان القتال العنيف مستمرا بقصف سلاح الطيران المصرى لمناطق من اراضى السعودية بحجة أن قوات الإمام تلجأ إليها واصل السعوديون زيادة إمداداتهم ومساعداتهم للملكيين اليمنيين ، ولما وصل مراقبو الأمم المتحدة إلى ميدان العمليات كان ارتباط فيصل والإمام ونضالهما المشترك ضد الجمهوريين أبعد من أن يتيح فرصة لبعثة الأمم المتحدة ..

وينتهى الكاتب إلى القول بعد أن يعدد الكثير من الأسباب والمواقف والهزائم والانتصارات لهذا الطرف أو ذاك فى تلك الحرب ، أن طرفا آخر واجه مصاعب سياسية وعسكرية وطلب نجدة مصر ، قال :

لم تكن اليمن فى ذلك الوقت بالمشكلة الوحيدة التى واجهت عبدالناصر ففى شهر أكتوبر من عام ١٩٦٣م تلقى استغاثة عاجلة طالبة مساعدة عسكرية ، من

صديقه بن بيللا الذى تورط فى صدام خطير مع المغرب حول منطقة من الصحراء تقع على الحدود كان الفرنسيون قد منحوها للجزائر وظلت المغرب تطالب بها منذ فترة طويلة ، ولعدم وجود تشكيلات مدرعة فى جيش كان لايزال مجهزا إلى درجة كبيرة على غرار قوات حرب العصابات التى حاربت الاحتلال الفرنسى ، لم يستطع الجزائريون مقاومة القوات المغربية الأفضل تسليحا عندما تحركت للاستيلاء على المنطقة المتنازع عليها ، لذلك ناشد بن بيللا القاهرة أن تساعده ، وعلى الرغم من مخاوف عبدالناصر من أن يتورط فى معارك أخرى طويلة المدى فإنه استجاب على الفور ، وعلى الرغم من عدم قدرته على الاستغناء عن اى قوات فقد جهز عدة شحنات من الدبابات أرسلت إلى الجزائر بسرعة وكفاءة رائعتين بالنسبة للجيش المصرى ، ومن حسن حظ الجزائريين أن هذه الشحنات وصلت فى الوقت المناسب ، مما مكنهم من الصمود فى مواقعهم حتى بدء المفاوضات ، وعلى هذا الأساس سرعان ما توصل الطرفان إلى حل وسط .. انتهى) (١١٤) .

يلاحظ أن التطورات خلال هذه الفترة قد تصاعدت ، وهى ربما كانت جميعها تستهدف تطويق مصر وإفشال مشاريع جمال عبدالناصر ، فهذه حرب اليمن وقد اشتركت قوى متعددة عسكريا وسياسيا وماليا وتسليحيا فيها ، وهذه الحرب على الحدود بين الجزائر والمغرب والتى كان عبدالناصر إضافة إلى اليمن يساند فيها عسكريا الجزائر كما ذكر أعلاه ، وعلى حدوده الشمالية كان هناك توفر شديد يؤججه عدد من الضباط الذين فصلوا الوحدة مع مصر وفى شرقه هناك إسرائيل وقد بدأت فى تنفيذ مشروعها القاضى بتحويل مياه نهر الأردن إلى النقب وقد تصادمت قواتها مع قوات الحدود السورية عندما حاولت القوات السورية أن تمنع التحويل ، ورغم الجرح الذى أحدثه الانفصال فى قلب جمال عبدالناصر فقد أمر بإعلان حالة الطوارئ بين قواته من أجل مساعدة سوريا إذا ما تطورت الحرب بينها وبين إسرائيل ، وتحرك العراقيون عارضين مساعدات عسكرية على سوريا كنوع من المزايدة على عبدالناصر ذلك أن البعث فى العراق وفى سوريا لم يتفقوا

(١١٤) كتاب ناصر - أنتونى ناتنج - ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

فى أى يوم من الأيام على موقف واحد بل إن كليهما كان يحاول الإطاحة بالآخر، وهكذا نرى أن جبهات ومعارك كثيرة انفجرت فى وقت واحد بحيث لا يمكن لمراقب أن يتصور أنها بمحض الصدفة قد جاءت في ذلك الوقت ، فالانفصال وقد جاء مباشرة فى وقت باشرت فيه إسرائيل تنفيذ مشروعها القاضى بتحويل نسبة ٧٥٪ من مياه نهر الأردن ، والجزائر وقد خرجت مثخنة بجراحها إثر حرب التحرير وقد تواجهت مع الجيش المغربى على الحدود بين البلدين ، والسعوديون والأردنيون وقد كشفوا مساعداتهم وتدخلهم ضد الثورة اليمنية ، والبعثيون العراقيون وقد وجدوا الفرصة ليشمتوا فى عبدالناصر وخلافهم معه قديم ، الخلاصة لقد كانت كل القوى المعارضة لنظام جمال عبدالناصر ، والشامتة عليه بسبب تدخله لنصرة ثورتى اليمن والجزائر ، وهى أى القوى المتحفزة للقفز على أكتاف جمال عبدالناصر بحيث تعلن شماتتها وربما انتصارها قد تجمعت وهى محلية داخل مصر نفسها وعربية وأجنبية ،كانت تريد له أن يغرق فيما أسموه مستنقع لن يخرج منه ، وحدث أنه باتفاق بين الأطراف العربية (السعودية والأردن علنا) وبعض العرب الآخرين سرا اتفقوا مع الولايات المتحدة الأمريكية على تجنيد المرتزقة من كل مكان للقيام بحملة تكسر ظهر جمال عبدالناصر (حسب تعبيرهم) حتى تستريح المنطقة منه،ولكن ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران : ١٣] وهكذا كلفت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) أحد رجالها المغامرين (وهم جميعا مغامرون) كى يتولى عملية حرب العصابات فى اليمن بالتنسيق مع قوات الملكيين (سعوديين وأردنيين ويمنيين) وكما نرى اليوم فى العراق الجريح حيث جاءت وزارة الدفاع الأمريكية فى عهد بوش الابن بشركة أمريكية متخصصة فى تجنيد المرتزقة تسمى (بلاك ووتر) حتى تعبث بكل شئ فى العراق بما فى ذلك الناس ولقد جندت كما أعلن هذا اليوم فى كل وكالات الأنباء (أكثر من خمسة وعشرين ألفا من المرتزقة يعيثون فسادا فى هذا البلد العربى المسلم الذى نكب بالتدخل العسكرى الأمريكى المتعاون مع بعض العملاء المحليين فى العراق ، وهذا العبث باستخدام المرتزقة كما حدث سابقا فى اليمن يتكرر الآن بعد قرابة نصف قرن من الزمان ، وتذكر بعض المصادر أن الثورة فى اليمن لم تكن من صنع مصر ذلك أن أحداثًا كثيرة كانت قد وقعت

في هذا البلد حتى قبل الثورة المصرية التى تتهم بأنها وراء كل الثورات فى العالم الثالث (على أن بعض المؤرخين لأحداث اليمن اختلفوا فى نظرتهم بشكل خاص لثورة السلال وما إذا كانت بترتيب مصرى) وهذا ما سنأتى إليه فيما بعد ..

وعلى أى حال فإن مصر على الرغم من ظروفها الاقتصادية وقد كلفتها هذه الحروب كثيرا فهى لم تتخل ولا تأخرت عن عون الذين لجأوا إليها طلبا لنجدة الحق ، ولقد انتهزت الأقلام المأجورة بعض الصعاب فى الجانب الاقتصادى لتشن حملات شعواء علي عهد عبدالناصر حيا أو ميتا معتبرة تدخله فى اليمن والجزائر وغيرهما مغامرات لا طائل منها وقد أفقرت مصر ، فإذا تعطل خط هاتفى قالوا بسبب حرب اليمن ، وإذا توقفت حافلة بسبب عطل فنى قالوا ذلك بسبب حرب اليمن ، وإذا رأوا حشدا من الناس أمام أى جمعية استهلاكية قالوا إن ذلك بسبب حرب اليمن ، وكانت فرصتهم الذهبية عندما تولى الحكم بعد عبدالناصر رجل فتح الأبواب على مصاريعها لكل من هب ودب فى الداخل أو الخارج للهجوم على كل عهد جمال عبدالناصر ، والغريب أن أغلب الذين كانوا يطبلون ويزمّرون ليلا ونهارا لعبدالناصر وثورته هم الذين بدّلوا جلودهم وصاروا يحملون معاول الهدم ، وهم الذين يصدق عليهم قول الله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٨] ولعله من المفيد أن نعرج قليلا على اليمن مرة أخرى لنرى كيف كانت الأمور وهل هناك ما يبرر تهجمات المتربّصين ثم كيف كانت نتائج التدخل العسكرى المصرى خصوصا إذا علمنا أن الثورة السابقة والتى حدثت سنة ١٩٤٨م لم تعش إلا أقل من شهرين إذ لم تجد نجدة ولا مساعدة وقتذاك ؟ فلقد كانت هناك محاولات لتغيير الوضع القائم والمعقد ، فنظام الإمامة مختلف إلى درجة أن كلمة تختلف لا تكفى لوصفه، ومعقد جداً لوجود جيوش مختلفة بنظم مختلفة وقبائل مسلحة وعادات غريبة ، يصفها الأستاذ حمروش فى موسوعته (قصة ثورة ٢٣ يوليو) كما لى :

(انقلاب سنة ١٩٤٨ الذى قتل فيه الإمام يحى وتولى بدلا منه عبدالله الوزير شارك فيه كما ذكرنا الضابط العراقى جمال جميل والضابطان اليمنيان عبدالله السلال وحسن العمرى ..

واسترداد الإمام أحمد للعرش بعد ٢٥ يوما من الانقلاب تم بعمل عسكرى حوصرت فيه صنعاء حصارا تاما بعد أن تم التجمع فى حجة ، واعتمد أحمد فى ذلك على الجيشين (المظفر والبرانى) وفى مطلع الخمسينات بدأت تنشأ تنظيمات حزبية معارضة للاحتلال فى جنوب اليمن مثل حزب رابطة أبناء الجنوب والجمعية اليمنية الكبرى وحزب الأمة والحزب الوطنى ، وهى أحزاب كانت تتطلع إلى استقلال ولو شكلي للمحميات ، ويقتصر نشاطها على عدن وحدها ..

كما ظهرت فروع لحزب البعث العربى الاشتراكى ، ولحركة القوميين العرب ، ثم أطلق فرع البعث على نفسه اسم حزب الطليعة الشعبية ..

وكانت ثورة ٢٣ يوليو قد فرضت نفسها على الأمة العربية ، ووجد الإمام أحمد فيها سندا له ضد الوجود البريطانى فى الجنوب ، فطلب بعثة عسكرية مصرية تواصل نشاط البعثة العسكرية العراقية التى صادرها بإغلاق المدرسة الحربية وقتل جمال جميل بعد فشل انقلاب سنة ١٩٤٨م، ورأس هذه البعثة اليوزباشى أحمد كمال أبوالفتح الذى كان من قوة المخابرات ثم أصبح محافظا للقيوبية فيما بعد ، وكانت معه بعثة أيضا من ضباط الشرطة المصريين ..

لم تحاول هذه البعثة القيام بأى نشاط سياسى ، فلم يكن من أهداف الثورة المصرية فى سنواتها الأولى الاهتمام بواقع الدول العربية اهتماما كبيرا ، وكان التركيز على تحقيق الجلاء عن مصر ، ومقاومة الضغوط الاستعمارية لإنشاء أحلاف عسكرية فى المنطقة ..

ومضت أحوال البعثة هادئة ، ويقول أحمد كمال ابوالفتح إنهم قد أقاموا علاقات طيبة مع اليمنيين واكتسبوا ثقة الإمام نسبيا ، وفى مصر دخلت الكلية الحربية أول بعثة يمنية عام ١٩٥٢م من الطلبة الذين حضروا للتعليم منذ عام ١٩٤٨م قبل الثورة ، وتخرجت أول دفعة فى الكلية عام ١٩٥٥م ، وعقب توقيع اتفاقية الجلاء وبدء النشاط المصرى فى الدول العربية وزيارة صلاح سالم لسوريا وتوقيع اتفاقية الجيش فى مارس ١٩٥٥م زار اليمن ورقص مع القبائل رقصتها التقليدية كما فعل فى السودان ، وخلال هذه الفترة كانت تتصارع الاتجاهات السياسية وتصطدم المصالح الإمبريالية ، وبرز دور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة

عالمية رئيسية ، وانتهزت فرصة الحياة الرجعية التى يفرضها الإمام أحمد على اليمن فشجعت انقلابا ضده من عناصر من داخل الأسرة المالكة فقام الأمير سيف الإسلام عبدالله بمحاولة انقلاب على شقيقه الإمام أحمد بالاشتراك مع المقدم أحمد يحى الثلايا أول ضابط يمنى تخرج فى الكلية الحربية العراقية ..

ويقول محمد حسنين هيكل فى كتابه : (عبدالناصر والعالم) إن الإمام أحمد قد روى لعبدالناصر قصة إحباطه للانقلاب عندما شاهد وهو محاصر فى قصره حارسا يفتش إحدى جواريه فصاح (والله لن تفتش النساء مادام الإمام حيا) وقفز على صهوة جواد وفى يده مدفع رشاش أخذ يطلقه من برج القصر ، ولما شاهده الناس أخذوا يهتفون (انتصر الإمام .. انتصر الإمام) وفعلا وبعد أن نشرت جريدة الأخبار فى صدر صفحتها الأولى يوم ٣ أبريل ١٩٥٥ مانشيت يقول (تنازل الإمام أحمد عن العرش) انقلب الحال مرة أخرى وانتصر الإمام أحمد وقتل شقيقه عبدالله والعباس ومعهما المقدم أحمد يحى الثلايا الذى كان منضما لتنظيم اليمنيين الأحرار ..

وسافر حسين الشافعى عضو مجلس قيادة الثورة إلى اليمن لتهنئة الإمام بنجاته حرصا على بقاء العلاقات الودية بين الدولتين لما أشيع فى ذلك الوقت من أن الضباط الثائرين كانوا على صلة بمصر ..

ولكن أحمد كمال ابوالفتح ينفى ذلك ويقول لأنه كان حريصا أشد الحرص على خلق علاقات ودية مع الجميع دون تشجيع أحد على الثورة أو الانقلاب فى بلد عاش فيها سنوات ثم خرج منها وهو مازال تائها فى علاقات أهلها المتشابكة على حد قوله ..

وفى عام ١٩٥٧ ذهبت بعثة عسكرية مصرية برئاسة العقيد حسن فكرى الحسينى مشكلة من خمسة ضباط وبعض ضباط الصف وكان عملها مقصورا على التدريب العسكرى ، فقد كان رئيس البعثة ضابطا ليست له خلفية سياسية بينما كانت مصر موضع انبهار الدول العربية جميعا عقب تأميم قناة السويس ، ومقاومة العدوان الثلاثى وإجبار القوات المعتدية على الانسحاب بضغط حسابات سياسية ناجحة ، وكان جمال عبدالناصر قد أصبح شخصية لامعة تجذب الاهتمام واحترام

الملايين من أبناء الأمة العربية ، حتى فى اليمن ، حيث كان الناس مازالوا يعيشون حياة بعيدة عن حضارة العصر ..

ولذا فإنه ما إن تحققت الوحدة مع سوريا حتى بادر الإمام بطلب الانضمام لها وأعلن الاتحاد بين مصر وسوريا واليمن سنة ١٩٥٨ . ويقول حمروش عن تطورات الموقف فى اليمن ما يلى :

اقتراب مصر من اليمن حمل إليها بعض عناصر الحضارة ، وعلى سبيل المثال فإن الضباط اليمنيين الذين دخلوا الكلية الحربية المصرية درسوا وتدربوا على الأسلحة السوفيتية التى كانت قد بدأت ترد الى القوات المسلحة المصرية بعد صفقة الأسلحة المعروفة باسم التشيكية عام ١٩٥٥ ..

وتدارس هؤلاء الضباط فى شئونهم وانتدبوا أحدهم وهو (عبدالله جزيلان) ليعود إلى اليمن والاطلاع على ظروفها بعد فترة دراسة طويلة فى لبنان ومصر غاب فيها عن وطنه ..

وعندما ذهب جزيلان إلى اليمن وجد فى الجيش اليمنى أسلحة لا يعرف عنها شيئا ، ووجدهم فى اليمن لا يعرفون شيئا عن الأسلحة التى تدرب عليها فى مصر ، واضطر إلى الخروج هاربا من اليمن عن طريق عدن ليطلع زملاءه من الضباط على هذه الحقيقة ..

ولكن الأمور تطورت ففى سنة ١٩٥٧ أعيد افتتاح المدرسة الحربية وتولى قيادتها العميد حمود الجائفى ، وانتهت الأمور إلى اتفاق الإمام مع السوفييت عام ١٩٥٧ على توريد أسلحة لليمن وإيفاد بعثة عسكرية سوفييتية للتدريب عليه ، ووصلت البعثة فعلا إلى صنعاء وافتتحت مدرسة للأسلحة بدأ تدريب اليمنيين فيها على أسلحة متطورة مثل الرادار والمدرعات وصيانة هذه الأسلحة ..

ولم تكن هناك صلة بين البعثة العسكرية المصرية والبعثة العسكرية السوفييتية ، الأولى كانت لتنظيم الجيش وتدريبه والثانية كانت للتدريب على الأسلحة فقط ..

ويقول عبدالله جزيلان أنه عندما حدث النزاع المصرى السوفييتى عام ١٩٥٩ طلب العميد حسن فكرى الحسينى إبعاد السوفييت ولكن جزيلان طالب بإبقائهم فرفع حسن فكرى تقريرا إلى البدر يتهم فيه الضباط اليمنيين بالشيوعية ،

ولكن البدر لم يأخذ التقرير مأخذ الجد لأنه كما يقول جزيلان كان يسخر من المظاهر العسكرية التى كان حسن فكرى يتظاهر بها ويريد أن يفرضها على الضباط اليمنيين ، وكثيرا ما تندر عليه فى مجالسه ..

ونبتت منذ ذلك الوقت بعض الخلافات بين البعثة المصرية والضباط اليمنيين، وصلت إلى حد التصادم المكشوف بين حسن فكرى وجزيلان ، عندما تكاسل صف ضابط مصرى عن تعظيم ضابط يمنى ، فأمر جزيلان ضباط الصف اليمنيين بألا يعظموا حسن فكرى قائد البعثة المصرية ، وحدث عندما ذهب الإمام أحمد إلى روما للعلاج خلال عام ١٩٥٩ أن قامت حركة تمرد داخلى ومحاولة انقلاب قبلية تستهدف إعلان جمهورية رأسها فعليا الشيخ حسين بن ناصر الأحمر ، وكانت الحركة مساندة من الأحرار اليمنيين ..

وتصادف خلال هذه الفترة أن كانت مصر قد أرسلت أعدادا من العسكريين تزيد عن العدد المقرر للبعثة وذلك بناء على طلب البدر الذى كانت تربطه علاقة طيبة مع القاهرة ، وذلك لحماته فى حالة موت الإمام وذلك بذر الشبهات فى صدر الإمام أحمد ويقال أنه احتج لدى جمال عبدالناصر أثناء مقابلته له خلال عودته من روما بحرا فى قناة السويس ، وعندما وصل إلى الحديده عامل ابنه البدر بقسوة، وأعاد إلى مصر كل الذين وصلوا فوق العدد المقرر للبعثة ..

ويقول الدكتور البيضانى لأن الإمام كان قد وصل فى هذه الفترة الى درجة من التوتر جعلته يأمر بإعدام أربعة من جنود الحرس الإمامى لأنهم جرأوا على المطالبة بمرتباتهم المتأخرة أو السماح لهم بالاستقالة ..

وفى السادس من مارس ١٩٦١ قام الملازم عبدالله اللقيه والملازم محمد بن عبدالله العلفى بمحاولة اغتيال الإمام أحمد فى الحديدة ، وأصيب الإمام ولم تنجح المحاولة ، وكان العميد عبدالله السلال قائدا لميناء الحديده فى ذلك الوقت ..

وشكل الإمام محكمة لمحاكمة الضباط الذين كانوا مثالا للشجاعة والسرية ، وصدر الحكم بالإعدام على الضابطين اللذين أعدما علنا ، بقطع الرأس فى ميدان الشهداء ..

وهكذا اقتربت الفترة الزمنية بين محاولات الانقلاب أو الاغتيال المتعددة وتجمعها جميعا ظاهرة واحدة هى أن الذين يقومون بالتدبير والتنفيذ هم العسكريون ..

والنقمة على النظام الإمامى وعلى الإمام أحمد بالذات تزداد وتشتد ويلاحظ أن عددا كبيرا من أئمة اليمن على امتداد حكم استمر ما يقرب من ١١٠٠ عام قد ماتوا قتلى من جور الظلم والاستبداد، قتل ١٨ إماما منذ القرن الرابع الهجرى ..

كانت هذه هى الحال فى اليمن ..

وكانت الأوضاع العربية تتغير أيضا ..

العلاقات بين مصر والسعودية تحولت إلى جفاء وعداء بعد اكتشاف محاولة الملك سعود لضرب الوحدة عن طريق رشوة عبدالحميد السراج الذى أبلغ جمال عبدالناصر بذلك ..

الحكم العسكرى فى السودان أحاطتها بعزلة شديدة عن الدول العربية المتحررة وخاصة الجمهورية العربية المتحدة ..

الخلافات بين مصر والعراق تزداد يوما بعد يوم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء جمال عبدالناصر وعبدالكريم قاسم ..

اتحاد الدول العربية (مصر وسوريا واليمن) الذى وقّع ميثاقه بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة فى فبراير ١٩٥٨ تحول إلى اتحاد شكلى ليس له مضمون حقيقى ..

وبعد الشكوك التى نمت فى صدر الإمام أحمد أثناء وجوده فى روما وحدوث المحاولة الانقلابية فى اليمن وإبعاد العسكريين المصريين الزائدين إلى مصر ، حدث الخلاف المعروف بين العراق والكويت فى شهر يونيو ١٩٦١ عندما طالب عبدالكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق فور إعلان استقلالها باعتبارها كانت ولاية تابعة للعراق فى عهد العثمانيين .

ولم يقف الإمام أحمد مع جمال عبدالناصر فى موقفه المضاد لعبدالكريم قاسم ، بل أظهر تعاطفا مع موقف العراق ..

وعندما أعلنت القوانين الاشتراكية فى الجمهورية العربية المتحدة يوليو ١٩٦١ زادت حساسية الإمام من مصر ، وكتب قصيدة شعرية هزلية هاجم فيها مصر والاشتراكية ..

وقررت مصر سحب بعثتها العسكرية فعادت فى سبتمبر ١٩٦١ بعد حوالى ثمانى سنوات قضتها هناك ، وعاد أيضا الضباط وطلبة الكلية الحربية اليمنية إلى بلادهم ، وجاءت محل البعثة العسكرية المصرية بعثة عسكرية أردنية ، وهدأت الخلافات بين اليمن والسعودية ، ومع ذلك فإن البعثة العسكرية السوفينية التى كانت تشرف على مدرسة الأسلحة موجودة تواصل عملها فى هدوء ، ودون محاولة للتدخل فى الشئون الداخلية الغامضة والوعرة معا ..

ويقول اللواء الحديدى مدير المخابرات الحربية فى ذلك الوقت إن العلاقات بين مصر واليمن كانت ضامرة تماما خلال هذه المرحلة فلم تعد هناك بعثة عسكرية، والسفارة فيها عدد محدود من الموظفين فى تعز ، والسفير غائب مسحوب فى مصر ، وعدد المصريين فى اليمن قليل ..

وقد أدى التوتر بين اليمن ومصر إلى اشتعال رغبة اليمنيين الأحرار فى مقاومة نظام الإمامة الرجعي المتخلف ، وبدأت تتشكل محاولة الانقضاض عليه استمرارا للمحاولات السابقة التى بدأت فى الأربعينيات وظلت تتكرر بلا توقف، ولكن البيضانى استطاع أن يعقد صلة مع أنور السادات وكان رئيسا لمجلس الأمة فى ذلك الوقت ، وكتب أنور السادات مذكرة إلى جمال عبدالناصر بالتوقعات المحتملة فى اليمن ، فأصدر الرئيس عبدالناصر قرارا بتكليف أنور السادات بأن يكون مسؤولا سياسيا عن هذه العملية ..

واستدعى أنور السادات إليه أمين هويدى وكان وقتها قد عين سفيرا فى المغرب ، وقابله فى منزله بالهرم بحضور عبدالرحمن البيضانى ، وطلب منه أن يعد نفسه لتولى المسؤولية التنفيذية لعملية اليمن ، واستمر الاجتماع حتى الثالثة بعد منتصف الليل ..

ويقول أمين هويدى أنه طلب مقابلة السادات فى صباح اليوم التالى ليبلغه أن إنشاء جهاز خاص لهذه العملية يعتبر نوعا من الازدواجية حيث يتوافر لدى المخابرات العامة تنظيمات خاصة لمثل هذه العمليات ..

والواقع أن علامات استفهام كثيرة كانت تلاحق عبدالرحمن البيضانى ، فهو رجل شديد النشاط، كانت له صلات وثيقة بالطلبة اليمنيين فى الخارج خلال الخمسينات ، درس فى مصر وتخرج فى الجامعة ثم حصل على الدكتوراه من

بون، وعمل بها وزيرا مفوضا ، ثم نقل الى الخرطوم بعد أن اعتذر عن عدم العمل مدعيا عاما فى محاكمة ثوار ١٩٥٩ وأستدعاه الإمام إلى اليمن ، وعندما شعر أن يد القصاص تقترب منه هرب عام ١٩٦٠ على طائرة مصرية ..

ويقول البيضانى أنه انضم لتنظيم الأحرار اليمنيين وعندما تمت الانتخابات أصبح أحمد النعمان رئيسا للاتحاد ومحمد محمود الزبيرى والدكتور عبدالرحمن البيضانى نوابا للرئيس ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهم حول استراتيجية المعارضة ، فهم كانوا قد اتفقوا على السعى لذلك الارتباط بين مصر واليمن المتمثل فى الاتحاد ثم يتم البحث بعد ذلك فى مصير الإمامة ..

ولكن ما أن أعلن عبدالناصر حل الاتحاد مع اليمن فى خطابه ببورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ حتى فرض الخلاف حول مصير الإمام نفسه فورا ، وأصدر النعمان قرارا فى بداية يناير ١٩٦٢ بإقالة البيضانى باعتباره طائفيا خطيرا (يريد أن يعالج وباء فى بلد بإلقاء قنبلة ذرية عليه) ولكن الدكتور البيضانى لم يبتعد عن ميدان السياسة ، كانت صلته قد توطدت بأنور السادات رئيس مجلس الأمة فى ذلك الوقت بعد تعارفهما فى بون ..

وكانت له صلات قديمة ببعض الثوار أيضا داخل اليمن وخارجها ، وعندما أشيع خبر الانقسام وانتشر خبر إقالة البيضانى حضر وفد من حركة الأحرار اليمنيين إلى عدن ، والتقى المتخاصمون لنقاش جديد مرة أخرى ..

ويقول الدكتور البيضانى أنهم قد اجتمعوا فى كازينو النهر بجزيرة الزمالك واتفقوا على جمع الشمل وإعادة الوحدة للاتحاد اليمنى وإلغاء قرار إقالة البيضانى ، ووقعوا جميعا وثيقة تتضمن يأسهم من النظام الإمامى وضرورة إقامة نظام جمهورى ..

أذيعت هذه الوثيقة من صوت العرب ، ولكن مضمونها لم ينفذ طويلا ، كانت القاهرة من خلال أنور السادات قد صرحت للدكتور البيضانى بأن يذيع من صوت العرب مساء كل إثنين وخميس مقالات أوصى السادات بأن تظهر فى روزاليوسف ، وكانت بداية هذا النشاط محاضرة ألقاها البيضانى فى دار نقابة المحامين يوم ٢٠ يناير ١٩٦٢ وحدثت فيها مشادة بينه وبين محمد أحمد النعمان ابن رئيس الاتحاد اليمنى ..

كانت مقالات البيضانى وإذاعاته فى صوت العرب عوامل إثارة حقيقية ضد النظام الإمامى ، وساعد على انتشارها الراديو الترانسيستور الذى كان يصل إلى اليمنيين فى أبعد بقاع الصحراء (يذكر أن القوات المصرية عندما دخلت اليمن بعد الانقلاب قد وزعت مائتى ألف جهاز راديو ترانسيستور مجانا) .

ولقد بدأت خيوط المقاومة تتجمع ضد الإمام بين المدنيين والعسكريين فى الداخل والخارج ، وانتهاء الحساسية من وجود علاقات طيبة بين مصر واليمن أدى إلى مضاعفة السير فى طريق الثورة ، وكان هناك نوع من الارتباط بين المدنيين والعسكريين ، فقد أسهم على سبيل المثال بعض التجار فى التبرع بالأموال سرا والمساعدة فى الإمداد بالأسلحة ، وليست هناك فروق حادة واضحة بين المدنيين والعسكريين فى اليمن ..

تظاهر الطلبة فى يوليو ١٩٦٢م :

وخلال هذه الفترة كان كثير من العسكريين اليمنيين يصلون إلى مصر ويتصلون بالقادة اليمنيين فيها ومنهم طيار الأسرة المالكة عبدالرحيم عبدالله الذى أصبح بعد الثورة سفيرا لليمن فى مصر ، ومحمد قائد سيف ، ولم يكن هناك طيارون عسكريون فى اليمن فى ذلك الوقت ، وكانت هناك صلة وثيقة قد بدأت بين العسكريين فى مصر والقادة اليمنيين ، كانت المخابرات الحربية فى مصر قد أعدت معسكرا لتدريب اليمنيين على الأسلحة الصغيرة ، وكان من بينهم الدكتور عبدالرحمن البيضانى كما يقول الفريق صلاح الحديدى الذى كان يتسلم الأسلحة أيضا ويقوم بترحيلها إلى اليمن ..

ولم يكن البيضانى هو حلقة الاتصال الوحيدة ، كانت هناك اتصالات أيضا بين العسكريين اليمنين والعسكريين المصريين الذين ربطتهم علاقات زمالة أثناء دراستهم فى مصر ..

وتدفقت الأسلحة المصرية الصغيرة سرا إلى اليمن ، ذلك أن الإمام كان يحتفظ عنده بمفاتيح مخازن الذخيرة ويترك الأسلحة جامدة فى العراء حتى يأكلها الصدأ وتعبث بها الفئران ، ويقول عبدالرحيم عبدالله طيار الأسرة المالكة الذى لعب دورا كبيرا فى نقل الأسلحة إن السلاح الجوى على سبيل المثال كان مكونا

من ١٠ طائرات ياك و ٣٥ طائرة ليوشن صغيرة ، ولكنها جميعا غير مصرح لها بالطيران ، ..) (١١٥) .

وظلت هذه الاتصالات سرية وفى أضيق الحدود ، لا يعرفها إلا جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأنور السادات وصلاح نصر وصلاح الحديدى قائد المخابرات الحربية فى ذلك الوقت ..

وكان المشير عبدالحكيم عامر مسؤولا عن المساعدات العسكرية ومناقشة تنفيذ الخطة ، وكان أنور السادات مسؤولا سياسيا ..

وبقيت هناك علامة استفهام كبيرة تحيط بموعد الثورة ضد الإمام أحمد ؟

ولكن القدر لحقه فتوفى يوم ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ وخلفه ابنه الإمام البدر ولى العهد ، ونتج عن هذه الوفاة المفاجئة انقسام فى الرأى ..

وكان البدر قد أرسل برقية إلى جمال عبدالناصر ينعى فيها والده يوم ٢٠ سبتمبر ، وكانت هذه مبادرة منه تشير إلى احتمال تحسن العلاقات بين الدولتين ..

واشتد ضغط اليمنيين ، النعمان والزبيرى فى اتجاه إقناع المسؤولين بالسير فى طريق التعاون مع البدر الذى تغاضى عن قسوة الإذاعات والهجمات التى وجهت لوالده ..

وأصدر جمال عبدالناصر قرارا بوقف الإذاعة والنشر ضد الإمام البدر أو معه ، وبلغ ذلك الدكتور عبدالرحمن البيضانى يوم ٢١ سبتمبر ..

وكان عبدالله جزيلان قائد الكلية الحربية فى صنعاء قد أرسل يطلب وقف إذاعات البيضانى لأنها تهاجم الهاشميين بينما ٨٠ فى المائة من ضباط الكلية وطلبتها المؤهلين للانقلاب كانوا من أتباع هذا المذهب ، وكان أحمد النعمان ومحمد الزبيرى قد اجتمعا فى منزل أمين هويدى بمصر الجديدة وكتب النعمان برقية إلى البدر ..

وقع البرقية أحمد محمد النعمان ورفض التوقيع محمد محمود الزبيرى . .

(١١٥) قصة ثورة ٢٣ يوليو – أحمد حمروش – ص٢١٠ .

وكان ذلك ترجيحا للرأى القائل باحتمال إصلاح النظام الإمامى ، وأسقط فى يد الدكتور عبدالرحمن البيضانى الذى استمر ثمانية شهور يكتب ويذيع مبشرا بالثورة ، ويقول إنه هرع الى أنور السادات يطلب توجيه إذاعة واحدة تكون هى الأخيرة للثوار المتربصين فى اليمن ، حتى لا يتصوروا أن الأمور قد انتهت بعد برقية عبدالناصر فى تعزية البدر ، وبعد برقية أحمد النعمان ..

وتصادف أن كان موعد هذه الإذاعة هو يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٦٢م ..

وفى ذلك الوقت كانت الأمور فى اليمن تتجمع فى سرعة إلى مصير جديد، وكانت غيبة الإمام أحمد قد فرضت على الثوار وخاصة العسكريين مسؤولية خاصة ..

كانت حالة الطوارئ معلنة فى اليمن قبل وفاة الإمام أحمد ، وكانت الأسلحة المصرية التى وصلت اليمن تعتبر كافية للحركة الانقلابية .. وبقى تحديد ساعة الصفر

يقول عبدالرحيم عبدالله أن ساعة الصفر كانت قد تحددت لتكون يوم ٢٣ يوليو حتى يعلن عبدالناصر خبر الثورة فى خطبته للجماهير ، ولكن الدكتور البيضانى يؤكد أنه لم يتم الاتفاق على ذلك ، ثم يقول عبدالله جزيلان إن برقية وصلت من القاهرة تطلب أن تكون ساعة الصفر هى موت الإمام أحمد ، وأنه قد رد على ذلك حسب قوله ، بأن ساعة الصفر لا تحدد إلا مرتبطة بالظروف القائمة فى اليمن ..

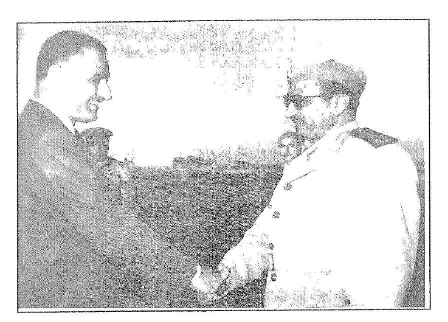
وكان تحريك القوات العسكرية للانقلاب يعتمد على الضباط اليمنيين أكثر مما يعتمد على غيرهم ، فقد أدت الإثارة دورها كاملا وبقى التنفيذ ..

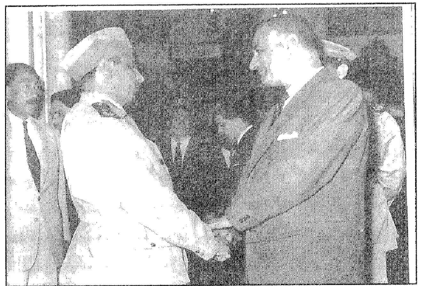
كان عدد محدود من الضباط قد بدأ يعقد اجتماعات لبحث الموقف والتأهب لاحتمالات المستقبل دون أن يأخذ ذلك شكل تنظيم ثابت مثل الضباط الأحرار فى مصر ..

وكان هناك اتجاهان بين الضباط ، فريق يؤيد البدر ، وفريق يؤيد الحسن ، بينما الثوريون يتأهبون لإقامة نظام جمهورى جديد ، ، وقد اجتمع الضباط الحاضرون على هذا الاتجاه الثورى، ونشط المقدم عبدالله جزيلان الذى كان مديرا لكل من الكلية الحربية ومدرسة الاسلحة ، وبدأ يقوم باتصالات مع الأسماء الكبيرة من الضباط لتحييدهم أو ضمهم .. انتهى .

وهكذا كانت الأحداث فى اليمن قبل الثورة مباشرة وإلى أن نجحت الثورة أو الانقلاب ، ويلاحظ أن هناك كما ذكرنا اختلاف كبيراً فى روايات الكتاب شهودا كانوا أم مراقبين عن بعد ، ونعتقد أن شهادة الأستاذ أحمد حمروش أقرب إلى الحقيقة من الروايات الأخرى كحالة الأستاذ سامى شرف الذى يؤكد أنه لا علاقة لثورة مصر بثورة اليمن قبل حدوثها ، لأن جميع الأدلة تبين أن القاهرة كانت على علم تام وهى تزود الضباط بالأسلحة والمعلومات سواء من خلال الإذاعات او أجهزة المخابرات ، ولقد ورد القول أن آخر برنامج إذاعى طلبه الدكتور البيضانى من أنور السادات كان يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٦٢ وحدث الانقلاب يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م وأنه أى البيضانى عندما طلب إذاعة آخر برنامج قال للسادات أنه لا يريد أن يعتقد الثوار أن برقية التعزية التى أرسلها عبدالناصر الى ولى العهد تعنى توقف العمل الثورى ..

على أى حال فقد قامت الثورة ونجحت ثم صمدت وتدعمت بتأييد ومساندة الجمهورية العربية المتحدة وبالتالى فقد تغير وجه التاريخ فى جزء من الوطن العربى ..





الرئيس جمال عبدالناصر بعد نجاح الثورة اليمنية واستقرار الأوضاع هناك وكانت هذه أول زيارة للقاهرة يقوم بها الرئيس عبدالله السلال عرفانا بالدور العظيم والمساندة التى قدمتها القاهرة .

وفى الصورة الثانية الرئيس عبدالله مع الرئيس جمال عبدالناصر ويرى السادات واقفا فى الجانب الأيسر خلف السلال باعتباره كان مسؤولا عن الجانب السياسى فى اليمن قبل الثورة ...

الهزيمة وما بعدها ١٩٦٧م ..

يقال إنه ليس للهزيمة آباء ، وإنما للنصر آباء كثر ، وهذه حقيقة ثابتة دائمة فلا أحد يود أن يكون أبا لهزيمة حتى لو كانت فى لعب الورق ، وخصوصا إذا كانت الهزيمة قد وقعت بعد قعقعة وصولات وجولات فى الهواء ، وإذا كان الناس قد اعتادوا على أن ينظروا إلى هرم ضخم بإعجاب وإكبار وفجأة إذا به كمشة من تراب ، ولهذا كانت الفجيعة لا مثيل لها التى حلت بالجيش المصرى فى ٥ يونيو ١٩٦٧م عندما لم يكن واردا على الإطلاق أن ينهزم جيش أساسه قائم على عقيدة سياسية قومية تسيطر على أفكار وعقول مئات الملايين من الناس بين المحيط والخليج يتباهون فى خيلاء به فى كل ركن من أرض العرب ، وكان دوى الفجيعة مدمرا حيث إنها جاءت كبرق خاطف وبلا مقدمات ولا تهيئة ، لم تحدث معارك فى ميادين الوغى لشهور أو سنوات ، وإنما هى حدث جعل الناس يقفون حيارى أذهانهم مشلولة وأفكارهم مشتتة بين مصدق ومكذب وشامت ، هل حقيقة تحطم وهزم الجيش الذى علّقت عليه آمال التحرير والعزّة ؟ وإلى أن شاهدوا تلك المناظر فى صحراء سيناء التى تدمى القلوب آليات فى طوابير ممتدة على طول النظر مدمرة ومحروقة ، آلاف من الجنود بين تائه فى الصحراء وبين ممدود على الأرض تحت حراسة نساء إسرائيليات مجندات ! وقبل أن تظهر الهزيمة كان الإنسان العربى يحلق فى السماء بسبب ما يعلنه الإعلام العربى ، أسقطنا عشرات الطائرات الإسرائيلية ، أسرنا مئات الجنود والطيارين اليهود .. إلخ .

ولأن النتيجة كما عرف كل إنسان فقد كانت الصدمة عنيفة والصورة سوداء قاتمة ، وإن جاء من يقول أنها نكسة فقط وجعل يبرر أسباب ما حدث ، ومع الأسف كان أحد فرسان التبرير الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى قدم للعرب فى مقالات متتالية بالأهرام صورة خادعة كأنما هؤلاء اليهود الذين هزمونا قد خرجوا فجأة من تحت الأرض ونحن نيام ، وكانت طائراتهم تطير على وجه البحر وقد جاءت عبر بحيرة البرلس .. إلخ وإلى أن تكلم جمال عبدالناصر بالحقيقة ولقد

امتلك شجاعة الفرسان ليقول إنها هزيمة بكل معنى الكلمة ، وكان على الجميع أن يصمتوا لأن الوقت صار وقت حساب ولابد من دفع الثمن ..وأرى أن أحسن من عبر عن هذه الكارثة وتأثيرها البالغ على الرئيس جمال عبدالناصر هو الدكتور ثروت عكاشة فى الجزء الثانى من مذكراته ، عندما قال :

وما من شك فى أن هزيمة يونيه ١٩٦٧م كانت نكبة قاسية أحدثت هزة عميقة فى وجدان عبدالناصر فتّت فى عضده وأنهكت قواه وأتت على البقية الباقية من صحته ، فعاش تلك السنين القليلة إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، وقد نالت تلك الهزيمة من فكره وقلبه بلبلة ووسوسة ، كما نالت من جسده فهدّته هدا ومكنت لذلك المرض الذى كان يشكو منه إلى إن يتغلغل فى كيانه ويدبّ فى أطرافه حتى لحقته المنيّة، وعلى الرغم مما كان يعانى من آلام مبرّحة أقوى من أن يتحملها بشر فلقد كانت نفسه مملوءة حميّة للأخذ بالثأر لا يبالى بخطوات الموت الزاحفة إليه رويدا رويدا ، بل كان يغالب الموت علّه ينتهى إلى ما أراده واعتزمه من شن حرب التحرير ، ففزع لشئون الجيش ليعيد تنظيمه وتسليحه بما يمكّنه من الانقضاض على العدو ، ومع ذلك أراد أن يصون كيان الدولة الإدارى فأعرب عن وجهة نظره السياسية تفصيلا فى بيان ٣٠ مارس ، ولو امتد به العمر لقدّر له توجيه الضربة الثأرية التى كان يزمع القيام بها قبل نهاية عام ١٩٧١م وكم جرى فكره إلى ونستون تشرشل الذى كان وزيرا للبحرية خلال الحرب العالمية الأولى ، وهو الذى كان وراء حملة غاليبولدى بالدردنيل عام ١٩١٥م التى شاء القدر أن تفشل وتلحق بالقوات البريطانية هزيمة منكرة ضاعت معها أرواح آلاف الجنود ، وقد ظل تشرشل يلعق جراحه إثر هذه الهزيمة على مدى ربع قرن من الزمان حتى شاءت له الظروف أن يرأس الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية وأن يحقق لوطنه نصرا ساحقا على خصومه الألمان فيثأر عام ١٩٤٥م من هزيمة عام ١٩١٥م ، ولو أنه مات قبل ذلك لظل اسمه مرتبطا بتلك الهزيمة التى أتاح له طول العمر محو ذكراها بالنصر الجديد وهو ما ضنّ به القدر على جمال عبدالناصر ، فلم يعش حتى يشهد النصر الذى هيأ له أسبابه الحقّة خلال الأعوام ١٩٦٨إلى ١٩٧٠م ولو عاش حتى شهده لغسلت فرحته أحزان الهزيمة التى عششت فى السويداء من قلبه ، وما أصدق لابروير حين قال : (إن القدر للأسف لا يمهل الإنسان حتى يفيد من أخطائه) .. انتهى .

والواقع أن هذه الكارثة يصعب أن يجد لها أى كاتب أو باحث أو حتى قارئ أى سبب وسوف يقف حائرا إزائها ، وليس غريبا أن يهزم أى جيش فى معركة او عدة معارك شرط أن يكون قد استعد وقاتل ـ أما أن تحدث الهزيمة بلا قتال فذلك شئ غريب ! ويذكر أن جمال عبدالناصر قد نبّه كما قيل إلى أن الهجوم الإسرائيلى متوقع فى أى وقت ، بل هو بناء على معلومات قد حدد اليوم المتوقع الهجوم فيه ، وقيل أنه سأل بعض قادة جيشه وعلى رأسهم المشير عبدالحكيم عامر ما إذا كانوا مستعدين لتلقى ومواجهة الضربة الأولى والرد عليها، ولقد أكدوا له قدرتهم على ذلك واستعدادهم للحرب إذا ما وقعت لكن ذلك كان مجرد وهم وخيلاء ، وكانت النتيجة كما عرف العالم كله يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م فقد حدثت النكبة وهزم عبدالناصر وجيشه وحلت الكارثة بشعبه وأمته العربية ، والآن لابد أن يتساءل من يريد أن يعرف ، لماذا حدث هذا وكيف ؟؟

أول الأسئلة ، لماذا تحدث عبدالناصر عن الضربة الأولى ؟

قيل إن القوتين الكبيرتين (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى) قد لعبتا الدور الأساسى فى خداع عبدالناصر) وإذا صح هذا فإنه يمكننا أن نعرف أن أمريكا يمكن أن تفعل ذلك، ولكن لماذا الاتحاد السوفييتى وهو بلد صديق وسياسته الخارجية تقوم على مساندة قوى التحرير فى العالم ، وكانت مصر عبدالناصر مدخل نفوذه إلى العالم العربى والأفريقى تحديدا ؟ ومن المعلوم أن الصراع بين هذين العملاقين فى العالم يقوم على كسب مواقع هنا أو هناك وقد تقاسمتا النفوذ فى العالم مباشرة بعد أن أصبحتا القوتين الوحيدتين منذ مؤتمر (فلاديفوستك) وعلى ضوء ذلك هل يمكن للاتحاد السوفييتى أن يترك أهم مركز نفوذ له فى العالم الثالث أى مصر ، وإذا فعل ذلك فإنه لابد أن يفقد نفوذه فى أغلب البلدان ؟ فهل كان لأولئك القادة الكبار فى الكرملين أن يسلموا أوراق قوتهم فجأة لأمريكا فى ذلك الوقت ؟ ثم هل كان فى سياسة الاتحاد السوفييتى أن يتخلى عن أصدقائه لينهزموا فى مثل تلك المعركة وهم يستخدمون سلاحه ؟ الجواب على هذا السؤال ، بلا، ومن تجربتى الشخصية فقد كنت سفيرا لبلادى فى الاتحاد السوفييتى وأعرف جيدا علم تبنى السياسة الخارجية السوفييتية خلال النصف الثانى من القرن العشرين وقبل أن يظهر أمثال (يالتسين) و(غورباتشوف)

وهنا سأذكر حادثة للتدليل على ما أقول ، لقد حدث سنة ١٩٨٢م أن تأكد لدى القيادة الليبية ، وربما ، غيرها أن إسرائيل ستهاجم لبنان وتحتل عاصمته بيروت من أجل إخراج منظمة التحرير الفلسطينية وكلفت مع زميلين آخرين ببحث الموضوع مع أولا أبوعمار فى بيروت ثم مع القادة السوفييت فى موسكو ، وفى لقائنا مع ياسر عرفات قال أنه يعلم أن إسرائيل ستهاجم لبنان وأنه لا يتوقع من جيرانه العرب أى مساعدة ، ولكنه سيقاتل ولن يخرج من لبنان إلى آخر فدائى فلسطينى ، ثم سافرنا إلى روسيا وحدد لنا موعدا مع أحد أعضاء اللجنة المركزية السوفييتية وخلال اللقاء أبلغناه بفحوى مهمتنا وأن القيادة الليبية ترى فى الهجوم الإسرائيلى واحتلال عاصمة عربية بادرة خطيرة لا يمكن القبول بها ، فقال بالحرف الواحد ، نحن لا يمكننا أن نحارب نيابة عن العرب لأننا مسؤولون عن السلام العالمى وقد زوّدنا الدول العربية بما تحتاج من سلاح متقدم ومنها الدول المجاورة للبنان ولكنكم أيها العرب لا تحاربون !! فبادر أحد زملائى قائلا : إن الولايات المتحدة الأمريكية تزود إسرائيل بالأسلحة المتقدمة جدا بينما أنتم لا تعطوننا غير أسلحة قديمة ، ولهذا فهم يتفوقون علينا بدليل أنه فى قريب جدا أن معركة جوية حدثت بين الطائرات السورية والإسرائيلية فسقطت ست طائرات سورية ولم تسقط طائرة إسرائيلية واحدة ، فقال الزعيم السوفييتى نحن أرسلنا ثلاثة من أبرز جنرالات الجيش ليدرسوا تلك الحادثة وتأكد لنا شئ غريب ، أعتذر للقارئ لأننى لا أريد ذكره حتى لا يعتبر البلد المعنى أننى أريد الإساءة اليه ، ثم أضاف عضو اللجنة المركزية السوفييتية قائلا ، إن سمعة بلادنا تكمن فى سلاحنا ولا يمكن أن نسمح بهدم هذه السمعة ونقول لكم أن طائرات الميج ١٥ كانت تقاتل الفانتوم الأمريكية بمنتهى الكفاءة فى فيتنام لأنهم هناك يقاتلون ضد المعتدى بمقدرة..) .

أعود لسؤال لماذا حدثت الهزيمة سنة ١٩٦٧م ، وأقول والله إننى لمن المعجبين والمحبين والمؤيدين لجمال عبدالناصر بسبب كثير من سجاياه الطيبة وشجاعته النادرة ونظافة يديه وطهارة سريرته وسمو أخلاقه والتزامه بما يعتقد ، وكذلك زهده فى الكسب المادى حلالا ناهيك عن الحرام، لكننى أشعر بأن هذا الرجل العظيم صاحب القيم النبيلة وقع مع الأسف فيما كان قد وقع فيه كثيرون من أخطاء مقتنعا ربما (بمقولة أهل الثقة لا أهل الكفاءة) وهذه كانت المقتل الذى

أدى الى ما حدث ويحدث ، ولقد غلّب العاطفة على المصلحة الوطنية العامة ، فأهل الثقة لم يكونوا أهلا للقيادة ، ومثال على ذلك المشير عبدالحكيم عامر الذى حول الجيش المصرى حسب رأى أغلب الخبراء العسكريين المصريين بالذات (إلى مزرعة خاصة يعبث فيها المرتبطون به) أيضا عاطفيا ويقول هؤلاء أن الثقة والعاطفة هى التى جعلت عبدالناصر يتغاضى عن الأخطاء الكثيرة والكبيرة حتى إنه لم يكن يعرف شيئا عن القوات المسلحة قبل الهزيمة ، ولم يرى الحقيقة إلا بعد حدوث الكارثة وهو ما جعله رغم فوات الأوان يعيد كل حساباته وكان يمكن أن ينتصر لو طال به العمر ولابد أن يتوقف الإنسان أمام العديد من الأسئلة ، لكننى قبل ذلك أريد أن اعود إلى ما رواه الدكتور ثروت عكاشة فى هذا الشأن إذ ربما يكفى عن كل سؤال قال :

(أذكر أن جمال عبدالناصر كان قد استدعانى سنة ١٩٥٥ من باريس ، ليعرض علىّ أن أتولى قيادة سلاح الفرسان مع ترقيتى ترقية استثنائية ، ولقد اعتذرت وقتها عن قبول هذا المنصب وأبديت بصراحة سبب ذلك ، وهو أنه كان قد أبعد عن سلاح الفرسان بعد أزمة مارس ١٩٥٤ خيرة ضباطه وأنقاهم وهم الذين قامت على أكتافهم ثورة ٢٣ يوليو ، فقبل عذرى ثم دعانى لتناول طعام العشاء معه وكان ذلك بمبنى مجلس قيادة الثورة المطّل على النيل ، وإذا ضابط برتبة صغيرة يدخل ليعرض عليه بعض التقارير فلما خرج سألته عمن يكون ؟ فأخبرنى أنه يدعى (لن أذكر اسمه هنا) وعلل لى اختياره له سكرتيرا بأنه ليس من الضباط الأحرار ، لذا كان ائتمانه بما يؤمر لا أخذ فيه ولا رد ، واسترسل يقول أن نفرا من الضباط الأحرار ممن عملوا إلى جواره كثيرا ما أرهقوه جدلا حول الكثير من القضايا إيمانا منهم بما لهم من حق المشاركة فى مجريات الأمور، هذا إلى طلبات بعضهم الملحّة فى نفع يجرونه ، لأنفسهم أو لمن حولهم ، وهذا وذاك كان مما يجعله يضيق ذرعا بهم ، ويلجأ إلى اختيار سكرتير ليست له هذه الدّالة .. ويستمر الدكتور ثروت، ولم يكن فى حديث الرئيس هذا ما يعترض عليه ، فمن حقه أن يختار لمكتبه من يشاء غير أن الأمر الذى أذهلنى هو أنه استطرد من حديثه عن الضباط الأحرار إلى حديثه أن الإيمان بولاء هذا السكرتير الجديد ، وإذ سألته كيف تبين له هذا الولاء ؟

إذا هو يقول فى بساطة دهشت لها ، لقد شهد ضد شقيق له شارك فى أعمال مضادة للثورة ، كما أقسم لى أنه على استعداد لأن يذبح أبناءه إذا أمرته بذلك ..

وكاد حلقى يغص بالطعام ، وعاجلنى إحساس غريب بالخشية والتشاؤم والذهول ولم أتمالك نفسى إن قلت له ، إن هذا القسم من هذا الضابط يكاد يكون شططا كله ، وبعيداً أن يصدر عن لسان إنسان سوىّ ، وإنى لأعجب كيف يغيب عنك هذا ؟ وقرّ فى أعماقى لحظتها أن بقاء هذا الضابط إلى جوار الرئيس سيكون مصدر شر بغير حدود لا عليه وحده بل على الوطن عامة ، وللأسف لم يخب ظني فقد أخذت السلطة تتركز فى يديه شيئا فشيئا ولم تمض عدة سنوات حتى نصّب من نفسه قيصرا يدين له الوزراء والسفراء وأصحاب المراكز العليا الحسّاسة بالولاء ، ثم يقول بعد استطراد طويل ، وتمكن هذا الشر الجاثم من حصار الخير الكامن فى قلب عبدالناصر ، وكم شهدنا من أكفاء شرفاء أبرياء نحّوا عن مناصبهم لأنهم لم يدينوا بالولاء له ، ومن هنا فقدت البلاد عون كفايات كانت فى أمسّ الحاجة إليها ، وإذا مناصبهم التى نحّوا عنها يشغلها من يدينون له بالولاء ممن لا كفاية لهم ولا خبرة ولا دراية ولا طهارة ، فخسر الوطن أية خسارة .

وبعد أن تحدث جمال عبدالناصر عن تلك النكبة وقال إنها هزيمة كان قد قطع الطريق على كل التكهنات والتحليلات ومحاولات التبرير ولم يعد هناك مجال لقول قائل ، قرر تحمل المسؤولية كاملة وأعلن استقالته فى مشهد تزلزلت له الجبال وإعاد الى ذاكرة المواطن المصرى مشهداً آخر كان عبدالناصر قد تحدث فيه وكأنه ينعى فناء أمة غمرها طوفان ، ذلك كان يوم انفصال سوريا حيث قال (أعان الله سوريا على أمرها على الرغم من أنه تمسك بأمل ضعيف ذلك هو اسم دولة الوحدة (الجمهورية العربية المتحدة) كأنه يمسك بخيط رفيع أملا فى المستقبل الذى كاد يتوقف يوم إعلان الاستقالة) ونجد الأستاذ هيكل ما يزال يتحدث عن نكسة فقد قال :

(إن جمال عبدالناصر مسؤول عما حدث سنة ١٩٦٧ وقد قبل هو بتحمل كل المسؤولية فيما جرى وصارح بذلك شعبه وأمته ، وكانت رغبتهما بعد ذلك معا هى الطلب بأن يظل فى موقعه ويقود الحرب، لقد خسرنا معركة ، ولكن الحرب مستمرة.

ولعلى أقول بعد ذلك أن مسؤولية عبدالناصر فى الدرجة الأولى تنبع من سببين :

السبب الأول : الخطأ فى حسابات عملية إغلاق خليج العقبة ..

والسبب الثانى ، الخطأ فى ترك المشير عبدالحكيم عامر يقود المعركة فعلا بينما هو عمليا لا يصلح لقيادتها ، لأنه تحول فى الحقيقة عند رتبه الرائد ، من ضابط إلى سياسى .ومع ذلك فلكى توضع مسؤولية جمال عبدالناصر فى إطارها العملى والتاريخى فإنه يتحتم علينا إلقاء نظرة واسعة على الصورة العامة للموقف السياسى والعسكرى كما بدت أمامه وقتها :

أولا ، أبدأ برؤيته العامة لمجرى الصراع العربى الإسرائيلى ، كان جمال عبدالناصر حريصا كل الحرص فيما يتعلق بالصدام المسلح مع إسرائيل لعدة أسباب :كان يرى أن الصدام المسلح مع إسرائيل لابد فيه من حساب احتمالات التدخل الأمريكى وهو احتمال قائم يستهدف فرض الهزيمة على العرب إذا استطاع ، أو سلبهم ثمار النصر إذا استطاعوا ، وإذن فإن نجاح الصدام المسلح فى رأيه كان مرهونا بظرف دولى وعربى ملائم تكون فيه القوة الأمريكية مصابة بالشلل أو يمكن إصابتها به ..

كان رأيه أن القوات المسلحة المصرية تحتاج على الأقل إلى خمسة عشر عاما تستوعب فيها سلاحها الذى حصلت عليه من الإتحاد السوفييتى ، ولم يكن يقيس هذه المدة بتاريخ عقد أول صفقة سلاح سنة ١٩٥٥ ، وإنما كان يقيس ابتداء من سنة ١٩٥٧ ومن هنا ، فقد كانت الفترة المحتملة للصدام المسلح فى تقديره هى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٥ ..

حتى يجىء هذا الوقت وتسنح فرصته فقد كان جمال عبدالناصر يعتقد اعتقادا راسخا فى سياسة يسميها هو (سياسة السنطة وشعرة ذيل الحصان) وهى تسمية مستمدة من حياة صعيد مصر وممارساته اليومية ، وكان جمال عبدالناصر يشرح سياسته فيقول ، إن السنطة نوع من البثور، يظهر على الجسم ويتكلس ، وأهل الصعيد فى مصر يعالجونه بأن يجئ الواحد منهم بشعرة من ذيل حصان ويلفها حول النمو الدخيل على جسده ، ثم يحكم شدّها بحيث يحبس مرور الدم إليها ، وتبدأ الإصابة بعد أيام تتجمد ، ثم تبدأ فى الذبول ، ثم تقع من تلقاء نفسها

(وكان رأى جمال عبدالناصر أن إسرائيل نمو دخيل فى وسط الجسد العربى وأن مقاطعتها وإحكام الحصار من حولها وتشديد الضغط عليها كل يوم سوف يؤدى إلى حبس الدم عن خلاياها ، ومن ثم إلى ضمورها وسقوطها ، والمهم أن نرفض التعامل معها باستمرار ، المهم أن لا يخف حصارنا عنها طول الوقت) المهم أن تحس بضغطنا من حولها ليل نهار ، وحتى إذا اضطررنا بعد ذلك إلى استعمال القوة المسلحة ، فإن استعمال القوة يجىء فى أكثر الظروف ملاءمة ، وكانت له نظريته فى استعمال القوة المسلحة مع إسرائيل ، كان يرى أن الظروف العالمية لا تعطى العرب فرصة تحقيق نصر حاسم نهائى فى معركة واحدة ، وهكذا ظل يتصور سلسلة من المعارك تحقق كل منها نصرا جزئيا ، عسكريا سياسيا ، ثم يكون من أثر تراكم هذه الانتصارات كلها أن يشعر المشروع الصهيونى فى فلسطين بأن لا أمل له فى البقاء .. انتهى .

لعله من الصواب أن أعيد الإشارة كما قدمت إلى أن الأستاذ هيكل رغم علاقته المتينة والتى كانت دائمة مع جمال عبدالناصر أنه أقدر صحفى فى إخراج المبررات من جعبته ، ولأنه بسبب تلك العلاقة المتينة مع عبدالناصر يكون لمبرراته وقع وتأثير يوحى به للقارئ كما لو كان ينقل تعبيراته من فم جمال عبدالناصر ، والمشكلة فى الواقع أن الأستاذ هيكل إضافة إلى أنه صحفى بارز جعل من نفسه جنرالا يحلل المعارك العسكرية إذ رأيناه بعد الهزيمة مباشرة يبلغنا كيف كانت الأحداث العسكرية عندما تحدث عن الطائرات الإسرائيلية والقوارب الصغيرة التى كانت ترشدها وكيف أنها جاءت فى طيران منخفض لا يحس بها الرادار وعن طريق بحيرة البرلس وأنواع القنابل التى استخدمت فى ضرب المطارات المصرية الخ ، وإذا كان ما ذكره الأستاذ هيكل عن الموقف الأمريكى صحيحا فإننا وقد كنا نعيب على الرئيس أنور السادات قوله (إن مائة فى المائة من الأوراق فى يد أمريكا يكون صحيحا ، وبالتالى فإنه لا السنطة ونحن نسميها الثؤلل) ولا شعرة ذيل الحصان يمكن أن تكون ذات نفع) ولقد استعاد السادات سيناء كاملة بلا سنطة ولا شعرة ذيل حصان رغم ما نتج عن ذلك من خصام عربى وتفرّق وتشاتم سيكون للتاريخ حكمه فيه ، خصوصا إذا رأينا أن العرب بعد مرور قرابة ربع قرن من اجتماع (كوين كاستل) لم يحصلوا على واحد من الألف مما كان

يمكن أن يحصلوا عليه لو قبلوا بالدخول فى تلك التسوية التى نادى بها الرئيس السادات ، وأنا لا أقول إن السادات كان على حق وإنما أعتقد أنه أدرك مبكرا الدور الأمريكى فى المنطقة والعالم وساعده على صحة هذا الموقف انهيار الاتحاد السوفيتى بحيث صارت كلمة أمريكا هى الفيصل فى شئون العالم ، ومن أجل الإحاطة بظروف تلك الفترة التى جاءت بعد الهزيمة أو النكسة أو النكبة لابد لنا أن نناقش كتابات بعض المختصين والذين شاركوا فى تلك الأحداث أو كانوا قريبين منها ، فهذا الأستاذ محمود رياض وكان وزيرا للخارجية المصرية يصف الموقف على نحو آخر ، يقول :

عندما وضعت كتابى البحث عن السلام فى الشرق الأوسط تركت الأحداث تتحدث عن نفسها ، ولم أعلّق على كل حدث ، تاركا للقارئ أن يستخلص الحقائق من الوقائع التى سردتها والوثائق التى قدمتها ..

ولذلك فإنى لن أخوض فى تفصيلات عدوان عام ١٩٦٧ وما تلاه من أحداث جسام انتهت بتوقيع معاهدة السلام بين الرئيس السادات وبيجن رئيس وزراء إسرائيل ، إلا أننى وجدت ضرورة التعرض للأحداث الرئيسية التى أوصلتنا للوضع الخطير الذى نعانى منه ونحن فى منتصف الثمانينات ، والتى أصبح فيها الأمن العربى مهددا أكثر من أى وقت مضى ..

وكان للمذكرات العديدة التى نشرها رؤساء الولايات المتحدة وغيرهم من المسؤولين الأمريكيين بعد العدوان فضل كبير فى إيضاح العديد من جوانب الوضع الذى وصلنا إليه ، فقد كشفت عن الخطوات التى أدت الى قيام تحالف استراتيجى أمريكى إسرائيلى موجه ضد الأمن العربى ..

وعند الحديث عن الأحداث فى المنطقة سنجد دائما دورا رئيسيا للولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الأحداث مما يستدعى الإشارة إلى هذا الدور حتى يكون لدينا وضوح رؤية ولا نعيش فى ظل أوهام أو سراب يحلو لبعضنا التشبث به ، وهو إمكان استمالة الولايات المتحدة إلى جانبنا ..

والانطباع السائد لدى العديد من المراقبين السياسيين أن التحول فى السياسة الأمريكية المعادية لمصر ولعبدالناصر بدأ فى عهد الرئيس جونسون ، فى حين كانت العلاقات طبيعية قبل ذلك بسبب موقف الولايات المتحدة المتفهم لمطالب مصر

أثناء مفاوضات الجلاء مع الإنجليز عامى ١٩٥٣- ١٩٥٤ ثم وقوف أيزنهاور بقوة ضد العدوان الثلاثى على مصر ، إلا أنه يحسن الإشارة إلى أن العلاقات المصرية الأمريكية بدأت تشهد توترا مع بداية ١٩٥٧ عندما تقدم أيزنهاور بخطته التى عرفت باسم (مبدأ أيزنهاور) وهى خطة تتيح له بسط النفوذ الأمريكى فى منطقة الشرق الأوسط بحجة ضرورة ملء الفراغ الذى نتج عن استبعاد النفوذ البريطانى الفرنسى وكان تحقيق هذه الخطة يقتضى عقد تحالفات عسكرية مع دول المنطقة ..

ولم يدرك أيزنهاور أن كفاح مصر ضد الوجود البريطاني وتصديها للعدوان الثلاثى لن يجعلها تقبل استبدال السيطرة البريطانية لها بسيطرة أمريكية ، ولذلك فوجئ أيزنهاور برفض مصر وسوريا مبدأه مع إصرار عبدالناصر على اتباع سياسة عدم الانحياز ، ويضيف السيد محمود رياض قائلاً :

(وتطور عداء الإدارة الأمريكية برئاسة جونسون فلم يكتف بالضغوط السياسية والاقتصادية بل أصبح من أهدافها إسقاط عبدالناصر ..) .

والحقيقة أننا نعرف من خلال مذكرات الساسة الغربيين بريطانيين وفرنسيين وكذلك بعض الكتاب أن تورط بريطانيا وفرنسا ومعهما إسرائيل فى الهجمة البربرية على مصر سنة ١٩٥٦م كانت فى البداية بمباركة أمريكية وتحديدا عندما بدأت الاجتماعات التمهيدية بين الدول الثلاث فى سيفر بفرنسا ومباشرة بعد الاتفاق على تفاصيل العدوان ذهب رئيس وزراء بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للقاء فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكى ولكنه لم يتمكن إذ أبلغ رسميا أن الوزير الأمريكى مريض ويعالج بالمستشفى ، وعندما حدث العدوان تبين أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد قررت التخلى عن الدول المعتدية بحيث تحل محل ما عرف بعد ذاك بالاستعمار القديم ، بمعنى أن بريطانيا وفرنسا بتحالفهما مع إسرائيل فى العدوان على مصر مقابل موقف معارض بشدة من الاتحاد السوفيتى كانت تعلمه الولايات المتحدة سوف يجعل العدوان فاشلا وبالتالى ينتهى من المنطقة النفوذ البريطاني الفرنسي وعلى الولايات المتحدة أن تتقدم لملء الفراغ ، وهو ما حاول أيزنهاور أن يفرضه عندما فشل العدوان ، ولكن موقف عبدالناصر كان قويا فى معارضة ذلك المشروع الأمريكى وهكذا نهجت

السياسة الأمريكية فى عهد خلف أيزنهاور نهجا عدوانيا وشجعت إسرائيل على ما كانت تريده ..

ولما كان الأمر غريبا إذ كيف يجرؤ حاكم فى بلد صغير بالعالم الثالث أن يعارض أو يعترض على رئيس دولة كبرى وهو شئ غير مألوف ولا مقبول فإنه لا يمكن السكوت عليه ولابد أن يعاقب هذا الحاكم ، كما أنه لابد لمصر على ضوء هذا التصرف أن تبقى كما قال عبدالله إمام بلدا زراعيا متخلفا ، ولأن هذا الموقف كان من عبدالناصر وقد فشلت محاولات التآمر عليه وإسقاط حكمه من الداخل فلابد من ضربه مباشرة من الخارج ، ويقول عبدالله إمام :

هذه المرة خطط للمؤامرة الخارجية بدقة وأسهمت فيها كل الأطراف التى تريد أن تتخلص من عبدالناصر ، وهى الأطراف التى تنهال عليه الآن بالإساءة والتشكيك لأنه مازال يزعجها حتى بعد رحيله :

ولقد كانت مؤامرة سنة ١٩٦٧ كبيرة الأثر على عبدالناصر وعلى شعبه وأمته العربية ورغم ذلك فإن عبدالناصر أعلن أنه يتحمل مسؤولية كل الذى حدث كاملة ويذكر أنه عندما أعد له خطاب التنحى عن الحكم رفض تعبيراً يقول (أنا أتحمل نصيبى من المسؤولية) ووضع بدلا من ذلك القول ، أنا أتحمل المسؤولية كاملة ، ويذكر عبدالله إمام أن صلاح نصر أراد أن يخفف صدمة الهزيمة المرّة ، قال له عبدالناصر إنها قصة محمد على تتكرر ، وكانت الدول الكبرى قد تكالبت على محمد على عندما أراد أن يخرج بمصر عن حدودها الإقليمية ويمتد بها حيث يكون لها دور مؤثر فى المنطقة ..

وبعد أن عاد جمال عبدالناصر عن قرار الاستقالة نتيجة للضغط الشعبى الهائل حيث خرجت جماهير مصر (فلاحين وعمال ومثقفين ورأسمالية وطنية وطلبه ورجال دين) تطالب بأن يستمر عبدالناصر فى تحمل مسؤولية القيادة ليخرج بالبلاد من أزمتها ، كان لابد من تصحيح الأخطاء ومعاقبة المسؤولين على كارثة الهزيمة العسكرية ، ويروى القصة أنتونى ناتنج فى كتابه ناصر بشكل تفصيلى حيث كان قد التقى عبدالناصر بعد الهزيمة مباشرة ، يقول :

(لقد كان عبدالناصر كما فعل مرارا من قبل عندما يتعرض لنكسة خطيرة ، ينزع إلى التقوقع ويلقى على نفسه المزيد من التبعات بعد أن يستغنى عن أعوانه ماعدا الذين لا يوجهون نقدا ، وفى أعقاب حرب الأيام الستة أصبح رئيسا للوزراء اسما وفعلا، واستبدل عبدالحكيم عامر بالفريق أول محمد فوزى كما عيّن عبدالمنعم رياض رئيسا لأركان الحرب الذى لقى مصرعه نتيجة للقصف الإسرائيلى على قناة السويس فى مارس ١٩٦٩ ولكن خوفا من أن يحاول فوزى أن يصبح عامر آخر تولى عبدالناصر بنفسه الإشراف على القوات المسلحة وعين نفسه القائد الأعلى .. يستمر ناتنج قائلا .. عندما قام عمال الحديد والصلب فى حلوان وطلبة جامعات القاهرة والإسكندرية باحتجاج لأن صدقى محمود ورفاقه من اللواءات صدرت ضدهم أحكام مخففة أمر بإعادة المحاكمة التى زادت الحكم على صدقى محمود من ١٥ عاما للسجن المؤبد ..

ويقول ناتنج ، وقد اعترف لى جمال عبدالناصر فى وقت لاحق بأن الأسابيع التى أعقبت حرب عام ١٩٦٧ كانت بمثابة كابوس دائم ، لقد كانت الخسائر فى المعدات والرجال فى المعارك الأخيرة كبيرة إلى حد أن القوات التى لم تكن متورطة فى اليمن أو لقيت حتفها فى سيناء لم يكن لديها من السلاح ما يمكنها من الدفاع عن مصر ، فقد دمر سلاح الطيران وكانت القاهرة معرضة للهجوم ، ولو أن الإسرائيليين قرروا التقدم غربا من القناة لما استطاع الجيش أن يوقف تقدمهم ، ومن ثم استدعى كمال الدين حسين فى محاولة يائسة لتشكيل نوع من المقاومة ، وطلب منه تكوين قوات شعبية على غرار القوات التى أزعج بها المحتلين البريطانيين فى بورسعيد فى عام ١٩٥٦ انتهى .

هذا كان الوضع العسكرى وتقدير الأمور بعد ضرب قواعد الطيران فى مصر ، ولقد كانت كل التقديرات تقول أن الهزيمة ستجعل عبدالناصر يتنحى ويستسلم إن لم يغتل أو يحاكم بعد أن يسقط ، وهو الشئ الذى لم يحدث ، فإذا كان جمال عبدالناصر قد واجه العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م والذى خططت له وقامت به دولتان أوربيتان كبيرتان وكان المطلوب فيه رأس جمال عبدالناصر الذى وقف على منبر الأزهر الشريف معلنا (حانحارب) ولقد حارب فعلا بشعبه وجيشه مسنودا بأمته العربية ومدعوما بأصدقائه فى دول العالم فهل كان يمكن أن

يتنحى على إثر هزيمة عسكرية كانت نتيجة تخاذل أو إهمال بعض القادة فى جيشه وهو الذى كان قد نبههم من الخطر القادم ، بل ولابد من القول فى هذا الحال من غير جمال عبدالناصر يمكن أن ينهض بعد تلك الهزيمة ببناء القوات المسلحة ؟

وقولة عبدالناصر (حانحارب) تمثل إرادة القتال التى أدت بعد تلك الهزيمة مباشرة الى أن يقوم الجيش الذى عدّ مهزوما والقائد الذى توقع منه موشى دايان أن يتصل مستسلما بأكبر معركة بعد أيام من هزيمة سيناء عرفت بمعركة (رأس العش) وبعدها تلك المواجهة البحرية الشجاعة التى دمرت فيها قوارب الطوربيد المصرية البارجة (إيلات) وأغرقت معها ٢٥٠ ضابطًا وجنديًا بحاراً ، ولم يحدث أن ينكسر أو يتنحى أو يتراجع جمال عبدالناصر نتيجة لتلك الهزيمة ، وعلى الرغم من تحمله المسؤولية الكاملة ومحاولته أن يترك مكانه لقائد آخر ليس هروبا ولا جبنا وإنما تحملا لمسؤولية تاريخية وذلك فى حد ذاته شجاعة ، وإذا كان شعبه قد تمسك به فقد بادر بتصحيح المسار وأنهى البيروقراطية العسكرية كما قضى على التواكل وبورجوازية بعض ضباط الجيش فى القيادات العسكرية ، ومن أجل مراجعة الموقف واتخاذ الإجراء المناسب بعد تلك الفاجعة التى حدثت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م جمع جمال عبدالناصر اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى خلال أول شهر أغسطس ١٩٦٧م ليعرض رأيه ويطلب منهم تقييم الموقف على ضوء ما حدث ..

قال إحنا حنبحث النهار ده موضوع من أهم الموضوعات ، علشان كده أنا طلبت من عبدالمجيد فريد إنه مايعملش جدول أعمال لهذه الجلسة ، وما سنناقشه أهم بكثير من جميع الموضوعات التى سبق بحثها من قبل ..

اللى عايز أقوله إننا لازم نقيّم نظام الحكم الذى نتبعه ، لأنى أعتقد أنه من متابعة الأحداث اللى جرت أخيرا وبعد تحليلها بدقة تبين لنا أنه لم يكن لدينا نظام سليم ..

لم يكن عندنا نظام سليم ، وعلشان أوضح كلامى أكثر لازم أتعرض للأحداث اللى مرت بنا فى بلدنا مؤخرا بشئ من التفصيل ومزيد من الشرح ، ونضع النقاط على الحروف ..

تذكرون جميعا أننا حضرنا اجتماعا فى القيادة العامة للقوات المسلحة فى مدينة نصر قبل بدء العمليات بقليل ، وقلت للقيادات العسكرية اللى حضروا

الاجتماع أن المعلومات السياسية المتوافرة لدينا تؤكد أن العدو سيبدأ هجومه الكبير بالاستيلاء على شرم الشيخ وفصل قطاع غزة ، لكن القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك الوقت قدرت موقفها على أساس أنهم يستبعدون قيام العدو بهجوم شامل على الجبهة وقدروا أيضا أنه لو حدث مثل هذا الهجوم فهم يستبعدون تماما الطريق الساحلى كمحور رئيسى للهجوم ، وبناء على ذلك فقد ركزوا قواتهم فى الجنوب وتركوا القطاع الشمالى عند رفح وغزة ضعيفًا ..

السيد زكريا محيى الدين ..

فعلا نذكر هذه المناقشة التى تمت مع هيئة عمليات القيادة العامة فى مدينة نصر فى ذلك اليوم ، بعد ما تبيّن من خطة القيادة ضعف منطقة العريش وما حولها، وأنهم وافقوا بعد مناقشات منا وإلحاح منك يا ريس على تعزيز منطقة العريش بلواء مدرع وتقوية منطقة الاختراق المحتمل عند الشيخ زويد بقوة سعد الشاذلى المدرعة ..

جمال عبدالناصر ..

للأسف ، اللى حصل أنى عرفت من عبدالحكيم عامر يوم الجمعة أنه أمر بإعادة اللواء المدرع إلى نخل وأنه أعاد قوة سعد الشاذلى إلى الجنوب مرة أخرى ، على أساس أن تقديرهم مبنى على أن المعركة الرئيسية حتكون فى الجنوب !

وقلت أيضا للقيادة العامة للقوات المسلحة فى نفس الاجتماع وقدام قادة الجيش والطيران أنه فى تقديرى أن الحرب حتبدأ يوم الإثنين اللى جاى ٥ يونيو وغالبا ما ستوجه الضربة الأولى لقواتنا الجوية ، فانزعج الفريق أول صدقى محمود لذلك وقال إن هذا الاحتمال سيسبب لنا إرباكا كبيرا !!

وكما تعلمون بدأت الحرب فعلا يوم الإثنين وبدأت العمليات بالضربة الجوية على جميع قواعدنا الجوية ومطاراتنا ، وكان برضه الهجوم الرئيسى للعدو على القطاع الشمالى وسقطت العريش ، وبعد كده تحرك العدو على ثلاثة محاور أحدها الطريق الساحلى الذى لم يجدوا فيه قدامهم أى وحدات مقاتلة تعترضهم على أساس أن القيادة العامة استبعدت أى تحرك للعدو على هذا المحور!

أعـود إلى الأيام الأولى للحرب وكنت أتابعـها من مكتبى حـيث لم أدخل القيادة العامـة أو أتدخل فى توجيه المعركة العـسكرية من يوم الإثنين ٥ يونيو حتى الخمـيس ٨ يونيو اتصـل بى شمس بدران وطلب منى ضـرورة الحضـور فورا إلى مبنى القيادة العامة لأن عبدالحكيم عامر فى حالة انهيار تام وأنه طلب من سكرتيره حبوب (سيانور) للانتحار ..

رحت القـيادة ولقـيت عبـدالحكيم فعـلا فى حالة انهـيار تام ، وحـاولت أن أهديه وقلت له إنى المسـؤول شـخصـيـا عمـا حدث وأنا لـهذا سـوف أتنحى عن الرئاسـة ، ثم سألتـه عن الشخص الذى يراه صـالحا لتـولى رئاسة الجـمهـورية من بعدى فقال إنه يرى أن أصلح واحد لتولى الرئاسة هو شمس بدران !!

وعرفت بعد أيام من لقائى بعبدالحكيم أنه بعد ما غادرت مبنى القيادة العامة عقـد عبـدالحكيم وشـمس بدران اجتـماعـا طويلا لإعادة تنظيم الدولة وقـياداتـها المدنية، وأنهم اتصلوا ببعض الشخصيات السياسية وبعض الوزراء وطلبوا منهم أن لا يعلنوا استقالاتهم بعد تنحيتى ليتعاونوا مع رئيس الجمهورية الجديد ..

بعد ظهر اليـوم التالى ٩ يونيو اتصلت بعبـد الحكيم تليفونيا قـبل إذاعة بيان التنحى وقلت له أنا فكرت كثيـرا فى الكلام اللى تكلمنا فيه إمبارح ، والحـقيقة أنا شـايف أن زكريا هو أصلح من يتـولى رئاسـة الجـمـهورية من بعـدى ، وهنا بدأت مشكلة شمس بدران لأنه اعتبر رئيسا للجمهورية من الساعة إحداشر من مساء يوم الخميس لغاية ما أذعـت بيان التنحى مساء يوم الجمعة ٩ يونيو ، وكـمان اعتبر أنى بترشـيح زكريا محيـى الدين رئيسا للجـمهورية قد اعـتديت على منصبـه الشرعى وعزلته ، وحـدث أثناء إلقائى بيان التنحى من مكتبى بالقـبة أن طلب شمس بدران سكرتيرى محمد أحمد علشان يبلغنى بأنه علىّ أن لا أستمر فى تكملة باقى البيان، وطبعا ده كان كلام خيالى !

وبعد يومين طلبنى شمس بـدران تليفونيا ليبلغنى بأن هناك تجـمعًا من بعض الضبـاط يقدر عددهم بحوالى خـمسمائة ضـابط يحيطون بمنزل المشير فى حلـمية الزيتون ، وغيرهـم بمبنى القيادة العامة ، وهـم يصرون على عودة المشير عامر قائدا عاما ويطلبون منى أن أبت فى هذا المطلب فورا فـقلت له أنى سأبت فى المطالب دى بكره

الصبح ، فطلبنى فى اليوم التالى وكرر كلامه ، فقلت له أنت ياشمس تعرف رأيى فى القيادة العامة ، وإذا كنا عايزين بصدق نصلح الحال فعلينا أن نختار قائدا عاما محترفا للعسكرية وأن يبقى عبدالحكيم نائبا أول لرئيس الجمهورية فقط ..

وحاولت شخصيا إحضار عبدالحكيم إلى مكتبى فى منشية البكرى فى محاولة ليستوعب ويفهم الأوضاع ، واستعنت بصلاح نصر لإحضاره لأنه ماكانشى مقيم فى بيته ، وإنما كان قاعد فى شقة أحد الضباط الموالين له ، ولكنه مارضيش يحضر ، وفى نشرة أخبار الإذاعة الساعة الثانية ونص فى نفس اليوم أذعت خبر تعيين فوزى قائدا عاما ثم أمرته بأن يعتقل الضباط المعتصمين فى القيادة وكذلك الضباط المعترضين ..

بعد كده قابلت عبدالحكيم وحاولت إقناعه بأنه ليس من المنطق ولا المعقول أن يبقى بعد هذه الهزيمة قائدا عاما للجيش ولكن بدون أى فائدة ، ولم يقتنع بأن يكون نائبا أول لرئيس الجمهورية ورفض كلامى رفضا باتا وسافر غضبان لبلدته بالمنيا ، راح أسطال ، ومن هناك اتصل بهيكل وأبلغه استنكاره التام لجميع تصرفاتى ..

بعدها حضر إلىّ فى منشية البكرى شمس بدران وبلغنى أن الموقف العام بيزيد سوءا يوما بعد يوم كما قال لى أن البلد كلها ضدى ، وأن الجيش ضدى ، وأن الحل الوحيد هو أن عبدالحكيم يرجع قائد عام للقوات المسلحة من جديد ، وقال أن هو هذا الحل الذى سيترتب عليه الاستقرار فى البلد وفى الجيش ..

وبعد يومين تانيين قابلت شمس بدران مرة ثانية وكنت قد أصدرت أمراً باعتقال ضباط التنظيم السرى اللى أقامه شمس بدران داخل القوات المسلحة ، وكان أغلبهم من دفعته العسكرية خريجى سنة ١٩٤٨، وقلت له ، يا شمس أنا منحتك ثقتى بالكامل ولكنك للأسف اشتغلت لمصلحتك ومصلحة المشير من وراء ظهرى ، وأنت يا شمس لو كنت مخلص بصحيح ونيتك صادقة فى تكوين تنظيم داخل الجيش لكنت أبلغتنى بهذا الأمر فى حينه ، كان مفروض عليك لو أنت مخلص بجد أنك كنت تحطنى فى الصورة بالنسبة لشكل التنظيم وأسماء أعضاء هذا التنظيم ، لكنك لم تكن أمينا ، عموما أنا أمرت باعتقال جميع أفراد تنظيمك السرى ، فارتجف وارتبك ..

يوم الإثنين الماضى حضر المشير إلى المنزل واتعشينا سويا وكان حديثنا العام ودى ولكنه قال أنه يقترح أن يسافر أمريكا للتفاهم معاهم ، وأن الروس خونة ، ولم أعلق على هذا الكلام غير المتزن ولكنى قلت له .. نبقى نفكر ..

السيد زكريا محيى الدين :

ده تفكير ساذج ولا يستند إلى أى أساس وغير قابل للمناقشة ..

الرئيس عبدالناصر :

سبب عرضى لهذه القضية بالتفصيل هو أنى أريد أن أبرز موضوعًا فى غاية الأهمية وهو إذا كان جميع هذه التصرفات قد صدرت عن ومن أقرب الناس إلىّ وأقرب القيادات إلى النظام .. فماذا يحدث من غيره ؟

اللى حصل يحتاج فعلا إلى بحث وتفكير عميقين ، ليه ؟ دا أنا وعبدالحكيم كنا أكثر الناس ارتباطا ببعض ، ورغم كده عبدالحكيم تصرف تلك التصرفات .. مجموعة شمس بدران من دفعة ٤٨ وغيرهم كانوا بيجهزوا نفسهم لاستلام البلد .. نطلع من القصة كلها أن النظام المقفول سيؤدى بنا فى النهاية إلى نظام توريث ، وبناء عليه فأنا أرى أن علينا واجبين :

الأول : هو أن نبحث عن نظام جديد لنا ..

الثانى : هو أن نحدد الأخطاء الرئيسية الموجودة فى البلد دلوقتى ، ونشوف إزّاى نصلحها ، اللى بيتقال فى البلد دلوقتى إن احنا بناكل بعضنا ، النظام بياكل نفسه ، والمستقبل بهذا الشكل حيكون خطير جدا ، لذلك أنا من رأيي أننا نعمل على تغيير النظام اللى إحنا ماشيين عليه لأنه لازم فيه غلط ، والمعروف أن نظام الحزب الواحد تحدث فيه دائما صراعات فى قمته على السلطة، وعندنا الكثير من الأمثلة فى العالم آخرها ما حدث فى الصين مثلا ، وهو مثال واضح ..

أنا شايف أنه لم يبق فى عمر معظمنا أكثر من عشر سنين ، وخصوصا لىّ مع المرض اللى عندى ومع الضغط والجهد اللى باتعرض له ، لذلك أنا شايف ضرورة تغيير نظامنا بحيث لا يسمح النظام الجديد لشخص واحد أو لشلة غير واعية أو جاهلة سياسيا أن تحكم البلد .. البلد اللى أعطتنا ثقتها المطلقة بلا حدود ..

طبعا التغيير اللى أقصده لا يمس اتجاهنا الاشتراكى لأننا فى الحقيقة إحنا نكاد نكون قد انتهينا من التطبيق الاشتراكى فى أغلب القطاعات باستثناء المقاولات وقطاع التجارة ، بعد كده يبقى عملنا مركز أساسا على خطط التنمية اللى بنحطها وعلى متابعة تنفيذها بعد كده .. انتهى ..

تطول المناقشة فى مختلف الأمور ولكنها فى الغالب تتركز على ضرورة التغيير ولقد جاء هذا نتيجة لما حدث فى حرب ٦٧ حيث أدرك جمال عبدالناصر أن هناك أخطاء وهناك شللاً وهناك تواكل وهناك إهمالاً فى كل شئ ، وخصوصا فكرة الحزب الواحد ، ولهذا اراد أن يسمع رأى رفاقه ، وانتهى إلى القول :

أنا فى رأيي أن النظام الحالى استنفد كل مداه ، ولابد من نظام جديد ، وأنا شخصيا عندى اقتراحات محددة فى الموضوع ده :

أولا : أننا كأعلى سلطة سياسية فى البلد علينا أن نتحرر من الخوف وبعد كده نبقى نحرر البلد كلها من الخوف ..

ثانيا : إذا كنا عايزين حقا توفير الأمن والسلام زى ما قلتم فلنسمح بوجود معارضة فى البلد ، وطبعا لا أتصور عند تكوين المعارضة دى أننا نقول أن زكريا يمثل إتجاه معين وعلى صبرى يمثل اتجاه آخر ، وبكده يبقى فيه معارضة وفيه حكم ، ده إحنا لو عملنا كده يبقى بنعمل مسرحية المعارضة ، أنا أعرف أن المعارضة الحقيقية هى أننا نجيب الذين يعارضوننا فعلا فى الوقت الحاضر ، مثل بغدادى وكمال حسين وكلاهما أصلا مننا وسبق أن وافقوا على الميثاق ونسمح لهما بتكوين حزب معارض ونسمح لهما بجريدة تعبر عن رأى الحزب ، ومن ناحيتنا إحنا نعيد تنظيم صفوفنا ونعمل حزب الاتحاد الاشتراكى ثم ننهى الدورة البرلمانية الحالية وتجرى انتخابات جديدة فى شهر ديسمبر السنة دى على أساس قائمتين للحزبين ، واللى يكسب الانتخابات يستلم الحكم والثانى يشكل المعارضة ، على أساس أن يبقى الجيش كجهاز مختلف وكذلك البوليس ..

أنا شايف أننا لو نفذنا الاقتراح ده سنشفى من كل الأمراض الموجودة بيننا دلوقت ، وسيتحرر كل واحد فينا من الخوف اللى تفشى بيننا من أكبر هيئة إلى أصغر هيئة ، أنا ضد نظام الحزب الواحد لأن الحزب الواحد بيؤدى غالبا إلى قيام ديكتاتورية مجموعة معينة من الأفراد ..

آخر كلامي في الموضوع ده ، أننا إذا ماغيرناش نظامنا الحالى حنمشى فى طريق مجهول ولن نعلم من اللى حايستلم البلد من بعدنا ، واللى وصلنا إلى أننا أصبحنا نستحى أننا نتكلم ونقول الحقيقة أو نقبل النقد ، سيؤدى بنا إلى مستقبل مظلم ، والنظام الحالى لن يمكننا إصلاحه عن طريق إدخال التعديلات أو القيام بعمليات ترقيع وإعطاء مسكنات أسبرين ، كما أن الناس موش حاتصدقنا لما نقوم بعملية رتوش ..

وأيضا بعد مناقشات طويلة واختلاف الآراء وإبراز تخوفات كثيرة انتهى الرئيس عبدالناصر إلى القول أقسم فى هذا اليوم ٩ يونيو ١٩٦٧م على أن أقول رأيي بصراحة وإلا أخدع الشعب مهما كانت الأسباب وألا أساوم أو أتبع سياسة التوازنات وأن أقاتل فى سبيل مبدئى ..

وفى هذا الوقت كانت مظاهرات طلبة الجامعات قد شدت انتباه المسؤولين احتجاجا على تلك الأحكام التى صدرت ضد الضباط المقصّرين فطلب عبدالناصر مناقشة هذا الحدث ، قال :

(إننى أرجو أن يتفضل السيد شعراوى جمعة وزير الداخلية أن يلقى بيانا عن وقائعها وإن أمكن أن يقدم تحليلا عن حوافزها ، اتجاهاتها ، مؤشراتها ، كما أرجو من السيد الأمين العام للاتحاد الاشتراكى بوصفه المسؤول عن التنظيم السياسى أن يلقى كل الأضواء الممكنة على هذه المظاهرات ، وهناك نقاط يجب أن يتوقف عندها المجلس ، وأن ينظر إليها لا بعين السلطة كما قلت ، ولكن بعين الساسة ، ويجب أن يسهم المجلس جميعه فى مناقشتها ..

هذه أول مظاهرة يمكن أن تسمى انتفاضة سواء من ناحية النوع أو الأهداف أو الشعارات ..

إن أمامى تقرير النيابة العامة عن هذه المظاهرات ، لقد اندلعت صباح يوم ٢١ فبراير ١٩٦٨م فى بعض أقسام القاهرة والجيزة ، واسمحوا لى أن ألخص أمامكم أهم ما جاء فيه ..

أولا : إن المظاهرات بدأت فى حلوان تحت إشراف الاتحاد الاشتراكى ، فالذى لا يؤخذ من أقوال عبداللطيف مليجى بلطيه مع السيد عبدالمجيد فريد مساء

يوم ١٩٦٨/٢/٢٠ بمناسبة ما كان قد وصل العلم به من احتمال خروج عمال مصانع الطائرات فى مظاهرة فى اليوم التالى احتجاجا منهم على الأحكام الصادرة فى قضايا الطيران ، فقد كلفت قيادة الاتحاد الاشتراكى بالحضور إلى مقر المكتب التنفيذى فى الصباح لمنع خروج المظاهرات حسب أقوال عبداللطيف بلطيه أو مواجهة التعبير الجماهيرى بأسلوب سياسى أى تنظيم حركة الجماهير (حسب أقوال السيد محمد وهدان) ولكن رجال الاتحاد الإشتراكى فشلوا فى السيطرة على الجماهير ، وتصدى رجال الشرطة لهم وأطلقوا النار عليهم فأصيب تسعة أشخاص من أعيرة نارية ، من بينهم أربعة كانوا مارين بالصدفة، المظاهرات إذن بدأت تحت سيطرة الاتحاد الاشتراكى طبقا لخطة وضعها فى اليوم السابق ثم خرجت عن السيطرة ..

ثالثا: إن المظاهرات ما لبثت أن انتشرت فى دائرة عدد من أقسام القاهرة والجيزة والإسكندرية، وفى كلية الهندسة بجامعة القاهرة بالذات ..

ثالثا : إن الشرطة قد أطلقت الأعيرة النارية لفض المظاهرات وقد سقط إثنان من القتلى ،كما أصيب ، من غير الأعيرة النارية ، من رجال الشرطة اثنان وعشرون ضابطا وخمسة وستون جنديا، وأربعون من الطلبة والأهالى ، كما حدثت تلفيات فى سيارات الشرطة وغيرها من الممتلكات الحكومية والأهلية ..

رابعا : إن هتافات المتظاهرين وطلباتهم تجاوزت حدود قضية الطيران ، وتناولت النظام ذاته ، ففى كلية الهندسة بجامعة القاهرة تظاهر طلبة الكلية يوم ٢٥ فبراير١٩٦٨ ومعهم طلبة من الكليات الأخرى ، ووزعوا منشورات تضمنت الطلبات الآتية :

- الإفراج عن جميع زملائهم المعتقلين .
- حرية الرأى والصحافة .
- مجلس حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة .
- إبعاد المخابرات والمباحث عن الجامعات .
- إصدار قانون الحريات والعمل به .

- التحقيق الجدى فى حادث العمال فى حلوان .

- توضيح حقيقة المسؤولين فى قضية الطيران .

- التحقيق فى انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة .

وقد ظل الاعتصام داخل كلية الهندسة حتى مساء يوم ٢٧/ ٢/ ٢٩٦٨ إلى أن حضر بعض أعضاء مجلس الأمة واصطحبوا الطلبة المعتصمين إلى خارج الكلية ..

كما ثبت من تحقيقات النيابة العامة أن الهتافات التى ترددت فى المظاهرات كانت :

نتيجـةلمواقف عبدالناصر لـم تصب الأمة العربية باليـأس فظهرت إرادة الفلسطينى فى ثورة كاسحة ، وقبل ذلك كانت ثورة اليـمن ردا على جريمة الانفصال فجاءت ثورتا ليبيا والسودان ردا على الهزيمة ..

وكان هتـاف المتظاهرين ، تسقط دولة المخابرات ، تسـقط دولة العسكريين ، تسقط صحافة هيكل الكاذبة ، لا حياة مع الإرهاب ولا علم بدون حرية ، يا جمال الشعب هوه هوه اضرب الخونة بقوهة ، يا سادات فين قانون الحريات ، يا شعراوى يا جبان راحو فين عمال حلوان ..

وتثير هذه المظاهرات أكثر من سؤال سياسى ، أكانت تلقائية أم غير تلقائية ؟ من حركـها ؟ ولحسـاب من ؟ أين مكان التنظيم السيـاسى فيمـا حدث ؟ إن الأخ على صبرى أمين الاتحاد الاشتراكى يمكنه أن يرد على هذه الأسئلة ؟

هل تلقى المظاهرات أضواء على تيارات الجبـهة الداخلية ؟ وحدة أم تمزق ؟ سخط شعبى ؟ وإلى أين يتجه ؟ أهى بداية لحركة شعبية ؟ ما لونها ؟

لقد مـضت على هزيمة يونيو ثمانيـة شهور فـهل ينبغى أن نعاود مناقـشتنا ، كمجلس وزراء ، فى أسـباب الهزيمة والتزامات النظام فى تصحـيح ما حدث ؟ أن نتحدث مرة أخرى عن أسلوب الحكم وعن نظام الحكم ؟

لقـد قلنا من قبل أن نظامنا اشـتراكى ديموقـراطى يقوم علـى سيادة الشـعب وقيـادة جماعيـة منتخبـة وسيادة القانون ، وقلنا أن الانحـرافات التى شابتـه عندما ناقشنا أسباب النكسة ، هى انعدام القيادة الجماعية ، والافتئات على سيادة القانون، والهوة السحيقة بين الشعارات والسلوك ، وضعف النقاء فى بعض القادة ..

إن الشعب بعد ثمانية أشهر من الهزيمة لايزال يطرح هذه الأسئلة ، هذه المرة بصوت أعلى ..

هل هناك حكومة ؟ مجلس أمة ؟ تنظيم سياسى ؟

واسمحوا لى أن أضيف إلى هذه الأسئلة سؤالا من عندى ، هل هناك وحدة فكر بيننا؟

إذا لم يكن شئ من ذلك فلابد ، فى نظرى ، من حلول جذرية ولا تكفى الحلول المؤقتة أو التوفيقية ، لابد من تغيير جذرى ، لابد من حكومة جديدة تتمثل فيها القيادة الجماعية المسؤولة، لابد من صيغة جادة للعمل الوطنى وانتخابات جديدة لإعادة بناء التنظيم الشعبى ..

ولقد غطى على كل هذه التساؤلات شئ أساسى واحد يقول لا صوت يعلو على صوت المعركة (وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة)

ثم هناك سؤال تطرحه الجماهير ، هل نحن حقا ، فى حالة حرب ؟ هل ننوى الحرب أم أننا نخدع الناس ؟ هلى الوقت فى صالحنا ؟ ونحن نستخدمه على النحو الجارى .. انتهى .

وكان يمكن أن تنفذ جميع هذه التساؤلات إذ أن عبدالناصر كان مصمما على التصحيح ، وما قاله يعتبر نقد ذاتًا ، ولكن مع الأسف لم يمهله القدر ..

ولقد بدأت حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٨م ، ويروى تلك المعاناة فى المواجهة غير المتكافئة مع العدو الذى اعتقد أنه كسر عزيمة الجندى المصرى الأستاذ محمود رياض على الوجه التالى :

(كان تحديد موعد المعركة لتحرير الأرض مطروحا للمناقشة منذ بداية عام١٩٦٧ بمجرد الانتهاء من إنشاء الخط الدفاعى غرب القناة ، وإذا كنت قد شاركت البعض فى الأمل بإمكان إنهاء العدوان الإسرائيلى عن طريق العمل السياسى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ إلا أننى بعد أن شاهدت بنفسى الدور الذى قامت به الولايات المتحدة الأمريكية فى مجلس الأمن عندما صدر القرار ٢٤٢ فى نوفمبر ١٩٦٧ تأكدت من استحالة الحل السلمى ولذا فإننى لم أتردد لحظة فى إبداء الرأى القاطع خلال اجتماعات القيادات السياسية والعسكرية فى القاهرة بأنه

لا سبيل لتحرير الأرض سوى القوة المسلحة وكانت لدى عبدالناصر القناعة بذلك منذ أن لمس خداع جونسون وتآمره مع إسرائيل فى الإعداد للعدوان علينا ..

وقد حدد عبدالناصر موعد المعركة فى ذلك الوقت عندما قال بأننا لن نبدأ المعركة قبل أن نستعد لها ولن نتأخر لحظة واحدة بعد أن نستكمل استعداداتنا ..

غير أنه عندما بدأت عملية بناء الجيش اتضح حرص الولايات المتحدة على إبقاء الفجوة العسكرية بين العرب وإسرائيل قائمة وخاصة فى سلاح الطيران ، فكلما تلقينا أسلحة من الاتحاد السوفيتى كانت تسارع بتسليح إسرائيل بأسلحة أكثر تطورا ، ولذلك كان لزاما على القيادة العسكرية أن تعيد تقييم الموقف باستمرار فى ضوء هذه الحقيقة ..

وكان توجيه عبدالناصر السياسى هو ضرورة البدء فى معركة التحرير دون انتظار لتحقيق التوازن المطلوب فى سلاح الطيران لأن ذلك قد يستغرق سنوات طويلة وقد لا نستطيع تحقيقه ..

وبدأ الفريق فوزى ومعاونوه يعدّون الجيش لخوض المعركة على أساس هذا التوجيه السياسى ، فعمدت القيادة العسكرية على تدريب القوات المسلحة بطريقة مكثفة للغاية وصفها البعض بأنها كانت شديدة القسوة ولكنها الوسيلة الوحيدة لبناء جيش فى أقصر وقت بعد أن عانى من الهزيمة..

ولمواجهة التفوق الجوى اتجهت القيادة العسكرية إلى تقوية الدفاع الجوى إلى أقصى حد ممكن ، فأقامت أقوى شبكة عرفها العالم فى ذلك الوقت للدفاع الجوى فى منطقة القناة ، مما يوفر لقواتنا المسلحة عند قيامها بعبور القناة حماية قوية ..

ولقد استطاعت القيادة العسكرية أن تحقق نجاحا كبيرا فى تنفيذ مخططها لبناء الجيش فى نهاية عام ١٩٧٠ مما كان يتيح لقواتنا المسلحة البدء فى عملياتها لتحرير الأرض فى ربيع عام ١٩٧١

وعندما قرر عبدالناصر البدء فى حرب الاستنزاف لم يكن هدفه قاصرا على رفع معنويات الشعب والقوات المسلحة وإنما كان يرى أن حرب الاستنزاف هى أفضل وسيلة لإعداد الجيش لخوض معركة التحرير ..

وعندما قبل عبدالناصر قرار إيقاف إطلاق النار بناء على مبادرة روجرز فى أغسطس ١٩٧١ ولمدة ثلاثة أشهر كان يهدف إعطاء آخر فرصة للولايات المتحدة الأمريكية للعمل من أجل تحقيق السلام قبل بداية المعركة فى ربيع العام التالى ، وقد توفى عبدالناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وقبل انتهاء فترة وقف إطلاق النار ، وعندما سألنى الكثيرون فيما بعد عن قرار عبدالناصر المتوقع بعد نهاية الثلاثة شهور كنت أجيب عن يقين بأن عبدالناصر كان سيستأنف حرب الاستنزاف تمهيدا لمعركة التحرير ، وقد سبق وصرح بذلك فى آخر لقاء له مع بريجنيف .

وكان عبدالناصر واثقا من أن الاتحاد السوفييتى سيواصل دعمه لنا بالأسلحة كما فعل طوال حرب الاستنزاف ..

وعندما جاء الرئيس السادات إلى الحكم بعد وفاة عبدالناصر كان فى حاجة إلى التعرف على أبعاد الموقف السياسى والعسكرى وقد تولدت لديه قناعة بضرورة إتاحة المزيد من الفرص أمام الولايات المتحدة لتحقيق الحل السلمى ..

فاستمرت محادثاته مع الولايات المتحدة طوال عام ١٩٧١ مع روجرز ، وطوال عام ١٩٧٢ مع كيسينجر الذى أسرف فى وعوده للرئيس السادات فى الوقت الذى كانت الولايات المتحدة تواصل إرسال الأسلحة لإسرائيل ، وقد وصل الدعم خلال عام ١٩٧٢ و ١٩٧٣ إلى ما يزيد عن ثلاثين فى المائة من قواتها عام ١٩٧١ وكان معظم الدعم لسلاح الطيران الإسرائيلى وبذلك كان كيسينجر يعد إسرائيل للمعركة بدعمها عسكريا وبتعطيل مصر عن اتخاذ القرار بالحرب .. انتهى .

ولقد أشار الأستاذ محمود رياض فى أكثر من مكان إلى موقف الرئيس الأمريكى جونسون وكيف أنه كان منحازا إلى جانب إسرائيل ، والواقع أن ذلك غير مستغرب فهو موقف أمريكى يسير عليه فى الغالب كل رئيس امريكى قبل جونسون وبعده ، ونحن نرى أن العيب ليس فى أى رئيس أمريكى أو غيره وإنما العيب فينا نحن العرب لعدة أسباب ، أولها : أن أغلب الحكام العرب موالون للولايات المتحدة الأمريكية اقتناعا منهم بأنها قادرة على إبقائهم على رؤوس شعوبهم فى الحكم ، وثانيا : لأنها ربما هى التى جاءت بهم للحكم ، وثالثا : هم لا يهمهم التحرير أو الاستقلال أكثر من أن يبقوا فى مناصبهم ، ولذلك فقد كان طبيعيا أن تتآمر الولايات المتحدة من خلال كل أجهزتها على رجل مثل عبدالناصر

ليس فقط بتسليح إسـرائيل وإنما بالقتل ، وهذا كتاب الموساد الذى ألفـه (ريتشارد ديكون) يقول :

وقد يكون هناك انتـقادات فى الولايات المتحـدة بين الحين والحين من جانب هؤلاء الذين يشعرون بأن النفوذ الإسرائيلى قـد توغل بشكل كبير جدا ، لكن مثل هذا الاعتقاد تلاشى كثيرا فى السنوات التى سبقت حرب الأيام الستة مباشرة لأن الموساد قـد قدمت قـدرا هائلا من المعلومات للأمـريكيين ، وكانت معـلومات تهم الولايات المتحدة ، بشكل مـباشر ، وبصفة خـاصة يوجين روستو وشقـيقه والت الذى أصبح مستشار الرئيس جونسون لشئون الأمن القومى ..

والواقع أن والت هو الذى حث الرئيس جونسـون على الاقتناع برأى كانت تشـاركه فـيـه المخـابرات المركزية وإسـرائيل على السـواء ، وهكذا فـإنه فى نهـاية ١٩٦٥م حدث تحول كامل فى السياسـة الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط إلى حد أن كانت هناك ضـغوط داخل المخابرات المركزية الأمريكـية لكى يدبر انقلاب يطيح بناصـر ، وحيث أنه كـان واضحا أن مـوقف ناصر فى مـصر كـان من القوة بحيث لا يشـجع على تدبير مـثل ذلك الانقلاب فقـد طرحت فكرة أخرى نفسـها بشدة ، وهى أن هزيمة عسكرية لمصر يمكن أن تؤدى إلى سقوطه ..

ولقـد حدث هذا كله فى الوقت الذى كـان أحمـد الشقـيرى رئيس منظـمة التحرير الفلسـطينية وكانت قد أنشئت حـديثا يقيم تحالفـا مع ناصر ، على أساس أحلام أطلقوا لهـا العنان بأن تل أبيب سوف تدمر تماما وأن اليـهود سوف يطردون من فلسطين ، وعقدت اجتماعـات سرية للغاية بين ممثلى وكالة المخابرات المركزية فى منطقة الشـرق الأوسط وأعضاء من الخـدمة السريـة الإسرائيلية بغـرض تنسيق السياسة وعملية جمع المعلومات ، ومن بين الذين أداروا هذه الاجتماعات جيمس أنجلتون وأفـريم أفرون ومائيـر أميت الرئيس الجديد لـلموساد والبـريجادير باريف مدير المخابرات الحربية .. انتهى

ولقـد أردت أن أنقل هذه الفقـرة من كتـاب الموساد لأعـزز ما ذكـره السيـد مـحمـود رياض عن خداع الرئيس الأمـريكى جـونسون الذى تحـدث عنه جمـال عبـدالناصر ، وكمـا أوردت فإن مواقف الرؤسـاء الأمريكيين كـانت دائما فى هذا الاتجاه إما علنا أو سرا ضد العرب ومع إسرائيل ..

ولأن جمـال عبدالناصر لم يكن من الرجـال الذين يضعون مصائر بلدانهم في إطار سيـاسة واحدة ولا حـزب أو حلف وبالرغم من علاقاته المتـينة مع الاتحاد السوفيـيتي والقادة السوفـييت نراه يسعى لخلق علاقـات مع القطب الدولى الآخر أمـلا فى خلق توازن فى علاقـاته الدوليـة ، وهكذا فقـد حـاول أن يمد يده للرئيس الأمـريكى الذى انتـخب حديثـا وهو من الحـزب الجمـهورى السيـد (ريتشـارد نيكسون) ويقول أنتونى ناتنج فى واحدة من لقاءاته مع عبدالناصر :

(فإن انتـخاب ريتـشارد نيكسـون رئيسـا للجمـهورية فى أمـريكا أدّى إلى إحيـاء آمال عبدالناصـر بصورة واضحـة ، وعندما التقـيت به فى ذلك الوقت كان يشعر بارتيـاح لمعرفته بأنه لن يضطـر بعد ذلك للتعامل مع جـونسون إلى درجة أنه كان يعـتبـر اى أمريكى آخـر أفضل ، كمـا كان يشـعر أن نيكسون الـذى عمل مع أيزنهاور نائبـا للرئيس ، وبحكم أنه جمـهورى لن يكون مدينا لأصـوات الناخبين اليهود ، ومن ثم سيتخذ موقـفا أقل تحيزا بين إسرائيل والعرب ، وهكذا عندما عاد ويليام سكارتون المبعوث الشخـصى للرئيس المنتخب بعد ذلـك بفترة قصيـرة من رحلة لتقصـى الحقائق فى الشرق الأوسط معلـنا أن السياسة الأمريكيـة فى المنطقة يجب أن تكون أكثر إنصـافا ، ارتفعت آمال عبدالناصر أكـثر من أى وقت مضى ، ولما أكد ديان عـقب حديث خاص مع نيـكسون أن السيـاسة الأمريكيـة فى الشرق الأوسط لن تتغـير فى عهد الحكومـة الجديدة كان عـبدالناصر يميل إلى اعتـبار هذا التأكيد ضربا من التبجح ..

لكن ثبت فى أقل مـن سنة أن ديان كان عـلى صواب تمامـا فـقـد كان أحـد القرارات الأخيـرة التى يتعين على جونسـون اتخاذها هو السماح بتـزويد إسرائيل بأحدث القاذفات المقـاتلة الأمريكية من نوع فانتوم وقبل أن يتـخذ هذا القرار بعث برسالة إلى عبدالناصر يذكر فـيها أن أشكول قد طلب هذه الطائرات خلال زيارته إلى واشنطن فى شـهـر يناير إلا أنه مـتـردد فى إرسـال مـثل هذه الأسلحـة القـوية والحديثـة إلى منطقة مـتفجـرة كالشـرق الأوسط ، وأنه لو أظهرت مـصر والروس الذين يمدونها بالأسلحة استعدادا لانتهاج سياسة معتدلة فإنه سيضع هذا فى اعتباره عندما يـتخذ قـرارا فيـما إذا كان يرخص أو لا يرخـص بتزويد إسرائيل بـشحنات الفانتوم ، وقد أثارت هذه الرسالة غضب عبـدالناصر لأنها وجهت إليه رغم قبوله

للقرار ٢٤٢ ورغم ما يبذله من جهود للتعاون مع يارنج فى الوقت الذى تبدى فيه إسرائيل عنادا مستمرا ، وكان يشعر أنه كان ينبغى على جونسون أن يوجه كلامه إلى إسرائيل لا إلى مصر ، ورغم أنه رد عن طريق طرف أمريكى على صلة بهيكل بأن واشنطن تكشف عن حقد بمطالبته بإظهار ضبط النفس فى هذه الظروف ، فإنه لم يرتض لنفسه أن يبعث برد رسمى ..

لذلك وافق جونسون على شحن طائرات الفانتوم إلى إسرائيل فى أكتوبر عام ١٩٦٨ وذلك قبل انتخابات الرئاسة بأسابيع قليلة ، لكن عندما تقلد نيكسون مهام منصبه فى شهر يناير التالى لم تكن طائرات الفانتوم قد أرسلت إلى إسرائيل وأوقف التسليم انتظارا لصدور قرار من الحكومة الجديدة ، وظلت المسألة معلقة طوال الثمانية شهور التالية مع استخدام الإسرائيليين كل ما أمكنهم من ضغط لإرغام حكومة نيكسون لتسليم الطائرات ، وفى شهر سبتمبر ١٩٦٩ أفرج عن أول دفعة من طائرات الفانتوم ..

كان التوقيت من أسوأ ما يكون بالنسبة للعلاقات المصرية الأمريكية ، فبصرف النظر عن خيبة الأمل التى لا مفر منها والتى أحست بها القاهرة لعدم إلغاء نيكسون القرار الذى اتخذه سلفه ، فإن الإفراج عن طائرات الفانتوم حدث فى نفس الوقت الذى رفض فيه الروس رفضا قاطعا مرة أخرى تزويد مصر بأية طائرات مماثلة ، فضلا عن أن حكومة نيكسون كانت قد بدأت تبرهن فى غضون ذلك أنها لا تكاد تكون أقل إحجاما عن الحكومة السابقة فى الضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار مجلس الأمن .. ويستمر ناتنج قائلا :

وبحلول عام ١٩٦٩ كان المصريون قد بدأوا يفقدون الأمل فى سياسة الإنصاف التى كان سكرانتون قد حملهم على توقعها من وراء تغيير الحكم فى واشنطن إذ أن حكومة نيكسون لم ترتض ، كما اعترفت جولدا مائير صراحة ، أن تطلب حتى فى مقابل تلك الأسلحة الفتاكة مثل قاذفات القنابل من كراز فانتوم أن تذعن إسرائيل لقرار مجلس الأمن ، ولما ضاق عبدالناصر ذرعا شن هجوما على الموقف الأمريكى فى خطاب عام فى ٦ نوفمبر حيث قال إن كل جهود مصر لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ قد باءت بالفشل بسبب عناد إسرائيل الذى يشجع

عليه تأييد واشنطن غير المشروط لها بالسلاح والمال ، وأعلن أن الأمريكيين يقاتلون خلف القوات الإسرائيلية ويزودونها بالطائرات التى يستخدمونها ضدنا ففى ظل هذه الظروف لم ير أى أمل فى التوصل إلى تسوية بالوسائل السلمية ، وأنه يبدو أنه لم يعد ثمة وسيلة للخروج من هذا الموقف سوى(استخدام القوة ، لشق طريقنا إلى ما نريد فوق بحر من الدماء وتحت سماء من النيران) وهكذا قطع عبدالناصر الأمل من قادة الولايات المتحدة ولم يكن أمامه من سبيل غير الضغط على السوفييت للحصول على المزيد من الأسلحة والمعدات بحيث ينفذ ما قاله (شق الطريق إلى ما يريد فوق بحر من الدماء وتحت سماء من النيران) ..

وكنت أمضى الأمسية التالية لأولى الغارتين الإسرائيليتين مع عبدالناصر ، وقد يتعذر على المرء أن يصادف من هو أكثر منه شعورا بالإحباط ، فلم يكن أمامه لعدم قدرته على التوصل إلى سلام مع إسرائيل أو خوض حرب ضدها ، سوى أن يأمل فى أن يستطيع المصريون يوما ما إرغام العدو على التخلى عن تشدده والعودة إلى ما وراء حدوده السابقة عن طريق الاستمرار فى قصف جيوش الاحتلال بالمدفعية عبر القناة ، وكان عبدالناصر فى هذه الأثناء ، قد أصدر أوامره بمد شبكة الدفاع الجوى المصرى لتغطى البلاد كلها ، ولكن البلاد ظلّت مع ذلك ، كما أظهرت الغارة الثانية التى وقعت بعد ذلك بستة شهور على الصعيد مكشوفة مثلما كانت قبل ذلك ، أمام الغارات الإسرائيلية ، ولم يكن أقل من ذلك ضررا الهجوم الذى شنته قوة للعدو على إحدى الجزر المصرية الواقعة فى خليج السويس وأدّى الى مقتل خمسة وعشرين من أفراد الحامية وتدمير المدافع المضادة للطائرات والأخطر من ذلك أنه فى شهر يناير عام ١٩٧٠ قامت قوة إسرائيلية أخرى بالاستيلاء على جزيرة شدوان الواقعة قرب الساحل المصرى على البحر الأحمر ، والتى تستخدم كمحطة لمتابعة طائرات العدو وبعد أن قتلت ما يزيد على ثمانين جنديا مصريا قامت إما بتحطيم أو بفك كل قطعة من أحدث محطة للرادار ..

وبعد كل هذه التطورات وكما قال الكاتب الإحباطات والمواقف الأمريكية ضد سياسات عبدالناصر وانحيازها بالكامل لإسرائيل بل وتركها لضرب كل حجر على الأرض المصرية كان عبدالناصر يواجه صعوبات بالغة فى محاولات إقناع السوفييت بخصوص تزويده بالسلاح للدفاع عن بلاده ، وهنا يقول ناتنج :

(وقد تطلب الأمر من عبدالناصر ثمانية أيام من الجدل لإقناع بريجنيف وكوسيجين بتلبية مطالبه، وما أن رنتهى من ذلك حتى أرسل الإسرائيليون طائراتهم الجديدة من طراز فانتوم ، كما كان يخشى تماما ، لشن غارة على إحدى ضواحي القاهرة الصناعية راح ضحيتها سبعون قتيلا عندما دمرت إحدى القنابل مصنعا للحديد الخردة ، وبعد ذلك وقعت غارة إسرائيلية أخرى فى أبريل ١٩٧٠ ، بعد ذلك بشهرين كانت نتيجتها تدمير مدرسة فى الدلتا وقتل ثلاثين طفلا (هذه المدرسة كانت تعرف باسم مدرسة بحر البقر) وقد أبدت واشنطن أسفها لوقوع هذه الهجمات وطالبت ، رغم تأخر هذه الخطوة بعض الشئ ، بإجراء محادثات بين الدول الأربع الكبرى بشأن الحد من شحنات السلاح إلى كلا الجانبين بعد أن زودت إسرائيل بكل الأسلحة المتقدمة لكن التعليق الإسرائيلى الوحيد كان تصريحا أدلى به دايان جاء فيه ، أنه إذا كان التلاميذ المصريون قد لقوا مصرعهم ، فإن ذلك يرجع إلى خطأ السلطات المصرية لتعريضها أرواحهم لخطر قصفهم بالقنابل، وبعد مرور ثلاثة أسابيع ، اتخذت الحكومة الإسرائيلية موقف الطرف المعتدى عليه بالشكوى علانية مما زعمت أنه دليل قاطع على أن الطيارين السوفييت ينطلقون بطائراتهم فى مهام حربية من قواعد جوية فى مصر يسيطر عليها السوفييت ، وبعد تلك الجهود وقد استطاع عبدالناصر إقناع القادة السوفييت بالموافقة على دعم بلاده عسكريا أراد أن يؤكد ذلك فى الميثاق ، فقال :

(استطعنا أن نقوم بجهد سياسى واسع على جبهات عريضة ، جبهات عربية، وجبهات دولية، وتنوعت جهودنا وتعددت على هذه الجبهات ، بالاتصال المباشر مع الأصدقاء ، فى الدول الاشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى ، الذى أكدت لنا ظروف النكسة ، صداقته المخلصة ، وتعاونه الصادق ووقوفه الصلب ، فى جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار ، وكذلك مع الدول غير المنحازة ، ومع الدول الأسيوية الأفريقية ، ومع الدول الإسلامية ، ومع كل الشعوب الراغبة فى سلام قائم على العدل ، ومع كل الساسة العالميين الذين يستطيع بعد نظرهم أن يتجاوز نكسة عارضة فى تاريخ أمة ، كان لها دورها العظيم فى مصير الإنسانية ، إن هذه التحولات كلها قادها ودعمها إحساس عميق بالواجب ، لدى كثيرين من رجالنا ، فى كل مجالات المسؤولية ، فى القوات المسلحة ، ومن خبراء الاقتصاد ، والعاملين فى وحدات الإنتاج ، ومن الملتزمين بأهداف النضال الشعبى ، والقادرين

على خدمتها ، ومن المشتغلين بالسياسة ، وبالفكر ، والدبلوماسية ، كل هؤلاء ساهموا فى قيادة ودعم هذه التحولات ، التى تقارب المعجزة ، والتى نستطيع بعدها أن نقول اليوم ، الآن يصبح فى إمكاننا أن نتطلع إلى المستقبل .. انتهى

ومع كل الجهد والمعاناة اللذين كان يبذلهما جمال عبدالناصر من أجل حماية الداخل المصرى الذى أصبح يتعرض للقصف الإسرائيلى وقتل المدنيين ثم الرد بعد أن يحصل على الأسلحة والمعدات التى كان يلح عليها من السوفييت ، استمرت حملات التشكيك والتهجم والشماتة فيه وعليه وعلى نظامه ككل خلال تلك الفترة العصيبة وبعدها عندما انتقل إلى جوار ربه ..

ولعل أبلغ رد على المشككين فى عهد عبدالناصر بعد تلك الهزيمة النكراء والذين نسبوا كل شئ بعد وفاته لمن جاء بعده حتى أنهم وصموا عهده بالكفر لمجرد أن أغانى أم كلثوم كانت تسمع فى بعض المعسكرات، نعود إلى مذكرات الرجل الذى تولى قيادة القوات المسلحة بعد الهزيمة والذى كلفه عبدالناصر بالإعداد لمعركة التحرير ، وهو الفريق أول محمد فوزى وهى بعنوان (حرب الثلاث سنوات) يقول عن بداية إعداد خطة تحرير سيناء :

كان من المقرر فى خطة التدريب على واجبات العمليات الحربية لعام ١٩٧٠ إجراء مشروع استراتيجى على مستوى الدولة تشترك فيه كل القوات المسلحة المصرية بقياداتها وجنودها ، وأجهزة الدولة المدنية التى لها ارتباط وثيق بالجهد الحربى فى المعركة ..

وكان قد تم مشروع تنسيق التعاون بين أفرع القوات المسلحة والجيوش الميدانية فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ تمهيدا للقيام بهذا المشروع الاستراتيجى ..

وبوفاة القائد والرئيس جمال عبدالناصر تأجل هذا المشروع الى أن تم فى أوائل عام ١٩٧١ وتم وضعه وتجهيزه بمعرفة هيئة عمليات القوات المسلحة المشتركة مع مجموعة تخطيط وعمليات من المستشارين السوفييت ، وحددت توقيت المشروع الذى استغرق ١٢ يوما متواصلاً من ١٤/ ٣/ ١٩٧١ الى ٢٥/ ٣/ ١٩٧١ ..

اشترك جميع قادة وضباط وجنود القوات المسلحة فى هذا المشروع كما اشتركت فيه منظمات الدفاع الشعبى وأجهزة الدفاع المدنى ..

كان هدف المشروع هو اختبار قدرة وكفاءة القوات المسلحة على تحقيق أهداف الخطة (جرانيت) بالتفصيل وإتمام الخطة ٢٠٠ بصفة عامة ، وعلى ذلك وضع الهدف المباشر للقوات الهجومية المكونة أساسا من ٥ فرق مشاة -٣ فرق ميكانيكية -٢ فرقة مدرعة - ٣ لواء مدرع مستقل -٣ كتائب استطلاع برى ولواء إنزال بحرى وقوات الإبرار الجوى تعاونها القوات الجوية والبحرية وقوات الدفاع الجوى ليكون احتلال المضايق الرئيسية وتأمينها حتى يوم ي + ٤ وهذا يحقق الخطة المرسومة ..ويستمر الفريق أول محمد فوزى فى سرد كل التجهيزات والقوات للمعركة المرتقبة الى أن يصل إلى ما أسماه ، نتائج ودروس معارك سنة ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ (فيقول..

عرضت فى صدر هذه المذكرات أسباب ودوافع وظروف يونيو ١٩٦٧ وأسلوب إدارة المعركة والقتال الذى لم يأخذ مكانه أو زمنه بسبب فقد القوات الجوية لمعظم طائراتها فى بداية المعركة ، ثم قرار المشير عبدالحكيم عامر بالانسحاب إلى غرب القناة فى ليلة واحدة بعد ٣٦ ساعة من بدء القتال الذى أسرع بالنهاية الأليمة لمعركة يونيو ١٩٦٧ ..

وظهر من سرد وقائع وظروف هذه المعركة أن الجندى المصرى لم يأخذ فرصته فى قتال العدو ، إذ لم تهيئ له الظروف إثبات شجاعته وتحمله مشاق القتال كما أثبتها فى جميع المعارك السابقة واللاحقة لهذه المعركة ، وكان السبب الواضح لنتيجة هذه المعركة الخاسرة هو عدم إعداد وتأهيل القوات المسلحة لها ..

وبالرغم من نجاح العدو الإسرائيلى فى الاستيلاء على سيناء إلا أنه لم يستطع التغلب على الإرادة المصرية أو حتى تطويعها للوصول إلى أهدافه السياسية، فلم تنبه معركة يونيو ١٩٦٧ باستسلام مصر أو توقيع وثيقة سياسية أو عسكرية تظهر انتصار إسرائيل أو هزيمة مصر ، وبعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢/ ٦٧ تأكدت أهداف إسرائيل التوسعية عندما فسرت بنود هذا القرار وأصرت على مفاوضات مباشرة ومنفردة مع مصر أولا للوصول إلى تسوية سلمية

لتنفيذ قرار مجلس الأمن ، وهى فى الحقيقة تهدف من أسلوب المفاوضة إملاء شروط المنتصر وتوقيع اتفاق سلام مع مصر وبذلك تخرجها من الجبهة العربية كلها ..

رفضت مصر اتباع هذا الأسلوب مثلما رفض الشعب الهزيمة ، ولم يكن هناك من حلول إلا الصمود بالقوات المسلحة والشعب أمام أطماع إسرائيل التوسعية ، وكانت مصر قد حددت الخط الاستراتيجى السياسى والعسكرى عقب معركة ١٩٦٧ مباشرة مؤيدة بالتضامن العربى الذى هدف تأييد الرئيس جمال عبدالناصر كما انضم إلى هذا الاتجاه الاتحاد السوفييتى الذى سارع بالدعم العسكرى لمصر من أجل تحقيق الصمود أمام أطماع إسرائيل التوسعية والسعى لتغيير ميزان القوى العسكرية لصالح العرب ..

وكانت حرب السنوات الثلاث مخططة منذ بدايتها لتكون بناء وإعادة تنظيم وإعداد القوات المسلحة والشعب لخوض معركة تحرير الأرض العربية ، وكان فى التقدير تدخل العدو لعرقلة هذا البناء ، فعندما قام العدو بأعمال استفزازية معادية مع تهديد مستمر قامت قواتنا المسلحة بمواجهته وقتاله فى نفس الوقت الذى تمسكت فيه بهدفها الأساسى وهو الاستعداد لمعركة تحرير الأرض ، الأمر الذى جعل من هذه الفترة تجربة مضنية وقاسية أثبتت أنها نموذج رائع لانتصار الإرادة العربية المصرية ..

وكان التصادم العسكرى مع العدو واستمرار الاحتكاك به فى العمليات والمعارك التى أشرت إليها فى مذكراتى فرصة عملية نادرة لرفع الكفاءة القتالية للجندى المقاتل والوحدة الصغرى فى جميع تشكيلات القوات المسلحة ، والتى تمكنت فى نفس الوقت من معرفة أسلوب القتال للعدو وتكتيكاته ، وبذا حرمته من أى ابتكار أو مفاجأة أو خداع قد يقوم به فى المعركة الكبرى المنتظرة، كما كان دوام الاتصال مع العدو طوال الثلاث سنوات أسلوبا مميزا حقق لقواتنا معرفة قدرات العدو الحقيقية ، كما هدم جدار الخوف من الجندى الإسرائيلى ، وكانت عمليات المواجهة بالقتال عملا أساسيا فى إحداث خسائر كبيرة فى أفراده لم تحدث فى كل الحروب السابقة مما أثر على خفض معنوياته بل وجعلت القوات الإسرائيلية المتمركزة شرق القناة تتشكك فى قدراتها وتخطيطها للدفاع عن أرض لا تملكها ..

لهذا سعت إسرائيل إلى قبول المشروع الأمريكى لوقف إطلاق النيران المؤقت فى أغسطس ١٩٧٠ أملا فى تخليصها وقواتها المسلحة وشعبها من استنزاف قواها وإنقاذ اقتصادها من الانهيار ..

وتنازلت إسرائيل عن أهدافها السياسية التى أصرت عليها عقب معركة ١٩٦٧ فى قبولها المفاوضة المباشرة مع دول المواجهة تحت إشراف دولى ، بالإضافة إلى قبولها مبدأ الانسحاب المسبق على التسوية السلمية الشاملة ..

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد فشلت فى إعادة العلاقات السياسية مع مصر ومع الدول العربية التى ارتبطت مع مصر فى هذا المجال بسبب تأييدها لسياسة إسرائيل فى المنطقة العربية، كما شعرت فى نفس الوقت بعزلتها وتهديد مصالحها فى المنطقة وأن هذا الأسلوب كان سببا فى زيادة التواجد السوفييتى فى المنطقة مما ساعد على الإخلال بتوازن القوى فيها ..

ولقد أوضحت فيما سبق من فصول أن توافر مقدمات المعركة يعتبر أمرا ملزما قبل صدور قرار الحرب وأهم هذه المقومات هى :

إعداد الدولة ، إعداد الشعب ، إعداد اقتصاد الدولة للحرب ، إعداد القوات المسلحة ، إعداد مسرح العمليات ، توفر تشريعات شئون الدفاع عن الدولة وتنظيم القيادة والسيطرة على القوات المسلحة، إعداد الفرد المقاتل معنويا ونفسيا للمعركة ..

وكان توافر هذه المقومات وحرص القيادة السياسية والعسكرية على اتباعها بإرادة وتصميم وتنظيم وتخطيط جيد هو الذى جعل لنجاح عمليات ومعارك حرب الثلاث سنوات ممكنا ..

نادرا ما تجد دولة لها كيانها الحضارى فى عصرنا الحديث تصدر قرار الحرب مفاجأة ، بل إن أسلوب صنع القرارات المصيرية ومنها قرار الحرب يجب أن يمر خلال قنوات شرعية حتى يصل إلى القمة السياسية والعسكرية التى تصدره ويعتبر مجلس الدفاع الوطنى أحد هذه القنوات الشرعية، وقرار الحرب يحقق هدفا سياسيا قبل أن يحقق آمالا عسكرية ، كما يوضع فى الاعتبار عند إصدار قرار الحرب احتمال استمرار القتال لمدة طويلة فى مثل هذه الظروف تجعل التخطيط الاستراتيجى السياسى والعسكرى والإعداد البشرى والاقتصادى أساسا هاما داخل عناصر القرار ..

ويجب أن يكون التخطيط الاستراتيجي الوطني متمشيا مع الهدف القومي ، فإذا عدت الى مذكراتي تجد أن مصر قد وضعت الخطة قاهر الدفاعية عام ١٩٦٦ مطابقة للهدف القومي الذي اتفق عليه على مستوى القمة العربية عام ١٩٦٥ إلا أن القيادة العسكرية لم تلتزم بتطبيق الخطة (قاهر) الدفاعية وأبتعدت عن الهدف القومي والوطني معا ، وهنا يبرز لي الدرس الواضح في ضرورة تفاهم وتجاوب القيادة العسكرية مع القياة السياسية صانعة قرار الحرب ..

وينتهي الفريق أول محمد فوزي بعد استعراض طويل للسياسة والاستراتيجية والحرب إلى القول: لم يبق لي من دروس أسجلها في ختام هذا الفصل سوى أهمية الاحتفاظ بالهدف الاستراتيجي للشعب مهما طالت الحرب مع الوضع في الاعتبار أن معركة واحدة لا تنهي القتال بين الدولتين المتصارعتين طالما بقيت إرادة الشعب وقدرة قواته المسلحة حية ، فعندما أعلن الرئيس جمال عبدالناصر الهدف الاستراتيجي لمصر منذ أول تلقين عسكري لي في ١١/ ٦/ ١٩٦٧ وحدد زمن تحقيق هذا الهدف بثلاث سنوات تقريبا ، استمر يجاهد جهادا شاقا سياسيا وعسكريا واقتصاديا ومعنويا بتأييد مطلق من الشعب مستعينا بقيادات عسكرية قادرة أعطاها كل الصلاحيات لبناء وإعادة تنظيم القوات المسلحة وقتال العدو الإسرائيلي في نفس الوقت ، وهي تجربة مثيرة نادرا ما تحدث، وكان توفر الأسلحة والمعدات الحديثة المتطورة وحماس الجندي المصري ووعيه وحرصه على استيعابها والحفاظ عليها تطبيقا لسياسة وحكمة الرئيس عبدالناصر في ظل تمسكه بالهدف الاستراتيجي ، وبالرغم من الضغوط السياسية والعسكرية لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ، وعندما تصاعدت العمليات العسكرية من جانب قواتنا في أواخر عام ١٩٦٩ تحولت حرب الثلاث سنوات إلى حرب شاملة مع العدو الصهيوني ، كما تحول ميزان القوى بعد ذلك في المنطقة لصالح مصر إلى أن جاءت فرصة قطف ثمار هذا الجهد ، والتصميم على تحقيق الهدف الاستراتيجي للشعب ، وأصدر الرئيس جمال عبدالناصر توجيهاته في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ١٩٧٠ كي تستعد القوات المسلحة لبدء معركة تحرير الأرض بالقوة بعد مضي ال ٩٠ يوما المحددة في قرار وقف إطلاق النار المؤقت أي في ٧/ ١١/ ١٩٧٠ وفي هذا التاريخ يكون قد مضى على قرار تحديد المهمة لشخصي ثلاث سنوات ونصف ..

لقد أصبحت هذه الحقائق درسا هاما بين حتمية التمسك بالهدف الاستراتيجى للدولة وعدم الحياد عنه مهما كانت الصعاب ، أما ماهية حرب الثلاث سنوات والتى أطلق عليها حرب الاستنزاف فسوف أذكر للقارئ وصفها على لسان العدو الإسرائيلى نفسه :

(إذ قال أبا إيبان فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ أن قصف المدفعية المصرية مع الغارات الجوية عبر قناة السويس كان يسبب خسائر قاسية فى القتلى بمثل ما كان يسبب لنا من خسائر فى أى حرب ، ثم يضيف ، إن وقف إطلاق النار تم استقباله فى إسرائيل بشعور الرضا حيث يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية ، ثم قال : إن نشرات الأخبار الحزينة تخبرنا بأسماء الشبان القتلى فى المعركة ، وأن خسائرنا فى القوات والمعدات الثمينة يقصد طائرات الفانتوم والسكاى هوك (قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف لنا) انتهى ..

ولقد تناول تلك الفترة من الحرب التى كما قالوا عنها (حرب استنزاف) أغلب القادة العسكريين فى الجيش الإسرائيلى مثل عزرا وايزمان فى كتابه المعنون - صراع من أجل السلام - صفحات ١٤٨ إلى ١٨٠ و موشى دايان فى كتابه المعنون قصة حياتى - صفحات ٤٤٧ إلى ٤٥٧ - إسحاق رابين فى كتابه المعنون هذه مذكراتى - الصفحات ٧٧ إلى ١٢٠ ـ ثم السيدة رئيسةوزراء إسرائيل فى ذلك الوقت جولدا مائير فى كتابها قصة حياتى - الصفحات ٣٥٣ الى ٣٧٧ - ولا نرى فائدة من نقل تفاصيل ما كتب هؤلاء عن تلك الحرب ونتائجها ، وما يمكن التأكيد عليه كما قال الفريق أول محمد فوزى هو إرادة الأمة والقيادة فى صون الكرامة والقدرة على استرداد الحق وهو ما فعله وتمتع به عبد الناصر وجيشه ..

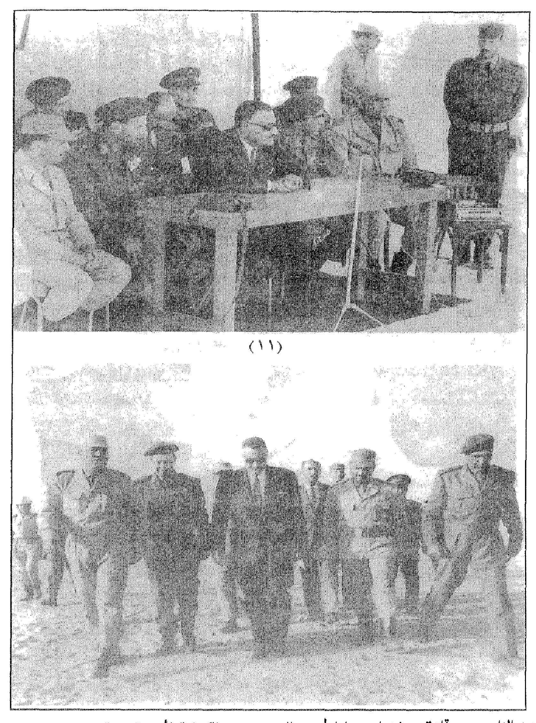
يستمر الفريق فوزى فى القول نسبة إلى ما قاله أحد القادة الإسرائيليين، إن فشل الجيش الإسرائيلى من الناحية العسكرية فى حرب الاستنزاف يمثل أول معركة يهزم فيها فى ساحة القتال منذ قيام إسرائيل لدرجة أننا فى إسرائيل قبضنا على أول قشّة ألقيت إلينا ، أى وقف إطلاق النار المؤقت ..

يقول الفريق أول محمد فوزى وهو يزيح من على صدره عبئا كبيرا وقد حقق ما (طلب منه بجدارة) وهنا أنهى مذكراتى عن هذه الفترة القاسية من تاريخنا العسكرى بحمد الله ...

وقال الرئيس جمال عبدالناصروالذى كان يتوقع نصرا لا يشغله عنه أى شئ آخر وقد استعد له لولا انفجار الوضع وسالت الدماء بين الفلسطينيين والجيش الأردنى فى عمان الذى جعله يجمع الحكام العرب لحقن الدم العربى بحيث يحتفل بعدذاك بانتصار جيشه الذى أثنى عليه بهذه الكلمات..

إن الجيش المصرى جنوده وضباطه وقياداته قام بجهد خارق لإعادة بناء نفسه بعد ظرف من أسوأ الظروف التى واجهها نضالنا ، وتمكن هذا الجيش الذى ظنّه العدو أن أمره قد انتهى إلى عشرات السنين من أن يعود إلى القتال مرة أخرى فى سرعة سوف يعدها التاريخ المنصف لهذه الفترة ضربا من المعجزات . إن الجهد المتفانى الذى بذله مئات الألوف من رجال وشباب مصر ممن كان لهم فى هذه الفترة العصيبة شرف الخدمة العسكرية حقق مستوى قتاليًا لم يكن يخطر على بال صديق أو بال العدو قبل ثلاث سنوات ..

ولكن كانت إرادة الله التى لا راد لها .. وبذلك كان قدر هذا الرجل العظيم ما أراد الله له غير ما كان يريد هو ..



(١١)

عبد الناصر مع قادة جيشه استعدادا لحرب التحرير ورد الكرامة لأمته العربية وشعبه المصرى.. لكن المنية وافته ولم يقدر له أن يشهــد اليوم الذى كان يعد له وينتظره ،وهكذا سجل التاريخ له أنه على رغم الهزيمة قد نهض وقاوم واستعد وإن جاء النصر بعده ..

الفصل التاسع

- لماذا الميثاق وبيان ٣٠ مارس ؟
- موقف عبدالناصر من السودان .
- رأى عبدالناصر فى الدين والدولة .
- البحث عن قوة الردع .

الفصل التاسع

لماذا الميثاق وبيان ٣٠ مارس ؟

موقف عبدالناصر من السودان .

رأى عبدالناصر فى الدين والدولة .

البحث عن قوة الردع .

بعد الجريمة التى ارتكبت فى حق الأمة العربية بواسطة حفنة من ضباط الجيش السورى الذين تآمروا على الوحدة العربية الأولى فى تاريخنا الحديث وفصلوا الإقليم الشمالى (سوريا) كان لابد من البحث فى أسباب الخلل الذى أدى إلى هذا العمل الإجرامى رغبة فى الحيلولة دون تكراره إذا ما قدّر للعرب أن يعيدوا لحمة الوحدة بين قطرين أو أكثر ، ولهذا انبثقت لجنة تحضيرية من خلال مؤتمر وطنى فى مصر أنيط بها إعداد وثيقة تشخّص الأسباب فيما حدث بحيث تحدد ملامح العمل المستقبلى وقد جمعت كل قطاعات الشعب (فلاحون وعمال وأعضاء نقابات ومنظمات مهنية ورأسمالية وطنية وموظفون وأساتذة جامعات ومعاهد عليا ومراكز أبحاث وطلبة الجامعات والثانويات وجمعيات نسائية .. إلخ)

عقد مؤتمر قومي فى ٢١ مايو ١٩٦٢م قدم إليه الرئيس جمال عبدالناصر مشروع الميثاق الوطنى الذى كان قد أعد بحيث يناقش أعضاؤه بنوده فى جلسات معلنة على الشعب وكان الميثاق يتكون من عشرة أبواب أربعة منها تتحدث عن مراحل تاريخ نضال الشعب المصرى فى مختلف المراحل السابقة وتفاعله مع الأحداث ، ذلك التفاعل الذى أثبت فيه وحدته الوطنية بحيث أثّر وتأثر ويؤثر فيما حوله حتى وصل إلى تحقيق ثورته الوطنية ، وجاءت الأبواب الخامس والسادس والسابع والثامن تتحدث عن المنهج الاشتراكى وأسلوب الإنتاج وتحقيق الديموقراطية السليمة ومشاكل المجتمع وكيفية معالجتها بنوايا صادقة تستهدف المصلحة العامة والتضحية من أجل ذلك ، وناقش البند التاسع ضرورة الوحدة

العربية وأهميتها لبناء مستقبل زاهر لكل أبناء الأمة العربية وكيف يمكن المحافظة عليها من خلال تذويب الفوارق بين المواطنين وتحقيق التوازن الاجتماعى والاقتصادى ، وجاء الباب العاشر يحدد ملامح السياسة الخارجية للجمهورية العربية المتحدة (الاسم الذى أصّر الرئيس جمال عبدالناصر على أن يبقى رغم حدوث الانفصال) وتقوم السياسة الخارجية على أسس وقواعد واضحة أرادتها الثورة المصرية منذ بدايتها وهى محاربة السيطرة والاستعمار فى كل مكان وبكل أشكاله وفى أى مكان ، العمل من أجل السلام من خلال حركة عدم الانحياز والحياد الإيجابى ، والتعاون الدولى من أجل رفاهية الجنس البشرى ذلك أن الرفاهية تعد ضمانا للسلام العالمى) ..

وأثناء البحث والمناقشة بين أعضاء المؤتمر القومى ظهرت أصوات تنادى بانتخاب جمال عبدالناصر رئيسا للجمهورية مدى الحياة ، وكادت تلك الأفكار أن تطرح للمناقشة وربما الموافقة بالإجماع لولا أن عبدالناصر رفض الفكرة جملة وتفصيلا قائلا إنه لا يمكن لشخص متحضر وشعب واع أن يتجه هذه الوجهة ، وسقطت الفكرة التى لم يكن (ربما) القصد من ورائها خالصا لوجه الله ، وأضاف عبدالناصر قائلا إنه يريد مناقشة مشاكل المجتمع بحيث لا يعوقها موقف ولا أفكار عقائدية محددة أو واردة سلفا ، كذلك قال إن الميثاق لابد أن يطّور أو يغيّر بعد مدة لا يجب أن تزيد على عشر سنوات ، وقال كذلك ، إننا لم نصل إلى نظرية كاملة تحدد إطار العمل الثورى فقد جاءت المبادئ الستة عند قيام الثورة لتمثل منهج عمل فقط ، وبالتالى فإن الميثاق لم يحدد الديموقراطية دون الارتباط بالوضع الاجتماعى فى حياة المصريين ، وهو مجتمع ما تزال فيه الأمية بصورة كبيرة وتسود فيه قطاعات لها سيطرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وبالتالى فهى تتحكم فى أصوات الناخبين ، ولابد من كشف تلك الهيمنة وتحديد طرق وكيفية تحقيق الديموقرطية الحقيقية بتحرير لقمة العيش على ضوء الطرق التالية :

لابد أن نعرف أن المواطن لا تتوفر له حرية التصويت والانتخاب إلا إذا توفرت له ثلاثة عناصر فى حياته (أن يتحرر من الاستغلال بجميع أنواعه وأن تكون له فرصة متكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية - أن يتحرر من أى سلطة دنيوية بحيث يكون ضامنا لمستقبله المعيشى)

وهذا الطريق لا يتم إلا علـى ضوء إعـادة تشكـيل حيـاة المجتـمع المصـرى وتطلعـات الناس إلى مسـتقبـل أفضل قائـم على العدل الاجـتماعى ، وبـحيث لا يكون اى حل قائما على أشكال مستوردة من الخارج ..

ويجب أن نعرف ما يحـدث ويجرى فى المجتمـعات الأخرى ولكن لابد أن يكون كل شئ نابتـًا من أرضنا وداخل بلادنا ومجتمعنا حتى وإن كان متخلفا ..

وإذًا كان الميثـاق قد ووفق عليه بالإجمـاع وتحدد أن يعدل أو يغيّر بعـد عشر سنوات بحيث يتناول التـعديل أو التغييـر ما يستجـد من أحداث وتطورات (كأنما عبدالناصـر كان يتوقع ما جـاء فيما بعد فـقد حدث نفس الشئ بالنسبـة للدستور المؤقت الذى جاء بعد الميثاق) صدر قرار رئيس الجمهورية بشأن الدستور المؤقت فى ٢٣ مارس ١٩٦٤م ونص على العمل به الى أن يصـدر الدستور الدائم ، ولقد جاء هذا الدستور المؤقت بنص يقول :

(يحـدد شكل الدولة وجـوهر نظامهـا تحـديدا يلتزم فى دقـة حـدود الميثـاق الوطنى وفلسفتـه ، تأكيدا لنصوص الميثـاق الذى أقره مؤتمر القوى الشعـبية والذى تم استخلاصه من قلب معارك النضال ومن صميم ممارسة التغيير الواسع والعميق لأوضاع المجتمع المصرى ليكون دليلا فكريا يقود خطى المستقبل) .

وحرص الدستور على إبراز معانى الاتجاهات الوطنية والقومية كما يلى :

تأكيد الديموقراطية السليمة وحمـاية النظام الاشتراكى وحقوق قوى الشعب العـاملة ، وقد نصت المادة الأولى منه على أن (الجـمهـورية العربيـة المتحـدة دولة ديموقراطية اشتراكية تقوم على تحالف قوى الشعب العاملة ..) .

(إبراز الكيان العربى لمصر حيث نص فـى الفقرة الثانية من المادة الأولى على أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية) .

(منح السلطة الكاملة للشـعب حيث قرر فى مـادته الثانية على أن السـيادة للشعب وتكون ممارستها على الوجه المبين فى الدستور ..) .

وكانت الأسبـاب التى دعت إلى إصدار الميثاق كـثيرة مما جعل قـيادة الثورة تعمل على إيجـاد دليل عمل يسترشد به ويكون بمثـابة نظرية تحدد مـعالم الطريق سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وقد تمثلت تلك الظروف والتطورات فيما يلى :

مبادئ الثورة لستة ١٩٥٢ - عندما بدأت الثورة فى تحقيق أحد أهدافها وهو السادس الذى ينص على (إقامة الحياة الديموقراطية السليمة) كان عليها أن تطور العمل الثورى بنظرية تكون دافعا للعمل الوطنى المتجدد وحافزا لمواصلة العمل الثورى ..

حدوث العدوان سنة ١٩٥٦ - لقد كان من نتائج العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ أن بادر أفراد الشعب العامل من تلقاء أنفسهم للدفاع عن الوطن وبذلك تحدد بوضوح من هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة ..

الثورة الاشتراكية عام ١٩٦١ - بصدور القوانين والقرارات الاشتراكية فى يوليو عام ١٩٦١ تحدد بوضوح عمق الاتجاه الاشتراكى للمجتمع المصرى ، فضلا عن البدء فى تنفيذ خطة مضاعفة الدخل فى نفس العام ، الأمر الذى اقتضى أن يكون هناك إطار يحدد خطوات العمل الشعبى ..

نكسة الانفصال عام ١٩٦١ - كشفت نكسة الانفصال بين مصر وسوريا أن قوى الرجعية استطاعت أن تتسلل إلى الصفوف الأولى من التنظيمات السياسية والشعبية ، مما أدى إلى ضرورة إعادة تنظيم هذه المؤسسات على أسس تكفل منع تسلل العناصر الانتهازية والرجعية إليها مرة أخرى ..

تلك كانت الظروف والتطورات المحلية والعربية ، ولقد جاءت أيضا كثير من التطورات والأحداث العالمية ،ومن هنا كانت ضرورة النص على تعديل الميثاق للأسباب التالية :

لما كان الميثاق دليلا للعمل الوطنى ، فإن العمل الوطنى يتطلب مرونة تنشأ أساسا من احتمالات الخطأ والصواب فى تجربة العمل الداخلى والخارجى ، لذلك فقد كان من المقرر أن يعاد النظر فى الميثاق بحلول عام ١٩٧٠ أمام المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، غير أن ظروف النكسة قد أجلت ذلك ، ولكن من خلال التجربة، ومن خلال المناقشات الشعبية الواسعة التى دارت فى مجلس الأمة الخاصة بالدستور الدائم ، اتضح لنا أن هناك اتجاهات عامة عند تعديل الميثاق يمكن لنا أن نوجزها فيما يلى :

الظروف المحلية - تضمن الميثاق الكثير من التفسيرات التى اقتضها مرحلة التحول الاشتراكى التى لازمت ظهور الميثاق فما ساقه الميثاق عام ١٩٦٢ من

تبريرات لقيام القطاع العام وسيطرة الشعب على وسائل الإنتاج ،وتحقيق المجتمع الاشتراكى مثلا لم يعد ما يبرر ذكره بعد عام ١٩٧٠ ..

الظروف الدولية - إن السياسة الدولية فى تغير مستمر والثورات الشعبية تجتاحها حركات من المد والجزر ، فكل يوم تظهر تيارات جديدة ، مما يقتضى معه إعادة النظر دائما فى موقفنا إزاء كثير من المشكلات الدولية ..

الاهتمام بالمستقبل - إن الظروف التاريخية التى أحاطت بالمجتمع المصرى عند صدور الميثاق عام ١٩٦٢ كانت تحتم أن تمتد نظرة الميثاق عبر الماضى تستخلص منه التبرير والتدليل على وقائع الحاضر وتحولاته ، أما بعد عام ١٩٧٠ فيتحتم على الميثاق أن يتخذ من الحاضر قاعدة انطلاق إلى آفاق المستقبل لمجتمع الحرية والرفاهية ..

وتحدث الميثاق عن كيفية تحديد القوى الشعبية الخمسة (العمال _ الفلاحين - الجنود - المثقفين - الرأسمالية الوطنية) واتجه الرأى فى كل المناقشات والحوارات التى جرت إلا أن هناك حقيقة مؤداها أنه انعكاسا للأوضاع وللظروف المادية الجديدة يتحتم أن يكون تحالف الشعب يضم خمس قوى اجتماعية دون غيرها وهى التى ذكرت فيما تقدم إذ أن هؤلاء هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى المضى بعملية تطور المجتمع وتغييره اشتراكيا وديموقراطيا ، وهؤلاء هم الذين لا يمارسون عملا يقوم على استغلال جهد الآخرين والذين يتفهمون سير الحركة التقدمية فى المجتمع ، ويندفعون ضمن تيارها لإقامة مجتمع الحرية والأشتراكية ، غير أن ما كان مقررا لتغيير الميثاق لم يتحقق لظروف النكسة العسكرية ، حيث تقرر أن يؤجل كل شئ إلى أن تزال الأسباب التى أدت إلى حدوث الهزيمة العسكرية ، وتحليل أسبابها وإزالة عناصرها ..

الظروف التى أدّت الى إصدار بيان ٣٠ مارس :

هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ - عندما وقع عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ فوجئت الأمة العربية كلها وفى مقدمتها الشعب العربى فى مصر بفاجعة الهزيمة السريعة ، هذه الهزيمة التى أظهرت بكل جلاء الخلل فى البناء السياسى والعسكرى والاجتماعى المصرى ، الشئ الذى أظهر عدم القدرة على مواجهة العدو والدفاع عن الأرض ، فكانت تلك الهزيمة النكراء والفاجعة التى أثرت فى كل شئ وهزت صورة العرب أمام العالم ..

لقد كان أبرز ما كشفت عنه الهزيمة هو ذلك الخلل الخطير بين مبادئ المجتمع وأدوات تطبيق تلك المبادئ وهى :

أن أجهزة السلطة التى تولت مسؤوليات العمل الوطنى ، كان بناؤها فى الغالب من عناصر _ بحكم واقعها الاجتماعى ، إما غير مؤمنة أصلا بالخط الديموقراطى الاشتراكى أو غير قادرة على استيعابه ، وهو ما عبر عنه الرئيس عبدالناصر بقوله (كنا نطبق اشتراكية بغير اشتراكيين) فى الوقت الذى كانت تبالغ فى رفع شعاراته فى محاولة خبيثة أو ساذجة للتلاؤم مع الاتجاه العام لجماهير الشعب ، وكان من نتيجة ذلك أن شاع جو عام من النفاق السياسى كان من بعض نتائجه الطبيعية إخفاء الكثير من الحقائق وطمس الكثير من الأخطاء .

عدم وجود تنظيم سياسى مناضل حقيقى ، ذلك لأن التنظيم السياسى كان يحمل فى جوفه عوامل ضعفه واضمحلاله ، حيث كان زمام الأمر فى يد أجهزة السلطة التقليدية ، وأصبح كل شئ يتم بعيدا عن متناول السلطة الشعبية فى التوجيه والنقد والرقابة والمحاسبة ، ومن ثم انفتح المجال أمام مراكز القوى لتتكون وتسيطر ، مفضلة مصالحها الذاتية على المصالح العامة ..

وفى ظل مراكز القوى غاب عنصر المحاسبة فى بعض المسؤوليات العليا واختفى تماما فى بعضها الآخر .. ولم يعد لمبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب قيمة تذكر ..

لهذه الأسباب وغيرها ، بل وأهمها وضع القوات المسلحة التى تحكمت فيها البيروقراطية والتواكل وانعدم فيها الانضباط وقل التدريب ومتابعة الأحداث ، إضافة إلى الخلل الذى صار سمة واضحة فى عدم الولاء للقيادة السياسية كما لو أن العسكرية شئ منفصل عن الدولة بكل أجهزتها ، ومن خلال ما كتب أو قيل حتى قبل هزيمة ٥ يونيو يتضح لكل مراقب أن الأسباب الأساسية كان مرجعها المجاملة أو الصداقة أو الخوف من أصحاب المقدرة والرأى وبالتالى إبعادهم عن مواقع القيادة والمسؤولية (تحديدا كحالة عبدالحكيم عامر مع عبدالناصر) والحقيقة أن من يقوم بانقلاب خلال الليل لا يمكنه إلا أن يتصور دائما أن هناك من يمكن أن يقوم عليه بنفس الطريقة ويسقط حكمه ، ولهذا تلجأ نظم الانقلاب غالبا إلى فكرة

الولاء الشخصى وليس المقدرة والكفاءة فى إدارة الشئون العسكرية بشكل خاص، ومع الوقت تتكون شخصيات عسكرية فى المظهر فقط ونظرا لوجودها داخل مؤسسة يتوفر لها المال والجاه تحيط بها مجموعات انتفاعية فى دوائر متقاربة تمتد كأذرع الأخطبوط فتفسد من تصل إليه ، وهنا تختفى المسؤولية أو المحاسبة وتتقاسم فيه هذه المجموعات على مختلف مواقعها المصالح الخاصة ولا تسمح لأحد أن يوجه إليها نقدا أو لوما ، وذلك ما حصل وأدى إلى فقدان كل شئ ...

ولأن الأمور سارت على هذا المنهج أو الطريق فقد تكونت عناصر فى كل موقع تعبر عن مصالح مراكز القوى وتحديدا فى مجالات التعبير الإعلامى (إذاعة وصحافة) مهمتها التطبيل وتزيين الأعمال الخاطئة وتأليه أصحاب المصالح والمراكز وبالتالى غاب تماما الرأى الشجاع الذى يمكن أن يشير إلى الفساد والخلل ، وحتى لو كان هناك رأى ناقد فإنه خافت جدا وإذا ما تحسس منه أحد من تلك العناصر كان صاحبه يختفى (وراء الشمس) بالتعبير الشعبى المصرى ، ولهذا كانت الهزيمة التى ظهرت فى وقت واحد وفجأة كل العيوب المدمرة ، وعلى إثر هذه الهزيمة كان لابد من رجل أو رجال يتحملون المسؤولية ويتحولون أو يزاحون من مواقع السلطة بل ويحاسبون كما يحدث عادة عند وقوع الكوارث أو الهزائم وفى (التاريخ أمثلة كثيرة) وقرر جمال عبدالناصر أن يعلن أنه المسؤول وأنه من يتحمل المسؤولية الكاملة حتى إنه رفض أن يقال فى إعلان استقالته أنه يتحمل نصيبه من المسؤولية ، وتلك شجاعة وموقف سجله له تاريخ بلاده ، وكان أن جاء الرد السريع الذى أظهره الإنسان المصرى ، المواطن الذى أحس بالجرح عميقا فى قلبه ، تحركت الجماهير لتقول لا ، ليس عبدالناصر هو المسؤول الوحيد ، إنما المسؤولون فى كل موقع ، فى كل إدارة أو جهاز ، وهكذا كانت(أحداث أيام ٩ و ١٠ يونيو) لقد كانت ثورة شعبية عارمة ترفض الاستسلام ، ترفض الهزيمة ، ترفض أن يتنحى جمال عبدالناصر ، لقد كانت آثار الهزيمة مدمرة لكن الشعب المصرى الصبور القادر على تحمل الأزمات والنكبات وينهض دائما فى مواجهة الخطر، قال ، لا ، لا للهزيمة ، ونعم للمحاسبة ، وكان لابد للقائد الذى وقف شجاعا ليتحمل المسؤولية أن يستجيب وأن يقف مرة أخرى للمواجهة فى الداخل والخارج ، للبناء من جديد ومن الصفر وعدم القبول بالهزيمة مهما كان عمقها وأثرها وبدأت عملية التغيير الكامل

والمحاسبة ، وعلى الرغم من أن الدرس كان قاسيا ، فقد قطفت رؤوس وانحدرت معالى وصدقت نوايا فى بداية المسيرة الجديدة ..

موقف عبدالناصر ومستقبل السودان..

منذ سنة ١٨٢٠ م عندما تأسست وحدة وادى النيل بين مصر والسودان ، مرورا بكل الأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية وقد أدخلت أقاليم (النوبة وسنار وكردفان تحت السيادة المصرية (١٨٢٠ - ١٨٢٣) إلى وقت صدور الفرمان العثمانى فى ١٣ فبراير ١٨٤١م ذلك الفرمان الذى أعطى محمد على الكبير مدى الحياة حكومة النوبة وكردفان وسنار ودارفور وجميع ملحقاتها، إلى الحكم الثنائى البريطانى المصرى فى ١٩ يناير ١٨٩٩م ، إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لم يجرؤ مسؤول أو حاكم او قائد أو وزير أن يفكر مجرد التفكير فى أن السودان ليس جزءا من مصر ، اى من ساليزبورى وكرومر ومحمد على إلى فاروق ، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو وكانت الصحوة بعد الحرب العالمية الثانية قد شملت أغلب شعوب ما كان يعرف بالمستعمرات فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، كانت حركة الأحزاب فى السودان نشطة حيث كان هناك أحزاب موالية لمصر وتسمى اتحادية ، وأخرى معارضة للاتحاد وتسعى إلى الاستقلال وإقامة الدولة الوطنية ، مثل حزب الجبهة الوطنية ، وحزب الأشقاء الذى صار حزبين سنة ١٩٥١م حيث تولى عثمان الأزهرى زعامة جناح ومحمد النور الجناح الآخر ، وحزب الاتحاديين ، وحزب الأحرار الاتحاديين ، وحزب وادى النيل ، وهذه الأحزاب كانت موالية لمصر وتدعو إلى الوحدة أو الاتحاد وتعتمد على تأييدها ومساندتها سياسيا وماديا ، أما الأحزاب التى كانت تدعو إلى قيام الدولة الوطنية السودانية وتسمى أحزاب الاستقلال فهى حزب الأمة أى (الأنصار) ، والحزب الجمهورى الاشتراكى ، والحزب الوطنى ، وهى وإن كانت تنادى بالاستقلال عن مصر وبريطانيا فقد كانت فى حقيقة الأمر تعتمد على مساعدة وتأييد بريطانيا ، وكانت هذه الأحزاب تنشط فى مجتمع أساسه وضع قبلى شديد التعقيد وبالتالى فقد كان تأثيرها قويًا على إحداث تماسك سكان البلاد ، ومن المعروف أن بعض الانسجام بين القبائل والأجناس الكثيرة المختلفة والتى كانت متقاتلة قد أحدثة العمل الكبير الذى مارسة محمد على أثناء حكمه ..

وكعادة الإنجليز يعدون ولا يصدقون ولا يعملون إلا بالخداع ، والحالة الوحيدة التى صدق فيها سياسى بريطانى واحد كانت عندما أعلن السير (وينستون تشرشل) قائلا لكى تمرر حقيقة واحدة تحتاج لكتيبة من الأكاذيب وهذا ديدن الساسة الإنجليز فى كل مكان ، وهكذا كان فى حالة السودان فقد كانوا قد أجبروا الجيش المصرى شريكهم فى الحكم الثنائى على الخروج من السودان ، وعندما أعادوا فتح هذا البلد استعملوا قوات أغلبها مصرية ولم يقدموا شيئا مقابل خدمة القوات المصرية غير رفع العلم المصرى بجانب العلم البريطانى ، وعقدوا ما أطلق عليه (اتفاقية الحكم الثنائى) وبعد نصف قرن ونيف أقدم رئيس وزراء مصر السيد مصطفى النحاس على خطوة جريئة عندما ألغى تلك الاتفاقية ، فى ٨ أكتوبر ١٩٥١م وأعاد الاسم السابق للقطرين وإن كان ذلك فى الواقع وضع نظرى أو ربما معنوى (الملك فاروق ملك مصر والسودان)..

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو وكان عبدالناصر يدرك جيدا ألاعيب الإنجليز الذين كانوا قد استمالوا الحزبين السودانيين الكبيرين (الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الأمة) بحيث يقفان ضد أى مكاسب مصرية ، وكان هذا الموقف البريطانى قد جاء فى مواجهة تلك الجهود التى كان يبذلها الصاغ صلاح سالم عضو مجلس الثورة المصرية الذى كان مكلفا بالسودان وهو يعتمد على مواقف الحزب الوطنى برئاسة إسماعيل الأزهرى ويقدم له كثيرًا من الأموال والمساندة والتأييد باعتباره ينادى بوحدة وادى النيل (أى وحدة مصر والسودان) ولكن الحاوى الإنجليزى كان يلعب لعبة خفية من أجل خلق الحواجز بين البلدين وكان أن دعى الأزهرى لزيارة لندن رسميا وهناك قوبل باهتمام وترحاب كبيرين ، كما قام بزيارة مماثلة السيد عبدالرحمن المهدى وهو زعيم الحزب الآخر، وهناك جرت تطورات وسمعت وشوشات كما يحدث عادة لزعماء العالم الثالث إذا ما قوبلوا بكثير من بهارج التكريم فى العالم الأوربى ، وعلى ضوء ذلك بادرت مصر من أجل قطع الطريق على الحاوى الإنجليزى بإعلان موافقتها على الحكم الذاتى السودانى لمدة ثلاث سنوات يجرى بعدها استفتاء بحيث يقرر السودانيون خلاله ما يريدون لبلادهم، وما لبث الأمر حتى تطور إلى اتفاقية بين مصر وبريطانيا على توقيع اتفاقية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٣م بشأن الحكم الذاتى السودانى ، وكان واضحا أن جهود الصاغ صلاح سالم قد راحت أدراج الرياح بعد زيارة الزعيمين الحزبيين السودانيين للندن ..

وعلى الرغم من أن السيد إسماعيل الأزهرى كان ميالا إلى مصر لأسباب كثيرة ربما فى مقدمتها الدعم المادى والمعنوى والسياسى الذى تمتع به لمدة طويلة لكنه فى واقع الأمر تيقّن أنه قد يفقد الأرضية التى يقف عليها مع حزبه إن هو وقف ضد التيار فقد كان هناك موقف بريطانى ، وهناك موقف حزب الأمة وأنصاره ، وهناك رأى عام سودانى ، وهناك قنبلة موقوتة فى الجنوب السودانى تتحكم فى تفجيرها الأجهزة البريطانية الخ ..

وبقدر ما كان جمال عبدالناصر مدركا لوضع السودان وحقوق الشعوب فى تقرير مصائرها وخبث الساسة الإنجليز الذين كانوا يتصيدون أى موقف معارض من مصر ليشعلوا النار بين الشعبين خصوصا أنهم أصحاب مقولة (فرق تسد) كما كانوا يروجون لفكرة (الاستعمار المصرى كأنما وجودهم هم ليس استعمارا) بقدر ما كان ذلك موقف عبدالناصر ، كان موقف السيد إسماعيل الأزهرى ، فقد كان عارفا بوضع الشعب فى بلاده وتطلعات السودانيين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ولهذا وافق على طلب مصرى بجمع كل الأحزاب فى لقاءات بالقاهرة كخطوة أولى فى اتجاه التفاهم ، وتقرر أن تجتمع كل مجموعة على انفراد (المطالبون بالاتحاد والمعارضون له) وحدث الاجتماع الأول مع الأحزاب التى تعتمد فكرة الاتحاد ، ثم الاجتماع الثانى مع الأحزاب التى تنادى بالاستقلال ، وكان بطبيعة الحال الغرض استطلاع كل الآراء والتفاهم على نوع مستقبل السودان ، وكان ظاهرا أن عبدالناصر مقتنع بأن السودانيين يتطلعون إلى الاستقلال بعزيمة لا ترد ، وهكذا أقنع رفاقه أعضاء مجلس الثورة بذلك قائلا إن هذا الموقف سيسحب الغطاء من على نوايا البريطانيين ويكسب مصر تقدير الزعماء السودانيين وتبقى العلاقات التاريخية القائمة بين شعبى وادى النيل ..

وعلى أساس هذا الموقف أعلن حق السودانيين فى تقرير مصير بلادهم دون عرقلة أو تدخل من جانب الدولتين صاحبتا الحكم الثنائى (بريطانيا ومصر) وهكذا وقعت اتفاقية بين مصر وبريطانيا فى ١٢ فبراير ١٩٥٣م عرفت باسم (الاتفاقية البريطانية المصرية) بشأن تقرير خطوات مصير السودان بعد اتفاق كل الأحزاب السودانية ..

بعد ذلك جرت انتخابات برلمانية خلال شهر نوفمبر ١٩٥٣م حصل فيها الحزب الوطنى الاتحادى على أغلبية برلمانية وبالتالى صار من حق إسماعيل

الأزهرى تشكيل الحكومة ، وكلفه البرلمان بذلك فى ٦ يناير ١٩٥٤م وبدرت حكومة الأزهرى بالطلب من مصر أولا ثم بريطانيا سحب قواتهما من السودان بحيث تتمكن الحكومة من إحلال السودانيين محل المصريين والبريطانيين فى إدارات الحكومة الجديدة وسميت تلك الخطوة (بالسودنة) وهكذا تم ..

وكانت رغبة الشعب السودانى فى الاستقلال خلال مناسبة أول جلسة للبرلمان فى شهر مارس ١٩٥٤م التى حضرها اللواء محمد نجيب وبعض رفاقه من مصر الثورة ، وكان الدور الأساسى فى هذا الاتجاه قد قام به حزب الأمة الذى حشد قواه الشعبية (الأنصار) المطالبين بالاستقلال الكامل ولابد أن ذلك قد تم (ربما) سرا مع الوطنى الاتحادى بزعامة إسماعيل الأزهرى (وربما) أيضا كان ذلك بموافقة ضمنية من جمال عبدالناصر رغم ما تعرض له من تهجم ونقد فى بلاده إذ كانت بعض الأصوات تنادى بالحفاظ على وحدة وادى النيل (الوهمية) حتى أنهم اتهموا عبدالناصر بالتفريط فى السودان ..

أعلن استقلال السودان فى أول يناير ١٩٥٦ م ..

ولعله من المفيد لكى نفهم الدور الإيجابى المصرى فى مسألة استقلال السودان أن نعرّج على مواقف الساسة البريطانيين وكيف كانوا يحاولون وضع العصا فى الدولاب ، كما يقال ، يقول مؤلف كتاب مصر والسودان ، الانفصال :

قال السير جون هاردنج ، هناك خطر اندلاع أعمال إرهاب أخرى فى منطقة القناة (يسمون الأعمال الفدائية التى كان يقوم بها الفدائيون المصريون فى منطقة قناة السويس قبل مباحثات الجلاء ، أعمالاً إرهابية) إذا لم تستمر المفاوضات مع مصر بشأن السودان ، وسيكون الموقف خطيرا بشكل خاص إذا اقترنت هذه الأعمال بكم من الإضرابات فى العراق وفى السودان ، ومن الواضح تماما أن مواردنا فى الوقت الراهن ليست كافية أبدا ، لمواجهة حرب شاملة فى الشرق الأوسط ، والطريقة الوحيدة للتغلب على هذا النقص هو تعبئة بعض تشكيلات القوات البرية ، وآمل ألا يسيئ وزير الخارجية التقدير بشأن نقص مواردنا، لمواجهة اضطرابات خطيرة فى الشرق الأوسط ، ومن الأهمية بمكان ، أن تتم كل الخطط العسكرية الخاصة بالشرق الأوسط بأسرع ما يمكن ، وإن وافقت اللجنة على أنه :

أ - نظرا لإمكانية اندلاع مزيد من أعمال الإرهاب فى منطقة القناة والسودان ، إذا فشلت المفاوضات الحالية مع مصر ، ويمكن أن يقترن ذلك باضطرابات فى العراق ولا توجد قوات نظامية متاحة كافية لمواجهة ظروف متزامنة من هذا القبيل ، فالمطلوب تعبئة بعض تشكيلات القوات البرية .

ب- جميع الخطط العسكرية الخاصة بالشرق الأوسط ، ينبغى إتمامها ، والحصول على أية موافقة وزارية مطلوبة فى أسرع وقت ممكن ، بحيث يمكن اتخاذ إجراء فورى عند الضرورة ..

فى اجتماع مجلس الوزراء البريطانى قال(إيدن) زاد اتفاق أحزاب السودان الصعوبات التى نواجهها للتوصل الى تفاهم مرض مع الحكومة المصرية، وأصبح من الواضح إنه لم يعد هناك وقت نضيّعه ، وقد أرسلت إلى السفير البريطانى فى القاهرة وإلى الحاكم العام فى الخرطوم أسألهما رأيهما فى عدم اتخاذ اى قرار الآن بشأن المسؤوليات الخاصة للحاكم العام تجاه الأقاليم الجنوبية ، وأن يترك ذلك حتى يتخذ البرلمان السودانى قرارا بشأنه فيما بعد ..

قال بتلر وزير الخزانة ، الحكومة قد تتعرض لانتقادات قوية من البرلمان إذا ظهر أنها تتخلى عن مسؤولياتها الخاصة عن الأقاليم الجنوبية ، وقد يكون من الحكمة أن يتم شرح احتمالات تحقيق ضمانات مناسبة بالقرار الذى يتخذه البرلمان السودانى ..

قال وزير الخارجية ، إننى سأبحث ما إذا كان ممكنا وضع صيغة مرضية ، ولكن ليس من الممكن اتخاذ قرار قبل أن أتلقى تقريرا عن المناقشة التى سيجريها سفيرنا فى القاهرة مع اللواء محمد نجيب، والقرارات السريعة قد تكون مطلوبة حينئذ ، ومن المفيد أن أضمن مساعدة لجنة صغيرة من مجلس الوزراء ، تستطيع الاجتماع بسرعة فى حالة الطوارئ ..

عين المجلس لجنة برئاسة أنتونى إيدن ، وعضوية كل من اللورد كروكتشانك حامل أختام الملكة واللورد سوينتون وزير الكومونولث ، والسير إليفر ليتلتون وزير المستعمرات ، لمناقشة شئون السودان العاجلة وكان واضحا من النقاش أن الحكومة البريطانية تخلت ، أو تنازلت مضطرة ، عن ضمانات الجنوب ،

والسلطات الخاصة التى تمنح الحاكم العام بالنسبة للمديريات الثلاث ، مادام مجلس الوزراء البريطانى رأى أن يترك الأمر يقرره البرلمان السودانى ..

فى لندن أجرى هينرى بايرود وكيل الخارجية الأمريكية أكثر من أسبوع فى مباحثات مع أنتونى إيدن وزير الخارجية وجيمس بوكر الوكيل المساعد للوزارة ، قال بايرود ، المباحثات الأمريكية البريطانية التى تجرى بيننا غير مثمرة ، إذا لم يكن هناك تقدم فى مباحثات القاهرة بشأن السودان ، وإذا فشلت مفاوضات السودان أو تأخرت طويلا فإن الحكومة الأمريكية تحتفظ لنفسها بحرية الحركة عن بريطانيا بشأن مصر ..

وكانت لهجة بايرود وطريقته تعبر عن مضمون واحد وهو أنها إنذار ! !

أخذ السير ماكينس السفير البريطانى فى واشنطن يحذر لندن من قطع المفاوضات إذا كنا سنقطع المفاوضات مع مصر ونتخذ إجراء فى السودان ، وإذا كنا سنرسل قواتنا إلى هناك فينبغى أولا أن نقوم بكل ما يمكن لإعداد الرأى العام هنا فى الحكومة وبين أفراد الشعب ، ويبدو أن المصريين قد حققوا النجاح فى دعايتهم التى ينطلق أغلبها من القاهرة والخرطوم ، والتى تقول إنهم يدافعون عن استقلال السودان ، بينما نتلكأ نحن لأسباب أنانية ، وقد حان الوقت لإصدار بيان رسمى من الحكومة البريطانية يعرض الموضوع مباشرة بعبارات بسيطة ، ليبيّن أن حق تقرير المصير للسودانيين كان سياسة بريطانية ، وأن المصريين لم يفعلوا أكثر من تأييدها ، وأخشى أن تجد الحكومة وشعب الولايات المتحدة من الصعب فهم لماذا يتحتم علينا الدخول فى نزاع عام مع المصريين حول جنوب السودان والسودنة، فليس لديهم تفهّم للمسؤولية الامبريالية ، وسوف يشعرون بأنه ما إن يتم الاتفاق على مبدأ تقرير المصير بيننا وبين المصريين ، حتى يكون من الأفضل الإسراع بذلك ، وفى الوقت الذى لا تحظى فيه مصر سوى بالقليل من التعاطف فسوف يشعرون بأن تحفظاتنا بشأن الفترة الانتقالية ليس لها سوى أهمية ضئيلة ، وبالنسبة لترتيبات الدفاع مع مصر ، وأننا إذا عادينا محمد نجيب الذى ينظر اليه على أنه أحسن قائد يمكن أن يكون لمصر لزمن طويل ، فإننا نكون قد ألحقنا ضررا بالغا بالمصالح الغربية ..

فى الخرطوم اجتمع السير روبرت هاو بزعماء حزبى الأمة ، والجمهورى الاشتراكى ، لإقناعهم بوجهة النظر البريطانية دون الوصول إلى نتيجة فإن الحزبين وقعا مع صلاح سالم اتفاقية الأحزاب ، أما الحزب الوطنى الاتحادى فلم يحضر اجتماع الحاكم العام ..

اعترف السير جيمس روبرتسون السكرتير الإدارى لحكومة السودان فى مذكراته التى كتبها (بعنوان أفريقيا فى مرحلة انتقال) قال : ناضلنا بقوة حتى نمنع تضمين الاتفاقية المصرية البريطانية النصوص الخاصة بالسودنة الشاملة العاجلة للجيش والشرطة والوظائف التى يمكن أن يكون لها نفوذ سياسى ، وحاولنا بقوة ، الإبقاء على الضمانات للجنود التى أقرتها الجمعية التشريعية من قبل ..

وهكذا ازدادت الضغوط على وزير الخارجية البريطانى ..

اجتمع مجلس الوزراء البريطانى يوم ٣ فبراير ، أبلغه إيدن أن من المرغوب فيه إجراء الانتخابات السودانية قبل موسم الأمطار ، وافق الوزراء على ذلك ، وقالوا إن المفاوضات مع مصر يجب أن تصل إلى نتيجة حاسمة فى القريب العاجل ، مع ضمانات الاستجابة المصرية لبريطانيا فى النقطتين الأساسيتين البارزتين وهما :

- ضمانات المديريات الجنوبية .

- الترتيبات الخاصة باستبدال الموظفين البريطانيين العاملين فى السودان ..

وكان أيدن قد أعد مسودة برقية إلى السفير البريطانى وزعها على الوزراء وتتضمن بالنسبة للمديريات الجنوبية تقبل مصر أن يترك الأمر ليقره البرلمان السودانى .

أوإبقاء مادة فى الدستور تنص على أن تكون للحاكم العام سلطاته يمارسها فى كل مديريات الجنوب بالتفاهم مع نصيحة لجنته ..

وبالنسبة للموظفين البريطانيين قبول وجهة النظر المصرية فى تغيير هؤلاء الموظفين بشرط أن يوافق المصريون على أن الإجراءات التفصيلية لتقرير المصير بعد ثلاث سنوات ، تكون تحت إشراف لجنة دولية تنصح فى الوقت المناسب بتغيير الموظفين البريطانيين ..

وكان واضحا من هذا القرار أن بريطانيا تتراجع تماما عن موافقتها القديمة ، وأن كل ما يهمها إجراء الانتخابات التى تأمل أن تجيء باغلبية لحزب الأمة والحزب الجمهورى الاشتراكى المؤيدين لبريطانيا !

قال إيدن للقائم بالأعمال الأمريكى جوليوس هولمز ، لقد أقنعت مجلس الوزراء بالمضى شوطا طويلا فى الاستجابة للمقترحات المصرية بقبول مقترحاتنا الأخيرة ، وإنه بمجرد الوصول إلى تسوية لمسألة السودان فإن الحكومة الأمريكية تبحث فورا مد مصر بالسلاح ..

أبلغت الحكومة الأمريكية يوم ٥ فبراير كافرى أن بريطانيا تراجعت تماما وأنها وافقت على ترك مسألة السودنة للبرلمان السودانى المنتخب ، أما سلطات الحاكم العام بالنسبة لكل السودان فتخضع للجنة الحاكم العام ..

الاجتماع الثامن للمفاوضات يوم ٦ فبراير ، كان حاسما واستمر ٥ ساعات كاملة ، قال السفير البريطانى أنه لابد من إجراء الانتخابات قبل مايو ، لحلول شهر رمضان وسقوط الأمطار ، ولابد من التعجيل بالاتفاق ولم تبق سوى مسألتين ، الجنوب ، والسودنة ، وقال إن المشروع المصرى المقدم فى ٢٨ يناير ، أغفل مسألة سلطة الحاكم العام فى الجهاز الوظيفى ، وحق البرلمان السودانى فى بحث هذا الاتفاق ، واقترح السفير خضوع تدابير تقرير المصير لإشراف دولى محايد، عن طريق لجنة دولية تبحث أيضا مقترحات لجنة السودنة ، وما يبديه البرلمان السودانى من آراء، كما تنظر الاقتراح المصرى بتعيين موظفين محايدين لإدارة السودان وشرطته وجيشه ..

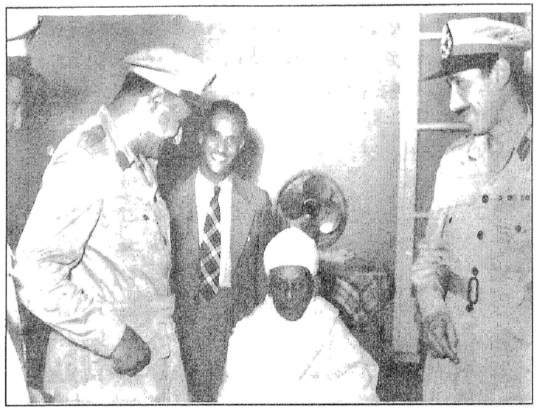
ووضح أن الإقتراح البريطانى يترك للبرلمان السودانى إعادة النظر فى كل نصوص الاتفاق المصرى البريطانى ، ولكن مصر أصرت على ضرورة جلاء القوات البريطانية قبل تقرير المصير ..

واتفقت مصر وبريطانيا على أن يكون البرلمان السودانى حرا فى بحث المواد الرئيسة لاتفاق الحكم الذاتى ، على أن تضع الدولتان محل الاعتبار آراء البرلمان السودانى بشأنها ، واتفقا أيضا على اعتبار الحاكم العام قائما بعمله ، ويمارس مهامه إذا غاب لوقت قصير ..

وتوافق مصر فى هذا الاجتماع الثامن يوم ٦ من فبراير ، على نص جديد يقول تخضع للإشراف الدولى الترتيبات التفصيلية لعملية تقرير المصير ، بما فى ذلك الضمانات التى توفر حياد الانتخابات ، وأية ترتيبات أخرى لضمان مناخ حر ومحايد ، وسوف تقبل الحكومتان المتعاقدتان توصيات أية هيئة دولية قد تقدم لهذا الغرض ، وقال سير رالف ستيفنسون للندن مبررا ضرورة قبولها لهذا النص ، أنه إذا فشلت لجنة السودنة عمليا فى إتمام مهمتها ينتقل الأمر إلى هيئة الإشراف الدولى .

الاجتماع التاسع للمفاوضات يوم ١١ من فبراير هو الاجتماع الأخير ، حاول السفير البريطانى الحصول على موافقة مصر على إقامة محطة لخدمة الطائرات البريطانية رفضت مصر حتى لا يقال أن القوات البريطانية لا تزال فى السودان ، كما رفضت مصر الموافقة على أن يناقش البرلمان السودانى ، عند قيامه ، الاتفاق ! وينصح السفير حكومته بالاستجابة .. انتهى

لقد حفظ الشعب السودانى لمصر بكل امتنان هذه المواقف وعبر عنها فى كل المناسبات ومنها سنة ١٩٦٧ عند انعقاد مؤتمر قمة الخرطوم وزيارة جمال عبدالناصر بحماس جماهير الشعب السودانى فى استقبال جمال عبدالناصر عندما جاء لحضور مؤتمر القمة العربى بعد الهزيمة الشئ الذى جدد ثقة جمال عبدالناصر فى أمته العربية ، فكانت لاءات الخرطوم .



السيد على المرغنى زعيم الختمية مع الرئيس جمــال عبدالناصر ومعهما المشير عبدالحكيم عامر، يذكر أن طائفة الختمية كانت دائما مع مصر وإلى جانب مصر فى السودان .

٣-رأى عبدالناصر فى الدين والدولة .

المعتاد فى الحياة اليومية لكل مسلم أنه يلتزم بأركان الإسلام ، أى أنه يقيم الصلاة ويصوم رمضان ويحج إلى بيت الله متى استطاع ويؤدى الزكاة ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ومن المؤكد أنه لا يختلف أحد من المسلمين في هذا الأساس الإسلامى أينما كان علي وجه الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فالدين واحد والكتاب واحد ..

ولم يكن جمال عبدالناصر خلافا لما يمارسه أى مسلم عادى ، كبير أو صغير، وإن اختلف عن كثيرين فى زهده ورضاه بالقليل القليل من متاع الدنيا رغم توفر كل أنواع المتاع ورهن إشارة من بنانه ، ثم بعد قواعد الإسلام الخمسة هذه تأتى أوامر ونواهى سلوكية أخرى يتوقع أن تكون من صفات المسلم الحقيقى مثل الصدق والأمانة وعفّة اللسان وطهارة السريرة والإحسان والمودّة ..إلخ

ومن يراجع كلام عبدالناصر وخطبه إضافة إلى التزامه اليومى وسلوكه الدائم الظاهر بالطبع لأن المخفى فى كل إنسان يعلم به الله وحده يعرف يقينا أن عبدالناصر يفهم الإسلام فهما حضاريا فهو يقول :

(لقد كان أمامنا أحد طريقين ، إما ان نسير مع القوة وننافق ونخادع لنحقق لأشخاصنا كل المغانم ، وإما أن نسير مع الله وفى سبيل الله والوطن ، لقد اخترنا طريق الشعب واتجهنا إلى الله، واستعنا به واتحدنا وتعاونا وكانت المحبة رائدنا ، فكان هذا سبيل النصر) ، ثم يقول ..

(أيها المسلمون والله إن السماء لتبكى على ما صارت عليه أمور المسلمين من ضعف وهوان ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وتخلوا عن رسالته فحل عليهم غضبه واستبدت بهم قوى الشر ، وتحكمت فيهم يد الاستعمار وأصبح بأسهم بينهم شديدا ..) ويضيف :

(أيها المسلمون عودوا إلى الله مخلصين له الدين واتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، أيها المسلمون هل أدلكم على سنّة الله ورسوله ؟

لتكن المعرفة رأس مالكم ، والعقل أصل دينكم ، والحب أساسكم ، والشوق مركبكم ، وذكر الله أنيسكم ، والثقة كنزكم ، والحزن رفيقكم ، والعلم سلاحكم ، والصبر رداءكم والرضا غنيمتكم، والفقر فخركم ، واليقين قوتكم ، والطاعة حسبكم ، والجهاد خلقكم

أيها المسلمون ، السلام عليكم يوم رفعتم راية الحق والجهاد فى سبيل الله ، السلام عليكم يوم كنتم خير أمة أخرجت للناس ، والسلام عليكم يوم تحطمون قيود الاستعمار وتدكّون حصون الظلم والطغيان ، فلا تهتفوا للحرية قبل أن تعملوا من أجلها .

وفى موضع آخر يقول جمال عبدالناصر :

(يجب أن نعرف أن العالم العربى والعالم الإسلامى يقفان أمام عدو واحد ، ويتهاونان أمام مرض واحد .

أما العدو الواحد فهو الاستعمار ..

وأما المرض فهو الفرقة والتخلى عن الجهاد فى سبيل الله ..

يجب أن يؤمن العرب والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن عهد اللغو والكلام قد انقضى ، وأن عهدا جديدا يجب أن يبدأ ..

عهدا قوامه الإيمان بالله ، وعماده العمل فى سبيل الله ، أيها الأحرار فى كل دولة عربية ، فى كل شعب عربى ، فى كل مكان هبوا وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة ، إن عجلة الثورة ستستمر فى تقدمها محطمة كل خائر وكل خائن وكل ضال أو مضلل ، إننا لا نعمل لأنفسنا ولكن نعمل لخير الوطن ولأبنائنا من بعدنا وللأجيال القادمة ، أوصيكم بالصبر، فإذا ما صبرنا واتحدنا وصممنا فلن تقف أمامنا عقبة وسنقضى على آثار الماضى من الظلم السياسى والظلم الاجتماعى والاستعمار ..

لقد قامت الثورة تهدف إلى تصفية القلوب ، والتوفيق بين الغنى والفقير ، والتعاون بين القوى والضعيف ، الثورة لم تقم لأغراض شخصية أو منافع ذاتية ، فكلنا ذاهبون ولا يخلد فى هذه الأرض ولا يبقى فى هذا الوطن إلا الأعمال الصالحة)..

هكذا قال جمال عبدالناصر وغيره فى كثير من المناسبات الوطنية والقومية والدينية.. وهكذا قلنا إن فهمه للدين فهم حضاري ، نقول إنه كان خادما للدين والدنيا لم يقل غير الصدق ولم يعمل إلا بالصدق والإيمان ، ويورد الأستاذ سامى شرف، فى شهادته ما كان يقول عبدالناصر عن العرب، مسلمين ومسيحيين كما يلى :

(نحن المصريين ونحن العرب ، نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كيانا فى ذاته وكيانا فى أهله وكيانا فى قوميته وفى بلده ، ونؤمن بحرية العمل وحرية الكسب وحرية النفقة فيما لا يعود على المجتمع بمضّرة ، ونؤمن فوق كل ذلك بأخوة الإنسانية والتكافل الاجتماعى والإيثار القائم على الاختيار لتوثيق الروابط الإنسانية،

ونؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقا وعليه واجبا يكافئ هذا الحق ، وأن على الدولة لكل فرد فيها واجبا ولها عليه حقا يكافئ هذا الواجب ، فهى تبعات متبادلة بين الحكام والمحكومين ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقة قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد ، هذا ديننا وذلك دين الشيوعية ، فلتؤمن الشيوعية بما تشاء ، فليس يعنينا ما تؤمن به وما تكفر به ، وإنما يعنينا أن نؤكد إيماننا بديننا الذى ندين الله عليه ونترسم دستوره فيما نعمل لقومنا ولأنفسنا، كل ما بيننا وبين الشيوعية فى مذهب الحكم أو فى مذهب الحياة أن الشيوعية لها دين ونحن لنا دين ولسنا بتاركي ديننا من أجل دين الشيوعية .. انتهى

هل هناك من يطلب مزيدا من التأكيد على التزام جمال عبدالناصر بعدالة الإسلام ، والعمل على أساس العقيدة الإسلامية ، حقا - ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ صدق الله العظيم ؛ وفى الحديث الشريف « الإيمان ما وقر فى القلب وصدقَه العمل » ويؤكده القرآن الكريم فى سورة البقرة ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ صدق الله العظيم .

ويأتى مفهوم العدل على ضوء القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ضمن مفهوم محدد وشامل للعمل والأخلاق ممارسة والتزاما ، كما أشرنا ، ذلك أن

ممارسة جمال عبدالناصر للإسلام لم تقل بالمفهوم الضيق الذى ينحصر فى بعض المبادئ السلوكية وإنما كان يرى أن العدالة فى الإسلام تتعدى ذلك المفهوم فمن يكون جائعا غالبا ما يكذب أو يسرق أو يعتدى ، كما انه يرى وتلك حقيقة ان تصدق الأغنياء على الجوعى والفقراء لا تغنيهم دوما وهى فى الغالب كصدقة تفقد الجائع والفقير إحساسه بالكرامة وهذا ما ليس فى الإسلام الذى يحث على التعاون وحفظ كرامة الإنسان ، ويرى عبدالناصر خصوصا عندما كان يتحدث عن التطبيق الاشتراكى إن الأخلاق هى انعكاس للنظام الاجتماعى السائد على الفرد ، ومن المعروف أن أعدل العادلين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أمر بالتسامح مع السارق(عام الرمادة) ولم يأمر بتطبيق الحد على السارق الجائع، ذلك أن الفقر اساس القيم المتخلفة ، ولقد صدق سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه حين قال (لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفى هذا) ولهذا كانت ممارسات عبدالناصر واشتراكيته مستهدفة القضاء على الفقر ومتوخية مفهوم العدل فى الإسلام كما فى الحديثين الشريفين « المؤمن الحق هو من يقر بمساواته مع غيره فى فرص العيش » و « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا ولد له» وعدل الإسلام قائم على نص القرآن الكريم وسنة رسول الله وسير الصالحين من أئمة المسلمين، ففى سورة النمل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ ويحض على عدم تضخيم الثروة واكتنازها أو إحتكارها ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبه ..

أشرنا فيما تقدم إلى مواقف وخطب عبدالناصر والتى يركن فيها غالبا إلى القرآن الكريم ودعوات الجهاد والتخلص من الظلم والغبن والضيم ، وكان فى حالات التعبئة السياسية مع الضباط والجنود خصوصا ، بعد الهزيمة ، ثم بداية حرب الاستنزاف يركز على الجانب الدينى لرفع المعنويات وتقوية الهمم ، ففى خطابه يوم ١٠/ ٣/ ١٩٦٨م قال :

يجب أن نؤمن بإرادتنا وهى وحدها القادرة على تغيير الموقف وتحويل الهزيمة الى انتصار ، لذلك يجب أن نضحى وأن نبذل الجهد ونفتدى حياتنا وحياة

بلادنا ، وبدى أقول حاجه مهمة، أن مافيش حد مننا حيموت ناقص عمر وكل مخلوق له أجل محدد وكلنا مؤمنين بالله وبهذه الحقيقة ، ومن ناحية أخرى فلابد أن يتعمق هذا الإيمان فى قلب الجنود ، عاوز كل عسكرى يكون مؤمن بالدين وبالمبادئ والقيم ، ولازم التوجيه المعنوى يعمق هذه المعانى ويجعل عامل الإيمان بالله أساسى فى توعية الجندى ، وهذا الإيمان الذى يملأ قلب كل واحد بيدفعه أن لا يتردد فى وقت الشدة ، ولقد لمستم ذلك فى المعركة وعشتم أيامها وأدركتم قوة المبادئ والإيمان .

وفى خطاب آخر يوم ١١/ ٣/ ١٩٦٧م وأيضا مع الجنود والضباط ، قال :

إن المسؤولية التى يلقيها الشعب عليكم أنتم رجال القوات المسلحة كبيرة جدا ، والواجب الملقى عليكم واجب صعب ولكنه موش مستحيل ، وبالإرادة والإيمان بالله والثقة بالنفس والتدريب وبالجهد وبالعلم نستطيع أن نحول الهزيمة إلى نصر لأن هذا قدر الأمة العربية ، ..

كذلك فى خطاب آخر خلال يوم ٢٩/ ٤/ ١٩٦٨م تحدث عن الجهد والإيمان والنتيجة المتوقعة من ذلك ، علما بأن هذه الخطابات وهى كثيرة كانت متتالية والغرض منها التعبئة والإعداد للمعارك الفاصلة التى أرادها جمال عبدالناصر وأعد لها عدتها ، لكن مع الأسف لم يمهله القدر ليرى بعينيه قواته المسلحة وهى تعبر قناة السويس .. قال :

إن الدبابة موش حتحارب لوحدها ، المدفع موش حيضرب لوحده ، والإنسان هو القادر على تحريك كل هذه الأسلحة ، والإنسان العربى دائما كان يكافح ، الإنسان العربى دائما أثّر فى التاريخ ، وسوف يكافح ويؤثر فى التاريخ ، ولكن علينا إحنا واجبات كبيرة جدا من أكبر القيادات إلى أصغر القيادات ، علينا أن نوجه هذا الإنسان التوجيه السليم ، هذا الإنسان اللى هو الجندى ، علينا أن نوجهه إلى أن يشعر أن عليه رسالة كبيرة ، رسالة ثورية ، ورسالة نحو ربه، ورسالة نحو وطنه ، وعلينا أن نبعث فيه روح الإيمان ، لأنه بدون الإيمان وبدون العقيدة الواحد حيحارب ليه ؟ الواحد بيموت لأنه مؤمن بشئ ، بيطلع يبذل نفسه من أجله وإحنا هنا طبعا نؤمن بالله ، نؤمن بوطننا ، نؤمن بحريتنا ونؤمن بحق أمتنا

العربية فى الحرية ، ولذلك من أجل المثل اللى اداهالنا ربنا ومن أجل بلادنا ومن أجل أرضنا ومن أجل أمتنا العربية ، الواحد يطلع ويضحى بنفسه ..

ورغم هذا وقبله ثم بعده تعرض جمال عبدالناصر لكثير من التشكيك والاتهامات، وما أسهل على المنحرف والمتربص أن يوزّع التهم يمينا ويسارا دون روية ولا سند ولا موضوعية ، فلقد قالوا أن عبدالناصر شيوعى فقط لأنه كان يبحث عن مصدر للسلاح يحمى به جيشه وبلده وأمته (كما قال دلاس وإيدن وجى موليه وغيرهم) وقالوا إنه كافر وهو الرجل الذى لم يقترب من محرّم طوال حياته حتى إن أعداءه قالوا إنه يكاد أن يكون فوق مستوى البشر ، لكن أصحاب الضمائر الحية والرجال الذين يحرصون على كرامتهم وكرامة أمتهم مازالوا يدافعون عن حق عن جمال عبدالناصر ومواقفه وأعماله ، الرجال الذين لم يأكلوا حراما ولا باعوا أنفسهم للدولار ولا تلوّنوا من أجل منفعة أو خدمة ، هؤلاء مازالوا يدافعون بقوة عن عبدالناصر وعن الحق والعدل ، نقدم هنا بعض ما قيل فى عبدالناصر وإسلامه واشتراكيته من رجال الحق ، يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله ، وأنا أعرفه شخصيا رحمه الله ، أعرفه رجلا صادقا متقشفا لا يحيد عن الحق ، قال :

(حينما ننظر فى شأن موقف الناصرية من الإسلام يجب علينا أن نميز بين الإسلام كعقيدة دينية، والإسلام كمؤسسة تعليمية أو تربوية ، والإسلام كقوة سياسية ..

فمن حيث الإسلام كعقيدة دينية نجد أن الناصرية ملتزمة به التزاما دينيا ، وليس أدل على ذلك من أن مجلس قيادة الثورة باعتباره الهيئة الرئاسية للدولة ، قد التزم بأن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وبذلك لم يكن فيه من غير المسلمين وذلك بخلاف الحكم ، أى الهيئات التنفيذية كالوزارات مثلا ، فقد كان فيها بعض إخواننا المسيحيين وهذا الموقف هو التزام دينى باعتبار أن الرئاسة للمسلمين ، وهنا أمر نستطيع أن نلحظه وهو أن رئاسة الثورة حينما قامت بحل جميع الأحزاب السياسية أبقت على جمعية الإخوان المسلمين ، باعتبارها هيئة دينية ، وحين حدث الخلاف بين الناصرية والإخوان المسلمين تبين للناصرية أن الإسلام فى يد الإخوان المسلمين هو عمل سياسى وليس عملا دينيا ، ولذلك قامت بحل هذه الجمعية مؤخرا ، وهذا إنما يعنى أن الناصرية تؤمن بالإسلام كعقيدة دينية وتلتزم به كعقيدة دينية ، ولكنها لن تستثمره كعمل سياسى..

هذا فيما يخص الإسلام كعقيدة دينية ، أما ما يخص الإسلام كمؤسسة تربوية وتعليمية بالنسبة للأزهر الشريف فقد قامت الناصرية بتطهير الأزهر الشريف كمؤسسة تربوية وتعليمية وإحالتها إلى جامعة ، وأصبحت هذه الجامعة تمنح الشهادات العلمية كالدكتوراة ، ولم تقف هذه الجامعة عند حدود التعليم الدينى وإنما تجاوزته إلى غيره من أنواع التعليم الأخرى حيث أنشأت كليات للطب والهندسة والتجارة وما إلى ذلك ..

وأما الإسلام باعتباره قوى سياسية فالناصرية لم تؤمن به على أنه عمل سياسى ، إنما هو عمل دينى أخلاقى ، ومن هنا وقفت فى مواجهة الجمعيات الدينية التى قامت بمحاولات عديدة ضد الثورة الناصرية ، والأمر الذى نشير إليه هو أن الجمعيات الدينية التى تعبر عن الإخوان المسلمين وغير العرب من المسلمين، وقاموا بتكفير المجتمع وتكفير الدولة ، وهذا أمر إن صح فى باكستان، والهند ، فلا يصح فى مصر ، لسبب بسيط جدا وهو أن رئاسة الدولة فى الهند كانت للمستعمرين ولغير المسلمين ، وبذلك يصدق عليها حكم أنها جاهلية أو كافرة ، أما فى مصر فلا يصدق هذا ، لا على المجتمع ولا على الدولة ، لأن المجتمع فى مصر متدين سواء أكان مجتمعا مسلما أو مسيحيا ، ومن هنا ظلت الناصرية ملتزمة بالإسلام كعقيدة دينية ولم تلتزم به كعمل سياسى ...

وفى حديث بعنوان عبدالناصر كان متدينا وعلمانيا كتب الدكتور يونان لبيب رزق يقول :

من خلال تأملى لتاريخ عبدالناصر أعتقد أن علاقته بالإسلام كدين أو الحضارة أوالعالم ، كان يحكمها عدة اعتبارات أساسية من بينها :

أولا : على المستوى الداخلى للبلاد فى مصر ، نجد حرصه الشديد على ما نسميه الوحدة الوطنية فهو دائما كان من خلال استقرائنا لمسيرته وتاريخه، يعطى لوحدة الجبهة الداخلية أهمية كبيرة، خصوصا أن أغلب نجاحاته تمت بالارتكاز على هذه الوحدة ، وإذا عدنا إلى عامى١٩٥٤-١٩٥٣ خلال التفاوض مع بريطانيا ، كانت بريطانيا تتفاوض مع سلطة واحدة ، ولم تستطع اللعب على المبدأ الاستعمارى فرق تسد ، واعتبر عبدالناصر ثورة يوليو هى سلطة الشعب المصرى الوحيدة ، وهى من الاعتبارات التى حكمت نظرته الإسلامية ..

ثانيا : أما صدامه مع الإخوان المسلمين فى أكتوبر ١٩٥٤م ذلك الصدام الذى أكد على أنه ليس مستعدا لأن يأخذ بمنهج الصدام الذى بدأه الإخوان ، ويتجلى هنا فى مبدأين أساسيين :

الأول : هو رفضه أن تملى عليه قوى داخلية سياستها مهما كانت .

والثاني : هو رغم تحالفه مع هذه القوة فى البداية إلا أنه رفض أن يأخذ بمنهجها ..

وأقرر هنا أن هذين الاعتبارين وغيرهما هما اللذان حكما موقف عبدالناصر من الدين فى السياسة ، وأتصور أن عبدالناصر فى سياساته الداخلية كان ، علمانيا ، أكثر منه صاحب اتجاه دينى ، كما أن الاشتراكية والقومية العربية بمفهومهما الناصرى كانا فى الأساس توجهات علمانية ، وخصوم عبدالناصر من أصحاب التيار الدينى يتهمونه بهذه التهمة ، ولا أدرى لماذا يعتبرونها تهمة ؟! لأنها حقيقة التعامل مع العصر ، فى الوقت الذى سمح فيه بأن توجد النبرة الدينية دون أن تعلو ، فيما يمكن أن نسميه حدود ، التون ، مختلفة وأنغام مختلفة ، فإن النشيد الناصرى الذى قاد عبدالناصر عزفه احتوى بين نغماته هذه الاعتبارات السابقة ..

هذا فيما يخص رؤية عبدالناصر السياسية للإسلام ، وبالنسبة للجانب الشخصى أعتقد أن عبدالناصر كان رجلا متدينا تتجلى علامات هذا فى قيمه العامة وسلوكياته فهو ممثل أمين لأبناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، ومن طبيعتها أنها متدينة ، وهذا بخلاف الطبقة العليا أو الراقية التى لم تحظ بنصيب كاف من الثقافة الدينية ، ويمكننا القول أن عبدالناصر خير ممثل لطبقته المتدينة ، وفى تعبيره عنها ، ولم يتطلع أن يخرج عن فهمها للدين ، والذى يمثل ركنا أساسيا من نشأتها ، ولم أتوقع من عبدالناصر إلا أن يكون متدينا ..

واتهام خصومه له بأنه ملحد فهو اتهام غير صحيح ، أكدت عدم صحته محادثات الوحدة عام ١٩٦٣م ، وكانت سببا لنفوره من ميشيل عفلق وصلاح البيطار، ومن شاركوا من ممثلى حزب البعث العراقى والسورى ، الذين سعوا لعقد الوحدة بين مصر وسوريا والعراق ، ولا يوجد شك فى أنه على هذا المستوى كان شخصا متدينا وعلى المستوى العام كان يضع الدين فى حجمه الطبيعى ، وأن استخدام الدين فى السياسة سوف يؤدى إلى شق الأمة ، وهو حريص على وحدة الجبهة الداخلية ..

ولو قارنا بين عبدالناصر والسادات نجد أن (التون) الدينى ارتفع عند الأخير في بداية خطبه وأحاديثه ، والتى حرص على أن يبدأها بحديث شريف أو آية قرآنية ، وحرصه على أوصاف مثل الرئيس المؤمن ، ودولة العلم والإيمان ، وكان السبب امتلاكه الرصيد الكافى للشعبية ، واكتشف أن الطريق إليها يأتى من طرح الرصيد الدينى فى حين لم يحتج عبدالناصر إلى مثل هذه الأشياء الشكلية ، ولم يكن ممعنا فى استجلاب الجماهير بزيادة الرصيد الدينى الشكلى ..

وإذا انتقلنا إلى المستوى العربى نجد أن مفهوم القومية العربية للدين هو اعتباره أحد عناصر هذه القومية ، وليس العنصر الوحيد ، والمسألة هنا أكثر وضوحا سواء فى طبيعة خطب عبدالناصر أو الكتابات التى كتبت عن القومية العربية فى هذه الفترة ، وعبدالناصر كان يتشكك كثيرا فى استخدام الدين فى تجميع القوى الخارجية ، وكان انتماؤه للحياد الإيجابى أو عدم الانحياز أكثر من الانتماء إلى المؤتمر الإسلامى ، فى حين حرص السادات على حضور المؤتمر الإسلامى والمشاركة فيه بنفسه ، والمقارنة بين عبدالناصر فى ميدانى القومية العربية وعدم الانحياز ووجوده فى المؤتمر الإسلامى ، سنجد أن وجوده فى الميدانين الأولين أكثر وضوحا وجلاء ، وإنما فى الميدان الأخير كان تأثيره منخفضا وهذا له دلالته ، فهو لم يبتعد بمصر عن المحيط الإسلامى لكنه كان كثير الشكوك فى هذا الحضور ، لأنه كان يتمتع بجماهيرية أكبر من الارتكان إلى هذا المحيط لاستغلاله فى بناء شعبية خاصة به ، نظرا لأن المؤتمر الإسلامى كان يتمتع برئاسة خاصة موالية للغرب ولأمريكا على التحديد...

وعن إنجاز عبدالناصر الإسلامى يذكر الأستاذ عمرو ناصف كثيراً من التفاصيل والمعلومات نرى أن الاستدلال بها ربما يكون مفيدا حيث أن الركن الركين فى تعاملات جمال عبدالناصر كان الإسلام رغم كل ما كتب وقال معارضوه الذين لم يكن يهمهم الإسلام أكثر من مصالحهم ومناصبهم واستغلالهم وسيطرتهم ، يقول :

(الحديث عن ثورة يوليو والدين على أهميته وخطورته لم يأخذ حقه فى البحث والتحليل ، اللهم إلا من زاوية واحدة انطلق منها أصحاب التيارات المضادة

للثورة وعبدالناصر ، الفكر والطريق والإنجازات بهدف الطعن والتشويه ، ونحن هنا لسنا مضطرين للانزلاق فى مطالبتهم والرد عليهم إحقاقا للحق بوضع النقاط فوق الحروف يتطلب استعراض فكر عبدالناصر وبيان دور ومكانة الدين فى هذا الفكر من خلال كتبه وخطبه وتصريحاته ومن ثم مقارنة ذلك بما تم فعلا فى عهد الثورة..

بداية نقول إن البحث فى موضوع فكر عبدالناصر والدين لا يعنى محاولة كشف مدى إيمان جمال عبدالناصر الذى وصل البعض فى غيهم إلى حد تكفيره ، بل واتهامة بأنه كرّس حياته لضرب الإسلام ومحاربته ، وإنما الهدف هو قياس درجة ارتباط الثورة بالدين من خلال فكر زعيمها وعلاقة ذلك كله بتحرير وبناء وتطور المجتمع العربى ..

ولنبدأ بفلسفة الثورة كوثيقة مبكرة طرحها عبدالناصر لتوضح خط الثورة ، ولا شك فى أن أول ما يستوقفنا فى هذه الوثيقة هو تعيين عبدالناصر للدوائر الثلاث العربية والأفريقية والإسلامية ، ولنرى رأى عبدالناصر الخاص بالدوائر الثلاثة ..

ليس عبثا أن حماية الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة ترجع إلى مصر وآوى إليها فحمته مصر عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت ..

لقد أدرك عبدالناصر أن دور مصر الإسلامى له جذوره التاريخية وأسبابه الموضوعية وأن فصول هذا الدور وهو عين جالوت لم يكن أن مصر قد تطوعت بمغامرة غير محمودة العواقب لصد جيوش المغول وإنما لأن مصر جزء لا يتجزأ من الوجود الإسلامى بمعناه الدينى ومعناه الحضارى ، ولعل الفقرة التالية من ذات الوثيقة تبين مدى إدراك عبدالناصر لدور مصر فى هذا الصدد ، وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس زعامة وإنما هو دور تعامل وتجاوب مع كل العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر ..

وفى إطار البحث عن أساليب التفاعل الممكنة بين المسلمين اقترح عبدالناصر أن يكون الحج قوة سياسية ضخمة ،حيث قال : يجب أن تهرع صحافة العالم إلى

متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد ترسم صورا طريفة لقراء الصحف وإنما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة العالم الإسلامى ورجال الرأى فيها وعلماؤها فى كافة أنحاء المعمورة ، وكتابها وملوك الصناعة فيها وتجارها وشبابها ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معها حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام ..

ثم يظهر جليا بعد ذلك عظمة الدور الإسلامى فى ذهن عبدالناصر حين نراه يستعرض نماذج القوى البشرية الإسلامية الهائلة فى العالم والتى يجب أن تلتقى وتصبح قوة يحسب لها ألف حساب ، ولكن دون أن يحدث ذلك خلطا للأوراق بين ما هو دينى وما هو قومى ، فيقول فى خاتمة كتاب فلسفة الثورة :

وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى إندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى الشرق الأوسط ، وأربعين مليونًا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض ، المتباعدة ، حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع لكنه يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة ، أما الميثاق فيستوقفنا بابه الأول حينما يطرح عبدالناصر الإيمان كأحد ضمانات نجاح النضال فيقول :

إيمان لا يتزعزع بالله ورسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى إلى الإنسانية فى كل زمان ومكان ، ثم يعود لذات النقطة ولكن بتخصيص للدين الإسلامى فيقول ، وفى إطار التاريخ الإسلامى وعلى هدى من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام قام الشعب الإسلامى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة الإنسانية ..

وفى الباب السابع من الميثاق يتحدث عبدالناصر عن حرية العقيدة الدينية وما للقيمة الروحية النابعة من الأديان وعن دورها فى صنع الحضارات للارتقاء بالإنسان بغية الوصول إلى الكمال ، ثم يؤكد عبدالناصر على عدم وجود أى تعارض بين جوهر وروح الدين وبين تقدم الحضارات وتطور أشكال الحياة ، فالدين ثابت ومضمون أما المتغير والمتلون فهو يعنى التفاسير المستغلة للدين والذى

تلجأ إليه القوى الرجعية لحماية مصالحها وشر جرائمها ، إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة وإنما ينبع التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية .. ويقول أيضا فى الميثاق ، وإن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة . انتهى ..

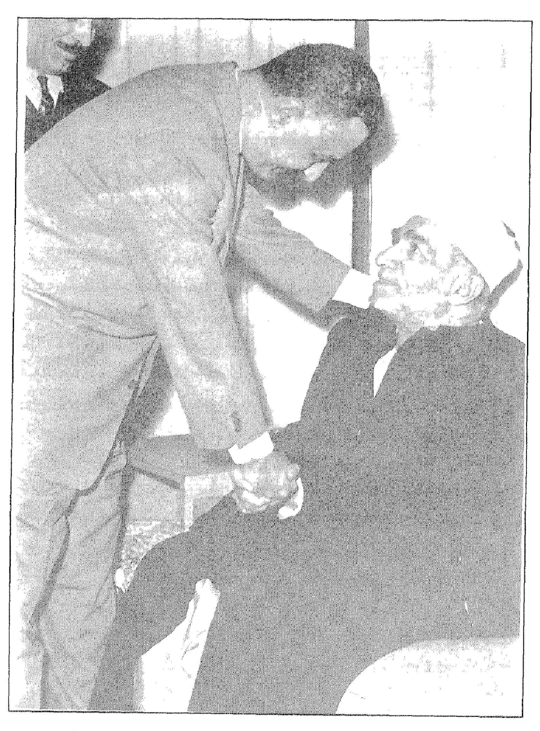
وهناك الكثير من البراهين والأدلة على التزام عبدالناصر الدينى والخلقى الذى يمكن أن يقنع أى إنسان يريد أن يرى الحقيقة ، أما هؤلاء الذين لا يريدون فهم أو رؤية البراهين فإنهم يتحملون وزر تصرفاتهم وأعمالهم ، خصوصا إذا كانوا من رواد الليل واستخدام القنابل والمسدسات ، ولا يعنى تعبير رواد الليل أنهم لا يقومون بإجرامهم إلا فى الليل فقد حاول محمود عبداللطيف اغتيال عبدالناصر فى وضح النهار عندما أطلق عليه تسع رصاصات وهو يخطب فى جماهير الإسكندرية ، هذه الحادثة التى مازال الإخوان المسلمين ينكرونها ويقررون أنها من ترتيب عبدالناصر !! ولعل القصة الطريفة التى ذكرها السيد محمود الجيار تكون مناسبة لإنهاء هذا الفصل ، يقول :

(فى واحدة من زيارات جمال عبدالناصر الرسمية للاتحاد السوفيتى وكان فى اجتماع رسمى مع رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى السيد نيكيتا خروتشوف فى أحد أيام الجمعة وقد حل موعد أداء صلاة الجمعة وكان علىّ أن أنبهه لذلك فأردت أن أدخل قاعة الاجتماع لكن سكرتير خروتشوف قال لى إن رئيسه أمر ألا يدخل عليه أحد مهما كان أثناء الاجتماع ، لكننى قلت له إن واجبى أن أبلغ الرئيس عبدالناصر عن موعد الصلاة ، ودخلت لأبلغ الرئيس بموعد الصلاة وهكذا طلب تأجيل الإجتماع حتى يؤدى صلاة الجمعة فى مسجد موسكو لكن الرفيق خروتشوف قال له سوف نأمر بتأجيل الصلاة حتى تنتهى من اجتماعك معى ، فضحك عبدالناصر وقال يمكن للرفيق خروشوف أن يؤجل الصلاة ولكن الله لا يقبل تأجيل فرض على أى مسلم ، وهكذا رفعت الجلسة حتى أدى عبدالناصر الصلاة جماعة مع المسلمين ..

وبمناسبة الحديث عن الاتحاد السوفييتي أذكر أنني بينما كنت أزور الجمهوريات الإسلامية السوفيتية ذات مرة ضيفا على هيئة دار الإفتاء الأوزبيكية رأيت أن هؤلاء الناس كانوا يمارسون تقاليدهم الاجتماعية وواجباتهم الدينية بكل حرية حتى أن أذان الصلوات يذاع عبر محطات التليفزيون هناك ، ويتلى القرآن الكريم عبر مكبرات الصوت فى المساجد حيث تقام الصلوات فى أوقاتها ، وفى زيارتى لسمرقند التقيت بشيخ جامع البخارى الذى قال إن فى عائلته أحد عشر ولدا من صلبه جميعهم يحفظون القرآن الكريم ، وفى هذه الأثناء جاء أصغرهم فطلب منه أن يقرأ بعض آيات من القرآن الكريم فقرأ سورة البقرة كاملة بصوت جميل وترتيل أزهرى ، وكنت قد ذكرت أغلب هذه الأمور فى كتابى الذى صدر سنة ١٩٨٣م بعنوان الاتحاد (السوفييتى نظرة من الداخل)..

ولقد كنت أقصد بذلك الرد على كثير من كتاب المشككين والذين يهاجمون الاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت دون معرفة ولا دراية بالوضع الداخلى هناك وإنما فقط لخدمة أغراض سياسية موحى بها من جهات أجنبية ، ولقد أكدت عديد المرات وأؤكد مرة أخرى أننى لست شيوعيا ولا يمكن أن أكون ، لكننى ادافع عن حقيقة رأيتها بأم عينى ، كما رددت هذا الكلام مرة أخرى فى كتابى الجديد بعنوان (انهيار الإتحاد السوفييتى ونهوض روسيا الاتحادية) التى أعتقد أنها ستلعب الدور الذى كان ينهض به الاتحاد السوفييتى السابق وخصوصا فى وقت رئاسة السيد بوتين ، كما أننى اعتقد أننا نحن العرب لابد لنا أن نعترف فى كل مناسبة بفضل هؤلاء الناس الذين وقفوا معنا فى أحلك الأوقات وأيدونا سياسيا وعسكريا ومعنويا ، هذا إذا كنا صادقين مع أنفسنا ..

ولا يخفى على أحد أن الرئيس جمال عبدالناصر كان دائما يذكر بالتقدير تعاون القادة السوفييت مع مصر ومع العالم العربى وكذا مع دول العالم الثالث ، ولولا الاتحاد السوفييتى ما كان يمكن لنا نحن العرب أن ننتصر فى حرب أو نسترجع كرامتنا التى أهينت ، وبعد عبدالناصر ها نحن مهانون ليس لأننا نتقبل الإهانة وإنما لعدم قدرتنا عسكريا أو سياسيا أن نفعل ما يؤكد الكرامة والثقة بالنفس ، وإذ أشرت إلى الإسلام فى الاتحاد السوفييتى لأننى لمست وشاهدت وعايشت ما كان يجرى فى هذا البلد الكبيروفيه ما يزيد على خمسين مليونا من المسلمين أى تقريبا ربع سكانه .



الشيخ محمود شلتوت مع جمال عبدالناصر ، وكان هذا الشيخ الجليل قد أشرف على تطوير الأزهر الشريف وكان عبدالناصر يحيطه بكثير من الاحترام والتقدير

٤- البحث عن القوة لردع العدوان :

قال تعالى فى كتابه الكريم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لم يكن جمال عبدالناصر فى أى يوم من الأيام يرغب فى الحرب وإنما كان مناضلا من أجل الحق والحرية ، ولقد حاول كثيرا أن يحصل على أسلحة دفاعية لأنه لا احترام لحاكم لا يعمل على حماية شعبه من العدوان ، وهو يدرك أن سياسة إسرائيل قائمة على العدوان والتوسع ، والدليل القاطع على سياسة إسرائيل العدوانية تلك الهجمة الغادرة التى قامت بها قواتها على الجنود المصريين فى غزة خلال شهر فبراير عام ١٩٥٥م بلا أى سبب أو مبرر وقد قتلت ٢٧٠ وجرت ٣٠ ثم دمرت محطة السكة الحديد الواقعة شمالى غزة ، وهو الشئ الذى جعل عبدالناصر يبحث عن السلاح من أى مصدر ، ولقد بدأ بطلب السلاح من الغرب وتحديداً من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية،وبعد مناقشات ومباحثات وتأجيل لم يحصل على شئ وكان عليه أن يحصل على السلاح من جهات أخرى وقد تمكن من فتح نافذة على دول المعسكر الاشتراكى وفى مقدمتها تشيكيا (التى كانت تعرف باسم (تشيكوسلوفاكيا) وبذلك تعاقد على أسلحة دفاعية فقط وقتذاك ، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تعاقبه ليس فقط بفرض حظر على المنتجات المصرية ومنها القطن ولكن بتزويد إسرائيل بالأسلحة المتقدمة الفتاكة ، وكان عليه ورفاقه أن يستعدوا عملا بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وردا على الموقف الأمريكى والعدوان الإسرائيلى قرر عبدالناصر أن يجعل مصر دولة صناعية بحيث يمكنها أن تدافع عن مصالحها الوطنية واتجاهها القومى ، وعمل جمال عبدالناصر على إنشاء مئات المصانع وأرسل آلاف الطلبة للدراسة فى الخارج وكلف عشرات بل مئات العلماء والمهندسين المصريين بالبحوث العلمية خدمة للمجهود العسكرى ، واستجلب عشرات العلماء من الخارج وخصوصا أولئك العلماء والخبراء الألمان ، ووفق اتفاق صناعة الطائرات الحربية مع الهند وكانت باكورة ذلك الاتفاق والتعاون

إنتاج اول طائرة حربية بأيد مصرية وهندية وكذلك تم صنع الصواريخ وقوارب الطوربيدات والعربات المصفحة ومختلف أنواع المدفعية ، لكن عدوان إسرائيل مع المخابرات المركزية الأمريكية أخذ بعدا آخر فصارت إسرائيل تبعث الطرود المتفجرة لقتل العلماء الألمان الذين يعملون فى مجال الصناعات العسكرية المصرية ثم تجاوزت ذلك البعد فعملت على تهديد أسرهم وخطف أبنائهم وبناتهم وتخويف كل من له علاقة بهم ، وعلى الرغم من أن ذلك النشاط العدوانى الإسرائيلى الأمريكى قد أثر وجعل أولئك العلماء يهربون بجلودهم فإن اليأس لم يتطرق إلى عقول المصريين وقائدهم فعملوا على إنشاء مؤسسة التصنيع الحربى بالتعاون مع بعض البلدان العربية التى وافقت على تمويل صناعات هذه المؤسسة ، ولم يتردد عبدالناصر وظل يسعى لدى دول العالم من أجل التعاون فى هذا المجال رغم كل الضغوط والمؤامرات والعدوان ، ورغبة فى الاستفادة من التكنولوجيا النووية تم إنشاء أول مفاعل نووى فى إنشاص وذلك من أجل تدريب العلماء المصريين فى هذا المجال ، يذكر الدكتور ثروت عكاشة فى مذكراته جزءا من تلك الجهود ، فيقول :

اتصلت فى شهر فبراير ١٩٦٦ بالرئيس جمال عبدالناصر تليفونيا لاستئذانه فى السفر إلى باريس لحضور انعقاد دورة المجلس التنفيذى لليونسكو فطلب إلىّ الحضور لنتجاذب الحديث فى أمر هام ، ولما التقيت به شرع يبدى لى قلقه من تجارب الصاروخ المصرى الذى بذلت فى سبيله جهود ضخمة مضنية طوال الأعوام الماضية ، دون أن نصل إلى نتيجة مرضية بالنسبة لدقة توجيهه ، حتى أنه علّق ساخرا بأن صاروخنا إذا صوبناه على تل أبيب أخطأ هدفه وأصاب بيروت ! وعهد إلىّ الرئيس عبدالناصر البحث لحل هذه المشكلة فى باريس ، وذلك عن طريق أحد سبيلين ، إما الحصول على الخبرة الفنية الفرنسية فى هذا المجال وإما الحصول على موافقة السلطات الفرنسية على شرائنا لعدد من آلات الجيروسكوب اللازمة لتوجيه صاروخنا توجيها دقيقا ، ثم طلب منى المرور على المشير للتعرف على التفاصيل ، فتوجهت إلى المشير الذى كرر لى الأهمية التى يعلقها على الحصول على الجيروسكوب ، وإذ كنت أجهل ما يصاحب هذا الموضوع من تفاصيل ينبغى أن أتزود بها قبل الشروع فى المحاولة طلبت إليه تكليف أحد الخبراء

لتوضيح الموضوع لى ، فزارنى فى بيتى خبيران مكثا معى ليلة بأكملها يشرحان لى الناحية التقنية من الموضوع ، وحين طلبت منهما تزويدى بالمواصفات المحددة أصرا على عدم تسليمى إياها إلا على سلم الطائرة فى مظروف مغلق ، وعجبت لهذا وأنا رجل مسئول كما هما مسؤولان ، ثم أن الأمر كان لى أكثر مما هو لهم ، ولم أر ما يبرر هذه السرية المفتعلة أو يسوّغها إلا أن تكون مجافاة للذوق والإدراك ..

وفى الثانى والعشرين من فبراير التقيت بالسيد بيير مايار أمين عام جهاز الدفاع القومى الفرنسى الذى شرحت له مشكلة الصواريخ المصرية (أرض أرض (وأهمية تزويدنا إما بالخبراء الفنيين الذين يمكن أن يساعدونا فى التغلب على صعوبات دقة التصويب وإما بالجيروسكوب نفسه ، فرد بأن السفارة المصرية سبق أن تقدمت فى العام الماضى بمثل هذا الطلب ولكن الحكومة الفرنسية اعتذرت عن الاستجابة له ، ثم أردف بعبارة أتحرج من ذكرها لولا أن أمانة نقل الواقعة والحديث بنصه تدفعنى إلى إثباتها إذ قال (إن اختيار الرئيس عبدالناصر لك يدفعنا إلى البحث عن حل لهذا الموضوع يكون مرضيا لكم ففرنسا لا تنكر لك جهودك الموصولة فى إعادة العلاقات سليمة كما كانت بين الدولتين وصلاتك الوطيدة بالشخصيات الفرنسية البارزة) .

غير أنه ما لبث أن سألنى عن سر طلبنا المعاونة منهم لا من غيرهم فأجبته بأن الخبراء الألمان قدموا ما وسعهم من عون ومازالوا ولكنهم لم يوفقوا فى ناحية التوجيه الدقيق ، أما الروس فهم لا يستطيعون أن يطلعوا الإخصائيين الألمان بالذات على ما توصلوا إليه فى أى ميدان من هذه الميادين ، وأما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فعلاقتهما بإسرائيل لا تبيح لهما معاونتنا فى هذا المجال ولهذا لجأنا إلى فرنسا ، وهنا طمأننى إلى أن أمله كبير فى نجاح مسعاه إن لم تنشأ عقبات خارجة عن إرادته ، ثم استدرك قائلا إنه يقصد العقبات الفنية ولا شئ سواها ، ثم إذا به يسألنى عن عدد أجهزة الجيروسكوب المطلوبة فأجبته بأنى لا أدرى على وجه التحديد ولكنى قد أتيت سعيا وراء الموافقة على المبدأ ، أما العدد فأمره يسير إذ يمكننا إحاطته علما به فى أقرب فرصة بمجرد أن نتلقى رسميا الموافقة على المبدأ ، وليس المجال مناسبا للدخول فى تفاصيل هذا الموضوع وما صحبه من جهود للحصول على موافقة وزارة الحربية الفرنسية من الناحية الفنية ثم الأمانة العامة

للدفاع القومى من الناحية السياسية ، على أن مفاجأة مذهلة صادفتنى حين مرّ بى المسيو بيير مايار فى اليوم التالى بالفندق ليبلغنى أن الفنيين أنهوا إليه أن المواصفات الفنية التى أعطيته إياها تنطوى على ما يخالف ما طلبته منه شفويا ، وكان حرجى أمامه شديدا ووعدته أنى سأنهى إليه البيانات السليمة على مدى أربع وعشرين ساعة ، واستدعيت المقدم فوزى شهدى الملحق العسكرى بباريس وأمليت عليه برقية إلى المشير عامر أوضح له الموقف وأشكو المسؤول عن هذا الإهمال الجسيم ، غير أن الملحق العسكرى ناشدني ألا أرسل هذه البرقية خشية إلحاق الضرر بهذا المسؤول متعهدا أن يأتينى فى أقل من أربع وعشرين ساعة بالإجابات الصحيحة ، وتحت إلحاحه قبلت رجاءه وكان عند وعده فقد وصلتنى المعلومات المطلوبة التى أسرعت بتسليمها ، فإذا هناك مفاجأة أخرى أشد إثارة للفزع بقدر ما فيها من حمق لا يصدق ، حيث تبين أن التصميمات التى سلمت لى فى البداية كانت خاصة بأجهزة صواريخ (جو - جو) فى حين أن المطلوب كان تصميمات أجهزة صواريخ (أرض - أرض) ..

وفى السابع من مايو تلقيت بعد عودتى إلى القاهرة رسالة سرية من السفير بيير مايار عن طريق السفارة الفرنسية يحيطنى فيها علما بموافقة الحكومة الفرنسية على تزويدنا بالجيروسكوب المناسب لصاروخنا (أرض - أرض) وطلب معرفة العدد المطلوب من آلة التوجيه هذه ، فاتصلت على الفور بالمشير عبدالحكيم عامر الذى أمر الضابط المنوط بهذه الصواريخ والمسؤول عن تزويدى بالمعلومات الخاطئة عن الجيروسكوب بالاتصال بى ، وعندما سألته عن العدد المطلوب منها أجاب فى (حذلق هازئة ، حسبنا واحد ونعمل مثله) . .

وهنا أحسست بهم يعتصر كيانى كله ، وأخذت أتذكر فى أسى تلك الجهود التى بذلت فى إقناع وزارة الدفاع الفرنسية والظفر بموافقتها الفنية ، ثم بالموافقة السياسية من الأمانه العامة للدفاع القومى ، وتذكرت بخجل مرير كيف صارحنى السفير بيير مايار باحتواء مواصفاتنا الفنية على أخطاء يستحيل معها تصميم الأجهزة المطلوبة ، وأحسست بالخطر حين رأيت أن هذا هو أسلوب العمل فى مصانعنا الحربية وفى صلاتنا مع الدول الأخرى من إهمال واستهانة وسوء تقدير ، فطويت النفس على شجن ، وبعد تردد وجيز خشية لإلحاق الضرر بهذا الضابط

الذى كان يشغل مركزا بالغ الخطورة أفضيت الى المشير عامر بالقصة كاملة لأن المسألة لم تكن تحتمل الكتمان ، وانتهت علاقتى بهذا الموضوع .. انتهى .

يا سبحان الله ، هل يجوز التعامل فى أمور خطيرة يتوقف عليها مصير البلد بهذا الشكل إلحاق الضرر بالضابط فلان والضابط علاّن !! ألا يرى معى القارئ الكريم أن الخيانة داخل المؤسسة العسكرية التى كان يقودها المشير عبدالحكيم عامر ؟ كيف يمكن السكوت على مثل هذه التصرفات ؟ كيف يجوز أن يبقى خبير عسكري يعطى معلومات خاطئة ثم يهزأ بما يقدم إليه كما ذكر السيد ثروت عكاشة ؟ وقد قال إنه بعد مدة أخبر المشير وانتهت علاقته بالموضوع !! والمشير لم يعمل شيئا فهو كذلك لا يريد إلحاق الضرر بضابط مسؤول عن أسرار عسكرية هامة !! لا أحد بلّغ عبدالناصر ، لا عكاشه ولا المشير ، ثم إن تلك الصواريخ بقيت خردة مرمية فى المخازن ، وأيضا من أجل ألا يلحق أحد الضرر بضابط ما !!

ونعود إلى ما يقوله الدكتور ثروت عكاشة مرة أخرى عن جهود عبدالناصر من أجل الحصول على القوة الرادعة المتمثلة فى السلاح النووى بعد عملية الصواريخ ، والمؤسف أن جهود عبدالناصر تلك كانت تواجه بالإهمال وعدم الاهتمام من المختصين فى هذا المجال كما حدث بالنسبة للصواريخ وحديث عكاشة عن الضابط أو الضباط المسؤولين عن صنعها أو استعمالها ، يقول الدكتور ثروت عكاشة :

وفى شهر مايو من نفس العام كنت أزور الرئيس جمال عبدالناصر لأعرض عليه بعض الأمور قبل سفرى إلى فرنسا لحضور جلسة طارئة للمجلس التنفيذى باليونسكو ، وبعد أن فرغت من مهمتى هممت بالوقوف استعدادا للانصراف ، فإذا هو يطلب إلىّ الجلوس ويفاجئنى بقوله (صبرا فهناك ما هو أهم مما عرضته علىّ مما ينبغى بحثه أثناء وجودك بفرنسا ، وهو معاونة فرنسا لنا فى إنتاج القنبلة الذرية) .

ولم تقو قدماى على حملى فجلست ، وسألته ،أتراك تمزح يا ريّس ؟ قال ، بل أنا جاد كل الجدّ ، فإسرائيل تمتلك الآن القنبلة الذرية ومسؤوليتى تحتم علىّ تملك مصر وسائل ردع هذا السلاح ، ولذلك فنحن نحاول فى كل مكان ، حتى فى الصين ، فوعدته بطبيعة الحال ببذل كل ما فى وسعى ولم أخف عليه أننى أشك

كثيرا فى إمكانية تحقيق هذه الأمنية ، وخرجت من عنده مذهولا أحاول حصر ذهنى فى كيفية تبليغ هذه الرسالة ولمن ؟

وكان أول ما قمت به هو محاولة معرة شئ عن هذه القنبلة الذرية ، فانكببت على ما أحتفظ به من مجلدات مجلة (realites) الفرنسية التى كنت مشتركا بها لأستعيد قراءة مقال أذكر أننى طالعته بها مطالعة عابرة يحمل عنوان (الدول التى تستطيع أن تمتلك القنبلة الذرية) بقلم محررها العلمى فرانسو شوسيه ، ذهب المقال الى أن جميع دول العالم تستطيع امتلاك القنبلة الذرية غير أن بينها من تستطيع تملكها خلال خمس سنوات ومن تستطيع ذلك خلال عشر سنوات ومن تستطيع خلال خمس عشرة سنة ، وعرّج فى تحليله إلى شروط ثلاث ، ينبغى توافرها حتى تستطيع الدولة صناعة القنبلة الذرية ، هى تملك الوقود الذرى هو اليورانيوم ، ثم تملك مصنع لتوظيف المواد المشعّة لعزل البلوتونيوم الذى يتكون فى أعمدة اليورانيوم التى تغذى المولد ، وبعد ذلك تأتى الخطوة الثانية وهى عمل القنبلة نفسها ، تجميعها وتجربتها وتجهيزها عسكريا ، وانتقل بعدها إلى شرح كيف أصبحت المعدات الذرية سلعة تجارية فتستطيع أى دولة أن تحصل بالشراء على مفاعل ذرى إذا لم يكن فى قدرتها من الناحية الفنية والعلمية إنشاؤه ، وتستطيع الدولة البائعة ممارسة إشرافها على استخدام الوقود الذى تقدمه لتغذية المركز ، ولكن ليس ثمة ما يمنع الدولة المشترية من مضاعفة الجهد وتحقيق التقدم لإنشاء مفاعلها الخاص ، فما أيسر الحصول على القرافيت والماء الثقيل ومعدات التوقيت وأجهزة الحساب الكهربائى ، أما بالنسبة لمعدن اليورانيوم ــــ والشائع أنه نادر - فقد غدا موفورا إذ أصبحت الدول المنتجة له مثل كندا وجنوب أفريقيا لديها وفرة منه خاصة بعد أن اكتشفت لولايات المتحدة المعدن فى تربتها وكفّت عن الشراء من الخارج ..

وكان الرئيس عبدالناصر فى أثناء لقائى به قد أشار علىّ بأن أطلب من المرحوم الدكتور عبدالمعبود الجبيلى رئيس هيئة الطاقة الذرية الاحتياجات بالتفصيل ، وكنت على معرفة وثيقة به منذ كنت ملحقا عسكريا بفرنسا وكان

أيامها يواصل دراسته العلمية بباريس ، فأوضحت له المهمة التى عهد بها الىّ رئيس الجمهورية طالبا تزويدى بالقدر اللازم من المعلومات التى تساعدنى فى تحقيق المهمة ، فأعارنى كتاب (انتشار الأسلحة الذرية) الصادر عن معهد العلوم الاستراتيجية البريطانى والذى يكشف عن أن فرنسا لا تملك أى حق للرقابة على مفاعل ديمونه الإسرائيلى الذى أنشأته لها ، ثم انتقل إلى المعلومات التى حصلت عليها إسرائيل من الدول الغربية ، وهنا طلبت منه تحديد مطلب رئيس الجمهورية من فرنسا علميا فتطرق إلى أربعة احتمالات ، أولها بطبيعة الحال الحد الأقصى وهو معونة فرنسية كاملة على أن تعوضنا فرنسا عن الوقت الزمنى الضائع بين معونتها لإسرائيل ومعونتها لنا ، وثانيها برنامج متوسط ، وثالثها الحد الأدنى ، ورابعها أسوأ الفروض وهو تزويدنا بمفاعل لإنتاج البلوتونيوم ومدّنا بالمواد النووية المختلفة إنتاج الوقود ، وأيا كانت المشروعات التى سنتعاون فيها فلابد من أن تزودنا فرنسا بالتصميمات والرسومات النهائية والمعدات والمواد والأجهزة اللازمة لإقامة هذه المشروعات ،وأن تتعاون معنا على التنفيذ فى كافة مراحل الإنشاء والتركيب والاختيار والتشغيل والصيانة ، وأن تمدنا بالمواد النووية وقطع الغيار ، وتدريب الخبراء والفنيين المصريين فى المنشآت الفرنسية المشابهة واشتراكهم مع الخبراء الفرنسيين فى المراحل المختلفة للمشروع ..

وينتهى الدكتور عكاشة بعد أن التقى المسؤولين الفرنسيين الى القول :

(وأردفت قائلا ، إن الرئيس جمال عبدالناصر يدرك عدم جدوى هذا السباق كما يؤمن بمبدأ عدم انتشار الأسلحة النووية ، ولكنه غير مستعد لأن يقف مكتوف اليدين أمام الخطر الذى يتهددنا ، فوفق إحصائياتكم تسبقنا إسرائيل بخمس سنوات على الأقل فى هذا الميدان الخطير وهى فترة كما لا يخفى عليكم ملأى بكل أنواع التهديد والدمار والخطر ، وهو ما يجعل الرئيس يعزّ عليه أن يقف جامدا حتى يتحول شعبنا إلى شراذم من اللاجئين على الرغم من حرصه على أن ينفق الدخل القومى على حل مشاكل بلادنا ، والارتفاع بمستوى سكانه ، إلا أنه لا يرى مفرا من وضع نشاط إسرائيل الذرى فى حساباته ..

وبعد جـهود مكثفـة ومحاولات الفـهم والتفهم بين هذا المسـؤول والآخر ، ومن هذه الدائرة إلى الأخـرى ، وضـياع وقت طويل خلـص الدكتـور ثروت إلى القول (ولقـد أثبتت الأيام أن إجاباتهم كانت لـونا من ألوان اللياقة الدبلوماسـية ، ولربما كانت ظروف فرنسا فيما يبدو لى تقضى عليها ألا تمد لنا مثل اليد التى مدتها لإسرائيل فى ظروف سابقة .



الفصل العاشر

١- دور وتأثير عبدالناصر فى الوطن العربى .

٢- دور عبدالناصر وتأثيره فى أفريقيـــا .

٣- وفاة جمال عبدالناصر وضياع الأمـــل .

٤- ما بعد جمال عبدالناصر وهدم البنـــاء .

الفصل العاشر

١- دور وتأثير عبدالناصر فى الوطن العربى .
٢- دور عبدالناصر وتأثيره فى أفريقيا .
٣- وفاة جمال عبدالناصر وضياع الأمل .
٤- ما بعد جمال عبدالناصر وهدم البناء .

حقا فى الليلة الظلماء يفتقد القمر ..

وفى دنيا العرب الآن يفتقد ذلك القائد الذى كنا نبكى على صدره وقت الأزمات كما قال ياسر عرفات عندما توفى جمال عبدالناصر ، رحمهما الله ، وأريد أن أسأل نفسى قبل القراء ، هل كان يمكن أن يستمر ما يحدث الآن فى الوطن العربى من خلاف وتقاتل وتدخل أجنبى لو كان عبدالناصر حيا فى القاهرة كما كان ؟ ثم أسأل مرة ثانية ،أليس زمننا الحالى يماثل تماما آخر زمننا عندما كنا فى الأندلس ؟ نحن الآن أمام بوش الابن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية متفرقون متناحرون ، وكنا هناك فى الأندلس أمام ألفونسو ملك قشتالة متفرقين متناحرين ، والنتيجة واحدة ! ! هذه إجابتى على سؤالى وأترك للقارئ الكريم ممارسة حقه فى الإجابة ..

المهم ، عندما كان جمال عبدالناصر فى القاهرة كانت الدنيا تحسب للعرب بعض الحساب ، وكان الرجل الذى يقول ، لا ، ويصدق ، ويقول ، لا، ويفعل ، ويقول ، لا، وينصر ، قال لا للتفريط فى حقوق الشعب الفلسطينى رغم كل الوعود الأمريكية والغربية السخية ، وقال ، لا ، لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل ووقف صامدا (حانحارب) وحارب فعلا بشعبه ولم ينالوا منه شيئا ، وقال ، لا ، للولايات المتحدة الأمريكية ومشروع ملء الفراغ ، وقال ، لا ، للأحلاف وأفشلها أو على الأقل منع الانضمام إليها، وحتى بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ قال ، لا ،

للانكسار ، ووافقه العرب في مؤتمر الخرطوم بثلاث لاءات حيث فرض إرادته ، بعده انفجرت الحرب الأهلية فى لبنان بداية سنة ٧٦ واستمرت قرابة عقدين من الزمان ولولاه كان لابد أن تبدأ سنة ٥٨ ، وغزو الكويت بواسطة قوات صدام حسين وقع بعده والتدخل الأمريكي والغربى ثم تدمير العراق جاء بعده سنة ٩٠-٩١ ولولاه كان يمكن أن يحدث الغزو بقوات عبدالكريم قاسم سنة ٧٠ ، ولولا عبدالناصر ما كان يمكن أن تنتصر ثورة اليمن ، ولا كانت انتصرت ثورة الجزائر ، ولا ثورات أخرى فى أفريقيا ..

ورغبة فى الاختصار أريد أن أبسط أمام القارئ الكريم أحداث أربع ثورات عايشتها وعشت أحداثها وشاهدت دور جمال عبدالناصر وأجهزته فى نصرتها ، سمعا وعينا ..

اثنتان فى الوطن العربى ، والأخريان فى أفريقيا ..

١ – الثورة الليبيـــــة .. ٢– الثورة الجزائرية ..

٣– الثورة الكونغولية .. ٤– الثورة الكينيـــة ..

– الثورة الليبية ، قال جمال عبدالناصر (أراد الله أن يعزّ مصر ، فأعزّها بثورة ليبيا) وقال ، لقد رأيت فيكم روح الأمة العربية ، لقد بعثت القومية العربية من جديد فى هذه المنطقة من الأمة العربية ، إنى أرى فيكم أمل الأمة العربية الكبير ،

إن ثورتكم معناها أن الأمة العربية لن تستكين أبدا ، وأن الأمة العربية لابد أن تنتصر لأن الله يريد لها أن تنتصر ، ولأن الله يريد لها أن تبقى عزيزة كريمة ، وما ثورتكم التى خلصتكم من القواعد الأجنبية ومن الوصاية الأجنبية إلا دليل على أن الله يريد للأمة العربية أن تنتصر ..

وللتأكيد على الوحدة العربية والمصير العربى الواحد ، قال جمال عبدالناصر وهو يتحدث عن الثورة الليبية :

إننا شعب عربى واحد ، وجيش عربى واحد ، ولن يفرق بيننا الاستعمار أو أعوان الاستعمار ، لقد خلقت هذه الأمة ، أمة عربية واحدة ، وستبقى هذه الأمة، أمة عربية واحدة ..

وفى زيارته لبنغازى المدينة العربية الوجه والقومية القلب والضمير ، تحدث جمال عبدالناصر قائلا :

لقد خرجت مدينتكم كلها لاستقبالى ، وكان هذا اللقاء من أروع اللقاءات التى رأيتها فى حياتى ، هتافاتكم لى لم تكن أبدا لمناسبة شخصية ، ولكنها كانت تعبر عن الإرادة العربية وعن الأمانى العربية ، هتافاتكم لى هى تحية وهتاف لكل الأحرار ولكل الثوار .. هتافكم هو تحية للصمود والصامدين ، هتافكم هو رفض للاستسلام وتحية للمقاتلين وللصابرين ، هتافكم لجمال عبدالناصر هو هتاف لكل الأمة العربية ، لأننى فرد من هذه الأمة العظيمة ، لقد كانوا يقولون أن ليبيا دولة مستكينة ، وأنها تنكرت للقومية العربية ..)(١١٦) .

وكانت ثورتكم ، وكانت لقاءاتى معكم صفعة قوية على وجوههم ، وجوه الأعداء ووجوه الأذناب ووجوه الخونة ووجوه المتخاذلين ودعاة الاستسلام ..

ولقد أراد جمال عبدالناصر أن يحذر خوفا على مسيرة الثورة وعلى ضوء تجاربه الماضية فقال :

لقد حاول الاستعمار وأعوانه طوال سنوات الثورة أن يفرّقوا الأمة العربية ، وأن يبذروا الشكوك فى النفوس ، إن عليكم أنتم ، يا ليبيا الثورة ، أن تعوا الدرس وأن تأخذوا العظة والعبرة ، سيحاول الاستعمار وأعوانه أن يفرّقوا بيننا وبينكم ، أرجو من الله لكم الحماية حتى تجنوا ثمار الثورة ، وثمار النضال ..

ويظهر اهتمام الرئيس جمال عبدالناصر بالثورة الليبية من اللحظة الأولى ، وفى هذا الشأن يقول الأستاذ سامى شرف فى حديثه للأستاذ عبدالله إمام ما يلى :

(أصدر جمال عبدالناصر أوامره بأن يكون شعراوى جمعة وأمين هويدى وسامى شرف بالتعاون مع فتحى الديب فى حالة اجتماع مستمر لدراسة تنفيذ ومتابعة ما يخص الثورة الليبية ، على أن يشارك الفريق فوزى فى النواحى العسكرية ، وبدأ تنظيم سكرتارية مجلس قيادة الثورة الليبية على نمط سكرتارية الرئيس للمعلومات فى القاهرة ، ولقد توجهت إلى ليبيا أكثر من مرة لهذا الشأن

(١١٦) ثورة عبد الناصر – شوقى عبد الناصر – ص ٦٢٠ .

علاوة على المشاركة فى تنظيم الحرس الجمهورى كما عينت مصر سفيرا جديدا فى طرابلس هو جمال شعير ..

ولقد كانت مصر تتحمل المرتبات لكبار الخبراء ، وهو ما أعلنه الرئيس جمال عبدالناصر فى أحد الاجتماعات المغلقة للجنة التنفيذية ، قائلا ، إننا لا نريد من الثورة الليبية إلا أن تستقر وتتقدم لتكون دعما للقوة العربية ..)(١١٧) .

ويقول الأستاذ أمين هويدى وهو يتحدث عن القوة الرادعة فى مواجهة إسرائيل فى كتابه المعنون (مع عبدالناصر) وكيف كان تصرف القيادة الليبية فى هذا الخصوص ، يقول :

كان لدى إسرائيل السلاح الرادع متمثلا فى الطائرات بعيدة المدى من الفانتوم والسكاى هوك فلو أمكن لمصر الحصول على الطائرة بعيدة المدى أيضا لبطل مفعول السلاح الرادع الإسرائيلى ، وهذه نتيجة حتمية فى إدارة الصراع الذى يعتمد على الردع ، فامتلاك القوتين العظميين الأسلحة الذرية فى مخازنهما أبطل استخدام القوة الذرية ..

ولم تكن الطائرة بعيدة المدى متيسرة لدى مصر فى ذلك الوقت رغما عن محاولاتنا المتعددة مع الاتحاد السوفيتى فلم تكن حساباته قد تطابقت مع حساباتنا فى هذا المجال بعد ، كان يخشى بدوره دفع الأمور بأكثر مما تحتمل فينجم عن ذلك المواجهة التى يريد تجنبها ..

ولكن تدّخل الحظ فجأة وحدثت ثورة الفاتح من سبتمبر فى ١٩٦٩ ليبيا بقيادة الأخ العقيد معمر القذافى وسعى الرجل فى استماتة حتى تّيسر له فى أوائل عام ١٩٧٠ الحصول على صفقة فرنسية وافق عليها الرئيس الفرنسى بومبيدو وتتعلق بشراء ليبيا مائة طائرة ميراج يتم توريدها على أربع سنوات ، وتم الحصول على عدد من هذه الطائرات وضعت تحت تصرف القيادة المصرية ، وأصبح لدى مصر سلاح رادع فى مقدوره ضرب إسرائيل فى العمق ، وكان هذا من أخطر التطورات الاستراتيجية فى الصراع الدائر ، وأصبحت مصر قادرة على رد الفعل ،

(١١٧) عبد الناصر كيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٣٢٩ .

وبذلك كسرت القاهرة بفضل سياستها العربية الجناح الآخر من معادلة الردع ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى معمر القذافى ، وأقول هذا للتاريخ ..

وقد تحدث هنرى كيسينجر فى كتابه (سنوات البيت الأبيض) عن ذلك أثناء زيارة بومبيدو للولايات المتحدة فى نهاية فبراير ١٩٧٠ كيف استقبل الرجل هو وزوجته استقبالا سيئا من العناصر اليهودية لموافقته على عقد تلك الصفقة ويقول بالنص (ولم يكن لدى ليبيا الطيارون الذين يقودون هذه الطائرات وأصبح من الواضح أنها اشتريت لدولة أخرى من المحتمل أن تكون مصر) ولم يغفر بومبيدو للولايات المتحدة استقبالها السيئ له مما أثر على العلاقات بين البلدين ، وبذلك أصبح لدينا القدرة على الاعتراض وتساقطت الطائرات الإسرائيلية على ضفتى القناة ، كما أصبح لدينا القدرة على رد الفعل الذى يمكن أن يتضاعف فى الأسابيع التالية ، وحينما تم لعبدالناصر ذلك أقدم على أعظم خطوة فى إدارة الصراع وهى قبوله لمبادرة روجز .. انتهى) (١١٨) .

ولقد حدث نفس الشئ حتى بعد وفاة جمال عبدالناصر فقد قدمت ليبيا مختلف أنواع الأسلحة من الطائرات والصواريخ وغيرها خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى عهد الرئيس السادات إيمانا بقومية المعركة وتحرير الأرض والتزاما بما كان قاله الرئيس جمال عبدالناصر وردده الشعب المصرى (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) ومع الأسف فإن إعلام السادات لم يعترف بذلك ..

ولقد تحدث الأستاذ فتحى الديب الذى كان مكلفا من الرئيس جمال عبدالناصر بالتنسيق مع الليبيين ومباشرة مع أعضاء الثورة لتزويد الجيش الليبى بكل الاحتياجات العسكرية بداية من إعادة تنظيم الجيش إلى توفير المعدات وإلى تنظيم الإدارة المدنية وتوفير الخبرات العسكرية والمدنية التعليمية إلخ كما أمر عبدالناصر فورا بإرسال قوات مدرعة تحوطا لأى تطور طارئ وبشكل خاص من جانب القوات البريطانية التى كانت تتمركز فى القاعدة الجوية قرب طبرق والمسماة (العدم) (ملاحظة ، ربما تعنى هذه الكلمة التى تسمى بها القاعدة البريطانية تلك ، باسم آدم ؟ أى أن كلمة العدم الإنجليزية تعنى آدم العربية ..) .

---

(١١٨) مع عبد الناصر – أمين هويدى – ص ٩٥ .

ونعود إلى ما ذكره الأستاذ سامى شرف فى لقائه مع الكاتب الصحفى الأستاذ عبدالله إمام عن اهتمام الرئيس جمال عبدالناصر بالثورة الليبية حيث قال :

تنفيذا لأمر الرئيس تشكلت جهات ثلاثة للتنسيق وهى ، مكتب الرئيس ممثلا بمكتبى ومكتب وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء ومكتب فتحى الديب ، وفى المقابل اتفق على إنشاء مكتب للخبرة يتبع مجلس الوزراء الليبى ، تتبادل هذه المكاتب فيما بينها ما يتعلق بشئون الخبرة وتتولى التنسيق الإشراف والتنفيذ والمتابعة فى مجالات الإعارات أو الانتداب ..

وكان المهندسون والأساتذة على رأس الخبرات المصرية التى أوفدت إلى ليبيا، وكنت أنا شخصيا على رأسها كما قام الدكتور لبيب شقير والمهندس سيد مرعى بدور كبير فى مجال تقديم الخبرة ، وكان لعدد من الخبراء دور مشرف منهم ٧٠ مهندسا وفنيا فى مجال الإسكان و٣٩ مهندسا و٨١ فنيا فى مجال الكهرباء ٣٧٢طبيبا و ١٥٢ هيئة تمريض و١٣ فني فى معمل أشعة فى مجال الصحة علاوة على ٥٣ طبيبا عسكريا للقوات المسلحة الليبية و ٣ مهندسين متابعة و ١٠ مهندسين مرور فى مجال النقل هذا بالإضافة إلى خبراء فى معاينة المطارات وما يتعلق بشئون الطيران المدنى والمراقبة الجوية وفنيون لإدارة الموانئ والتخزين ، وفى مجال المواصلات السلكية واللاسلكية و١٧ مساعد مهندس وفنيون علاوة على دعم الجهاز المركزى للمحاسبات والخبرات الفنية والقانونية ، علما بأن كل هذه الخبرات كانت تتحمل مصر أعباءها المالية بالكامل الخ .



العقيد معمر مع الرئيس جمال يدا بيد من أجل الوحدة والتقدم ،
لقد قال عبدالناصر إن الله أراد أن يعزّ مصر فأعزّها بثورة ليبيا

علاقة حميمية متبادلة



سبحان الله القــادر على كل شئ ، فلقد كان للقاء ثورة الفاتح من سبــتمبر مع الثورة الأم ثورة ٢٣ يوليو بالتأكيد كمــا قال عبدالناصر إعزاز للعرب والمسلمين ، قال (أراد الله أن يعزّ مصر فأعزّها بثورة الفــاتح من سبتمبر) وكانت اللقاءات الودّية الصادقة تعبيرا أمينا عن المحـــبة والصدق تلاهما الالتزام القومى والعمل الجاد من أجل الوحدة العربية ...

الثورة الجزائرية ، هذه الثورة ، ثورة الشعب الجزائرى شدت انتباه واهتمام وتأييد كل العرب والمسلمين وقتئذ ، كما شدت الثورة الفلسطينية منذ أنشئت منظمة التحرير فى عهد الشقيرى إلى عهد أبوعمار وإلى وقت قريب انتباه الرأى العام العربى والإسلامى والدولى ، وقال عنها العرب إنها القضية المركزية ، ولم يتوقف نضال الشعب الجزائرى من تاريخ (مروحة الباى ، وحادث القنصل الفرنسى بيير ديفال سنة ١٨٢٨م مرورا بالأمير عبدالقادر الجزائرى إلى الرئيس أحمد بن بيلا وتحقيق الاستقلال الوطنى) لقد كانت الثورة الجزائرية التى أطلق عليها اسم (ثورة المليون شهيد) كانت هذه الثورة العملاقة تحظى بدعم الرئيس جمال عبدالناصر عسكريا وسياسيا وماديا إضافة إلى بقية بعض العرب ، وكانت بلادى (ليبيا) مؤيدة وداعمة وقد لعبت دورا مشرّفا فى مساندة هذه الثورة من بدايتها إلى أن تحقق الاستقلال الوطنى ، فهى أولا كانت معبرا آمنا لكل المساعدات التى تأتى من الشرق وتحديدا من مصر بما فى ذلك جميع أنواع الأسلحة والذخائر والمواد الغذائية والملابس .. إلخ وكانت تتولى نقلها عبر الأراضى الليبية الشرطة الليبية والمنظمات المدنية كلجان نصرة الثورة الجزائرية ، هذه اللجان التى كانت تتواجد فى كل مدينة وكل قرية أو نجع تجمع المساعدات بدءا من جلود الأضاحى الى كل ما يتقدم به المواطنون الليبيون الذين لم يبخلوا على إخوتهم الجزائريين ، كذلك كانت الأراضى الليبية مفتوحة وتحتضن ثوار الجزائر فى التدريب والإقامة بل وكان الثوار غالبا ما يشنون هجماتهم على المستعمر الفرنسى من داخل الأراضى الليبية فى الجنوب مما أدى فى بعض الحالات إلى الصدام العسكرى بين القوات الليبية والقوات الفرنسية التى كانت تطارد الثوار داخل الأرض الليبية ، وأذكر أننى سمعت تعبيرا جميلا من المناضل الرئيس أحمد بن بيلا عندما كان يتحدث عن موقف الليبيين مع الثورة الجزائرية أسعدنى جدا ، قال (أنا والله لا أنسى فضل الليبيين على ثورتنا ما حييت ..) .

وبشأن مصر وموقف جمال عبدالناصر المؤيد والمساند للثورة الجزائرية (حتى أن رئيس وزراء فرنسا السيد جى موليه قال إن قطع رأس الثورة الجزائرية لابد أن يكون بضرب عبدالناصر فى القاهرة) فى هذا الخصوص يقول الأستاذ محمد فائق الذى كان مسؤولا عن الساحة الأفريقية فى كتابه الممنون (عبدالناصر والثورة الأفريقية) ما يلى :

(لقد كان لوقوف الثورة المصرية بجانب ثورة الجزائر والمساعدة والتأييد الكامل الذى أعطاه عبدالناصر لهذه الثورة أثره الكبير فى جذب حركات تحرير أفريقية جديدة إلى القاهرة بعد أن اتخذت الثورة الجزائرية من القاهرة قاعدة أساسية لكى تنطلق منها ..

ومما لا شك فيه أن نجاح الثورة الجزائرية كان عاملا أساسيا فى تصفية الاستعمار الفرنسى من أفريقيا ، فعندما قامت الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤م كانت الجزائر بنص الدستور الفرنسى جزءا من الأراضى الفرنسية فيما وراء البحار وكان للجزائر أهمية خاصة لدى فرنسا أولا لكثرة عدد الأوربيين المستوطنين (حوالى مليون وربع المليون) أصبح خمس أسداسهم من مواليد الجزائر نفسها لا يتصورون وطنا آخر لهم غيرها ، وثانيا لقربها من فرنسا وثروتها الضخمة التى يمتلك معظمها المستوطنون الأوربيون ، هذا بالإضافة إلى عامل خاص جعل فرنسا تستميت فى محاولة الاحتفاظ بالجزائر كأرض فرنسية إلا وهي الطريقة المهينة التى خرج بها الجيش الفرنسى من الهند الصينية بعد هزيمة (ديان بيان فو) وحرص فرنسا على ألا تفقد هيبتها فى أفريقيا كما فقدتها فى آسيا ..

كانت الجزائر نموذجا للاستعمار الاستيطانى فى أفريقيا ولا يفوقها فى ارتفاع نسبة الأوربيين إلى السكان الأصليين سوى جنوب أفريقيا ، وكان الأفريقيون ينظرون الى هذا النوع من الاستعمار على أنه أبشع أنواع الاستعمار وأكثرها شراسة فى مقاومة الحركات الوطنية التحررية ، فقد كانت التجربة ماثلة فى المجازر التى واجهتها حركة (الماو ماو) فى كينيا، وكانت نماذج هذا الاستعمار الإستطانى موجودة فى روديسيا وفى جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا بالإضافة إلى كينيا، لذلك كان للثورة الجزائرية معنى وأهمية خاصة لدى الوطنيين الأفريقيين فى هذه الأقاليم بالإضافة إلى كل المستعمرات الفرنسية والبرتغالية فى أفريقيا حيث كانت كل من فرنسا والبرتغال تعتبرها امتداداً لأراضيها فيما وراء البحار وكانت الثورة الجزائرية بالنسبة لهؤلاء جميعا هى ثورة على هذه الأوضاع جميعا ، ثورة على الاستعمار الإستطانى وثورة على فكرة امتداد الدولة الاستعمارية إلى ما وراء البحار ، انتهى ..) [١١٩] .

---

(١١٩) عبد الناصر والثورة الأفريقية - محمد فائق - ص٣٨ - .

وإذا كانت الحكومة الفرنسية بكل ما لها من قوة وخيلاء قد فشلت فى القضاء على الثورة الجزائرية صارت تبحث عن مبررات من أجل إلقاء المسؤولية على جهة ما ، بحيث يمكن للمسؤولين الفرنسيين أن يقولوا إنهم لا يحاربون عصابات (كما يقولون) فى الصحراء وإنما هناك جهات ودول تقف وراء ما يعانون منه فى البلد الذى يعتبرونه جزءا من فرنسا ، وعلى أساس هذا التفكير تقول السيدة نجلاء أبو عز الدين فى كتابها القيّم فى طبعته الإنجليزية ما يلى :

وإزاء حالة الإحباط التى أحاطت بالسلطات الفرنسية فإنها ألقت بمسؤولية الثورة الجزائرية على عبدالناصر وأدى تسلط هذه الفكرة إلى انضمام فرنسا إلى الحرب الثلاثية ضد مصر بأمل أن يؤدى الانتصار على عبدالناصر الى نهاية الثورة الجزائرية ..

وقدمت مصر مساندة غير محدودة لقضية حرية الجزائر منذ البداية حتى النهاية ، وقال بن بيلا أنه عندما قامت الثورة كان لدى المتمردين ٥٠٠ مسدس وخلال شهر وصلت اول سفينة مشحونة بالأسلحة من مصر ، واستمر التدفق بعد ذلك ، ولم يتوان الرئيس عبدالناصر لقناعته بأن النضال العربى واحد ، لم يتوان عن أن يمد يد العون للجزائر حتى فى وقت أزمة السويس عندما كان شبح الغزو الوشيك يخيّم على مصر ومما له مضمون رمزى أن السفينة اليونانية (آتوس) التى استأجرتها الحكومة المصرية لحمل السلاح إلى الجزائر أسرها الفرنسيون فى ١٦ أكتوبر ١٩٥٦ وهو اليوم الذى اجتمع فيه إيدن وسلوين لويد مع جى موليه وبينو فى باريس واتخذوا القرار النهائى حول الغزو المشترك لمصر الذى خطط له منذ يوليو ، وتم شنه بعد ذلك بأسبوعين ، وقد سحبت القوات الفرنسية من الجزائر التى أريد لها أن تغزو مصر ، وعندما أخذوا رأى (لاكوست) الوزير المقيم فى الجزائر قال (إن كتيبة فرنسية فى مصر تعادل أربع كتائب فى شمال أفريقيا) وكان الجنرال (ماسو) قائد قوات المظلات فى الجزائر على رأس وحدة المظلات الفرنسية التى هبطت فى بور سعيد ، وتضع الكاتبة فى آخر الصفحة هامشا يقول (أستمرت مساعدة الرئيس عبدالناصر للجزائر بعد الاستقلال ، وكانت مصر ماتزال مشتبكة فى حرب اليمن بصورة عميقة فى أكتوبر ١٩٦٣ عندما طلب ابن بيلا على وجه الاستعجال العون فى النزاع مع المغرب حول المنطقة المتنازع عليها فى الصحراء ، ورد عبدالناصر سريعا بإرسال عدة سفن محملة بالدبابات لتعويض نقص المدرعات فى القوات الجزائرية التى كان تجهيزها مايزال هو تجهيز قوات

حرب العصابات ، وقد أتاح وصول الدبابات للجزائر الصمود حتى تم الوصول إلى تسوية عن طريق التفاوض) ..

وفى بداية العام كان بينو وزير الخارجية الفرنسى قد توقف فى القاهرة لمباحثات مع عبدالناصر حول الجزائر وقد حدد عبدالناصر موقفه بصراحة ، وهو أنه يحس بأن من واجبه كقومى عربى أن يساند استقلال الجزائر ، وقال إنه يرسل الأسلحة للثوار وأنه سيستمر فى هذا ، ولكن تدريب الثوار الجزائريين لا يتم فى مصر ولن يتم فيها مستقبلا ، وأكد أنه مستعد للوساطة وبذل مساعيه الحميدة فى ضوء الاستقلال الجزائرى بعد فترة انتقال ، وقد تأثر بينو بعبدالناصر وأقنع موليه رئيس الوزراء بأن يرسل وفدا فرنسيا إلى مصر للقاء القادة الجزائريين وربما كان من الممكن أن تؤدى هذه الجهود إلى نتائج بناءة لو لم تتسرب أنباء هذا اللقاء فى القاهرة الى الصحافة الفرنسية مما دفع رئيس الوزراء المذكور الى سحب وفده .

ولقد استمرت مساعدات وتأييد جمال عبدالناصر ومصر للثورة الجزائرية فى كل المجالات السياسية والعسكرية والإعلامية والمالية إلى أن تحقق استقلال هذا البلد العربى الكبير بجهود رجاله الذين ضحوا بكل شئ من أجل الحرية والكرامة والاستقلال ، استقلت الجزائر بقوة السلاح فى ٢ يوليو ١٩٦٢م) [١٢٠] .

وصارت رافدا قويا للنضال العربى على الرغم من تفجر الخلافات سريعا (مع الأسف) بين رجال تلك الثورة العظيمة مما أثّر سلبا على تطورها وإسهاماتها فى الجهد العربى بعدئذ وكانت نتيجة الخلافات انقلابا على الزعيم الكبير الذى ناضل طويلا من أجل الجزائر وهو أحمد بن بيلا ويذكر لخلفه رغم أنه كان زعيم الانقلاب على بن بيلا أنه قاد بجدارة حملة التعريب حيث قطعت الجزائر شوطا كبيرا فى العودة إلى لغتها العربية ...

ولقد واجهت الجزائر المستقلة الكثير من الصعاب والمشاكل تمثلت فى :

أولا : الخلاف بين قادة الثورة إذ أنه عادة ما يحدث الخلاف بين المناضلين عندما ينتهى النضال العسكرى وتبدأ مسيرة العمل السياسى ويمكن القول (جنى المكاسب) إذا صح أن فى العمل السياسى أية مكاسب ..

(١٢٠) عبد الناصر والعرب - نجلاء أبو عز الدين - ص ٤٣٢ .

وثانيا : فى ترتيب الأوضاع الداخلية ذلك أن البلد قد مر بمراحل استعمار بشع وطويل أحدث الكثير من التغيرات الاجتماعية وأوجد اختلالاً فى القيم ..

ثالثا : تنظيم الإدارة الحكومية وهى قائمة على نظام سابق مفروض على البلاد ولا يتناسب مع تقاليد الجزائر بصفة عامة ..

رابعا : الاندفاع بقوة إلى صبغ الصفة العربية على المجتمع الجزائرى الذى أراد له الاستعمار أن يكون على غير صفته العربية الإسلامية وذلك بالتشدد فى تعريب كل شئ ..

خامسا : العمل على خلق علاقات دولية متوازنة بين الجزائر المستقلة فى المجالين الإقليمى والعالمى ..

ولقد نجحت الجزائر فى كثير من هذه الشئون وبدأت مسيرتها المظفرة لولا أنها فى الفترة الأخيرة قد أصيبت بأمراض العالم الثالث ، مع الأسف .



الرئيسان جمال عبدالناصر وأحمد بن بيلا المناضلان من أجل الحرية والوحدة (وابن بيلا مازال حـــتى الآن وفى كل مناسبة يقول (إنه ناصـــرى) أطال الله فى عمره .. وأذكر أننى قد التقيته عـــديد المرات وهو يتردد على طرابلس التى له فيها ذكريات نضالية وصداقات عديدة عندما كنت أعد كـــتابى عن (الليبيون والثورة الجزائرية) وسمعت منه الكثير عن الليبيين وكيف أنهم فى وقت كانوا فقراء ومحتاجين ومع ذلك فقد كانوا يقدمون كل شئ للثوار والثورة الجزائرية ، وبين كلمة وأخرى يقول ، أنا والله ما حييت لن أنسى فضل الليـــبيين ، وقال لى إنه ذات مرة بلغ أن هناك وفدا من الكشافة الليبية فى الجزائر وكان الوقت ليلا فقرر أن يلتقيهم فى نصف الليلة على الرغم من أن المسئولين عن الأمن حاولوا إقناعـــة بتأجيل الزيارة لكنه أصر على ذلك كنوع من التبجيل لهؤ لاء الشباب الليبيين ، وقال إنه لم يجد الكلمات التى تفى بما أراد أن يقوله عندما التقاهم وقد شد على أيدى كل واحد منهم ..

دور عبدالناصر فى أفريقيا (فى الكونغو) :

فى حديثه عن الدائرة الأولى فى كتاب فلسفة الثورة ، قال عبدالناصر نحن أقـوياء ، أقـوياء ليس فى علو صـوتنا حين نولول ، ولا حين نـصـرخ ، ولا حين نستغيث ، إنما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل، وفهمنا الحقيقى لقـوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جـزء منها عن كلهـا ، ولا يمكن حماية مكان مـنها بوصفـه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة ..

هذا عن الرابطة الأولى التى لا مفر مـن أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فـيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية ، فإذا اتجـهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الأفريقية ، قلت دون استفاضة ودون إسهاب ، إننا لن نستطيع بحال من الأحوال – حتى لو أردنا – أن نقف بمعـزل عن الصراع المخـيف الذى يدور اليـوم فى أعمـاق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين ..

لا نستطيع لسـبب هام وبديهى ، هو أننا فى أفريقيا ، ولسـوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ..

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسـؤوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع علـى نشر النور والحضـارة حتى أعمـاق القارة العذراء ، ويبـقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحـياة لوطننا يستمـد ماءه من قلب القارة .. هكذا قال عـبدالناصـر وعلى ضوء هذا الفهـم والتحليل سارت خطواتـه وبدأ رجاله فى العـمل الذى استـمـر طويلا ، ولقد قلت إننـى أقدم بلدين أفـريقـيين فى ثورتهمـا كنمـوذجين ، وأبدأ بالكـونغـو ودور عـبدالـناصـر فى هذا البلد أمـام دول أوربيـة مستـعمرة ومصـالحها راسخـة فيه ، ولقد كـان لى شرف ترجمة أهم كـتاب صدر ومؤلفه كان وزيرا مع القائد الأفريقى (باتـريس لومومبا) والكتاب عنوانه (صراع فى الكونغو – مولد دولة أفريقية) وكاتبه يقول :

(تحدث كـازافوبو أمام هيـئة الأمم المتحدة إذ كـان الأمريكيون يسـعون إلى إظهاره عـالميا وكان التـعاون قد بدأ وثيـقا فى الكونغو بين كـل أولئك الذين كانوا

ضد لومومبا ، ولم تكن تلك الدول الصديقة للومومبا بقادرة على أن تمنع كازافوبو أو وفده من التحدث فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكانت الولايات المتحدة بهذا تريد أن تضع الأمر فى شكله الدستورى ، أى أنها تريد فى ظل الاعتبارات الدستورية أن تضع كل عملائها فى المواقع التى تخدم مصالحها ، ولذلك جاءت بكازفوبو إلى الأمم المتحدة ليتحدث باسم الكونغو ، وهكذا أيضًا لم تكن حركة الجيش محايدة فعلا ، وكان كازافوبو يتحدث كرئيس للدولة الكونغولية ، ذلك أنه يحظى بمساعدة أمريكا وغيرها متعاونا مع الهيئة الدولية التى تنفذ قرار مجلس الأمن الخاص بالكونغو ، وقد قبل الوفد الكونغولى برئاسة كازافوبو فى المنظمة الدولية بأصوات ٥٣ ضد ٢٤ وامتناع ١٩ وكان ذلك بتأييد ومساندة أمريكا ، وعلى هذا فإن كازافوبو أصبح فى نظر العالم هو الممثل الرسمى والشرعى للحكم الكونغولى ، ومن هنا ، وفى مقابل ذلك ، أصبح كازافوبو عميلا لأمريكا ، والغرب ومتعاونا مع جميع أولئك الذين كانوا ضد لومومبا وحكومته الوطنية ، وكان السفير المصرى قد أصبح صديقا شخصيا للومومبا خلال هذه الفترة - بالطبع فهو أى السفير ينفذ ويلتزم بسياسة بلاده المؤيدة للشرعية متمثلة فى لومومبا - وكان لومومبا يسعى إلى ضمان مستقبله السياسى ، وإن كان مصيره الشخصى قد أصبح فى مهب الريح ، طالما أنه قد وضع تحت الحراسة هو وأولاده وزوجته) (١٢٢).

بدأ لومومبا يفكر جديا فى الطريقة التى يمكن بها إخراج أطفاله وزوجته من الكونغو وكانت مصر هى الجهة الوحيدة المأمونة ، والتى يمكن أن تقبلهم ، وكان جمال عبدالناصر هو الرجل الوحيد الذى يمكن أن يتحمل هذه المسؤولية والمخاطرة ، ومن هنا فقد نوقش الأمر مع الدبلوماسيين المصريين ، وجاءت الموافقة فورا على أن جمال عبدالناصر أمر بعمل أى شئ من أجل تحقيق رغبة لومومبا ، وقرر الدبلوماسيون المصريون أنهم سوف يأخذون المسؤولية على عواتقهم طالما أن حكومتهم قد وافقت على إخراج أسرة لومومبا سرا من الكونغو إلى مصر ، لقد كان ذلك فى الحقيقة عملا كبيرا ومخاطرة رهيبة ، إن كثيراً من الدبلوماسيين الأفارقة المعتمدين الذين كانوا دائما حول لومومبا ما كان يمكنهم تحمل هذه

(١٢٢) كان لومومبا قد وضع تحت الاعتقال المنزلى وكذلك كازافوبو ، ولكن هذا الأخير كان يستقبل الزوار ويلتقى من يشاء بينما حرم من ذلك لومومبا .

المخاطرة ، أما عبدالناصر فإنه عندما سمع ، قرر بكل سرور أن تتحمل بلاده هذه المسؤولية ، وكلف دبلوماسييه بالعمل الفورى على إخراج أطفال لومومبا من الكونغو ، واستعداد الجمهورية العربية المتحدة لاستقبالهم ، لقد كان جمال عبدالناصر سيدا إذ استطاع أن يقدّم مثل هذه الخدمة للسيد لومومبا ..

لقد صفق جميع الزعماء الأفارقة للومومبا ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يقدم له خدمة عندما وقعت المحنة ، وهكذا فإن طفلى لومومبا بعد عدة أيام كانا قد وضعا بواسطة دبلوماسى مصرى على طائرة شركة (سابينا) البلجيكية التى تغادر الكونغو إلى بروكسل (ملاحظة ، الشركة بلجيكية والكونغو تحت الحكم البلجيكى حيث كانت مستعمرة بلجيكية وفى هذا الوقت مازالت تحت السيطرة البلجيكية) والطفلان كانا ملفوفين فى بطانيات ، وكان من المقرر أن تتوقف الطائرة فى عاصمة أوربية على البحر الأبيض المتوسط ، حيث تتغير الرحلة بالنسبة للطفلين ليتوجها إلى القاهرة ، لقد بدأت عملية نقل الطفلين بهدوء وتخطيط ذكى جدا ، سافر الطفلان بأسماء مصرية ، وكان اسم الدبلوماسى الذى تولى العملية هو عبدالعزيز ، وقد نقلا على أساس أنهما طفلاه وكان مقررا للطائرة أن تغادر البلاد بعد منتصف الليل ، ونظرا لأن الطفلين كانا صغيرين فقد كانا نائمين ملفوفين بتلك البطانيات وكانا قد نقلا بواسطة سيارة تحمل لوحة الأمم المتحدة ووضعهما دبلوماسيان مصريان فى المقاعد الخلفية التى كانت قد حجزت قبل وقت من المغادرة ، حاولت المضيفة البلجيكية أن تتأكد منهما ولكن الدبلوماسى المصرى أفهمها أنهما صغيران متعبان ، وإنه لا يريد إيقاظهما وقد ناما لتوهما ، ولحسن الحظ أن المضيفة لم تصر على التأكد منهما ، لقد كانت هذه العملية بالنسبة لأولئك الذين يعملون فيها _ وهى تؤدى تحت سمع جنود الأمم المتحدة _ عملية مؤرقة جدا ، ومقلقة جدا ، لأنها لأى خطأ بسيط سوف تؤدى إلى مشاكل دبلوماسية وتعقيدات سياسية ، بالإضافة إلى منع الأطفال من الخروج ..

لقد تنفس لومومبا الصعداء عندما علم أن طفليه خرجا بسلام من بلادهما ومسقط رأسهما، وقد وصلا أخيرا إلى القاهرة حيث قابلهما الرئيس جمال عبدالناصر بنفسه عدة مرات ، وهما صغيران لا يدركان من الأمر شيئا ، وبرغم أن جمال عبدالناصر لم يلتق لومومبا من قبل لكنه بالتأكيد شعر بسعادة بالغة إذ تمكن

رجاله من إخراج هذين الطفلين لكى لا يكونا ضحيتى ما يجرى فى الكونغو ، وفى القاهرة علم هذان الطفلان أن والدهما الذى كان قد ظهر سنة ١٩٦٠ قد أعلن رسميا فى ٣٠ يونيو ١٩٦٦ على أنه البطل الوطنى للكونغو ولقد قتل جنود كازافوبو لومومبا ومثلوا بجثته ثم رموه فى النهر لكن أبناءه وزوجته عاشوا فى القاهرة برعاية جمال عبدالناصر إلى أن بلغ أطفاله سن الرشد وقد تعلموا فى أرض الكنانة وابن لومومبا الآن يقود حزبا سياسيا فى بلاده (الكونغو) ولابد أنه يحمل كل مودّة وتقدير لعبدالناصر ونظامه .. انتهى ..) (١٢٣) .

هكذا كان جمال عبدالناصر لا يتخلى عن المناضلين من أجل الحرية والاستقلال رغم كل شئ ومهما كانت المخاطر أو الصعاب ، وإنقاذ أبناء الزعيم الوطنى الكونغولى (لومومبا) الذى اغتيل بواسطة المخابرات الأمريكية المتعاونة مع المخابرات البلجيكية فى بلاده لم تكن هى العملية الوحيدة التى تحمل مسؤوليتها بشجاعة عبدالناصر ورجاله فى أفريقيا وغيرها ، وما عملية إخراج عبدالحميد السراج من سجن المزّة فى سوريا بعد انقلاب الانفصال السورى إلا واحدة من تلك الأعمال البطولية والدالة على قدرة أجهزة عبدالناصر على هذا العمل ..

ولقد كانت الأعمال كثيرة وعديدة

فى أغلب البلدان الأفريقية غير أننا أردنا أن نقدم أنموذجا عن تضحيات جمال عبدالناصر ومصر ورجالاتها خدمة للحرية والنضال وتأكيد ارتباط الثورة المصرية بكل ثورات ونضالات شعوب العالم ،ولو أردنا أن نعدد تلك التضحيات لما كفانا كتاب أو اثنان ، ونعتقد أن مركز دراسات الأهرام فى القاهرة وقد قدم الكثير من الأعمال الكبيرة من واجبه أن يتولى هذه المهمة ، ولقدرأينا أن دراسات هذا المركز فى تقريره السنوى تتوقف عادة عن الإشارة إلى تلك الأعمال الكبيرة التى قدمتها الثورة المصرية فى عهد جمال عبدالناصر ، ولعل العذر فى ذلك أن الوقت غير مناسب لأسباب (ربما) سياسية يمر بها النظام الحاكم فى مصر الآن ، ولهذا فإنا نأمل أن يسعى المركز المذكور إلى أن يحقق هذا العمل الكبير خدمة أولا لمصر والشعب المصرى وثانيا للعرب وأفريقيا ، والمناضلين فى العالم ..

(١٢٣) كتاب الصراع فى الكونغو – تأليف توماس كانزا ترجمة د. عبد الوهاب الزنتانى – ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .



الصورة للرئيس عبدالناصر وهو يستقبل فى بيته أسرة المناضل باتريس لومومبا يوم ٢٤ يولو ١٩٦١م وقد أمــر بأن تعيش العائلة فى القــاهرة بالقرب منه ،وظل يرعاها إلى ان تحقق لها أن تعود إلى بلادها بعــد زوال أغلب العقبات التى كانت تحول دون ذلك ، علما بأن أبناء لومــومبا قد أكملوا تعليــمهم فى القاهرة على حساب الحكومة المصرية ، إضافة إلى كل ما احــتاجته عائلة لومومبا طيلة تلك السنوات ، ونعلم أن ابن المناضل باتريس لومومبا بعد انتهاء دراسته فى مصر قد عاد إلى الكونغو وهو الآن يقود حزبا سياسيا على طريق والده ..

ويقول السيد محمد فائق الذى كان مكلفا بإفريقيا خلال عهد الرئيس جمال عبدالناصر ما يلى :

(وإذا كنا نسلم بأن الزعماء الذين قادوا ثورة أفريقيا هم جمال عبدالناصر وكينياتا ونيكروما وسيكاتورى وبن بيلا ولومومبا وفيلكس مومى وكواندا وجوشوا نكومو ونيريرى ومانديلا وأميل كابرال ومحمود حربى ، وغيرهم فإننا نستطيع بكل الاطمئنان أن نقول أن جمال عبدالناصر قد لعب الدور الأخطر والأعظم بشهادة التاريخ وشهادة هؤلاء أنفسهم ..

لقد استطاع عبدالناصر أن يرد كل الثقة والكرامة لشعوب أفريقيا التى قهرها الاستعمار وأطبق على أنفاسها قرونا طويلة ، وزرع عبدالناصر فى كل أفريقى ذلك الإحساس بالعزة والكرامة والكبرياء والفخر ، والانتماء للتاريخ وحضارات ذات ماض وذات مستقبل ، فعندما كشفت مصر عن وجهها الأفريقى الصحيح لأول مرة فى تاريخها الحديث بعيدا عن فكرة الإمبراطورية التى ظلت تملأ عقول زعمائنا الوطنيين حقبة طويلة من الزمن ، وأعلن عبدالناصر انتماء مصر للحركة الأفريقية وتحملها العبء الأكبر لحركة التحرر الأفريقى ، وأصبح هذا الانتماء جزءا لا يتجزأ من الشخصية المصرية ، كان عبدالناصر قد أضاف بذلك حضارة مصر العريقة لتصبح رصيدا لأفريقيا كلها بجانب حضارتها الزنجية ، وهو شئ كانت أفريقيا فى مسيس الحاجة إليه وهى مازالت فى مرحلة تتحسس فيها جذورها لتستقى منها ما تدفعه به حركتها أمام العالم وفى مواجهة قوى الاستعمار الشرسة ..

وبعد حرب السويس فتح عبدالناصر أبواب المستقبل أمام شعوب القارة التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار ، فبانتصار مصر فى معركة تأميم قناة السويس وقضائها على العدوان الثلاثى لم يعد هناك احد يشك أن عهد الإمبراطوريات قد انتهى كما انتهت سيطرة بريطانيا فى مصر ، وهز ذلك صورة بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال فى أفريقيا هزا عنيفا وزلزل امبراطورياتها التى تداعت بعد ذلك فى سرعة مذهلة ..

فإذا كانت الثورة الفرنسية قد زرعت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة عميقة بين شعوب أوربا وقضت على الإقطاع وامتيازات النبلاء والألقاب ، فإن الثورة

المصرية هى التى أعطت الشعوب الأفريقية القدرة على استخلاص حقوقها وفقا لهذه المبادئ والمعانى العظيمة ، والتى كان تطبيقها يقف دائما خارج حدود المستعمرات حيث كان يصطدم هذا التطبيق بمصالح المستعمرين الأوربيين ..

فعندما قامت الثورة الفرنسية كان طبيعيا ألا تنكر فرنسا حقوق الإنسان التى أعلنها هذه الثورة على رعاياها فى مستعمراتها ، وكان (دانتون) على حق عندما قال (لقد كان الجميع عبيدا فى حكم البربون المستبد والآن يجب أن يتحرر الجميع ليصبحوا مواطنين فى الجمهورية الفرنسية) ونجح دانتون فى استصدار قانون ينص على اعتبار جميع الرجال الذين يعيشون فى المستعمرات الفرنسية مواطنين فرنسيين دون تمييز فى اللون ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الحقوق والمزايا المنصوص عليها فى الدستور الفرنسى ..

ولكن سرعان ما ألغى هذا القانون فى عهد نابليون ، وقبل أن يصبح له أى آثار عملية ، بل إن وثيقة اتهام دانتون التى أعدها روبسبير احتوت اتهاما بشأن هذا القانون ، فقد اتهم بأنه قدم قانونا يؤدى إلى القضاء على الامبراطورية الفرنسية ، وأنكرت فرنسا بذلك على الشعوب الإفريقية حق الاستمتاع بهذه المبادئ والحقوق التى حاربت هى نفسها من أجل فرضها فى أوربا لتحرير شعوبها المقهورة ..

وجاءت الثورة المصرية لتكون البداية لهذا التحول العظيم وقوته الدافعة بعد أن استطاع عبدالناصر أن يحرر الإرادة المصرية بعيدا عن أى سيطرة أجنبية ، ويجعل من أرض مصر قاعدة للثورة الأفريقية ، كما أصبحت من قبل قاعدة للثورة العربية ، وهكذا شكل التزام مصر بقضايا التحرر العربى والأفريقى قوة إضافية فى مقاومة الاستعمار فى جميع أجزاء القارة الأفريقية حيث كانت تتمثل فى هذا الالتزام وحدة النضال ووحدة الهدف ، وشعر كل جزء من أفريقيا أن له سندا قويا وحليفا عنيدا ، فبرزت الثورات فى القارة كما برزت فى العالم العربى ، وأستحق عبدالناصر عن جدارة أن يلقب بمفجر الثورة الأفريقية ..

ويقول محمد فائق توضيحا لموقف عبدالناصر فى أفريقيا بعنوان عبدالناصر يرسل قوات مصرية إلى الكونغو :

بناء على طلب لومومبا قوات من الأمم المتحدة اجتمع داق همرشولد السكرتير العام للمنظمة الدولية (قتل هو الآخر فى الكونغو عندما أسقطت طائرته) اجتمع بمندوبى الدول الأفريقية فى الأمم المتحدة طالبا مساهمة هذه الدول فى القوة اللازمة لحفظ الأمن والنظام فى الكونغو ، وكان الإتجاه فى بادئ الأمر إلى قصر تشكيل هذه القوة على الدول الأفريقية وحدها ..

وصل عبدالناصر طلب الأمم المتحدة كما كانت قد وصلته رغبة لومومبا فى ان تشترك مصر فى القوة التى سترسلها المنظمة الدولية إلى الكونغو ، ولم يتردد عبدالناصر فى الموافقة على هذا الطلب ، واشتركت مصر بالفعل بقوة قوامها كتيبة من قوات المظليين بقيادة العقيد سعد الدين الشاذلى (الفريق رئيس الأركان بعد ذلك) وضعت تحت تصرف القيادة العسكرية للأمم المتحدة فى الكونغو ، وقد جاءت موافقة عبدالناصر السريعة على هذا القرار لأسباب عديدة أهمها :

١- كانت هذه هى المرة الأولى التى يلجأ فيها زعيم أفريقى إلى الدول الإفريقية الأخرى لحماية استقلال بلاده والحفاظ على وحدة أراضيها ، ورغم أن ذلك كان عن طريق الأمم المتحدة فإن تخلى الدول الأفريقية وخاصة مصر عن تلبية رغبة لومومبا كان يعتبر فى رأى عبدالناصر تجريدا للوحدة الأفريقية من مضمونها الإيجابى ..

٢- كان عبدالناصر يدرك تمام الإدراك أن معركة ضد الاستعمار والإمبريالية ليست بأى حال من الأحوال معركة محلية وإنما هى معركة ممتدة إلى أعماق القارة الأفريقية كما هى ممتدة على طول الوطن العربى وإلى كل مكان يقاوم الاستعمار والسيطرة الأجنبية ، وقد كان هذا خطأ رئيسيا فى فكر عبدالناصر ، كما كانت المواجهة الجريئة لقوى الإمبريالية والاستعمار الجدية منهجا ثابتا فى سياسته باعتبار أن هذه القوى تشكل الخطر الأكبر الذى يهدد البلاد المستقلة حديثا ..

٣- أهمية الموقع الجغرافى فى الكونغو بالنسبة لمصر ، فتأمين منابع النيل هدف من أهداف الاستراتيجية المصرية تضمنته سياسة حكام مصر منذ عرف التاريخ ومنذ عرفت عبارة (هيرودوت الشهيرة) القائلة (مصر هبة النيل) فقد كان عبدالناصر يعرف جيدا أن تأمين منابع النيل لا يتأتى إلا باستقلال الدول

المشتركة معا فى نهر النيل وتخليصها من السيطرة الاستعمارية حتى نستطيع أن نقيم معها علاقات الصداقة وحسن الجوار .

٤- متاخمة الكونغو لجنوب السودان تجعل له أهمية خاصة ، فمشكلة الجنوب في السودان والمحاولات المستمرة للانفصال كان يغذيها الوجود الاستعمارى فى المناطق المحيطة به ، وكان حل هذه المشكلة مرهونًا بوقف النشاط المعادى للسودان فى الدول المتاخمة ، ولم يمض وقت طويل على وصول قوات الأمم المتحدة إلى الكونغو حتى ظهر خلاف شديد بين لومومبا وبين قيادة هذه القوات، وأرسل لومومبا الى همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة فى ١٤ أغسطس ١٩٦٠ يتهمه باستخدام القوات الدولية للتأثير فى الصراع الدائر بين كاتانجا والحكومة المركزية ، وأن قيادة الأمم المتحدة في الكونغو لم تأخذ رأى الحكومة فى إحلال قوات أوربية محل بعض القوات الأفريقية التابعة للأمم المتحدة ، وأنها بتصرفها هذا تحاول أن تجعل نفسها صاحبة السلطة الشرعية فى البلاد، كما هاجم لومومبا السكرتير العام علنا متهما إياه بأنه ينفذ سياسة الدول الاستعمارية .

وكان هذا الخلاف مثيرا لقلق عبدالناصر فهو خلاف بين قيادة الأمم المتحدة التى تتبعها القوة المصرية فى الكونغو والتى تتلقى الأوامر منها وبين لومومبا الذى ذهبت هذه القوات من أجله وبناء على طلبه ، وزاد قلق عبدالناصر عندما أصبح واضحا أن لومومبا يريد المساعدة العسكرية من الدول الأفريقية ولكن بصفة مباشرة هذه المرة وخارج نطاق الأمم المتحدة .. إلخ ما قام به الرئيس عبدالناصر من محاولات إنقاذ لومومبا ..

الثـــورة الكينيـــة :

الثورة الكينية انفجرت خلال سنة ١٩٥٢ بقيادة (جومو كينياتا) ولقد واجهت فى البداية نفس الصعاب والمعوقات التى واجهت حركات التحرير الأخرى التى سبقتها فى أفريقيا ، صراع وخلافات داخلية ثم تآمر خارجى كاد يؤدى الى فشلها لولا مبادرة عبدالناصر وأجهزته فى دعمها ومحاولة التوفيق بين بعض عناصرها ولقد حاولت بريطانيا قبر هذه الثورة فى مهدها ، ويقول السيد محمد فائق ما يلى :

(لقد بدأت ثورة (الماو ماو) بعد ثلاثة أشهر فقط من ثورة ٢٣ يوليو فى مصر عندما أعلن الإنجليز حالة الطوارئ فى كينيا فى شهر أكتوبر ١٩٥٢ ، وقامت ثورة الماو ماو بين قبائل الكيكويو والمساى الذين طردهم المستعمر الإنجليزى من أرضهم ليعيشوا فى أحياء قذرة على هامش المدن يعانون من البطالة والحرمان من اى حق فى الحياة الكريمة .

وقد حاول الأوربيون تصوير هذه الثورة على أنها حركة دينية وأنها حركة إرتداد إلى التوحش تتطلب منهم البقاء فى كينيا لإعادة الأفريقيين وقياداتهم إلى حياة التمدين ، وكان هذا كله أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فأصل المشكلة يرجع إلى وقت إنشاء الاستعمار الإنجليزى الخط الحديدى بين ممباسه على ساحل كينيا وكامبالا فى أوغندا مارا بنيروبى عاصمة كينيا وهى ما عرف بالأراضى العالية high lands والتى كانت تسكنها قبائل الكيكوبو والمساى وهى قبائل شديدة البأس عرفت بقدرتها الفائقة على القتال .

وقد قام الحاكم الإنجليزى فى ذلك الوقت (السير شارلوت أليوت) بدعوة عدد من العائلات الإنجليزية الغنية الإرستوقراطية وأغراهم بالإقامة فى كينيا وتملك هذه الأراضى العالية ، وكان هدفه الأساسى حماية الخط الحديدى من تخريب القبائل المعادية ، ثم أصدر أمرا بطرد القبائل الأفريقية من هذه المناطق وأعلن أن كينيا أصبحت بلاد الرجل الأبيض .

وكان الأفريقيون المطرودون من هذه الأراضى يذهبون للإقامة فى مناطق خصصت لهم خارج هذه الأراضى أشبه بالمستودعات البشرية ، وأصبح هؤلاء الذين لم يجدوا أماكن فى هذه المناطق المزدحمة جدا عبيدا فى الأرض التى يملكها البيض ، وأصبح هناك حوالى ربع مليون من هؤلاء العبيد ، وكان يسمح لهم بزراعة ما يقتاتون به فقط مقابل تسخيرهم هم وعائلاتهم فى أرض الملاّك البيض ، وكان عقد العمل لهؤلاء يحرر لمدة من سنة إلى خمس سنوات وإذا بيعت الأرض ينتقل عقد العمل إلى المالك الجديد ومن يهرب منهم يمكن اعتقاله وسجنه ، ولزيادة سلطات أصحاب العمل على مستخدميهم كان مفروضا على كل أفريقى بحكم القانون أن يحمل تصريح عمل ، وكان هذا كله مناقضا لعهود أخذتها بريطانيا على نفسها لضمان حقوق الأفريقيين وجعل مصلحتهم هى المصلحة العليا .

وفى مايو ١٩٥٠ قام زعماء اتحاد كينيا الأفريقى الذى كان يرأسه جومو كينياتا بحملة لجمع توقيعات مليون شخص أفريقى لعرض قضيتهم على البرلمان الإنجليزى ، ثم أرسلوا مندوبين اثنين عنهم يحملون هذه التوقيعات ولكن لم يغير ذلك شيئا من سياسة بريطانيا فى جعل كينيا منطقة استيطان للرجل الأبيض الأوربى على غرار جنوب أفريقيا .

وردا على ذلك قامت حركة الماو ماو وقبضت السلطات الإنجليزية على جومو كينياتا ومعه عشرون آخرون فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ حيث قدموا إلى المحاكمة التى استمرت تسعين يوما حكم على جومو كينياتا خلالها بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة ، وبعد شهرين من الحكم تم حل اتحاد كينيا الإفريقى بحجة أن الماو ماو استخدم هذا الإتحاد كغطاء لتنفيذ عمليات العنف والقتل ضد البيض ..

وتبنت مصر قضية الوطنيين فى كينيا فقامت بحملة إعلامية ودبلوماسية مركزة ضد تلك الأعمال الوحشية ، وخصصت إذاعة موجهة للغة السواحيلية باسم (صوت أفريقيا) إلى شعب كينيا وشعوب المنطقة الناطقة بهذه اللغة هاجمت فيها الاستعمار البريطانى بعنف شديد وحملته مسؤولية كل أعمال العنف والإبادة .

وكشفت عن مخطط بريطانيا لجعل كينيا وطنا للبيض ، وقد بدأت هذه الإذاعة كإذاعة سرية فى أول الأمر ، وكان مقرها فى إحدى الثكنات بمنشية البكرى، وتتبع رئاسة الجمهورية مباشرة ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الإذاعات الموجهة بالإذاعة المصرية ولكن تحت إشراف الشئون الأفريقية برئاسة الجمهورية .

وجعلت مصر قضية الماو ماو وقضية الإفراج عن جومو كينياتا قضية أفريقيا كلها، بحيث صار موضوع الإفراج عنه مطلبا على مستوى القارة الأفريقية ، وربما كانت هذه القضية أفريقية تأخذ هذا الطابع على مستوى القارة وكان الفضل فى ذلك لمصر .

وأدت بطبيعة الحال هذه الحملة وهذا التأييد إلى توثيق الصلة مع الحركة الوطنية فى كينيا ، وكانت القاهرة أول عاصمة تفتح أبوابها للزعماء الكينيين الوطنيين ، وتمدهم بكل المساعدات الممكنة لتنشيط حركتهم فى داخل كينيا ، وكذلك توصيل صوتهم إلى العالم الخارجى والمحافل الدولية ، فى الوقت الذى كان الإنجليز يجرّمون أى نشاط سياسى فى كينيا .

وبعد أن سمح بقيام الأحزاب السياسية فى كينيا ،كانت القاهرة أول مكان خارج كينيا تفتح فيه هذه الأحزاب مكاتب دائمة لها ، وتردد خلال هذه المدة أغلب زعماء كينيا المعروفين من أمثال (أوجنجا أودنجا ونجالا و توم ماجويا وجيمس جيشور وجوجف مومبى وغيرهم كثيرون وكان عبدالناصر يلتقى بهؤلاء الزعماء كلما حضروا إلى القاهرة .. انتهى) [١٢٤] .

ولقد استمر التأييد والمساعدات العسكرية والمادية والسياسية والمعنوية المصرية للثورة الكينية إلى أن استقلت هذه الدولة الأفريقية وأجبرت المستعمر البريطانى على الرحيل حيث تولى أبناؤها إدارة شؤون بلادهم ، وكان شعار جومو كينياتا شيئًا اسمه (آهورو) قيل أنه يعنى الحرية وعصاة فى رأسها حزمة سبيب يلوّح بها فى يده اليمنى ، وأذكر عندما كنت طالبا بالولايات المتحدة الأمريكية أن السفارة المصرية والقنصليات المصرية كانت تقوم بتوزيع شعار جومو كينياتا هذا فى كل مكان وخصوصا بين تجمعات الطلبة العرب والأفارقة ، كما إنها كانت تساعد ماليا على إقامة الندوات والمهرجانات تأييدا للثورة الكينية ، ولكن مع الأسف الشديد فإن السيد جومو كينياتا بادر فورا وبعد استقلال بلاده بالتعامل مع عدو العرب (إسرائيل) وقام بأول زيارة خارجية لها وكأنه بذلك يعّض اليد التى امتدت إليه أثناء محنته فى السجون ومساعداتها لبلاده ! !

وعن مدى تأثير تلك الإذاعة الموجهة إلى كينيا باللغة السواحيلية يقول محمد فائق :

(لقد صادفت الإذاعة الموجهة من القاهرة باللغة السواحيلية إلى كينيا نجاحا كبيرا وكان تأثيرها عظيما فى داخل كينيا ، وأذكر أنه فى أول لقاء لى مع جومو كينياتا وكان ذلك بعد خروجه من السجن بأسابيع قليلة ، قال لى إن هذه الإذاعة لعبت دورا خطيرا فى كينيا وأنه كان يستمع وهو فى سجنه إليها وكان يستدعى حراسه ليستمعوا معه إلى صوت أفريقيا من القاهرة وأنها كانت تعطيه فى كل مرة يستمع إليها شحنة معنوية كبيرة كما كان يندهش لدقة الأخبار والسرعة التى تنتقل

(١٢٤) عبد الناصر والثورة الإفريقية – محمد فائق – ص ٣٦.

بها هذه الأخبار ، وكـانت هذه أول إذاعة توجهها القاهرة إلى أفريقـيا بلغة أهلها ، إذا استثنينا الإذاعـات التى كان يوجهها راديو القـاهرة من قبل إلى جنوب السودان باللهجات الأربع الرئيسية هناك .

وقد وجـهت القـاهرة بعد ذلك العـديد من الإذاعات باللغـات واللهـجات الأفريقـية على غرار الإذاعة السـواحيلية ، فكانت تذيـع إلى غرب أفريقيـا بلغات الهوسـا واليوربا والبـاميرا والولوف ، وإلى وسط أفـريقيا بلغـات النيانجـا والشونا والسـاندبيلى واللنجالا ، وإلى جـنوب أفريقـيا بلغـة الزولو ، والى شرق أفـريقيـا بالصومالية والسواحلية والتجرينية وغيرها من اللغات واللهجات الأفريقية الكثيرة علاوة على ان اللغات المستعملة رسميـا فى مناطق أفريقيا هى الإنجليزية والفرنسية والبرتغـالية والإسـبانية والعـربية ، وكـان وراء إنشاء كل إذاعـة من هذه الإذاعات قصـة ترتبط بتأييـد حركـة جديدة أو ثورة جديدة ، ومـساعـدات مصريـة تمتد إلى المجالات الأخرى خلاف هذا المجال الإعلامى ، وفى حالات معينة كانت تخصص الإذاعة الموجـهة أو جزء منهـا لتذيع باسم حـركة أو تنظيم ولقـد حدث ذلك أثناء ثورة الكونغو كما حدث بالنسبة لروديسيا الجنوبية بعد إعلان الاستقلال من جانب النظام العنصرى هناك ، وكانت بالنسبة لموزمبيق فـقد أعطيت إذاعة لحزب فريليمو (الحزب الحـاكم هناك) وذلك بعـد أن وصلت الثورة هناك إلى مـرحلة مـتقـدمة بقيادة هذا التنظيم .



الزعيم الكينى أوجنجا أودنجا مؤسس الاتحاد الوطنى الكينى فى لقاء مع الرئيس جمال عبدالناصر (الذى كان يرعى كل القيادات الوطنية الكينية ، وهذا الزعيم كان على اتصال دائم مع عبدالناصر وهو الذى قاد الاتحاد الوطنى الكينى أثناء فترة اعتقال جومو كينياتا) .



يُرى شعار جومو كينياتا فى يده اليمنى وهذا يسميه (اهورو) ولقد كانت السفارة المصرية والقنصليات المصرية فى الولايات المتحدة توزع هذا الشعار بين الطلبة العرب والأجانب تأييدا لكفاح كينيا ، ولقد شاهدت هذا بنفسى حيث كنت طالبا هناك فى ذلك الوقت ، ولكن مع الأسف جومو كينياتا لم يحفظ لمصر وعبدالناصر تلك الجهود إذ انه بعد استقلال بلاده قام بأول زيارة للعدو الإسرائيلى ...

٣- وفاة جمال عبدالناصر وضياع الأمل فى الوحدة :

سبحانه الحى الذى لا يموت ...

وصدق نزار قباني عندما قال (قتلناك يا جبل الكبرياء وآخر قنديل زيت يضئ لنا فى ليالى الشتاء) .

لقد كان جمال عبدالناصر حلمنا العظيم قبل أن تقع الفاجعة ويتحول الحلم إلى كابوس سيؤرق حياتنا إلى وقت طويل ، وكان أملنا الكبير فى ظلام تلمّس الطريق الذى تحوّل فجأة مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ إلى خواء ويأس فى دنيا العرب .

لقد كان جمال عبدالناصر فى حياتنا الرجل الوحيد الواقف فى مواجهة الزوابع كالطود لا ينحني ولا يستسلم رغم كل الرياح العاتية ، بعده صار الوضع العربى هزيلا خاويا حكّامه ينطبق عليهم قول الشاعر (لم يعرفوا لون السماء لفرط ما انحنت الرقاب) فوفاة جمال عبدالناصر أحدثت جرحًا كبيرًا فى قلوبنا ، لكنها إرادة الله التى لا راد لها .

بوفاة جمال عبدالناصر انحنت الرقاب وتعرى كل شئ وطالت يد إسرائيل لتحرق كل نبتة خضراء فى بلادنا من المحيط إلى الخليج ولأن الألم يعتصر قلوب الملايين من محبى جمال عبدالناصر بداية من عائلته ، أود فى بداية هذا الجزء من الفصل العاشر أن استأذن صديقى رئيس تحرير مجلة الشراع لأنقل نص مقابلة مع خالد عبدالناصر نشرت على صفحات المجلة بمناسبة الذكرى السابعة والثمانين على مولد جمال عبدالناصر وكان النص بعنوان (اليوم الأخير فى حياة عبدالناصر) ذلك أن حديث خالد يظهر مواجع الأسرة التى هى فى نفس الوقت مواجع أمة العرب جراء فقدان رجل الأمة .. قال خالد عبدالناصر :

(فى الأيام الأولى من حقبة الثمانينات التأمت الأسرة فى قاعة السينما بالدور الأرضى من بيت منشية البكرى ، وقاعة السينما بالأصل صالة طعام رئيسية كان يستضيف فيها الرئيس ضيوفه الكبار على موائد العشاء .

جلست أمى تحية كاظم وحدها على كرسى فى الصف الأول وجلست فى الخلف مع زوجتى وكان معنا شقيقاى عبدالحميد وعبدالحكيم بصحبة زوجتيهما ،

كانت أحاديثنا فى ذلك المساء عادية حول بعض شئوننا الاجتماعية ولم نتوقع أننا بصدد حادث عاصف بالمواجع القديمة .

أخذ عامل السينما عبدالعظيم يستعد لعرض شريط سينمائى حديث ولكنه أخطأ فى الشريط وفوجئنا بالعرض يبدأ وصورة أبى على غير انتظار تطل على الشاشة، ومشاهد الملايين الملتاعة تزحف خلف نعشه بأنشودة وداع صاغتها بعفوية (الوداع يا جمال يا حبيب الملايين) الشريط السينمائى عنوانه (أنشودة الوداع) للمخرج على عبدالخالق .

شئ أقرب إلى الصاعقة ضربنا ، أمى غرقت فى بكاء مرير بصوت مرتفع ، ومع بكاء امى أخذتنا الدموع إلى مدى بعيد لم نتصوره منذ لحظات ، وبعد عشر سنوات تقريبا من وفاة أبى ، إننا سوف نذهب إليه ، كأنه مات الآن ، كأننا فقدناه الآن شعرنا بحسرة الفراق، وكما لم يحدث من قبل لم أستطع متابعة الشريط السينمائى وغادرت القاعة مسرعا ، بقميص أزرق وبنطلون رمادى وصندل خفيف فى قدمى ؛ وقف أبى ذات مساء من الصيف الأخير فى شرفة واسعة على يسار استراحة المعمورة فى الإسكندرية ، الاستراحة تواجه البحر مباشرة ، كنا فى مطلع الصبا نلهو على البحر وأبى يتابعنا من بعيد ويتمشى أحيانا فى الشرفة وأحيانا ينزل للتمشى على البحر ، كان (يشاور) لنا من بعيد ، ونرد التحية بحماسة ، كنا متعلقين به بصورة لا تصدق ، كانت مشيته فى الصيف الأخير تبدو عادية أو لعله أراد ، بعناده المعروف ، أن يتحدى المرض وأن يخفى آلامه عنا وأن يبدو طبيعيا ، بدت حالته الصحية بالنسبة لى تحت السيطرة ، لم يكن ما يقلق ولا خطر فى بالنا أن هذه آخر أيامنا مع جمال عبدالناصر ، غير أن ضغط الأحداث عليه من الاستعداد لتحرير الأراضى المحتلة بقوة السلاح إلى مجازر أيلول الأسود أخذ ينال من صحته ويضع قلبه فى مرمى نيران النهاية .

ذات مرة قال لى لن يتركونى أبدا وإن نهايتى إما مقتولا أو سجينا أو فى مقابر الغفير ، كان يدرك أن القوى العاتية التى حاربها سوف تحاول الانتقام ، ولأن الانتقام سوف يكون مريعا ، وعندما حدثت هزيمة يونيو كان تصوره أن يطالب الناس بشنقه فى ميدان التحرير ، فإذا بالملايين يخرجون مطالبين القائد المهزوم بالبقاء وكما لم يحدث فى التاريخ من قبل .

كنا على مائدة غذاء ذات يوم عام ١٩٧٠ ولسبب ما قلت (مضت ثلاث سنوات) وكنت أتحدث عن موضوع شخصى ، قال وكأنه يحادث نفسه ، ثلاث سنوات ؟! كانت هذه السنوات قد مضت على النكسة ، لم ينس أبدا هذا الجرح ، فى ٩ مارس ١٩٦٩ استشهد الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية على جبهة القنال الأمامية ، صدمة عبدالناصر باستشهاد رياض بدت صاعقة ، كان يراهن على (الجنرال الذهبى) فى تحرير أراضينا المحتلة بقوة السلاح (تحت وابل من النيران وأفق مشتعل بالنار) ثقته بالكفاءة العسكرية لرياض كانت بلا حدود لكنه شعر أيضا بالفخر لاستشهاد رئيس أركان القوات المسلحة على جبهة القتال ، مصر تغيرت ونفضت ثياب الهزيمة بإرادة المقاتلين وبدماء الشهداء وهو المعنى الذى التقطه مئات الألوف التى خرجت تودع رياض فى جنازة مهيبة اخترقت ميدان التحرير من جامع عمر مكرم ، أصرّ الرئيس على أن يتقدم صفوف الجنازة وتحدى إجراءات الأمن وأزاح رجال الحراسة وذاب فى وسط الجماهير ، كان لديه إيمان صوفى بالجماهير ، يشعر بالتوحد معها وبأنه فى مأمن تماما بحمايتها ، رجال الأمن أصابهم الفزع ، اقترب أحد ضباط الحراسة من الرئيس بصعوبة شديدة وقال يا فندم كفايه كده ، نهره بيده ومضى فى الجنازة حتى نهايتها متأثرا بهتاف الشعب ، (رياض ما متش والحرب لسه مانتهتش) .

حتى الآن ورغم مضى كل هذه السنوات الطويلة يساورنى شعور طاغ بتقصير الأطباء فى علاج الرئيس إلى حد كبير حاولوا إرضاء الرئيس على حساب صحته ، وقد تفرض أجندة الالتزامات أن يلقى خطابا جماهيريا أو يعقد اجتماعا فى ظل أزمة صحية تستدعى أن يستريح ، يقول للأطباء عاوز أروح أخطب فيلتزموا بما طلب دون مناقشة أو اعتراض ، يعطونه مضادات حيوية من أقوى جرعة ممكنة ، وفى اعتقادى أن هذا النوع من العلاج بتسكين الآلام لمقتضيات السياسة هو أقرب إلى سوء استخدام تكنولوجيا المضادات الحيوية وقد أنهك صحة أبى بصورة خطيرة ليس من واجب الطبيب أبدا أن يستجيب لطلبات المريض حتى ولو كان رئيس الجمهورية ، ليس من واجب الطبيب حين يقول له رئيس الجمهورية (تعال إدينى حقنة ريفالين) أن يكون الرد الفورى ، حاضر ، لا أغفر لأطباء عبدالناصر هذا .. انتهى .

إن قلّة من الرجال يحفرون أسماءهم فى الزمن ، من هؤلاء بالتأكيد جمال عبدالناصر الذى يقترن باسمه يوم ١٥ يناير من كل سنة إذ إنه يوم مولده ، وتتأكد عظمة عبدالناصر فى أذهان المواطنين العرب ليس فقط بسبب إنجازاته الكبرى التى حققها لمصر وللعرب وإنما أيضا بسبب ما جسّده فى تاريخ الأمة العربية من عنفوان وكرامة ، وفى إبراز هوية المواطن المصرى والتزامه بالقومية العربية وتصديه للتحديات التى تواجه تحقيق الوحدة العربية ، ويظهر دور عبدالناصر أثناء حياته وبعد وفاته فى الفراغ الذى خلّفه وبات ثقيلا على ضوء الأوضاع العربية السائدة بعده فى كل مكان من الوطن العربى (فى لبنان وفى العراق وفى السودان وفى الصومال وفى المغرب العربى إلخ) ولهذا فقد كان حديث خالد عبدالناصر الذى نشر فى مجلة الشراع الغراء حيث يستمر فى القول :

(إن السيرة الصحية لوالدى ترتبط بتاريخ السياسة أثناء الحصار الاقتصادى الذى فرضه الغرب على مصر حيث أصابه ذلك بمرض السكر عام ١٩٥٨ و نكسة ١٩٦٧ نالت منه مضاعفات السكر بصورة خطرة ، إرهاق العمل المتواصل فى الليل والنهار لتحرير الأراضى المحتلة بقوة السلاح أصابه بأزمة قلب ، وأزماته الصحية كان يمكن باستمرار تداركها ، مضاعفات السكر تمت السيطرة عليها أما الإرهاق وتحدى أوامر الأطباء بالراحة فلا سبيل لتداركهما ، من عرف عبدالناصر فى تلك الأيام يدرك بسهولة أنه غير مستعد للنوم مرتاحا أو الاستمتاع بأى شئ قبل إزالة آثار العدوان ..) .

وعن حادث الوفاة وإعلان الخبر على العالم ، يقول خالد ، (بدأت الإذاعة والتليفزيون فى بث آيات من القرآن الكريم ، لم يدر أحد بما حدث ، حاولت زوجتى الاتصال بى للاطمئنان ، أخيرا أمكنها الوصول إلى عامل البدالة ، أخبرها وهو يبكى (الريس مات) قوة الحراسة الشخصية لعبدالناصر وفى مقدمتهم محمد طنطاوى الذى كنا نطلق عليه لقب (الطيب) حملت جثمان الرئيس على نقالة إسعاف بلا غطاء وجهه مكشوف ابتسامة رضا تعلو وجهه ، رائحة الموت كريهة لكنها بدت مسكا ، أمى تابعت الجثمان المحمول على نقالة إسعاف بصراخ رهيب دوى فى المكان الذى كان للحظات قليلة مضت المقر الذى تدار منه مصر والصراعات على المنطقة ، قال لها السادات على طريقة أهل الريف فى مثل هذه

الأحوال (يا تحية هانم أنا خدامك) مضى أبى أمام عيوننا محمولا على نقالة إسعاف ولم يعد ، لم نره مرة أخرى ، أمى جلست على السلم تنتحب ، حتى الآن مازالت تدوى فى وجدانى كلمات أمى الملتاعة وهى تتابع الخروج الأخير لعبدالناصر من بيت منشية البكرى إلى قصر القبة قبل إعلان الخبر المفجع على الرأى العام ، فى مدخل القصر الرئاسى قابلت أنور السادات طلبت منه بإلحاح (عاوز أشوفه يا سيادة النائب) رفض السادات هذا الطلب ، قد تكون له أسبابه ، ربما خشى أن تنفلت مشاعر شاب صغير لرؤية جثمان والده ، ومع ذلك لن أغفر للسادات أبدا أنه لم يمكننى من إلقاء نظرة أخيرة على أبى .

مساء الاثنين ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ نهر الدموع امتد من الماء للماء على خريطة أمة العرب ، فى كل قرية عربية مأتم ، قال المصريون البسطاء (عمود الخيمة سقط) قرأ المصريون فى طوفان الدموع ما سوف يحدث غدا وبعد غد بهتاف (عبدالناصر يا عود الفل من بعدك حنشوف الذل) الأناشيد الحزينة أخذت تدوى فى سماء القاهرة التى كانت يومها (عاصمة العرب) و(عاصمة حركات التحرير الوطنى) صرخات ملتاعة تستعيد اسما واحدا لخص كل شئ ، حقبة كاملة من الصعود والانكسار ، النصر والهزيمة ، اسما بدا شهابا قد مضى ، وتاريخا قد مضى ، وإرادة مقاومة لم يعد يعرف أحد ماذا سوف يحدث بعدها ، مات عبدالناصر فجأة، ولم يكن أحد يتوقع أن يغيب مبكرا فى سن الثانية والخمسين ، الصدمة المروّعة هزت مشاعر المصريين ، أخذ الملايين يصرخون باسم رجل يرقد وحده فى غرفة مبردة بقصر القبة .

عندما بدأت الحشود الهائلة من المصريين البسطاء تزحف باتجاه بيت منشية البكرى فور الإعلان عن وفاة الرئيس وقفت عند مدخل البيت مأخوذا بالمشهد الحزين ، شاهدت عن بعد شخصا يرتدى زى طلاب الكلية الحربية الأبيض لم أتبين فى البداية من هو حتى أدركت بعد قليل أنه أخى عبدالحميد أتوا به على عجل من الإسكندرية ، وقف عبدالحميد عاجزا عن دخول البيت من فرط الحشود التى حاصرته بقلوبها وأحزانها .

كنت قد قاربت العشرين من عمرى يوم وفاة أبى ، علاقاتنا بالجيران فى منشية البكرى حكمتها قواعد أمن الرئيس ومع ذلك لم نشعر يوما بأننا

فى وضع أفضل بكوننا أبناء جمال عبدالناصر ، ولا هو نفسه كان يسمح بأية ميزات لأبنائه ، وذات مرة قال لى (لو استخدت اسمى للإساءة إلى أحد أو تجاوز فى التصرف فلن أتردد فى وضعك فى السجن الحربى) فى هذا اليوم الحزين طلب جيراننا من أطقم الحراسة رؤيتى لتقديم واجب العزاء .. يستمر خالد فى سرد الأحداث التالية، ونكتفى بهذا القدر مما ذكره خالد عبدالناصر عن وفاة والده رحمه الله ..) (١٢٥) .

قال عبدالناصر لأطبائه عندما نصحوه بالراحة خلال عقده مؤتمر القمة العربية من أجل وقف القتال بين الفلسطينيين والجيش الأردنى فى عمان (كيف نستريح والناس يموتون فى عمان ؟) .

هكذا كان إحساس عبدالناصر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ليس فقط من أجل الفلسطينيين وإنما فى كل حالة عربية ، فهو لم يكن ليدخّر جهدا لحل قضية عربية أو حادث عربى، وإن كان عبدالناصر بهذه الكلمات قد استراح نهائيا ولاقى ربه راضيا مرضيا ، فقد برهنت ثلاثة تواريخ أو قل ثلاثة أحداث على ذلك وهى :

١- كون وفاته جاءت فى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م الذى يناسب يوم انفصال سوريا عن مصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م أى تلك الجريمة المنكرة التى قام بها بعض ضباط الجيش السورى المأجورين والتى لابد أنها حفرت جرحا عميقا فى قلب عبدالناصر.

٢- توافق هذا التاريخ مع التاريخ الهجرى الإسلامى أى ٢٧ رجب ١٣٩٠ وهو يوم الإسراء والمعراج .

٣- ويوم حقن الدماء العربية بإيقاف القتال بين المنظمات الفلسطينية والجيش الأردنى فى عمان عندما جمع عبدالناصر الزعماء العرب فى القاهرة ووضع بذلك حداً لتلك المجازر ، وقد توفاه الله عشية انتهاء ذلك المؤتمر أى فى تمام الساعة السادسة والربع ببيته فى منشية البكرى يوم ٢٨ سبتمبر وكما قيل (وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع) ولعله يمكن القول أنه فى

(١٢٥) حديث خالد عبد الناصر - مجلة الشراع عدد ١١٦٩ تاريخ ٢٣ يناير ٢٠٠٥ ص ٣٢ .

الوقت الذى كانت فيه الدماء العربية تنزف فى عمان كانت كذلك تنزف من قلب عبدالناصر وقد توقف فى عمان وكذا فى قلب الزعيم ، ولم يكن ذلك هو النزيف الوحيد ولكن هذا القلب الكبير كان ينزف كثيرا مع كل حدث عربى ، فقد نزف إثر حدوث الانفصال السورى سنة ١٩٦١ ، ونزف أكثر عند حدوث نكسة أو هزيمة سنة ١٩٦٧ ، ونزف أكثر كثيرا بسبب المؤامرات الداخلية والخارجية فكيف لا يتوقف ، وبعد تأكد الوفاة ووضعت الترتيبات اللازمة والتى تليق بمكانة جمال عبدالناصر ، ونعاه نائبه وقتذاك السادات بالنص التالى :

(فقدت الجمهورية العربية المتحدة ، وفقدت الأمة العربية ، وفقدت الإنسانية كلها رجلا من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال ، هو الرئيس جمال عبدالناصر الذى جاد بأنفاسه الأخيرة فى الساعة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ هجرية الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م ، بينما هو واقف فى ساحة النضال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية ومن أجل يوم انتصارها .

لقد تعرض البطل الذى سيبقى ذكره خالدا إلى الأبد فى وجدان الأمة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه فى الساعة الثالثة والربع بعد الظهر، وكان قد عاد إلى بيته بعد انتهائه من آخر مراسم اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذى انتهى بالأمس فى القاهرة ، والذى كرّس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه ليحول دون مأساة مروّعة دهمت الأمة العربية ..

إن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى ومجلس الوزراء ، وقد عقدا جلسة مشتركة طارئة على إثر نفاذ قضاء الله وقدره ، لإيجاد الكلمات التى يمكن بها تصوير الحزن العميق الذى ألمّ بالجمهورية العربية المتحدة وبالوطن العربى والإنسانى ، إزاء ما أراد امتحانها به فى وقت من أخطر الأوقات .

إن جمال عبدالناصر كان أكبر من الكلمات ، وهو أبقى من كل الكلمات ، ولا يستطيع أن يقول عنه غير سجله فى خدمة شعبه وأمته والإنسانية ، مجاهدا عن الحرية ، مناضلا من أجل الحق والعدل ، مقاتلا من أجل الشرف إلى آخر لحظة من العمر .

ليس هناك كلمات تكفى عن عزاء فى جمال عبدالناصر ، إن الشئ الوحيد الذى يمكن أن يفى بحقه وقدره هو أن تقف الأمة العربية الآن كلها وقفة صابرة صامدة شجاعة قادرة ، حتى تحقيق النصر الذى عاش واستشهد من أجله ابن مصر العظيم ، وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها ، ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ - [الفجر : ٢٧ -٣٠] -) .

كانت هذه كلمات نائب عبدالناصر السيد انور السادات التى نعى بها رئيسه جمال عبدالناصر وأذيعت على العالم ، وبعد وفاة عبدالناصر ثارت وأثيرت نقاشات وخلافات كثيرة بين الرجال المقربين منه بما فيهم نائبه أنور السادات ، وكان الجدال قائما حول مستقبل العمل السياسى وترتيب الأوضاع الداخلية ، ومن المعروف أن الخلافات كانت مستترة إذ كان الفيصل فى كل الأمور وجود عبدالناصر بين كل الأطراف ، والآن وقد اختفى عبدالناصر صار كل طرف يبحث عن مكان يقف فيه مسيطرا على جزء من نظام الحكم إن لم يكن كله ، وفى نظر مجموعة المحيطين بعبدالناصر قبل وفاته أن السادات رجل ضعيف أو متساهل وبالتالى يمكن السيطرة عليه وتسييره ، ونجد السيد أمين هويدى يسجل تلك التطورات ومجريات الأمور بعد وفاة الرئيس عبدالناصر مباشرة فى كتابه المعنون (مع عبدالناصر) باعتباره كان وزيرا فى حكومته بعد النكسة ، يقول :

(ثلاث استقالات ، ترتيب نقل السلطة ، الكل عازم على أن تنقل السلطة بأسرع ما يمكن وبطريقة دستورية ، أعد السرادق الكبير فى عابدين ، الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ، واختلط الحابل بالنابل ، وقبل باب المقبرة ، ماذا قبل وفاة عبدالناصر ، دموع على جمال ودموع على وفاء الرجال .

وفى الوقت الذى كانت تقدم فيه تلك الاستقالات كان العمل الجاد لإكمال الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية يتم على قدم وساق فاستقر الرأى على التالى :

١- يعرض الترشيح على اللجنة التنفيذية العليا يوم السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠ .

٢- يعرض الترشيح على اللجنة المركزية يوم الإثنين ٥ أكتوبر ١٩٧٠ .

٣- دعوة مجلس الأمة لاجتماع غير عادى صباح يوم الأربعاء ٧ أكتوبر ١٩٧٠ .

٤- يتم الاستفتاء يوم الخميس ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ .

٥- إذا جاءت نتيجة الاستفتاء بنعم يجتمع مجلس الأمة يوم السبت ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ ليؤدى رئيس الجمهورية أمام المجلس اليمين الدستورية وفقا للمادة ١٠٤ من الدستور .

وانصرف كل فيما يخصه لبذل كافة جهده حتى يتم نقل السلطة بالطريقة الدستورية في صورة رائعة وقد تمت كل هذه الخطوات فى دقة أذهلت العالم وكانت محل تعليقات من كافة الجهات الرسمية والصحافة وأجهزة الإعلام العالمية وقد التزم الجميع بالدستور القائم التزاما لا شك فيه ولذا فإن أية محاولات وتقولات تذكر هنا وهناك عن التشكيك فى قيمة الجهد الذى بذل فى ذلك الوقت أو فى النوايا منها تشويه ضار للصورة الجميلة الرائعة الصادقة التى تمت بها الأمور فى ذلك الوقت .

يواصل السيد أمين هويدى رواية اللحظات الأخيرة قبل إتمام دفن الرئيس عبدالناصر، فيقول :

أرسل أعضاء مجلس الثورة القدامى إلى السيد أنور السادات مذكرة مكتوبة يعرضون فيها إعادة تكوين مجلس الثورة على أساس ديموقراطى ويتولى سيادته الرئاسة وقد وقع هذه المذكرة كل من السادة عبداللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وحسن إبراهيم وكمال حسين ، ورفض السيد أنور السادات مقابلتهم كطلبهم فى المذكرة وذكر أنه سيكتفى بمقابلة بغدادى لأنه يرتاح إليه دون الآخرين وقد تمت المقابلة ولا أدرى شيئا عما تم فيها .

وأصدر الدكتور عزيز صدقى بيانا إلى العمال قال فيه (لقد ناضل جمال عبدالناصر طوال حياته فى سبيل تدعيم الاشتراكية فى بلادنا لىحقق لكل مواطن الكفاية والعدل وعندما كان يطبق هذه المبادئ فإنما كان فى ذلك منفذا لإرادة هذا الشعب ومعبرا عن آماله وأحلامه ، ولقد سار خلف جمال عبدالناصر أعوان له ساهم كل منهم بنصيبه فيما رأى جمال عبدالناصر أنه قادر عليه ، وهناك من تخلف بعد جزء من الطريق وهناك من أكمل الشوط حتى نهايته وكان الشوط الذى لا يرضى الرئيس الراحل عنه بديلا لمن يبقيه معه فى مسيرته إيمانه بالمبادئ

التى نادى بها الشعب ، إيمانه بالاشتراكية ، فى وقت الشدائد يجب أن نتصارح بالحقيقة فهى التى تقينا من الوقوع فى أوهام باطلة ، لن يقود المسيرة ، مسيرة الاشتراكية إلا الذين يؤمنون بمبادئه الاشتراكية ، وإنى أطمئنكم أننا لن نسمح لمن ارتد أو تخلف أو ظن أن الاشتراكية تنتهى بموت عبدالناصر أن يرفع رأسه أو أن يكون له مكان فى مسيرتنا ، إن عبدالناصر فى أثناء حياته أصدر حكمه وعبر عن رأيه فى كل من عملوا معه ، لم يبق معه إلى نهاية الشوط إلا الذين أمن لهم واطمأن إلى أنهم يعتنقون المبادئ الأساسية التى عمل من أجلها وأنهم سيكونون قادرين على الحفاظ عليها ..)

وواضح أن عزيز صدقى فى بيانه هذا يغمز ويلمز أعضاء الثورة القدامى الذين تركوا السلطة أو تركتهم السلطة أيام عبدالناصر ، وقد أثار هذا الأمر عبداللطيف البغدادى فكتب كتابا شديدا وجهه إلى عزيز صدقى وأرسله مع السائق إلى منزله يسبه فيه ويوجه إليه الاتهامات الثقيلة التى وصلت إلى حد السب والقذف إذ تحدث الرجل عن الكذب والانتهازية والرجولة ، بلهجة قاسية وصمم عزيز على الرد إلا أن بعض النصائح المخلصة أقنعته بالتمسك بالصمت ، وقد اقتنع.

وفى الليلة السابقة على تشييع الجنازة اتفق بعض الأصدقاء على أن نمضى الليلة فى مبنى هيئة قناة السويس بجاردن سيتى على النيل حتى نتفادى أمواج البشر التى كانت قد ملأت الشوارع فقد خرجت الملايين لتشييع زعيمها فى موكب وزحام لم يحدث من قبل ولا أظنه سيتكرر من بعد ..

وانطلق طوفان البشر طول الليل ينشد بصوت واحد مهيب كلمات أغنية حزينة وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا ننشد مع المنشدين والدموع تسيل بغزارة مياه النيل الذى يمر أمامنا ، كانت الأغنية :

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين .. الوداع

ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين .. الوداع

أنت عايش فى قلوبنا يا جمال الملايين .. الوداع

أنت ثورة جمرة نذكرك طول السنين .. الوداع

إنت نوارة بلدنا واحنا عـــذبنا الحنيـن .. الوداع

انت ريحـانة زكـيـة لأجل كل الشـقـيـانين .. الوداع

الوداع يا جـمـال يـا حـبـيـب الملايين .. الوداع

وحتى الآن لم يعرف أحد على وجه التحديد كيف انطلق هذا النشيد من كل هذه الألسنة ولا يعرف أحد على وجه التحديد كيف انتشرت بين الملايين ولا كيف حفظوا كلماته وألحانه ! !

ومر الليل الثقيل ولم ينم أحد ، كانت الأمة كلها ساهرة تحضّر (للموكب الجنائزى) الذى ستشارك فيه فى اليوم التالى ، وامتلأت الشوارع والحدائق والمنازل، كانت الجمهورية كلها خرجت فى العاصمة وفى الأقاليم لتودع القائد والزعيم ..

وحينما خرجنا فى الصباح الباكر لنعبر (كوبرى قصر النيل) الى أرض الجزيرة حيث يوجد (مقر مجلس الثورة) ظهر لنا أن كل ما خططنا له يصعب علينا تنفيذه ، فلم يكن من الممكن أن نسير عشرات الخطوات التى تفصلنا عن الجسر ولم يكن أمامنا إلا أن نعبر النيل فى الزوارق إلى الشاطئ الآخر ، وخوفا من أن يفعل آخرون مثلما فعلناه وما ينجم عن ذلك من خسائر محتّمة صدرت التعليمات إلى كل الزوارق بأن تترك الشاطئ الغربى للنيل إلى الشاطئ الشرقى أو إلى وسط النهر الخالد ..

كانت الدقائق تمر وكأنها الساعات والكتل البشرية تمكنت من التسرب رغما عن نطاقات الأسلاك الشائكة المضروبة فى كل مكان ، كان التسرب قليلا فى بادئ الأمر ثم ما لبث أن أصبح عاما وبمرور الوقت أخذت الكتل البشرية الباكية النائحة تطغى على المكان الذى ستمر فيه الجنازة ، وبعد دقائق من سير الجنازة لم يعد هناك نظام أو سيطرة فقد اختلط الجنود المكلفون بحفظ النظام بباقى طوائف الشعب ولم يعد فى إمكان أحد أن يسيطر على النظام ..

وكان من الصعب على الرؤساء الذين يشيعون الجنازة أن يستمروا فى تأدية الواجب الثقيل حتى نهايته ولم يكن من المناسب أن تتكبد الوفود الأخرى كذلك

المشقة الهائلة التى أخذت تتصاعد عند وصول الجنازة إلى كوبرى قصر النيل ، فأشير على هؤلاء بأن يعودوا مرة أخرى إلى السرادق وقد فعل البعض منهم ذلك وأصر الكثيرون على مواصلة السير .. انتهى) (١٢٦) .

وأذكر أن كامل أعضاء القيادة الليبية وقيادات الاتحاد الاشتراكى وأعداد غفيرة من الشعب الليبى قد وصلوا فى نفس الليلة التى أعلن فيها عن وفاة جمال عبدالناصر ، وقد صدر قرار من القيادة الليبية بإعداد كل الطائرات المدنية لنقل الناس مجّانا فى تلك الليلة، كذلك أذكر بينما كنا نسير مع الجنازة وحدث أنه أمام فندق (الهيلتون) كاد الناس أن يختنقوا من الزحام واضطرت السلطات المصرية إلى إنزال قوات الصاعقة للمحافظة على الجثمان ، وقد أغمى على بعض الناس فى هذه الأثناء ومنهم أحد أعضاء مجلس الثورة الليبية ، واستمر الحشد والزحام وترديد الأغانى الحزينة إلى أن وصل جثمان عبدالناصر منشية البكرى حيث سجى داخل المسجد الذى أقامه بجوار القيادة العامة للقوات المسلحة ، ولابد أن اختيار هذا المكان له معان خاصة بالرئيس عبدالناصر لأن القيادة العامة للقوات المسلحة كانت أولى الأماكن التى احتلتها قواته ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، هذا المكان الذى احتله فى تلك الليلة ليّغير وجه التاريخ فى مصر ويقضى على نظام وراثى شاخ وفسد ، شيّع إليه شهيدا فى موكب تاريخى لم يكن له مثيل فى أى زمن أو مكان ، استقبله شعبه بالورود يوم قام بالثورة وودعه بالورود يوم وفاته ، وهو يرقد هانئا فى هذا المسجد حتى الآن .

لا تختلف كثيرا تلك الروايات أو الأحاديث التى أدلى بها بعض المسؤولين المصريين وخصوصا أولئك الذين كانوا قريبين من عبدالناصر خلال سنوات حكمه الأخيرة حول الظروف أو الدوافع التى جعلت الرئيس عبدالناصر يعين أنور السادات نائبا فى حين كان هناك نائب آخر للرئيس هو السيد حسين الشافعى هذا الرجل الذى أثبت فيما بعد أنه أخلص وأصدق الرجال فى وقت تعرض فيه عبدالناصر للتجريح والإساءة والتشكيك من جانب أقرب الناس إليه، ومن المعروف أن السادات كان يتقرّب كثيرا إلى الرئيس عبدالناصر على الرغم من أن

(١٢٦) مع عبد الناصر – أمين هويدى – ص ١٢٣ .

عبدالناصر لم يكن يقدّره كثيرا بل هو أحيانا يحقّره كما قال (انتونى ناتنج) فى كتابه المعنون (ناصر) الطبعة الإنجليزية ، قال عندما سألت عبدالناصر عن وضع السادات معه قال لى تقصد (الحمار الأسود) لكن السادات ظل مع عبدالناصر طيلة فترة حكمه مؤيدا ومناصرا لفكره ورأيه ويروى عنه أنه كان دائما يقول (يا ريس رأيى فى جيبك) وفى كتابه (هذا عمك جمال يا ولدى) الكثير من الإطراء والتزلف ، ولقد أثبت السادات أنه يعرف تماما ماذا يريد بتزلّفه ذاك ، ومن المعتاد أن الحكام العرب لا يقرّبون منهم صاحب رأى أو موقف ،وهذا ما سوف ننظر فيه فى الجزء الرابع من هذا الفصل ..

كذلك فإن دور جمال عبدالناصر فى التاريخ المعاصر فيما نعتقد أنه سيكون ناصع البياض معطرا بروائح الورود على الرغم مما كتب وقيل من طرف أولئك الناس الذين تضررت مصالحهم سواء فى الداخل أو الخارج ، ونرى أنه من المفيد أن نعرّج على ما جاء فى صفحات كتاب الأستاذ أحمد حمروش بعنوان (تقييم دور البطل والزعيم) يقول :

(عبدالناصر مات ..

لم يعد صاحب الرأى والإرادة .. ومركز حركة الأحداث ..

نام فى صمت أبدى .. وترك الحديث للناس ، مفجر ثورة يوليو وقائد مسيرتها .. مات، قبل أن ينتهى الطريق وتكتمل القصة فصولا ..

غاب المخرج والمؤلف والبطل .. وبقى المشاهدون .. لم يسدل الستار بعد ..

غاب الزعيم وبقى الشعب ولم تنته قصة ثورة ٢٣ يوليو والدور الذى قام به جمال عبدالناصر .. حفر له مكانا بارزا فى تاريخ مصر .. (ونحن نقول والأمة العربية ..) .

لم يكن جمال عبدالناصر هو البطل الوحيد على خشبة المسرح ، ولكنه كان يلعب دور الفتى الأول الذى جذب الأضواء وسحر الجماهير وتلقى أكاليل الغار ، حتى وقع من الهزيمة القاسية ، ثم نهض كبطل إغريقى يحارب من أجل مجده وحرية وطنه ، فوق أرض روتها الدماء وسط شعب اهتزت ثقته ، ولكنه ظل يبلور

أمله فى هذا الرجل الأسمر القادم من صعيد مصر ، الذى أقام الجمهورية وأصبح أول رئيس منتخب لها بعد حكم الفراعنة والأباطرة والخلفاء والملوك الذى امتد آلاف السنين ..

فرض عبدالناصر نفسه على عصره ، وأصبح الناس فى الخارج يقولون (ناصر) إذا ذكرت (مصر) كان بطلا قوميا ألهب مشاعر العرب ، وساند ثوراتهم التحررية . انتهى) (١٢٧) .

ولنا أن نضيف إلى هذا أن جمال عبدالناصر أقام أول دولة للوحدة عرفت باسم الجمهورية العربية المتحدة شاركه فى قيامها الرئيس السورى شكرى القوتلى الذى أصبح يسمى (المواطن العربى الأول) وكان يمكن أن يدخل التاريخ العربى وربما العالمى على أنه شارك فى إقامة دولة الوحدة العربية وانتقل إلى رحمة الله وهو يحمل على صدره وسام شرف العروبة (المواطن العربى الأول) لكنه مع الأسف الشديد نكص على أعقابه وتآمر مع المتآمرين على تلك الوحدة التى شارك فى صنعها ، فقد أيد الانقلاب على الوحدة وفصل سوريا عن مصر ،

كان جمال عبدالناصر أحد أبطال عدم الانحياز أى أنه أحد الثلاثة الكبار الذين أسسوا تلك الحركة التى كان دورها إيجابيا فى السياسة الدولية وهم (جمال عبدالناصر مصر - جواهر لال نهرو الهند - جوزيف بروز تيتو يوغسلافيا ثم انضم إليهم سوكارنو أندونيسيا) .

ولأن هؤلاء الزعماء الرواد أسسوا حركة عدم الانحياز والحياد الإيجابى فإنما هم بذلك أرادوا خدمة السلام العالمى بخلق هيئة تضع إمكانياتها فى خدمة الشعوب وتقف حائلا بين العملاقين العالميين الكبيرين (الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية) بحيث لا يحدث ما يعكّر صفو العلاقات الدولية والسلام العالمى ولو بخطأ فى التقديرات العسكرية ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن لدى هذين الكبيرين ما يمكن أن يدمر العالم بأكمله عشر مرات ، ومن المعروف أنه بجهود القادة الثلاثة ومعهما بعدئذ الرئيس الأندونيسى قد تمكنوا بجهود صادقة

(١٢٧) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٣٨٣ .

من توسيع حركة عدم الانحياز بحيث شملت أغلب دول العالم الثالث المتحررة من الوجود الأجنبى فى شكل قوات أو قواعد ، ولابد من الاعتراف لهذه الحركة بأنها لعبت دورا هاما فى العلاقات الدولية بل وفض المنازعات هنا وهناك .

ثلاثة قادة من دول العالم الثالث ومعهم نيكروما فى اجتماع الأمم المتحدة سنة ١٩٦٠ ، والثلاثة من القادة المؤسسين لحركة عدم الانحياز وهم عبدالناصر وسوكارنو ونهرو ..



- لقد فتح عبدالناصر الباب من أجل مصالح العرب والعالم الثالث للاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية .
- حرر الفلاح المصرى من سيطرة الإقطاعيين .
- أسس قاعدة الصناعة الثقيلة المدنية والعسكرية فى مصر .
- عمل على تطوير مؤسسة الأزهر الشريف بحيث صارت جامعة الأزهر تضم جميع الكليات بما فيها العلمية .
- قرر مجانية التعليم فى جميع مراحله بحيث أصبح ابن العامل والفلاح قادرا على دخول الكليات العسكرية والمدنية .

وباختصار ، لقد عمل عبدالناصر طيلة حكمه الذى (مع الأسف) لم يكن طويلا على خلق المجتمع الجديد هذا داخليا أما خارجيا فقد صار عبدالناصر قائدا عربيا إسلاميا عالميا وكان شامخا لا يطأطئ الرأس ويعترف له كل منصف بأنه قد نذر نفسه للمثل العليا وطهارة حياته الخاصة وتواضعه وصفاته النادرة فى زمنه .

ونعود إلى تقييم الأستاذ أحمد حمروش لدور جمال عبدالناصر باعتباره أحد الرجال الذين عاصروه عن قرب .. يقول :

كان جمال عبدالناصر هو القوة الدافعة الرئيسية وراء كل المنجزات والمكاسب ، ولكن الزعيم وحده ، دون محاولة التقليل من دوره ، لا يستطيع أن يقبض على كل الخيوط ، ويعجز مهما كانت قدراته وعظمة إخلاصه ، أن يبنى المجتمع وحده .

وجمال عبدالناصر اعتمد فى بناء المجتمع الجديد أساسا على الذين يحيطون به من العسكريين ، وتشكلت (أوتوقراطية عسكرية) تربع فى قمتها بغير منازع، واختار الطريق السهل الذى يعتمد فيه على القرارات الإدارية ينفذها له مجموعة من العسكريين الذين نشأوا ودربوا فى أجهزة الأمن والمخابرات كما أوضحت ذلك فى الجزء الثانى (مجتمع جمال عبدالناصر) .

والمعارك السياسية الداخلية التى خاضها اعتمد فيها على القرارات الداخلية وحدها ، ألغى الأحزاب جميعا دون أن يفرّق بين التى لعبت دورا وطنيا والتى

قامت لخدمة المحتلين والسراى (الوفد وأحزاب الأقلية) وهاجم فكرة الحزبية فى مجتمع كانت الطبقات فيه مازالت تتصارع ، ولكنه احتكر العمل السياسى فى يد تنظيمات ورقية أشرف عليها العسكريون ، ولذا سقطت الحياة السياسية فى فراغ رهيب حتى عام ١٩٦١.

حاكم الإخوان المسلمين والشيوعيين وبعض رجال الأحزاب السابقين ، ولم يدرك أن هذه الإجراءات الإدارية لا يمكن أن تعنى تصفية سياسية ، فالأفكار لا تقهرها إلا أفكار أخرى والذين ينظمون أنفسهم فى خدمة طبقة لا ينتهى دورهم إلا إذا صفيت تماما هذه الطبقة ، أما إذا كانت طبقة لها مستقبل فإن كل الإجراءات الإدارية تنتهى إلى عدم مع الذين ينظمون أنفسهم فى خدمة حقوقها .

وجمال عبدالناصر مثل كل زعيم لابد وأن ينتمى إلى طبقة يعبر فى النهاية عن مصالحها ..) (١٢٨) .

الواقع أن عبدالناصر لم ينتم فى أى وقت من الأوقات إلا إلى الطبقة الفقيرة بل المعدمة، وهى فى مصر طبقة العمال والفلاحين ، ولقد اعترف هو نفسه بذلك وعلنا عندما قال (أنا جمال عبدالناصر أفخر بأن عائلتى لاتزال فى بنى مر تعمل وتزرع وتقلع من أجل عزة هذا الوطن وحريته ، إننى أفخر دائما بأننى واحد من أهالى بنى مر، وأنا أقول هذا لأسجل أن جمال عبدالناصر نشأ من عائلة فقيرة أعاهدكم أن جمال عبدالناصر سيستمر حتى يموت فقيرا فى هذا الوطن ..) ونقول نعم (لقد مات عبدالناصر وهو فقير من المال وغني بالكرامة والعزّة والطهارة وحب الملايين من الناس .

قال ونردد كذلك من أجل تأكيد هذا الانتماء قوله :

(إن دمى من دمكم ، وهو لكم ، وسأعيش حتى الموت مكافحا فى سبيلكم، من أجل حريتكم ومن أجل كرامتكم وعزّتكم ..) .

وقال ..(إن الخبز للجميع مقدمة لابد منها حتى تكون هناك حرية للجميع ..) .

---

(١٢٨) قصة ثورة ٢٣ يوليو – أحمد حمروش – ص ٣٨٤ .

هذا هو جمال عبدالناصر ، ولقد نقلت بعض ما أورد الأستاذ أحمد حمروش لأننى أتفق مع بعض ما انتقد فى شأن موضوع الأحزاب والموقف من بعض قيادات الإخوان المسلمين (على الرغم من أنهم اعتدوا على عبدالناصر وحاولوا قتله) لأننى أعتقد أنه أكبر منهم جميعا وكان يجب أن يترفع عن خطاياهم ويدعوهم إلى قول الله العلى القدير ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ - [الأعراف : ٨٩] - وكذلك أنا أتفق مع الأستاذ حمروش فيما ذهب إليه من أن نظام عبدالناصر اعتمد فى الغالب على العسكر وتلك حالة كل الذين قاموا بانقلابات (علما بأن الأستاذ حمروش نفسه عسكري وشارك فى إنقلاب عبدالناصر ، لكنه على أى حال أشار إلى حقيقة ، وأنا أقرر هنا وعن معرفة ان أغلب العسكريين الذين اعتمد عليهم عبدالناصر كانوا من الكفاءات العسكرية والعلمية وحتى الأدبية (كتاب ومؤرخون وصحفيون الخ) .. ولقد كان عبدالناصر مؤمنا بالقضاء والقدر ولعله كان يحس بين وقت وآخر بدنو أجله حتى أنه قال بعد انتهاء مؤتمر قمة الزعماء العرب فى القاهرة الذى عقد لإنهاء القتال بين الجيش الأردنى والمنظمات الفلسطينية فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ وهو يودع آخر حاكم عربى فى المطار (أمير الكويت) .. وقد نصحه بأن يستريح لبعض الوقت فى الأسكندرية .

(أريد أن أنام نوما طويلا ، لن أستريح فى الأسكندرية ، أريد يوما أو يومين من النوم هنا ، وبعدها نفكر فى الإسكندرية .. لقد نام نوما طويلا لا نهائيا رحمه الله .. كما أنه كان يقول فى أكثر من مناسبة أنه لن يعيش طويلا ، ونحن نقول : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ - [الفجر : ٢٧ -٣٠] - صدق الله العظيم .

ولقد كان جمال عبدالناصر يتابع تطورات الموقف فى عمان أولا بأول وقد كلف سفارته هناك بتزويده بما يطرأ على الساحة ، وبالتالى كانت تنهال عليه البرقيات سواء من عمان أو من وكالات الأنباء العالمية وبقية الأجهزة المصرية ، إضافة إلى أن الخلاف داخل قاعة المؤتمرات بفندق الهيلتون كان على أشده حتى أنه فى رده على ملاحظة أحد الملوك العرب قال (ربما نحن جميعا نحتاج إلى طبيب يكشف علينا ما إذا كنا جميعا مجانين ، أم لا ..)

لقد كان يعـانى من الخلافات العربية فى المؤتمر ويعـانى من المعلومات التى ترد إليه عن الوضـع القتالى فى عـمان ، كمـا كان حـزنه شديدا بشأن الـدم العربى الذى ينزف فى شوارع عاصمة الأردن ، وكـان يردد القول (إن هناك رجالاً وأطفالاً ونساء يموتون ولهـذا فنحن فى سـباق مـع الموت) وخلال تسـعـة أيام كامـلة كان يحـاول التوفيق بين المجتـمعين ، وكان يضغط على أعصابه وهو يتـألم ، لكنه كان مصرا على إيقاف نزيف الـدم العربى ، ولم يترك الفـندق إلا فى الساعة العـاشرة من مـساء يوم الأحد ٢٧ سـبتـمبـر ١٩٧٠ بعد أن تمكن من أن يجـعل الجمـيع يوقعّون علـى اتفاق إيقـاف إطلاق النار وفى أولهم الملك حـسين وياسر عـرفـات ، وكان عليـه أن يودع الملوك والرؤساء صباح اليوم التالى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

الصور المقابلة على الصفحات التاليـة كانت آخر صور تلتقط للرئيس جمال عبدالناصر قبيل انتهاء مـؤتمر القمة ، ويرى وهو يقرأ عددا من البرقيات الواردة من عمان ، بعدها ودع آخر حاكم عـربى فى مطار القاهرة ، وكان ذلك أمير الكويـت ، وبصعوبة بالغة ركب سيارته وعاد إلى البيت فى منشية البكرى ، وكانت تلك آخر أيامه فى هذه الدنيا .



وهنا يقرأ البرقيـــات التى تصله تباعا من السفارة المصـــرية فى عمان ومن وكالات الأنباء العالمية ، ويطلب اتخاذ الإجراءات اللازمة ، وقت الاستراحة القليل ثم يعود إلى جمع الملوك والرؤساء العرب لإبلاغهم عن الوضع وتلك الدماء التى تهدر بلا مبرر ولا عقل ، ولقد استمر هكذا طيلة تلك الأيام المشحونة بالتوتر إلى أن تمكن من جعل الجميع يوقعون ويلتزمون بإيقاف القتال وإيجاد تسوية مرضية .

عبدالناصر فى وداع آخر حاكم عربى عند انتـــهاء مؤتمر القمة العربية وحقن دماء الفلسطينيين فى عمان ، ووداع الدنيا نهائيا .



انتقل جمال إلى جوار خالقه ولقد ودعه الشعب العربى وداع الأبطال ، وظل يمجّده بعد وفاته حتى الآن وربما إلى أمد بعيد لأنه موجود فى حياة الناس بما قدم من عمل ، بمنجزاته الكثيرة والعديدة ، هذا على مستوى المواطن العادى الذى كان جمال عبدالناصر منحازا إليه وكانت أغلب أعماله ومنجزاته لصالحه ، أما المثقفون ورجال السياسة والأعمال فإن أغلبهم دائما مع الواقف ولأن جمال عبدالناصر صار نائما تحت الأرض فقد اختلفوا ولم يكن فى اختلا فهم إلا قلة من المنصفين ، وكثيرون أولئك الذين كتبوا عن جمال عبدالناصر شعرا ونثرا وكلاما عندما كان فى الحكم يمجّدونه ويبرزون سجاياه الطيبة ، ثم انقلبوا عليه بعد وفاته وقالوا فيه أكثر مما قال مالك فى الخمر (كما يقال) وهم من السهل عليهم تبديل جلودهم وقد صاروا يدّبجون القصائد لمن جاء بعده ، الواقع أن تلك هى مصيبة العرب .

وأظن أنه لم يكن بين كل هؤلاء غير شاعر واحد كان صادقا مع نفسه ومع قرائه أو مستمعيه ، ذلك هو الشاعر المبدع نزار قبانى ، فقد انتقد عبدالناصر ونظام حكمه نقدا شديدا عندما أحس بألم الهزيمة سنة ١٩٦٧ ورأى أن من واجبه أن يقول كلمته مهما كان الثمن ، ولقد قابل جمال عبدالناصر ذلك النقد الشديد برحابة صدر (والقصة معروفه) ثم كتب نزار قبانى أجمل وأعظم قصائده عن جمال عبدالناصر بعد وفاته ، وعن موقف عبدالناصر بعد أن نشرت تلك القصيدة شديدة النقد وعنوانها (هوامش على دفتر النكسة) قال نزار (ولكى يكتمل الفصل عن حزيران ، وعما نالنى بسببه من صلب ، ورجم ، وتشهير ، وتخوين ، أجد أن الأمانة التاريخية تقتضينى أن أسجل للرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، موقفا لا يقفه عادة إلا عظماء النفوس ، واللمّاحون ، والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم ، وشفّت رؤيتهم ، فارتفعوا بقياداتهم وتصرفاتهم إلى أعلى مراتب الإنسانية والسمو الروحى ، يوم كانت الدنيا ترعد وتمطر على قصيدتى (هوامش عل دفتر النكسة) وكسر الحصار الرسمى الذى كان يحاول أن يعزلنى عن مصر ، بتحريض وإيحاء من بعض (الزملاء) الذين كانوا غير سعداء لاتساع قاعدتى الشعبية فى مصر ، فرأوا أن أفضل طريقة لإيقاف مدّى الشعرى ، وقطع جسورى مع شعب مصر ، هو استعداء السلطة علىّ ، حتى إن أحدهم طالب وزارة الإعلام بمقال نشره فى إحدى المجلات القاهرية بحرق كتبى .. ويستمر نزار فى القول ، أن الرئيس عبدالناصر عندما قرأ الرسالة التى بعثتها إليه أصدر أمرا نصه :

تلغى كل التـدابيـر التى قـد تكون اتخـذت خطأ بحق الشـاعر ومـؤلفـاته ، ويطلب إلى وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة .

يدخل الشاعـر نزار قبانى إلى الجمهـورية العربية المتحـدة متى أراد ، ويكرّم فيها كما كان فى السابق .

ثم يقول نزار ، بعـد كلمات جمال عبـدالناصر ، تغيّر الطقس ، وتغـيّر اتجاه الرياح ، وتفرق المشاغبون، وانكسرت طبولهم ، ودخلت (هوامش إلى مصر) .. رحم الله جمال ونزار ، وفيما يلى القصائد :

قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك ...

ليس جديدا علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا

وكم من إمام ...

ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنة

وأيامنا كلها كربلاء ...

❁ ❁ ❁

نزلت علينا كتابا جميلا

ولكننا لا نجيد القراءة ...

وسافرت فينا لأرض البر

ولكننا .. ما قبلنا الرحيلا ...

تركناك فى شمس سيناء

وحدك ...

تكلم ربك فى الطور وحدك
وتعرى ...
وتشقى ...
وتعطش وحدك ...
ونحن هنا نجلس القرفصاء
نبيع الشعارات للأغبياء
ونحشو الجماهير تبنا وقشا
ونتركهم يعلكون الهواء ...

❀ ❀ ❀

قتلناك ..
يا جبل الكبرياء
وآخر قنديل زيت
يضيء لنا فى ليالى الشتاء
وآخر سيف من القادسية ...
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنا النية ...
لماذا قبلت المجيء إلينا ؟
فمثلك كان كثيرا علينا ...
سقيناك سم العروبة حتى
شبعت ...

❀ ❀ ❀

رميناك فى نار عمان حتى
احترقت ...

أريناك غدر العروبة حتى
كفرت ...
لماذا ظهرت بـــأرض النفاق
لماذا ظهرت ؟
فنحن شعوب من الجاهلية
ونحن التقلب...
ونحن التذبذب ...
والباطنية ...
نبايع أربابنا فى الصباح
ونأكلهم حين تأتى العشية ...

❁ ❁ ❁

قتلناك يا حبنا وهوانا
وكنت الصديق وكنت الصدوق
وكنت أبانا...
وحين غسلنا يدينا .. اكتشفنا
بأنا قتلنا منانا ...
نفضت غبار الدراويش عنا
أعدت إلينا صبانا ...
وسافرت فينا إلى المستحيل
وعلمتنا الزهو والعنفوانا ...
ولكننـــا
حين طال المسير علينا
وطالت أظافرنا ولحانا

قتلنا الحصانا ...

فتبت يدانا ...

❁ ❁ ❁

أتينا رليك بعاهاتنا

وأحقادنا وانحرافاتنا ...

إلى أن ذبحناك ذبحا

بسيف أسانا ...

فليتك فى أرضنا ما ظهرت

وليتك كنت نبى سوانا ...

❁ ❁ ❁

أبا خالد يا قصيدة شعر

تقال

فيخضر منها المداد

إلى أين ؟

يا فارس الحلم تمضى

وما الشوط حين يموت الجواد ؟

إلى أين ؟

كل الأساطير ماتت

بموتك وانتحرت شهرزاد

وراء الجنازة سارت قريش

فهذا هشام ...

وهذا زياد ...

وهذا يريق الدموع عليك

وخنجره تحت ثوب الحداد

وهذا يجاهد فى نومه ..

وفى الصحو ..

يبكى عليه الجهاد ...

وهذا يحاول بعدك ملكا ...

وبعدك كل الملوك رماد ...

وفود الخوارج .. جاءت جميعا

لتنظم فيك ...

ملاحم عشق ...

فمن كفروك ...

ومن خونوك ...

ومن صلبوك بباب دمشق ...

أنادى عليك أبا خالد ...

وأعرف أنى أنادى بواد

وأعرف أنك لن تستجيب

وأن الخوارق ليست تعاد ...)[١٢٩] .

* * *

ثم كانت المرثية البليغة بعنوان (الهرم الرابع مات) ..

السيد نام

السيد نام

السيد نام كنوم السيف العائد من إحدى الغزوات
السيد يرقد مثل الطفل الغافى .. فى حضن الغابات
السيد نام
وكيف أصدق أن الهرم الرابع مات ؟
القائد لم يذهب أبدا ..
بل دخل الغرفة كى يرتاح
ويصحو حين تطل الشمس
كما يصحو عطر التفاح
الخبز يأكله معنا ..
وسيشرب قهوته معنا ..
ونقول له ..
ويقول لنا ..
القائد يشعر بالإرهاق ..
فخلوه يغفو ساعات ..
يا من تبكون على ناصر ..
السيد كان صديق الشمس
فكفوا عن سكب العبرات ..
السيد مازال هنا ..
يتمشى فوق جسور النيل ..
ويجلس فى ظل النخلات ..
ويزور الجيزة عند الفجر ..
ليلثم حجر الأهرامات ..
يسأل عن مصر .. ومن فى مصر ؟

ويشم أزهار الشرفات ..

ويصلى الجمعة .. والعيدين ..

ويقضى للناس الحاجات ..

مازال هنا عبدالناصر ..

فى طمى النيل .. وزهر القطن ..

وفى أطواق الفلاحات ..

فى فرح الشعب ..

وحزن الشعب ..

وفى الأمثال وفى الكلمات ..

مازال هنا عبدالناصر ..

من قال الهرم الرابع مات ؟

يا من يتساءل ، أين مضى عبدالناصر ؟

يا من يتساءل ..

هل يأتى عبدالناصر ؟

السيد موجود فينا ..

موجود فى أرغفة الخبز ..

وفى أزهار أوانينا ..

مرسوم فوق نجوم الصيف ..

وفوق رمال شواطينا ..

موجود فى أوراق الصحف ..

فى صلوات مصلّينا ..

موجود فى كلمات الحب ..

وفى أصوات مغنّينا ..

موجود فى عرق العمال ..
وفى أسوان .. وفى سينا ..
مكتوب فوق بنادقنا ..
مكتوب فوق تحدينا ..
السيد نام .. وإن رجعت ..
أسراب الطير سيأتينا ..) (١٣٠) .

❁ ❁ ❁

٤- تطورات الأحداث بعد عبدالناصر :

صراع وخلاف وتناطح ، كما يحدث عادة بين الورثه عندما يختفى القائد أو الزعيم ، وعندما تكون الدولة بلا مؤسسات ديموقراطية راسخة قوية قادرة ، حدثت اجتماعات ومناقشات وتم الاتفاق على من يعتقد أنه الأضعف بين هؤلاء الورثه ليتولى الحكم وبالتالى يتحكم هؤلاء من وراء ظهره ليتقاسموا المنافع ، تولى محمد أنور السادات الحكم ، وظهر أمام مجلس الشعب فى جلسة طارئة رسمية ليلقى أول خطاب يحدد فيه خطه وسياسته ، ركع بطريقة مسرحية أمام تمثال جمال عبدالناصر الذى كان خلفه ، وقال نعاهدك بالسير على طريقك ، فقال البسطاء من المصريين (بالأستيكه) وواصل الحديث .

(لقد جئت إليكم على طريق عبد الناصر وأعتبر أن ترشيحكم لى بتولى رئاسة الجمهورية هو توجيه بالسير على طريق جمال عبدالناصر ، وأيدت جماهير شعبنا فى الاستفتاء العام (بنعم) فإننى سوف أعتبر ذلك أمرا بالسير على طريق جمال عبدالناصر ، وأعلن أمامكم بشرف أننى سأواصل السير فيه على أية حال ، ومن أى موقع ، إن الأيام الماضية فى حياتنا كانت أيام حزن عظيم ، ولكن الأمة الخالدة استطاعت بصمودها الفطرى أن تحول مشاعر حزنها العظيم إلى طاقة قوة

(١٣٠) هذه القصيدة نشرت فى كتاب سنوات مع عبد الناصر - سامى شرف - ص٧١٢ .

عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت بأسرع مما قدر أحد ، وصممت وحسمت فى عبارة قاطعة قائلة فى نفس واحد (طريق جمال) .

أيها الأخوة لقد كنت أفكر طويلا خلال الأيام الأخيرة فيما يمكن أن نقوم به فى مواجهة ما قضت به إرادة الله عز وجل ، وقد وضعت لتفكيرى كله قاعدة واحدة هى أن نبدأ كل تصرف بسؤال محدد هو (ماذا كان يطلب منا لو أنه كان مازال بيننا ؟) وكنت على ضوء معرفتى به ، رفقة ثلاثين سنة ، وزمالة نضال وراءه معركة بعد معركة وفهم صديق لصديق ، كنت أقدر الخطى والمواقع باحثا على النحو ومستلهما ولو كان عبدالناصر بيننا هذه اللحظات لقال لا تحزنوا ولكن تحركوا ، لا تقفوا ولكن تقدموا لا تترددوا ولكن أكملوا الطريق ، وذلك ما فعله شعبنا العظيم ، وذلك ما فعلته تعبيرا عن كل المؤسسات السياسية والدستورية التى تمثل سلطة الشعب .

أيها الإخوة إننى لست بحاجة إلى ان أطيل عليكم فى وصف معالم طريق عبدالناصر ، فأنتم تعرفونه وشعبنا يعرفه وأمتنا العربية تعرفة والدنيا بأسرها تعرفة ، إنه طريق طويل بمسافة آمالنا ، وهو طريق شاق بمقدار ما نواجه من خطر ، وآمالنا على الأفق عريضة والخطر من أعدائنا وصل إلى احتلال بعضا من ترابنا الوطنى المقدس ، وأريد أن أحدد أمام حضراتكم مجموعة من النقاط أرى لها أهمية خاصة قبل أن نصل إلى مجمل طريق عبدالناصر ، هذه النقاط ذات الأهمية الخاصة هى كما يلى :

أولا : إننا مطالبون بالدرجة الأولى وبكل الوسائل بمواصلة النضال من أجل تحرير كل الأرض العربية المحتلة فى عدوان سنة ١٩٦٧ ، وهى القدس العربية وغزّة والضفة الغربية للأردن والمرتفعات السورية وصحراء سيناء ، وذلك مع الحرص الكامل على الحقوق الفلسطينية وعلى استكمال نضال الشعب الفلسطينى فى سبيل أرضه ومن أجل مصيره ، الضمان الحقيقى لهذا الهدف المشروع من نضالنا يتمثل فى مطلب أساسى واحد ، هو تعزيز القدرة القتالية للقوات المسلحة لتكون حماية للسلام القائم على العدل أو أداة لفرضه .

ثانيا : إننا مطالبون بمواصلة النضال من أجل وحدة الأمة العربية ، وأن متناقضات هذه الأمة وتأزمها الطبيعى فى مرحلة الماضى التى تعيشها الأمة لا يجب

أن يلهينا عن جوهر الحقيقة التى طالما نادى بها وعمل من أجلها جمال عبدالناصر وهى أننا أمة عربية واحدة تاريخها واحد ونضالها واحد ومصيرها واحد ..

ثالثـا : إننا مطالبون بتحـديد أعداء أمتنا تحديدا لا شبهـة فيه ، وأعداؤنا هم إسرائيل والصهيونية الدولية والاستعـمار العالمى ، ونحن فى صراع مصيرى معهم جميـعا وهو صراع لا يستـهدف الغزو ولكن يطلب الأمن ، لا يستـهدف السيطرة ولكن يطلب الحرية ، لا يستهدف الحـرب للحرب ولكن يطلب السلام كما يجب أن يكون السلام .

رابعـــا : إننا مطالبون بالتـمسك بسيـاسة عدم الانحيـاز كما علمنا جـمال عبـدالناصر ، فهى ليست مـوقفا سلبيـا إنما سياسـة عدم الانحياز على طريقـته هى انحياز لاستقلالنا وانحياز لحريتنا ، وانحياز للسلام وانحياز للتقدم ..

خامسا : إننا مطالبون دواما بأن نذكر ولا ننسى أننا جزء من حركة التحرر الوطنى العظيمـة باتجاههـا التقدمـى المعادى للاستـعمـار ، وأننا جزء من حركـة التقـدم العالمى الضخمة ، وأننا بشعبنا وأمتنا تيار حضارى مؤثر يعطى ويأخذ ويفعل ويتفاعل .

ســادسـا : إننا مطالبون أولا وأخيـرا بالحفاظ على المكاسب الاشتـراكية التى تحققت لجماهير قوى شـعبنا العامل ، وبالمضى فى هذا الطريق الذى رسمه وحدده لنا قائدنا جمال عبدالناصر ، وترجمة أمينة لآمـال جماهير الشعب العامل وحتمية مصيره ووجوده .

أيها الأخـوة بعد هذه الملاحظـات أجىء إلى مجمـل طريق عبدالنـاصر ولن تسمعـوا فيه منى جديدا وكل ما أفـعله فيه هو أن أؤكد عهـدا أننى جئت معى إلى هذا المجلس بوثيقة واحدة أودعها فيه وأمشى قائلا لكم هذا برنامجه وهو برنامجى أيضـا لأنه إرادة الشعب ، إننى أودع فى هـذا المجلس بيان ٣٠ مـارس فذلك آخـر برنامج متـكامل قدمه جـمال عبـدالناصر لأمـته وصدّق عليـه جماهـير شعـبه فى استفـتاء عام حر ، واعـتمدته طريقـا للنضال وامتدادا عـضويا للميثـاق على ضوء الظروف الطارئة التى واجهت نضالنا ابتداء من يونيو ١٩٦٨ .. انتهى) [١٣١].

(١٣١) مع عبد الناصر - سامى شرف - ص ٧٤١ .

نكتفى بهذا القدر من خطاب السادات فى أول توليته رئاسة الجمهورية العربية المتحدة ، هذا الاسم الذى لغاه فيما بعد ، وهذا البرنامج الذى لم يلتزم بكلمة واحدة منه على الإطلاق وسنرى فيما يأتى كيف سارت الأمور بعد هذا الكلام الذى لم يخرج نظريا عن خط سير سياسة عبدالناصر .. والواقع أن ما فعله السادات ينطبق عليه تماما ما قاله الشاعر العربى :

أعلّمه الرماية كل يوم

فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علّمته نظم القوافى

فلما قال قافية هجانى ..

يذكر الأستاذ عبد الله إمام أن المتتبع لمسيرة المجتمع المصرى خلال السنوات التى بدأ فيها السادات يسفر عن وجهه الحقيقى لأحداث مايو يرى أن ما حدث فى تلك السنوات كان انقلابا على ثورة يوليو ، ففى تلك السنوات أجهز السادات على القطاع العام (فى حين كان يتحدث عن الاشتراكية) وبدأ التفكير جديا فى بيعه ، وقد تمت تصفية شركات منه ودخول رأس المال الأجنبى فى شركات أخرى ، وفى تلك السنوات أعلن السادات أن الميثاق وبيان ٣٠ مارس وكل مواثيق الثورة التى كان يتمسك بها يجب أن توضع فى المتحف ، بل إنه يتهكم على الميثاق فى كتابه (البحث عن الذات) عندما يذكره يقول ، ما أسموه الميثاق ! وفى تلك السنوات لم تتنوع مصادر السلاح وكان الاعتماد على الولايات المتحدة وحدها ، التى قالت بوضوح إنها ستعمل على تسليح إسرائيل لتكون أقوى من كل الدول العربية مجتمعة .

وفى تلك السنوات أيضا كانت سياسة الانفتاح الاستهلاكى وإقامة المجتمع الرأسمالى الطفيلى هى البديل عن الحل الاشتراكى وعن الانجاز الذى تم فى عهد عبدالناصر بإقامة صناعات بمعاونة الشرق والغرب ، وفى عهد السادات أعيدت البنوك الأجنبية والشركات التى خاضت مصر حربا دامية قبل أن تمصّرها ، والمتتبع لحركة الضباط الأحرار ، نشأتها وتكوينها ، بل وحركتها ، يعرف أنها قامت للقضاء على الفساد ، ولم يطفح الفساد فى المجتمع المصرى قبل الثورة مثلما طفح فى سنوات ثورة التصحيح (وهذا اسم ثورة السادات فى عهده الأخير) وأهم من ذلك كله ، كانت

ثورة عبدالناصر ردا على السلاح الفاسد وعلى احتلال إسرائيل للأراضى العربية ، وكان الموقف من إسرائيل هو موقف مبدئى وأساسى بالنسبة لثورة يوليو ، وفى ظل ثورة التصحيح أصبحت إسرائيل صديقا وحليفا ، انتهى..) (١٣٢).

وما كانت قد نادت به وعملت من أجله فى كل المجالات ثورة عبدالناصر من فكر قومى ونضال قومى على الساحة العربية والإسلامية والدولية تحول فى عهد السادات إلى انقلاب مصر عليه وعلى الأمة العربية وأوحى السادات إلى صحافته وصحفييه بضرورة إبراز الموقف الإقليمى لمصر والابتعاد عن فترة الماضى القريب (المقصود طبعا عهد عبدالناصر) وتبارت تلك الصحف فى الهجوم على كل ما هو عربى ، وأن العرب متخلفون (كأنما مصر أصبحت فى عهد السادات مثل اليابان ! (كما حفل قاموس التصحيح بكثير من التهجم والإساءة للأمة العربية ! ولقد أكدت كل هذه المواقف بأن السادات لم يكن صادقا عندما قال إنه يلتزم بخط ثورة عبدالناصر وقد تحدث عن النضال والتحرير والوحدة العربية فى خطابه أمام مجلس الشعب (مجلس الأمة) وللمفاجأة فقد صار خلال فترة التهجم على العرب يقول أن ٩٩٪ من الأوراق فى يد أمريكا واستتبع ذلك بالقضاء على التعاون المصرى السوفييتي كما طرد الخبراء السوفييت الذين ساهموا فى إعادة بناء القوات المسلحة المصرية وفى الصناعة المصرية بل هو تمادى فى الإساءة إليهم وإلى بلادهم وحتى صناعاتهم وسلاحهم الذى استخدمه الجيش المصرى بكفاءة فى عبور قناة السويس وتدمير خط برليف .

يقول إمام ، إن ما حدث لا يمكن أن يعتبر امتدادا لثورة يوليو (كما زعم السادات فى بداية عهده) ولا تصحيحا لمسارها لأنه انقض على مبادئها الأساسية وإنجازاتها فضلا عن الانقضاض على قائدها ، ووصف السادات عبدالناصر بأنه ديكتاتور وهو الذى زرع الحقد والجاسوسية ، وهو بطل المعتقلات والتعذيب وكان هذا الكلام فى ظل الحديث عن الوفاء والقيم وأخلاق القرية ! وفى ظل الثورة الثانية أصبح ذكر اسم عبدالناصر أو الدفاع عنه جريمة ! وقد منعت صوره من التليفزيون حتى فى الإعلانات عن الصحف والكتب وصودرت الأغانى التى

---

(١٣٢) انقلاب ١٥ مايو - عبد الله إمام - ص ٤٧٠ .

تذكره وسحبت صوره ، وأصبح المؤمنون بفكره منبوذين وملاحقين ومطاردين ، ومأجورين ومدعين ، وعملاء ومرتدين لقميص عبدالناصر ! !

(وأذكر أنني وقد كنت عضوا فى لجنة من لجان الوحدة بين ليبيا ومصر عاصرت وشاهدت الكثير من أوجه ذلك الانقلاب على الناصرية ، وفى سنة ١٩٧٠ كانت اجتماعات تعقد بين لجان تلك الوحدة التى لم تتحقق فى فترات متقاربة بين طرابلس والقاهرة وحدث أن تحدث يوم ٢٧ ديسمبر الرئيس السادات أمام أعضاء مجلس الأمة فى مصر وهاجم بشدة أولئك الذين قال إنهم يرتدون ثوب عبدالناصر و فى اليوم التالى تم اعتقال عدد كبير من الناصريين بينهم عدد من طلبة جامعة عين شمس وعندما عقد اجتماع اللجنة التى كنت عضوا فيها وتسمى (لجنة التنظيمات السياسية) طالبت بتوضيح الأسباب التى أدت إلى اعتقال الناصريين وخصوصا الطلبة وتأكيدا لقولى قدمت قائمة بأسماء الطلبة الذين تم اعتقالهم لكن مناقشة طلبى رفضت وكانت النتيجة أنى أخرجت من مصر ومنع دخولى طيلة عهد السادات ، وفى حادثة أخرى وكان اجتماع هذه اللجنة فى طرابلس وقد شاركت فى هذا الاجتماع إذ أنه لم يكن ممكنا منعى وأنا فى بلادى قدم الوفد المصرى فى أول إجتماع للجنةما أسموه (دليل العمل الوطنى) الذى أرادوه أن يكون بديلا عن الميثاق ولما رفض الوفد الليبى مناقشة هذا الدليل على اعتبار أن السادات نفسه قال علنا ورسميا إن الميثاق هو دليل الثورة المصرية ، قالوا إن ذلك عهد قد مضى ، بل إن أحدهم وهو (الدكتور ....) قال إن الميثاق لا يساوى نكله ! ولقد كانت تلك المحادثات من أجل وحدة بين طرفين (ليبيا ومصر) وكل منهما يسير فى إتجاه معاكس تماما للآخر (واحد وحدوى وواحد إقليمى ! !) .

يقول عبدالله إمام ، ولكى تكتمل الصورة لابد أن نطرح رأى السادات نفسه ، ففى ٢ يونيو ١٩٧١ قال السادات إن مجلس الشعب قام بعملية تصحيح وكان هذا هو الجزء الأول من عملية التصحيح التى كان يتطلع إليها قائدنا جمال عبدالناصر ، وفى ١٤ مايو ١٩٧٢ قال إننا بدأنا بتجربة جديدة فى ١٥ مايو وفى ٢٤ يوليو قال إنها حركة تصحيح ، وفى ٢٦ مارس ١٩٧٢ وصفها بأنها تجربة وقال فى بيانه أمام اللجنة المركزية إن مسيرتنا بدأت منذ عبدالناصر بالميثاق وبيان

٣٠ مارس ومضينا إلى أن جاء ١٥ مايو فكانت علامة على الطريق ، وبيان ٣٠ مارس هو الأساس الذى أعطانى فيه الشعب ثقته وانتخبنى على أساسه ، ١٥ مايو هو استمرار للميثاق وبيان ٣٠ مارس ، ١٥ مايو ليس تاريخ ثورة تصحيحية ، ٢٣ يوليو ثورة لا تتجزأ وثائقها ثابتة (الميثاق وبيان ٢٣ مارس) وأضفت إليهما برنامج العمل الوطنى ، وفى ٣ أبريل ١٩٧٤ وصفها أيضا بأنها كانت حركة تصحيح ، وفى سنة ١٩٧٥ وصف السادات أحداث مايو بأنها ثورة ، وفى عيد العمال استخدم لأول مرة كلمة ثورة تصحيح .

ومرة ثانية لابد أن نعود إلى اهتمام السادات بالتاريخ ونحن نذكر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٥ وفى ذكرى جمال عبدالناصر عندما شرح لأول مرة أحداث مايو ، قال ، لعلكم تذكرون أننى كنت أصر على استخدام كلمة حركة ١٥ مايو زمنا طويلا ولكن الآن وقد اكتملت ملامحها يمكننى أن أقول إنها ثورة كاملة بكل أبعادها ، ويوضح السادات فى خطابه يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٥ ملامح الثورة الجديدة بأنها تقوم على سياسة الانفتاح الاقتصادى والانفتاح من نظم اشتراكية مستوردة قائمة على ساق واحدة متورمة ببيروقراطيا هى القطاع العام إلى اشتراكية مصرية عربية هى اشتراكية الرخاء وأنها أعادت سيادة القانون وألغت جميع الإجراءات الاستثنائية وأقامت المجتمع المفتوح والدولة المصرية ، دولة العلم والإيمان وطردت الخبراء السوفييت ونوّعت مصادر السلاح وأنهت خرافة التفوق الإسرائيلى يوم ٦ أكتوبر .

١ - والسؤال هو ، كيف تخلص السادات من أبطال ثورة مايو إذا كانت ثورة بالفعل؟ فهى إذا كانت ثورة تكون قد أكلت نفسها سريعا فلم تكد تمضى أعوام قليلة حتى تخلص السادات من كل الذين قاموا معه بهذه الثورة ، تخلص من الدكتور عزيز صدقى بعد أن عينه بعد مايو رئيسا للوزراء ، تخلص من محمد عبدالسلام الزيات بعد أن عينه نائبا لرئيس الوزراء ، تخلص من نائبه حسين الشافعى الذى وقف إلى جانبه فى ظروف عصيبة ، كما تخلص من ممدوح سالم بعد أن عينه وزيرا للداخلية ثم رئيسا للوزراء ورئيس بحزب مصر ثم

مستشـارا للرئيس ، وتخلص من الفريق محمد أحمد صـادق بعد أحداث مايو بشهور قليلة ، وتخلص من سيد مرعى بعد أن عينه أمينا للاتحـاد الاشتراكى ثم رئيسا لمجلس الشـعب وتخلص من قائد الحرس الجمهـورى الليثى ناصف بعد أن منحة رتبة فريق ثم عـينة سفيرا بوزارة الخارجية واستـخدمه للقبض على كل الذين سجنهم فى عملية مايو ثم قتل فى لندن بعد أن سقط أو أسقط من الطابق التاسع فـى منزله فى ظروف مازالت غـامضة حـتى الآن ، وتخلص من النواب الذين قادوا معركة مجلس الأمة وهم يوسف مكاوى وعبـدالفتاح جميعه وقدم بعضـهم للمحاكـمة مثل أحـمد يونس ، وتخلص من المدعى العام الاشـتراكى الدكـتـور مـصطفى أبوزيد، وتخلـص من حـافظ بدوى رئيس المحكـمـة التى حاكمت مـجموعة مايو ورئيس المحكمـة التى حاكمت مجمـوعة مايو ورئيس مجلس الشعب .. انتهى) (١٣٣) .

٢- الغريـب أن أحـداث التاريخ تتكرر وتتمـاثل ذلك أنه يوم مقتل الســادات كان عدد من الذين عاونوه وأيدوه فى أحداث شهر مايو داخل نفس السجن الذى كانت فيـه مجموعـة مايو (وزراء عبدالناصر) وهكـذا عادة ما تدور الدوائر على أصحابها .

ولعله من المنـاسب فى عـجـالة تقـيـيم أحـداث تلك المرحلة ومـا آلت إليـه الظروف أو دفعت إليـه الأيام والتغيـرات السياسـية فى المنطقة والـعالم ، على أننا يجب أن نؤكـد مـا ليس جـديدا وهو أن تغـيـر الحكام يأتى بعـده تغـيـر الأحـوال والمناصب والرتب الخ :

- أولا إن مجموعـة مايو (وزراء عبدالناصر) لم يكن من المعـقول أو المقبول أن يقـال أنهم كانـوا بريدون الاستـيـلاء على السلطلة مـباشـرة وإنما هم أرادوا أو اعتقـدوا أن السادات رجل ضعيف وبالتـالى يمكنهم أن يقودوه كيفـما شاءوا ، وعندما قـدموا استقـالاتهم ربما كانوا يعتـقدوا أنها سـتثير الرأى العـام المصرى بحيث يحدث ما توقعوه عن خطأ .

(١٣٣) انقلاب ١٥ مايو - عبد الله إمام - ص ٤٧٦ .

- ولأن تلك المجموعة كانت فى الواقع ومن حيث المناصب تمسك بكل مرافق الدولة كالجيش (وزير الحربية) والبوليس (وزير الداخلية) والتنظيم السياسى(الأمين العام للاتحاد الاشتراكى والمخابرات (مدير عام المباحث) والإعلام (وزير الإعلام) .. إلخ فإنهم لو كانوا أرادوا الاستيلاء على الحكم لكانوا تولوا كل شئ فى ساعات أو دقائق وما احتاجوا لأكثر من إعلان عبر الإذاعة أو التليفزيون .

وعلى أى حال وقد اتجهت الرياح كما أرادها السادات عن يقظة أو غفلة ، عن ارادة او بالصدفة ، فإنه كسب الجولة ، ولابد من التأكيد أن الرئيس السادات كان يعرف تماما ماذا يريد وإلى أين يتجه ليس فقط بعد وفاة عبدالناصر وإنما فى وقت سابق بكثير .

ولابد من الاعتراف أنه استطاع ان يخدع الجميع وهذا ذكاء سياسى يحسد عليه .

ولابد من القول أنه امتلك شجاعة لا مثيل لها فى وقته وضمن تلك الظروف والأيام عندما قرر السفر إلى إسرائيل والتحدث علنا فى الكنيست ، وتلك خطوة جريئة لا يمكن أن يقدم عليها إلا شجاع ومغامر إزاء الحالة النفسية السائدة فى الوطن العربى .

ولابد فى المقابل من القول أنه أساء كثيرا للعرب عندما نزل بمستوى وثقل مصر بالردح والشتائم إلى مستوى دويلات صغيرة ليس لها شأن محلى أو دولى .

كذلك لابد من الإشارة إلى أن موقف الحكام العرب بعد مؤتمر بغداد الذى أسموه (مؤتمر الصمود والتصدى) أنه كان موقفًا هزيلا بل وغبيا عندما قالوا إنهم سيدفعون مبالغ كذا وكذا لمصر إذا تراجع السادات عن قراره بزيارة إسرائيل وهو الموقف الذى أعطى السادات فرصة أن يقول للشعب المصرى إن الحكام العرب يريدون رشوة مصر وتركيعها ، ولابد من القول أن نظام السادات كان نظاما فاسدا حيث فتح الأبواب للرشوة والسمسرة والاستغلال بالدرجة الأولى لأسرته وأقاربه والمحيطين به .

ولابد من الاعتراف أن العرب بلا مصر (كائن من يكون الذى يحكمها) لا يمكنهم أن يحاربوا أو يحرروا شبرا واحدا وأنهم لن يعملوا حربا ولا سلاما بدليل

أنهم عندما قرروا نقل جامعتهم العربية من القاهرة وقاطعوا مصر لم يفعلوا شيئا غير وفاة الجامعة وتوقفهم عن عمل أى شئ ، ثم عندما قتل الرئيس السادات (والذين قتلوه هم مصريون ولأسباب مصرية بحتة) أعاد العرب جامعتهم إلى القاهرة وعادوا جميعا إليها دون أن يتغير شيء من سياسة السادات فى ظل الرئيس الجديد حسنى مبارك ، ومازالت وستبقى سفارة إسرائيل فى القاهرة ، بل يمكن القول أن العرب بعد مرور قرابة ثلاثة عقود من تلك الأحداث صاروا يلهثون وراء الغرب والشرق ولم يحصلوا على واحد من الألف مما حصل عليه السادات فى ذلك الوقت ، وتحديدا حالة فلسطين والفلسطينيين .

وما قام به السادات كان منسجما تماما مع تفكيره وقدراته ، ولأنه أراد أن يحدث شيئًا ما يكون مدويا قد يعطيه شعبية حتى لو اعتبر نوعا من التفريط أو شيئًا من ذلك ، ويذكر أنه قال للسيد (كيسنجر) وزير خارجية الولايات المتحدة اليهودى آنئذ أعطونى نصرا أرضى به جنرالات الجيش أعطيكم سلاما ، وهذا يؤكد تطلعه لأن يفعل شيئا ما يمكّنه من تنفيذ ما خطط له ، وهو يدرك تماما أنه ليس عبدالناصر ، لقد كان عبدالناصر يرفض الحلول الجزئية (كما مر بنا فى هذا الكتاب) لأنه قادر على التأثير على الحكام العرب ولأن ما يقوله فى أى وقت لابد أن يكون له صدى وقبول فى الشارع العربى ، بينما السادات قبل الحلول الجزئية لأنه غير قادر ولأن الوضع العربى فى وقته كان سيئا ، وقد لجأ إلى كثير من التلفيق والمراوغة كأن يقول نصحنى صديقى الرئيس الرومانى ولذلك أخرت سنة الحسم التى تحدثت عنها وإلخ .

ويمكن القول أن السادات كأى حاكم أثار الكثير من الغبار فى ميدان السباق ولم يعلق طويلا فى سماء المنطقة ذلك الغبار ، بينما كان جمال عبدالناصر أكبر من حاكم بكل المقاييس ينطبق عليه القول (رجل اتسعت همته لآمال أمته) كما ذكر الأستاذ رشاد كامل فى كتاب صغير الحجم صدر بعنوان (عبدالناصر الذى لا تعرفه) قال :

(فى يوم وليلة دخل جمال عبدالناصر التاريخ _ فى يوم (٢٣ يوليو ١٩٥٢) صار جمال عبدالناصر أسطورة مصرية وعربية وعالمية ، وتصدّر اسمه ورسمه وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، ومنذ ذلك اليوم وتلك الليلة (٢٣ يوليو ١٩٥٢) احتل عبدالناصر مكانته التاريخية والسياسية والأسطورية .

جاء جمال عبدالناصر فى الوقت المناسب تماما ليحوّل أحلام البسطاء والفقراء إلى حقيقة ملموسة ، وفى بساطة شديدة ودقة بالغة استطاع المفكر العربى الكبير ساطع الحصرى أن يلخص جمال عبدالناصر فى هذه الكلمات الموجزة البالغة الدلالة عندما قال (رجل اتسعت همته لآمال أمته..) .

لم يخترع جمال عبدالناصر العدالة الاجتماعية وحق الفقراء والبسطاء فى حياة كريمة فقد نادى بذلك عشرات المفكرين وأصحاب الأقلام قبل ظهور جمال عبدالناصر لكنه وحده حولها من مساحة الحلم إلى واقع التطبيق .

وهكذا فى باقى الأحلام والأمانى التى كانت تراود المصريين ،

ولأن جمال عبدالناصر كان حدثا استثنائيا فى حياة مصر فقد كان الخلاف حوله حادا وحارا أيضا ، وما أكثر الكتب والدراسات والمقالات التى صدرت عن جمال عبدالناصر فى حياته وبعد رحيله ، لكنها نسيت أن ترسم لنا صورة جمال عبدالناصر الآخر ، عبدالناصر الذى لا يعرفه أحد !

باختصار عرفنا عبدالناصر الرئيس ولم نعرف عبدالناصر الإنسان ، عرفنا الزعيم ولم نعرف المريض ، عرفنا القائد ولم نعرف الرياضى ، وكأن معرفة عبدالناصر الآخر عيب وفضيحة لا تجوز !

وطوال سنوات حكم عبدالناصر التى امتدت حوالى ١٨ عاما لم نكن نعرف شيئا عن عبدالناصر الآخر ، بعيدا عن هموم السياسة ومشاغل الحكم ورذالات المنصب ! لم نكن نعرف شيئا عن اهتماماته الفنية والأدبية والرياضية ، كانت مصر قد وزعت اهتماماتها الكروية بين الأهلى والزمالك ، ولم يكن سرا أن أغلب قيادات الجيش كانت تترأس أندية مصر ولم يكن أحد يعرف ، على وجه اليقين ، لمن كان ينحاز عبدالناصر ، الأهلى أم الزمالك ؟

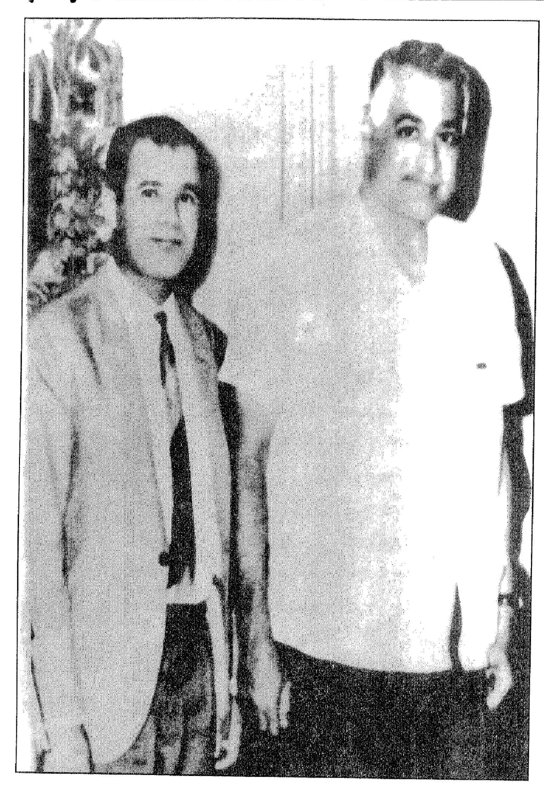
وكنا نعرف عشق عبدالناصر وافتتانه بالفن والسينما ، ولكن لم نعرف أى الأفلام كانت تستهويه أو أى الفنانين كان معجبا بهم ، وسر إعجابه بالسيدة أم كلثوم وانحيازه لعبدالحليم حافظ - أيضا كانت صحة عبدالناصر تدخل فى إطار أسرار الدولة العليا ، فلم نكن نعرف شيئا عن صحة الرجل ، أمراضه ، مم كان يشكو ؟

وهل كان مريضا نموذجيا يسمع كلام أطبائه دون مناقشة ، وكنا ونحن صغار كثيرا ما نسأل أنفسنا ، هل يأكل عبدالناصر نفس أصناف طعامنا ؟ أم كان يأكل أصنافا خاصة ؟وماذا قال وهو يودّع آخر سيجارة ؟!

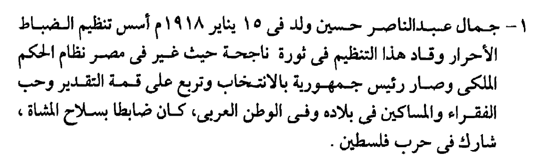
لماذا خاصم عبدالناصر الموضة وكان حريصا على ارتداء البدلة التقليدية ، هل حدث أن رآه أحد وهو يرتدى البيجاما والشبشب ؟ وماذا كان رأيه فى إنشاء حمام سباحة بمنزله ؟

ماذا كان شعور عبدالناصر الأب عندما علم أن ابنه الأكبر خالد ، اعتصم مع طلاب كلية الهندسة عام ١٩٦٨ فى أعقاب أحكام الطيران الشهيرة ؟

وهل صحيح أنه أنشأ جهازا خاصا لرصد النكت التى تطلق عليه ؟ ... إلخ ولقد أبرز الكاتب كثيرًا من التساؤلات التى يرى أنها تهم القارئ وأجاب على الكثير منها وهو ما أوردنا بعضه على صفحات هذا الكتاب .



المؤلف مع الرئيس عبدالناصر



١ - جمال عبدالناصر حسين ولد فى ١٥ يناير ١٩١٨م أسس تنظيم الضباط الأحرار وقاد هذا التنظيم فى ثورة ناجحة حيث غير فى مصر نظام الحكم الملكى وصار رئيس جمهورية بالانتخاب وتربع على قمة التقدير وحب الفقراء والمساكين فى بلاده وفى الوطن العربى، كان ضابطا بسلاح المشاة ، شارك فى حرب فلسطين .

٢ - حسين الشافعى ولد فى سنة ١٩١٨م كان ضابطا بسلاح الفرسان اشترك فى حرب فلسطين ، صار عضوا فى مجلس قيادة الثورة من ٥٢ إلى ٥٦ ثم وزيرا للحربية والبحرية سنة ٥٤ ووزيرا للشئون الاجتماعية من ٥٤ إلى ٦١ فنائبا للرئيس من ٦١ إلى ٦٢ ومن ٦٤ إلى ١٩٧٠ ، توفى فى ٢٠٠٧ .

٣ - عبدالحكيم عامر ولد سنة ١٩١٩م صار فى مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو من ٥٢ إلى ٥٤ اشترك فى حرب فلسطين .

عين قائدا عاما للقوات المسلحة المصرية ٥٣ ونائبا أول لرئيس الجمهورية ونائبا للقائد الأعلى من ٦٤ إلى ٦٧ .

٤ - صلاح سالم ضابط بسلاح الفرسان وعضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٤ وزير الإرشاد القومى وشئون السودان ٥٤ إلى ٥٥ توفى سنة ٦٢ .

٥ - زكريا محيى الدين ولد فى سنة ١٩١٨م عضو مجلس قيادة الثورة من ٥٢ إلى ٥٤ مدير المخابرات العسكرية وزير الداخلية ٥٣ إلى ٦٤ ونائب لرئيس الجمهورية ٦١ إلى ٦٨ .

٦ - جمال سالم ضابط فى الجيش عضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٦ نائب رئيس الوزراء ، توفى فى سنة ٦٨ .

٧ - محمد أنور السادات ولد سنة ١٩١٨م ضابط بسلاح المشاة عضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٦ رئيس الاتحاد القومى ٥٧ إلى ٦١ رئيس مجلس الأمة ٦١

إلى ٦٩ عضـو مجلس الرئاسة ٦٢ إلى ٦٤ نـائبا لرئيس الجمـهورية ٦٩ إلى ٧٠ وتولى رئاسة الجمهورية فى أكتوبر ١٩٧٠م بعد وفاة جمال عبدالناصر ..

٨- عبداللطيف البغدادى ولد فى سنة ١٩١٧م قائد جناح ضابط طيران ٤٨ إلى٥٦ عضو مجـلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٦ اشترك فى حـرب فلسطين وزير حربية ٥٣ إلى ٥٤ نائب رئيس الجمهورية وزير التخطيط ٥٨ إلى ٦٢ ..

٩- ثروت عكاشة ولد فـى سنة ١٩٢١م اشترك فى حـرب فلسطين وزيرا للثقـافة ٥٨ إلى ٦٢ رئيـسا للبنك الأهلى ٦٢ سـفيـرا فى فرنسـا ثم مرة أخـرى وزيرا للثقافة ٧٠ إلى ٧١ .

١٠- على صبرى ولد سنة ١٩٢٠ اشترك فى حرب فلسطين وزيرا لشئون الرئاسة ٥٧ إلى ٥٨ ونفس المنصب أثناء الوحـدة مع سوريا ٥٨ إلى ٦١ رئيس وزراء ٦٤ إلى ٦٥ نائب رئيس الجمهوريـة ٦٥ إلى ٦٧ رئيس الاتحاد الاشتراكى ٦٥ إلى ٦٧ نائب رئيس الجمهورية ٧٠ إلى ٧١ ..

١١- اللواء محمد نجيب ولد فى سنة ١٩١٠م قائد لواء فى حرب فلسطين رئيس مـجلس قيـادة الثـورة ٥٢ إلى ٥٤ قائد عـام القوات المسـلحة المصـرية رئيس الوزراء ٥٢ إلى ٥٤ رئيس الجمهورية ٥٣ إلى ٥٤) (١٣٤) .

محطات تاريخية هامة فى سجل ثورة ٢٣ يوليو ..

(١) ٢٣ يوليو ١٩٥٦ - قاد جمال عبدالناصر الثورة للقضاء على النظام الملكى الوراثى .

(٢) ٩ سبتمبر ١٩٥٢ - إصدار قانون الإصلاح الزراعى وتحرير الفلاح .

(٣) ١٨ يونيو ١٩٥٣ - إعلان الجمهورية فى مصر وانتهاء الحكم الملكى الوراثى .

(٤) ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ - اتفاقية إجلاء القوات البريطانية من مصر بعد استعمار طويل .

(٥) ٢٦ يونيـو ١٩٥٦ - تأميم قناة السـويس وإعادة الحق إلى أهله اى الشـعب المصرى .

---

(١٣٤) كتاب ناصر - تأليف أنتونى ناتنج - ص ١١ .

(٦) ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ - العدوان الثلاثى البريطانى الفرنسى الإسرائيلى وانتصار إرادة الشعب المصرى .

(٧) ٢٢ فبراير ١٩٥٨ - أول وحدة عربية فى التاريخ الحاضر بين مصر وسوريا .

(٨) ٨ يناير ١٩٦٠ - البدء فى مشروع السد العالى والرد على غطرسة أمريكا والغرب .

(٩) ١٩ يوليو ١٩٦١ - إصدار القوانين الاشتراكية لتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الاحتكار والرأسمالية .

(١٠) ٢١ مايو ١٩٦٢ - تقديم الميثاق الوطنى للمناقشة .

(١١) ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ - الثورة اليمنية ونجدة مصر لهذه الثورة الفتية .

(١٢) ٩ - ١٠ يونيو ١٩٦٧ - الهزيمة العسكرية وتقديم عبدالناصر استقالته ثم العودة عنها بسبب الموقف الشعبى المؤيد لبقائه رئيسا للبلاد من أجل إزالة آثار العدوان .

(١٣) ٣٠ مارس ١٩٦٨ - إصدار بيان ٣٠ مارس واعتباره منهجا للعمل المستقبلى .

(١٤) ١٩٧٠ قرار إعادة بناء القوات المسلحة والبدء فى حرب الاستنزاف وزيارة عبدالناصر للاتحاد السوفييتى من أجل الحصول على الدعم والسلاح .

(١٥) ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ - الحادث المؤلم والفجيعة الكبيرة بوفاة جمال عبدالناصر مساء هذا اليوم ، ومن هذا التاريخ دخلت الأمة العربية فى مرحلة جديدة قد تواجه فيها الكثير من المصاعب والخلافات التى لم يكن هناك من يحسمها كما كان يفعل جمال عبدالناصر ..) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة



كتب صدرت للمؤلف ...

1. المسطرة الحاسبة - سنة ١٩٦٦م - أعيد نشره ثلاث مرات .
2. هندسة الراديو والتليفزيون ١٩٦٧م - أعيد نشرة أربع مرات .
3. حرب الشرق الأوسط بين الحقيقة والخيال ١٩٦٧م _ أعيد نشره مرة واحدة .
4. مستقبل التليفزيون الملون ١٩٦٨م - أعيد نشره مرة واحدة .
5. مذكرات جندى فى سيناء ، ترجمة ١٩٦٨م .
6. مولد دولة إفريقية ، ترجمة ١٩٧١م - أعيد نشره مرة واحدة .
7. ثورة الأدغال فى أفريقيا ، ترجمة ١٩٧٨م .
8. وثائق الوحدة لا وثائق أكتوبر تأليف ١٩٧٩م - أعيد نشره مرتين .
9. خرافة الستار الحديدى حول بلاد السوفييت ، تأليف ١٩٨٠م - أعيد نشرة وترجم إلى عدة لغات منها الروسية والدارية والألمانية .
10. نفط الشرق الأوسط وأزمة الطاقة فى العالم ، ترجمة ١٩٨١م - أعيد نشره مرة واحدة .
11. الاتحاد السوفييتى نظرة من الداخل ، تأليف ١٩٨٥م - أعيد نشره وترجم إلى عدة لغات كالإنجليزية والروسية والدارية والألمانية .
12. تاريخ المخابرات الإسرائيلية ، ترجمة ١٩٩٠م .
13. عدوى نفسى ، أسرار الانتفاضة الاولى ، ترجمة ١٩٩٠م - أعيد نشره مرة واحدة .
14. الفقى مصباح مؤذن الفجر ، رواية ، تأليف ١٩٩١م - أعيد نشرها مرة واحدة .
15. مذكرات ذو الفقار على بوتو ، ترجمة ١٩٩٣م - أعيد نشره ثلاث مرات .

16. تدمير العراق بعد ١٣٥ يوما من المبادرات الدولية ، ترجمه ١٩٩٣م .
17. حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربى ، تأليف ١٩٩٣م .
18. قائد معركة القارة ومعارك القبله ، سالم بن عبدالنبى ، تأليف ١٩٩٣م .
19. تاريخ الشعوب الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى سابقا ، ترجمة ١٩٩٩م .
20. الجهاد الوطنى أدب وتاريخ ، تأليف ، ١٩٩٩م _ أعيد نشره مرة واحدة .
21. تاريخ الاسلام والمسلمين فى البوسنا والهرسك ، ترجمة ٢٠٠٠م .
22. قبرص من معاوية إلى أجاويد ، تأليف ٢٠٠٠م _ أعيد نشره وترجم إلى اللغة اليونانية والتركية .
23. مسافر يبحث عن الموت ، جزء أول ، روايه ، تأليف ٢٠٠٠م .
24. ليلة الحلم الطويل رواية ، تأليف ٢٠٠١م .
25. شهداء الكردون العشرة ، تأليف ٢٠٠١م .
26. مسافر يبحث عن الموت ، جزء ثانى ، رواية ، تأليف ٢٠٠٢م .
27. أزمات السودان بين الديموقراطية والديكتاتورية ، تأليف ٢٠٠٣م .
28. الليبيون والثورة الجزائرية ، تأليف ٢٠٠٤م .
29. حجارة من سجيل ، الانتفاضتان ، دروس ونتائج ، تأليف.... ، مخطوط .
30. رحلة فى الصحافة ، ١٩٦٠ - ١٩٩٥م ، مخطوط .
31. جمال عبدالناصر والعرب ، تحت الطبع _ ٢٠٠٨م .
32. إسهامات الليبيين فى النضال الفلسطينى من الحسينى إلى عرفات تأليف ، ٢٠٠٥م .
33. الجهاد الوطنى أدب وتاريخ ، الجزء الثانى ، تأليف ٢٠٠٥م .
34. الفقى مصباح في مستشفى المجانين ، رواية ، جزء ثانى ٢٠٠٥م .
35. انهيار الاتحاد السوفييتى والتغييرات المدوية في العالم - تأليف ٢٠٠٦م.

٣٦ تاريخ أفريقيا السمراء - ترجمة - ٢٠٠٧م .

٣٧ معركة العميان واحدة من معجزات الجهاد الوطنى الليبى - تحت الطبع - ٢٠٠٨م .

مسرحيات :

٣٨ المجد فى أربعة فصول .

٣٩ صخب المدينة فى فصلين .

٤٠ الجشع فى أربعة فصول .

٤١ الرجل الذى لم يفقد الانتماء فى خمسة فصول .

٤٢ وطن في محنة بين مشفق وشامت في أربعة فصول .





المراجع العربية

١ - مذكراتى فى الثقافة والسياسة - د- ثروت عكاشة - الجزء الأول والثانى ..

٢- مذكرات محمود رياض - أ- محمود رياض - الجزء الأول والثانى

٣- كتاب فلسفة الثورة - جمال عبدالناصر ..

٤- الميثاق الوطنى - جمال عبدالناصر ..

٥- قصة ثورة ٢٣ يوليو - أ- أحمد حمروش .. خمسة أجزاء

٦- الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر - أ- ضياء الدين بيبرس ..

٧- مراحل مجهولة من حياة عبدالناصر - أ- إبراهيم علوان ..

٨- صراع فى الكونغو ومولد دولة أفريقية - د- عبدالوهاب الزنتانى ..

٩- تاريخ غرب أفريقيا وتجارة الرقيق - د- عبدالوهاب الزنتانى ..

١٠- عبدالناصر والثورة الأفريقية - أ- محمد فائق ..

١١- عبدالناصر المفترى عليه - أ- حسنين كروم ..

١٢- جمال عبدالناصر رائد التاريخ العربى أ- فوزى عطوى ..

١٣- على صبرى يتكلم - أ - عبدالله إمام ..

١٤- ثورة عبدالناصر ـ أ- شوقى عبدالناصر ..

١٥- لمصر - لا لعبدالناصر - أ - حسنين هيكل ..

١٦- مع عبدالناصر - أ- أمين هويدى ..

١٧- شاهد حق - أ- أحمد طعيمه ..

١٨- سنوات وأيام مع عبدالناصر - أ- سامى شرف ..

١٩- عبدالناصر كيف حكم مصر - أ- عبدالله إمام .

٢٠- ٢٣ يوليو وعبدالناصر - أ - عصام حسونه .

٢١- حرب الثلاث سنوات - فريق أول محمد فوزى . جزءين

٢٢- قالوا فى عبدالناصر - أ- حمدى الكنيسى .

٢٣- ناصر والحملة الظالمة - أ- عبدالله إمام .

٢٤- انقلاب ١٥ مايو - أ- عبدالله إمام .

٢٥- عبدالناصر الذى لا تعرفه - أ- رشاد كامل .

٢٦- كل رجال عبدالناصر - أ- جابر عبدالسلام .

٢٧- تاريخ السودان الحديث - أ- ضرار صالح ضرار .

٢٨- السودان بين الديموقراطية والديكتاتورية - د- عبدالوهاب الزنتانى .

٢٩- مصر والسودان - أ- محسن محمد .

٣٠- الناصرية والإسلام - ندوة - أ- عبدالحليم قنديل .

المراجع الأجنبية

١ – ناصر – أنتونى ناتنج – لغة إنجليزية .

٢ – من حصار الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة – جان دومال – لغة فرنسية .

٣– السادات – ديفيد هيرتس ودارين ميسون .. لغة إنجليزية .

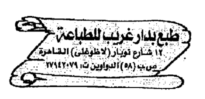
٤ – الصراع من أجل السلام – عزرا وايزمان .

٥ – حياتى – جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل – لغة إنجليزية .

٦ – قصة حياتى – موشى دايان – لغة إنجليزية .

٧ – مذكرات إسحاق رابين – إسحاق رابين – لغة إنجليزية – .


تم بحمد الله


طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩

جمال عبد الناصر رجل العرب

من الميلاد إلى الرحيل

هذا الكتاب

جمال عبد الناصر بطهارته ونظافة يدة وزهده فى متاع الدنيا ، وبعده عن كل نزوات البشر ، من حقه تاريخياً أن يحتل شرف تسميته الخليفة السادس لأنه لم يحدث فى تاريخ العرب من يماثل طهارة عمر بن عبد العزيز غيره.

وجمال عبد الناصر بدوره التاريخى ومنجزاته الكبيرة لم يغب عن ضمير الأمة العربية ولم يغادر وجدان أبنائها الشرفاء حتى بعد وفاته ومرور زمن زاد على ثلاثة عقود .

ولقد كان جمال عبد الناصر فارس هذه الأمة بشهادة كل الرجال م حيث عظمته وتفانيه وإنسانيته مما جعله أبرز قائد عربى ف عصرنا الحالى .

لقد حمل جمال عبد الناصر فى وجدانه وعقله طموحات كل العر وتطلعاتهم وجسدها تجسيداً صادقاً فى كل عمل قام به وكل كل قالها ، وكما يقال فإن بعض الرجال يصنعهم التاريخ والبعض الآ يصنعون التاريخ ، وكان جمال عبد الناصر من صناع التاريخ بجدار

د. عبدالوهاب محمد الزنتاني

